دار الكتب والوثائق القومية

مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الكافي

في

تاريخ مصر القديم والحديث

تأليف

ميخائيل بك شاروبيم

الجزء الخامس

المجلد الاول - القسم الثاني

تحقيق

الدكتور عبد الوهاب بكر



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٩٨

الكافى

في

تاريخ مصر القديم والحديث

لميخائيل بك شاروبيم

دار الكتب والوثائق القومية
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر

الكافى

في

تاريخ مصر القديم والحديث

لميخائيل بك شاروبيم

الجزء الخامس

المجلد الأول — القسم الثانى

تحقيق
الدكتور عبد الوهاب بكر



مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٩٩٨

شاروبيم ، ميخائيل .

الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث / لميخائيل شاروبيم ؛
تحقيق عبد الوهاب بكر . ـ القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية ،
مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ، 1998 ـ

مج 5 ؛ 28 سم .

المحتويات : جـ5 . مج 1ـ القسم الثانى . ـ

تدمك 2 - 0139 - 18 - 977

٩٦٢

الطبعة الأولى بمطبعة دار الكتب

١٩٩٨م

المحتويات

الفصل الخامس

عام ١٨٩٦

حملة دنقلة

ظهور الوباء فى مصر

أزمة نفقات الحملة

معركة فركه (٧ يونيو ١٨٩٦)

قضية الشيخ على يوسف (التلغراف)

معركة الحفير (١٩ سبتمبر ١٨٩٦)

ظهور محمد فريد

عام ١٨٩٦

واستهلت سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف الميلادية الجديدة بيوم الأربعاء خامس عشر رجب الفرد من سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وألف هجرية ، وثالث عشرى كيهك سنة إثنى عشرة وستمائة وألف للشهداء . فاستقبلنا هذا اليوم الجديد بالحفاوة سالين[١] الله سبحانه أن يجعله يوم عيد سعيد ، وفاتحة سنة ميمونة ، وديباجة أيام ببركات الخير والنعماء مقرونة ، وغرة عام بنور السلام والطمأنينة مشرق زاهر موفق باهر إن شاء الله تعالى .

حار الناس فى فهم معنى وقوف جماعة الإنجليز بتلك العساكر المصرية عن تخوم السودان ، وأخذهم الأطراف على أصحاب المهدوية كل هذا الزمان ، وتأففهم بل وخوفهم الملازم من هجمات الدراويش كل قليل من الأيام . بينما يرون أن طة[٢] الأخذ والرد بين الإنجليز ومقدمى أولئك الدراويش على أتم ما يكون من المودة وحسن الظن . فقد تفشى القول بين الناس بأن ثلاثة من الإنجليز ساروا إلى جوف السودان فى خفية ومعهم شيئا من الهداية[٣] والتحف والأعلاق النفيسة ، وفى ركابهم جماعة من الخدم السود . حدثنى كبير من مقدمى العسكر المصرى المتقاعدين قال (إذا كانت البلاد على ما هم يقولون من الفوضة[٤] وذهاب الأمن ووقوف الدراويش بالمنافز[٥] ،وقعودهم بالمراصد ،

---

(١) سالين = سائلين .

(٢) طة = صلة   قراءة اجتهادية .

(٣) الهداية = الهدايا .

(٤) الفوضة = الفوضى .

(٥) بالمنافز = بالمنافذ .

فكيف ذهب أولئك القـوم إلى تلك الديار؟ أهم ذاهبـون للحج أم ذاهبـون لاكتشاف خباياها . وهم أدرى الناس بها قديما وحديثا! لأنهم عرفوها من رجالهم الذين تولوا مناصبها وخططها إلى هذا العهد ، وعرفوها من مقدمى جندهم عند ما عادوا بها[٦] بصفقة المغبون ، ثم عرفوها بعد ذلك من مكاشفات(سلاطين باشا) ورروسينولى ، وكل تشاور[٧] ووارد منها . إذا فما هم ياترى أولئك الراحلون؟ إما أنهم بعثة علمية تكتشف مجاهل فلا[٨] . وإما أنهم ذى[٩] هوس ممن يسمونهم غواة . فلا لأن القواة[١٠]لا يترامون إلى الموت الذى لا ريب فيه إذا عرف امرهم جماعة المهدوية ، إذا فهم سفراء سياسيون سيبلغون عاصمة المهدوية ثم يرجعون مظهرين الخوف والزعر[١١] ومطاردة العدو لهم . والأمر على خلاف ما يظهرون) . قال(وعندى أنه إذا ثاب أصحاب السياسات إلى رشدهم ، عرفوا تلك المعميات وكنه وقوف أولئك القوم الإنجليز كل هذا الزمان عند التخوم) أ•هـ قلت . وما هى إلا أيام بعيد ذلك حتى شاع الخبر بحدوث مناوشة كبرى بين اولئك الدراويش وأصحاب المراصد بالتخوم . وظهرت الحركه بمنازل الجند فى العباسية وقلعة الجبل وقصر النيل . وأرسلوا إلى التخوم طائفة من العساكر على عجل . وجاءت الكتب إلى بعض الناس منبئة بذلك وباى[١٢] لموم الدراويش كثيرة وهم على أهبة واستعداد . قالوا ولعل هذه الحركه فى هذا الآونة موعز بها من طرف خفى . وترامت الظنون إلى المرامى البعيدة . فقالوا إن حركة أولئك القوم السود فى هذه الآونة موعز بها من جانب الإنجليز تشويشا على أصحاب السياسات

---

(٦) بها = منها قراءة ترجيحية .
(٧) تشاور = شارد
(٨) فلا = فلاة قراءة ترجيحية . الفلاة هى المفازة ـ وجمعها (فَلاً)و (الفلوات) مختار الصحاح ـ ص ٢١٤ .
(٩) ذى = ذوى .
(١٠) فلالأن القواة = فلأن الغواة قراءة ترجيحية .
(١١) الزعر = الذعر
(١٢) وباى = وبأن

الأوربية بعد ظهور الحركة فى بلاد الترنسفال(١٣)واندحار وسل رودس(١٤) فى

(١٣) الترنسڤال = Transvaal ــ الأقليم الشمالى القصى Northernmost الغنى بالموارد الطبيعية فى جنوب افريقيا . عاصمته بريتوريا Pertoria وجوهانسبرج Johannesburg هى أكبر مدنه .يعتمد اقتصاده على الزراعة ، الصناعات التحويلية Diversified وتشمل موارده الطبيعيه الذهب . الماس . الفحم ، اليورانيوم ، البلاتينيوم ، والكروميت . وتضم منطقة ويت ووترزراند Witwatersrand أغنى منجم للذهب فى العالم . إستعمرت الترانسڤال التى كان يقطنها أصلا قبائل البانتو Bantu ــ إستعمرت عام ١٨٣٨ بواسطة الأفريكانرز Afrikaners الذى أسسوا جمهورية جنوب أفريقيا عام ١٨٥٦ . ضمت بريطانيا المنطقة إليها عام ١٨٧٧ ، الأمر الذى أدي إلى نزاعات حول سيادة الأفريكانرز وانتهى الأمر إلى قيام حرب جنوب افريقيا(١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) . أصبحت الترنسڤال إقليما من إتحاد جنوب أفريقيا فى عام ١٩١٠ . والأفريكانرز هم شعب جنوب أفريقيا من أصول هولندية أو فرنسية هيجونوتية Huguenot . ويعرف الأفريكانرز بالبوير Boers (وهو أسم مشتق من الكلمة الهولنديه للمزارع) . ولغة الأفريكانرز هى الأفريكانس Afrikaans ، وهى مشتقة من الهولندية وظهرت فى القرن الثامن عشر . كان الأفريكانرز الأوائل رواد هولنديون استقروا (١٦٥٢) فيما يعرف الآن بأقليم الكاب Cape province . وخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر توغل رجال الحدود من المتكلمين بالافريكانس إلى الداخل مقاتلين جيرانهم المتكلمين بلغة البانتو Bantu وكذلك البريطانيين . بعد هزيمتهم فى الحرب الجنوب أفريقية الثانية (١٨٩٩ ــ ١٩٠٢) ضمت الأقاليم الخاصة بهم بواسطة البريطانيين وتشكل اتحاد جنوب افريقيا .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 19.

- pp.,282 - 283. op. cit., Vol. I. p., 178.

(١٤) وسل رودس – سيسل رودس Rhodes, Cecil John (٥ يوليو ١٨٥٣ ــ ٢٦ مارس ١٩٠٢)رجل دولة وإمبريالى بريطانى ساعد على تأسيس الحكم البريطانى فى أفريقية الجنوبية . ذهب إلى أفريقية الجنوبية فى ١٨٧٠ لمرافقة أخيه هربرت Herbert فى مزرعة قطن . ولاحقا ذهب إلى مناجم الماس المكتشف حديثا في كمبرلى Kimberley حيث أصبح ثريا خلال المدة ١٨٧١ ــ ١٨٨٨ . أسس شركة دى بيرز De Beers للتعدين وأصبح فيما بعد يسيطر على ٩٠٪ من إنتاج الماس فى العالم . كما حاز حصة كبيرة فى مناجم الذهب بالترنسڤال وأصبح سياسيا شهيرا . فى عام ١٨٩٠ أصبح رئيسا لوزراء مستعمرة الكاب Cape ، ساعيا للعمل من أجل تفاهم بين البريطانيين والأفريكانرز ولسياسة تضمن لهما المساواه تحت الحكم البريطانى . فى نفس الوقت فإنه استخدم نفوذه وثروته لخلق موضع قدم بريطانى جديد شمال الترنسڤال ، وللتقليل من النفوذ السياسى للأفريكانرز فى أفريقية الجنوبية ، ولتحقيق حلم الإمبراطورية البريطانية (من الكاب إلى القاهرة Cape to Cairo) . فى عام ١٨٨٩ تلقى من الحكومة البريطانية ميثاقا لإقامة شركة جنوب أفريقيا البريطانية ، وهى شركة تجارية ذات سلطات إدارية واسعة . إحتلت الشركة ماشونا لاند Mashonaland فى عام ١٨٩٠ ، وبعد ثلاث سنوات هزمت قواتها مملكة نديبل Nadebele القوية . ومع نهاية القرن كانت شركة رودس تسيطر على مساحة ضخمة تشمل جنوبى روديسيا (زيمبابوى الآن) وشمالى روديسيا (زامبيا الآن) اللتان سميتا باسمه .

فى عام ١٨٩٦ وصلت رأسة رودس لمستعمرة الكاب إلى نهايتها نتيجة لما يسمى بغارة چيمسون Jameson Raid التى سعت فاشلة إلى إسقاط حكومة بول كروجر Paul Kroger الافريكانرية فى الترنسڤال ، ومع هذا فإن رودس استمر يمارس سلطة واسعة فى شئون الروديسيتين ، أوصى رودس بجزء من ثروته لتأسيس منحة رودس Rhodes Scholarships فى جامعة أوكسفورد Oxford .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 16.- p.,202.

حملتهما[١٥] على تلك البلاد ، وسقوط جيمسن[١٦] أسيرا فى أيدى البوير[١٧] أصحاب تلك البلاد ، حتى قام شنبرلين[١٨] وزير المستعمرات الإنجليزية يستعطف كروجر رئيس جمهورية البوير ويستحلفه بالأيمان المغلظة على فك عقاله وإخلاء سبيل من أسروا معه ، بل وأنكر وأقسم الأيمان بأن دولة الإنجليز لم تكن لتعلم بما وقع من جمسن وسل[١٩] رودس من الخروج على حكومة البوير والبنغال معه[٢٠] أو[٢١] أنها تبرأ إلى الله تعالى من كل تبعة من جراء عمل أولئك الخارجين . أقول . وعندى . أن الحقيقة هى كما يقولون . فإنه لما كانت قاعدة سياسة القوم الإنجليز فى التغلب على الأمم الضعيفة واستعمار بلادها هى أن يبدأوا أولا بتأسيس الشركات التجارية والصناعية فيها ، ويرسمون . لمديرى تلك الشركات خطة الوصول إلى فتح البلاد وامتلاكها . وتمد لهم يد المعونة من وراء الستار كلما أنشدوها[٢٢] ، بل تمدهم بمعدات القتال ، وربما

---

(١٥) حملتهما = حملته .

(١٦) چيمسن = چيمسون ، سير ليانلدر ستار Jameson. Sirleander Starr (٩فبراير ١٨٥٣ ــ ٢٦نوفمبر ١٩١٧)منظم ومدير إستعمارى بريطانى . قائد الغارة الكارثة على جمهورية البوير فى الترنسڤال عام ١٨٩٥ . كشفت غارة چيمسون العداوة بين البوير والبريطانيين وأدى هذا إلى الحرب الجنوب أفريقية (١٨٩٩ - ١٩٠٢) . هاجر چيمسون ، الذى كان طبيبا ــ إلى جنوب أفريقيا عام ١٨٧٨ وأصبح صديقا حميما لسيسل رودس ، وفى عام ١٨٩١ تولى منصبه كمنظم ومدير administrator لماشونا لاند Mashonaland ، التى هى جزء الآن من زيمبابوى (روديسيا) . فى ٢٩ ديسمبر ١٨٩٥ قاد چيمسون مجموعة مغيرة إلى الترنسڤال بأمل الإنضمام إلى قوات من الأوربيين الغير بويريين - non Boer الغير راضين عن حكم البوير (يوتلادرز Uitlanders) فى هذه الدولة ، وإسقاط حكومة الرئيس كروجر . سرعان ماقبض على قوة المتطوعين . ورغم أن الغارة لم تكن مقبوله من جانب الحكومة البريطانية ، إلا أن رودس كان متورطا بشكل لا يقبل الجدل وأرغم على الإستقالة كرئيس لوزراء مستعمرة الكاب Cape Colony . برئت ساحة چوزيف تشمبرلين Joseph chamberlain وزير المستعمرات البريطانية من تهمة التورط في القضية ، لكن من المحتمل أنه علم بالمؤامرة . بعد فترة عقوبة بالسجن فى بريطانيا ، خدم چيمسون كرئيس لوزراء مستعمرة الكاب من ١٩٠٤ ــ ١٩٠٨ .

- Lexicon Universal (Encylopedia. Vol. 11.- p,.357

(١٧) أنظر حاشية ١٣ ص ٥٥٥ .

(١٨) شنبرلين = شامبرلين ChmberLain

ــ راجع حاشية ٦٨ ص ٦٤ .

(١٩) جمس وسل = چيمسون وسيسل .

(٢٠) والبنغال معه = استبعدت الكلمتان لعدم إتفاقهما مع السياق .

(٢١) أو = و

(٢٢) انشدوها = نشدوها .

بالمال وتدس إلى صفوفهم المتطوعة والمرتزقة من رجال الحروب ومشيرى القطوب[٢٣] والكروب عند الحاجه كما رأيت ذلك مفصلافى بدء هذا الكتاب . فعلى هذه القاعدة التى أفلحت فيها منذ ابتليت بحب الإستعمار قد رات[٢٤]فى سسل رودين[٢٥]هذا ميلا إلى سياستها ، وشغفا بضم بلاد الزولوس[٢٦] وجمهورية الترنسفال الى سلطنتها فى قارة أفريقيا . وكان (سسل) هذا قد نزح إلى الترنسفال فى طلب الرزق . وقيل فى طلب البرؤ فى[٢٧] علة ذات الصدر التى أنهكته . فأقام بها حينا من الدهر . وقد وفقه السعد إلى العثور على منجم للماس فى ناحية من جبال الترنسفال ، فاستخرجه وألف لذلك شركة من أصحاب السياسة الإنجليزية وكبار دار ندوتها وسائر أمراء البيت المالك .فكبر شأن الرجل وعظم قدره عند رجال الدوله ، وظهر نبله وقد كان مق أواسط القوم ، وقيل من السوقة وأهل المهن الصغيرة . فجعل يدبر[٢٨] على تحقيق أحلامه . ورأى من أصحاب السياسة ميلا إلى رأيه وعونا على بلوغ غايته . فاشتدت عزائمه وكان معه طبيب إسمه جيمسن قد اتخذه طبيبا ورفيقا . فأسره بما فى نفسه وأطلعه على ما فى سره . وظلا يعملان حتى ظنا بلوغ الغاية من الظفر بأولئك القوم البوير ، وقطع شأفتهم ، وضم بلادهم إلى بلاد الزولوس الإنجليزية

(٢٣) ومشيرى القطوب = ومثيرى الخطوب قراءة اجتهادية .

(٢٤) رات = رأت .

(٢٥) سسل رودين = سيسل رودس .

(٢٦) بلاد الزولوس = zulus . الزولو شعب أفريقى ينتمون إلى القطاع الجنوبى من شعب النجونى Nguni الذين استقروا فى جنوبى أفريقيا لقرون سابقة على وصول الأوروبيين – يقيم الزولو بأعداد كبيرة فى الإقليم المعروف الآن باسم إقليم الناتال Natal ، فى جمهورية جنوب افريقيا ، وكانوا فى السابق يتكونون من قبائل عديدة ، كل منها تحت زعامة زعيم مستقل . تاريخيا فإن (زولو) ترمز إلى الإسم العشيرى Clanname ايزيبونجو Isibongo لشاكا Shaka الذى أصبح رئيسا لعشيرته عام ١٨١٦ . أخضع شاكا أعدادا من القبائل ليخلق أمة الزولو القوية خلال بواكير القرن التاسع عشر .

ومنذ ذلك الحين ، وخلال حروب مطولة مع المستوطنين الأوروبيين ، خسر الزولو كثيرا من أراضيهم وثروتهم مع نهاية القرن .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 20.- pp.,381-382.

(٢٧) فى = من .

(٢٨) يدبر = يتدبر قراءة ترجيحية .

جملة . وقد أعدا لذلك العدة الكاملة . فلما كان أوائل شهر يناير من السنة أى سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف ، خرج جيمسن هذا فى جند كثير من المتطوعة والمرتزقة من الإنجليز والزنوج ، أهل بلاد الكفرة يريد الوصول إلى بريتوريا عاصمة الترنسفال ، لقطع شأفة من بها من البيض وتدميرها . فأحس القوم بذلك ، فنادى منادييهم[٢٩] فى الطرق وبين المنازل (الجهاد الجهاد) . وسمعوا صوت النفير من كل صوب وحدب . وهى علامة على اشتداد الخطب عندهم رجالا[٣٠] ونساءاً مدججين بالسلاح ، وهم على أحسن ما يكون من الترتيب والنظام . والتقوا بجيوش جيمسن ، واقتتلوا قتالا عنيفا جدا حتى انتصروا عليهم نصرة مؤزرة ، وسقط جيمسن أسيرا فى قبضتهم ، وقد مزقوا شمل من بقى وأسروا منهم خلقا .وعادوا بالغنائم والأسلاب والأسرى الى بريتوريا ، وأمامهم النساء يغنين بأناشيد النصر . وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فاهتزت له جوانب العواصم الأوربية ، وأرسل إمبرطور الألمان[٣١] يهنئى (كروجر) رئيس تلك الجمهورية بهذا النصر المبين .وأغضب ذلك أصحاب سياسة الإنجليز وقهرهم وقعدوا . وصاح أصحاب صحفهم (يالثارات جيمسن ، يالثارات رايتنا الإنجليزية) . وجعلوا يحضون صاحب سياستهم على تجنيد الجند ، وإعداد المعدات وإرسالها لسحق أولئك القوم البوير . وأرسلت ملكة الإنجليز كتبا بخطها إلى إمبراطور الألمان وقيصر الروس كأنما تستميلهم إلى أن لا يشجعوا أولئك على مقاتلة الإنجليز ، ولا أن يحسنوا لهم معداتهم فى تلك الأطراف . وأخذ صاحب السياسة الإنجليزية من ذلك الحين فى التاهب ، وإعداد الجند لحرب طاحنة مع أرض الترنسفال . وأحس البوير بذلك ، فجمعوا قواتهم وكلهم جنود بواسل لا يباريهم أعظم جندى من جنود الدول الكبرى فى

(٢٩) منادييهم = مناديهم .

(٣٠) رجالا = يخرجوا رجالا قراءة ترجيحية . أضيفت الفاصلة والكلمة ليستقيم المعنى

(٣١) امبراطور الألمان = ويلهلم الثانى Wilhelm (١٨٥٩ - ١٩٤١) ملك بروسيا وإمبرطور المانيا(١٨٨٨ - ١٩١٨) .

استعمال البنادق وإصابة الغرض ، قالوا حتى أحداثهم والمراهقين فى ذراريهم . وظل الحال على هذا التأهب . وكتب صاحب سياسة الإنجليز متتابعة[٣٢] إلى رئيس جمهور[٣٣] البوير باستعطافه واستمالته إلى فك عقال جيمسن ، والرئيس يظهر من مكارم الأخلاق ولين القول ما شدت[٣٤] بفضله الأعداء ، على حين أن الرئيس ورجال دولته قد تحققوا وثبت لهم من الأوراق التى استخلصوها من متاع جيمسن عند أسره أن حملته على البوير كانت كدبرة[٣٥] من الشركة الإنجليزية[٣٦] ، وأن القصد منها الإستيلاء على الترنسفال . وأنه قد كان فى نية تلك الشركة إطلاق طائفة كبيرة من النوج[٣٧] على بلاد الترنسفال لذبح البيض الذين بها وتدمير بريتوريا تدميرا . وقد نشرت صحف جمهورية أوبرنج[٣٨] المجاورة للترنسفال وهى شقيقتها ، ما فى تلك الأوراق ليطلع أصحاب سياسات الدول عليه . فأكبر الإنجليز ذلك وأعظموه جدا . وسعى سفراؤهم لدى الدول فى قلب الحقيقة وتغيير وجه الأخبار .

وتفشى خبر إندحار الإنجليز فى الترنسفال بين العامة فى مصر والقاهرة ففرحوا وهم لا يدرون معنى ذلك . وجعلوا يسخرون بالإنجليز كافة ، حتى لقد كان مساحى الأحذية إذا رأى أحدهم جنديا من المحتلين صاح على مسمع

---

(٣٢) متتابعة = كتبا متتابعة — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٣٣) جمهور = جمهورية .
(٣٤) شدت = شهدت .
(٣٥) كدبرة = مدبرة .
(٣٦) الشركة الإنجليزية = راجع حاشية ١٤ ص ٥٥٥ .
(٣٧) النوج = الزنوج قراءة ترجيحية .
(٣٨) جمهورية اوبرنج = جمهورية أورانج Orange Free State . إقليم فى شرق وسط جنوب أفريقيا — عاصمته بلومفونتين Bloemfontein . إستوطنت المنطقة التى كان يسكنها فى الأصل قبائل البانتو Bantu — إستوطنت بواسطة مزارعى البوير Boer (Afrikaners) فى بواكير القرن التاسع عشر . ضمت المنطقة إلى بريطانيا عام ١٨٤٨ لكنها منحت استقلالها عام ١٨٥٤ . فى عام ١٩٠٠ وخلال حرب جنوب أفريقية (١٨٩٩ — ١٩٠٢) بين الافريكانرز والبريطانيين ، جعلت الدولة الحرة مستعمرة نهر الأورانج Orange River colony التابعة للمملكة المتحدة United Kingdom . فى عام ١٩٠٧ استردت المستعمرة استقلالها وانضمت إلى إتحاد جنوب أفريقيا عام ١٩١٠ .
- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 14.- p..415.

منه يقول(بوير بوير) ، فإذا رآه التفت إليه يريد شتمه قال (بويا .بويا) وهى ما تتظف به الاحزية[٣٩] . وطالت أيام السخرية بجماعة الإنجليز ، فقلقوا وأخذتهم الطيرة وانكمشوا ، فلم تكن لتراهم يغدون ويروحون فى شوارع البلد ومتنزهاتها . ولاذوا إلى الإختفاء حتى قامت الحرب بين عساكرهم والبوير ، واشتدت نارها شدة لم يرها الانجليز فى ماضى حروبهم قط . يقال أنهم جردوا إلى ميدان القتال أربعة أخماس جيوشهم البرية ، وثلثى سفنهم الحربية ، فضلا عن سفن النقل والشوانى الكبار . وسيروا إلى القتال أعظم قوادهم وأشهر رجال الحرب ممن شهدوا المواقع الكبار . ولم يكن يتجاوز عدد المقاتلين من البوير الخمسة وأربعين ألفا كما يقول الإنجليز أنفسهم . فتطاحنوا وعمل أولئك القوم فى العساكر الإنجليزية أعمالا تشيب من هولها النواصى .وظلت الحرب على أشدها سنتين أو يزيد ، والنصر فيها حليف البوير والتوفيق ملازمهم . حتى ضجر الإنجليز وملوا ، وتفشى الزعر[٤٠] بين صفوفهم ، فكانوا يواصلون الليل بالنهار قياما على قدم الحرب أو الدفاع ،وما زالوا أشداء أعزاء كبار النفوس[٤١] حتى دعاهم كتشنر إلى الصلح . وكان صاحب السياسة الإنجليزية قد مهد القياده[٤٢] العامة فى هذه الحرب الشعواء . فلم يجيبوه الى ذلك إلا بعد أن استؤنفوا[٤٣] لأنفسهم وزرائهم ووطنهم من بعدهم . فوضعت الحرب أوزارها . وسافر بوتا[٤٤]

(٣٩) الأحزية = الأحذية .
(٤٠) الزعر = الذعر .
(٤١) المقصود هنا البوير وليس الإنجليز .
(٤٢) مهد القيادة = عهد إليه بالقيادة . قراءة اجتهادية .
(٤٣) استؤنفوا = استأذنوا .
(٤٤) بوتا = لويس بوتا Botha. Louis(٢٧ ديسمبر ١٨٦٢ - ٢٧ اغسطس ١٩١٩) جندى افريكانر Afrikaner وزعيم سياسى تولى أول رئاسة وزارة لاتحاد جنوب افريقيا . تلقى تعليما رسميا بسيطا ثم عمل كمزارع . خلال الحرب الجنوب افريقية (١٨٩٩ - ١٩٠٢) حارب (بوتا) ضد البريطانيين وفى عام ١٩٠٠ تولى قيادة قوات الترنسفال برتبة قائد عام Commandant general . عندما هزمت قوات البوير فى الميدان ـ استدار إلى حرب العصابات guerrilla . قاد وفد الترنسفال إلى مؤتمر السلام الذى عقد فى فيريينجنVereenigen (١٩٠٢) . فى ١٩٠٧ أصبح (بوتا) المعتدل وداعية التصالح الانجلو ـ بويرى Anglo - Boer reconcilliation رئيسا لوزراء الترنسفال وشارك فى المشاورات التى أدت إلي تشكيل اتحاد جنوب أفريقيا ، وفى عام ١٩١٠ أصبح أول رئيس لوزراء ذلك الاتحاد .خلال الحرب العظمى أخمد ثورة موالية للألمان وأرسل (١٩١٥) قوات جنوب أفريقية لإحتلال مستعمرة جنوب غرب افريقية الألمانية(ناميبيا)

- Lexicon Universal Encylopedia. Vol. 3.- p..415.

زعيمهم إلى ديار الإنجليز لتقرير قاعدة الصلح موفدا من جمهور الترنسفال .فأكرم الإنجليز وفادته واحتفلوا به إحتفالا عظيما ، وتسابق الناس من كل صنف ورتبة إلى رؤيته وهتفوا له فى بعض الشوارع رغما عن معارضة أصحاب الحل والعقد . فلبث فى ديارهم أياما ، ثم عاد إلى بريتوريا . وقد تم على يديه ما أراده لقومه ووطنه مما لا محل لإيراده هنا[٤٥] .

كنت أسطر هذا الحادث فى مسورات[٤٦] هذا الجزء من كتابى ، وأنا أرمى إلى غرض واحد ، هو تعريف القارىء أن (سسل رودس) هذا الذى أوقد نار هذه الحرب الطاحنة التى قتل فيها الألوف من صفوة الجنود الإنجليزية ، ونخبة النبلاء من قوادهم وأركان حربهم ، وذهبت فيها الألوف من الذهب النضار جزافا ، كان يقصد من كل هذا الشر المقيم ربط أملاك السلطنة الإنجليزية من القارة الأفريقية من رأس الرجاء الصالح ومادالاها[٤٧]إلى القاهره[٤٨]وجعلها مملكة واحدة تناظر المملكة الهندية . أو تكون بديلا منها إذا قدر الله بأن تفلت ديار الهنود من قبضة الدولة الإنجليزية . كان يريد من كل هذه الخطوب

---

(٤٥) أخل ميخائيل شاروبيم بالكرونولوچى Chronolagy الذى اتخذه قاعدة لكتابه ـ فقد قفز من عام ١٨٩٦ الذى سجل حوادثه بدءا من ص ٢٦٦ من النص ، إلى حرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) فى ص ٢٦٩ استكمالا لحادثة غارة جيمسون التى وقعت عام ١٨٩٥ والتى كان قد أشار إليها فى معرض حديثه عن وقوف القوات الإنجليزية والمصرية على حدود السودان فى أوائل ١٨٩٦ دون تقدم (ص ٢٦٦ - ٢٦٧ من النص) . فقد وقعت الحرب الجنوب أفريقية والمعروفة بحرب البوير بين عامى (١٨٩٩ - ١٩٠٢) ـ وقاد (بوتا) وفد الترنسفال فى مؤتمر السلام الذى أنهى هذه الحرب عام ١٩٠٢ ـ وتولى كتشنر رآسة هيئة أركان حرب فريدريك سلى روبرتس Ferde rick Sleigh Roberts فى حرب البوير عام ١٨٩٩ بعد فوزه فى معركة أم درمان عام ١٨٩٨ ولا يمكن تفسير الخلط عند شاروبيم إلا بالقول بأن الجزء الخامس من (الكافى) الذى نحن بصدده قد كتب بعد هذه الأحداث ـ أى بعد عام ١٩٠٢ .

(٤٦) مسورات = مسودات .

(٤٧) ومادالاها = وما تلاها قراءة اجتهادية .

(٤٨) يسمى هذا المشروع Cape to Cairo ـ وهو أحد الأحلام الإمبريالية التى كان سيسل رودس يفكر فى تحقيقها عن طريق ربط مستعمرة الكاب فى جنوب أفريقيا بالقاهرة من خلال خط حديدى .
ـ راجع حاشية ١٤ ص ٥٥٥ .

المدلهمة إنشاء خطوط السكك الحديدية والأسلاك التلغرافية من رأس الرجا إلى القاهرة . حتى إذا قامت جندوهم[٤٩] من رأس الرجا وسارت إلى القاهرة جنودهم لا يلاقون فى طريقهم مزاحم . وقد تم لدولته ما أراد كما سيتلى عليك بيانه فى محله إن شاء الله . كنت اسطر هذا جانى[٥٠] صديق ممن كانوا معى فى خدمة القضاء زائرا ، فنظر إلى مسودتى وقال (يرحمك الله ما لحوادث أولئك القوم وأخبار مصر ، وأى علاقة بين الأمتين تستلزم كل هذا الإسهاب) . فقلت والله ما حدى[٥١] بى إلى هذا القول الخارج عما نحن بصدده إلا ما قرأته فى صحف القوم الإنجليز من قيام سسل رودس على قدم الحض والترغيب لأصحاب السياسة الإنجليزية فى ضم جمهوريتى أوبرنج[٥٢] والترنسفال إلى مملكتهم الإفريقية ، وجعلهما مفتاح طريقهم من رأس الرجاء إلى مدينة القاهرة . هذا الرجل إبتلى بحب الإستعمار كسائر أصحاب الأموال من الإنجليز ، ولكنه يتميز عنهم بقوة الإرادة وإتباع القول بالفعل ، والمثابرة حتى بلوغ الغاية . فاستمال إليه نفرا من أصحاب الأموال وحببهم فى مذهبه ، فمالوا إليه وعضدوه .فلما استوثق منهم عمد إلى أصحاب صحفهم فأجزل لهم العطاء واستمالهم إلى قوله فمالوا ، وكتبوا الفصول الطوال فى مدح الرجل وإطراء مذهبه ، واستفزوا كبار الدولة إلى الإسراع لكسب فخر هذا الفتح الميمون والغنم الميسور . وما زالوا معه على هذا حتى عمل أصحاب السياسة برأيهم وأخذوا بقولهم ، وهم بين إقدام وإحجام حتى لا تبته[٥٣] الخصوم . وسيروا إلى

---

(٤٩) جندوهم = جنودهم .

(٥٠) جانى = عندما جاءنى .

(٥١) حدى = حدا .

(٥٢) اوبرنج = أورانج .

(٥٣) تبته = تتنبه قراءة ترجيحية .

رأس الرجاء كبيرا من رجالهم هو لورد ملنر(٥٤) ألذى كان وكيل الخزينة المصرية علـى عـهـد الخـديوى توفـيـق باشـا ،فلم يسـتقـر به المقـام حـتى قـامت تلك الحرب واشـتد على جنودهم البلاء والكرب من ورائها ما لاقصد لنا من إيراده هنا . فقال (صدقت فقد سمعنا الرجل منذ استتب قدم الإحتلال فى هذه الديار ينادى قـومـه وأصحـاب الحل والعـقـد منهم بهـيـا إلى إكـتـسـاح تينك الجمهوريتين وضمهما الى سلطنتهم الإفريقية المنوى على تأسيسها من رأس الرجاء الى القاهرة . وسمعنا أصحاب صحفهم يهونون الفتح ويخففون النفقة ويبشرون بالظفر والهناء المقيم ، وسمعنا أصحاب الأموال الذين هم مفاتيح كنوز جميع المستعمرات البريطانية ينادون (بحى على الفلاح) هيا(٥٥)الله أصحاب العمل الناجح) . كل هذا سمعناه ونحن متوقعون هذا البلاء العظيم . ولكن قل لى بحقك ألا تعرف شيئا من حياة أولئك الأبطال الصناديد المتفانين فى حب إستقلالهم المشتغلين فى الغرور(٥٦)عن ذمارهم حتى لا يعجب قارىء كتاب منيت(٥٧)القوم وأسباب هجرتهم إلى تلك القارة السوداء . قلت أللهم نعم .

---

(٥٤) ملنر = الفيسكونت الفردملنر Milner. Alferd Milner. Viscount (٢٣ مارس ١٨٥٤ ـ ١٣ مايو ١٩٢٥) . حاكم استعمارى بريطانى اشتهر لدوره فى الأحداث المحيطة بحرب البوير (١٨٩٩ - ١٩٠٢) . إلتحق بجامعة أوكسفورد قبل أن يبدء مهنته كمحام وصحفى . تولى ظيفة وكيل وزارة المالية المصرية (١٨٩٠ ـ ١٨٩٢) ، ثم عين كمندوب سام لجنوب افريقيا (١٨٩٧) . ادى موقفه المتصلب فى التفاوض مع الرئيس بول كورجر رئيس جمهوريات البوير إلى قيام الحرب الجنوب افريقيه (١٨٩٩ - ١٩٠٢) . ظل ملنر فى جنوب أفريقيا حتى ١٩٠٥ ليوجه إعادة البناء السياسى والاقتصادى للترنسفال ودولة اورانج الحرة Orange free state .أصبح فيسكونت عام ١٩٠٢ . أثناء الحرب العظمى أصبح عضوا فى حكومة الحرب البريطانية (١٩١٦) ، وكوزير للحربية (١٩١٨) لعب ملنر دورا متميزا فى توجيه المجهود الحربى البريطانى . أرسل إلى مصر فى اعقاب ثورة ١٩١٩ رئيسا للجنة تقصى الحقائق المعروفة (بلجنة ملنر) . وتملأ تقارير لجنته هذه صناديق عديدة فى الغرفة 131 بمكتبة البودليان Bodleian الشهيرة بأوكسفورد بإنجلترا . كتب England in Egypt (١٨٩٢) ونشرت مجموعة محققة من أوراقه عام ١٩٣١ ـ ١٩٣٣ .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 13.- p.,431.

(٥٥) هيا = حيا .

(٥٦) الغرور = الذود .

(٥٧) يعجب قارئ كتاب منيت = يجهل قارئ كتابك منبت قراءة اجتهادية .

إعلم أن البويرس هم سلالة قوم هولانديين واحدهم بوير ومعناه فلاح . إستوطنوا رأس الرجاء الصالح سنة إحدى وخمسين وستمائة وألف للميلاد قبل أن تفتحه العساكر الإنجليزية . فلما كثرت ذراريهم وعمروا الأرض نزح إليهم بعض سكان فرنسا الجنوبية سنة سبعين وستمائة وألف إلى سنة خمسة وثمانين وستمائة وألف . ولما ظهرت براءت نانت(٥٨) المشهورة رحل كثيرون من الفرنسيس البروتستانت إلى تلك الناحية الإفريقية أيضا ، واختلطوا بالبويرس هم وبنوا(٥٩) وطنهم الأولين وعلموهم زراعة الكرم والزيتون . ونقلوا الى لغتهم الهولاندية السقيمة بعض كليمات إفرنسية كاسم جوبيز . مثلا . وهو إسم القائد العام لجيوش الترنسفال الآن . وكان كل بوير أو فلاح فى ذلك الزمان يزرع ما يقدر على زرعه فى أرض الله الواسعة ويأكل غلتها . وقد امتاز ذلك الجيل من الناس بعيشة وعادات وأخلاق خاصة لهم وحدهم ، فأصبح لهم بذلك شأن فى تاريخ الشعوب والقبائل والعشائر منذ سنة تسعة وتسعين وستمائة وألف ميلادية ، واشتهروا فى ذلك التاريخ بأنهم شعب ولوع

---

(٥٨) براءت نانت = براءة نانت ـ مرسوم نانت Edictof Nantes ـ مرسوم أقر التسامح القانونى للكالفينية فى فرنسا الكاثوليكية ـ منح من قبل الملك هنرى الرابع فى ١٣ ابريل ١٥٩٨ . خرج هذا المرسوم من المساومات الحادة مع الهيجونوت (Huguenots) الكالفينين (Calvinists) وحدد معالم نهاية الحروب الدينية . أعلن المرسوم حرية العقيدة والمساواة فى الحقوق القانونية والتعليمية . سمح المرسوم للبروتستانت الفرنسيين أن يتولوا وظائف الحكومة ووفر محاكم خاصة لتقضى فى المنازعات بين العقائد ، أعطى البروتستانت السيطرة على قلاع مدينية Fortress towns معينة مثل لاروشيل Larochelle ، التى كانت مرتبات حامياتها تدفع من قبل التاج . سمح بالعبادة البروتستانتية العلنية فى هذه القلاع ومدن أخرى ، وكان يمكن عقد المجامع الكنسية الكالفينية Synods بموافقة ملكية .

عدل الكاردينال ريشيليو Richelieu هذا المرسوم فى صلح أليز Alés الذى أعقب ثلاثة ثورات هيجونوتية ، ففقد الهيجونوت حقوقهم فى الدفاع المسلح عن النفس . فى ١٨ اكتوبر ١٦٨٥ سحب لويس الرابع عشر المرسوم وأعلن فرنسا كاثوليكية كلية .

ـ هربرت فيشر (أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الاوروبية إلى الثورة الفرنسية) نقله إلى العربية زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦١ ـ ص ١٨٣ ـ ١٩٧ .

- Lexicon Universal Encylopedia. Vol. 14.- p.,13

(٥٩)بنوا = بنو

بالإستقلال ميال إلى الحرية يمتازعن الهولاندى الصميم بحرارة دمه وغاده[٦٠] وثبات جأشه .فترى البوير فى بلاده نشيطا يركب جواده ويحمل برودته[٦١] ويضرب فى أراضيه مسيطرا على غنيمه[٦٢] . ويسير ثلاثة أيام ليصل من مزرعة إلى أخرى .فمعيشته من هذا الوجه أشبه بمعيشة القبائل الرحل . وظل على هذه الحال إلى سنة سبعة وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية حين بدأ يجاهد فى سبيل الإستقلال ، ولا زال إلى الآن يكافح ويقاتل ويركب متن الخطوب شأن الحر الذى لا يصبر على الضيم .

فلما إحتل الإنجليز رأس الرجاء الصالح فى أوائل القرن التاسع عشر ، وضعوا نير ظلمهم على رقاب أهله ، واشتدوا عليهم شدة[٦٣] المعروفة . فلم يطق البويرس الصبر على ذلك ، وثاروا وقامت قيامتهم . ثم لم يلبثوا أن شدوا الرحال ونزحوا مع نسائهم وذراريهم وأغنامهم وكلابهم ولسان حالهم ينشد قول الشاعر .

ولا نقيم على ذل يراد به إلا الأزلان عبر الحى والوتد

فهجروا إلى ناحية الشمال ونزلوا ببلاد (ناتال)واستوطنوها . ثم أسسوا ولاية ادبرنج[٦٤] الحرة . ثم إستوطنوا الترنسفال وبقوا فيها إلى يومنا هذا الذى نحن فيه .فلم يعجب الإنجليز ذلك وخافوا جوارهم . فأجهزوا على الرأس[٦٥] الرجاء حتى استخلصوها جميعها فى سنة خمس وعشرين وثمنمائة وألف . ومالوا على ناتال فضموها إلى أملاكهم فى سنة ثلاث وأربعين وثمنمائة وألف . واستخلصوا أيضا ولاية ادرنج[٦٦] حوالى سنة ثمانية وأربعين . فأكبر البويرس

(٦٠) وغاده = وغيرته قراءة ترجيحية .
(٦١) برودته = بارودته أى بندقيته .
(٦٢) غنيمه =غنمه .
(٦٣) شدة = شدتهم .
(٦٤) ادبرنج = أورانج .
(٦٥) الراس = رأس .
(٦٦) ادرنج = أورانج .

فعال الإنجليز واشتد بغضهم لكل الإنجليز . واتفق أن نبغ بينهم نابغة إسمه برتيورلوس[٦٧] فالتفوا حوله وولوه زعامتهم . فعبر بهم نهر الغال[٦٨] وأسس مدينة سماها برتوريا[٦٩] باسمه وهى عاصمة الترنسفال اليوم . فاستوطنوها آمنين متمتعين بنعمة الحرية والإستقلال . وكانت الحضارة تتبعهم أين ساروا وأيان حلوا ، حتى أصبحت بلادهم فى ولاية الترنسفال أشبه بجزيرة صغيرة تحيط بها الأملاك الإنجليزية والمستعمرات التى تحت حماية الراية الإنجليزية . ومع ذلك فقد أقرت دولة الانجليز لهم بالحرية والإستقلال فى سنة أربع وخمسين . ولكن لم يمض على ذلك إلا سنة أو بعض السنة حتى عاد الإنجليز إلى معاكستهم والتضييق عليهم ، حتى أكرهوهم على الإنضمام إلى الأملاك البريطانية . وكانت قبايل الزولوس الذين هم الكفرة قد هبطت عليهم وأقلقتهم بغاراتها الشعواء المتتابعه.. فلم يروا بدا من أن يوكلوا شؤونهم إلى دولة الإنجليز ،فحاربت الزولوس عنهم فى سنة تسع وسبعين حربا إمتنعوا من مساعدتها عليهم .وما زالت الحرب على ساق حتى إنكسر الزولوس وتمزق شملهم .فالتفتت دولة الإنجليز إلى البويرس تريد تدويخهم وضم بلادهم إلى أملاكها مقابلة[٧٠] دفاعها عنهم فلم تفلح ، إذ هرب البويرس من أمام وجهها

(٦٧) برتيورلوس = بريتوريوس ، مارتينوس ويسل Pretorius, Marthinus, Wessel (١٧ سبتمبر ١٨١٩ ـ ١٨ مايو ١٩٠١) ـ زعيم بويرى Afrikaner وأول رئيس (١٨٥٧) لجمهورية جنوب أفريقيا (الترنسڤال) . إبن اندرياس بريتوريوس Pretorius, Andries ـ الذى خلفه عام (١٨٥٣) كقائد عام فى الترنسڤال ، كدح من أجل تأسيس حكومة مركزية فى الترنسڤال توحد كل البوير تحت علم واحد . أسس (١٨٥٥) مدينة بريتوريا Pretoria وسن دستورا مصمم ليضمن حكومة مركزية فى بلاد لا تزال نصف فوضوية Semianarchic . فى عام ١٨٥٧ انتخب رئيسا . وبعد ذلك بعامين أصبح أيضا رئيسا لدولة أورانج الحرة Orange Free State لكنه فشل فى محاولته توحيد دولتين متجاورتين ـ استقال من رأسه دولة أورانج الحرة عام ١٨٦٣ وأرغم على ترك رآسته للترنسڤال عام ١٨٧١ .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 15 - p..534.

(٦٨) الغال = الڤال Vaal نهر فى جنوب أفريقية ، رافد tributary لنهر أورانچ Orange river . يشكل نهر الڤال ونهر كاليدون Caledon الرافدين الكبيرين لنهر أورانچ .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 18 - p..79.

(٦٩) برتوريا = بريتوريا Pretoria

(٧٠) مقابلة = مقابل .

وهاموا على وجوههم حبا فى الإستقلال ونزوعا إلى الحريه ـ فلما كانت سنة ثمانين وثمنمائة وألف ميلادية ثاروا الثورة الأخيرة ، وأنشأوا حكومة مؤقتة وطردوا الإنجليز من ديارهم واستقلوا ، فلم تر دولة الإنجليز بدا من الإعتراف لهم بالإستقلال ، ولم تقدر إلا أن تحفظ لنفسها حق السيطرة على أرضهم . فلم يبق لها منفذ إلا من ناحية خليج (ويلاكوا) لأن الأملاك الإنجليزية كانت قد أحاطت بها إحاطة السوار بالمعصم . وكان قد كثر ورود الأجانب إلى بلادهم طمعا فى الغناء والكسب من معادن الترنسفال القيمة التى إكتشفت أخيرا ، فضاق البويرس ورغائبهم ، وجعلت العداوة تظهر بين الفريقين . وبدت أشارت[٧١] البعض بسبب المزاحمة والمنافسة والإحتكاك المدنى . لا سيما وقد بلغ عدد أولئك الدخلاء المزاحمين ثلاثة أضعاف البويرس ، ولأن الإنجليز منهم على الخصوص قاموا يطلبون حقوقا وامتيازات أبتها عليهم حكومة البويرس . فعند ذلك إجتاز جيمس[٧٢] حدود الترنسفال وأغار غارته المعلومه بمعاونة سسل برودس[٧٣] كما تقدم بيان ذلك .أما عدد هؤلاء القوم فيبلغ ثلاثة مئة ألف[٧٤] .ولهم ثلاثين ألف من الغنم ، وهم لا يبغون إلا الحرية ، ولهم جيش باسل قوى متفانى فى الذب على[٧٥]وطنه ومسقط رأسه وسكنه . هذا فاعترت[٧٦] عليه من تاريخ أولئك القوم والله أعلم .فقال أصبت والله ، إن قوما هذه حالهم لجديرون بكل مدح وثناء . ومع هذا كله فإننا نقرأ صحف الإنجليز ونسمع نعيق خطأهم[٧٧] يقولون للناس أقوالا سمجة لا يقبلها العقل وينعتون

---

(٧١) اشارت = اشارات .

(٧٢) جيمس = چيمسون ـ سيرلياندر ستار چيمسون .
ـ راجع حاشية ١٦ ص ٥٥٦ .

(٧٣) برودس = رودس Rhodes .

(٧٤) ثلاثة مئة الف = ثلاث مائة ألف .

(٧٥) على = عن .

(٧٦) فاعترت = ماعثرت قراءة ترجيحية .

(٧٧) خطأهم = خطبائهم قراءة ترجيحية .

أولئك الأبطال بنعوت تخرجهم من طور الآدمية إلى طور الحيوانية ، تغريرا بالناس وحطا من كرامة أولئك الأحرار المتفانين فى حب أوطانهم . فقلت لقد ذكرنى[٧٨] بفكاهة قرأتها فى إحدى صحفهم المنزهة عن الغرض لا بأس بها . فانها تدل على مبلغ علمهم ببغض الناس لهم ، وكرههم لأنتيتهم[٧٩] وغطرستهم . ذلك أنه قامت فى هذه الأيام قيامة الأخذ والرد بين أصحاب صحفهم بعض[٨٠] كبار كتابهم بخصوص هذا السؤال . وهو . لماذا الإنجليز غير محبوبين . فانهالت على صاحب الصحيفة التى نشرت هذا السؤال الأجوبة والآراء من كل صوب وحدب ، وكلها مخالفة متضاربة . فقال واحد . إننا نحن الإنجليز غير محبوبين لأننا أغنياء أقوياء وناجحون . وقال آخر فرنسوى إنكم أيها الإنجليز غير محبوبين لأن صحفكم وأصحاب سياستكم يقولون لنا أمورا سمجة غير مقبولة . وقال غيره إنكم مكرهون[٨١]لأن الناس طرا محسودين منكم ، وهم لذلك أعداء لكم . قال صاحب السؤال . وإن هنالك شيئا من[٨٢] كل ما قيل فى هذا الشأن .ولكن الشيء الحقيقى الذى يبعث النفار فى قلوب الناس منا نحن معشر الإنجليز هو أنهم يزنون أفعالهم بميزان ويزنون أعمال الغير بميزان آخر . وأنهم يمقتون كل شيء ليس إنجليزيا ـ ويزدرون به ، ولأنهم حينما يستولون على أرض سواء فى افريقية أو آسيا يظنون أنهم يملكونها ، ليس لأنهم يطمحون إلى إمتلاكها بل لأنهم مبعوثون من الله لضمها إلى أملاكهم ،حبا فى الإنسانيه وخيرها . فتأمل .

ولما كان يوم الجمعة رابع عشر فبراير من السنة أى سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية ، وسابع أمشير سنة إثنى عشرة وستمائة وألف

(٧٨) ذكرنى = ذكرتنى قراءة ترجيحية .
(٧٩) لانتيتهم = لأنانيتهم .
(٨٠) بعض = وبعض .
(٨١) مكرهون = مكروهون .
(٨٢) شيئا من = شيئا من الحقيقة فى أضيفت الكلمتان ليستقيم المعنى

للشهداء ، أطلقت المدافع من قلعة الجبل وميدان العباسية إيذانا برؤيا شهر الصوم . فطاف المبشرون على بيوت الأمراء والكبراء يبشرونهم كالعادة المألوفة عندهم ، وجلس الأمير بقصر الإمارة بعابدين للقاء المهنئين . فلم تكن الساعة التاسعة من مساء اليوم حتى أقبل المهنئون من كل رتبة وصنف فدخلوا عليه وهنأوه . وظل وهو يقابل الناس حتى الحادية عشرة ، ثم ركب فى موكبه وسار إلى قصر القبة . وأصبحوا وهم صائمون أوهم متظاهرون إلا من هداه الله وعصمه بعصمته . وكانت أخبار حدود السودان الشرقية إلى هذا الحين في غاية التشويش والخلط والأنباء متتابعة بحرج موقف الإيطاليين فى ذلك التخوم وتتابع هجمات حباش[٨٣]على حصورة[٨٤] ومتاريس الإيطاليان حتى أخذوا منهم (أنبالاكى[٨٥]) بعد موقعة شديدة راحت فيها دماء الإيطاليان هدرا . وقاتلوهم أيضا على(اليكا) حتى أيسلموهم[٨٦] عنها خاسرين . قالوا وقد كان (الرأس سيبات) والرأس (بوغوس) موالين فى الشر إلى الايطاليان ومتحابين إلى الجنرال(براتييرى) . وكان ولاءهما مطمنا[٨٧] للعساكر الإيطالية ومقدميهم .فما هى إلا شهور حتى إنتقضا وانقلبا على (باراتيرى) ومن معه ، واشتدا عليهم شدة بالغة . فأثر إنتقاضهما تأثيرا شديدا فى سائر أنحاء المستعمرة الإيطالية .ويقال أن الإيطاليان يستدلون من ذلك على أن الأحباش واثقون من النصروأن نجم سعد الإيطاليان٥٦٩ ٥٧٠شرآ فى الأفول والمحاق يوما عن يوم . وقد إطلعت على كتابين أحدهما محرر من الرأس منغاشيا[٨٨] إلى النجاشى[٨٩] منليك ، والثانى من النجاشى إلى صديق له من الفرنسيس . وكلاهما يتضمن

---

(٨٣) هجمات احباش = هجمات الأحباش .

(٨٤) حصورة = حصون قراءة ترجيحية .

(٨٥) انبالاكى = أمبا ألاجى .
راجع حاشية ٤٣٧ ص ٥٣٩ .

(٨٦) ايسلموهم = أجلوهم قراءة ترجيحية .

(٨٧) مطمنا = مطمأنا .

(٨٨) منغاشيا = منجشا .

(٨٩) النجاشى = اللقب الرسمى لإمبراطور أثيوبيا négus أو negous ـ واللقب كاملا negus negusti أى ملك الملوك ـ ويسميه شارويم فى كثير من المناسبات (النجوسى) .

- Larousse Universel, op. cit.,- p.,353.

الخبر بانتصار الجيوش الحبشية على جماعة الإيطاليان . إذ كتب منغاشيا إلى النجاشى يقول :

من الرأس منغـاشـيـا إلى المـصطفى من الله منليك الثـانى ملك ملوك الحبشة ، ليحفظك مخلص العالم ويمتعك بالصحة . عبدك الرأس منغاشيا ينحنى أمامك إجلالا .

مولاى إننا لم نكن نفكر فى معركة ، ولكن بينما كان أحد قوادى ذاهبا إلى المراكز التى عينتها لنا ، لقيه الإيطاليون ونشب القتال فظفرنا بنعمة الله وبسعد طالع منليك ، ولجأ الإيطاليون إلى(أمبلاكى) قلعتنا القديمة التى إستولوا عليها فى غيابنا . ولكنهم لم يستطيعوا أن يحموا بمدافعهم ما كان آباؤنا الأولون يحمونه بالحجارة ، فذبحناهم كلهم بعون العناية الصمدانية الساهرة على تاجك المبارك . وهكذا فإن نجم سعدك أيها المولى الكريم يفعل اليوم ما لم يستطيع آخر أن يفعله . ونحن الآن منتظرين أوامرك فليحرسك الله ويحفظك . كتب فى(ألاكى) فى غـرة تحـسـاس[٩٠] من سنة ثمـان وثمـانين وثمنمـائة وألف

(٩٠) تستعمل اثيوبيا وحدها تقويما يتألف من ١٣ شهرا . تبدأ السنة الاثيوبية فى ١١ سبتمبر إلا فى السنوات التى تسبق السنة الكبيسة فتبدأ فى ١٢ سبتمبر . وكل أشهر السنة الأثيوبية ٣٠ يوما عدا الشهر الثالث عشر فإنه خمسة أيام فقط (وفى السنة الكبيسة يكون ٦ أيام) ـ والتقويم الأثيوبى قديم للغاية ويحتمل أن قدماء المصريين هم الذين استنبطوه واعتمدوا عليه ثم زال بزوال الأمم التى كانت تستعمله ـ لكنه بقى على حاله عند الأثيوبيين

وأشهر السنة الأثيوبية كالآتى :

مسكرم	يقابل ١١ سبتمبر	ميازيا	ويقابـل أبريل
طقمت	ويقابل اكتوبر	جنبوت	ويقابـل مايو
حدار	ويقابل نوفمبر	سنى	ويقابـل يونيو
تحساس	ويقابل ديسمبر	هملى	ويقابـل يوليو
طر	ويقابل يناير	نهاست	ويقابل أغسطس
يكاتيت	ويقابل فبراير		
مجابيت	ويقابل مارس		

ـ أما الشهر الثالث عشر فهو باجومى ويقابل الفرق بين أغسطس وسبتمبر فى أيام عددها خمسة
ـ الهلال ـ الجزء الخامس ـ السنة ٤٤ ـ أول مارس ١٩٣٩ ـ ص ٥٩١ ـ ٥٩٢ .
ـ أما أشهر السنة الأثيوبية فمصدرها الدكتور/ عبد المنصف مجدى بكر ـ أستاذ اللغة التركية ورئيس قسم اللغات الشرقية ـ بكلية الألسن
ـ جامعة عين شمس ـ فله الشكر الجزيل .

المباركة . فلما وصل منليك خطاب منغاشيا فرح فرحا عظيما وكتب إلى صديق له من الفرنسيس يقول .إنتصر الأسد الجارح من صلب يهوذا . نحن منليك الثانى بنعمة الله ملك ملوك الحبشة إلى المسيو فلان .كيف حالك أيها الصديق .أما أنا فإنى بنعمة الله على أحسن حال مع جيوشى ، وقد عبر على زمان طويل وأنا أسير سيرا بطيئا إن لم أكن قد ضقت ذرعا بتعدى أولئك القوم الإيطاليين على رعاياى الأمناء ، وحملهم على نكث عهدى وخيانة وطنهم بإعطائهم الأموال رشوة . ولكن لما رأيت أن الصبر ليس بنافع وأن أولئك الآعداء لم يقلعوا عن غيهم ، ولم يأتهم نصح جميل وأطمعهم سكوتى فظنوه خوفا وجبنا ، زحفت إلى (أشياتكى) فأتوا ليباغتونى فيها . ولكن طلايعهم تراجعت إلى الوراء قبل أن يصل قواد جيوشى الذين أرسلتهم ليقاتلوهم واحتلوا مضيق(الاكى) ، فعسكرت طائع[٩١] الرأس منغاشيا فى(إيبا) . وعندما علم الإيطاليون بذلك جعلوا يطلقون بنارهم عن بعد ، فأضرم عساكرنا فى الحال نار القتال . وكان ذلك فى ذلك فى ثامن عشرى حيداد[٩٢] . فمنحهم الله أكتاف الإيطاليين فهزموهم شر هزينة[٩٣] ، وانتصروا عليهم نصرة مؤزرة وقتلوا منهم ثمانية من الضباط بينهم (الماجور توزيلى) . وجاء القائد (كاليانو)يومئذ لنجدتهم فلم يفلح ، وأسر أربعة من قوادهم .ولما لم يقدر على نجدتهم إرتد هاربا بمن معه إلى (مكاله) فتبعه عساكرنا الظافرة فهربوا إلى (مكاله) . فتبعتهم جيوشنا إلى هناك وضايقتهم ، ثم إستولت عساكرنا على (انتالو) دون عراك يذكر ، وغنمنا بنادق وذخائر كثيرة ومدفعين فى هذه الواقعة . ونحن ولله الحمد والمنة فرحون مسرورون . فأبلغ هذه الأخبار إلى أصدقائنا كلهم ليسروا ويبتهجوا معنا .والحمد لله وإياه نسأل أن يديم معونته لنا أ٠هـ وأنشر[٩٤] خبر ذلك في

---

(٩١) طائع = طلائع .
(٩٢) حيداد = حدار أو هدار ـ شهرأثيوبى يقابل نوفمبر فى التقويم الميلادى ـ راجع حاشية ٩٠ ص ٥٧٠ .
(٩٣) هزينة = هزيمة .
(٩٤) وانشر = وانتشر .

مـدينة رومـا عـاصـمـة الإيطاليـان فـهـاج الناس ومـاجـوا وطيـروا الخـبـر إلى الآفـاق .فـاشـتـد هرج القـوم وكـشـرت إجـتـمـاعـتـهم[٩٥] ، فـقـام بينهم الخطباء والفصحاء يقبحون صنع رجال دولتهم ، وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور على السنيور كريسبى صاحب السياسة الإيطالية ، أو هو صنيعة الإنجليز كما كان يسمونه . وطاف أهل مدينة نابولى وهى العمالة الكبرى فى إيطاليا يحملون الرايات الحمراء وهم يصيحون بأعلى أصواتهم (فليسقط كريسبى ، فليسقط صنيعة الإنجليز) . وتحقق أن الرجل لما رأى أن منصبه على شفا جرف الزوال أراد أن يعززه بالإنتصار على جماعة الحبشان ، فأوعز إلى قائد الجيوش الإيطالية بأن يضرب أولئك القوم السمر ضربة لا يكون من ورائها ضربة أخرى . ولم يكن أحد من رجال الدولة يعلم بخبر ذلك .فأزعن[٩٦] القائد وزحف بجيوشه يريد أخذ منغاشيا وجنوده على غرة ، فوقع فى مخالب العطب وتمزق شمل جنوده كل ممزق . وقد تركوا سلاحهم ومتاعهم ومدافعهم . قالوا وقد قدروا خسائرهم إلى[٩٧] هاته الواقعة بمائة وخمسين ضابطا من جملتهم الجنرالان (دابور جدا) (والبرتونه) (والماجور كاليانو) وعشرة الآف جندى ، وشيئا كثيرا من البنادق والمدافع الرشاشة[٩٨] .

(٩٥) وكشرت اجتماعتهم = وكثرت اجتماعاتهم .

(٩٦) فأزعن = فأذعن .

(٩٧) إلى = فى .

(٩٨) بعد هزيمة القوة الإستطلاعية التى أرسلها الجنرال باراتيرى حاكم ارتيريا الإيطالى لمواجهة قوات منليك الثانى فى امباألاجى يوم ٧ ديسمبر ١٨٩٥ ـ شرعت إيطاليا فى اعداد حملة إنتقامية . فى ١٩ ديسمبر ١٨٩٥ وافق البرلمان الإيطالى على اعتماد ٢٠ مليون ليرة وطمعت حكومة كريسبى أن تحصل بمقتضى هذا الدعم على انتصارات حاسمة على الأثيوبيين تستعيد بها ماء وجهها الذى أريق فى معركة ديسمبر ١٨٩٥ . فى ذلك الوقت كانت القوات الأثيوبية تواصل تقدمها نحو الشمال . فى فبراير ١٨٩٦ كانت قوات منليك قد وصلت إلى بعد ١٦ ميلا جنوب شرقى عدوه ـ يقابلها القوات الإيطالية البالغ عددها ١٦ ألف جندى فى سوريا . كان (باراتيرى) يريد إرضاء (كريسبى) الذى كانت الهزائم الإيطالية فى أثيوبيا قد جعلته فى موقف سئ للغاية ـ لذلك فإنه كان يسعى إلى إحراز نصر سريع وحاسم يعيد لكريسبى وحكومته بعضا من التقدير الذى فقدوه فى إيطاليا ـ فى ٢٩ فبراير قرر مجلس أركان الحرب الذى عقده باراتيرى الزحف على (عدوه) لمقابلة القوات الأثيوبية . فى صباح أول مارس دارت معركة عدوه ، وفيها لقى الجيش الإيطالى هزيمة ساحقة أمام القوات الأثيوبية بقيادة منليك الثانى أمبراطور أثيوبيا ـ قتل اثنان من جنرالات الجيش الإيطالى وأسر ثالث .=

فلما إفتتحت دار ندوتهم قامت الجلبة والضوضاء بين صفوفهم . وطلب حزب المعارضين محاكمة السنيور كريسبى صاحب سياستهم . وطاف الناس فى شوارع رومة ينادون بسقوط كريسبى . فأنزل كريسبى نفسه فى الحال من منصب الرئاسة ، وخرج من دار الندوة يجر أذيال الخجل ،والناس من ورائه يصفقون هزأ وسخرية . وينادون (فلترجع عساكرنا حالا) (فلنترك مستعمرة الاريترة) (لا حاجة لنا بهذا الإستعمار) . وجاءهم الخبر من (الجنرال بلدسيرا) على جناح البرق يقول أن مركز جنودهم حرج للغاية ، وليس فى وسعه إنقاذ(أديكرات) التى أحاط بها الحبشان أحاطة السواد[٩٩] بالمعصم ، وأن حاميتها تبلغ أربعة آلاف رجل ، وعندهم مؤونة شهر . قال وجيش الدراويش يتهدد كسلا التى حاميتها تبلغ ألفين جندى . قال وهو يخشى أن يكون فرقة المدد التى عدد رجالها ألفين إيطالى قد هلكت عن آخرها . وقد أشار (الجنرال بلدسيرا) على حامية كسلا بالإنسحاب منها وتركها للعدو . وإرسل إلى منليك ملك ملوك الحبشة يرجوه أن يأذن بدفن الموتى من الإيطاليان وأن يعلمه بعدد الاسرى .

وكان كلما تحرجت مواقف الإيطاليان واشتد عليهم الكرب بالتخوم ، كبر خوف الإنجليز وعظم تطيرهم من أصحاب المهدوية ، فيزكون عليهم العيون ويقعدون لهم بالمراصد ،ويكاتبون صاحب سياستهم ، ويكثرون من الحركة بين

= ولم ينج من الجيش سوى بعض فرقة الجنرال (لينا) التى كانت تحرس المؤخرة . تمكن الجنرال باراتيرى القائد العام من الإنسحاب بفلول الجيش الإيطالى إلى قلعة (أدى كاجى)يوم ١٣ مارس ١٨٩٦ . بلغت خسائر القوات الإيطالية حوالى ٦ آلاف قتيل و ٤ آلاف ما بين أسير وجريح ــ وكان من بين الأسرى الجنرال (البرتونى) . وكانت هذه أول هزيمة كبرى يلحقها شعب أسود بجيش أوروبى منذ أن خرجت أوروبا إلى ما وراء البحار فى حركة التوسع الأمبريالى فى أفريقيا فى القرن التاسع عشر .

ـــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٩٨٩ ــ ١٨٩٩) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٦ .

ـــ راجع حاشية ٤٣٧ ص ٢٦٢ من النص .

- Patricia Wright (Conflict on the Nile) op. cit. pp.. 66. 117 -118.

ــ أنظر الخريطة (ملحق رقم ٤)

(٩٩) السواد = السوار .

منازل جندهم ويتبعون تسيير عربات نقلهم من قلعة الجبل إلى قصر النيل فالعباسية . ويظل الحال على هذا حتى يظهر من الأنباء ما يسبل ذيل النسيان على مصائب جماعة الإيطاليان . وكثر لقاء السردار بالرئيس مصطفى فهمى باشا فى هذه الأيام ، والحديث بينهم لا يتعدى أخبار إندحار الإيطاليان ، والحركة البادية من جموع التعايشى كما يقولون . فخاف الناس وباتوا وهم ينتظرون حدوث أمر عظيم لا يدرون حقيقة ماذا يكون ومتى يكون . حتى لقد ساد الإضطراب فى التخوم وفى سواكن ، وظهر القلق على أصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز . ورسم الأمير إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا بمراقبة الحوادث وإطلاعه على الأنباء فى حينها . أخبرنى صديق من رجاء(١٠٠) الحرب على عهد الخديو إسماعيل باشا قال . إنك لا تجهل أن وزارة الحرب المصرية أو بالحرى السردار كتشنر باشا كان قد أشاع وملأ الأسماع بخبر إنتقاض بعض القبائل على التعايشى . فأراد تسكين موجدتهم عليه ، فسيرهم مع فريق من رجاله المخلصين ليغزو التخوم المصرى(١٠١) . قلت أللهم نعم . قال فهل علمت أن إنتقاض أولئك الناس حقيقا؟قلت اللهم لا ولكنى آنست الخبر معقولا لما هو مشهود من ظلم عبد الله لقومه .قال فالحقيقة ليست هذه . كان عبد الله قد سير جيوشه إلى كسلا لا لقتال من بها من جماعة الإيطاليان ، وإنما ليقعدوا لهم بالمراصد من جهة ، وليسقط عنه مظنة الجبن والتخلى عن كسلا ــ وهى قسم من مملكته ــ لأهل النصرانية . فلما قامت الحرب بين الحبشان وجماعة الإيطاليان سير منليك المشهور بالدهاء وحسن السياسة كتبه إلى عبد الله يدعوه فيها إلى الإشتراك معه فى الذب عن البلاد والإنتقام من الإيطاليين . فعزز عبدالله يومئذ جيشه فى جهات كسلا ، وأقام ينتظر حتى إذا أحس من الإيطاليين بالضعف إسترجع كسلا ، وإلاعاد إلى أعقابه غير خاسر شيئا . قال ولما كان التعايشى يعلم بأن الإنجليز هم الذين دفعوا الإيطاليين إلى

(١٠٠) رجاء = رجال .
(١٠١) المصرى = المصرية .

فتح الحبشة ، ويظن أن أولئك أنفسهم سوف ينقضون عليه من حدود مصر إذا ظفروا بالحبشان لم يغفل عن الحذر واتخاذ الحيطة وإرسال الطلاعين والمخبرين ليعرفوا ما خفى من سر جماعة الإنجليز المرابطين عند التخوم . قال ولا أدرى إن كان عبدالله قد سير دراويشه يقلقون راحة المرابطين عند التخوم ، ولكنه إن كان قد فعل فلا بد أن يكون له فى ذلك غايتان . إحداهما الحيلولة دون تمام الخط الحديدى الذى تنشئه الحكومة الآن فى الحدود ، وهو ما يؤكد له عزم الإنجليز على مهاجمته غدا عند استعدادهم لذلك ـ وثانيتها إبعاد الظن عنه أن كل قوته معسكرة بجوار كسلا ، وإن أرهبوهم الآن لم يستطع المقاومة . ولذلك ترى أن السردار فى قلق ملازم ، وأن عيون الإنجليز ونقلة الأخبار قد غاب عنهم اليوم معرفة أخبار الدراويش وحركاتهم .قال وانظر كيف أن السردار يبذل الأموال الطائلة فى ذلك السبيل ويودلوأن مال الخزينة كله فى قبضته فينفق عن سعة حتى يسترجع السودان كله أ٠هـ .

قلت وجاءت الأخبار بأن منليك أظهر من كرم الأخلاق والرأفة بأسرى الطليان ما حبذته الخصوم ، حتى لقد أطلق سراح الثلثين منهم ، وأبقى الجرحى والمرضى حتى يبرأون من جراحاتهم . قالوا وقد زارهم وواساهم وخفف عنهم شأن الملك القادر الشفوق . فما هي إلا أيام بعيد ذلك حتى تفشى القول بعزم أصحاب الإحتلال علي تسيير حملة قوية من الجنود المصرية بعد عيد الإفطار لفتح السودان . يقال وأن خوف المحافل السياسية وقلقها عظيم من نتائج هذه الحملة ، وأن جماعة الإنجليز يقصدون منها غايتين ، أولاها إنقاذ الإيطاليين من مخالب الدراويش الضاربين حول كسلا ، وثانيتهما إتجاه[١٠٢] الجنود المصرية الضاربة عند التخوم بطائفة من الدساكر[١٠٣] الانجليز لأن الحامية المصرية هناك لم يتجاوز عددها السبعة آلاف . حتى قالوا أن فرسان

(١٠٢) اتجاه = إنجاد .

(١٠٣) الدساكر = العساكر .

التعايشى صارت على مرأى من كسلا . وكثر تحـدث النـاس فى ذلك وفى ما سيكون من وراء هذه الحملة ، حتى جاءت الكتب من صاحب السياسة الإيطالية إلى وكيلهم السياسى بمصر وإلى سردار الجيوش المصرية بأن قد أنفذوا إلى مصوع (الماجور سالسا) ليخابر منليك نجاشى الحبشة فى أمر الصلح . وأنهم أوقفوا إرسال المدد من أجل ذلك . فسكن القلق وخف الإضطراب ، ولكنهم باتوا يترقبون ما عساه أن يكون بعد عيد الإفطار خامس(١٠٤) .

فلما كان عصر يوم السبت رابع عشر مارس من السنة ، وسادس برمهات من سنة ثلاث عشرة وستمائة وألف للشهداء ، أطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذانا بانقضاء أيام الصوم وحلول العيد . فأصبحوا وقد غص قصر الإمارة بالمهنئين من الأمراء والكبراء والوجهاء وكبار الجند وأصحاب الإحتلال والأعيان ورؤساء الاديان . ودخلنا على الأمير بقاعة التشريف الكبرى ، فلم نرى منه ذلك الوجه الباش والمحيا الطلق ، وكانت تظهر عليه دلايل التفكير والحسبان الكبير . وبعد إنقضاء التشريف ركبه(١٠٥) فى موكبه إلى قصر القبة ، وقد عفى فى يومه المسجونين(١٠٦) المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة وبالسجن الذين مضى عليهم عشرين سنة فيها ، والذين بلغوا السبعين من العمر أو يزيد ، والذين قضوا ثلاثه أرباع مدتهم ، والذين أصيبوا بعاهات عظيمة . فكان من أفرجوا عنهم من هؤلاء المسجونين مائة ثلاثة وتسعين سجينا . فانطلقت السنة العامة بالدعاء إليه . وفى ثانى يوم العيد حضر الأمير بعد ظهر اليوم بصورة غير عادية واجتمع إليه الوزراء فتناجوا طويلا فى شأن الحملة على السودان وطال الأخذ والرد . ثم تقررت القاعدة على أن يكون مسير الحملة إلى دنقلة ويقصر الفتح عليها فقط . وقابل الأمير بعد ذلك لورد كرومر والسردار كتشنر باشا فكلماه فى شأن ذلك . قالوا وستؤلف الحملة من جميع الجنود السودانية ، وأربع

---

(١٠٤) خامس = خامس عشر من مارس ١٨٩٦ (وافق يوم الأحد) ـ أضيف التاريخ لاستكمال النص الذى كان المؤلف قد اغفله .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٥٨ .

(١٠٥) ركبه = ركب .

(١٠٦) المسجونين = عن المسجونين ـ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

أورط من الجنود المصرية ، وأن يسيروا من حلفا . وقد تأهب للسفر أورطتين من جنود القاهرة ووزعوا عليهم ملابس السفر ، وأن حامية سواكن ستذهب إلى حلفا لتشترك فى الحملة عن طريق(العطمور) . قالوا وأن الجنود الذين كبارهم من الإنجليز هم الذين يقاتلون وأما الجنود الذين كبارهم من المصريين سيكونون معززين لها . ويقال أن السردار سيتولى بنفسه القيادة العامة . فاشتد خوف الناس وكنت لا ترى كبيرا أو صغيرا غنيا أو فقيرا عالما أو جاهلا إلا يتحدث فى هذا الأمر ، ويصغى أتم الإصغاء إلى من يقول له شيئا عنه ، لا سيما وقد تقرر فى وزارة الحرب أن تنقل السردارية وإدارة المخابرات برمتها وجميع الضباط وكبار الجند وأركان الحرب إلى الحدود للمسير مع الحملة .وقد أرسلوا إلى سائر المديريات والمحافظات على جناح السرعة والبرق يطلبون بتكليف جميع العساكر الذين فى الأجازات الحرة(١٠٧)وهم ينوفون عن الثلاثين ألفا أن يتأهبوا للسفر إلى التخوم . وقالوا أن أربعة أرط(١٠٨) من الجنود الإنجليزية قادمة إلى مصر ، وستجعل منها حامية فى سواكن وأخرى فى حلفه ،

---

(١٠٧) الأجازة الحرة = الأجازة الحرة مصطلح عسكرى يقصد به الفترة التى يستغنى فيها عن الجندى المقترع قبل حلول التاريخ الذى يستحق الرفت فيه وهو خمسة سنوات . فخلال الفترة موضوع الدراسة كان العسكرى المقترع يصير مستحقا للرفت من الجيش بعد انقضاء خمسة سنوات من بدء خدمته ـ فإذا تم رفته فإنه يبقى فى الرديف ـ أى تحت الطلب لمدة خمسة سنوات أخرى إلا إذا التحق بخدمة البوليس أو خفر السواحل . وعلى ذلك فإن (الرديف) يختلف عن الأجازة الحرة ـ فالأجازة الحرة هى المدة التى تمضى من وقت الإستغناء عن العسكرى المقترع حتى إنقضاء الخمس سنوات المقررة للخدمة العسكرية ـ فإذا انتهت هذه المدة تحول العسكرى بعدها إلى (الرديف) أى تحت الطلب لمدة خمس سنوات أخرى ـ فإذا ما انقضت الخمس سنوات هذه يرفت العسكرى رفتا نهائيا .

ـ قانون القرعة العسكرية الصادر فى ٤ نوفمبر ١٩٠٢ والتعليمات الصادرة عن نظارة الحربية ـ المطبعة الأميرية ـ القاهرة ـ١٩٠٢ ص ٣٩ ـ ٤١ .

(١٠٨) أرط = أورط ـ مفردها أورطة وهو المسمى القديم للكتيبة فى الجيش فى الوقت الحالى ـ الكلمة تركية (أورتا) Orta وتعنى الوسط والمتوسط ـ إستعملت فى اوجاق الإنكشارية بمعنى (طابور) ـ ثم استمرت مستخدمة فى التشكيلات الحديثة فى الجيش العثمانى عندما أنشأ سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) الجيش الحديث المسمى (نظامى ـ جديد Nizam - i Cedit) وانتقلت إلى الجيش المصرى الحديث بالتبعية .

ـ ردهاوس ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤٣ .

ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢ -٣٣ .

- Stanford Shaw (History of the Ottoman Empire) op. cit.. - pp..1- 3, 11, 20, 23, 28.

وحاميات مختلفات فى ساير المراكز الخلفية لجيش الزاحف . وهم ينوون على مد خط حديدى من التخوم إلى(عكاش) فى مدة مسير للجيش . وقالوا وهذه النقطة تكون المركز الأمنع الذى تخرج منه النجدات ، ويكون إليه المرجع فى أكثر أمور الحرب إلى أن نفتح دنقلة . وسافرت فى رابع شوال من السنة بعض السفن الكبار تحمل كثيرا من الخطوط الحديدية وأخرى تحمل أخشابا وأدوات أخرى(١٠٩) .

(١٠٩) لقرار الحكومة البريطانية إعادة فتح السودان فى مارس ١٨٩٦ أسباب اختلفت فيها الآراء . لكن هذه الآراء تتفق على أن موقعة توشكى (٣ اغسطس ١٨٨٩) كانت من بين الأسباب التى دعت إنجلترا إلى إعادة التفكير فى إسترداد السودان بعد أن ظلت سنوات طويلة منذ ١٨٨٤ تتمسك بسياسة الإخلاء والوقوف موقف الدفاع .

كان الرأى العام البريطانى وخاصة بعد فشل بعثة دروموند وولف (١٨٨٧) فى حل المشكلة المصرية يطالب باسترداد السودان . لذلك فإن الحكومة البريطانية أخذت بعد هذا الفشل تنظر إلى الإحتلال على أنه أمر قد يأخذ وقتا أطول مما كان متوقعا . وكانت إنجلترا حريصة على ألاتدع السودان يقع فى أيدى حكومات أوروبية وذلك بعد مابدا خطر الصراع الأوروبى هناك فى الثمانينات ، ونيات بعض القوى الأوروبية فى السيطرة على أعالى النيل ، وما يسببه ذلك من التحكم فى مياه النيل وبالتالى إفساد عمليات الإصلاح وتعديل المسار المالى المصرى الذى كان أحد المهام الرئيسية للإحتلال البريطانى فى مصر . كذلك فإن الرأى العام فى مصر ــ وقد كان معارضا من البداية لفكرة إخلاء السودان ــ كان شديد الرغبة منذ عام ١٨٨٨ فى إسترجاعه لأسباب عديدة أهمها إزالة الخطر الذى كانت تتعرض له البلاد من الغارات الحدودية المتكرره التى كان يقوم بها المهديون ــ وتأثير ذلك على برامج الإنعاش الاقتصادى ، كذلك فإن نظام الرى فى مصر كان قد تأثر كثيرا بسبب نقص المعلومات الواردة عن حالة الفيضان بسبب ضياع (الخرطوم) وعدم معرفة مقاييس النيل .

لكن السير إڤلين بارنج (لورد كرومر فيما بعد) كان يرى أن أى عمليات عسكرية فى السودان ــ ولو كانت إسترداد (دنقلة) فى السودان الأوسط أو إزالة خطر (عثمان دقنه) فى السودان الشرقى ــ لابد أن يتحقق قبلها أمران أسياسيان ، هما (أن يكون لمصر جيش قوى مدرب قادر على القتال) و (أن يتوفر الفائض من المال الذى يمكن الإنفاق منه على أى حملة عسكرية فى السودان) . فضلا عن أنه (بارنج) كان يشك فى إمكانية تأمين الحدود المصرية أو الإطمئنان إلى إستقرار الأوضاع حتى بعد الإستيلاء على الخرطوم التى كان المصريون يرون بضرورتها بدلا من الإكتفاء باستعادة دنقلة ـ وأن القضاء على (الثورة المهدية) فى رأيه هو الحل الأمثل .

وهكذا فإن التفكير البريطانى كان قد انتهى إلى (أ) الإحتفاظ بموقف دفاعى في كل من وادى حلفا وسواكن أو (ب) القيام بعمل يسترجع كل السودان أو معظمه مع مايتطلبه ذلك العمل من أموال كثيرة يترتب عليها عودة الإرتباك للمالية المصرية التى كانت قد التأمت جراحها ولما تكد .

وعلى ذلك فإن الحكومة البريطانية وافقت على سياسة بارنج الدفاعية فى نهاية أكتوبر ١٨٨٨ بعد اقتناعها بأرائه ومبرراته . لكن الأحداث التى تلت ذلك كان لها أثرها فى زحزحة بريطانيا عن موقفها الدفاعى من السودان . فقد تواترت أنباء كثيرة عن اضطرابات داخلية فى النظام الثورى بالسودان ــ وانتعش الإقتصاد المصرى بعد ١٨٨٨ ، وتحقق توازن فى الميزانية المصرية بعد دفع أقساط الديون عام ١٨٨٩ ــ وشهد عام ١٨٩٠ فائضا فى الميزانية زاد عن نصف مليون جنيه ، وزاد=

قابلت صاحب لى من كبار الجند الذين قضوا ردحا من الدهر فى تلك القارة السوداء ، فسألته رأيه فى هذه الحملة وما ورائها من خير أو شر فى هذه الأيام .فنظر إلى باسما وقال (كنت آليت على نفسى أن لا أفوه بكلمة فى شأن هذه الحملة الهوجاء فى هذه الأونة المخيفة ، ولكنك قد استملتنى إلى الكلام بما أنت عليه من سرعة الخاطر وما لك من الشفقة(١١٠) فى صدق رواياتى . أى

= الإحتياطى العام إلى مليون وثلاث أرباع مليون جنية . ونجح الجيش المصرى فى دحر المهديين فى معركة طوشكى (٣ أغسطس ١٨٨٩) واسترداد طوكر فى ١٩ فبراير ١٨٩١ . وإن كانت هذه العوامل مجتمعة لم تكن كافية لأن تغير إنجلترا موقفها من سياسة الدفاع ـ فإن تطوز حركة الإستعمار وظهور الأطماع الفرنسية والإيطالية والألمانية والبلچيكية على حدود السودان كانت كافية لأن تحرك إنجلترا نحو فكرة العمل العسكرى فى السودان . وجاءت هزيمة (عدوة) فى مارس ١٨٩٦ وتهديد المهديين (لكسلا) وتحرج مركز الإيطاليين ، وطلب إيطاليا قيام انجلترا بأى عمليات لتخفيف الضغط المهدى على (كسلا) .

فى ١٢ مارس ١٨٩٦ أبرق(سالسبورى) رئيس الوزراء البريطانى إلى كرومر بأن الحكومة بعد التشاور مع خبرائها العسكريين قد قررت أن احتلال (دنقلة) يمكن أن يحول أنظار المهديين عن كسلا ـ وأن من صالح مصر إتخاذ هذا الإجراء ، كما أن من العدل مطالبتها بدفع نفقات العمليات العسكرية الناتجة عن هذا القرار . وانتهى الأمر إلى أن يكون الزحف على دنقلة من طريق (حلفا) . ومع أن كرومر يفسر قرار بريطانيا المفاجئ عام ١٨٩٦ بفتح دنقلة بتشديد الأثيوبيين الضغط على الإيطاليين وما أشيع من وجود تحالف بين منليك والخليفة عبد الله التعايشى للهجوم على كسلا ـ إلا أن كرومر أغفل أهمية التسابق الإنجليزى الفرنسى للوصول إلى أعالى النيل كسبب أساسى لاتخاذ قرار حملة دنقلة .

بعض الآراء تقول أن محنة إيطاليا فى (عدوة) وتهديد المهديين لهم فى (كسلا) لم تكن هى الدافع البريطانى لاتخاذ القرار ـ لكن من الممكن إعتبار فكرة مساعدة الإيطاليين فى شرق السودان ذريعة لبريطانيا للتقدم نحو السودان . فأعالى النيل إذن هو الذى كان يشغل بال بريطانيا خشية التقدم الفرنسى من الغرب والخطر الأثيوبى الفرنسى من الشرق ـ وأن هذه الأخطار كانت فى الواقع هى الدافع الحقيقى لقرار ١٤ مارس ١٨٩٦ بالتقدم لفتح دنقلة .

كذلك فإن هناك آراء أخرى قالت بأن أسباب القرار الفجائى لحملة دنقلة تعود إلى (أ)أن مسئولية إنجلترا فى سوق إيطاليا إلى مصيرها فى أثيوبيا وإحراج مركزها فى كسلا ـ هذه المسئولية تدفعها إلى مساعدتها بجيوش مصر ونقودها لتحويل وجهة الدراويش عنهاـ(ب) أن الدول الأوروبية وبالأخص فرنسا قد عادت للتخابر فى المسألة المصرية ـ فأرادت إنجلترا إشغال هذه الدول عن طلب الجلاء ، باتخاذ القرار بفتح دنقلة (ج) أن إنجلترا وقد رأت أن الدول الأوروبية قد تضطرها إلى الجلاء ـ أرادت فتح السودان حتى إذا إضطرت للجلاء عن مصر كان السودان لها .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٥ ـ ٦٠ ، ٦٣ ـ ٧٠ ، ١١٨ - ١١٩ ، ١٢٥ - ١٣٠ .

-Patricia Wright (Conflict on the Nile) op. cit., - pp., 68 - 69.

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٥٨ - ٢٦٠ .

(١١٠) الشفقة = الثقة .

نعم . وسيعلم جماعة الإنجليز أن عندنا معشر المصرين من الصبر فوق ما عندهم من الخديعة والمكر ، ويخبرون أن لنا قلوبا جلدة على المضض غير ضائقة بتزاحم الآلام . ولقد كان كل شيء فى هذه الأيام يفيدنا إلا فتح السودان ،إذ طالما تمنينا هذا الفتح لمصلحة بلادنا وفائدتها لمصلحة[١١١] أولئك الإنجليز ، ولكن لم يرد نكد طالعنا وسوء حظ بلادنا إلا أن نساق إليه سوقا ، حين أن لا نجنى منه الا قتل النفوس البريئة ، وخسارة الأموال الطائلة ، وضياع الآمال والرجاء بانجلاء الإنكليز عن ديارنا . على أنا كلما نظرنا إلى مشروع هذه الحملة وقلبناها وجدناه عظيم الشر والضرر طفيف النفع والجدوى . أنظر كيف أن دماء رجالنا واموال خزينتنا تضحى من أجل تلك السياسة الماكرة التى يعمل صاحب سياسة الإنجليز على إسترضاء إيطاليا بها ، وكيف صح أن نقاتل جماعة الدراويش وهم عشرات الألوف بجنود لا يزيدون عن عشرة آلاف وهم المهاجمون الغرباء . ومن أجل ذلك هم الضعفاء والدراويش المدافعون الخبيرون ببلادهم ومن أجل ذلك هم الأقوياء . ثم من يضمن لنا الفوز بأمنيتنا التى هى بلوغنا دنقله والحال على ما تعلم من الكذوره[١١٢] والإضطراب . ولو قدرنا وأوصلنا تخومنا إلى دنقلة فما الذى كان يقلق جيوشنا عند تخومنا الحالية؟ وهل موقفنا فى دنقلة وهى أقرب إلى مزدحم قوة الأعداء لا يكون من أكبر الأسباب الداعية إلى القلق والمناقشات المتتابعة . وإن قيل أننا نتقدم متوكلين ، فبأى مال وبأى رجال نفعل ذلك ياترى . ولا خفاك أن أصحاب التعايشى يبلغون ستة آلاف مقاتل وراء الحدود ، ومن الهين أن ينضم إليهم مثلهم من المقاتلة الضاربين حول كسلا . فإذا إستعمل قومنا الحكمة المتناهية وحسن التسيير فربما إنتصرنا عليهم ، ولكن بعد المعارك الهائلة وسفك الدماء الكثيرة . قال وعندى أنه ليس من حسن الرأى فى شيء أن نهب الآن إلى المهاجمة وركوب هذا المركب الخشن ــ وكلنا يعلم أنه لا بد من إستعمال تلك الحكمة المتناهية وحسن التدبير وحسن التسيير رجاء أن نفوذ الغلبة[١١٣]

(١١١) لمصلحة = لا لمصلحة . قراءة اجتهادية
(١١٢) الكذورة =الكدر .
(١١٣) نفوذ الغلبة = نفوز بالغلبة

على أعداء هم أكثر عددا وأحصن مواقعا وأبغض لجماعة الإنجليز منا . إن الدعوة إسلامية والجهاد عندهم دينيا . ولتقدر[١١٤] أننا وصلنا إلى دنقلة فى أمان من الله تعالى وضعف من أصحاب المهودية[١١٥] واستتب قدم جيوشنا فيها ، فبأى داع حيث[١١٦] يدعونا إلى الشروع فى هذه الحملة منذ الآن . يقولون ذلك لاشتغال أصحاب عبدالله بكسلا ومناوشة الإيطاليين . قلت ياسبحان الله ألا يستطيع القوم الرجوع إلينا بكل تلك القوة فيضمونها إلى قوتهم التى وراء التخوم وهم على أشد ما يكون من الأهبة والإستعداد؟ . فلو كانت نوايا أصحاب الكلمة من الإنجليز خالصة لتبرحوا[١١٧] ولم يتعجلوا حتى ينال الإيطاليون من عبدالله وأصحاب[١١٨] منالهم ، فيضعفونهم فى محاربتهم ويمكنوننا من أكتافهم . فإن لم يحاربوهم وسلموا لهم كسلا صاغرين ، كان ذلك لنا أولى .أن يكون قد سلم لنا قسم من أملاك مصر المسلوبة والناس كلهم يعلمون أن كسلا بمثابة حد طبيعى للسودان وبدونها أبوابه مفتوحة لكل رائح وغاد . قال وقصارى القول أن الحملة على السودان فى هذه الأيام لم يقصد بها إلا إنقاذ الايطاليين وإبقاء كسلا لهم ، ولذلك قد نفذت الرسل من حلفا إلى حيث عبد الله التعايشى بأن ستهجم مصر على بلادك بجيش عظيم فاجمع جموعك واترك الإيطاليين وتعال إحم أرضك الباقية . وقد أخبرنى من أثق بقوله أن الدراويش الذين بجوار كسلا سيتحركون قريبا راجعين عنها . قال وهكذا نسفك دماء رجالنا وتهدر مدخورات أموالنا لتنقذ دولة سالبة لقطعة من أملاكنا حاملة بسياستها الطائشة دون نجاتنا من براسن[١١٩] الإحتلال الذى سمع الثقلان شكوانا منه أ٠هـ) .

---

(١١٤) ولتقدر= ولنقدر .
(١١٥) المهودية = المهدوية .
(١١٦) فبأى داع حيث = فأى داع عدلت الكلمات على هذه الصورة ليستقيم النص .
(١١٧) لتبرحوا = لبقوا لا أبرح أى لا أزال .
ـ مختار الصحاح ـ ص ١٩ .
(١١٨) واصحاب = وأصحابه قراءة ترجيحية .
(١١٩) براسن = براثن .

قلت وقد وردت الأنباء بقيام فصيلة من الجنود المصرية إلى المرات(١٢٠) لتمنع أصحاب عبد الله عن إجتياز الصحراء إلى الحدود ، وأن جماعة الإنجليز يطمعون فى إنتقاض بعض القبائل على أصحاب المهدوية فيكونون عونا للعساكر المصرية على أعدائهم . وتلكم(١٢١) الناس فى ذلك وعدوه من آيات الحقد والتضليل . ولما كان سابع عشر مارس من السنة ، ورابع شوال ، ركب الأمير فى موكبه إلى العباسية . وكانت عساكر الأورطة الراحلة إلى التخوم مصطفة على رصيف المحطة السكة الحديد متأهبة للسفر ، فودعها(١٢٢) وصافح كبارها واحدا واحدا . ثم جعل يشجعهم ويكبر آمالهم بالنصر والغلبة ، فهتفوا له هتافا كثيرا . ومن عجائب المقدور أنه لما علمت دولة إيطاليا بعزم جماعة الإنجليز على تسيير تلك الحملة إلى دنقلة ، وقد كانت ترسل كتبها تباعا إلى منليك نجاشى الحبشة فى طلب الصلح وتقرير قاعدة الفداء للأسرى ، عادت تقول أنها ترفض كل إقتراح صلح يمس كرامتها ، وأظهرت سرورها من تسيير الحملة . واقترع مجلس شيوخهم على إبداء شكره وحسن ولايته للدولة الإنجليزية . وأجتمع رجال شوراهم ، فقام فى وسطهم صاحب سياستهم وهو(المركيز دى(١٢٣)دودينى)الذى تولى الرئاسة بعد كرسبى صنيعة الإنجليز .

---

(١٢٠) المرات = آبار المرات ــ نقطة على طريق القوافل القديم بين كورسكو وحلفا .
انظر الخريطة ملحق رقم (٥) .

(١٢١) وتلكم = وتكلم .

(١٢٢) إتخذ قرار حملة دنقلة دون علم السلطات المصرية ـ وأبلغ الخديو بالقرار عن طريق رئيس وزرائه (مصطفى فهمى) يوم ١٣ مارس ١٨٩٦ ، وأبلغ رئيس الوزراء بالقرار من اللورد كرومر المعتمد البريطانى ــ ولم يكن مطلوبا من مصر صاحبة الشأن سوى إرسال الأوامر إلى المديريات والمراكز لجمع الجنود . وقد رفض الخديو إصدار الأمر بإرسال الحملة واعترض عليها باعتبارها تخدم المصالح الإيطالية . ولم يقبل الخديو توديع الإورطة الراحلة إلى السودان إلا بعد إلحاح من المعتمد البريطانى

ـ راجع على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ص ١٣٢ ــ ١٣٤ .

(١٢٣) دى دودينى = دى رودينى Rudini (Antonio Starraba, marquis di) ــ رجل دولة إيطالى ــ ولد فى بالرمو Palermo ومات فى روما (١٨٣٠ - ١٩٠٨) خطيب لبق وسياسى لامع ــ ترأس حزب المحافظين الإيطالى .

— Larousse Universel - p.. 839

فقال (إننالا نقبل الصلح وسنبقى على جفائنا مع القوم الحبشان ، ولكننا لا نبدى عملا من شأنه أن يضعف مركز إيطاليا الأوروبى . كما أننا لا نقبل فى أى حال من الأحوال بلاد التفيزه[١٢٣مكرر] ولا وضع الحماية على الحبشة ، ولكننا فى حاجة إلى النفقة التى لا تنقص عن مائة وأربعين مليون فرنك) وتكلم (المستر كرزون) فى دار الندوة الإنجليزية فقال (إن الحملة على دنقلة مما يرضى جماعة الإيطاليان) . وقال فى مجلس الأعيان(إن الغاية من هاته الحملة إنما هى ردع المهدوية وإعانة لكسلا) . فبرح الخفاء بعد كل هذه الأقوال وبان أنه لم يكن ثمت من دافع إلى سوق العساكر المصرية إلى دنقلة وتقحم أخطار الفتح على غير مساع فى هذه الأيام سوى إعانة جماعة الإيطاليان على الخلاص مما هم فيه من حرج الموقف واشتداد الخطوب .واهتم الأمير بعدم زيادة الحامية الإنجليزية ولا إبقاء جندا منها بحلفا وسواكن ، وسعى سعيه فى ذلك حتى عاد الإنجليز فعدلوا عن إستدعاء جندهم كما كانوا ينوون . ورسم الأمير بجعل محافظة الحدود وسائر البلاد الواقعة فى الجهة الجنوبية منها تحت الأحكام العرفية حسب مقتضيات الحروب . فانذعر أهل الأنحاء وعظم خوفهم من ذلك . وجاءت الأنباء معلنة أن أصحاب عبد الله أصبحوا على مسيرة ساعتين من كسلا وأنهم ينتظرون وصول عثمان دقنه ليهاجموها . قالوا وأما المواصلات مع(أديكرات) فمنقطعة تماما . ثم وأقول أنه إن لم تجد دول أوروبا سبيلا إلى إيقاف هاته الحملة ومنع الإنجليز من أجتناء فوائدها فهم – أعنى الإنجليز – رابحون منها ، أولا : إطالة أجل الإحتلال فى ديار مصر ما داموا بعد فتح دنقلة قادرون على أن يغرروا بدول أوروبا من حين إلى حين بحديث المهدوية وفظائع التعايشى حتى تخفوهم[١٢٤] من تبعة تحرير مصر من الإحتلال وإبقائها على ما هى عليه أمام ذلك العدو الشديد .ثانيا :

(١٢٣مكرر) بلاد التغيره = ترك بلاد التيجرى قراءة ترجيحية .

(١٢٤) تخفوهم = يخيفوهم قراءة ترجيحية .

تمهيد إحتلالهم للسودان إن تيسر فتحه بجيوشنا ، أو دخول عساكرهم فية بالقوة وفتحه باسم سلطنتهم ، ولهم[١٢٥] إن ارتد دونه المصريون .

ولا خفاك أن أولئك القوم الإنجليز وكل واحد من أقطاب سواسهم لا يطمعون فى مصر نفسها عشر معشار ما يطمعون فى السودان . ثالثا : إطمئنانهم على (أوغانده) إذا إستتب قدم جنودهم فى السودان محتلين أو فاتحين . لانه من أيسر الأمور على جماعة الدراويش أنهم بعد التغلب على كسلا وتعزيز مراكزهم فيها ينلبون[١٢٦]على أوغاندا وفي ذلك البلاء المقيم . رابعا : الحيلولة بقوتهم المادية والأدبية دون تقدم أية دولة أجنبية إلى أعالى النيل أو ضفافه . وخامسا : إسترضاء الإيطاليان المقهورين من الحبشان وتسليمهم كسلا مرة ثانية ألتى هى ملكا لمصر غير ناظرين نكد أصحابها الشرعيين ، ولا مبالين إلى صراخهم المتتابع . ومن العجب أنهم يحنون إلى المصريين حينما يحتاجون إلى إعانتهم المادية أو الأدبية للمكسب منهم ، ويعرضون عنهم بل يجفون عليهم حين[١٢٧]ما يحتاجون إلى مودة غيرهم . فيمنحونهم أملاك المصريين كالأسلاب المحللة فتأمل . وإنى والله لا أدعى العلم بسياسة الدول ولا سيما هذه الدولة الساحرة الماكرة اللاعبة بعقول أصحاب السياسات المالكة لأعنة أهل الرياسات بدهائها . ولكننى كلما قلبت صفحات ما سجله لها التاريخ منذ إحتلال جنودها لمصر إلى هذا الحين ظهرت أمامى الحجج القوية والأدلة الساطعة على أن الخطب شديد والخلاص منها شيء بعيد ، والله سبحانه مقلب الأحوال . ويخلق ما لا تعلمون .

وكانت كل هذه الحركة وقيام الجند وإرسال معدات القتال إلى التخوم لم تخفف من شدة الحبشان ولم تزحزحهم عن مواقفهم الضارة بالإيطاليان ، بل

(١٢٥) ولهم = فيكون لهم قراءة اجتهادية . ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١٢٦) ينلبون = ينقلبون

(١٢٧) حين ما حينما .

زادتهم تحفزا واستعدادا وتألبا على العدو وبغضا إليه . يقال كان النجاشى إذا جاءه الخبر باشتداد نيران عساكره على الإيطاليان وحصدهم وحصدا ، تأفف وتوجع كثيرا وصاح(يالله من شر الإنسان ،يالله ما اوحشه) ، وكان إذا جاءه أحد من قواد العساكر الإيطالية فى طلب الكف عن القتال ، مال إليهم ونصح لهم وهون عليهم حتى لقد قالوا أنه لم يسمح بإطلاق سراح حامية(ماكاله) ألتى كانت فى قبضة جيوشه بعد واقعة(أمبالاكى) الكبرى إلا بعد أن تعهد جماعة الإيطاليان بالصلح بشروط تكفل حفظ حقوق دولة(١٢٨) السياسية والقومية ، وتحفظ بقاء تخوم مملكته كما هو(١٢٩) . ولكن عاد الجنرال براتيرى فنكث العهد وخان الذمة . فأرسل إليه الراى(١٣٠)ماكونين كتابا فى ذلك . ومما جاء فيه .(واعلم أنه لم يبق فى قدرتى بعد أن نكثت عهدك وخنت الأمانة أن أشير على ملكنا بعدم الزحف عليك ومقاتلتك . فإنك أبيت الكرامة وسوف يحيق المكر السىء بأهله إن شاء الله)أ٠هـ قلت . وأذكر أنى لقيت ضابطا من المصريين الذين شهدوا حرب مصر للحبشان على عهد الخديو إسماعيل فحكى لى شيئا عن مهارة الحبشان ووعورة بلادهم . ثم قال . سبقنا(ماسنجربك(١٣١)) قائد حملتنا بيوم فسرنا بعده ثلاثة عشر يوما متوالية .

(١٢٨) دولة = دولته .
(١٢٩) هو = هى
(١٣٠) الراى =الرأس .
(١٣١) ماسنجربك = منتسنجر باشا Munzinger . سويسرى جاء إلى مصر - وتجول فى أنحاء السودان وأثيوبيا . أقام فى مصوع منذ ١٨٦٠ ـ عمل قنصلا لفرنسا فى مصوع ـ عينه إسماعيل محافظا لمصوع عام ١٨٧٠ ـ ثم عينه محافظا لسواحل البحر الأحمر ومديرا لشرقى السودان ـ منحه رتبة البكوية ثم الباشوية . زين لإسماعيل فكرة فتح الحبشة عام ١٨٧٥ . أسند إليه إسماعيل مهمة فتح إقليم (البوغوس) وعاصمته (سنهيت) ففعل ـ وشملت سلطته سواكن ومصوع وبلاد البوغوس ، والتاكا ، والقضارف ، والقلابات ، وأميديب ، وبركة . ثم اعتزم إسماعيل تجريد حملتين على الحبشة ـ تهاجمها الأولى عن طريق مصوع ، والأخرى عن طريق ميناء (تاجوره) الواقع على خليج عدن . أبحر منتسنجر باشا من مصوع ومعه ثلاثة بلوكات مصرية وسودانية ، ونزل فى تاجوره ـ ثم أقلع فى قوة صغيرة من الجند ونزل فى رأس (جيلاجيفو) التى تبعد عن تاجورة غربا بخمسة عشرة ميل . وفى ١٤ نوفمبر ١٨٧٥ وصل إلى بحيرة أوسا Aoussa جنوب شرقى الحبشة . وقع فى كمين قرب شاطئ البحيرة وذبحه الأحباش هو ورجاله ليلة ١٥ نوفمبر ١٨٧٥ .=

فلما كان ظهر اليوم الثالث عشر رأينا الخمسة أولاد الحبشان الذين كانوا معه مقبلين . فأوقفتهم وأردت قتلهم ظنا منى أنهم خائنون وأنهم غرروا(بماسنجر) . فقالوا خيرا وإلا هلكتم عن آخركم . فقلت وكيف ذلك . قال(١٣٢) إن الحبشان ذبحوا ماسنجر وجميع أصحابه وهم آتون لعلكم إذا أصغيتم إلينا خلصتم . فأطعنا وعدنا على أعقابنا ، وقد تركنا ما أثقل حمله واكتفينا بالزاد والماء . فسرنا بدلالتهم أربعة أيام حتى خلصنا . قال فكيف يقوى غريب على أن يجوس تلك البلاد وتلك جبالهم ووديانهم ، والحبشى كالماعز فى خفته . ووصلت فى هذه الأيام إلى مينا القلزم الباخرة(صوماترا) الإيطالية حاملة أربعمائة جريح من العساكر والضباط الإيطاليين ، وبينهم (الجنرال إيليا) قائد إحدى الفرق التى إنهزمت فى (معركة عدوة) الأخيرة ، وقد سافرت بهم جميعا إلى رومية ، ولم يسمح لأحد من الإيطاليين نزلاء السويس أن يقترب من تلك الباخرة ولا أن ينزل أحد منها إلى البر . وما هى إلا أيام بعد وصول الحملة المصرية إلى حلفا حتى برح الخفاء وظهر أن أصحاب التعايشى المرابطين وراء التخوم لا يقلون عن ثمانية عشر ألفا كاملى العدة وأنهم متفرقون كتائبا بين دنقلة وللسوارده(١٣٣) . يقال فأكبر السردار أمرهم وسير إلى صاحب السياسة الإنجليزية فى طلب النجدة من العساكر الإنجليزية . فجاءت على الأثر كتبه إلى معسكر مالطة بإرسال أورطتين تامتين . وجاء خبر ذلك إلى وزارة الداخليه ويدوان(١٣٤) الأمير ، فلم يبديا رائيا(١٣٥) ولم يعارضا فى ذلك بكلمة ، واهتمت وزارة الحرب بشراء النوق والخيل والبغال لخدمة الحملة .وكثرت الحركة فى منازل الجند كلها . ووصلت العساكر الإنجليزية من مالطة إلى الإسكندرية على ظهور

= - عبد الرحمن الرافعى (عصر إسماعيل) ج١ ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ص ١٤٢ ـ ١٤٦ .

(١٣٢) قال = قالوا قراءة ترجيحية .

(١٣٣) ولـلسوارده = سوارده .

(١٣٤) ويدوان = وديوان

(١٣٥) رائيا = رأيا .

النقلات[١٣٦] . فلم تقم بالعباسية إلا أياما حتى قام من بالعباسية من الإنجليز إلى التخوم .

ولما كان يوم الأربعاء خامس عشرى مارس من السنة ، وثانى عشر شوال سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وألف إجتمع الوزراء كلهم فى مجلسهم ، وجلس الأمير بينهم . وكان إجتماعهم فى ذلك اليوم خارقا للعادة . فتناجوا فى رسالة أتت على جناح البرق من جانب الباب العالى إلى الأمير باستعلام عن ماهية الأسباب التى حملت حكومته على تسير تلك الحملة على دنقلة ، وعما أوجب إغضائها عن إبلاغ الباب العالى خبر ذلك . فبعد أخذ ورد تقررت القاعدة على أن يجاوبوا جوابا تعليليا لطيفا . فأرسلوا يقولون بعد كلام أن حكمة الأمير لم تكن لتعتبر أن السودان منفصلا عن مصر إلا لظروف قضت بذلك ، وأنها اليوم ترى موافقة استرجاعه . فهو تابع لمصر بمقتضى الفرامانات السلطانية . وتفشى خبر ذلك وتحدث الناس فيه كثيرا . وقد سمعت أحد أصحاب الرأى يقول (إنى والله لم أر أسمج من رسالة الباب العالى فى هذه الظروف ، وهو يعلم وكل رجال الدولة يعلمون أن وزراءنا كم ما هم يجهرون علانية بأنهم مذهوبى الإرادة ،وأن لا رأى عندهم . وأنهم مسوقون مكرهون على عمل كل ما يشير به صاحب السياسة الإنجليزية ، فاللوم كل اللوم أولا على ذلك الباب العالى الذى كثيرا ما هو يسمعنا جعجعة بغير طحن ، وثانيا على دول أوروبا التى لا يجهل رجالها وأقيال سياستها نوايا الإنجليز وسعيهم إلى الإستيلاء على السودان لا على مصر نفسها . ومع ذلك نراهم يغمضون الطرق[١٣٧] على هذا القزى[١٣٨] ، ويعولون على الأقوال والمناقشات التى ما أنزل الله بها من سلطان . أو ما حان لأولئك النفر أهل (المابين الهمايونى)

(١٣٦) الفقلات = الناقلات .

(١٣٧) الطرق = الطرف .

(١٣٨) القزى = القذى .

المخدوعين ، أوهم الذين يخدعون أنفسهم ويغشون ضمائرهم أن يثوبوا إلى رشدهم ويقلعوا عن هذه المماحكة والسخافات التى أفلتت من أيدى سلطانهم زهرة عمالاته ونخبة ولاياته وطريق حجهم إلى بيت الله الحرام . يقول الإنجليز أنهم إنما يفتحون السودان لمصر ، وأنه عار عليهم وأى عار أن يتركوا هذا القطر أبطر[١٣٩] أى مقطوعا منه نصفه وقد دخلوه كاملا سليما زاهيا ، وأنهم لا يطمعون إلا فى إعانة الإيطاليين ودفع الضرر عنهم ، وقد حلفوا الأيمان المغلظة على ذلك فصدقناهم أو كدنا . ولكننا كلما قلبنا الطرف رأينا أمورا تقضى بالحيطة والتحذير ، ومغامزا تنذر بلوم[١٤٠] شره مستطير ، فما بالهم لاهون عنا وقد أبعدهم الغرض منا . والله لسوف يندمون حين لا ينفعهم الندم) . فقلت له وما قولك فى فوز جنودنا على أصحاب التعايشى عند التقاء الجيشان . قال (إن الوصول إلى دنقلة هين وميسور . فإذا بلغتها عساكرنا وتقهقر الدراويش إلى الوراء وأخلوا البلد كان الخوف عظيم ، فانهم لا يلبثوا أن يجتمعوا بسائر قوتهم ورائها ويتكوفوا[١٤١] فى مواقفهم ، فيصبح التقدم إلى خرطوم من أعجب الأمور وأحرجها) . قال(وعندى أنه خير لأصحاب الحرب منا أن يبذلوا جهدهم تحريشا للدراويش ليتمكنوا من مقاتلتهم . فإن فازوا عليهم مرة ولا أظنهم إلا فاعلون إن شاء الله وقع الرعب فى قلوبهم ، وربما إنتفض أكثرهم على عبدالله وانفضوا من حوله وقدرت عساكر[١٤٢] على التقدم إلى خرطوم بسهولة) .

وسير صاحب السياسة الإنجليزية كتبه إلى النجاشى منليك يرجوه مقاتلة الدراويش وردهم على سوار[١٤٣] كسلا ، ومناه بالأمانى الكثيرة . فرد عليه ردا كله حكما بالغة ومواعظ وقال له(وليس بينناوبين أصحاب المهدوية ما يدعو

(١٣٩) أبطر = أبتر .
(١٤٠) بلوم = بيوم قراءة اجتهادية .
(١٤١) ويتكوفوا = يتحصنوا قراءة اجتهادية .
(١٤٢) عساكر = العساكر .
(١٤٣) على سوار = عن أسوار

إلى هذا التحرش والقتال ، فإن كنت على غير رأينا فأرسل إليهم من يقاتلهم) . فتكلم فى ذلك أصحاب الصحف الإنجليزية وأطرى المتطرفين منهم النجاشى ، وأثنوا عليه ثناءا كثيرا ، وعاد رجال المابين الهمايونى إلى السؤال من ديوان الأمير أن يزيد فى بيان الأسباب التى أوجبت الحملة على دنقلة .فاجتمع الوزراء فى مجلسهم صباح الأحد تاسع عشرى مارس من السنة ، وتناجوا فى ذلك طويلا ، ثم قر رأيهم على أن لا يردوا عليهم إلا بنفس ردهم الاول . وأن يزيدوا عليه القول بأن تلك الحملة قد تقررت إجابة لطلب الدولة الإنجليزية المحتلة للبلاد إحتلالا فتأمل . وسمعنا صاحب السياسة الإفرنسية جلبة[١٤٤] أخرى بخصوص هذا الحملة . فقام الخطباء فى دار ندوتهم ينادون بالويل والثبور وعظائم الامور ويحنون[١٤٥] باللائمة على صاحب سياستهم لتغافله وإغضائه ، حتى بلغ صاحب السياسة الإنجليزية متمناه من الزحف على دنقلة والتقدم إلى الخرطوم . واحتدم الجدال بين صفوف الأحزاب ، واشتد الأخذ والرد بين القابضين على زمام الأمور ، وأكثر كبار الأحزاب من توجيه الأسئلة المغلظة إلى (المسيوبرجو) رئيس الوزراء حتى أحرجوا موقفه ، فقام يجادل وقارع[١٤٦] ويعين الخطة الراجحة التى جرت عليها الحكومة الفرنساوية فى سياستها منذ ظهور هذه المحنة . وأثبت أنهم ما تركوا بابا إلا طرقوه فى تذكير صاحب سياسة الإنجليز بوعوده وعهوده بالجلاء القريب العاجل ، وترك مصر على ماهو مقرر لها بين الدول ، بحيث لاتبخس إحداهن فيها أحدا حقه مضمونا على شروط يجب على سائر الدول بعد فحص نزيه تجربها[١٤٧] على وجه العدل والإنصاف . وعندى أن كل قول من أصحاب السياسة الإفرنسية أو غيرهم فى معنى ذلك هتر أو هو صرخة فى واد ، لم يثنى للإنجليز عزما ولم يؤخر لهم

---

(١٤٤) جلبة = يحدث جلبة أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٤٥) ويحنون = وينحون .
(١٤٦) وقارع = ويقارع .
(١٤٧) تجربها = أن تجريها أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

عملا ، ولم يحول دون بلوغ غايتهم . وقد كان يظن من يطلع على كلام (الميسو برجو) وشدته وحدته وإرجافه وتهويله وتتابع تصفيق الإستحسان لقوله من مختلف صفوف الأحزاب ،أن الحرب قد أنشبت أظفارها بين الدولتين وأن الإنجليز خاسرون لا محالة ، وأن مصر رابحة من ذلك بلا عناء ولا تفكير .كل هذا سمعناه والحال على ما هو عليه من أخذ النفقة من صندوق الدين ذهبا عينا رغم كل مانعته(١٤٨) من العضوين به الروسى والفرنساوى ، وشراء دواب الحمل متتابع ، وتسيير السفن من حلفا بالزخيرة(١٤٩)والمؤن وآلات القتال جار على أتم نظام ، ومقدمو الجند من جماعة الإنجليز يغدون ويرحون(١٥٠)بين حلفا وعكاشة(١٥١) صعدا وهبوطا وكأنهم فى نزهة بحرية . وأرسل محافظ بورسعيد إلى وزارة الداخلية يقول أن قد عبر القناة فى أخريات شهر مارس من السنة عدة نقلات(١٥٢) تحمل جندا إيطاليا علم له أنهم يربون على على الأربعين ألف مقاتل ، وأن معهم من الذخيرة والمؤونة ومعدات الحروب شيئا كثيرا . فلما تفشى خبر ذلك وتحدث الناس به ، شوهد لورد كرومر والسير بلمر المستشار المالى معا فى مكتب التلغراف المصرى يكلمان السردار كتشنر باشا بحلفا . وجاء لهما الخبر وهما يكلمانه بأن أصحاب عبد الله إحتلوا جزيرتى(فركة)(ومغرتقة) الواقعتين وراء(عكاشة) ، وأنهم قطعوا أسلاك تلغراف المرافق مرة ثانية ، وأنهم على عزم إحتلال ذلك المركز . يقال فخرجا اللورد والسير بلمر وهما يغمغمان . وفى سابع أبريل من السنة ورابع عشر شوال جاء الخبر أيضا من سواكن بأن أصحاب المهدوية يحتشدون حول سواكن أو على

(١٤٨) مانعته = الممانعة   قراءة ترجيحية .
(١٤٩) بالزخيرة = بالذخيرة ،
(١٥٠) يرحون = يروحون .
(١٥١) حلفا وعكاشة = أنظر الخريطة ـ ملحق رقم (٥) .
(١٥٢) نقلات = نقالات .

مقربة منها ، وهم ينوون إحتلال (جزيرة الحلائب[١٥٣]) ، وأن قد أرسلت النجدة إلى (الحلايب) من أصحاب المراصد بسواكن . فقلق أصحاب الحل والعقد وكبر خوف جماعة الوزاء . وأشار لورد كرومر باستدعاء مشائخ عربان الشرقية والبحيرة والفيوم وبنى سويف ، والإتفاق معهم على تجنيد طائفة منهم مددا للحملة ، فاستدعوهم وقد غصت بهم ساعة[١٥٤] الدواوين ، فلبثوا أياما على غير جدوى لشططهم وبعد مطالبهم عن المعقول ثم عادوا من حيث أتوا . واشتد القيظ على الجنودالمصرية فتفشت الحميات الخبيثة بين كبارهم من جماعة الإنجليز ، فامتلأت المستشفيات بمرضاهم . وشاع خبر ذلك ، فنقله أصحاب صحف الفرنسيس مكبرا مبالغا فيه ، وأظهروا فى قولهم الشمات والتقريع ما لا يحل لهم بعد سقطات أصحاب سياساتهم التى وقعوا فيها تجاه أصحاب سياسة الإنجليز فى سائر أدوار الإحتلال ، من يوم تخريب الإسكندرية إلى يوم قيام الحملة على دنقلة .

وجعل عساكر الإنجليز يتمرنون على إطلاق مدافعهم تحت سحف[١٥٥] الجبل الأحمر على مقربة من مازلهم[١٥٦] بالعباسية . فادنزعر[١٥٧] سكان

(١٥٣) جزيرة الحلايب = تسمى جبل علبه أو مثلث حلايب ـ مساحتها ١٢٥,٠٠٠ كم مربع - تقع فى الركن الجنوبى الشرقى من الأراضى المصرية شمال خط عرض ٥٢٢ شمالا . تأخذ شكل مثلث متساوى الساقين قاعدته تتمشى مع خط عرض ٢٢ ـ ويبلغ طولها ٣٠٠ كم ـ أما طول الضلعين الشرقى والغربى فهو ٢٠٠كم لكل . أضلاع المثلث تمتد من نقطة على ساحل البحر الأحمر بالقرب من بئر شلاتين ثم تتجه جنوبا بغرب لمسافة ٥٨كم حتى تصل إلى ما يعرف ببئر مينجا Menega ثم تمتد شمالا بغرب لمسافة ٢٨كم حتى تصل إلى جبل تجروب ثم جنوبا بغرب مسافة ٧٠كم حتى تصل إلى جبل أم الطور ثم جنوبا مع إنحراف كبير جهة الغرب لمسافة ٥٨كم ثم جنوبا مع إنحراف غير كبير نحو الغرب مسافة ٤٢٠كم حتى تصل إلى خط عرض ٢٢ . يتميز مثلث حلايب عن الأراضى الواقعة جنوب خط عرض ٢٢ بغناه النسبى بموارده المائية والمعدنية . وضع التعديل الإدارى الصادر عن ناظر الداخلية المصرية فى ١٤ نوفمبر ١٩٠٢ لجمع شمل قبائل البشارية ـ إلا أنه لم يحسم الأمر بالنسبة لدعاوى بعض القبائل التى تعيش فى منطقة الحد الإدارى . فجماعات (الحميد) و(راب) من البشارية تطالب بأجزاء من الأراضى الواقعة شمال مثلث حلايب والتى تسكنها قبائل (الشابات) وهى من العبابدة .

راجع محمد متولى ومحمود أبو العلا (الجغرافيا السياسية) مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(١٥٤) ساعة = قاعة قراءة ترجيحية .

(١٥٥) سحف - سفح .

(١٥٦) مازلهم = منازلهم .

(١٥٧) فادنزعر = فانزعر .

العباسية وداخل باب الحسينية . وظن العامة أن أصحاب المهدوية يقاتلون عند الجبل الأحمر . فحدثوا بذلك وأرهبوا وأرهقوا وأقسم بعضهم بالأيمان المغلظة أنه رأى التعايشى على جمل وهو فى ذى[١٥٨] الخلافة وعلى رأسه خودة من الذهب الخالص ومرصعة بالاحجار الكريمة ، وقد أخذته الجلالة فكان يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، والدراويش حوله كأنهم الأسود الضوارى يقاتلون الإنجليز . والإنجليز حيارى وهم يطلقون مدافعهم فلا تصل مقذوفات إلى ناحية الدراويش .وأقسم غيره أنه رأى جماعة من الدراويش يصلون صلاة العشاء فى جامع العفيفى ظاهر باب الحسينية . وقال آخر أنه رأى نفرا منهم بين منازل العطوف داخل باب الحسينية . حتى كاد الناس يصدقون الخبر ويعدونه من آيات الحق المبين . وتنبه العامة إلى أن الحرب قائمة على التخوم ، فكانت أخبارها حديث نهارهم وسمير ليلهم . فيقول بعضهم عنها اقوالا سمجة كلها سخافة وتخريف لا يطيق سماعها أصحاب العقول السليمة . كل هذا والأخبار متتابعة باندحار الإيطاليين وانخذالهم حول (كسلا)(ونوكريف) وتمكن الدراويش من أكتافهم . وتفشى القول بترك الإيطاليين لكسلا والتخلى عنها لأولئك القوم السود .

وظهرت فى هذة الآونة حركة الحزب الوطنى أو هى حركة داعية[١٥٩] مصطفى كامل .فقد سافر من القاهرة إلى الإسكندرية وعقد فى ثالث عشر إبريل من السنة حفلة حافلة بملعب زيزينا[١٦٠] . وقام يخطب فيه بالفرنساوية عما هى المسألة المصرية وما فيها من المشاكل والعقبات . والشاب فصيحا قوالا ، فأقام يتكلم أو يزيد بطلاقة وحسن بيان . وكان الحاضرون زهاء الخمسمائة من الأهلين والنزلاء ، وبينهم كثير من أهل المقامات وأصحاب

(١٥٨) ذى = زى .
(١٥٩) داعية =الداعية .
(١٦٠) زيزينا = زيزينيا .

المظاهر . فاستحسنوا كلامه وصفقوا له تصفيقا حادا لا سيما عند كلامه على حالة المصريين عموما إزاء الأمة الإنجليزية ، واحترام الشعب المصرى للشعب البريطانى مهما عمل أبناؤه فى مصر إلى أن قال (وإن المصريين المجاهدين ضد الإحتلال لا يجاهدون ضد الأمة الإنجليزية بل ضد أولئك الإنجليز المعدودين(١٦١) الذين يعملون على نشر الأكاذيب على مصر وخلف(١٦٢) الأسباب الواهية لإطالة أمد الإحتلال) . ثم أفاض فى موضوع حماة(١٦٣) دنقلة .وهنا إشتدت لهجته فقال بعد كلام (إن المصريين جميعا يرغبون استراد(١٦٤) السودان ويعلمون أن مصر بغير السودان تكون أفقر أرض فى العالم المعمور . ولكنهم لا يريدون إسترداده تحت إمرة جماعة الإنجليز ، لأن وجودهم يزيد فى تهييج المهدوسين(١٦٥) ويدفعهم إلى بغض المصريين ويجعل بين الشعبين هوة الجفاء لا قرار لها ، فيمتنع الصلح بين الفريقين) . ثم اسطرطد(١٦٦) إلى الكلام على مساعدة الإيطاليين فى (مصوع) ، فجعل يتسأل(١٦٧)(كيف أن المصريين المثقلين بالديون والمصائب الجسام يكلفون بإنقاذ دولة أجنبية عظيمة ، بينما مصر محتاجة لأن تكون كأقل دول أوروبا على الأقل حتى تكون وظيفتها إنقاذ الدول العظمى من خطر تقع فيه) . وتكلم عن الإسلام فقال (إن إسترداد السودان لا يكون إلا بالحرب(١٦٨) والقتال بل بالطرق الإسلامية ، أى بأن يدخل جماعة من المصريين بين أهل السودان حاملين باليد الواحدة القرآن وباليد الأخرى راية الإسلام ، لإقناعهم وإرجاعهم إلى سلطة أمير البلاد . قال

---

(١٦١) المعدودين = المعتدين قراءة اجتهادية .

(١٦٢) وخلف = وخلق .

(١٦٣) حماة = حملة .

(١٦٤) استراد = استرداد .

(١٦٥) المهدوسين = المهديين .

(١٦٦) اسطرطد= استطرد .

(١٦٧) يتسأ = يتسائل .

(١٦٨) الا بالحرب = بالحرب .

ومن رأيه أنه بما للشعب المصرى من حسن الشيم وكرم الأخلاق فهو قادر وحده على أن يكون الوسيط الوحيد بين أوروبا المتمدنة والسودان المغتصب . ثم تكلم طويلا فى سياسة الدول وعلاقتها بديار مصر ، وختم مقاله بذكر العلايق الحسنة التى بين المصريين والنزلاء على إختلافهم ، واستشهد على قدم تلك المحبةورسوخها فى القلوب بخطاب أرسله محمد على باشا جد العائلة المالكة فى إحدى عشر نوفمبر سنة أربعين وثمنمائة وألف للميلاد(١٦٩) . وتكلم الناس فى مقالة مصطفى كامل وحبذوه كثيرا ، وتناقلها بعض أصحاب الصحف الإنجليزية لاسيما المعاندة لصاحب سياستهم . وجاء الخبر بعد ذلك بزحف(لويد باشا) كبير الجند المرابطين بسواكن ومعه ألف رجل لمقاتلة عثمان دقنه المعسكر مع دراويشه فى(أروكيت) ، فكان لهذا الخبر أسوأ وقع فى نفوس الناس لاعتقادهم أنه لم يكن من موجب للزحف والتحكك بأولئك القوم ، فى حين أنهم خالدين إلى السكينة لا يريدون بجندنا شرا(١٧٠) . وقابل الأمير لورد كرومر ، ويقال أن قد دار الحديث

---

(١٦٩) لم يذكر شاروبيم المرسل إليه فى خطاب محمد على ، عام ١٨٤٠ ـ والمفروض أن يكون أحد النزلاء الأجانب بمصر فى ذلك الوقت .

(١٧٠) كانت الخطة العسكرية لحملة دنقلة تتمثل فى تجمع القوات المصرية على الحدود الصرية عند (وادى حلفا) على أن تتحرك بواسطة الخطوط الحديدية حتى (سرس) ـ ومع مد الخطوط الحديدية تصل القوات إلى (عكاشة) بحيث تكون مراكز القوات المصرية هى (حلفا) (سرس) و (عكاشة) . أما فى سواكن ـ فقد كانت الخطة أن تخرج منها حاميتها للمشاركة فى الحملة على أن تحل محلها قوات هندية وأورطة مصرية . وبالفعل فإنه بينما كانت تتجمع قوات الجيش المصرى على الحدود كان الكولونيل هنتر Hunter قائد الحدود قد ألف قولا من جميع الأسلحة ليستولى على (عكاشة) . فوصل به إلى وادى عطبره فى الثامن عشر من مارس ١٨٩٦ . فى يوم ١٩ مارس وصل إلى (تانجور) . وفى يوم ٢٠ مارس كان قد استولى على (عكاشة) وحولها إلى موقع دفاعى عام ـ وتألفت قوات موقعه من ثلاث أورط مشاة وبطارية مدفعية وقوات راكبة . على الحدود كانت القوات الإحتياطية تنتظم بسرعة وتألفت منها الأورطتان الخامسة عشرة والسادسة عشرة . وبينما كلفت الأولى بحراسة خطوط المواصلات بين أسوان وكورسكو ـ أرسلت الثانية إلى سواكن لتحل محل الأورطتين السودانيتين اللتين كانتا هناك للإنتفاع بهما فى الخدمة مع القوات الزاحفة بحذاء شاطئ النيل . وجاءت من القاهرة أورطة إنجليزية لتقوم بأعمال الحامية فى وادى حلفا ـ بينما تحركت الأورط المصرية التى كانت فيها إلى سرس وعكاشة اللتان أمنهما طابور (الكولونيل هنتر) قائد الحدود . تألفت قوات الميدان النهرى من الاورط الثانية ـ الرابعة ـ=

بينهما فى ذلك . وتقدم (الجنرال بلد يسيرا) صاحب الجيوش الإيطالية (بمصوع) إلى إستخلاص (أديكرات) إيضا فكأن الجيشين على إتفاق فى ذلك . وما هى إلا أيام حتى جاء الخبر سرا إلى ديوان الأمير بأن التعايشى أرسل كتابين أحدهما إلى الأمير وثانيهما إلى الغازى مختار باشا مندوب السلطان . فلما بلغ رسل التعايشى سواكن قبض عليهم أصحاب المراصد من جماعة الإنجليز وأخذوا منهم الكتابين وسرحوهم . وقد وقع مثل ذلك كثير ،فكان الإنجليز إذا ضبطوا شيئا من كتب التعايشى أو دقنه إلى الأمير أو غيره ، أجابوا عليها من عندهم بما شاءوا ولم يوصلوها لاصحابهم . فأكبر الأمير ذلك وأعظمه جدا . يقال وكلم الغازى مختار باشا لورد كرومر فى ذلك ، فأنكره وبالغ فى الإنكار . واهتم السردار بتسيير الحملة . فرسم بجمع البواخر والسفن التى تذهب إلى أصوان ، فجمعوها وشحنوها بالذخائر وأدوات الحرب ، ومنعوا

= الخامسة ـ والسادسة . وعند وصول الأورطة السادسة عشرة إلى سواكن قامت منها الأورطة التاسعة السودانية مبحرة إلى القصير ومنها لتلحق بقوات الميدان النهرى عن طريق قنا الصحراوى . وانضم إلى حامية سواكن الجديدة الأورطة الأولى ونصف الأورطة الخامسة وبلوك سوارى وبلوك هجانة وقوة صغيرة من المدفعية المصرية . وأما حامية (طوكر) فكانت تتألف من الأورطة العاشرة السودانية وبعض رجال المدفعية . فى منتصف أبريل كان قد تم تجمع القوات المصرية نهائيا وبلغ تعدادها فى (حلفا) حوالى ١١,٠٠٠ جندى . كانت الأورط المصرية خلال هذه الفترة موزعة فى ثلاثة معسكرات حصينة هى (حلفا) (سرس) و (عكاشة) ـ ووزعت قوات منفصلة أخرى لربط حلقة المواصلات بين جبهات الميدان الرئيسية ـ وكانت (سرس) أهم تلك الميادين واحتوت وحدها على ستة آلاف مقاتل . كان كتشنر قد غادر القاهرة فى ٢٢مارس ١٨٩٦ إلى اسوان ـ وبعد إقامة قصيرة وصل فى ٢٩ مارس إلى وادى حلفاواستقر فيها يشرف على أعمال مد السكك الحديدية وإعداد الذخيرة والمؤن حتى آخر ابريل .

بدأت المناوشات الأولى عند السودان الشرقى ـ فعندما رأى (عثمان دقنه) خروج حامية سواكن للإنضمام إلى القوات السابق ذكرها إعتقد أنه يمكنه استرداد (طوكر) ، فظهر أمام (أركويت) . أصدر السردار أوامره إلى كل من (لويد) محافظ سواكن (وسيدنى) قائد حامية (طوكر) بأن يلتقيا عند (خور ونترى) على بعد ٢٢ ميلا من سواكن لطرد (عثمان دقنه) . ونتيجة لخطأ فى التوقيتات فقد وصل (سيدنى) إلى (خور ونترى) قبل وصول (لويد) واشتبك مع (عثمان دقنه) الذى حاصره ـ ثم انتظر إمدادات (لويد) فهزمها . وفى النهاية التقى (لويد)و (سيدنى) وعاد عثمان دقنه إلى (ادرامة) ـ وعاد (لويد) إلى سواكن ـ كان هذا فى ١٥ـ ١٦ ابريل ١٨٩٦ .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـمرجع سبق ذكره ـ ص ٢٦ ـ ٢٨ .

ـ أورطة مدافع الماكينة المشاة ، أورطة مدافع الماكينة الأولى المشاه ـ وزارة الحربية والبحرية ـ طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ١٩٣٨ ـ ص ١٧ .

من نقل الغلال والمؤن إلى أصوان ، أو هو تعطل النقل لتسخير سائر السفن فى نقل أدوات الحملة ، فارتفعت أسعار المأكولات بأصوان ، وانقطع الوارد عن البلد ، وعم الجوع الأهالى على إختلاف طبقاتهم ، واشتد بنوع أخص على الفقراء والغرباء بها . فقام النساء وتجمهرن وهجمن على رقع الغلال فضربن أصحابها بالهراوى والمساوق ، ونهبن ما وجد نهبه[١٧١]بها من الحبوب كالأزره والدخن . ثم لبثن مستعصمات خلف البيوت متهددات ، وبعضهن يزغرتن زغاريت الإستغاثة على عاداتهم[١٧٢]عند وقوع المحذور . وبلغ الخبر قومندان البلد فجاء مسرعا ، وأرسل إلى أولئك النسوة يقول أنه رسم بفتح أشوان ومخازن الجيش وأن يتساوى معها ما يردن بالأسعار الأصلية ، وما زال بهن حتى رضين وعدن إلى السكينة . وجاء خبر ذلك إلى ديوان الأمير ، فكلم الرئيس مصطفى فهمى باشا فى شأنه ، ورسم له بإلفات نظرا السردار إلى راحة أولئك البائسين . وتفشى خبر ذلك بين الناس فألفتهم إلى تتبع أخبار الحملة واستطلاع حوادث التخوم رغما عن إهتمام جماعة الإنجليز بوزارة الحرب بكتمانها وعدم إفشاء شيء منها إلا التافه قليل الأهمية . ومع ذلك فلم يكن ليخفى على الناس كثيرا مما كانوا يكتمون ، حتى لقد أخبرنى من أثق بصدقه أن قد جاء الأمر من صاحب سياسة الإنجليز إلى السردار ولورد كرومر بإيقاف الحملة إلى أجل . قال وقد علمت من أوثق المصادر بأنه لما أرسل (هنتر) باشا قائد المقدمة إلى السردار يستأذن بالتقدم بعساكره من (عكاشة)لمداهمة(سوارته) وطرد أصحاب المهدوية منها أو مقاتلتهم حتى يظفر بهم ، فلم يأذن له وحذره من التقدم بالقوة التى هى معه . قال وإنى أعرف بأن جماعة الضباط الإنجليز الذين أتوا بهم من ديارهم وهم نيفا وخمسين ليس لهم عملا يهملونه[١٧٣] عند التخوم لتردد

(١٧١) نهبه = حذفت الكلمة ليستقيم النص .

(١٧٢) عاداتهم = عاداتهن .

(١٧٣) يهملونه = يعملونه .

السردار وعدم بته فى ترتيب جنود الحملة ، وتعيين عدد قواد كل فريق منها . قال وقد قرأت البارحة فى صحيفة التيمس أن عشرة آلاف من عساكرهم الإنجليزية سيزحفون لفتح السودان فى الخريف القابل . فترى من كل هذا أن تقدم الحملة بعد(عكاشة) أمر مقطوع به بعد أن هبت الدول الكبرى من رقدتها ، ومنعت من تطاول يد لورد كرومر والسردار إلى الأموال المودعة فى صندوق الدين ، فتعذرت على السردار النفقة وضاعت حيلة لورد كرومر .

وقد عهد إلى قبيلتى(شايحيا[١٧٤])(والميكات) المصافيين للإمارة بخفارة ضفة النيل القبلية ، إلى[١٧٥] قبيلتى(نقاده)(وكبابيش) بحراسة الضفة الغربية . ودركوا جماعة من قبيلة (العبابدة) بحراسة الصحراء الشرقية . فجعلوا يجوبون أطرفها ومعهم أربعة من كبار مشايخهم .واشتد قلق الإيطاليان والإنجليز وتطيرهم من تحالف الحبشان والدراويش بسعاية الروس والفرنسيس على مقاتلة الإنجليز والإيطاليان ، وطردهم من مواقفهم . ونادى أصحاب الصحف الإيطالية بالويل والحرب من وراء البحار . واستدركت صحف الإنجليز لا سيما صحيفتهم الكبرى فأزاعته[١٧٦] أنه لم يتقرر ولن يتقرر تسيير عساكر إنجليزية لفتح السودان الآن ، فإن ذلك يتوقف على الظروف وظواهر الحال . وسافر السردار من التخوم إلى(سرس) فى سابع عشر إبريل من السنة ، رابع ذى القعدة ، والتقى فيها (بهنتر باشا) عائدا من (عكاشة) فتكلما طويلا فيما هم فيه . ثم رجعا معا إلى وادى حلفا . وبدت منه ذلك اليوم علامات السكون والتربص ، وخفت تلك الحركة أو كادت فى حلفا . وجاء الخبر من سواكن باجتماع قواة[١٧٧](لويد)باشا (وسيدنى بك) فى (خور ونترى) وارتد العدو إلى(خور

---

(١٧٤) شايحيا = شايجيا (الشائقية)

(١٧٥) الى = وإلى .

(١٧٦) فأذاعته = فأذاعت .

(١٧٧) قواة = قوات .

أوشـات) وأن (عـثمـان دقنه) ينوى الرجوع إلى (ادرامه[١٧٨])لإعادة الكرة بمن عنده من المقاتلة ، وأنه على عزم مهاجمة الإيطاليان وقطع شأفتهم . وبلغت هذه الأنباء المزعجة أصحاب سياسة الإيطاليان فأزعجتهم أيما إزعاج . قيل وأشار ملكهم بالكف عن هذه الحرب واسترجاع جنودهم بغير معاودة . وقامت ضجة أصحاب صحفهم وأنحوا على (الكولونيل ستيفانى) أحد قوادهم باللائمة . قالوا (فقد كانت مهمة الرجل قائمة فى أن يحمى القافلة التى تأتى إلى كسلا فى كل شهر حاملة الزاد لحاميتها والمرابطين فيها عند ذهابها ، وعند إيابها .وقد أفلح فى هذه المهمة . قالوا ولذلك لا يعلم لماذا هاجم الدراويش فى(توكريف) وأهاجهم حتى أصلوه نارا حامية ومثلوا بجنده تمثيلا ، فى حين لم يؤذن له بذلك ، حتى جلب على إيطاليا تلك الخسائر المؤلمة . قالوا ولذلك فإن دولة إيطاليا مصممة أن تقتصر الأعمال الحربية فى هذه الآونة على حماية كسلا التى ستؤول بعد كل هذه الحرب الطاحنة إلى دولة الإنجليز ، لأن الجنود الإيطالية لم تحتل كسلا إلا على حساب الإنجليز وبإرادتهم ، وسوف تأتى الجنود الإنجليزية المصرية لتحتلها مارة فى رابعة النهار بمصوع التى هى مقر السلطنة الإيطالية وليس بعد ذلك أمر شنيع . قالوا ولا مراء فى أن المهمة التى ألحق من أجلها (الكولونل سلاد الإنجليزى) بأركان حرب (الجنرال بلد يسيرا) قائد الجيوش الإيطالية إنما هى لكى يهيىء السبيل لاحتلال جماعة الإنجليز ربوع كسلا . وسينجلى الإيطاليون عن البلد إذا لم يكن فى جلائهم عنها خطر عليها كما يريد جماعة الإنجليز . قالوا أما الآن وقد أعلم صاحب السياسة الإيطالية صاحب سياسة الإنجليز بأن لا غرض للحكومة الإيطالية البتة من الدخول فى مسائل السودان ، فقد أوقفت حملة دنقلة وبات فى حكم المقرر عدم الترفع إلى ما دار بعكاشة[١٧٩] . ولكن إذا أصبحت كسلا فى يد الإنجليز

---

(١٧٨) راجع حاشية ١٧٠ ص ٥٩٤ .
(١٧٩) دار بعكاشة = وراء عكاشة .

وفازوا بها بعد إرواء أديمها بدماء الإيطاليان ، فربما إستأنفوا الكرة على أصحاب التعايشى فى فصل الخريف المقبل . قالوا ولكن من المستحيل أن نترك كسلا التى سقيت بدمائنا دون أخذ عوض عنها) أ٠هـ فتأمل . وجاء الخبر فى حادى عشر إبريل من سواكن إلى قصر الإمارة ووزارة الداخلية بأن قد جاء المدد إلى جيش عثمان دقنه من المشاة والركبات[١٨٠] ،وأنه يتأهب لإعادة الكرة على المرابطين من المصريين والحيلولة بينهم وبين معاونة جماعة الإيطاليان ، حتى إذا صار[١٨١] بجيوشه للقتال إنهالت الدراويش على التخوم القبلية وقاتلوا من بها من المرابطين وأصحاب المراصد . وكان إلى هذا الحين لم يتم عقد الصلح بين الحبشان وجماعة الإيطاليان بالرغم عن الشروط المعتدلة التى وضعها منليك ملك ملوك الحبشة . فأكبر الحبشان هذا الأمر وأعظموه جدا وحرك سواكن غيظهم وسخطهم وأصبحوا متشوقين إلى إعادة الكرة على الإيطاليان وإصلاء نار العداء بعد إنتهاء فصل الأمطار . ورسم منليك بجعل جيوشه الإحتياطية على قدم التأهب والاستعداد بعد إنقضاء فصل الامطار . ورسم أيضا بنقل سائر الاسرى إلى ما وراء (شوا)أى إلى(قلعةتامو) فى مقاطعة(رجاما) الواقعة على بعد سبعمائة فرسخا من مصوع . وقد كان[١٨٢] إلى ذلك الحين متروكين فى بلاد (الواك) ، وهى ولاية فى جنوبى (عدوه) ريثما يتم عقد الصلح الذى كان النجاشى مستأنفا[١٨٣] من[١٨٤] إتمام عقده بعد الوعود التى حملها اليه (الماجور سالسا) الإيطالى ، ولكنه لما مدت السياسة الإنجليزية إلى[١٨٥] ذلك الصلح ، وعبثت بشروطه عبثها المعلوم فى كل هام وخطير ، وقد جرى جماعة

(١٨٠) والركبات = والركبان .
(١٨١) صار = سار .
(١٨٢) كان = كانوا ــ أى الأسرى الإيطاليين .
(١٨٣) مستأنفا = مستاءاً قراءة اجتهادية .
(١٨٤) من = من عدم أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٨٥) الى = يدها إلى أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

الإيطاليين بمصوع على خطة جديدة من النجاشى . فرسم فى الحال بإرسال جميع الأسرى إلى ذلك الحصن ، ولم يبق فى معسكره إلا نفرا من كبار الضباط . ويقولون فى (شوا) أن عدد أولئك الأسرى زهاء الثلاثة آلاف أسير ، وهم يعاملون بالحسنى وزيادة .ولكنهم يستخدمون فى بناء الحصون والقلاع والكنائس وخشونة الطقس تؤزيهم(١٨٦) ، وجراحهم لا زالت تؤلمهم ألماً شديداً . كل هذا وقع لسعى أصحاب السياسة الإنجليزية فى إخفاق سعى الساعون فى عمل الصلح مع النجاشى . والكف عن تلك الحرب الطاحنة .

وأخبرنى أحد كبراء الجند المصرى على عهد الخديو توفيق أن جاءه كتاب من صديق بالتخوم يقول أن جند الأورطة الحادية عشرة السودانية المعسكرة فى (عكاشة) رفعت إلى السردار محضرا تطلب به إستبدال مقدمها(جلسن(١٨٧) بك) الإنجليزى بآخر مصرى أو سودانى لأسباب كثيرة . فأبى عليهم السردار ذلك ، فتجمهروا وهموا بالإيقاع (بجكسن بك) لولا جماعة الضباط المصريين الذين حالوا بينه وبين أولئك الجند .

قال مخبرى (والأمر صحيح لا شك فيه ، وهو ما كنا نتوقعه ، لأن طباع أولئك القوم الإنجليز ليست من اللين فى شىء ، وأخلاقهم لا تنطبق على المألوف عند القوم السود .فإذا لم يتلاف(١٨٨) السردار الخطر قبل إستفحاله ،ويأمر مقدمى الجند من الإنجليز بترك تلك الشدة والتلطف مع رجالهم فشلوا . وكان الجفاء من لوازم إنكسار هذه الحملة) . قال ولقد سمعنا السردار كثيرا ما يقول أنه لايعول كثيرا على بسالة الجنود المصرية ، ولكنه يعتمد على همة وإقدام الجنود السودانية ، ويؤمل بأن سيكون النصر حليف صفوفهم .قال ذلك فى كثير من المحافل الحافلة بأصحاب السيف والقلم . فإذا كان هؤلاء وهم أهل نجدته

---

(١٨٦) تؤزيهم = تؤذيهم .
(١٨٧) جلسن = چاكسون .
(١٨٨) يتلاف = يتلافى .

وأصحاب نصرته قد كرهوا البقاء تحت سيطرة إخوانه الإنجليز وأبغضوهم علنا حتى هموا بالإيقاع بواحد من كبارهم ، فكيف تتحقق أحلامه وينول بهم مرامه؟ أللهم إن ذلك لبعيد وأن الخطب مدلهم شديد) . قال(وسمعنا بعد ذلك أن أهل الحرب بديار الإنجليز أسار(١٨٩) على صاحب سياستهم بإرسال أحد كبارهم للقيادة العامة لتلك الحملة بدلا من السردار . وتفشى خبر ذلك بين أهل المناصب وأصحاب الخطط ، فكبر الأمر عليه(١٩٠)وأعظمه جدا ، وهو يرى فى نفسه القدرة على قيادة أكبر الجيوش لأكبر الدول .وربما كان يعتقد فى نفسه أن حرمته قد زادت لدى قومه بطول أمد قيادته للجيوش المصرية ، وأن عصيانه فى حادثة الحدود(١٩١) مع أمير البلاد ووشايته فى حقه ، وهو الذى أغدق عليه النعم وولاه أكبر المناصب وقربه إليه على الرغم من معارضة قومه فى بقائه متربعا فى هذا الدست الذى هو أسمى من مقامه الحقيقى عندهم ، يكون شفيعه فى مثل هذا الحال .

غير أن الحوادث جاءت مخيبة لآماله مسفهة لأحلامه ، ولا خفاك أن عشرات(١٩٢) الآمال ليست بالشىء التافه الضئيل) . قال وإن كنا لاننكر عليه أنه جنديا بحتا ولكننا لا نعرف أنه من حسن الإدارة والتدبيرفى شىء ، وهذا ما جعل الجيش المصرى منحط فى رئاسته إلى الدرك الأسفل . حتى لقد ساءت حال العساكر المصريين وانكسرت قلوبهم وضعفت آمالهم بعد أن ميز عنهم السودانيين وخصهم بكل عناية وتفضيل .فقوله بأنه ضعيف الأمل بنجاح الحملة بعيد الرجاء فى ثبات الجنود المصرية أمام الأعداء قد أنزل من قدره فى أعين مواطنيه ، وقضى عليه لا على العساكر المصرية ، وبات من هم أصحاب الحرب فى ديار الإنجليز إستبداله بآخر أعظم أصلا وأقدر على تدبير الجيوش

(١٨٩) اشار = أشاروا .

(١٩٠) يقصد السردار .

(١٩١) راجع حاشية ١١ـ ص ٢٧١ .

(١٩٢) عشرات = عثرات قراءة ترجيحية .

وتسـيـيـرها وعـدم صـرف الأمـوال جـزافـا ، وأنـت تعلم وكـل الناس يعلمـون أن بطرس باشـا غـالى لم يطق البـقـاء فى منصب وزارة الخـزينة إلا لامـتناع هذا السردار من إعطاء الوزير حسابا عن تلك الأموال الطائلة التى تناولها تباعا برسم نفقة الحملة . حتى لقد طال الأخذ والرد بينهما أياما من الدهر ، وشدد الوزير وهدد وظل على عزمه حتى جاءت كتب صاحب سياسة الإنجليز بترك السردار وشأنه ، وأن لا يسأل عما ينفقه إلا سؤالا إجماليا ، حتى إذا قال أن ما عنده قد أنفق أخذت الخزينة قـوله كأنه منزل من عزيز حكيم ، ووجب عليها أن تمده بما يشـاء بغير معـاودة) . قال وأما عسـاكرنا المصـرية فـهـم ويعلم الله كـسائر عسـاكر الدول يكونون كما يكون قائدهم . وقد أثبتت[١٩٣] بسالتهم على عهـد محـمد علـى باشا ، وإبراهيـم باشا ،وفى عهـد عباس ، وسعيد ، وإسماعيل ولم يغيرهم الآن ،ولكن قـوادهم تغيروا ، وقد كان رأسهم قديما يمثل لأهل الحروب فاتح الشام ومدوخ آسـية الصغـرى . وأما رأسهم اليوم فلا يمثل إلا (بطل وشاية الحـدود) وصاحب العزية[١٩٤] المذمومة على أمير البلاد) . قلت ويتحدث الخـاصه فى هذه الايام أن السردار ينوى التـقـدم إلى دنقلة على حـين فـجأة ، ليتسنى له فتحها قبل أن يأتى القائد الإنكليزى ألذى عهدوا إليه بالقيادة العامة بدلا من السـرادار .وعندى أن هذه الإشـاعه وإن كان لم يعلم منبع صدورها ولا المحل الذى تستحقه من الثقة ،غير أنها إشاعة خطرة ، ذات عواقب جسيمة وتبعات ضخـمة إن صحت . والذى يغلب على الظن أنه مهما بلغ من السردار حب المجـد الذاتى ، فهـو لا يستطيع أن يهـاجم دنقله بالألوف المـولفـة من العسـاكـر إبان الحر المحرق الذى يقاتلهم أشـد من قتال الأعداء . فضـلا عما يقتضى مسـالك دنقلة الخطرة من الحكمـة والتـربص الشـديد لاجتيـازها وإلا تضاعف ما يراق من الدماء ، وتبدلت الأحوال تبديلا . واشتد خوف أصحاب

(١٩٣) اثبتت = أثبتوا .

(١٩٤) العزية = الفرية .

الحل والعقد على سواكن وما والاها بسبب تحفز عثمان دقنه للوثبة عليها وقلة عدد أصحاب المراصد فيها ، فاجتمع الوزراء فى مجلسهم وتناجوا فى الأمر طويلا حتى قرروا فيما بينهم إرسال قسم من قوات وادى حلفا إلى سواكن تعزيزا لحاميتها . قيل وشدد السردار فى ذلك وأصر على رأيه ، ولم يعلم الناس ما حمله على هذا التشديد . وبقى الأمر مكتوما لم يتجاوز صدور الوزراء إلى حين ، حتى جاءت الأنباء الصحيحه بأن منليك نجاشى الحبشة قد عدل عن الصلح مع جماعة الإيطاليان لنكثهم العهد كما تقدم القول ، وأنه أرسل إلى التعايشى وعثمان دقنه يدعوهما إلى إضرام نار الوغى فى سائر التخوم السودانية شرقا وجنوبا ، وهو يفعل كذلك مع أولئك القوم الإيطاليان . وسير قائد الجيوش الإيطالية كتبه إلى صاحب سياستهم أنه ورد إلى(الجنرال بلد يسيرا) كتابان أحدهما من النجاشى والآخر من الرأس منغاشيا . وقد قال النجاشى فى كتابه أن (الماجور سلسا) الإيطالى لم يقبل مقدمات الصلح ، ويتباطىء فى عمله ، فلذلك يطلب استرجاع كتابين متعلقين بتلك المخابرات . وأنه قد أمسك (الماجور سلسا) رهنا فلا يطلق سراحه إلا بعد إستلام الكتابين . فكبر خوف(الجنرال بلد يسيرا)وأرسل إليه الكتابين فى الحال ،وهو يستعطفه بأن لا يعوق (الماجور سلسا) ويطلق سراحه . وأما الرأس منغاشا فيقول فى كتابه أن النجاشى أكد له مودته(للجنرال بلد يسيرا) وأنه هو ــ أى الرأس منغاشا – يحب الصلح ويسعى وراءه . فأكبر ملك إيطاليا خبر إنقطاع مخابرات الصلح مع النجاشى وأعظمه جدا ، فجمع الوزراء فى مساء اليوم الذى وردت فيه تلك الأنباء المخيفة وتداول معهم فى الأمر . قالت صحفهم وكانت دلائل القلق والخوف بادية على وجه الملك . قالوا لأن إنطقاع[١٩٥]مخابرات الصلح تجعل مركز(حامية أديكرات)حرجا مخيفا للغاية ، رغما عما هو عند الحامية من المؤن والذخيرة التى تكفيها إلى نهاية شهر إبريل المقبل .

---

(١٩٥) انطقاع = انقطاع .

وأمسك الدراويش فى هذه الآونة عن إرسال المدد إلى (سواردة) . قالوا حيث قد بلغ عددهم بين (سواردة)(ومفراقة) أربعة آلاف مقاتل ، وكلهم بصحة جيدة . أما الجنود الإنجليزية هناك فقد تفشت بينهم الأمراض المختلفة لا سيما منهم الفرقة المعروفة بفرقه ستافورد شهير[١٩٦] .فاهتم كبارهم بإقامة المستشفيات على ضفة النيل فى وادى حلفا . وأكثروا من طلب الأطباء والأدواء ،وكثر عدد مرضاهم كثرة بالغة . وبلغت الحرارة مبلغا عظيما جدا ، فكانت من أكبر العلل لانتشار تلك العلل .

ومن أغرب ما روى عن التعايشى فى هذه الأيام أنه أرسل كتبه إلى الأمير ، والوزير مصطفى فهمى باشا . يقول(إنا لا نقاتل قط العساكر المصرية إذا كان كبارهم من المسلمين ، ولا نبرح على قدم الحرب والنزال ما برح أولئك القوم الإنجليز يقاتلوننا بالعساكر المصرية) . قال قد سيرنا إليكم رسولا من عندنا يدعوكم إلى إعادة إتصال التجارة بين مصر والسودان ، بأن ينشأ بلدا متوسطا ينتهى إليه تجار القطرين ، ويتبادلون فيه المعاملات) . قال ولما كان لابد لإنشاء هذا البلد من النفقة فأعلمونا بما يجب علينا دفعه بشرط أن يكون فى ذلك حاكمان أحدهما ينوب الحكومة المصرية ، فيتولى شئون المصريين ، والآخر من قبلنا ليتولى شئون أبنائنا السودانيين ، والله سبحانه يحكم بيننا) . فلما بلغ الرسول بالكتب وارى[١٩٧] حلفا وقبل القاهرة والأول أصدق ، أخذها منه أصحاب المراصد من الإنجليز وردوه خائبا . فما هو أن برح(عكاشة) حتى رسم السردار لقتال طلائع الحملة مع[١٩٨] الدراويش المرابطين وراء عكاشة . فقام القتال بين الفريقين أياما ثم أفترقوا بعد خسارة عظيمة من الجانبين . وعندى أن الخبر صحيح والإقتراح مليح للغاية لو أنصف جماعة الإنجليز

---

(١٩٦) ستافورد شهير = ستافوردشاير Staffordshire .

(١٩٧) وارى = وادى .

(١٩٨) مع = من .

وخففوا من غلوائهم ، ولم يطوح بهم سر سياستهم الخفى إلى الاستباد(١٩٩) بسائر أمور الإمارة ، حتى بحقوق واختصاصات الأمير . على أن فتح باب التجارة وإرجاع صلاتها بين الفريقين يسهل إسترجاع بعض السودان إذا لم نقل كلها بالطرق السلمية ويخفف من حملات أصحاب التعايشى على التخومين الشرقى والقبلى ، ويذهب سوء الظن بحكومة البلاد . فالذى فعله جماعة الإنجليز إن كان بإيعاز من عميد الإحتلال كما يقولون أو بإشارة السردار كتشنر باشا شر على مصر وأهلها ، كما هو على السودان ومن فيه . وليس من ورائه إلا استفحال الخطوب واشتداد الكروب والله سبحانه بالخاتمة عليهم .

وعادت وزارة الحرب وديوان السردار إلى القول بأن (الشيخ عمر طيطه) أحد مشايخ العربان المصافين لعرش الإمارة قد هاجم الدراويش عند(العقبة) وقاتلهم قتالا عنيفا ، فهزمهم وقتل نفرا منهم فولوا الأدبار . وقف(٢٠٠) إسترجع العقبة(٢٠١) منهم ، وأن لموم عثمان دقنه قد إنفضوا من حوله لحقد التعايشى عليه والعزم على الفتك به ، وأنه عازم(٢٠٢) الإستسلام إلى صاحب المهدوية . قالوا هذا كله فتحدث به الناس ونقله أصحاب الصحف إلى الآفاق وفرح به أصحاب صحف الإنجليز . فما هى إلا عشية وضحاها حتى جاء النبأ الصحيح بأنه ما بلغ عثمان دقنه(أركويت) التى تبعد عن سواكن أربعين فرسخا واستقر بها حتى قلق أصحاب المراصد من جماعة الإنجليز ، وتطيروا من بقائه فيها ، فسيروا طايفة من الجند ليستطلعوا غايته ، وأن يحادثوا القبايل المصافية فى أمره لعلهم يعرفون شيئا عنه . فكان أولئك القوم المصافين يوما مايقولون أن قوة دقنة لاتتجاوز مائتى رجل ، ويوما يشيعون أنها مائة وخمسين ، ويوما يزعمون أن عثمان دقنه قد أصبح من المغضوب عليهم ، ويوما يزعمون أنه قادم فى

---

(١٩٩) الاستباد = الاستبداد .

(٢٠٠) وقف = وقد .

(٢٠١) العقبة = عقبة أركوتت

(٢٠٢) عازم = عازم على أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

جيش جرار لمقاتلة العساكر المصرية فى سواكن ، حتى صار فى حكم المقرر عند جماعة الإنجليز أن قوته لا تزيد على ألفى مقاتل بين راجل وراكب . فأركنوا على هذه الروايات والأنباء الكاذبة القائلة باسترجاع (عمر طيطه)(العقبة أركويت) . وجمعوا فى الحال جيشا من ألف مقاتل من المشاة والركبان والهجانة من سواكن ، ومن العساكر السودانية المرابطين فى (طوكر) وارتحل هذا الجيش مع لويد باشا محافظ البلد .وقد سير كتبه إلى سندى[٢٠٣] بك قائد حامية طوكر بأن يسير أيضا بقوته التى يبلغ عددها مائتين وخمسين من السود ، ويلاقيه فى(خور ونترى) الواقع فى أسفل (عقبة أركويت) . ومن هناك يصعدون فى العقاب الوعرة التى قال(عمر طيطه) أنه محتل لها مع رجاله ويهاجمون كلهم أصحاب دقنه .

سار هذا الجيش فى صبح الأربعاء خامس عشر إبريل من السنة من سواكن ، بعضه على ظهور الهجن ، وبعضه على ظهور الخيل ، والبعض الآخر على ظهور الحمير .ومازال سائرا حتى إذا وصلوا إلى(خور طهورى) ألذى بينه وبين(خورونزى[٢٠٤]) نحو أربعة فراسخ أو يزيد جاء إلى(لويد باشا) من أعلمه بان الدراويش نازلين عند ذلك الخور ومقيمة[٢٠٥] على المياه . فان[٢٠٦]عمر طيطه ترك العقبه فاحتلها العدو . فأكبر الأمر جدا ، وسيرفى الحال جماعة الفرسان ورسم لهم بالتعجيل في ملاقاة القوة القادمة من (طوكر) وإعلامها بما وقع . فلم تبلغ أولئك الفرسان ذلك الخور حتى هاجمهم جماعة من الدراويش فى مكان وعر المسالك ، وضيقوا عليهم المذاهب وأصلوهم نارا حامية فقتلوا منهم ثمانية عشر . ورأى مقدمهم البكباشى(فنك) الإنجليزى أن الدراويش ظافرون بهم ، وقد أقبل الظلام وولى النهار ، فترفع بمن بقى معه من العساكر

(٢٠٣) سندى = سدنى .
(٢٠٤) خورونزى = خورونترى .
(٢٠٥) ومقيمة =ومقيمين .
(٢٠٦) فان = لأن .

إلى بعض الرابى[٢٠٧] وظلوا الليل كله يطلقون بنادقهم على غير هدى حتى الصباح ، فأعملوا الفرار وخلصوا من تلك البيداء الوعرة .قيل ولم يتمكنوا من دفن موتاهم . وكانت تلك الشرذمة من فرسان الدراويش قد التفت بقوة طوكر فقاتلوها ،فقتل من الجانبين من قتل .وظل المصريون يدافعون على[٢٠٨] مؤخرتهم حتى التقوا فى سادس الشهر صباحا بقوة سواكن . ولما بلغ لويد باشا بعساكره (خور ونترى) رأى أن التربص عند الخور خير من التقدم ، حيث تحقق أن أصحاب التعايشى قد إنتزعوا(العقبة) من يد عمر طيطه (القائد المقدام) . فاستحال على لويد وعساكره أن يصعد إليها كما كان وقع الإتفاق بينهم وبين(طيطه) ، وأن يقاتلوا الدراويش من أعالى تلك العقبة . وعدا ذلك فإنه لم يجد احدا من مشايخ القبايل المصافين ، فزاد يقينه أن فى الامر سر خفى ، وان أولئك المشايخ خاينون لا محالة ، مصادقون فى الظاهر ، ومظاهرون للدراويش في الباطن ، وتحقق أنه إذا خاطر بمن معه وتوغل فى تلك المجاهل والجبال ، فربما أطبقوا عليهم جمعا وأفنوهم عن آخرهم كما فعلوا مع غيرهم ، فقفل راجعا إلى سواكن راضيا من الغنيمة بالإياب ، فدخل فى اليوم الثامن عشر من الشهر[٢٠٩] . وبات ليلته تلك وأصبح وقد رسم بقطع رواتب مشائخ القبايل دفعه[٢١٠] . وثبت للقوم أن أولئك المشايخ إنما هم أعداء ألداء للمصريين والإنجليز معا ، وأنهم يسترقون الأخبار ويعلمون بها أصحاب التعايشى بما يكنه لهم أصحاب المناصب ليكونوا أبدا على حذر واستعداد لمناصبتها . وبينما كان ديوان السردار يذيع خبر إسترجاع (طيطه) للعقبه ، وتبديده لشمل الدراويش ، كان (طيطه) هذا عافاه الله مقيم فى سواكن يتنسم أخبار العساكر المصريه ، ليعلم بها عثمان دقنه الذى لم يبرح (أركويت) وهو معزز مطاع مسموع الكلمة واسع السلطة أينما سار وحيثما صار .

---

(٢٠٧) الرابى = الروابى .
(٢٠٨) على = عن .
(٢٠٩) راجع حاشية ١٧٠ ص ٥٩٤ .
(٢١٠) دفعه = الواجب دفعه أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

وأخبرنى من أثق بصدقه أنه لما ثبت لأولى الأمر من الإنجليز خيانة مشائخ تلك القبايل ، خافوا من إنتقاضهم وخروجهم عن الطاعة ، فمنعوا إخراج المآكل من سواكن وبيعها إليهم ، ومنعوا مداولة صحف الأخبار خوفا من وصولها إلى العدو . وقد أقاموا الموظفين لمراقبة التلغرافات السياسية قبل نشرها حتى لم يعد يذكر فيها من الأخبار سوى التافه قليل الاهمية . وأقاموا غيرهم لمطالعة الصحف عند وصولها إلى مكتب البريد . ويخشى الناس من إقامة آخرين للإطلاع على الرسائل والكتب المخصوصه قبل أن تصل إلى أصحابها فتقطع الرسائل من سواكن وإليها فتأمل .

واهتم السردار بمد خط حديدى من حلفا تتبعه الحملة أو هو يتبع الحملة كلما تقدمت إلى الأمام . فكان ما تم لغاية الرابع من مايو من السنة ، حادى عشرى ذى القعدة سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف للهجرة عشرة أميال ، إذ هم يضعون منه فى كل يوم نحو ميل . قالوا وأن الميرة والمؤونة تنقل من (سرى)[٢١١] إلى (أباد مرات) الواقعة على بعد عشرين فرسخا أو يزيد من جنوب (سرس) على ذلك الخط الحديدى ، وأنهم قد ملئوا كثيرا من الأشوان بالتبن لعلف دواب الحملة فى (عكاشة) مع ما وجد من صعوبة النقل . ووصل إلى القاهرة فى سابع الشهر زهاء الخمسة وعشرين مريضا من عساكر الحدود القبلية ، ونحو الخمسين من حامية سواكن ، فأنزلوها فى مستشفيات العباسية وكلهم يشكون من الحميات الخبيثة والأمراض العفنة بسبب الحر الشديد والعمل تحت أشعة الشمس المحرقة ، فأرسل الأمير من يسأل عنهم ويطيب خواطرهم .

ولما كان صبح الخميس سابع مايو من السنة ، ورابع ذى القعدة سنة ثلاث عشرة وثلثمائة وألف أطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذانا بقيام ركب الأمير إلى مصيفه بالإسكندرية . وكان قد ودعه المودعون من الأمراء والكبراء

(٢١١) سرى = سرس قراءة ترجيحية .

وأهل المناصب وأصحاب الخطط بقصر الإمارة فى يوم الثلاثاء خامس الشهر ، فوصل الإسكندرية قبل الظهر بساعة وسار فى موكبه إلى قصر رأس التين ، فبات فيه ليلة ، وأصبح وقد رسم بعدم عمل التشريفة الكبرى إلا بعد أيام . وكان جماعة الوزراء قد حضروا فى ركابه ، فلم يلبثوا بالإسكندرية إلا يوما وبعض يوم ، ثم رجعوا إلى القاهرة ليقيموا بها حتى يأتيهم الطلب من ديوان الأمير . فلما كان يوم السبت تاسع الشهر عملوا التشريفة الكبرى بقصر رأس التين . فجاءها سائر الأمراء من البيت العلوى والوزراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط ، ودخلوا على الأمير بملابس الزينة والتشريفة فهنأوه بسلامة الوصول ، فكان فى يومها باشا طلق المحيا كثير التلطف مع المهنئين . وزاره بعد ظهر ذلك اليوم القناصل ووكلاء الدول . وفى ذلك اليوم جاء الخبر إلى ديوان الأمير بناء على ما جاء وزارة الحرب من أنباء التخوم بأن عثمان دقنه إنحدر إلى(أدرامه) وهو على عزم الذهاب مع(أحمد فضل) أحد كبار دعاة المهدوية إلى العطبرة ، وأن الخليفة عبد الله قد سير عسكرا يبلغ عددهم ألف وخمسمائة مقاتل لتسكين ثورة قامت غربى كردفان ، وأن قد تحقق أن النجدة قد سارت إلى كسلا لتعزيز قوة الدراويش بها . وكذلك جاءت نجدة أخرى إلى حامية دنقلة . وأن عبد الله ينجد[٢١٢] القبائل قهرا ويتأهب لقتال شديد . وتفشى هذا النبأ بين الناس وتكلم فيه أصحاب الصحف على إختلافها ، وحسبوا لقيام الدراويش ومقاتلة الجنود المصريه فى إبان الحر الشديد حسابا كبيرا . وكانت الأخبار قد وصلت من سواكن أيضا بفوز جماعة الإيطاليان على الحبشان واسترجاع (أديكرات) ،وأنهم أظهروا فى استرجاعها بسالة وإقداما نادرين فى معاعم[٢١٣] الحروب .ففرح الإيطاليين نزلاء القاهرة والإسكندرية ، وطافوا زمرا ينشدون أناشيد السرور . وجعلوا يهنىء بعضهم البعض ، فسمعت أحدهم يقول

(٢١٢) ينجد = يجند قراءة ترجيحية .

(٢١٣) معاعم = معامع .

لآخر بالإيطالية ما ترجمته(سلام على بطل أديكرات) فأجابه(سلام على الراية الخافقة) . فما هى إلا عشية وضحاها حتى جاء الخبر من رومية عاصمة الإيطاليان عن صاحب سياستهم بأن(أديكرات) لم يمكن إستخلاصها ولن يمكن ،ولذلك قد سير الكتب إلى قائد الحملة بتركها بما فيها من سلاح ومتاع وجعل خط (مأرب بيليزا) حدا فاصلا بين أملاك النجاشى والمستعمرة الإيطالية . قال فإذا فعلنا ذلك وما نحن إلا فاعلون فزنا بعقد الصلح وتقررت قاعدته بين الطرفين ، وتخلصنا من متاعب هذه الحملة الهوجاء . فلما سمع رجال دار ندوتهم هذا الكلام صاح بعضهم(قد سجلنا عليك هذا القول فأنت المؤاخذ به ، وقد عقدنا منصبك فإن رجعت أسقطناك وكانت الحركة خطيرة) .فقال وإنى مبشركم بأن الرأس أغوستيفارى قد أعاد إلينا خمسه عشر من الاسرى الذين كانوا معتقلين فى معسكره ، فارسلنا إليه رسائل الشكر على صنعه هذا أ٠هـ

وكانا(٢١٤) صاحب السياسة الإنجليزية ولورد كرومر إلى هذا الحين يتبادلان الرأى فى هل الحركة القائمة الآن من جماعة الدراويش حول سواكن ومصوع بعد إنحار(٢١٥) الجيوش الإيطالية وعجزهم عن مقاومة الحبشان تستلزم الإستنجاد بطائفة من العساكر الهندية ، أو أن أصحاب المراصد هناك يكفون لرد غارة العدو . وكانت صحف أخبارهم تنقل من ذلك شيئا فى كل يوم ، حتى جاء الخبر فى ثانى عشر مايو من السنة بأن قد تقرر بين أصحاب الحل والعقد عندهم إرسال فرقتين من المشاة وفرقة من الفرسان وأخرى من أصحاب المدافع الجبلية من العساكر الهندية إلى سواكن ، حيث تكون حامية بها وبطوكر ، مع فرقة من العساكر المصريه ، وأن جميع المرابطين الذين كانوا

(٢١٤) وكانا = وكان .
(٢١٥) انحسار = اندحار .

بسواكن وطوكر يقومون إلى التخوم القبلية للحاق بالحملة[٢١٦] . قالوا وأن لا بد من قيام الخرينة المصرية بالنفقة على كل حال . وتفشى خبر ذلك بين الدول الأخرى حتى بلغ مسامع السلطان عبد الحميد وهو فى قصره ، وكانه أحس بما وراء هذا الإحتلال الجديد فى سواحل البحر الأحمر من الخطر الداهم على أملاك الدولة هناك ، فأرسل إلى ديوان الأمير يقول أذا كانت ماسة[٢١٧] لإرسال جنود عثمانية يشتركون فى العمل مع الجنود المصرية أو أنهم يقيمون فى سواكن حامية بحصونها أيام الحملة على دنقلة . فأشار الأمير باجتماع جماعة الوزاراء بحضرته ، وتناجوا فى الأمر ساعة ثم أرسلوا إلى(المابين)يقولون أن الحالة لا تدعو إلى الإنجاد الآن فإذا دعت إلى ذلك فإن الدولة المحتلة ترسل جندا من عندها أ٠هـ وشاع خبر ذلك وتناقله الناس فلم يستحسنوا عمل المابين وعابوه جدا . وقالوا أنه كلما سنحت الفرصة وظهر انتفاعها إلى أهل ذلك(المابين) عمدوا إلى المواربة والمماحكة ، واسترسلوا فى الإستعلامات السمجة التى ما أنزل الله بها من سلطان ، حتى أضاعوا الكثير من أملاك الدولة ، وأذهبوا من كرامتها فى أعين رعاياها . قالوا ولولا هذا الخبط والخلط ما رأينا أصحاب الإحتلال بين ظهرانينا كل هذا الزمان .وعندى أن الأمير ووزراءه تجاه كل هذه السياسة العوجاء معذورين . فإنك كلما قلبت الطرف فى مناحى

(٢١٦) لدى وصول أنباء حملة دنقلة إلى المهديين بادورا بإرسال تعزيزات إلى (دنقلة)ـ وإلى قواتهم فى الشمال ـ وتقدمت هذه القوات صوب (كوشة) فاحتلتها فى ٢ أبريل ١٨٩٦ ثم احتلت (فركة) يوم ٢٨ من نفس الشهر . ولمقابلة ذلك فان الماجور (رائد) برن ـ مردوخ Burn– Murdoch من الخيالة أرسل فى أوائل مايو ١٨٩٦ إلى عكاشة مع بلوك من الفرسان للقيام بأعمال الإستكشافات تجاه (فركة) يعاونه ثلاثة بلوكات من السوارى المصرية ، والأورطة الحادية عشرة السودانية ـ ودارت مناوشات بين هذه القوات وقوات المهديين التى كانت تنوى مهاجمة أو مناوشة حامية عكاشة لإخراجها كى تطاردهم فى الصحراء ليوقعوا بها ـ لكن هذه القوات قابلت القوات المهدية بين (عكاشة) و (فركه) وردتها على أعقابها . و(فركه) قرية وحلة على الضفة الشرقية للنيل وعلى بعد ١٥ ميلا جنوب (عكاشة) .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٨ .

(٢١٧) ماسة = الحاجة ماسة اضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

سياسة القوم تحققت أنهم قد غلبوهم على أمرهم وشاركوهم بل استبدوا بسلطانهم ، فأصبحوا ولم يكن معهم تصرف فى أمور المملكة ولا قدرة على دفعهم عنها ، لا سيما بعد أن تولى الرئاسة الرئيس مصطفى فهمى باشا .فقد أدخله لورد كرومر مكامن أسراره وفك له أكنتها وأقفالها ، ورفع له عنها تلك الأستار التى طالما كان يعمل ورائها على عهد وزارة الوزير (مختار[٢١٨] باشا) ، واقتاده صاغرا مستسلما راضيا من المنصب بالإسم ،فعز الأمر على الأمير وأسف البطانة وأحقد الخاصة ، وأغص أهل المناصب وتدرج الكره فيه والقفل[٢١٩] له إلى أواسط القوم ،

ثم إلى العامة أيضا ، فكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك في محله إن شاء الله .

وعاد الوباء للظهور فى القاهرة ومصر القديمة وضواحيها ، وكثرت الوفيات بغتة . فاهتم ولاة الأمور بذلك اهتماما عظيما ، ورسم محافظ البلد بإنفاذ الإحتياطات الصحية اللازم إتخاذها ، وشدد على مأمورى الأقسام بالسهر على النظافة ومنع العامة من الإجتماعات فى القهاوى ، ونشرت مصلحة الصحة كيفية الإحتياطات الواجبة ، وتداول جماعة الأطباء مع كبار شركة المياه المكلفة بسقاية البلد فى الأسباب المانعة بحدوث[٢٢٠] فساد في خزانات المياه ،وأشار أصحاب ديوان الصحة بتحويطها بحواجز من الحديد ،وأقاموا على حراستها جماعة من العسكر ، وعلى الكشف عليها فى صبح كل يوم طبيا . ورسم محافظ البلد بإقفال ميضأت المساجد ، والمغاطس بالجوامع ، ومنع وقوف المراكب بين دار المعاديات[٢٢١] وبولاق مصر ، والطرف البحرى من

(٢١٨) مختار = نوبار قراءة ترجيحية .

(٢١٩) القفل = الغل قراءة اجتهادية .

(٢٢٠) بحدوث = لحدوث .

(٢٢١) المعاديات = العاديات .

جزيرة الروضه ، ومنع غسل الملابس فى تلك الناحية ، وقفل كل حمام مضر ، ونزح كل صهريج أو سبيل غير نظيف . واهتموا بنقل كل مصاب إلى المستشفى الأميرى . وتعددت الإصابات فى أكثر خطط مصر والقاهرة . فانذعر الناس ، وكبر خوف العامة ، وكرهوارؤية رجال الصحة والمولجين بنظافة وتطهير دورهم ، حتى لقد جعلوا يقاتلونهم فى خطة الحسينية والحطابة ووراء الإمام وفى نواحى العطوف . وانبث أعوانه[٢٢٢] صاحب الشرطة فى كل صوب وناحية . وكان إذا أصيب أحد العامة وجاء رجال الصحة ليقلوه إلى المستشفى أو بعيد عن أهله وولده قامت النساء فى وجههم وتعلقن بالمصاب والحاملين له وجعلن يضربن أصحاب الصحة بما معهن وهن صارخات مولولات ، فلا يسع أصحاب الصحة ورجال الشرطة إلا أن يجاهدوا ويدافعوا حتى يتمكنون من إدخال المصاب فى عربة النقل السوداء المعدة لذلك ، فتنهب خيلها الأرض نهبا وأهل المصاب وجيرانهم يترامحون خلفها صائحات مولولات . فكان هذا من أكبر مسببات الزعر[٢٢٣] ودواعى الخوف الشديد . وكانت الوفيات خارج المستشفيات أكثر منها داخلها خصوصا فى خط مصر القديمة .

وأرسل ديوان الصحة إلى سائر المديريات والمحافظات يشدد باتخاذ الوسائل الواقية من انتشار الوباء ، ولصقوا على الجدران فى جميع الشوارع والأزقة والحارات أوراقا تتضمن وصايا للعمل بها تخلصا من الوباء ، حاصل ما فيها أنه ـ توجد جرثومة الوباء فى براز المرضى أو إستفراغهم أو فى غائطهم ، فينتشر المرض بواسطة جميع الأشياء التى تكون قد لامست البراز مباشرة أو بالواسطة كأيدى الذين يعتنون بالمرضى مثلا ، وكأمتعة المريض وملابسه وأدوات فراشه ،كما أن الأصناف الغذائية وخصوصا الماء قد تفسد مباشرة أو

(٢٢٢) اعوانه =اعوان .
(٢٢٣) الزعر = الذعر

بالواسطة من براز المصابين ، مما يكون سببا فى إنتشاره ، فيجب إذن أن نتخذ على الأخص الوسائل الآتية وهى :

لما كانت جرثومة الوباء تقتلها الحرارة ، لا يجب أن تؤكل إلا الأشياء المغلية جدا ، أو المشوية ، وينبغى الإمتناع على الأخص عن أكل النباتات غير الناضجة كالسلطة ونحوها ومن أكل الأثمار ، وفى جملة المشروبات يخشى كثيرا من الماء واللبن . فيجب إذن إغلائهما بمزيد العناية ، ولا فائدة من إتخاذ مثل هذه الوسائل فى أصناف المأكولات والمشروبات إذا كانت توضع بعد ذلك فى أوعية لم يعتن بأمرها ،فينبغى إذن تنظيف الصحون والكبايات والأوانى جيدا وغسلها بالماء المغلى ، ولا ضرر من النبيذ والبيرة الجيدين ولا من المياه المعدنيه الواردة من الخارج ،

يجب الإنتباه الى النظافة التامة فى الأجسام وفى البيوت ، ومن المؤكد أن الأشخاص القذورين هم الذين يصابون بالوباء وينبغى الإحتراس من الذهاب إلى البيوت التى تحدث فيها إصابات بالوباء ، وعلى الذين يعتنون بأمر المرضى أن يتخذوا كل النظافة ، فيلزمهم قبل كل شىء أن يغسلوا أيديهم بكل إعتناء بعد لمس المرضى أو ما يكون مختلطا بهم ، ويستصوب بعد ذلك أن يبلوا أيديهم أيضا فى محلول السليمانى أو حمض الفنيك وهو أمر لابد منه قبل الأكل .

يجب تطهير براز المرضى حالا بحمض الفنيك أو بمذوب الجير ، أما الامتعة التى يوسخها المصابون فيجب وضعها حالا فى الماء المغلى أو فى ماء محتوى على الفنيك ، ويلزم الإحتراس كثيرا من إهمال البراز أو الأمتعة الغير مطهره ، لأن الذباب الذى يقف عليها ينقل جراثيم المرض بكل سهولة وعلى الأخص نحو الغذاء الذى يعود بأشد الضرر ، فيجب إذن تغطية أصناف المأكولات ولو كانت مطبوخة . يلزم فى زمن الوباء عدم الإغفال عن أى مرض كان مهما كان خفيفا ولا سيما الاسهال مما[٢٢٤] كان نوع الإصابة به ، فينبغى

---

(٢٢٤) مما = مهما

الإسراع بقدر الإمكان فى إستشارة الطبيب ، لأن المرض إذا أمكن معرفته ومعالجته وقت ظهوره يؤمل شفاؤه أكثر بكثير مما لو ظهرت دلائله الخطيرة . ولا شىء يعود باكثر ضرر وأذى على المريض وعائلته من إخفاء الإصابات بالوباء .ويوجد ليلا ونهارا فى كل مخفر طبيب مستعد لمعالجة الفقراء مجانا ولتقديم الأدوية اللازمة لهم .قالوا وهنا مقدار السوائل الواجب إستعمالها مذوبة بالماء .

أ ــ محلول السليمانى واحد فى الألفين

ب ــ محلول حمض الفنيك ٣ فى المائة

ت ــ كلورود الجير عشرة فى المائة

ث ــ مذوب الجير الغير مطفى ثلاثين فى المائة . ويلزم تحريك مذوب الجير جيدا قبل إستعماله أ٠هـ . فلما علم العامة بما فى تلك الوصايات من التشديد والتحذير وغسل الأيدى بمحلول السليمانى ، إعتقدوا أن جماعة الإنجليز إنما يريدون بهم الشر من تسميمهم بذلك السم القتال . فكانوا إذا مروا بورقة ملصوقة من تلك الأوراق صاحوا (الله أكبر) وانتزعوها ومزقوها وألقوا بها إلى الأرض ، وكانت ورقة منها ملصوقة على جدار منزل لى بجوار منزلى بشارع الشيخ يوسف ، فلما كان أحد الايام سمعت ضجة وقائل يقول إحرقوا الجدار بما عليه من تلك الأوراق السامة القتالة . فنظرت وإذا بنفر من العامة والسوقة أمام ذلك الجدار وكلهم يريدون نزع الورقة وتمزيقها ، فكان إذا مد أحدهم يده لينتزعها صاح به أحد يقول (إياك وأن تلمسها فإنك تهلك حالا) فينكمش . وذلك القائل يقول(إحرقوا الحائط فتحترق تلك الأفعى الإنجليزى) فقلت ياسبحان الله إن العامة عماء وإذا تركت هؤلاء القوم وشأنهم ربما علقوا النار بالجدار . فاقتربت منهم وقلت ما بالكم خائفون وليس فى الورقة ما يستوجب كل هذا الخوف . فقال قائلهم كيف لا وحكماء الصحة كل أعمالهم شيطانية ،

وهم يميتون الناس فى مصر القديمة وغيرها بسموم هاته الأوراق حتى يفنونا ويعمرون البلد بأصحاب البرانيط منهم . فقلت لن تخافوا وها أنا مريحكم بنزعها من جدار منزلى . وتقدمت وأمسكت بطرف الورقة وانتزعتها فصاحوا جميعا (لا حول ولا مات البيك مات) فقلت إنى بخير وسأمزقها لكم بأسنانى أيضا ، ومزقتها فاندهشوا ، وتماسك بعضهم ببعض وقال قائلهم ذاك اتركوه فإنه مسحور أو مخاوى جنية . فانصرفوا مدهوشين . فالتفت إلى بواب الدار وقلت إذا جاء أصحاب الصحة ليلصقون شيئا من هاتيك الأوراق على إحدى جدران البيت فتلطف بهم ولا تدعهم يفعلون لأن ما كل مرة تسلم الجرة ولا فى كل يوم ترافقنى الجنية .

وخرج سائر عساكر الإنجليز من منازلهم إلى الجبل الأحمر ومدينة حلوان للاقامة بهما حتى تنقضى أيام الوباء .فكان خروجهم داعيا لتشاؤم الناس وتطيرهم ، وأقبلوا إلى الإستقاء من الآبار ، وتركوا ماء النيل لاعتقادهم أن الإنجليز يلوثون بأدوائهم السامة وغسلهم وغير ذلك من ناحية مدينة حلوان . وجاء الخبر فى تاسع مايو من السنة بإصابة نفر من الجنود المصرية الضاربين فى(طره) . فكبر خوف الناس واضطرب النزلاء أيما إضطراب ،ونزح الكثير منهم إلى ديارهم .واشتد الحجر على البضائع المصرية فى سائر الموانئ الشرقية والغربية ، وقررت شركة البواخر الفرنساوية وغيرها أن لا تخالط سائر الموانى المصرية فرارا من الحجر ، فصارت لا تقبل منها مسافرين ولا بضائع . وكأنهم رأوا وجوب دفن الموتى من العامة الذين يموتون بغير غسيل ولا تكفين تفاديا من العدوى . وشاع خبر ذلك فهاج العامة ووقع الهرج وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ، وذهب جماعة إلى (الشيخ حسونة النواوى) شيخ الجامع الازهر ، وشكوا من عدم غسل أولئك الأموات ولا تكفينهم .يقال وصاحوا ما يحل ذلك للإنجليز يامولانا . فهون عليهم وأرسل من ساعته إلى الرئيس مصطفى باشا فهمى وإلى محافظ المدينة بلفت نظرهما إلى ما هو شائع من دفن موتى

المسلمين الذين يموتون بالوباء بلا غسيل ولا كفن ،مع أن ذلك من المواجب الدينية التى تجب مراعاتها والعمل بها كما أنزل الله على نبيه محمد صلعم . يقال فلم يلتفتا لقوله ولم يعملا عملا لممانعة أصحاب الصحة من الإنجليز وتشديدهم فى منع الغسيل والتكفين .فكان إذا مات أحد المصابين من العامة فى المستشفى خرجوا به على النقالة خلسة دون أن يراهم أحد من أهله وولده . فإذا إتفق أن رأوهم سائرون به ترامحوا خلفه صايحين(هاتوه لنا حتى نغسله ونكفنه يا ملاعين هاتوه هاتوه) .وتبعهم الصبيان يرجمونهم بالحصى وهم فى ضجة وصياح وأصحاب الشرطة يطاردونهم ،وهم لا يرجعون حتى يبلغون وإياهم الجبانة ، وحتى يدفن الميت . وكانوا عند رجوعهم أيضا وهم على ولولتهم حتى يتفرقون . وأصيب أحد المجاورين برواق الشوام بالجامع الأزهر فأبلغ عنه شيخ الحارة رجال الصحة . فحضر لنقله جماعة من المكلفين بنقل الموتى للكشف عليه طبيا ، فأبى عليهم ذلك جماعة الطلبة ومنعوهم من الدخول إلى رواقهم . دطيرا[٢٢٥] خبر ذلك إلى محافظ المدينة ، فحضر من فوره ومعه طائفة من الجند وأحد الضباط من الإنجليز . فاجتمع المحافظ بأولئك الطلبة وجعل يلاطفهم ويحذرهم من معاندة أولى الأمر .فلم يلتفتوا إلى قوله وخاشنوه وقالوا لا نسلم قط فى أخينا للقوم الإنجليز . فشدد عليه[٢٢٦] وأغلظ معهم القول ، فهددوه وصاحوا فى وجهه ما يحل لك ياخادم الإنجليز . وملأ صياحهم فضاء الجامع ،فهرع إليه سائر طلبة الأروقة الأخرى .ورأى محافظ المدينة أن لا قبل له على ردهم ، فاستدعى إليه طائفة أخرى من أصحاب الشرطة .فجاءت على الفور بسلاحها وآلات حربها وهم مشاة وركبانا ومعهم(كولس باشا[٢٢٧]) الإنجليزى صاحب الشرطة .فرسم المحافظ إلى رجال الصحة بإخراج الميت عنوة ، فثار المجاورون جميعا ورموا المحافظ وسائر من معه بالحجارة ، فجرح

(٢٢٥) دطيرا = فطيروا
(٢٢٦) عليه = عليهم .
(٢٢٧) كولس باشا = راجع حاشية ٣٦ ص ١٧٤ .

المحافظ فى فمه وفخذه ،وجرح الضابط الإنجليزى فى رأسه ،وجرح كذلك الطبيب وكثيرين غيرهم . فأيئس المحافظ من السلامة ونادى فى الجند أن أطلقوا بنادقكم فأطلقوها ، فقتل أحد المجاورين وجرح أربعة منهم ، وهجم أصحاب الشرطة ورجال الصحة دفعة على الجثة فحملوها ، ومالوا على المشاغبين فقبضوا على مائة وخمسين منهم ، وساقوهم إلى سجن الحوض المرصود(٢٢٨) وتفرق من نجا منهم ولاذوا إلى الإختفاء . فلبث المحافظ ورجال الشرطة يومهم ذلك يطوفون حول الجامع حتى عادت السكينة إلى نصابها . وفى نفس ذلك اليوم الذى هو أول شهر يونيو من السنة تاسع عشر ذى الحجة مات رجلا فى بولاق مصر ، وجاء خبر موته إلى معاون تمن بولاق(٢٢٩) ،فقام من ساعته ومعه نفر من أصحاب الصحة وصندوقا من الزنك لينقل فيه الجثة إلى المستشفى حسب المقرر ، فأبى ذلك عليه أهل الميت وكانوا جما غفيرا ، وكثر صياحهم وضوضاءهم ، وتهددوا المعاون ومن معه ، وتقدموا فجعلوا يغسلون الميت بأيديهم حتى أتموا غسله ونقلوه فى نعش من الخشب ، وحملوه رغم أنف المعاون ومن معه وساروا بجنازته يريدون دفنه ،فسبقهم المعاون إلى ديوان المحافظ وأبلغه خبر ذلك ، وكانت الجنازة حارة والمشهد حافل جدا بالعدد

---

(٢٢٨) الحوض المرصود = مستشفى كان مخصصا لعلاج النسوة العاهرات من الأمراض السرية ويتبع قسم بوليس السيدة زينب ـ وكان به عيادة خارجية لمعالجة المواطنين من الأمراض السرية .
ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٩٥ .

(٢٢٩) تُمن بولاق = أى قسم شرطة بولاق ـ وتعود كلمة الثمن إلى أيام الحملة الفرنسية عندما قسمت المدينة لأغراض الإدارة والأمن إلى ثمانية أقسام . كل قسم يسمى ثمنا . من هنا فإن مقر البوليس أو قسم الشرطة أصبح يسمى (بالتمن) . وظل هذا المسمى قائما حتى ثمانينيات القرن التاسع عشر عندما تحول المسمى إلى (ضبطية) ـ لكن ارتباط المسمى بأذهان المواطنين أبقى إسم الثمن إلى جانب الإسم الجديد فأصبح مسمى مقر الشرطة هو (ضبطية الثمن) . ورغم زيادة أعداد اقسام المدينة عن ثمانية تبعا للتطور السكانى واحتياجات الأمن بعد الاحتلال البريطانى إلا أن اطلاق إسم الثمن Tomn على قسم الشرطة ظل سائدا بصورة عرفية حتى فترة غير بعيدة من القرن العشرين .
ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥١ ـ ٨٦ .

العظيم من أهل بولاق ، وأهل العطوف مسلحين بالنبابيت والهراوى . فرسم المحافظ بخروج قوة من الشرطه مع المعاون لتأتى بالجثة إلى المستشفى . فتربصت لهم تلك القوة عند محطة كوبرى الليمون ، فلما وصل المشهد هجم أصحاب الشرطة على المشيعين بالسيوف فتفرقوا شزرا ،ولانوا إلى الإختفاء وألقوا[٢٣٠] حملة النعش الميت على الأرض وتركوه وفروا هائمين على وجوههم لا يلوون على شىء . فنقل أصحاب الشرطة النعش إلى (التمن) للكشف على الميت طبيا . ثم نقلوا الجثة فى عربة الموتى إلى الجبانة فدفنوها . وفى ثانى يوم لهذا الحادث ماتت إمراة بثمن باب الشعرية . فجاء طبيب القسم للكشف عليها ، فتجمهر الناس حول الطبيب ومنعوه من الكشف ، فاتصرخ [٢٣١] معاون القسم ، فجاء من فوره ومعه نفر من أصحاب الشرطة . فالتف الجمع حولهم وهددوهم ثم انهالوا عليهم بضرب العصى والهراوى . وجاء خبر ذلك إلى ديوان المحافظ فسير عسكرا لخلاص المعاون ومن معه ، فلم يتمكنوا فى ذلك ولم يقدروا على تفريق ذلك الجمع المحتشد إلا بعد العنا ء الشديد . وكشف الطبيب على الجثة ورسم بدفنها .

ووقع غير ذلك كثير من كبير الحوادث وصغيرها ، حتى قالوا أن أهل بولاق مصر لا سيما منهم أهل العطوف كانوا يدفنون موتاهم خفية بحيشان البيوت فرارا من الكشف عليهم ونقلهم بغير غسيل ولاتكفين . ورأى أهل المجون والخلاعة من سكان القاهرة تهييج العامه ، وإصرارهم على القول بأن جماعة الإنجليز هم الذين أتوا بهذا الوباء الأصفر من ديارهم الهندية ليهلكوا به المصرين ويجعلوا بلادهم قاعا صفصفا ، لكى يعمروها بقومهم الإنجليز . وقد رسخ هذا الإعتقاد فى نفوسهم رسوخا لا تزيله حجة ولا يزحزحه برهان . وعمدوا إلى النفخ فى أضرام هذه المحنة بأن جعلوا يلقون فى طرق وشوارع

(٢٣٠) وألقوا = وألقى .
(٢٣١) فاتصرخ = فاستصرخ قراءة ترجيحية .

أحياء العامة وعطوفها قطعا صغيرة من الحلوى المخلوطة بشىء من الإيدام أو الزيت المغلى . فكانت الصبيان والبنات وبعض النساء والرجال يلتقطونهاوياكلونها ، فما هى إلا لحظة حتى يأخذ بعضهم الدوار وبعضهم القىء أو الزرب ، فيصيحون (قتلنا الإنجليز بقتلنا الملاعين بسمومهم) . وتفشى خبر تلك الحلوى بين الناس وتحدثوا به كثيرا . فكانت الآباء والأمهات يحذرن أولادهن من التقاط تلك الحلوى ويقلن إياكم(والكوريرا)الملقاة فى الشوارع (يريدون الكوليرا ألذى هو الوباء الأصفر) . وخاف أهل الحل والعقد عاقبة ذلك ، فبثوا العيون لعلهم يعثرون على أصحاب تلك الفتنة فلم يتمكنوا من ذلك . وظن جماعة الإنجليز أنهادسيسة يراد منها تهييج العامة ودفعهم إلى الثورة والخروج ، فأخذوا حذرهم وأكثروا من تطواف جندهم فى النهار وعسسهم فى الليل ، والشتامين من العامة والسبابين يشتمونهم بأقبح الشتائم وأفظع السباب .

- يقال كان أهل بولاق مصر لاسيما منهم أهل العطوف يغفنون[٢٣٢] موتاهم خفية فى حيشان الدور فرارا من الكشف الطبى ودفنهم بغير غسل ولا تكفين . وأكبر الأمير الأمر فكلم الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك . قيل وونبه[٢٣٣] ، فاعتذر وتكفل بمنع كلما[٢٣٤] من شأنه تهييج العامة واستفزازهم إلى الهرج والخروج على أصحاب الشرطة . وسير إلى أصحاب ديوان الصحة من جماعة الإنجليز يستعطفهم ويستميلهم إلى الرفق بأهل الموتى .وعقد مجلسه وتناجوا فى الأمر طويلا .قيل فاختلفوا وعاب بعضهم على الرئيس إستخفافه بهذه الكارثة وحذروه من شر العاقبة ، فلم ير بدا من الاذعان وسير كتبه إلى أصحاب ديوان الصحة بالتشديد على مأموريهم بترك المشاغبة والإمتناع من معاندة العامة واحترام عاداتهم المألوفة عندهم فى غسل الموتى وتكفينهم والصلاة

(٢٣٢) يغفنون = يدفنون .
(٢٣٣) وونبه = وأنبه
(٢٣٤) كلما = كل ما

عليهم وغير ذلك من العادات ، ففعلوا فسكن هياج العامة وبطل ضجيجهم عند دفن موتاهم . وظل الوباء على شدته أياما كثيرة حتى أخذ فى الزوال تدريجيا .واستراح الناس وقد كانوا إلى يوم زواله لا يعتقدون بأنه الوباء ولا شبه الوباء ، بل كانوا يقولون أن كل مرض أى(٢٣٥) كان نوعه وأعراضه كان أصحاب الصحة من الإنجليز يسمونه(وباء) ويعالجون المريض بأدواء الوباء حتى يقتلونه . وكان هذا الإعتقاد سائدا بين الناس على إختلاف طبقاتهم .فقد سمعت من الجم الغفير منهم أقوالا كثيرة فى معنى ذلك ، مستدلين على صدق نظرهم بطول مكث هذا الداء على خلاف السوابق ، وأنه ليس بمغتال كالأوبئة التى ابتليت بها البلاد قبلا ،وأنه ليس الإنتقال(٢٣٦)حتى أكد لنا أحدهم أن أصحاب ديوان الصحة نبهوا أطباءهم إلى وجوب عد كل مريض موبوء حتى يثبت مرضه عادى .وأخبرنا آخر أن طبيب أحد الخطط لم يحدث فى خطته إلى يومنا الذى نحن فيه إصابا(٢٣٧)بالوباء ، فعنفه أصحاب ديوان الصحة من الإنجليز على ذلك وشددوا عليه بأن يبلغهم عن كل ما يشتبه فيه ولو أقل إشتباه . وسمعنا من بعضهم أن مصابين ماتا بالمرض المعروف بالحصبة ، فقرر الطبيب الوطنى ذلك فى بلاغه لديوان الصحة . فلما وصل بلاغه إلى يد الطبيب الإنجليزى ضرب على كلمة الحصبة ووضع مكانها كلمة . الوباء . مع أن الميتين كانا قد دفنا . فكل هذا وأشباهه يجعل الناس فى ريب من أمر الوباء ونكران لصنع أصحاب الصحة . وعندى أنه إن لم يكن الوباء الأصفر بعينه فهو من نوعه ، وأن طول مكثه فى مصر لا يدل على أنه ليس هو الوباء . فقد سمعنا وقرأنا عنه فى مجلات الفرنسيس والألمان الطبية أنه مكث فى ديارهم طويلا ،وأما عدم فتكه بالخلق فدليل على أن وصوله إلى ديارنا ضعيفا ، وربما إشتد وعظم خطره إذا بلغ الحر مبلغه ، فلله الحمد والمنة على زواله .

---

(٢٣٥) أى = أيا

(٢٣٦) الانتقال = بقتال قراءة اجتهادية .

(٢٣٧) اصابا = اصابات .

وأصبح يوم الأربعاء عشرى مايو من السنة ، وسابع ذى الحجة سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف ، وقد غصت رحبة عابدين بجنود الانجليز من مشاة وركبان وأصحاب المدافع والمهندسين . ووقف لورد كرومر عميد الإحتلال بعربته تحت سارية عظيمة قد نصبوها وطيروا عليها الراية الإنجليزية ،وهو فى ملابس الزينة والتشريف ، وحوله طائفة من كبار الجند ومقدمى العسكر . وقد ملأ ذلك الفضاء أصوات الأبواق وقرع الطبول وعزف الموسيقى بالنشيد الإنجليزى إحتفالا بعيد مولد ملكتهم ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند . فمر الجنود تباعا أمام ذلك السارى ، وداروا ثلاث دورات ثم هتفوا كلهم بالدعاء للملكة . وساروا بسلاحهم ومتاعهم إلى منازلهم بالعباسية ، وقلعة الجبل ، وقصر النيل ، وحلوان . ورجع لورد كرومر فى ركبه إلى مقره ، فزاره بطرس باشا غالى وزير الخارجية بكسوة التشريف مهنئا بذلك العيد .ولبث برهة لطيفة ثم انصرف ، فرد له اللورد الزيارة فى دار الوزارة وعاد إلى مقره . وأطلقت فى ذلك(٢٣٨) المدافع من قلعة الجبل بالقاهرة ، ومن طابية كوم(٢٣٩) الدكة بالإسكندرية ، ورفعت الأعلام فى دور سائر قناصل الدول إجلالا لذلك العيد .

---

(٢٣٨) ذلك = ذلك اليوم أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٣٩) طابية كوم الدكه = طابية بمدينة الإسكندرية ـ تقع داخل المدينة وسورها من ناحية الميناء الشرقى بين سكة حديد الرمل وترعة المحمودية . مبنية على رابية ترتفع ٢٠٠ قدم عن الأرض المحيطة بها ، وتقف بين طريق رشيد الذى يقطع وسط المدينة القديمة من الغرب إلى الشرق ، والسور قرب بوابة باب التودريد bab al-tudrid gate . والطابية حصن عسكرى هلالى قوى ذات حوائط يبلغ ارتفاعها ٤٠ قدما ، والجزء البارز من دفاعاتها يتجه شرقا بغرب . عند الحلق يوجد برجين بطابقين ، والطوابق السفلى تكتنفها كوات للمدافع . وبطانة الخندق يبلغ ارتفاعها ١٥ قدم ، ويمكن تدميرها من البحر ، فهناك خندق عميق يجرى على طول الواجهات الأمامية والجانبية . وفيما وراء بطانة الخندق يوجد طريق مغطى يوصل إلى طريق رشيد فى الشمال وبوابة باب التودريد فى الجنوب ، ويوجد حول قاعدة الرابية متتبعا محيط الأرض خط قوى من الإستحكامات يمتد على طول الواجهة الداخلية من الطريق إلى الأسوار ويسمى قلعة كوم الدماس . وكانت القلعة مصممة لتحمل ٥٠ -٦٠ مدفعا ثقيلا .

-Report on Egypt. Ibid., - P., 322-323.

ـ عبدالرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٨٧ .

وأطلقت المدافع أيضا فى عصر تاسع الحجة من السنة إيذانا بعيد الأضحى الكبير . وأصبحوا وهم معيدون .فلم[٢٤٠] لهذا العيد من البهجة ما لمثله من الأعياد الغابرة ، فإن رجال الصحة كانوا قد شددوا فى منع الناس كافة من زيارة القبور ، ومن الإجتماعات العمومية والحفلات المعتادة فى مثل ذلك اليوم ، فقام أصحاب الشرطة بتنفيذ ذلك . وشدد محافظ البلد على سائقى عربات الركوب وعربات النقل بعدم نقل أحد إلى الجبانات ففعلوا . فكبر أمر ذلك على العامة وعدوه من مشاغبات الإنجليز وقهرهم لأهل البلاد .

وعملوا التشريفة الكبرى بقصر الإمارة برأس التين بالإسكندرية فلم تبلغ المألوف منها فى كل عام .فقد كانت أرسلت الكتب من ديوان الأمير ووزارة الداخلية إلى سائر المديرين والمحافظين وأهل المناصب وأصحاب الخطط الذين بالأقاليم بعدم مجيئهم من بلادهم إلى الإسكندرية مراعاة للأحوال المضجة[٢٤١] ،فلم يحضر منهم إلا النذر القليل . وهؤلاء لم يلبثوا أن عادوا من الإسكندرية على عجل . وبينما الناس يجفلون[٢٤٢] بأيام العيد إذ جاء الخبر إلى وزارة الحرب ووزارة الداخلية بقيام أربعة آلاف من العساكر الهندية إلى سواكن لتحتلها بدلا من الجنود المصرية . وتفشى خبر ذلك بين الناس ، فتحدثوا فيه كثيرا ، وترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى ، وظهرت الحركة بوزارة الحرب ، وكثر غدو ورواح لورد كرومر إلى قصر الإمارة وديوان الرئيس مصطفى فهى باشا . وسيروا المؤن والذخيرة وآلات الحرب تباعا إلى التخوم ، وأقاموا المراصد فى طريق (القصير) تأهبا للقاء حامية سواكن المصرية الذاهبة إلى حلفا . فأكبر الناس هذا الحادث ، وعابوا على الرئيس مصطفى فهمى باشا خنوعه وضعفه إلى هذا الحد .وقام أصحاب الصحف المحلية ينادون بالويل والثبور وعظائم

---

(٢٤٠) فلم = فلم يكن اضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٤١) المضجة = الصحية قراءة ترجيحية .

(٢٤٢) يجفلون = يحتفلون .

الأمور ، وتطاولت يد وزارة الحرب إلى الأموال المدخرة فى صندوق الدين برسم استهلاك ديون الخزينة ، فأخذتها لنفقة الحملة ، ولم تلتفت إلى ممانعة نواب الدول الكبرى فى صندوق الدين ، ولا ما أقامه جماعة المداينين من الدعاوى أمام المحاكم ،ولا حيلة[٢٤٣] أصحاب الصحف . قالوا وقد تصرفت فى تلك الأموال بغير حكمة ولا تدبير حتى أدهشت أهل النقد والتفكير . وظهرت الحركة بين أهل دار الندوة الإنجليزية ، وكثر الأخذ والرد بين نفر منهم وبين صاحب سياستهم ، وكلهم مجمع على تقبيح إرسال العساكر الهندية إلى سواكن حتى لقد حددوا يوما لمحاججته ومناقشته فى الأسباب ، فكان يطاول ويحاول .وعندى أن كل ما قيل ويقال فى ذلك ضرب من الختل والتغرير . وجاء الخبر بإنتقال أركان حرب الحملة من وادى حلفا إلى عكاشة ، وأن قد قامت زوبعة شديدة هناك فأتلفت خطوط الأسلاك البرقية . فتعطلت المخابرات بين(حلفا)(وعكاشة) أياما خيف فيها على أحصاب[٢٤٤] المرابط من مداهمة أصحاب(عبد الله) لهم على غرة . فاهتموا إهتماما عظيما بتصليح تلك الخطوط وإرجاع المواصلات ، وما هى إلا أيام حتى شاع الخبر فى القاهرة ومصر وتناقله الناس بأن صاحب سياسة الإنجليز عقد العزم على إعطاء (زيلع) إلى دولة الإيطاليان بدلا من كسلا ، وأن صاحب السياسة الإيطالية يعد هذا العمل فوزا لسياسته ونصرا مبينا . ورحبت صحفهم بهذا النبا وأطرته ،وحضت صاحب سياستهم على التمسك به وعدم التحول عنه . فقام أصحاب صحف الإنجليز يتساءلون عن صحة هذا النبا ويقبحونه ، ويقولون أن أهمية(زيلع) فى طريق مستعمراتهم لا تعادلها أهمية ، وأن كسلا ليست من الأهمية الحربية فى شىء . واشتد الأخذ والرد بين الفريقين أياما فكان مثلهم كمثل فأرين يتضاربان على وكر غيرهما ،أو كالقول العربى المأثور . جدح جويد من فور غيره .أى جاد

(٢٤٣) حيلة = جلبة قراءة ترجيحية .
(٢٤٤)احصاب = أصحاب .

جيد من مال غيره . وبينما هم على هذا الحال يتقاسمون البلاد فى البر والبحر ،وأصحاب الحل والعقد ،ورجال المابين وسلطانهم جامدون لا يحركون ساكنا ، إذ جاء الخبر من سردار الجنود المصرية بأنهم باغتوا الدراويش فى(فركه[٢٤٥]) فكسروهم شر كسرة ، وقتلوا منهم زهاء ألف وماتين ، وفر الباقون

---

(٢٤٥) فركة = كانت القوات المهدية قد احتلت (فركه) يوم ٢٨ ابريل ١٨٩٦ واتخذت موقفا دفاعيا ـ ونتيجة لهذا الموقف فإن قوات الحملة المصرية تمكنت من مد الخط الحديدى إلى (آبار امبيجول) فى ٢١ مايو ١٨٩٦ ـ وأمبيجول هذه تبعد عن (سرس) ٣١ ميلا إلى الجنوب . كانت داوريات القوات المهدية تصل إلى الآبار وتعترض حملات النقل وتحاول منع العمل فى السكك الحديدية التى كان يجرى مدها . وعندئذ اتخذ (كتشنر) قرارا بطرد القوات المهدية من فركه . ولتحقيق تلك المهمة نظمت القوات المخصصة لفركة وعددها ٩ آلاف جندى كالآتى

ـ القائد العام	السردار كتشنر .
ـ قائد الفرقة المشاة	الكولونيل هنتر .
ـ اللواء الأول المشاة	بقيادة الماجور لويس (الأورط ٤،٣ مصرية ، ١٠ سودانية) .
ـ اللواء الثانى المشاة	بقيادة الماجور ماكدونالد(الأورط ١١،٩ ، ١٢ ، ١٣سودانية) .
ـ اللواء الثالث المشاة	بقيادة الماجور مكسويل (الأورط الثانية والسابعة والثامنة) .
ـ القوات الراكبة	بقيادة الماجور برن مردوخ (سبعة بلوكات سوارى وثمانية بلوكات هجانة) .

ـ المدفعية وتألفت من بطارية خيالى (تجرها الخيول) وبطاريتين ميدان وبطارية مدافع مكسيم .

فى ٦ يونيو ١٨٩٦ جمع الجيش كله فى (عكاشة) ووزع إلى قسمين :

ـ الأسلحة الراكبة ومعها الأورطة الثانية عشرة سودانية راكبة على الهجن ومدفعا مكسيم بقيادة الميجور برن مردوخ تسير بطريق الصحراء فتأتى (فركه) من الشرق والجنوب .

ـ فرقة المشاة بقيادة الكولونيل هنتر تسير معه بطريق النيل فتأتى (فركه) من الشمال . فى الساعة الثامنة والنصف مساء ٦ يونيو ١٨٩٦ تحركت قوة المشاة مصحوبة بمدفعية الميدان والمكسيم (مدافع رشاشة)من (عكاشة) بطريق النيل إلى (فركه) للهجوم مباشرة ، وذهبت القوات الراكبة والأورطة الثانية عشرة سودانية والبطارية الخيالى بطريق الصحراء فى الساعة السابعة مساء للهجوم على الجناح الجنوبى الشرقى (لفركه) . فى حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء أوقفت القوة المشاة والمدفعية بالقرب من (سار كماتو) للراحة . وفى الساعة الثالثة والنصف صباحا واصلت السير إلى (فركه) . عند جبل فركه اضطرت القوة للمرور بينه وبين النيل فردا فردا ثم فتحوا بعد أن اجتازوا المضيق وانتشروا للهجوم فى الساعة الخامسة صباحا .

كانت خطة المعركة وفقا لسجلات لجيش كالآتى :

فى اليمين : الأورط الرابعة والعاشرة والثالثة (لواء لويس) تتحرك موازية للنهر لتهاجم فركه من الشمال .

فى الوسط : الأورط الثامنة والسابعة والثانية (لواء مكسويل) بعد مرورها من المضيق تنتشر وتملأ المسافة الكائنة بين اللوائين الأول والثانى .

فى الشمال : الأورط التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشر (لواء ماكدونالد) بعد دورانها لليسار حول قاعدة جبل فركه تفتح وتهاجم موقع المهديين الأساسى على جسر شرقى فركه .=

منهم ،فجعل العساكر يطاردونهم حتى إحتلوا(فركة) ، وأصبحت هى المركز الأمامى للجنود .قال وقد أسر من الدراويش أربعمائة وخمسين ، وأخذوا جميع ما كان معهم من الذخيرة ومعدات الحرب . قال وكان جرحاء العساكر فى هذه الواقعة ثمانين جريحا ، وقتلاهم عشرين قتيلا ، وقد زادوا هذا النبأ تعظيما بخلود جماعة الحبشان إلى السكينة ، وعدم تعرضهم لأصحاب المراصد بالتخوم الشرقى ، لأن ملك الإيطاليان سير سفيرا من قبله إلى منليك ملك ملوك الحبشة إسمه(ألك) المهندس ، وهو من أصدقاء النجاشى ليعرض عليه عهدة صلح مؤسسة على إبطال عهدة أوتشيالى(٢٤٦) التى كانت سببا فى سخط

= المدفعية : البطارية الثانية تأخذ مكانها يمين الأورطه العاشرة والبطارية الأولى والمدفعية المكسيم بين اللوائين الثالث والثانى .

دارت المعركة وهزم لواء ماكدونالد القوات المهدية الموجوده على الجسر ثم غير مواجهته وتقدم بمساعدة نيرانه . دخل لواء لويس الطرف الشمالى للقرية التى تمتد لمسافة ٣٠٠ ياردة بموازاة النيل فحصر القوات المهدية بين نارى اللوائين والنهر فهربوا إلى الجنوب ــ ثم شاركت المدفعية الخيالى فى النيران .

إنتهت المعركة باحتلال فركه وقتل ٨٠٠ ثائر وأسر ٦٠٠ وجرح ٥٠٠ وقتل قائدا القوة المهدية (حمودة إدريس ويوسف عنقر) ــ وقتل من القوات المهاجمة ٢٠ جندى وجرح ٨٣ وقتل ضابط إنجليزى .

تتبعت القوات المصرية القوات المهدية المنسحبة واستولت على (سواردة) وأصبحت القاعدة الأمامية للجيش . وتسمى هذه المعركة (بمعركة فركة ٧ يونيو ١٨٩٦) .

ــ أورطة البنادق الرابعة المشاة ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٩ - ٣٣ .

ــ انظر الخريطة ملحق رقم (٦) .

(٢٤٦) عهدة أوتشيالى = معاهدة اوتشيالى بين إيطاليا ومنليك الثانى إمبراطور أثيوبيا فى ٢ مايو ١٨٨٩ .

ــ أنظر حاشية ٥٤٥ ص ٢٦٥ ــ حاشية ٤٥٩ ص ٣٥٦ .

ــ وتعتبر هذه المعاهدة نموذجا صارخا للإستهانة الإمبريالية بعقلية الإفريقى حسن النية . كانت إيطاليا المتعطشة للحصول على نصيب لها فى أفريقيا قد احتلت مصوع عام ١٨٨٥ ــ وبدأت تتطلع نحو أثيوبيا التى كانت تمزقها الصراعات الداخلية فى عهد الإمبراطور يوحنا الرابع وتتهددها الأخطار الخارجية على يد المهديين فى السودان وعلى حدود أثيوبيا الغربية . أنتهز الإيطاليون هذه الظروف وتوغلوا غربا فى الهضاب الشمالية مستعينين ببعض صغار الزعماء الأثيوبيين - واستولوا على (أسمره) وجعلوها قاعدة لمستعمرتهم الجديدة فى أريتريا ــ ثم تقربوا من الرأس منليك ملك شوا (الامبراطور منليك الثانى إمبراطور أثيوبيا فيما بعد) مستغلين النزاع بينه وبين الإمبراطور يوحنا ، وأرسلوا له الأسلحة طبقا لاتفاقية عقدت معه فى أكتوبر ١٨٨٧ . فى معركة (القلابات) ضد المهديين قتل يوحنا (٩ مارس ١٨٨٩) ــ وتبعا لذلك فقد استطاع الإيطاليون التوغل فى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة وضموا فى منتصف عام ١٨٨٩ اقليم (بوغوص) ورنوا بأبصارهم إلى الأقاليم=

النجاشى وإراقة كل تلك الدماء فى سبيل إبطالها ، وأن يلتمس من النجاشى جعل بلدة (مادب)(٢٤٧) تخما لمستعمرة الأريتره . فلم يحفل الناس بهذا الخبر ولا أحلوه محلا . وقد تبعه آخر باحتلال العساكر المصرية فى تاسع جونيو من السنة ، سابع عشر ذى الحجة سنة ثلاثة عشرة وثلثمائة وألف لبلدة سوارده(٢٤٧مكرر) بعد أن أخرجوا الدراويش منها . فسير الأمير كتبه إلى السردار يهنئه بهذا الفوز العظيم ويهنىء جنوده على بسالتهم وحسن بلاءهم فى تلك الوقائع الكبيرة . وجاءت كتب التهانى إلى السردار على يدى لورد كرومر من

= الشمالية تمهيدا للسيطرة على أثيوبيا بأكملها . من جهة أخرى استغل الإيطاليون مساعداتهم السابقة (لمنليك) ملك شوا السابق وإمبراطور أثيوبيا بعد مقتل (يوحنا) وتدخلوا فى صراعاته مع القوى الإقليمية الأخرى فى أثيوبيا ـ فطلب منليك منهم محاربة زعماء (تيجرى) التى كانت لاتعترف بنفوذه عليها وتقاوم الإيطاليين أيضا ـ وأن تحتل (أسمرة) عاصمة إقليم الخماسين بهدف منع دخول الأسلحة إلى الرأس (منجشا) حاكم (تيجرى) ومنافسه على عرش أثيوبيا . طلب الإيطاليون من منليك بعض الإمتيازات فى مقابل مساعدتهم له ضد منافسيه ـ فكان أن عقدت معاهدة أو تشيالى (٢ مايو ١٨٨٩) التى أعطى لأثيوبيا بمقتضاها الحق فى نقل الأسلحة عبر (مصوع) . كانت المشكلة التى برزت بين الإيطاليين والأثيوبيين هى تفسير المادة السابعة عشرة من المعاهدة والخاصة بعلاقات أثيوبيا الخارجية . نصت المادة المذكورة فى المعاهدة التى كتبت بالإيطالية والأمهرية على ما ترجمته بالأمهرية (أن ملك أثيوبيا قد يستعين بالحكومة الإيطالية في تصريف شئونه الخارجية مع الدول والحكومات الأخرى) وهو نص يعنى حرية منليك فى الإستعانة بإيطاليا أو عدم الاستعانة فى مفاوضاته مع الدول الأخرى . أما النص الإيطالى فكان يقول (أن ملك أثيوبيا عليه أن يستعين بالحكومة الإيطالية في تصريف شئونه الخارجية مع الدول والحكومات الأخرى) ـ وكان هذا يعنى وقوع أثيوبيا تحت الحماية الإيطالية . وذلك ما فعلته إيطاليا عندما أعلنت الدول الاجنبية بهذا المعنى فى أكتوبر ١٨٨٩ . وأعقب ذلك توسع ايطاليا في هضاب تيجرى الشمالية واحتلال أسمرة فى ١٨٨٩/٨/٣ . وقد اعترفت أثيوبيا بهذه التوسعات واعتبرتها أملاكا إيطالية وتم تخطيط الحدود الأثيوبية الإيطالية وفق إتفاقية وقعت فى اكتوبر ١٨٨٩ أعتبرت مكملة لمعاهدة أو تشيالى المشار إليها فى هذه السطور ـ كما حصل منليك على قرض إيطالى قدره ٤ مليون ليره خلال شهور قليلة لفت الفرنسيون انتباه منليك إلى التفسير الإيطالى للمعاهدة ، وفى ١٨٩١ بعث منليك بخطاب دورى Circular إلى القوى مؤكدا ليس فقط إستقلاله ، ولكن أيضا حدوده القديمة وهى الضفة اليمنى للنيل وبحيرة نيانزا Nyanza ـ ثم مالبث أن عرض على إيطاليا نقض المعاهدة وإرجاع القرض .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ص١١٠ - ١١٣ .

- Patricia Wright (Conflict on the Nile) Ibid., p.,63.

(٢٤٧) أميديب Amideb ـ انظر .

- Larousse Univeresl - Vol. I. P., 806

(٢٤٧مكرر) ـ انظر حاشية ٢٤٥ ص ٦٢٥ .

ملكة الإنجليز ، فسيرها إليه بالتخوم مشفوعة بشيء من الإطراء والمديح ، وقام صاحب السياسة الإنجليزيه ـ في دار ندوتهم يقول بملء فيه أن دنقلة هي الغاية التي تقصدها الحملة المصرية ، وإني لا أريد أن أدفع بحكومة البلاد ـ يعني الإنجليزية - على مد نطاق سياستها إلى ما وراء دنقلة لا في هذا العام ولا بعده ، ولكن هناك أمر جدير بالإلتفات وهو أن مصر لا تكون في الحقيقة آمنة مطمئنة إلا إذا خفقت رايتها على الخرطوم ، أما السردار فقد أطلقنا يده وزودناه بتعليمات لا يتعداها ، فهو عامل بها إن شاء الله تعالى . قال وإني أثني ثناءاً عظيما على بسالة الجنود المصرية وأهنيهم على ذلك البلاء الحسن . فوافقه القوم على ذلك ، ونقلت صحفهم الكلام مجملا ومصلا[٢٤٨]وطيروه إلى الآفاق .فرد عليهم أصحاب صحف الفرنسيس برد العاجز الذي لا حيلة له سوى بارد العذر ، فهزأ بقولهم أصحاب صحف الإنجليز ، وقال بعضهم والله لم يبق لنا بعد هذا إلا أن نمسك الثور بقرنيه ، فنفعل في مصر ما فعل الفرنسيس في(مدغسكر) جاعلين وادي النيل جزءا من السلطنة الإنجليزية ، وبذلك نتخلص من كل مداخلة لهولاء القوم الفرنسيس . ومما لا نزاع فيه أن حقوقنا ـ يعني حقوق السادة الإنجليز ـ في ديار مصر أعظم من حقوق الفرنسيس في(مدغسكر) ،ولذا فلنسر[٢٤٩] عن اذاً[٢٥٠] إلى الخرطوم لنضمن لأنفسنا ملك وادي النيل أ٠هـ فتأمل . وقدم في هذه الأثناء سفير من قبل مانليك ملك ملوك الحبشة بكتاب مخطوط بيد النجاشي إلى ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند .فنزل ضيفا على الدار البطريركية القبطية . فزاره كرومر وزار هو اللورد مرارا ولبث معه في كل مرة طويلا يتكلمان فيما لم تصل إلينا ، معرفته . وزار بعض كبار الغبطة[٢٥١]وزرته أنا كذلك ، فرأيته عاقلا رزينا كبير التأمل حلو الكلام متواضعا

(٢٤٨) مصلا = مفصلا .
(٢٤٩) فلنسر عن = فلنسرعن .
(٢٥٠) اذاً = إذن .
(٢٥١) الغبطة = القبطة .

لايمكن سد[٢٥٢] غوره ولا معرفة شيء مما يكنه ضميره . وكان إذا كلمته فى أسباب حضوره أو سايرته فى كنه بعثه[٢٥٣] تلطف فى القول وراوغ بكل تحذير ودهاء ، بحيث لا يجعل للسائل سبيلا . وأقام بالقاهرة أياما ثم رحل إلى ديار الإنجليز دون أن يعلم أحد سر بعثته . وكلما[٢٥٤]علمته منه بعد حديث طويل أن الجنود الهنديه النازلة الآن في سواكن هى اربعة آلاف وثلثمائة واحد وأربعين جنديا بالحصر لا أربعة آلاف فقط كما يقول جماعة الإنجليز .

وجاء الخبر إلى وزارة الحرب وديوان الأمير بأن جماعة من الفرسان المصريين وآخرون من أصحاب الهجن خرجوا للإستطلاع فوصلوا إلى (كده) عند سفح (شلال حيدر) ،فعثروا على مخازن للعدو فيها مملوءة بالمؤن والمعدات ، فاستحوزا[٢٥٥] عليها كلها ، وضبطوا كذلك سبعة من السفن الكبار كان الدراويش يحاولون إصعادها الشلال ، وفيها شيء كثير من الحبوب فأخذوها إلى(سوارده) . قالوا وأنه إلى ذلك اليوم لم يبق إلا أربعة أميال ليصل الخط الحديدى إلى(عكاشة) . وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا به كثيرا وتفاءلوا خيرا . وجاء الطلب من السردار إلى الفرقة السادسة عشرة السودانية المعسكرة(بطرا) ،فقامت كلها فى رابع عشرى يونية من السنة ، ثالث عشر المحرم إفتتاح سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة . ويتبع[٢٥٦] جنودهم نساؤهم . فكن يغنين وهن سائرات إلى قطارات السكة الحديدية ويتجاوبن برطانهم ضاحكات مازحات كأنهن سايرات إلى وليمة . وكان منظرهن على هذه الحال من السذاجة مسرا عند قوم ومضحكا عند آخرين . وقال الناس يومئذ أن فتح دنقلة أصبح أمرا مقررا لا مفر لأصحاب التعايشى منه .

---

(٢٥٢) سد = سبر .
(٢٥٣) بعثة = بعثته .
(٢٥٤) وكلما = وكل ما .
(٢٥٥)فاستحوزا = فاستحوزوا
(٢٥٦) ويتبع = وتبع .

وكان الأمير قد إستبشر خيرا بفوز الجنود المصرية المتتابع على جماعة الدراويش ، وأيقن أن سيكون النصر حليفهم أينما ساروا ، فأظهر عزمه على مبارحة الإسكندرية إلى(جزيرة العرب)(وطورسينه) لزيارة تلك الأطراف . فأعدوا له باخرته الخصوصية فركبها فى قلة من الخدم والأتباع ، وسار إلى بورسعيد ، ومنها إلى القلزم ، فالبحر الأحمر ، ولم يعين يوم رجوعه من هذه الرحلة ، فما تحركت باخرته حتى نقلت العيون خبرها إلى المابين الهمايونى ، فقلق السلطان قلقا عظيما ، وأكبر أمر هذه الرحلة جدا ، فقد كان نقل اليه أن الأمير ما برح منذ أيام من الدهر يعمل على أخذ الخلافة من سلاطين آل عثمال وإرجاعها إلى أصلها بإقامة خلافة عربية صرفة يكون تختها إحدى مدن جزيرة العرب . وأنه عامل على ذلك ما استطاع بعد أن سئمت نفسه كثرة الأخذ والرد مع السلطان ورجال دولته فيما باتت فيه الإمارة وما حل بعرشها منذ إحتلال الإنجليز . وأنه قد سير من قبل[٢٥٧] أحد أمراء البيت العلوى إلى بعض مشائخ القبائل وأمراء القوم ليفاوضهم فى الأمر ، وأن ذلك الأمير نجح فى سفارته أوكاد . وكان أمر ذلك شائع بين الناس ومقول به فى مجتمعات أهل الوظائف وأصحاب الخطط ، حتى لقد أكد بعضهم وقوعه وعده من الهنات الهينات . ولذلك فإنه لما بلغ المابين نبأ قيام الأمير بباخرته إلى ذلك الشق من الجزيرة ، سير كتبه إلى الغازى مختار باشا مندوبه فى مصر يسأله أن يزكى على الأمير العيون ، وإلى عماله بأن يقعدوا له بالمراصد . وكبر خوف السلطان وعظمت وحشته ، يقال وأحس الأمير بما هنالك ، فسير كتبه إلى(المابين) يكذب الخبر ويهون على السلطان الأمر . وكان جماعة الانكليز عموما وأهل الحل والعقد منهم خصوصا يرون أن من آيات السياسة الحازمة فى عرفهم التفريق بين الأمير ومتبوعه ، فكانوا إذا رأوا من السلطان عطفا على الأمير أو من الأمير طاعة إلى السلطان وتوثيقا فى الرابطة تألموا وتذمروا ، فيعمدون إلى دس

(٢٥٧) قبل = قبله .

الدسائس واختلاق الوشايات ، ورمى الأمير رميا متتابعا بالتهم الشائنة .فإذا أنسوا من السلطان ريبا فى إخلاص الأمير وسلامة مسلكه سروا ونفخوا فى أضرام نار الفتنة ، حتى تكاد الحزمة تنصرم ويقضى على كل صلة بين الإثنين . ولقد اتخذوا فى هذه الآونة سفر الأمير إلى طورسينا حجة على ما يدعون . ووافق ذلك شيئا فى نفوس أهل المابين وفى نفس الغازى مختار باشا ، فأساء السلطان الظن بالأمير وأساء التصرف معه حتى نفره تنفيرا . فتكلم أصحاب صحفهم فى ذلك كثيرا ، واستطالوا على الأمير بكلام الهجر ليكبروا التهمة فى أعين أهل المابين ويعظمون من شأنها عند السلطان . وعندى أن هذا القول ليس بالشىء الجديد ، بل هو من التهم التى رمى بها الأمير منذ سنة إثنتين وتسعين وثمنمائة وألف ، وقامت ورائها قيامة التجسس وبث العيون حول الأمير . فقد رأينا من جواسيس المابين بين الإسكندرية ومصر جماعات يسترقون السمع ويختلفون إلى مجالس خصوم الإمارة ، وأصحاب العقول الصغيرة من أهل البلاد الكارهين للبيت العلوى ، والحسدة من أهل المناصب وأصحاب الخطط . فقد أخبرنى قادم من دار السلطنة وهو من الكبراء المشهورين بتحبيذ سياسة الإنجليز وتفضيلها على كل سياسة ، أن رجال المابين وكل كبير من الترك يقول أن روح إسماعيل باشا الخديوى الأسبق قد تقمصت فى حفيده عباس الثانى . فهو لذلك ميال إلى الفتح والغزوات وجعل مصر وكثيرا من أملاك السلطنة ملكا مستقلا . قال وما درى أن للخلافة والإسلام شأن لا يمكن معه فوز الأمير والوصول إلى غايته .فإن كان يحب أن تعود المودة بينه وبين متبوعه إلى تجليها السابق ، وجب عليه الإقلاع عن هذه المشاغبات وعدم الإصغاء إلى دسائس الدساسين ، وعدم الإفساد بين أمير المؤمنين وعظماء الشرق الذين يهمهم أمر الخلافة والإسلام وحج بيت الله الحرام . ثم قل لى بحقك كيف يتسنى للأمير أن ينفذ هذه النية؟ أهو يستعين بالجنود الإنجليزية أو هو يستدين لذلك الديون الباهظة ، أو يحمل النفقات

لحكومة الهند الإنجليزية ، اللهم لا هذا ولا ذاك ، فما باله إذن يعد العدة لهذه الرحلة المحفوفة بالدسائس والأخطار أ٠هـ .

واشتغل الناس بحديث رحلة الأمير إلى برية سينا ، وعدوها خطوة لا يأمن معها العناد ، وطفرة على غير مساغ ، لا سيما والأخبار عن تأهب الدراويش واحتشادهم فى دنقلة ، وقدوم عثمان الأزرق إليها واجتماعه بالأمير(بشاده[٢٥٨]) حامى دنقلة ، ودخول جميع الدراويش الذين كانوا حول دنقلة إلى البلد ، وتأهبهم لقتال العساكر المصرية متتابعة متراكمة ، والحركة بين القاهرة والتخوم على أشدها . وذهبوا فى تأويل معنى هذه الرحله مذاهب[٢٥٩] ، وكلهم مجمع على عدم إستحسانها فى هذا الحين . وقد شاع خبر رجوع سفير ملك ملوك الحبشة إلى أديس أبابا ، بعد أن أمضى أياما بالقاهرة ، كان كثير الإجتماع فيها بلورد كرومر ، ومع ذلك لم يعلم من أمر بعثته وخبر سفارته شيئا ما ألبتة . على أنى ما برحت أطرق كل باب يوصلنى إلى معرفة داعى حضور ذلك السفير حتى تحققت أنه جاء بناء على دعوة من لورد كرومر وديوان الإمارة للمكالمة فى إمتناع النجاشى من معاضدة أصحاب التعايشى عند قتال المصريين لهم ، وأنه فى نظير ذلك ترد إلى الحبشة بعض النفائس والذخائر المقدسة التى سلبها الدراويش من الحبشان ومحفوظة بأم درمان . وأن تتنازل الحكومة المصريه للنجاشى أيضا عن قطعة أرض معلومة فى السودان تكون ذات منفعة حربيه لبلاده . ومع أنى علمت ذلك من أحد المقربين من بيت العميد ،فإنى لا أجزم بصحته ، وإن كان هو كل ما فى بعثة ذلك السفير على ما يقولون . وما وصل إليه السفير[٢٦٠] إلى حدود الحبشة حتى جاء الخبر بوصول السردار كتنشر

---

(٢٥٨) بشاده = بشاره ـ محمد ود بشاره ـ عامل الخليفة عبد الله التعايشى على دنقله .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤٣ .

(٢٥٩) مذاهب = مذاهب شتى اضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٦٠) وما وصل إليه السفير = وما أن وصل السفير قراءة ترجيحية .

باشا إلى بلدة (كوسية)[٢٦١] . وقد تحقق من عدم قيام مدد من أصحاب التعايشى إلى دنقلة ، وأنه[٢٦٢] قد سير الدعاة من العرب الموالين وبينهم (الشيخ عبد العظيم) أحد كبار القوم الى ناحية دار السايتيه[٢٦٣] فحدثوا الناس بخبر ما فى معسكر المصريين من عدد وعدة ، وأبلغوهم خبر انتصارهم على أصحاب الخليفة . قالوا فسر الناس بذلك سرورا عظيما ، وعجوا[٢٦٤] إلى الله تعالى بسرعة زوال ملك التعايشى وخراب سلطانه . وقالوا ولما بلغ سفير النجاشى أديس أبابا سير النجاشى كتبه إلى قائد الجنود الإيطالية بمصوع يخبره بقبول إطلاق سراح الأسرى الإيطالين ما عدا كبار أهل المناصب منهم ، فإنه يتمسك بإبقائهم رهائن على احترام التعهدات التى أخذتها دولة ايطاليا على نفسها .

وبينما السردار يوفق بين إحتلال الجنود الهندية لسواكن وزحف الجنود المصرية الانجليزية على دنقلة وما والاها ، كانت الضجة قائمة دار[٢٦٥] الندوة الإنجليزية ، والأخذ والرد واقع بين رجالهم بشأن نفقة أولئك الجنود الهندية المرابطة فى سواكن ، وقد إختلفت كلمتهم وتعذر إتفاقهم أوكاد على من من الخزانتين ، خزانة الهند أم خزانة إنجلترا هى التى تقوم بنفقة أولئك الجنود ، وبلغ الجدال فى ذلك أشده .وما زالوا على هذا أياما حتى خذلوا أحدهم(المستر مورلى) فى طلبه عدم تحمل الهنود قسما من نفقات الحملة ، ومع خذلانه فإنه لم يألو جهدا فى تقريع القوم والحط من آرائهم التى بنوا عليها سرعة الحملة

---

(٢٦١) كوسية = كوشة ـ منطقة فى طريق تقدم حملة دنقلة ـ تقع بعد آبار امبيجول التى كانت السكة الحديدية قد مدت إليها فى أوائل يونيو ١٨٩٦ . إنتقل المعسكر الأساسى إليها فى ٥ يوليو ١٨٩٦ ثم وصلتها السكة الحديدية فى ١١ اغسطس ١٨٩٦ .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠ - ٣٣ .

ـ انظر الخريطة (ملحق رقم ٥) .

(٢٦٢) أى السردار .

(٢٦٣) السايتية = الشايقية .

(٢٦٤) وعجوا = ودعوا .

(٢٦٥) دار = فى دار .

على دنقلة ، والتـخـوف من وجـود المـهـدوية فى الخـرطوم على سـلامـة قناة السويس ، وقال إن المصادقة على قرارهم بتكليف الهند الأسيفة بنفقة أولئك الجنود لمن أعظم مسببات الإستياء ، ولا سيـما وأن أهل الهند طرا قد علموا بخبر إحـتجاج واليهم على أصحاب الحل والعقد . ثم قام(المستر بوناكرى) وقال(والله إن تحميل الهند كل هذه النفقة أمر جائر والعمل به لابد وأن يحدث تكديرا بعد معرفة كنهه ،لأن الهند ليس لها أقل مصلحة فى مصر) . وتكلم غيره فى ذلك كثيرا . ثم قام السير (هيلكس بيش) وقال والله إنى ما رأيت قط سياسيا ذا مسئولية يرتأى رأيا أحكم من تكليف خزانة الهند بتلك النفقة ، وإن غالب رجال الوزارة ووكيل المستعمرات الذين فوضت إليهم حكومة الهند النظر فى المـهـمـة ، قد صرحـوا بأنه لولا الهند لم تكن للإنجليـز أدنى مـصلحـة فى مصـر ، فـمن العـدل والصـواب أن تأخـذ الهند شـطرها من نفـقـات حـمـاية تلك المـصـالح الأولـية . قـامت هذه الضـجـة واشـتـد الجـدال ، وجـاءت به صـحف بلادهم ، فخاف أهل الرأى أن تدور على الخزينة المصرية الدوائر ، فتحمل أثقال هذه النـفـقـة أيضـا محـافظة على طريق الهند من عـدو موهوم قـد يفـاجـىء تلك المـملكة العظيـمـة فى العـاجل القـريب . ولقـد برح الخفـاء وظهـر للعيـان نيـات جماعة الإنجليزفى هذه الحملة الهوجاء فى مقالة نشرها كبير من كبار قوادهم ومقدمى عسكرهم فى صحيفة التيمس إسـمه(جون أداى) عنونها بعنوان (مصر والسودان) . إفتتحها بالكلام على نجاح الأعمال الحربية الجارية فى التخوم ثم قال (إن للمسـألة السودانية الآن وجهين أحدهما سياسى والآخر حربى . أما الأول فيعرف من مراجعة الحوادث الجمة التى حدثت بين البلدين منذ ستة وعشرين وثمنمائة وألف ميلادية أى منذ دوخ محمد على باشا الكبير الأصقاع السودانية ، وأهم ما(٢٦٦) تلك الحوادث أن حكم جماعة البشوات ــ يعنى ولاة مصر ــ فى تلك البقاع التعيسة كانت(٢٦٧) على أشد ما يكون من الإستبداد

(٢٦٦) ما = ما فى .
(٢٦٧) كانت = كان .

والظلم الذى لا يطاق كما شهد بذلك السير(صموئيل باكير[٢٦٨] وونجت بك[٢٦٩] فى كتابه الموسوم بعنوان ـ(السودان الماضى والسودان الحالى)ـ وما زالت[٢٧٠] كذلك حتى حدث الهرج فى سنة إثنين وثمانين وثمنمائه وألف ميلادية ، وقامت الثورة على قدم وساق ،وخسرت مصر تلك المملكة جملة ، واستولى عليها المهدى ، ثم خليفه[٢٧١] من بعده ، ولكن لم يلبث سرور القبائل بولايته طويل[٢٧٢] ، حتى تقلص ظله ووقعت البلاد فى ضلالة أشد من الأولى ، وظلم أشد وأنكى . فقد أريقت الدماء هدرا ، وذبحت الأطفال ، وخربت المدن ، والقرى والدساكر ، وأصبحت أطلالا .يقال أن المهدى ذبح وحده ألفا من الرجال والنساء والأطفال .وأخرب مئات من المدن والقرى) . قال (على أن تصفح ذلك التاريخ المشئوم يؤدى إلى نتيجة واحدة فردية ،وهى أنه قد آن الاوان لإنقاذ السودان من ظلم خليفة صاحب المهدوية واشياعه (البقادات[٢٧٣]) .وهذا هو الوجه الحربى التى سبقت الإشارة إليه) ـ وأفاض

---

(٢٦٨) باكير = بيكر ـ السير صمويل وايت بيكر Baker. Sir Sauel white(٨ يونيو ١٨٢١ ـ ٣٠ ديسمبر ١٨٩٣) .مستكشف إنجليزى فى افريقيا ـ حسمت حملاته وحملات جون هاننج سبيك John Hanning Speke قضية منابع النيل بشكل نهائى . فى عام (١٨٦١) استكشف بيكر وزوجته روافد النيل فى أثيوبيا ، وبعد ذلك بعامين تتبعا النهر جنوبا واكتشفا (١٤مارس ١٨٦٤) بحيرة البرت نيانزا Lake Albert Nyanza مقررين أن النيل يصب عبر البحيرة . عين بيكر فيما بعد (١٨٦٩) حاكما لمديرية خط الإستواء . ألف كتابا عن ذكرياته الاستكشافية بعنوان (إسماعيلية Ismaylia) نسبة إلى الخديوى إسماعيل .

- Lexicon Universal Encylopedia, Vol. 3 - p.. 28

(٢٦٩) ونجت بك = راجع حاشية ٦٨٤ ص ٤١٠ .

(٢٧٠) زالت = زالت .

(٢٧١) خليفة = خليفته ـ المقصود عبد الله التعايشى .

(٢٧٢) طويل = طويلا .

(٢٧٣) البقادات = البقاره قراءة اجتهادية . والبقارة قبيلة رعوية فى السودان وتشاد تهاجر موسميا إلى المنطقة الرعوية فى الساڤانا بين نهر النيل وبحيرة تشاد . ينحدر البقارة من قبائل عربية هاجرت غربا من مصر فى العصور الوسطى وتحركت فيما بعد إلى الجنوب حيث وصلوا إلى مقرهم هذا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وتحولوا من رعى الإبل إلى رعى الماشية تمثلا بالظروف المحلية . لعب البقارة دورا هاما فى الثورة المهدية ـ وإليهم ينتسب الخليفة عبد الله التعايشى خليفة المهدى فى ١٨٨٥ .

- Lexicon Universal Encylopedia. Vol. 3 - p..21.

ـ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث) ـ ج٢ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٨١ .

الكاتب فى مدح إستيلاء الجنود المصرية على (فركة) ،ولكنه عاد فقال(إن مصر ليس لديها قوة كافية للتوغل فى الأعمال العسكرية التى يقتضيها فتح السودان ، لأن عساكرها كلما تقدمت إلى الأمام نقص عددها وضعف ساعدها فى تلك الرمضاوات والصحارى) قال (وعندى أنه لحسن القيام بذلك العمل الجسيم أن تزاد على الحملة الحاضرة قوة لا يقل عددها عن خمسين ألف مقاتل يؤخذ ثلثاها من الجيوش الإنجليزية ، والثلث الثالث من الجيوش الهندية) . قال (وما قصدى من نشر هذه الرسالة إلا أن أبين للملأ بأننا نحن الإنجليز قد صرنا تجاه مشروع فتح عظيم ، وأننا لا ينبغى أن نستخف بأعدائنا وبصعوبات النقل والتوغل فى مجاهل تلك البلاد الواسعة التى تعدل مساحة ديار الفرنسيس والألمان والأسبان جملة) . قال (بقى على أن أسأل عن أمر واحد أراه من الأهمية والحفاوة بمكان . وهو هل يجب علينا بعد هذا وذاك رد السودان إلى مصر؟ أما أنا فأجيب على هذا السؤال بكل تأكيد وروية فكر أنه لا ينبغى علينا معشر الإنجليز أن نفعل . أقول ذلك لأن أهل السودان يختلفون فى الجنس عن أهل القطر المصرى إختلافا واضحا لا ريب فيه ،وهم وإن كانوا جهلاء متعصبين لدينهم فانهم شجعان بواسل صابرون على الحوادث والمتاعب . وإذا سلموا إلى ولاة مصر وأحكامهم الظالمة الممقوتة كان ذلك منتهى شقاوتهم وزيادة بلاءهم ، فإن ولاة مصر غير أكفاء ولا هم صالحون لأن يحكموا بلادهم نفسها . وعليه فإنه إذا تم لنا ذلك الفتح العظيم كنا نحن الذى يجب أن نتولى شئون تلك البلاد وأحكامها بأسرها دون شريك ولا رقيب أ٠هـ) .

وشاع خبر مقالة هذا الكبير الحربى وتناقلها الناس ، وتحدثوا فيها ، فتحقق للسواد الأعظم نيات القوم الإنجليز وأغراضهم فى السودان . فكانت كل حركة منهم خاصة بهذه الحمالة[٢٧٤] فى منازل الجنود بالعباسية أو قلعة الجبل قذى فى أعين أهل البلاد ، وشجى يؤلمهم كثيرا . حدثنى أحد المقربين من ديوان

(٢٧٤) الحمالة = الحملة .

الوزارة قال (ولا خفاك أن أمنية جماعة الإنجليز الكبرى هى الإستيلاء على مصر وسودانها ، وأنهم ساعون إلى ذلك بكل وسيلة ، باذلون فى سبيله كل مرتخص وغال . أى نعم وإن الحملة على دنقلة هى حملة قد حمل بها الدهر على البلاد وأهلها . ونقول إنها حملة على البلاد وأهلها ، لأنها هى القائمة بأعبائها ، الرازحة تحت حملها فى حين أن فوائدها ليست لها ، وأن منافعها غير عائدة عليها . قاموا يسترجعون السودان أم مصر ومهبط نيلها ، ولكن بأموالنا ورجالنا ولمصلحة الإنجليز ، وفى سبيل أغراضهم التى هى خدمة الهند . وهم قبضوا على مصر بتلك اليد الحديدية لحراسة طريقها ، ويسيرون إلى الخرطوم غدوهم وعدوهم[٢٧٥] لمصلحة الهند وبسببها . فانظر فقد برح الخفاء وظهر للملأ أن وراء الأكمة ما وراءها . ولكن الله من وراء ما يفعلون) .

وكبر خوف الإنجليز بالقاهرة إذ جاءت صحفهم منبئة بظهور الوباء بين العساكر النازلين بالتخوم ، وأن قد مات منهم نفرا بهذا الوباء ، وأن قد إتصل الموات بالجنود النازلين فى اباد أمبوكول[٢٧٦] وعكاشة وغيرها . فسير الأمير كتبه فى سابع يوليو من السنة ، سادس عشرى المحرم إفتتاح سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف إلى السردار يستعلم عن حالة سائر الجنود وسلامة مواقفهم . فأكد له السردار صحة الخبر ، وزاد بأن قال أن أحد عرب الكبابيش هرب من جزيرة(أركو) وحدث بأن أمراء الدراويش ودعاتهم يجمعون الناس زمرا ، ويجندونهم للجهاد قهرا ، ويسوقونهم إلى المراصد ورؤوس الدروب فيجهدون فى الهرب إلى الجبال يلوون[٢٧٧] على شيء .

---

(٢٧٥) غدوهم وعدوهم = عددهم وعدتهم قراءة ترجيحية .

(٢٧٦) أباد امبوكول = أبار امبيجول .

ـ اورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠ .

(٢٧٧) يلوون = لا يلوون اضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

واتسعت دعوة مصطفى كامل للناس إلى مناهضة جماعة الإنجليز وطلب جلاء جيوشهم عن البلاد ، وكثرت خطابته بذلك على منابر المحافل ، وفى منتديات الإسكندرية ومصر ، وظهرت حركة الخواطر للعيان . وهب أعوان مصطفى كامل إلى تأليف الجمعيات ، واستكتاب الناس بالتبرعات للنفقة على العاملين بنشر هذه الدعوة وتبليغها إلى أهل النصفة من كتاب الفرنجة . فكانت معالم هاته الحركه بادية على العامة من أهل مصر والقاهرة أكثر منها على الخاصة وأهل الوظائف وأصحاب الخطط .على أن العامة معما(٢٧٨) هم متصفون به من التعصب وسرعة الإنفعال والإنقياد إلى كل ناعق ، فانهم لم يبدأوا إلى الآن فى معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق الطبيعية العمرانية . ولم تكن هذه المعرفة لتتأصل في قلوبهم حتى يصير الإحساس الناشىء عنها طبيعيا كسائر الإحساسات الإنسانية . فلذلك ما كانت خطب مصطفى كامل ولا كتابات دعاته لتحمل العامة على الإنتقال السريع من حال إلى حال . وكان الخاصة يحسبون لهذه الطفرة حسابا كبيرا ، فجعل بعضهم يناهض مصطفى كامل ، وبعضهم يعاكسه من وراء الستار ، وجلهم إن لم تقل كلهم ممن عرفوا بين الناس بالعداء لبيت الإمارة . فلما كان عاشر يوليو من السنة ، وتاسع عشرى المحرم إستدعى الأمير مصطفى كامل إلى قصر الإمارة برأس التين الإسكندرية ، فلبث بحضرته ساعات ، وما برح القصر حتى جعل أصحاب الصحف المحلية يكيلون له التهاني جزافا ،ويشكرون من عطف الأمير عليه ورضائه عنه ، ويبشرون الناس بمستقبل للبلاد مجيد على يدى ذلك الداعية الكبير(٢٧٩) ،وعقبوا على ذلك أيضا بأقوال إحدى صحف النمسا الشبيهة بالرسمية من أن وزارتى الروس والفرنسيس تطلبان باتحاد سرعة الجلاء عن مصر بناءاً على أن ذلك أمر ضرورى يوجبه الوضع الجديد الذى صارت إليه

(٢٧٨) معما = مع ما

(٢٧٩) راجع حاشية ٢٤٢ من ص ٤٩٠ .

شعوب الشرق الإقصى . فما شاع هذا الكلام وتناقله الناس حتى صدقه العامة وفرحوا به كثيرا ، وجعلوا يتحدثون به مقلوبا مشوها ، ولا سيما وقد نقل بعض أصحاب الصحف خبرا معناه أن قد وقعت بين طائفة من عرب الكبابشة المعروفين بالبشائرية الموالين لعرش الإمارة ، وبين جماعة الإنجليز المعسكرين بأسوان منازعة ثم ملاكمة ثم إقتتال .فاقتتل الفريقان قتالا نظاميا مريعا . قالوا والشائع أنه ورد خبر على جناح البرق فى مساء ذلك اليوم ينبيء بقتل أربعمائة من عساكر الإنجليز أو يزيد ، وقتل عدد كبير جدا من العربان بكرات المدافع . ومع إهتمام وزارة الحرب بخبر هذا الحادث فإنها لم تكذبه ولم تبد فيه رأيا . وعندى أن الخبر مختلق لا أصل له ، أن الإنجليز بالتخوم حريصين على ولاء الكبابشة واجتماعهم تحت الراية المصرية وإلا ما كانوا قط بمفلحين فى حملتهم ولا فائزين فى مهمتهم . والقوم الكبابشة قوم أشداء بواسل يعرفون كيف يكونون حجرعثرة فى سبيل الحملة ، وكيف يسدون عليها المسالك ويمنعونها الماء بأيسر الإسباب . فلذلك لا يظن أن يبلغ الغرور بمقدمى الإنجليز هذا الحد . وظل الناس على إختلافهم فى مذهب مصطفى كامل وهو يحفل الحفلات ، ويجمع الجمعات ، ويلقى الخطابات ويكتب المقالات ، ويوالى الصيحات العاليات ، بين صفوف تلامذة المدارس ، وأهل الحرف والصنائع الحقيرة ، حتى نال منهم وحببهم فى مذهبه ، وكان إذا إرتقى مرتفعا للخطابة صفقوا له تصفيق الإستحسان والإعجاب قبل أن يفوه بكلمة ، وصاحوا(فليحيى مصطفى كامل فليسقط الإنجليز فليمت الإحتلال) .وتتابع صياحهم حتى يملأون فضاء المكان ، ومنعوه من الكلام ساعة وربما أكثر من ساعة حتى تعود السكينة . فاذا إستفتح مقاله بحمد أو ثناء أو بالصلاة على النبى هاجوا وعلت أصواتهم بما شاء الله . ألله الله . وعادوا إلى نغمتهم الأولى(فليحى فليسقط) . فلا ينتهى من خطبته حتى يكون السامعين من

مريديه حتى[٢٨٠] أجهدهم الصياح وبح صوت بعضهم . أخبرنى صديق ممن أعجبته رشاقة مصطفى كامل وحسن إلقائه قال . كنت يوما فى حفلة جمعها مصطفى كامل فى إحدى منتديات الإسكندرية ، فرأيت من بعض مريديه من العامة وجماعة تلامذة المدارس من الصياح والجلبة والإعجاب به والتهيج عند ذكر الإحتلال والإنجليز أو ذكر الخليفة أمير المؤمنين ما أدهشنى وألفت نظرى إلى أن القوم قد أصبحوا وهم يدركون مقاصد الخطيب ومراميه ، ويحنون إلى سلامة وطنهم بخلاصه من سيطرة الغريب الغاصب . فقلت فى نفسى والله لأسألن أحدهم رأيه لعلى أكون مصيبا . فملت إلى أقربهم منى مقعدا وقلت . حيا الله الخطيب فقد أشبعنا خطبا وكفانا بيانا . والله سبحانه يجازيه عن الخير مضاعفات الخير .ثم قل لى بحقك ما رأيك فى إخراج الإنجليز من بلادنا وقد سمعتك عند ذكرهم تتهيج وتصيح بأعلا صوتك فليسقطوا فليخرجوا أولئك الملاعين . فنظر إلى مقطبا وقال ياسبحان الله هلا علمت وأنت على ما أرى من العاقلين أن خروج أولئك المردة من أيسر الأمور؟ إن حزب مصطفى كامل آخذ على نفسه إخراجهم ، وقد أعد لذلك عدته ، وشكل لجانه فى البلاد ، وفرق سلاحه على أهل النخوة والمروءة ، فلا يأتى شهر رجب من السنة حتى ترى العجب ، فترى أولئك الطغاة فارين مدحورين كما فر جماعة الفرنسيس على عهد (الشيخ الشرقاوى) و(السيد عمر مكرم) وبقية مشايخ الوقت الذين دحروا(بونابارته) ببركة أولياء الله . أوما سمعت خطيبا يقول هذا وأشباهه فى حفلة سابقة كما حدثنى به صاحبى الحاج(مرزوق الخراط) المتطوع فى حفلات الخطيب؟ فقلت وما الذى نرجوه من خليفتنا الآن وهو أطال الله فى عمره فى شاغل عنا وقد تركنا كالدين عند الله . فتأفف وقال أو ما سمعت بخبر ما كتبه السلطان إلى ملكة الإنجليز من أيات التهديد وعبارات الوعيد ، وأخذ الهند منها على عجل ، إذا لم تسحب عساكرها من مصر مهبط الأولياء

---

(٢٨٠) حتى = قد .

والصالحين والمجاهدين فى أعلا منار الدين؟ قلت لم أسمع . قال لعلك ممن إستهواهم الإنجليز وأعمتهم المناصب . قلت لا هذا ولا ذاك وإنما أنا من المعجبين بمصطفى كامل المفتونين بحبه . فقال الحمد لله الذى كشف عن بصيرتك وكفاك شر أولئك القوم الإنجليز . قال مخبرى فقلت كنت والله واهما ضعيف النظر فى ما كان عليه أولئك الصايحون المتهيجون مهلا وسخافة(٢٨١) أ ٠ هـ

قلت وبينما مصطفى كامل يحفل الحفلات ومريديه يوالون تلك الصيحات وينذرون القوم الإنجليز بما هو آت عليهم من الهلكات ، كانت جيوشهم تغدو وتروح ما بين القاهرة والتخوم ، وكراعهم ومؤونتهم تنقل تباعا على قطرات السكك الحديدية وظهور البواخر صعودا وهبوطا بين أسوان وحلفا ، وكان تخطيطهم الحربى للقتال يقضى بالسير من(حلفا) إلى (دنقله) ومن (سواكن) إلى (بربر) لمضايقة أصحاب المهدوية من جانبين ، واعتناق النار لهم من جهتين كما كانوا يقولون .كل هذا ولم يتنبه الباب العالى للعاقبة ، ولم يحفل السلطان أمير المؤمنين بهذا القبض على مخانق البحر الأحمر من كل صوب ودرب وهو طريق أملاكه العظيمة فى جزيرة العرب وما والاها . والذى نشاهده إلى هذا اليوم هو التغاضى بعد الإغضاء ، والإستنامة إثر النوم ، حتى كان هذا العام كعام ألف وثمنمائة إثنين وثمانين للميلاد أى عام الإحتلال ، والحكومة اليوم كالحكومة فى تلك الأيام . والدول التى تدعى الصالح والصوالح فى البلاد لهذه الساعة كالدول فى تلك الساعة ، لم تخبر كنه منويات الإنجليز ولا تزال تصدق مواعيدها أم هى ترى ولا قبل لها بشىء ، أم هى على عهد فى ذلك

(٢٨١) لا يخفى شاروبيم ـ رغم احتمائه وراء (صديق ممن أعجبتهم رشاقه مصطفى كامل) ـ ضيقه وتبرمه بمصطفى كامل ودعوته . فيتهمه بأنه يقود الغوغاء والمتهوسين والمتهيجين والمفتونين والعامة وتلامذة المدارس وأهل الحرف والصنائع الحقيرة . وقصد شاروبيم من وراء هذا غير خفى ـ فهو يريد أن يقول أن دعوة الرجل لم تلق استجابة سوى من هذا الفريق من الشعب .

وميثاق . وعندى أنه وإن كانت هذه الدول ناظرة عارفة ، ولكنها واقفة أمام أولئك القوم الإنجليز موقف المقيد أمام المطلق ، والضعيف أمام الجبار القوى ، والعاجز أمام القادر . فإلى من يشكو مصطفى كامل والمصفقين له والصايحين لقوله ياترى؟ ولا خفى أنه كلما تقدم أولئك القوم الإنجليز فى السودان زادت قوة مركزهم فى مصر وفيه وتعذر إبعادهم عنها جملة .

ولما كانت ليلة ثامن عشر يوليو من السنة ، سابع صفر سنة عشرة وثلثمائة وألف ، سمع بعد منتصف الليل أصوات مدافع وبنادق متتابعة أيقظت النايمين وأزعجت الساهرين وحيرتهم . فانطلقوا يتساءلون ، وخرج الكثير من بيوتهم فى دهشة وكأن على رؤسهم الطير ظانين أن قد انحدر أصحاب المهدوية من التخوم بطريق الجبل الغربى إلى القاهرة ، وأنهم يقاتلون الإنجليز وجها لوجه . وكبر خوفهم إذ كانوا يسمعون أصوات تلك المدافع والبنادق آتية من ناحية الجبل الأحمر ، ومنازل الجند بالعباسية . وشاهدوا بعض الإشارات بالأنوار من قلعة الجبل إلى ناحية العباسية متواصلة . فكان[٢٨٢] الظن باشتعال نار الحرب والقتال بين الإنجليز وأصحاب التعايشى يصير حقيقة ، حتى لقد هرع الناس إلى بيت صاحب الشرطة ينسحون[٢٨٣] الأخبار ، فلم يعرفوا منهم شيئا . وعادوا وهم أشد خوفا واضطرابا . وظل الحال على هذا وقد استيقظ أهل الفجالة وشبرا وما والاهما كافة ، وبعض أهل القاهرة حتى مطلع الفجر ، فطاف بعض مشايخ الحارات يقولون أنه لم يكن شىء سوى أن الجنود الإنجلزية من آلاى الدراغون تحيى الليلة بحفلة ألعاب رياضية عسكرية . فاطمأن الناس وعادوا إلى دورهم ساخطين على أصحاب هذه الألعاب ، ضاحكين من تصاريف الأيام وهم يقولون قول أبى الخطيب .

(٢٨٢) فكان = فكاد .

(٢٨٣) ينسحون = يتنسمون .

وماذا[٢٨٤] بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكاء

وأصبحوا وقد تفشت الأخبار عن التخوم بتفشى الوباء بين الأورط الثلاثة النازلة فى(كوشه) ،وأنهم نقلوا الجنود فى الصحراء على مسافة فرسخ من البلد لتتسع محلتهم وتتفرق خيامهم ويضعف فعل الوباء فيهم .يقال وأن أهل الحل والعقد يتكتمون حقيقة عدد الوفيات مخافة أن يتأثروا منها الناس . وكأن أخبار الوباء قد بلغت التعايشى ، فزادت فى همته وضاعفت عزيمته ، فرسم بتقوية مراكز عساكره والمجاهدين من أهل القبائل في ناحية(حافية)(وكرمه)(بابى فاطمه) ، فعززوها وحصنوها .وأمر بالذى نقل إليه خبر استيلاء العساكر المصرية على(فركه) فيصلب ، ونادى مناديه بصلب كل من يتلفظ باسم(فركه) . فعم الخوف أصحابه ، وأجفل أصحاب شوراه ، فنصحوا له أن يعدل عن هذا ،فلم يقبل نصيحتهم . وجاء خبر ذلك إلى السردار ، فنظم من العرب المصافيين حرسا قويا لمراقبة حركات أصحاب التعايشى خلف منازل الجنود وجنوبى سوارده ، فأفلح فى ذلك ،وجاءه أولئك الحراس بما خفى وما ظهر من أخبار العدو ، وأخلصوا له فى النصح والإرشاد ، فكانوا له نعم العون على بلوغ الأرب .

وجاء الخبر بوصول ركب المحمل إلى مدينة السويس وبلوغ أميره (عبد الحليم باشا عاصم) القاهرة ، وإقبال كبار القوم على السلام عليه . فقام الرئيس مصطفى فهمى باشا وسائر الوزاء من مصيفهم بالإسكندرية إلى القاهرة فى ظهر تاسع عشر يوليو من السنة ، ثامن صفر . وأصبحوا وقد غص ميدان قلعة الجبل بالجند وأهل المناصب وأصحاب الخطط والعلماء والوجهاء وأصحاب العكاكيز ومشايخ الطرق ، والعدد العديد من العامة . فاصطفت الجنود على يمين ويسار وأمام المسطبة ، وجلس الأمراء والكبراء والعلماء على كراسيهم ، فأقبل الرئيس فى عربة من عربات التشريف الكبرى نائبا عن الأمير ، ومعه بطرس باشا غالى

(٢٨٤) وماذا = وكم ذا .

وزير الخارجية ،وفخري باشا ، فأطلقت المدافع إجلالا لقدومه ، وصدحت الموسيقى بالنشيد الأميرى . فنزل وحيا الجالسين . وللحال داروا بالجمل الذى يحمل المحمل ثلاث دورات على القاعدة المقرره ، ثم ناول أمير الحاج زمام المحمل إلى الرئيس فقبله ، وناوله إلى قاضى القضاة فقبله وناوله إلى غيره ممن حضروا ، ثم قام الرئيس فركب عربته وعاد من حيث أتى ، فساروا بالمحمل إلى وزارة المالية ، وحفظوه هناك على العاده المتبعة فى كل عام .

وكانت إحدى الشركات البليجيكية قد تقدمت إلى أصحاب الحل والعقد فى طلب التصريح لها بإنشاء خطوط حديدية تسير عليها عربات فى شوارع القاهرة بأسلاك الكهرباء لنقل الركاب بدلا من العربات والخيل والحمير(٢٨٥) . فاختصت وزارة الأشغال العمومية بالنظر فى ذلك . فطلبت من مهندسى

(٢٨٥) نظمت عملية نقل الركاب خلال الفترة موضوع الدراسة بقرارات صادرة عن محافظة مصر (القاهرة) . وكانت عملية النقل هذه تتم بواسطة (الحمير) . فالقرار الصادر فى ٨ يونيو ١٨٨٩ من محافظة مصر (بشأن الحمارة فى المحروسة) والمعدل بموجب قرار صادر من هذه المحافظة فى ١٥ اكتوبر ١٨٩٣ يضم ستة عشرة مادة تشمل كل مايتعلق بممارسة مهنة نقل الركاب بواسطة الحمير . ومن أطرف مواد هذا القرار ما جاء فى المادة الثالثة من أن المحافظة تعطى (إلي مؤجرى الحمير التى توفرت فيها الشروط المنوه عنها فى المادة الثانية (طاسات) بقدر عدد الحمير والحمارة وهذه الطاسات تكون من النحاس الأصفر عليها نمر بأرقام عربية وأفرنكية ، ويلزم وضع هذه الطاسات المذكورة على الدوام على جبهة الحمير والثانية علي الذراع الأيسر للحّمار) ــ كذلك فإن المادةالرابعة نصت على أن (يتألف الحمارة بصفة طائفة ويبقون تحت ملاحظة شيخ واحد ووكلاء له بقدر اللزوم) .

وقد رافق هذا القرار جدول بين (المواقف) التى تقف فيها الحمير فى أنحاء المدينة ــ ونص فى المادة السابعة على (وقوف الحمير على صف واحد بالترتيب بحيث لا يصير ازدحام فى الطريق العمومى) ــ وقد تحددت أجور الحمير فى هذا الجدول وفقا للمسافة بين الموقف ومكان الوصول ـ فكانت المواقف فى السيدة زينب ـ باب الشعرية ــ محطة باب الحديد ــ ثُمن الازبكية ــ موقف مصر القديمة ــ الجمالية ــ باب الخلق ـ الحنفي ــ حارة السقايين ـ فم الخليج ـ وبولاق . وكان لكل مجموعة من المواقف (مختار) يشرف على أعمال الحمارين . ومن أشهر هذه المختاريات فى التسعينات مختارية محمد أبو ناب الذى كان مقره بلغة العصر (خمارة شبت بجوار الإسكوله الملكانى) ـ أى بار شبرد بجوار المدرسة الملكانية .

ــ نظارة الداخلية (قوانين ولوائح البوليس المصرى) بالمطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٨٩٥ افرنجية ــ الطبعة الأولى ـ الفرع الأول ــ الحرف المتنوعة ـ الفصل الأول (الحمَّارة) .

الشركة ما عندها من الرسومات والتخطيط لتلك الخطوط . وظلت تبحث وتنقب أياما من الدهر حتى تقررت القاعدة بينهم على تأسيس تلك الشركة والشروع فى تحديد خطوطها فى شوارع القاهرة ومصر القديمه . فأنشأوا لذلك مصنعا ، وأقاموا آلة بخارية عظيمة لتوليد الكهرباء على رأس قنطرة بولاق إلى الساحل من ناحية قصر النيل ، وشرعوا فى تمديد الخطوط ، واهتموا بذلك اهتماما كبيرا ، فكادوا يعطلون بأدواتهم ومعداتهم الطرق ، ويزاحمون المارة وابناء السبيل أياما كثيرة .وكان العامة والعربجية والحمارة ينظرون إلى هذا العمل العظيم بعين السخط ،ويسخرون بجماعة الصناع الفرنجة الموكلين بالعمل ويرشقونهم بالنكات والسخافات المضحكات المبكيات ، كأن أولئك النفر من الصناع هم أصحاب المشروع وليس بعسير عليهم تركه إرضاءاً لهم وفرارا من نكاتهم وسخافاتهم . واتفق أنى مررت يوما بشارع المناخ فرأيت جماعة من الحمارة متكأكئين حول أولئك الصناع يسخرون بهم ويستهزأون بقبعاتهم ، ويتغنون أمامهم بكلمات قد ضموا بعضها إلى بعض مثل(الكهربائية الكهربائية يلعن أبو البلجيكية ،الكهربائية الكهربائية بكرة بكرة تقتل ألف ومية) .فكان العامة من ورائهم يضحكون ويطربون ويقولون(أى والله يامـلاعين أى والله) .كل هذا ولم أر أحدا من أولئك الصناع ينبس ببنت شفة ، بل هم عاكفون على عملهم دائبون . واعلم أن كل مشروع خبرته الأمم المتمدنة قبلنا واستزادت منه وأقرت على أنه مفيد قولا وعملا وجعلته أداة من أدوات التقدم ووسيلة من وسائل العمران فهو صالح ونافع ، ونحسب وجوده فى بلادنا من نعم الله . وعندى أن إنشاء الترام فى ديارنا إنما هو من هذا القبيل ، فهو مستحسن فى ذاته ، ولو عادلنا بين فوائده ومضاره لوجدنا غاية ضرره أن يعطل بعض الحمارة وبعض أصحاب العربات ، وأما فوائده فالراحة والسرعة ، والرخص فى الإنتقال ، وعدم إضاعة الوقت الثمين فى هذا العصر ، وتخفيض أجر المنازل التى أصبح غلاؤها لا يطاق ، وتقريب الأطراف النائية من المدينة ، وغير ذلك

مما ستظهر آثاره بالتجربة . فما هى إلا أيام حتى سارت العربات على خطوطها ، وشـقت جوف المـدينة أو كـادت ، وتسـابق الناس على إختـلاف مـراتبـهم إلى ركوبها فى الليل والنهار ، فكان منظرها شائقا مسرا ، ولكن أخطار سيرها فى الشوارع الآهلة بالسكان كانت كثيرة وإصاباتها مميتة فى الحال . وقد تتابعت حوادثها بين قـتل الأطفـال والرجـال والدواب وعربات النقل ، كل ذلك لعـدم تحذر المـارة وعدم إكتـراثهم بها كـأنها عربة من عربات النقل ، ومـا هى إلا نار محرقة وصاعقه تصعق كل جسم مسته .

وبينما الناس على ما هم فيه من حديث الترامواى وفتكه بكل من داهمه ، إذ قامت ضجة أصحاب الصحف المحلية لمنشور أرسله السردار كتشنر باشا إلى أهل السودان وأصحاب المهدوية ملأه بالآيات القرآنية والأحايث المـحـمـدية والأوامر والنواهى الإسـلامية ، وأخيرا إستحلفهم بصاحب الشريعة أن ينفضوا من حول التعايشى ويضربوا بخلافته عرض الحائط . وإن يثبوا[٢٨٦] إلى رشدهم ويبـقـوا على مـا بقى لهم من متـاع . فـاندفع أصحـاب تلك الصحف إلى تقريع السـردار والحط من منشوره ، ورموه بالخديعة والمكر ،وقالوا قد نسى أنه نصرانيا ولا يجب لـه إستـمـالة أولئك القـوم على هذا النحو من التـغرير ،بل نسى أنه لا يملك حق دعوتهم إلى الطاعة إلا إذا أجازه لغير[٢٨٧] البلاد وصاحبها ورسم له بذلك . وبلغت ضجتهم هذه ما بلغت وهو لا يلتفت إليهم ولا ينكف عن إرسال كتبـه تباعا إلى كـبار القبـائل وأهل العشـائر وأصحاب المـراصـد من الدراويش يدعوهم إلى الرجوع ، ويمنيه[٢٨٨] بالأمانى البعيدة . ومن ألطف ما سمعته فى معنى كتب السـردار هذه ودعوته لأولئك القوم على ذلك النحو قـول أحد أهل العلم الظرفـاء ، وقـد سـئل فى ذلك فـقـال(إننا لنكاد نصـدق زعم المـنجـمـين

(٢٨٦) يثبوا = يثوبوا .

(٢٨٧) لغير= أمير .

(٢٨٨) ويمنيه = ويمنيهم .

وأصحاب الزايرجات[٢٨٩] الذين يدعون ستعتنق الأمة الإنجليزية بأسرها[٢٩٠] الدين الحنيف فى أحد الأيام ، ليخدعوا جماعة المسلمين ويستنصروا بهم على كل مرام لهم فى أوطانهم وغيرها من البلدان التى تطأها أقدامهم أو تدوسها نعالهم)أ٠هـ وعندى أن المطلع على كتاب السردار ذلك لا يكاد يصدق أنه صادر منه ، بل يحسب أن كاتبه إمام فى الدين ، ولكنه متى تحقق أن التوقيع الموقع عليه هو للسردار يثبت لديه أن الأمر إما هو تمثيل رواية أو مردف[٢٩١] من السردار عن دينه ، أو إعتداء على سلطة ليست له من [٢٩٢] حقه ، ولعله شعوذة من الشعوذات التى يظن جماعة من الإنكليز أنهم يبلغون بها من المسلمين ما لا يستطيعون بلوغه بدونها . وربما كان هذا الكتاب سبب فى إجتماع كلمة الدراويش بعد ما هو شاع[٢٩٣] من تقاطعهم وتنافر بعضهم . يجتمعون[٢٩٤] على قلب رجل واحد ويسدون على الحمل[٢٩٥] السبل والمسالك . حذا[٢٩٦] وبواخر النقل تمخر صعدا وهبوطا من حلفا ،وعليها المؤن ، وأدوات الحرب ، والمرضى ، والبغال والخيل والجمال ، وخدمة الحملة من كل صنف ورتبة . وقد وصلت من الإسكندرية على قطار مخصوص أربع من البواخر ذات عجلة خلفية وهى مفككة أجزاءا وقطعا ، معدة لنقل الجنود

---

(٢٨٩) الزايرجات = الزايرجة فن استخراج المغيبات ، يقوم على دائرة عظيمة فى داخلها دوائر متوازية للأفلاك والعناصر . وكل دائرة منها مقسومة بانقسام فلكها إلى بروج .
ـــ راجع عبد الرحمن بن حسن الجبرتى)عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ــ ج١ ص ٤٢٩ ، ٤٣٧

(٢٩٠) ستعتنق الأمة الإنجليزية بأسرها = أن الأمة الإنجليزية بأسرها ستعتنق عدلت الكلمات على هذا الشكل لتتفق مع السياق .

(٢٩١) مردف = ردة قراءة إجتهادية .

(٢٩٢) له من = من استبعدت كلمة له ليستقيم المعنى .

(٢٩٣) هو شاع = شاع استبعدت كلمة هو ليستقيم المعنى .

(٢٩٤) يجتمعون = فيجتمعون قراءة إجتهادية .

(٢٩٥) الحمل = الحملة .

(٢٩٦) حذا = هذا .

عند ترفعها خلف الشلالات . وقد أنشأوها فى ديار الإنجليز وجاء معها جماعة من كبار علم[٢٩٧] البحر ، وآخرون نوتية من أهل كندا الإنجليزية . فانحدروا من الإسكندرية وساروا توا إلى التخوم ، ولم يبيتوا إلا ليلة فى القاهرة . وكانت الأخبار تأتى إلى وزارة الحرب وديوان الإمارة باشتداد الوباء وتفشيه فى سائر منازل الجنود ،وفى مراكز خط المواصلات بين (أسوان) (وكروسكو) (وحلفا) (وسرس)(ومكهره)(وأمبيجول)(وأباد[٢٩٨]) أمبيجول) وعكاشة (وكوشة) (وعماره)وغيرها ، حتى لقد تفشى بين الجنود الإنجليزية وأنشب فيهم أظفاره . قالوا وهو شديد الوطأة جدا بين اللاجئين إلى(سوارده) من أهل البلاد . والآتين إليها من الجنود بقصد الإحتماء . وقد مات منهم عدد كثير للغاية ، وكذلك الحال فى جهة (فركة) وفى جند السكك الحديدية . ومات من كبار ضباط الانجليز بهذا الداء الوبيل جماعة كثيرة ، وآخرين من الضباط المصريين ، فجلسوا أهلهم بالقاهرة ومصر للعزاء[٢٩٩] . وسير الأمير كتبه إلى السردار بتبليغ تحياته إلى سائر الجنود وجماعة الضباط .واشتدت عزيمة السردار بمكانه[٣٠٠] تفشى الوباء واتخاذ كل حيطة مانعة لكثرة الموات بين الجنود وكبار الضباط من الإنجليز والمصريين . وكان النيل قد أخذ فى الزيادة والإنحدار على غير عادته فى مثل هذه الأيام . فنجحت التحوطات الصحية وزال الوباء أو كاد من (كوشة)(وعماده[٣٠١]) وغيرها ، وتعلقت الآمال بزواله تماما كلما ارتفع النيل

(٢٩٧) علم = علماء .

(٢٩٨) اباد = آبار .

(٢٩٩) تعطلت العمليات الحربية بعد معركة (فركه) أحد عشر أسبوعا للأسباب الآتية :-

أ - هبوب رياح جنوبية شديدة غير منتظمة دامت ٤٠ يوما .

ب - تأخر وفاء النيل (الفيضان) حيث يمكن للزوارق الحربية عبور الشلالات .

جـ - إنتشار مرض الكوليرا بين قوات الحملة خلال شهرى يوليو وأغسطس ١٨٩٦ ، واضطرار الجيش لاتخاذ الإحتياطات الصحية اللازمة - وبلغت الوفيات فى قوة الحملة ٢٧٩ جنديا .

- أورطة البنادق الرابعة المشاة - مرجع سبق ذكره - ص ٣٣ .

(٣٠٠) بمكانة = بمكافحة .

(٣٠١) وعماده = وعماره .

واشتد اندفاعه . فكان الناس يتساءلون عن مبلغ ما وصل إليه إرتفاع الماء فى صباح كل يوم . وأقبل العامة على مبشر النيل المعروف بالمنادى يسألونه عن زيادته ودرجة اندفاعه ، كلما رأوه فى الشوارع والحارات يبشر بزيادة أو نقص يومه . ومن عجيب الإتفاق أن أصحاب ديوان الآثار والعاديات قد اكتشفوا فى هذه الأيام أى فى أوائل أغسطس من السنة ، وأخريات صفر سنة أربع عشر وثلثمائة وألف على جدار فى المعبد الأكبر بالكرنك فى طيبة على علامات كان يصل إليها النيل عند منتهى فيضانه فى بعض السنين على عهد كثير من الفراعنة بين العائلة الثانية والعشرين والسادسة والعشرين ، وبجانب تلك العلامات نصوص على نسق الشعر القديم المصرى ، وكلها حمد وتمجيد للنيل المبارك ولملك عصر تلك الزيادة . فلما إنكشف النقاب على وجه ذلك الأثر الجليل ــ أثر حكمة أجدادنا ــ هرع علماء الآثار والسياح من كل صوب وحدب ، ونقلوا ما عليه من النصوص وسيروا بها إلى ديارهم . ومن تلك النصوص نقلنا بيتين من الشعر ، هذا تعريب الأول منهما(إلى هذا وصل فيض النيل فى السنة السادسة من حكم جلالة ملك الأقاليم القبلية والبحرية(نفر خودع) سلالة الشمس(طهرقة) دام مخلد الذكر إلى الأبد . والنيل هو أب لكل معبود رئيس وهو صاحب الفيض العميم الذى جادت به مراحم المعبود آمون (ومعناه الله سبحانه الذى لا تدركه الأبصار) لتحسين أحوال العباد والبلاد . وتعريب الثانى(إلى هذا وصل فيض النيل فى السنة الثامنة عشرة من حكم ملك الاقليمين ورب الأرضين .داح أبرع . سلالة الشمس بشايطق دام مخلد الذكر إلى الأبد . والنيل ذو المياه العظيمة الخفية هو أب لكل معبود رئيس وصاحب الفيض العميم الذى جادت به مراحم المعبود آمون لتحسين أحوال العباد والبلاد . وقد بلغ فى هذه السنة ــ يعنى فى سنتهم تلك ــ عشرين ذراعا وأربعة أصابع) أ٠هـ .

قلت . وجميع الأشعار المنقوشة إزاء تلك الخطوط فكلها من معنى هذين البيتين ، أما أسماء الملوك المنقوشه فى دائرة تلك النصوص فهى طهراقه . شباكا . شباتاك . وهم من العائلة الخامسة والعشرين السودانية . واسركون الثانى .وشيشنق وهما من العائلة الثانية والعشرين ، وبساماتيك الأول وهو من العائلة السادسة والعشرين . فإذا دققنا النظر فى التاريخ علمنا أن إبتداء حكم الملك بسماتيك هذا كان قبل الهجرة المحمدية بنحو ألف ومائتين سبعة وثمانين سنة ، ومن الهجرة إلى سنتنا هذه ألف وثلثمائة وأربع عشرة سنة . فيكون مجموع ذلك ثلاثة آلاف وستمائة سنة هجرية . فإذا حولناها إلى أعوام شمسيه كانت ألفين وخمسمائة وعشرين سنة . وهذه المدة هى من بدء حكم بسماتيك هذا إلى سنتنا التى نحن فيها . وإذا فرضنا أن النيل بلغ عندنا الآن عشرين ذراعا وأربعة أصابع كما بلغ فى الستة عشرة(٣٠٢) من حكم بسماتيك الملك ، وقارنا بين الإرتفاعين كان الفرق بينهما مترين ونصف متر يعنى أن أرض مصر قد ارتفعت هذا القدر من ذلك العهد إلى الآن ، فإذا قسمنا المترين ونصف متر على الألفين وخمسمائة وعشرين سنة ،وهى المدة من بدء تاريخ حكم بساماتيك إلى سنتنا هذه ، أصاب كل سنة من الإرتفاع ملى متر واحد ، وهى الزيادة الناتجة عن طمى النيل فى كل عام . ولعل أصحاب علم طبقات الأرض يعرفون من هذا التعليل عمر النيل المبارك فى مصر وعمر أراضى مصرنا المخصبة .

وبعد أن أخذ النيل فى الزيادة وتعلقت به الآمال ، عادفوقف أياما إشتد فيها الحر شدة بالغة جدا ، وظهرت بين الجنود فى التخوم أمراضا أخرى غير الوباء الذى كانت قد خفت وطئته ، ففتكت تلك الأمراض بالكثير منهم

(٣٠٢) الستة عشرة = ستة عشر سنة قراءة اجتهادية - ذلك أن بسماتيك الأول مؤسس الأسرة السادسة والعشرين قد حكم من سنة ٦٦٣ق .م حتى وفاته عام ٦٠٩ ق .م - ومدة حكمه ٥٤ عاما - فليس من المقبول إذاً القول بأن الستة عشر هنا تعنى الستة عشر عاما من حكم بسماتيك - وإنما الأقرب إلى الصواب أن يكون تصحيح النص هو كما ذكرنا .
- الرافعى (تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة) - مرجع سبق ذكره - ص ١٥٨ -١٥٩ .

وأماتت مكاتب جريدة(النيويورك هرلد) الأمريكية المرافق للحملة وغيره كثير من الإنجليز . قالوا هذا كله ناجم عن بقاء الجيوش كلها فى صعيد واحد وعدم تحركها . قالوا فإذا سارت وتقدمت إلى الأمام عادت إليها صحتها وزالت تلكم الأمراض عنها جملة . قلت وإلى هذا الحين كانت قد بلغت الإصابات بالوباء فى القطر كله منذ ظهوره خمسة عشر ألفا وثلاثمائة وسبعة إصابة ، والوفيات فيها إثنى عشر ألفا وستمائة ستة وسبعين وفاة . هذا ما أحصاه رجال الصحة وما خفى كان أعظم . فلما ارتفع النيل واشتد إنحداره رسم السردار باجتياز البواخر التى كانوا قد أتوا بها لخدمة الحملة ، فاجتازت منها باخرتين فى سابع عشرى صفر من السنة(جندل جرس) ، وجاءت الأخبار في اليوم التالى مباشرة بتأهب غيرهما للترفع وبلوغ الباخرتين(جندل قوس) . قالوا وظهرت عند ذلك الحركة بين الجند والإستعداد للسير إلى الأمام فرارا من الأمراض الضاربة بينهم .

وشاع فى هذه الأيام خبر عزم الامير على الذهاب إلى ديار الفرنجة تبديلا للهواء على عادته فى كل عام ، وأنه سيعرج إلى دار السلطنة عند عودته إلى مقر كرسيه . فما هى عشية وضحاها حتى رسم الأمير للرئيس مصطفى فهمى باشا بولاية الغيبة وأخذ أهبته للسفر ، وظهرت الحركة بقصر الإمارة . ثم سافر الأمير فى قلة من الخدم والحشم قاصدا ديار النمسا . واتفق أن بلغ النيل أذرع زيادته المعتادة ، فعينوا لكسر سد الخليج يوم الأربعاء ثانى عشر أغسطس من السنة ، ثالث ربيع الأول ، وسابع مسرى سنة ثلاث عشرة وستمائة وألف ، فقام الرئيس مصطفى باشا من الإسكندرية آتيا إلى القاهرة . وأصبح وقد عملوا الإحتفال عند السد ، وأولموا على الطريقة المعتادة ، وأطلقوا المدافع والألعاب النارية فى ليلتهم تلك . وكان لا يظن عمل هذا الإحتفال على عادته فى كل عام خوفا من الوباء الذى لم يكن لتقلص[٣٠٣] ظله من البلاد شرقا وغربا . وإن يكن قد خفت

(٣٠٣) لتقلص = قد تقلص .

وطأته عند التخوم وزال تماما من (كوشة) . فرسم السردار بنقل كافة المؤن والذخائر إلى كوشة وجميع سائر المعدات الحربية فيها . قالوا ولما كانت سفن النقل والشوانى قد إجتازت الشلال الثانى فصار من السهل نقل كل تلك المعدات إلى كوشة ، ومتى تمكنت السفن من الصعود إلى الشلال الثالث أنشأوا بين هذا المكان وسوارده نقطا عسكرية بدلا من المراصد وأهلها . وأرسلوا فرق العملة تخفرها الجنود إلى (خيبر) للإشتغال فى إصعاد السفن والزوارق إلى الشلال الثالث ، إذ بدون ذلك يصعب الوصول إلى المعونة اللازمة لرجال الحملة . وبلغت ميناء الاسكندرية فى ثالث عشرة أغسطس من ديار الإنجليز السفينة المسماة (كرافتون) وعليها شيء كثير من المعدات للحملة ، وأخصها ما يلزم للزوارق المصفحة المهيئة لضرب حصون دنقلة وغيرها . فاهتموا بإفراغها إهتماما عظيما ، وسيروا قطارات السكة الحديد بتلك المعدات يخفرها الجند وجماعة من ضباط الإنجليز . وجاء الخبر بأن قد اجتمعت الآن السفن المعدة للحملة عند الباب الكبير وهى سبعة ، أربع منها مسلحة بالمدافع ونحوه وثلاث بدون تسليح . قالوا وقد لقيت فى إجتيازها الشلالين الأول والثانى صعوبات جمة ، بحيث أن إحداها كادت ترتطم . وكبرت آمال السردار بقرب تسييره الجنود إلى دنقلة واستخلاصها من التعايشى وجموعه ، وكثر غدوه ورواحه بين حلفا ومنازل الجند وما ورائها . وأشار أصحاب بعض الصحف الكبرى الإنجليزية من طرف خفى إلى عزم صاحب السياسة الإنجليزية على إستخلاص السودان كله من أصحاب المهدوية وتحرير أهله من تلك العبودية .

وكان إهتمام أصحاب الشرطة بحوادث الوباء ، وتفكير أهل الحل والعقد فيما سيكون من وراء الحملة ، وتركهم العناية بالأمن العام والضرب على أيدى أهل الشقاوة من العامة وأهل العطوف قد زاد فى ضجتهم ، وأكبر من جراءتهم .

فظهرت عصابتهم(٣٠٤) فى مصر القديمة والعباسية ، وتعددت حوادثهم بين سرقة ونهب ونشل وخطف من أبناء السبيل بغير خوف ولا مبالاة ، بل وفى وسط الشمس ، وكلهم عصائب من الفتيان ومن متشردى السودان ، وخدام الضباط الإنجليز المقيمين بمنازل الجند بالعباسية . فكانوا يجتمعون زمرا وبأيديهم العصى والنبابيت ويتوعدون المارة بالقتل ، ويظهرون للعامة الأنفة والكبرياء وعدم الإكتراث ببطش الحكومة . فمنهم(عصبة الدهل الحلاق) و(عصبة حسن المجنون) ومكمنها بين الوايلى الكبير والترعة الأسماعيلية . وطالت أيام عبث أولئك السوقة والزعانف وكثرت شرورهم . فشكا أهل تلك الخطة ورفعواصوتهم عاليا فى وجه صاحب الشرطة ، فبث عيونه وأرصاده وشدد فى تعقب خطواتهم والقبض على كل من صادفوه منهم . واتفق أنى كنت أعود صديقا لى بالعباسية ،فبينما أنا فى طريقى عائدا إذ سمعت صياحا وقائلا يقول(أدركونى تعالوا إلى) ، فهرولت إلى ناحية الصوت ظانا أن المستغيث يضرب ضربا مبرحا أو هو يقتل . فرأيته رجلا يبيع الأحذية وبيده خرجا فيه بعض الأحذية ، وسمعته يقص حكايته إلى نفر من أهل تلك الخطة قد تكوفوا حوله . ذلك أنه خرجت عليه من إحدى العطوف جماعة من النساء فسلبن منه عشرة أزواج من أغلى الأحذية وعفرن وجهه بالتراب وذهبن إلى حيث لا يدرى . قال وهذه المرة الثانية التى إبتلانى الله بأولئك النسوة فسلبننى أحزيتى(٣٠٥) فى هذه الناحية ، وتركنا وانصرف . فتأملت ذات اليمين وذات الشمال لعلى أرى أحدا من أصحاب الشرطة ، فلم أر ، فعدت متعجبا . ثم علمت بأن محافظ البلد قد أزعجه هذا الأمر وأخافه ، فجد فى تعقب أولئك الأشقياء حتى قبض عليهم وزجهم فى الحبوس بعد أن حكمت عليهم المحاكم ، وكانت عقوبة مقدمهم(حسن الدهل) أطولهم سجنا .

---

(٣٠٤) عصابتهم = عصاباتهم .
(٣٠٥) أحزيتى = أحذيتى .

وبلغ إهتمام السردار كتشنر باشا بنقل المؤن والذخيره ومعدات الحملة مبلغا عظيما .فأكثر من تسيير السفن والبواخر من حلفا وما والاها إلى كوشة . فما هى إلا أيام بعد ذلك حتى بلغت كوشه عشرون سفينة وباخرة مشحونة بالمؤن ومعدات الحروب . ورسم السردار بعبورها الباب الكبير ، وشدد فى ذلك فلم يجسروا على مخالفته مع ما يعوزهم من إرتفاع مياه النيل لعدم بلوغه حد الزيادة المقررة ، فلما هموا برفع مراسيها فى صباح رابع عشر أغسطس هبت ريح شديدة جدا ، وصحب هبوبها ضباب كشيف جدا إظلم منه الجو وحجب الشمس حتى صار ظلاما دامسا ،فأحجموا عن تسيير السفن ،وأقلع السردار عن مكابرتهم ، فتربصوا أياما حتى انقلب الريح ولكنهم مع ذلك لم يقلعوا إنتظارا لزيادة النيل وسهولة عبور الباب الكبير . وكانت طلايع الدراويش تظهر من وقت إلى آخر فى نواحى (دولكو) ،فكانت رجال الحملة على يقظة دائمة وأصحاب المراصد فى سهر دائم والتفات ملازم ، وجماعة الإنجليز يكثرون الترداد بين حلفا وكوشه ، والأخبار تاتى إلى القاهره بترة مقتضبة لا تشفى غليلا . وقد جاءت بعض الكتب إلى بعض أهل الضباط المصريين ملأى بالأخبار المفزعة من فعل الوباء والحميات الخبيثة زكا[٣٠٦] تقاسيه الجنود من الحر ، وأرسل مكاتب(شركة روتر) البرقية المرافق للحملة إلى مكتب الشركة بالقاهرة يقول أن يوم ثالث عشر أغسطس الحالى فى كوشه كان يوما شدة[٣٠٧] قمطريرا لم يعهد له قط مثيل ، فقد بلغت فيه الحراره درجة أربع وخمسين ونصف فى الظل ، وظل الحال على هذا إلى ظهر الرابع عشر ، فتلطف الهواء قليلا إذ هبت رياح الشمال فتمكنت بعض السفن من الإقلاع مترفعة إلى نحو الباب الكبير .قال والأخبار تنبئ بوصول مدد من الداويش إلى(الحفير) على جانب النيل الأيسر تجاه كرمه . قال وعندى أن سرور أصحاب عبد الله وتحفزهم عظيمان ، فقد علموا بفعل الوباء فى صفوف العساكر الإنجليزية والمصرية ، وأكد لهم

(٣٠٦) زكا = وما .
(٣٠٧) شده = شره .

الجواسيس خبر تفشى الحميات الخبيثة فى سائر المعسكرات ، فلذلك قد ظهرت طلائعهم وبانت لمقدمة الحملة رجالاتهم . فتقدم جماعة الإنجليز الذين كانوا فى المعسكرات الشمالية إلى الأمام وتركوا نقطهم للضباط المصريين تأهبا واستعدادا لقتال تلك الطلائع . وظهرت الحركة يومئذ فى التخوم من أقصاه إلى أقصاه ، وتحدث الناس فى القاهرة بقيام الحرب والتقاء الجيشين ، فى حين أنه لم يقع شىء من ذلك البتة . فلما كان ثامن عشر أغسطس زاد النيل زيادة تذكر فأرتفعت مياهه عند الباب الكبير ، فاجتازت جميع السفن التى كانت راسية عند كوشة الجندل الأول من الباب الكبير ، وهو أصعب الجنادل وأكبرها خطرا حتى أن بعض تلك السفن إجتاز الجندلين الأوسط والأعلا بسهولة . وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب فطيروه إلى الآفاق ،فاستبشر أهل العساكر خيرا وفرحوا بقرب ترفع أولادهم إلى ما وراء كوشة ألتى هى بؤرة الوباء والحميات الخبيثة . وأرسل مكاتب شركة روتر التلغرافية المرافق للحملة يقول إن إرسال المدد من الدراويش إلى دنقلة متواصل من كل صوب وحدب ، حتى أصبح المقاتلون يعدون فيها بالألوف ، وإن أخبار الجواسيس تدل على أن التعايشى لا يحسب للحملة حساب ولا هو خائف من تقدمها ، وعلى أن الوباء قد دخل منازل العساكر الهندية بسواكن ، وأن قد إتخذت الإحتياطات القوية لمنع تفشيه . قال وقد إهتم التعايشي بإنشاء طلايع جديدة لعساكره فى نقط أمامية متقدمة خلافا لنقطتى(تندر)(والعديب) ليكونوا على أهبة وأستعداد ، ولكى لا يؤخذوا على غرة إذا هاجمتهم العساكر الهندية . وأكدت وزارة الحرب هذه الأنباء وأبلغتها إلى وزارة الداخلية ونائب الغيبة . وجاءت فى هذه الأثناء رسالة برقية إلى وزارة الحرب تفيد أنه هبت فى يوم سابع عشرى أغسطس زوبعة شديدة للغاية ، فعطلت خط السكة الحديد على مسافة سبعة وأربعين ميلا من(سرس) ، وأن المسافة التى تعطلت من الخط تتجاوز الستة أميال ، وقد قطعت الأسلاك البرقية أيضا قبلى(سرس) فجعلوا يرسلون البريد على الجمال .

وبينما الأفكار فى شاغل بحوادث التخوم وما تقسيه[٣٠٨] العساكر من فعل الحميات والأنواء المختلفه وحرارة الشمس المحرقة للأبدان ، إذ تفشى الخبر بقيام جماعة من الأرمن رعايا الدولة المطالبين بالحرية من عهد بعيد ، قام أولئك النفر بثورة فى بعض شوارع غلطه[٣٠٩] من أحياء دار السلطنه واستولوا على البنك العثمانى السلطانى[٣١٠] بعد أن قتلوا حراسه ، ثم جعلوا يطلقون

---

(٣٠٨) تقسيه = تقاسيه .

(٣٠٩) غلطة = Galata أحد أحياء إستانبول ـ يقع على الضفة اليسرى للقرن الذهبى ـ كان منطقة لسكنى العناصر الأوروبية فى أستانبول وارتبط بحى (بك أوغلو Beyoglu) بنفق فى سبعينات القرن التاسع عشر كما كان أول احياء إستابنول الذى يسير فيه الترام .

- Stanford Shaw (History of the Ottoman Empire - Vol. II. - Ibid P.P., 65,74, 91, 94 - 97.

(٣١٠) تعود الإضطرابات الأرمنية فى الدولة العثمانية إلى السنوات الثلاثين الأولى من القرن التاسع عشر عندما كانت الدولة تعانى من الحروب التى ورطتها فيها روسيا القيصرية ـ والتى استولت خلالها على أراضى كثيرة من الشاطئ الشرقى من البحر الأسود ، وزحفت إلى شرقى الأناضول فى يوليو ١٨٢٨ ـ وحصولها على مساعدة السكان الأرمن المحليين فى هذه المناطق .

فى أربعينات القرن منح الأرمن صلاحيات فى شئونهم المدنية وتأسست مجالس منتخبة من رجالهم كما تداخل المبشرون البروتستانت والكاثوليك الإنجليز والأمريكيين فى تحريك المشاعر القومية عند الأرمن وإيقاظ الشخصية العرقية الأرمنية .

فى ١٨٦٣ منح الأرمن دستور ملى جديد أتاح لهم إقامة نظام تمثيلى يتمتع بسلطات ضرائبية ، تعليم ، صحة ، وشئون اجتماعية .

خلال الحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٥) ومع تقدم الروس فى (شطالجة) خارج أستانبول تصاعد الشعور القومى عند الأرمن من خلال التهييج الروسى . وأيام إنعقاد مؤتمر السلام فى سان إستفانو (٣ مارس ١٨٧٨) ذهب البطريرك الأرمنى نرسيس Nerses إلى سان ستفانو لينال مساعدة الروس فى إقامة دولة أرمنيه مستقلة فى شرقى الأناضول مقابل المساعدات التى قدمها الأرمن لهم خلال الحرب . فى ذلك الوقت خلقت القضية الأرمنية .

مع إنعقاد مؤتمر برلين (١٣يوليو ١٨٧٨) فشلت روسيا فى السيادة على جنوب شرقى أوروبا من خلال إقامة بلغاريا التابعة . ومع فشلها لجأت إلى بديل تمثل فى تهييج الاقلية الأرمنية للثورة ضد السلطان العثمانى . كذلك فإن المؤتمر الذى منح بلغاريا والصرب إستقلالا ، حفز الأرمن للمطالبة بالفوز بشئ مماثل . وكان الغزو الروسى لشرقى الأناضول (١٨٧٧) قد ساهم فيه ضباط أرمن وإداريون خدموا فى حكومة القيصر فى أوائل القرن .واتصل أرمن الأناضول بإخوانهم العاملين فى خدمة القيصر الروسى للتعاون ضد السلطان .

لكن أخطر ما كان فى قضية العلاقات الأرمنية ـ التركية هو لجوء البطريرك نرسيس إلى مؤتمرى سان ستيفانو وبرلين للحصول على دعم أوروبى للإستقلال الذاتى فى الشرق . أما أخطر ماكان فى القضية الأرمنية ذاتها فهو الجهود الروسية المتتابعة لحث القومية الأرمنية وإثارتها كوسيلة لنسف الدولة العثمانية .

لم ينجح الأرمن رغم جهودهم المضنية فى الحصول على إهتمام أوروبى بمطالبهم فى الإستقلال=

= بالأقاليم الستة التى كانوا يدعون بوجود أغلبية عرقية لهم فيها (أرضروم - بيتليس - ڤان - دياربكر - معمورة العزيز - سيواس) . بدأ الأرمن يتحولون بعد هذا الفشل إلى العنف بعدما كانوا يحاولون الوصول إلى غاياتهم بالإقناع . وهكذا فإنه مع الثمانينات.قامت الجمعيات الثورية فى استانبول - طرابزون - أرضروم - ڤان . لكن أكثر هذه الجمعيات فاعلية كانت فى تفليس Tiflis التى كانت ترسل البنادق والذخيرة من باطوم Batum وريز Rize . ومن تبريز Tibriz تسلل عملاء الأرمن عبر الحدود لإرهاب الفلاحين الأتراك . كان العنف الأرمنى يستهدف إستدعاء العنف المضاد العثمانى ، والذى كان يفترض فيه أن يكون أكثر إراقة للدماء - من أجل جذب انتباه القوى الأوروبية وخاصة بريطانيا وروسيا . وهكذا فإن العصابات الثورية الأرمنية هاجمت خلال الثمانينيات جامعى الضرائب ، رجال البريد ، والقضاة العثمانيين - وذبحت قرى تركية بأكملها . وفى النهاية فإن هذه الأفعال سممت جو العلاقات التركية - الأرمنية وأوجدت مناخا من فقدان الثقة ، وجعلت من الصعب على الفريقين العيش جنبا إلى جنب كما كان الأمر فى السنوات السابقة .

إتخذت الحركة الأرمنية فى آواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر مظهرا جديدا عندما تألفت الجماعات الثورية فى الخارج . فى عام ١٨٨٧ ألف الطلبة الأرمن فى فرنسا وسويسرا جماعة الهونشاق Hunchak (الجرس) ، وفى روسيا قامت جماعة الداشناق Dashnaks (الفيدرالية الأرمنية الثورية) . كانت برامج هاتين الجمعيتين خلق جماعات حركة لدخول الأراضى العثمانية ومهاجمة الموظفين العثمانيين وإثارة المذابح - بهدف إستدعاء التدخل الأجنبى ومساعدة القوميين على ضمان الإستقلال لما أسمى بالجمهورية الإشتراكية الأرمنية Socialist Armenian Republic التى يفترض أن تقام فى المحافظات الأناضولية الشرقية حيث يطرد منها العثمانيون المسلمون ويقتلوا . أسست (الداشناق) عددا من الخلايا فى إستانبول - طرابزون - وڤان - لكن هذه الخلايا لم تستطع أن تكون ذات فاعلية حتى قبل ١٨٩٥ . أما (الهنشاق) فكانوا أكثر توفيقا فى الداخل والخارج - فأقاموا مراكز لهم فى ارضروم ، خربوط ، أزمير ، حلب ، وچنيف . تبودل العنف والعنف المضاد بين الأرمن والأتراك . طرد السلطان عبد الحميد الأرمن من وظائفهم وضيق على التجار منهم لتقليل نفوذهم الإقتصادى - وألف قوات الحميدية Hamidiya وهى جندرمة قبلية Tribal راكبة لمساعدة الجيش على قمع الإرهاب الأرمنى فى الشرق . خلال الفترة ١٨٩٠-١٨٩٣ تزايدت أعمال العنف والعنف المضاد ، ونظم الهنشاق إنقلا با كبيرا فى ساسون Sasun جنوب غرب موص Mus حيث يوجد أكبر تجمع أرمنى - وعندما تدخل الجيش هرب الثوار إلى الجبال مهاجمين القرى المسلمة وتاركين الفلاحين الأرمن لتلقى نتائج الثورة الفاشلة على يد القوات العثمانية التى ردت الصاع صاعين للأرمن الذين ذبحوا أبنائهم وإخوتهم . تحركت الدعاية الثورية لتحريك رد الفعل الأوروبى - إتهمت الحكومة العثمانية بتدمير ٢٥ قرية فى المنطقة وإعدام ٢٠,٠٠٠ فلاح أرمنى - تألفت لجان تحقيق مختلطة قامت بالتحقيق وأثبتت المبالغات فى ادعاءات الأرمن عما تعرضوا له من مذابح . لكن الرأى العام الأوروبى المسيحى كان متعاطفا لتصديق الأرمن ، لكن تراخى القوى الأوروبية فى الإستجابة لمطالب الأرمن أحبط جماعة الهنشاق الذين حاولوا إثارة الإضطرابات فى استانبول - شهدت المدينة فى ٣٠ سبتمبر ١٨٩٥ مظاهرة نظمت للإحتجاج على تقرير قومسيون التحقيق الذى انصف الأتراك - ومرة أخرى كان القمع العثمانى للأرمن عنيفا .

شهد شتاء ١٨٩٥ - ١٨٩٦ مذابح قاسية فى الأناضول وانهيارا لأحوال الأمن العام . فى إستانبول إستمر الإرهابيون الأرمن فى إحداث الإضطرابات على أمل إرغام القوى الأوروبية على التدخل لصالحهم . فى ٢٦ أغسطس ١٨٩٦ إستولت مجموعة من الأرمن على البنك العثمانى فى بك أوغلو Bey oglu أحد أحياء إستانبول - حيث زرع الأرمن قنابل فى البنك ، واحتجزوا رهائن من=

العيـارات النارية على الجند من السطوح والنوافـذ ، وظلوا على هذا إلى نحـو منتصف الليل . قالوا وفى غضون ذلك وقعت الثورة أيضا فى أحياء أخرى ، فقتل وجرح كثيرين من الأرمن والمسلمين ، وخربت بعض المخازن التجارية الكبيرة ، وانفجرت قنبلة بجوار ثكنة الحرس السلطانى ، فراح كثير من العساكر بين قتلى وجرحى ، فعم الهرج المدينة وهب الناس إلى تعقب الأرمن ، وقتل كل من صادفوه منهم بلا فرق ولا تمييز . وطير سفراء الدول خبر ذلك إلى الآفاق ، فسيرت دولة الإنجليز إحدى بواخرها الكبرى إلى إسطنبول ، وتبعتها دارعتان إحداهما أفرنسية والثانية إيطالية واشتد الهياج وكثر القتل فى جماعة الأرمن ، وتحمس السوقة والسواد الأعظم من العامة ، فطافوا فى أحياء الفرنجة

= الموظفين العاملين به ، وأتخذوا الترتيبات لحصار طويل على أمل إثارة الإهتمام الأوروبى . هاجم الأرمن الباب العالى وأصيب أفراد من موظفيه وهُددَ الصدر الأعظم بالأسلحة النارية . هاجمت وحدات ثورية الحى القديم فى إستانبول بالقاء القنابل وإطلاق النيران وقتلوا وجرحوا أبرياء كثيرين ـ وهوجم السلطان عبد الحميد بإلقاء قنبلة على موكبه وهو فى طريقة إلى مسجد أياصوفيا لصلاة الجمعة وقتل ٢٠ رجل بوليس .

طالب الأرمن القوى الأوربية بلجان تحقيق جديدة إلى المحافظات الشرقية ـ تعيين حكام مسيحيين وقائمقامات لإدارتها ـ بوليس مسيحى ـ جندرمة ، وميليشيات للحلول محل رجال الحكومة ـ الإعفاء من الضرائب لمدة خمس سنوات ـ خفض الضرائب بنسبة ٤/٥ ـ زيادة إنفاق الدولة فى المنطقة على المدارس ـ العفو العام عن كل الأرمن المتهمين أو المدانين في جرائم خلال الحوادث السابقة ـ وإعادة كل الملكيات المصادرة . رفض عبد الحميد قبول كل هذه الطلبات . وبعد يوم طويل من الحصار تم القبض على محتلى البنك العثمانى . ولكى يقلل السلطان التوتر العام ويمنع المصادمات فيما بعد فإنه أصدر عفوا عاما وبدء فى تعيين مديرين مسيحيين فى الشرق حتى ولو كان المسيحيون أقليات .

عند هذه النقطة سعى اللورد سالزبورى للحصول على دعم القيصر الجديد نقولا الثانى (١٨٩٤ ـ ١٩١٧) لحضور أسطول بريطانى إلى إستانبول لحث السلطان على إعطاء الأرمن ما طلبوه . ومع هذا فإن روسيا خشت أن يزيد هذا من نفوذ بريطانيا وسيطرتها فى الإمبراطورية العثمانية . فانضمت إلى فرنسا فى معارضة التدخل الفردى للضغط على السلطان ـ ولم ينجح التدخل الأوروبى ، وبدأت العناصر الأرمنية فى ترك الإمبراطورية العثمانية للعيش فى إيران ، مصر ، وأوروباوخاصة الولايات المتحدة حيث أستقروا وخصصوا طاقاتهم وقدراتهم لعمل حياة جديدة . مع عام ١٨٩٧ كانت القضية الأرمنية قد إستهلكت وظلت ساكنة حتى الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) عندما دخلت فى طور جديد

-Stanford Show (History of the Ottoman Empire) Vol. II. - Ibid., pp. 31, 26, 188, 190, 200 -205.

-Esat Uras (The Armenians in History and the Armenian Question). The istanbul Research Center - Documentary publicatins - 1988 - p p., 607, 637, 763, 703, 764, 765, 772 -775, 802, 1004.

يتهددون ويتوعدون . يقال وكان سبب هذه الثورة تغاضى السلطان عما فعله الكرد بجماعة الأرمن من الذبح وإراقة الدماء البريئة وهتك الأعراض جهارا فى وسط الشمس . وتتابع وقوع هذه الشدائد الكبرى كلما أنس السلطان من الدول ، ولا سيما دولة الإنجليز تشديدا أو تهديدا عند المطالبة بشيء من المطالب التى تقع عادة بين بعض الممالك وبعض . فكانت هذه المذابح الهائلة كعصا التهديد فى يد السلطان يشغل بها أصحاب سياسات الدول كلما هموا بأمر يريدونه ، ويوقفهم بها عند حدهم ، فكانت حالة أولئك القوم التعساء مما تقطر له المرائد . وكانوا على حد قول القائل .

غير جنى وأنا المعذب فيكم فكأننى سبابة المتقدم

وقام أصحاب صحف الدولة ، وعلى الخصوص الصحف الإنجليزية تقبح فعال السلطان ، وترميه بالجور والعسف والإنغماس فى بؤرة الدماء البريئة ، وستحث[٣١١] صاحب السياسة الإنجليزية إلى النهوض فى وجه مسببى تلك الحركة الوحشية ،وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الفرنسيس والإيطاليان والروس واليونان ، وكثر اللدد وطال الأمد .وكان مما إبتلى به هذا البلد الأمين مصر بلد الهدوء وإكرام الغريب أن قام فيها نفر ممن لا خلاق لهم ، فاتخذوا مهنة من أسمج المهن وأضرها بالأخلاق وأحطها بالنفوس إلى أسفل الدركات ، هى إخراج بعض الصحف الهزلية الناطقة بلغة العامة ولهجة السوقة وأصحاب مكامن الريب وسموها باسماء تدل على مبلغ إنحطاطها (كالأرنب) (والمسامير) (والأرغول)(وحماده منيسى[٣١٢]) و(اللجام) وغير ذلك كثير ، وكلها لا هم لها إلا نهش أعراض الناس وكشف عوراتهم ، ونبش القبور والتحدث بأخبار أهلها إن كذبا وإن صدقا . فكان إقبال القوم عليها كثير ،

(٣١١) وستحث = وتستحث .
(٣١٢) حمارة منيتى ـ صحيفة عربية صدرت فى مصر عام ١٨٩٧ ـ ابراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية (١٧٩٨ - ١٩٨١)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٣٦ .

والترنح بقراءة ما فيها أكثر ، حتى أنك لا تمر بحانوت من حوانيت أهل الصنائع ولا قهوة من قهاوى العامة ولا موقفا لعربات الركوب أو عربات النقل ،إلا وترى أحدهم يقرأ للمتحلقين حوله ما فى واحدة أو أكثر من تلك الصحف ، وهم يقهقهون ويضربون الأرض بأرجلهم ، ويكررون تلك الكلمات السمجة والعبارات الشائنة . فما بلغ أصحاب تلك الصحف خبر إنحاء أصحاب صحف الإنجليز على السلطان باللائمة وتقبيح صنعه مع أولئك الأرمن التعساء وندائهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، حتى هبوا من عقال ، وبرزوا يسودون وجوه صحفهم بالسخائم وفحش القول ضد ملكة الإنجليز ، ويرمونها على شيخوختها وتقاعدها وعجزها عن الحركة بما لا يقوله إلا السوقة وزعر العطوف ، حتى لقد صورها صاحب وريقة(الوقت) وهى إحدى تلك الوريقات الساقطة بصورة هزلية معيبة جدا . ورماها صاحب وريقة (المنير) بأفظع الصفات . فتناقل العامة أقوال هاتين الوريقتين ، فكانوا يتغنونها ببعضها ويضموا إلى عباراتها أقوالا أخرى من نوعها بل أسمج منها .فهاج عميد الإحتلال وسير إلى الرئيس يلومه ويعيب عليه إغضائه . فرسم إلى صاحب الشرطة بمحاكمة صاحب(الوقت)(والمنير) . فقبضوا عليهما وساقوهما إلى المحاكمة .فقال صاحب الوقت أمام قاضى التحقيق أنه رسم ملكة الإنجليز بتلك الصورة الهزلية تعظيما لها ، وقال صاحب المنير بأن طعن صحف الإنجليز وصحف الإحتلال فى السلطان أمير المومنين حمله على إهانة الملكة والحط من كرامتها .وطال سجنهما أياما ،ثم دفعاهما إلى المحكمة ، فحكمت عليهما بالحبس أشهرا معدودات وبالتغريم النقدى . وطاف جماعة الشرطة يمنعون من تجمع العامة والسوقة على حوانيت الذين كانوا يحفلون بقراءة تلك الصحف ، وأنقع[٣١٣] ظهورها بسجن أصحابها ، وزال القلق عن أهل العقول والصحافة ... وما هى إلا عشية وضحاها حتى ظهر الإرجاف ، وعمت الإشاعة بأن خمسة من أمثال المصريين وضعوا لائحة فى

(٣١٣) وانقع = وانقطع .

إستقلال مصر وسلخها من تابعية السلطنة العثمانية ، وأن الأمير قد حملها فى سفره الذى هو فيه إلى(الأرشيدوق) ولى عهد سلطنة النمسا والمجر ليكلم الإمبراطور فى شأنها ، ويستميل الدول الكبرى والسلطان إلى الإعتراف بها . تفشت هذه الإشاعة وتحدث بها الخاصة فى مجتمعاتهم فلم يرضهم تفشيها فى هذه الآونة المحفوفة بالمكاره من صوب[٣١٤] .وخشوا عاقبة حمل الأمير لتلك اللائحة ، وقالوا أنها محنة خسرى وفتنة كبرى . سألت صديق لى من المقربين من باب الأمير رأيه فى ذلك فقال .أراد جماعة من الدساسين صنائع المحتلين التفريق بين أمير المومنين السلطان عبد الحميد والأمير متوبعه[٣١٥] بشىء من التهم الكبرى ، فاجتمع خمسة منهم وهم الثلاثة أصحاب صحيفة المقطم ، ومكاتبهم فى دار السلطنة العثمانية ، والسيد توفيق البكرى[٣١٦] نقيب البكرية وشيخ مشايخ أهل الطرق والأشائر ، ووضعوا لائحة هى تلك اللائحة التى يدعون أن الأمير حملها فى سفره . واتفقت كلمتهم على أن يقوم السيد إلى دار السلطنة ومعه تلك اللائحة وأنه[٣١٧] يمده إدريس بك راغب إبن الوزير راغب باشا[٣١٨] الكبير بشىء من المال عند الشيخ أبو الهدى الرفاعى شيخ

(٣١٤) صوب = كل صوب .

(٣١٥) متوبعه = تابعه .

(٣١٦) توفيق البكرى = راجع حاشية ٧٠٣ ص ٤١٥ .

(٣١٧) وأنه = وأن .

(٣١٨) راغب باشا الكبير = المقصود به إسماعيل راغب باشا رئيس النظار (١٧ يونيو ١٨٨٢ ــ ٢١ أغسطس ١٨٨٢) ــ ولد فى اليونان ١٨١٩ ــ ومات فى مصر ١٨٨٥ ــ اختلفت المصادر حول المدينة التى ولد بها ــ اختطف وبيع فى الأناضول ، وجئ به إلى مصر كمملوك لإبراهيم باشا فى عام ١٨٣١ حيث إعتنق الإسلام . وبعد أن تلقى تعليمه بالمدراس عينه محمد على بالإدراة المالية ، ثم طرده عباس من منصبه ليعيده سعيد إلى المالية بعد توليه الحكم . منذ ١٨٥٤ أصبح أبرز المستشارين والوزراء وخاصة فى المسائل المالية لسعيد ثم إسماعيل وأصبح من أغنى العناصر الجركسية فى مصر ــ عمل ناظرا للمالية فى نظارة محمد شريف باشا الأولى (٧ أبريل ١٨٧٩ ــ٥ يوليو ١٨٧٩) ــ كما كان رئيسا لمجلس شورى النواب فى دور انعقاده الأول (٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ ــ ٢٤ يناير ١٨٦٧) . أما إدريس بك راغب فهو ابن المترجم ـ ولد عام ١٨٦٢ بالقاهرة ــ تعلم تعليما قانونيا واشتغل قاضيا بالمحاكم الأهلية ــ فى عام ١٨٩٥ عين مديرا لمديرية القليوبية ـ لعب دورا كبيرا فى الحركة الماسونية فى مصر ــ فأصبح رئيسا للحفل الماسونى وأستاذا أعظم فى يناير ١٨٩١ فى أعقاب تخلى الخديو توفيق ـ وكان ماسونيا ــ عن الرآسة . قام بتسديد ديون=

الطريقة الرفاعية فى المابين الهمايونى . فسافر السيد توفيق إلى دار السلطنة وسعى جهده لدى الشيخ أبى الهدى ، وجعل يذهب هنا وهناك . فلما لم يفلح أخذ يشيع فى دار السلطنة إشاعات عن الأمير ويكثر من الإرجاف والإدعاء بأنه موفد من قبل الأمير بمهمة خصوصية لدى أمير المؤمنين ، حتى إتصلت الأشاعة بمقام الخلافة . فسير المابين إلى الأمير كتبه فى شأن ذلك ، فأنكر الأمير هذه الدعوة وأرسل يكذب كل ما قاله السيد توفيق ، وأنه لم يكلفه بشىء ما من الأمور . فغضب الخليفه ، وجاء أحد رجال المابين إلى السيد يقول له إرحل الساعة عن دار السلطنة ، فطلب مهلة فلم تعط إليه ، وقام من ساعته على إحدى البواخر التى على أهبة القيام إلى الشام وهو يجر أذيال الخجل ويعض سبابة الندم . فلما وصل القاهرة شارع خبر ذهابه إلى دار السلطنة وما لقيه بسبب محادثة أولى الشأن فى المابين فى أمر تلك اللائحة المكذوبة ، واشتد غضب الأمير عليه حتى رسم بعدم قبوله فى قصر الإمارة فى أيام التشريفات

= المحفل الأكبر فور توليه رأسته من الثروة الضخمة التى تركها له والده عند وفاته عام ١٨٨٥ ــ أنشأ محفلا أكبر لدرجة الأساتذة المعلمين ــ وأنشأ فى بنها محفلا باسمها ــ فى عهد أستاذيته العظمى بلغ عدد المحافل الماسونية ٥٤ محفلا منها اثنان باسمه(محفل إدريس رقم ٤٢ ومحفل راغب رقم ٥) ـ أنشأ صحيفة تنطق باسم الحركة الماسونية ــ ظل يشغل منصب الأستاذ الأعظم حتى عام ١٩٢٢ عندما حل محله الأمير محمد على توفيق ولى العهد .أنشأ حزبا سياسيا صغيرا أسماه (الحزب الدستورى) كان يدعو إلى التمييز الطبقى ولا يعتد بالحياة النيابية مقابل الولاء الكامل للسلطة الشرعية فى مصر وسلطة الإحتلال (١٩١٠) . ألف خمسة مؤلفات عن الماسونية (القانون الماسونى للمحفل الأكبر(١٨٩٣) ـ (الدرجة الأولى ــ شرح لوحة الرسم ومقالات خاصة بهذه الدرجة) (١٨٩٦) ــ (رسوم الدرجة الثالثة الرمزية للمحافل الماسونية المصرية) (١٨٩٨) ــ (رسوم الدرجة الرمزية للمحافل الماسونية (١٩٠١) ـ (رسوم الدرجة الثانية الرمزية للمحافل الماسونية المصرية)(١٩٠١) .

ــ ألكسندر شولش (مصر للمصريين ــ أزمة مصر الإجتماعية والسياسية) مرجع سبق ذكره ص ٩٦ حاشية ٤٨ .

ــ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٠٤ .

ــ على شلش (الماسونية فى مصر) ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ــ مصر النهضة ـ القاهرة ١٩٩٣ ــ ص٥٨ ، ٩٨ -١٠٣ ، ١٣٨ .

ــ يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ ــ ١٩١٤) . مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ـ ١٩٧٠ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

والمقابلات الخصوصيه . وظل مبعدا أياما من الدهر . قال وما أحراهم بقول القائل .

همموا أيقظوا رقط الافاعى ونبهوا   عـقـارب ليل نام حـواتهـا
هموا نقلوا عنا الذى لم نفه به   ومـاآفـة الأخـبـار إلا رواتهـا

أ ٠ هـ

قلنا فيما مر بك أن جنود الحملة تقاسى الأمرين من الوباء والحميات الخبيثة والحر المحرق ، فضلا عن الزوابع والأعسار الشديدة . وأن طلائع أصحاب المهدوية لم تنكف عن إقلاقهم والظهور أمامهم من حين إلى حين . فلما كان ثالث سبتمبرمن السنة ، خامس عشرى ربيع الأول سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف ،جاء إلى وزارة الحرب من السردار بأن قد ثارت عاصفة جديدة عنيفة للغاية ، فأحدثت إتلافا كثيرة ولا سيما فى (كوشة) ، فقد لحقت بها أضرار جسيمة للغاية . قال وقد حولت الأمطار الهامرة الخور إلى غدير عظيم عمقه ثمانية أقدام يستحيل اجتيازه .قال . وأما ثلث الخط الحديدى فلم يبق له أثر ، ولا يعلم إلى الآن مقدار الخسائر والإتلاف ، ولكن على الأرجح أن خط السكة الحديدية قد لحقت به أضرار جمة . قال والمواصلات مع(أبسراط) مستمرة بدون انقطاع بواسطة السفن ، وحالة الجند فيها حسنة أ ٠ هـ فكادت[٣١٩] وزارة الحرب تخفى حقيقة هذه الأنباء أو تنسخها على عادتها فى مثل هذه الأحوال . ولكن كانت قد جاءت بها الأخبار الخصوصية إلى بعض أهل الضباط المصريين ، فأشاعوها ونقلها كذلك مكاتبى الصحف المرافقين للحملة ، وطيروها إلى الديار الإوروبية على جناح البرق . فتحقق الناس أن ما تقاسيه الجنود عند التخوم من المشاق والامراض وشظف العيش ، لتعذر النقل وصعوبة المواصلات لتفريق مساكن الجند فى الصحراء ، فرارا من الموت

(٣١٩) فكادت = فكانت .

بالوباء والحميات الخبيثة شيئا لا يطاق ،ولا يمكن لكاتب وصفه . وأدرك أهل الحل والعقد أنهم أخطأوا فى تسيير الحملة فى هذا الحين بينما هم يرون الوباء متفشيا فى جميع البلاد شرقاوغربا وشمالا وجنوبا ، وأن خطأهم لا محالة فظيع . هذا وانحدار الجنود والضباط من الإنجليز والمصريين المرضى متواصل ،فلا يمضى يوم أو يومين إلا وتصل جماعة منهم على قطارات السكة الحديد ،فيحملون على النقالات أو على عربات المرضى ، ويسيرون بهم إلى مستشفى قلعة الجبل ، أو مستشفى العباسية وهم فى حالة محزنة . وقد بلغ التمويه والتغرير بالسردار وجماعة الإنجليز من سلاطين باشا ـ ذلك النمسوى ، وقد تولى وكالة يشف[٣٢٠] الإستطلاع ويتجسس[٣٢١] أحوال العدو فى الحملة ـ مبلغا قل أن يبلغه غيره من أصحاب الضمائر السليمة والقلوب النقية .فقد كان إذا رأى من جماعة الإنجليز قلقا أو تذمرا من البقاء على قدم الإنتظار واللبث وراء التخوم بلا حركة ، هون عليهم الأمر وخفف الرزح ، ومناهم بالفوز المنتظر والفتح القريب ، وبالغ فى ضعف أصحاب المهدوية وعدم خبرتهم بفنون القتال ، وفراغ مخازن التعايشى من الأسلحة والذخيرة ، ومعدات الحروب .وإذا آنس من المصريين إستعدادا للقاء العدو وتفضيلا للزحف على البقاء على ما هم عليه ، موه عليهم الحقائق وخلط بين الجد والهزل . حتى لقد أخبرنى بعضهم أن سلاطين هذا حدثهم يوما بأنه لما كان فى أسر الدراويش سلمه عبدالله التعايشى إدارة الطوبخانة يعنى محل عمل القنابل للمدافع ، فتولاها أياما من الدهر قبل خلاصه من الأسر . فكان إذا طلبوا منه عمل شيئا من القنابل لحاجة المدافع عند القتال مكر بهم وغش حشوها حتى أنه خلط الخرطوش بالرمل إلى مائة صندوق كانوا يأخذون حاجتهم منها عند الإستعراض . قال وهو يظن الآن أنها نفذت ،وأنه لم يبق من ذخيرتهم إلا ما

(٣٢٠) يشف = الكشف قراءة اجتهادية .
(٣٢١) الاستطلاع ويتجسس أحوال = والإستطلاع وتجسس .

كان مغشوشا .قلت وهو حديث خرافة ، فإن الرجل لم يكن ليدير الطوب خانه على إنفراد ، ولا هو مستبد بعملها ، فقد كان معه مصرى إسمه (المعلم عبدالله البراد) ، وهو شديد التعلق بالمهدوية ، وحسن الإعتقاد بخلافة التعايشى كما اشتهر عنه ، وآخر نمسوى إسمه (نيوفرد) ، فيكون إذن الغش وخلط الخراطيش بالرمال ليس من الهنات الهينات . ولعل لسلاطين غرضا من مثل هذا الكذب يريده . واهتم السردار بترميم ما تخرب من جسر السكة الحديد ، فقام بعمل الترميم ستة ألف(٣٢٢) جندى أو يزيد ليل نهار . فكان العمل شاقا جدا والحر شديدا للغاية . ولم يفقوا(٣٢٣) إلى ترميم مثلث الخط فى حلفا لانغماره بالمياه على عمق ستة أقدام كما تقدم القول . ولذلك هموا بعمل خط آخر جديد من عكاشة إلى كوشة على المرتفع من الأرض غرب المثلث القديم .وقوية(٣٢٤) عزيمة السردار وكبرت رغبته فى عمل ذلك الخط ، ولكنه لم يفلح لتعذر العمل وعدم موافقة تلك المرتفعات . فشدد فى إصلاح الخط القديم ،وأمضى أياما مع الجند القايمين بالعمل يحضهم ويشجعهم حتى تم إصلاح الخط لغاية خامس سبتمبر من السنة ، وعادت المواصلات إلى ما كانت عليه(٣٢٥) .وعلم عبدالله بذلك فرسم بتعزيز سائر المواقف الأمامية لمعسكر دنقلة بطائفة من الجند المشاة ، وأخرى من الفرسان . وسلم القيادة إلى (عثمان الأزرق) واستحلفه

---

(٣٢٢) الف = آلاف .

(٣٢٣) يفقوا = يوفقوا .

(٣٢٤) وقوية = وقويت .

(٣٢٥) فى الفترة ٢٧ - ٣١ أغسطس ١٨٩٦ وبينما كانت قوات الحملة فى إنتظار وصول الخطوط الحديدية إلى كوشة ، هطلت أمطار غزيرة جرفت ١٧ ميلا من الخط الحديدى بين (ارارات) و(سرس) - ووضع هذا قوات الحملة فى موقف سئ - ذلك أن النهر كان سينخفض بعد أسبوعين وبالتالى فإن الزوارق النيلية المركبة عليها المدافع لن تتمكن من عبور الشلالات - لكن الموقف تعدل بعد ذلك نتيجة للجهد المضاعف الذى بذل فى إصلاح الخط - وتم اختصار الوقت المقرر للإصلاح بتخصيص أعداد أكبر من الجنود للعمل فى إصلاح ما دمرته السيول - وقامت كتيبة السكك الحديد بأعمال بطوليه فى هذا المقام .

-Patrici Wright (Conflict on the Nile) Ibid.. - PP.. 74 -75.

على الجد والجهاد وقطع شأفة الكفار .وكانت العواصف والأعسار التى قامت فقطعت خط السكة الحديد وأغرقت بعض سفن الحملة قد أغرقت أيضا للدراويش أربع عشرة نقالة مشحونة قمحا وبلحا ، فأحزن غرقها جماعة الدراويش الذين فى دنقلة وكاد يضعف عزائمهم . فقام الأمير بشاده[٣٢٦] أمير دنقلة فيهم خطيبا فى مسجدها . فبعد أن حمد الله وأثنى عليه ثناءا كثيرا قال(أيها الإخوان والمجاهدين فى سبيل إحياء الدين ، إن الله سبحانه لم يضرنا نحن عباده المؤمنين كما أضر أولئك الكفار الم لا عين[٣٢٧] ، فقد أرسل عليهم ريحا صرصرا فأهلكت منهم خلقا كثيرا من أصحاب البرانيط ،وأغرقت سبع وعشرين سفينة مشحونة بالمؤن والذخيرة ، وأتلفت خطوطهم الحديد الشيطانين[٣٢٨] وعطلت حركتهم ، وأخمدت حميتهم إن شاء الله تعالى ، فلا ترهبنكم حركتهم ولا تخافون طلائعهم والله نصيركم وحافظكم) . قالوا واستطلع هنتر باشا بجماعة من الفرسان أن الدراويش قد جعلوا لهم نقطة أمامية أخرى فى(الحفير) ، وأقاموا فيها المرابطين ، وأنهم حصنوا(كرمة) وأعدوا فيها ستمائة من المقاتلين ، وسيروا أربعة ألاف من أم درمان إلى دنقلة مددا . قالوا وظهرت الحركة بين صفوف الحملة .فشرعت طائفة كبيرة منهم فى المسير لاحتلال(دولكو[٣٢٩]) ، وسارت أيضا قافلة كبيرة تحمل الزاد والعلف ، وثلاثة من قطارات السكة الحديد مشحونة قمحا أيضا ،وأمسى لغاية عاشر سبتمبر نحو مائتى مركب شراعى ذاهبة آتية من (كوشة) والمراكز الأمامية للحملة ، وأنه قد أقيم إلى ذلك التاريخ مستودعا كبيرا فى(ايسرات) .وما هى إلا أيام حتى وصلت بعض الجنود إلى(كوشه) بعد أن قطعت زهاء ستة وعشرين فرسخا أو

(٣٢٦) بشاده = بشاره .
(٣٢٧) الم لاعين = الملاعين .
(٣٢٨) الشيطانين = الشيطانية
(٣٢٩) دولكو = دلجو .
ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٤ .

يزيد ، ونزلت فى منازل الجند القديمة . وكذلك وصلت جماعة الفرسان فعسكرت على ضفاف النيل ، وهى على أهبة القتال[٣٣٠] .وجاءت الأخبار من سواكن تنبىء بقلق عبد الله من زحف الحملة على دنقلة ، وأنه يكثر من إرسال المدد إليها ، وأنه سير إلى عثمان دنقة[٣٣١] مشددا فى قيامه من سواكن إلى(العاصور) والانضمام بمن معه من المقاتلة إلى حامية دنقلة . فرد عليه عثمان بأنه من الخرف فى الرأى ترك هذه الناحية مفتوحة السبل ، مشروعة الموارد للعساكر الهندية النازلة فى سواكن ، فلذلك لا يمكنه ترك مواقفه والذهاب إلى(العاصور) . فلم يعجب التعايشى قول دنفة[٣٣٢] وأزعجه جدا . وجاء الخبر بذلك إلى (عبانى باشا) وزير الحربية على جناح البرق . وأخر كلمة

(٣٣٠) خلال الأسبوع الأول من يوليو ١٨٩٦ كان المعسكر الأساسى لحملة دنقلة قد إنتقل إلى (كوشة) - فى ١١ أغسطس وصلت خطوط السكك الحديدية إلى هذه النقطة . كان الجيش فى ذلك الوقت قد استعد للمرحلة الثانية من القتال بعد (معركةفركه ٧ يونيو ١٨٩٦) فتألفت قواته من :

ـ الفرقة المشاة بقيادة (هنتر باشا) وتتألف من :

ـ اللواء الأول بقيادة الميجور (لويس) ويتألف من الأورط ٣ -٤ -٩-١٠ .

ـ اللواء الثانى بقيادة الميجور (مكدونالد) ويتألف من الأورط ١١ -١٢- ١٣ .

ـ اللواء الثالث بقيادة الميجور (مكسويل) ويتألف من الأورط ٢-٧-٨ .

ـ اللواء الرابع بقيادة الميجور (دافيد)ويتألف من الأورط ١-٥-١٥ .

ـ القوات الراكبة بقيادة (برن ـ مردوخ) بك وتتألف من السوارى والمدفعية المختلفة والهجانة . بلغ تعداد الجيش المشارك فى الحملة ١٢٦٩٣ جنديا و ٢٢ مدفعا ـ كانت الأورطتان السادسة والرابعة عشرة تحرسان خطوط المواصلات وتحتلان (النقط المنفصلة الرئيسية) ـ أما الأورطة السادسة عشرة من الجنود الإحتياطية فكانت فى سواكن .

وكان الجيش المصرى فى ذلك الوقت يتألف من ١٦ أورطة . أى أن الجيش المصرى كله كان فى حملة دنقلة .

فى ٢٣ أغسطس ١٨٩٦ تحرك الجيش بمسير اللواء الثانى من (سوارده) ثم تبعه اللواء الثانى (دلجو) بينما كان باقى الجيش قد وصل إلى (سادين فانتى) .

فى ٩ سبتمبر ١٨٩٦ تجمع الجيش فى (دلجو) ـ وفى ١٦ سبتمبر تقدم إلى (فريج) بعد مناوشات من الخيالة المصرية .

ـ أورطة البنادق الثامنة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢ .

(٣٣١) دنقة = دقنه .

(٣٣٢) دنقة = دقنة .

أشار(٣٣٣) وأفشاها لان كيانها(٣٣٤) من مستلزمات الحروب . فما هو أن وصل إلى مكتب التلغراف حتى نقله الشيخ على يوسف صاحب جريدة(المؤيد) العربية وطيره إلى الآفاق ، وقد كانت إلى ذلك الحين لم تخرج ورقة هذا الخبر من يد الوزير ، ولا علم بما فيها من الأسرار أحد خلافه . فقامت الهيئة الحاكمة لتفشى هذا الخبر وقعدت ، وجاءت كتب السردار فى معنى ذلك إلى الوزير عبانى باشا . واشتغل الرئيس مططفى باشا بالأمر أيما إشتغال . وذاع أن جماعة من عمال التلغراف تساندوا على سرقة صور تلغرافات أخبار الحملة وبيعها إلى أصحاب بعض الصحف العربية وعلى الأخص للشيخ على يوسف صاحب المؤيد .وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ،وقام صاحب المؤيد يدفع عن نفسه هذه التهمة ويرمى القائلين بها بالجاسوسية الشائنة لأهل الإحتلال ،فلم ير الوزير عبانى باشا بدا من تسليم الأمر إلى هيئة القضاء لتحققه ، وتحكم على مرتكب

(٣٣٣) واخر كلمة اشار = فأخذ أحدهم كلمة الإشارة - عدلت الجملة على هذا الشكل ليستقيم المعنى - ويسند هذا التعديل إتصاله (بقضية التلغراف) التى أورد شاروبيم تفاصيلها فى السطور التى تلى هذه الجملة .

تخلص هذه القضية فيما نشرته جريدة المؤيد التى يملكها (الشيخ على يوسف) من برقية سرية أرسلها السردار كتشنر فى ٢٨ يوليو ١٨٩٦ إلى ناظر الحربية (محمد عبانى باشا) تتضمن معلومات عن تفشى وباء الكوليرا فى قوات الحملة ، وعدد الوفيات ، وعدد الإصابات بين المصريين والبريطانيين إلخ مما كان يعد أنباءا عسكرية محظور نشرها فى ذلك الوقت . وبالبحث من جانب السلطات تبين أن الموظف الذى تلقى البرقية (توفيق كيرلس) قد أبلغ محتوياتها إلى (جريدة المؤيد) بناءا على اتفاق بين صاحب الجريدة والموظف المذكور . بناء على طلب كتشنر أقامت النيابة العامة الدعوى العمومية على (الشيخ) و (توفيق كيرلس) ونظرت القضية ـ التى اتخذت أبعادا وطنية وحماسا شعبيا لصالح الشيخ على يوسف وجريدته ـ فى محكمة عابدين ـ فى ١٩ نوفمبر ١٨٩٦ برأت المحكمة الشيخ على يوسف وحكمت بحبس (توفيق كيرلس) ثلاثة أشهر - لكن استياء السلطات الإنجليزية من الحكم دفعها إلى الإيعاز إلى النيابة باستئنافه ـ فنظر الإستئناف فى أول ديسمبر ١٨٩٦ وتأجل إلى منتصف الشهر ـ ثم صدر الحكم ببراءة (الشيخ على يوسف) وبراءة (توفيق كيرلس) وإلغاء الحكم الأول .

وكانت القضية وملابساتها كاشفة لنضج الوعى القومى ودليلا على كراهية المصريين للوجود البريطانى .

- (أوراق مصطفى كامل - المقالات) - تحقيق يواقيم رزق مرقص . مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر - مرجع سبق ذكره - ص ٢٦٠ ـ حاشية (١) .

(٣٣٤) كيانها = كتمانها .

هذه الجريمة . واهتمت مصلحة التلغرافات بالبحث والتحرى حتى علمت بأن شابا قبطيا يحرز فى جيبه صورة رسالة برقية مرسلة من مكاتب جريدة (الدالى نيوز) الإنجليزية المرافق للحملة إلى صاحبها ، فقبض عليه واستخرجت من جيبه تلك الصورة وسئل عنها .فقال أنه ينسخ بعض التلغرافات الفرنجية ليتمرن على قراءتها إذ أن رئيسه رآه يغلط فيها أحيانا فكفه عن العمل وأجلس غيره لشغل مكانه . فاتهمه رئيسه بأنه هو الذى يوصل التلغرافات إلى صاحب المؤيد . وكان قبل ظهور تلك الوريقة مع ذلك الشاب قد أكبر جماعة الإنجليز جريمة إفشاء تلغراف السردار ونقله فى جريدة المؤيد وهى العدوة اللدودة للإحتلال وعميد الإحتلال وكل إنجليزى من أصحاب الحل والعقد .عمدوا(٣٣٥) إلى مخاشنة الوزير واتهموه أو كما شاع يومئذ أوعزوا إلى صاحب ديوان التلغرافات أن يتهمه هو بتبليغ هذا السر إلى صاحب المؤيد ، أو على الأقل يكون سلمه إلى أحد الخونة من عمال الوزارة . فأقسم الوزير الأيمان المغلظة بأنه إلى وقت صدور جريدة المؤيد وأنتشارها بين القراء لم تكن ورقة ذلك التلغراف قد خرجت من جيبه ، وكان يومئذ فى مصيف الدواوين بالإسكندرية ، فأرسل كتابا بذلك إلى أصحاب ديوان الحرب من جماعة الإنجليز ، يقال وإلى الوكالة البريطانية .وظهرت الضجة حول هذا الحادث . فقبضوا على الفتى القبطى وجعلوا يسألونه بكرة وعشية ، وهو ينكر كل علاقة ومعرفة بصاحب المؤيد . واشتد اهل القضاء على ذلك الفتى شدة بالغة ، واستدعوا الشيخ (على يوسف) صاحب المؤيد ، وأكثروا معه الأخذ والرد فى كيفية وصول ذلك السر إليه ، وظلوا على هذا أياما والناس بين مستحسن ومستهجن محاكمة الشيه[٣٣٦] .

---

(٣٣٥) عمدوا = فعمدوا

(٣٣٦) الشية = الشيخ .

وبينما هم قائمون قاعدون لنشر ذلك السر بصحيفه المؤيد ،إذ جاءت الأخبار من جانب الحملة فى تاسع عشر سبتمبر من السنة بأنه لما جعلت المدفعيات يعنى السفن البخارية التى أعدوها خصيصا لحمل المدافع كالبواخر البحرية ، لما جعلت تمخر صاعدة أمام مراكز العدو الحصينة وهى تضرب تلك الحصون بقنابلها ضربا متتابعا ، تحرك العدو وكان جيش الحملة قدم(٣٣٧) نحو أربعة فراسخ إلى الجنوب ، وتقدمتها(٣٣٨) فرقة من الفرسان تستطلع الطريق . وظلوا فى طريقهم إلى مطلع الفجر يريدون(كرمى) . فما هو بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود حتى خرج الدراويش من قلعة (كرمى) وأخلوها بلا حرب ولا قتال . واجتمعوا فى الجانب الأيسر للنيل يتأهبون للقتال ، فأدركتهم فرقة أصحاب المدافع الجبلية واستطلعت جموعهم ، فكانوا جماعة من أصحاب الهجن وعدد كبير من المشاة ومثلهم من الفرسان ، ومعهم كثيرا من السفن الشراعية ، وباخرة راسية بين عدة جزائر صغيرة ، فأطلق أصحاب المدافع مدافعهم على جموع الدراويش طلقا محكما مضبوطا .فابتعد الدرراويش عن الأمكنة المجاورة لتلك السفن الشراعية . وفيما هم على ذلك إذ وصلت المدفعيات المصرية مسرعة ، وتقدمت رويدا رويدا نحو معسكر الدراويش وهى تطلق سهاما نارية وتطلق المدافع الكبار والمدافع الرشاشة . فأجابتها مدافع الدراويش بإطلاق قنابلها الضخام . وظلوا على ذلك ساعة ثم سكتت مدافع الدراويش وترفعت جموعهم قليلا ، فتبعهم كومندان المدفعيه المساة (طماى) . فما هى أن تجاوزت فرسخا أو يزيد حتي خرج عليها كمين كان قد كمن عند إحدى الآبار فأصلى من بها من المقاتلة نارا حامية . فجرح القومندان فى معصمه وقتل جماعة من الجند ، فارتد بالباخرة إلى الوراء وأطلق مدافعه الرشاشة تباعا . ثم مال إلى البر قليلا ، فظن مقدم الذين على الجانب الأيمن

(٣٣٧) قدم = قد تقدم .

(٣٣٨) وتقدمتهما = وتقدمته .

من النيل أن قد أصاب المدفعية ما أصابها ،فاوجسوا شرا .فما هى إلا ساعة حتى جعلوا أصحاب المدافع الذين بالجانب الأيمن للنيل يطلقون نيرانهم على العدو ويتابعون الرمى بشدة نحو قاعدة العدو ثم إلى قلب معسكره ، وظل إطلاق القنابل متتابعا على مراكز العدو الأمامية ومتاريسهم التى كانوا متحصنين فيها بمدافعهم إطلاقا متتابعا متداركا حينا . وكان السردار وأركان حربه يراقبون حركات الجيش وهم على الضفة اليمنى من النيل . وتقدمت العساكر بعد ذلك حتى صارت على بعد ألف ومائة مترا من مواقف العدو ، وأصلته نارا دائمة . وأنفعت[٣٣٩] زوارق الحملة بما عليها من المؤن والذخيرة إلى الأمام ، فهمت سفن العدو تريد الإحاطه بها وأخذها ، فلم تفلح لشدة تساقط رصاص المدافع الرشاشة عليها . ففازت الزوارق ونجت وصعدت مع الريح إلى ناحية دنقلة .

وبينما كان النار تنصب على مراكب العدو ، أغرق أصحاب المدافع باخرة للدراويش ، فانقلبت مرتفعة قعرها إلى فوق ، واشتد الخطر على الدراويش فأخلوا مراكزهم وانسحبوا إلى ناحية الشمال الغربى . وجنحت فى هذه الأثناء المدفعية المسماة(أبو كلية[٣٤٠]) ، فحاولت الجنود إرجاعها ولكنهم لم يفلحوا ، فتركوها معطلة وباتوا ليلتهم تلك . وأصبحوا يوم عشرى[٣٤١] سبتمبر وعيون مقدمى الحملة شاخصة نحو معسكر العدو .فلمحوا هناك حركة بين القوارب ورأوا رجلا من أهل البلاد يلوح بقطعة من القماش . فذهبت فى الحال إحدى السفن البخارية لتستطلع الخبر ، ودنت قليلا من مركز العدو فحققت أنهم تركوا (الحفير) خاوية خالية . فرست وأنزلت من بها من المقاتلين فنهبوا ما وجوده[٣٤٢] من ذخيرة وميرة ،وشحنوا سبعة وعشرين سفينة منها ،وسيروها إلى

(٣٣٩) وانفعت = واندفعت .

(٣٤٠) ابو كليه = أبو طليح — راجع ص ٦٧٤ .

(٣٤١) عشرى = عشرين .

(٣٤٢) وجوده = وجدوه .

الجانب الثانى للنيل ومعها جماعة من أهل البلاد . وقد أخبر القادمون أن العدو رحل وترك (الحفير) على عروشها ،وأن نيران العساكر قد فعلت فى الدراويش فعلا رديئا جدا . وأن قنبلة أصابت خيمة الأمير (ولد بشادة[٣٤٣]) وهو بها فاصابته بجرحين أحدهما فى صدره والآخر فى رأسه وحالته فى خطر ،وأنهم كانوا يربطون أحجارا فى اعناق قتلاهم ويلقونهم فى اليم . وظهر بعد أخذ(الحفير) أن مركز العدو كان حصينا منيعا . فقد ساروا[٣٤٤] على الضفة اليسرى للنيل إستحكامات من التراب مبنية باعتناء كبير وهندسة ،ولكن متاريسها لم تكن تسمح للمترسين بها بإطلاق النار فى وجه العساكر المصرية . ووضعوا فى جنوب هذه الإستحكامات بطرية[٣٤٥] كبرى ذات خمسة أفواه ، ثلاثة منها مصوبة لوجه الحملة ، والإثنين الآخرين على الجوانب ، وقد لحقت بها أتلافا عظيمة . ومن ورائها كان متراس كبير مصوب نحو الشمال والنيل ، ولكنه كان على نسق واحد بحيث أن فتحات مدافعه لم تكن تسمح بإطلاق المدافع إلا فى جهة واحدة . وقد كان العدو يقاتل وراء المتراس ببسالة عذبة ، وقد لبث على دافعه[٣٤٦] طول يوم القتال . يقال لما احتل السردار ومن معه (الحفيد[٣٤٧]) رحب بهم الأهالى كثيرا ، وحدثوه بما كان عليه الدراويش وقت المعركة ، وأنه لما جرح (ولد بشاده)[٣٤٨] فى ظهر ذلك اليوم نقلوه إلى مكان بعيد عن مرمى النار ، فكان ينادى بمن كانوا على مقربة منه ويقول(إن الله سبحانه وتعالى تخلى عنا فلابد من ترك القتال فى هذا المكان المشئوم والترفع

(٣٤٣) بشاده =بشاره .
(٣٤٤) ساروا = شادوا .
(٣٤٥) بطرية = بطارية .
(٣٤٦) دافعه = دفاعه .
(٣٤٧) الحفيد = الحفير .
(٣٤٨) بشاده = بشاره .

إلى دنقلة) ، وأشار برفع المدافع وسحبها تحت جنح الليل ، ففعلوا . ولكنهم مع ذلك قد تركوا شيئا كثيرا من الذخيرة ومعدات الحرب(٣٤٩) .

وباتت الحملة ليلتها تلك حيث كانت ، وأصبحوا وقد رسم السردار بعبور الجند النيل . فشرعوا فى اجتيازه واستعملوا ما غنموه من زوارق الدراويش . واشتدت عزائم الجند بما كانوا يشاهدونه وقت عبورهم النيل من رفح(٣٥٠) الأهالى وسرورهم بفوز الجنود . قلت(والحفيد)(٣٥١) أرض خصيبة جدا قابلة لكل صنوف الزرع ،متوفرة فيها وسائل الرى . وسارت المدفعيات الثلاث سيرا حثيثا قاصدة دنقلة .فلما صارت على قيد مايتين وسبعين مترا منها ، وقفت عند الضفة اليمنى للنيل وذلك سحر يوم عشرى(٣٥٢) سبتمبر وجعلت تطلق قنابلها من تلك المسافة . وتابعه(٣٥٣) الرمى بشدة فلم يتمكن العدو من المقاومة بشدة كما كان يفعل فى موقعة (الحفيد(٣٥٤)) ، فلم تصب ناره من المدفعيات سوى المدفعية(متمة) فقد أصابتها قذيفة من قزائف(٣٥٥) الدراويش فكسرت حمام الآلة البخارية فيها ، واحترق القسم الأعلا من المدفعية الثانية

---

(٣٤٩) فى يوم ١٩ سبتمبر ١٨٩٦ وصل الجيش إلى (كيرمه) فوجدها خالية ــ وكانت القوات المهدية قد إتخذت موقعا آخر طوله نصف ميل على الشاطئ الغربى للنيل شمالى(الحفير) تحميه من الجانبين مستنقعات ــ ومن الغرب الصحراء ــ ومن الشرق النيل .
فى الساعة السابعة صباحا بدأ التمهيد النيرانى من المدفعية المصرية من الشاطئ الأيمن للنيل ــ قامت الزوارق النيلية المسلحة بالمدافع بقذف مواقع المهديين تعاونها نيران الأورط الثلاثة من الشاطئ الأيمن حتى أسكتتها وطردت حاملى البنادق من مراكزهم . عندما حل الظلام أخلت القوات المهدية (الحفير) وأسرعت إلى دنقله فوصلتها صباح ٢٠ سبتمبر ١٨٩٦ . أسفرت المعركة عن إحتلال (الحفير) وكانت الخسائر مقتل ضابط مصرى وضابط إنجليزى وجرح أحد عشر جنديا مصريا وجندى إنجليزى واحد .
ــ أورطة البنادق الثامنة المشاة ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٢ ــ ٣٣ .
Patricia Wright (Conflict on the Nile) - Ibid., PP., 74 - 76

(٣٥٠) رفح = فرح .
(٣٥١) الحفيد = الحفير .
(٣٥٢) عشرى = عشرين .
(٣٥٣) وتابعة = وتابعت .
(٣٥٤) الحفيد = الحفير .
(٣٥٥) قزائف = قذائف .

لأنه من الخشب ، وجرح خمسة رجال من مقاتلة المدفعية(طماى) ، وستة من مقاتلة المدفعية(أبى طليح) وواحد من المدفعية(متمه) . وخرجت جماعة من رجال الحملة للإستطلاع وكشف حقيقة ما فى الدروب ، فعثروا على مقدار عظيم من ذخائر المدافع وذخائر البندق ، فأتوا بها على ظهور البغال ، فوجد بينها عدد كبير من الصناديق المحتوية على ذخائر للمدافع التى من طراز نور دنقله[٣٥٦] لا تزال من بقايا حملة هيكس باشا[٣٥٧] باشا . وعبرت الجنود كلها النيل إلى الجانب الآخر وجمعت شملها وتأهبت للزحف على دنقلة ،فسارت تحت جنح الليل ، ومازالت فى إسرائها حتى بلغت(زندرا) فجر يوم ثانى

(٣٥٦) نور دنقلة = نوردنفلد Nordenfeld قراءة ترجيحية ـ راجع ص ٩٣٤ .

(٣٥٧) كارثة شيكان (٥ نوفمبر ١٨٨٣) ـ عندما استفحلت الثورة المهدية عام ١٨٨٢ أرسلت الحكومة عبد القادر حلمى باشا كناظر وحكمدار للسودان لتدارك الأمر ، فوصلها فى مايو ١٨٨٢ . عندما أدرك (حلمى) خطورة الوضع فى السودان أرسل إلى مصر يطلب المدد ـ لكن الثورة العرابية كانت على أشدها فى ذلك الوقت ـ وتبع ذلك هزيمة الجيش المصرى فى التل الكبير (سبتمبر ١٨٨٢) واحتلال إنجلترا لمصر . فى ٢٠ يناير ١٨٨٣ ألغت الحكومة نظارة السودان واستدعت عبد القادر حلمى باشا وعينت علاء الدين حكمدارا للسودان وجعلت هكس Hicks ـ وهو ضابط إنجليزى خدم فى الهند وتقاعد برتبة كولونيل (عقيد) وجاء إلى مصر عام ١٨٨٢ ـ رئيسا لأركان حرب الجيش فى السودان وعهدت إليه بقيادة العمليات الحربية ضد المهدى . أمرت الحكومة هيكس بالزحف إلى (كردفان) لملاقاة قوات المهدى ودبرت له جيشا قوامه ١٣٠٠٠ مقاتل من جيش عرابى القديم ، فتحرك من الخرطوم فى ٩ سبتمبر ١٨٨٣ ـ ووصل الدويم فى ٢٤ سبتمبر قاصدا (الأبيض) وسار بجيشه فى (كردفان) جاهلا طبيعة الأرض ـ ظل جيش (هيكس) يسير لمدة شهر فى أراضى لايعرفها قبل أن تشتبك قواته المنهوكة والمقطوعة عن قاعدتها حتى وصل إلى وادى مفتوح تحيط به الغابات الكثيفة من الجانبين كان المهدى قد حشد جيوشه فيه . وفى هذا الوادى هاجمت قوات المهدى القوات المصرية واخترقت صفوفها وتمكنت منها وذبحتها عن آخرها ـ فقتل (هكس) و (علاءالدين باشا) ، وجميع الضباط والجنود . ولم ينج من القتل سوى ضابطين برتبة الملازم وثلاثمائة جندى أختبأوا بين الأشجار فأخذوا أسرى وفنى الجيش فى موقعة (شيكان) هذه ـ ترتب على هذه الكارثة إزدياد هيبة الثورة المهدية فى السودان وانهيار سلطة الحكومة المصرية ـ وبادر حكام المديريات بالتسليم إلى المهدى ـ فسلم رودلف سلاطين باشا فى ديسمبر ١٨٨٣ فى (داره) باعتباره حاكم (دارفور) ـ وسقطت (الفاشر) عاصمة المديرية ـ وسلمت مديرية بحر الغزال فى ابريل ١٨٨٤ . وكان من نتائج هذه المعركة أن طلبت الحكومة الإنجليزية إلى مصر إخلاء السودان فى يناير ١٨٨٤ .

ـ الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٨ ـ ١١٠ ـ انظر الخريطة ملحق رقم (٥) .

عشرى[٣٥٨] سبتمبر ، وكانت المدفعيات الثلاث ترسل قنابلها على حصون دنقلة حتى هدمت القلعة وأتلفت مدفعين منها . وقد تقوت عزائم من بها من المقاتلة بوصول الحملة صبح ذلك اليوم ، فعسكروا على بعد خمسة أميال من دنقلة . وقد أخبر الجواسيس أن (ولد بشاده) معما[٣٥٩] يقاسيه من ألم الجراح فقد أقسم الأيمان المغلظة أن يبنى القلاع والحصون على الضفة اليسرى للنيل ولا يترك الحملة تصل قط إلى دنقلة . وكان يظن أن العساكر المصرية لا يزالون على الضفة اليمنى . وبات المقاتلون ليلتهم تلك بمعسكرهم وهم على قدم الإستعداد ظنا أن(ولد بشاده[٣٦٠]) فى جموع كبيرة ، وأن دفاعهم عن دنقلة سيكون عظيما جدا . فلما لاح الفجر ساروا من المعسكر قاصدين دنقلة ، فلاقاهم المخبرون بخبر ترك الدراويش لمعسكراتهم الأمامى[٣٦١] . فتقدموا مسرعين حتى بلغوا المعسكر الثانى فلم يجدوا فيه إلا نفرا من البقارى[٣٦٢] ،فطلبوا منهم أن يلقوا سلاحهم ويسلموا أنفسهم ، فامتنعوا وقاتلوا فقتلوا عن آخرهم . وشاهد الفرسان المصريون العدو وقد تفرق فى الصحراء شزرا ومعه النساء والذرارى ، فطاردوهم وضيقوا عليهم السبيل ، فتركوا أولادهم فتبعوهم فى كل صوب وحدب ، وأعملوا فيهم القتل بحد السيف ، وسلم كثير منهم أنفسهم لا سيما السود . ورسم السردار إلى أصحاب المدفعيات[٣٦٣] بمطاردتهم إلى (الدبه) . ودخل الجنود البلد ، واحتلوها فسلم كثيرون من كبار زعمائهم ، منهم أخو ولد النجومى وغيره[٣٦٤] .

(٣٥٨) عشرى = وعشرين .
(٣٥٩) بشاده معما = بشاره مع ما .
(٣٦٠) بشادة = بشارة .
(٣٦١) الأمامى = الأمامية .
(٣٦٢) البقارى = البقارة .
(٣٦٣) الزوارق النيلية المسلحة بالمدافع (ابى طليح) (المتمة) (التيب) . وطماى
(٣٦٤) فى فجر العشرين من سبتمبر ١٨٩٦ شرع السردار فى العبور بقواته إلى الحفير فوصلها فى ٣٠ ساعة . واستمر الجيش يطارد القوات المهدية . أراد (محمد ود بشارة) عامل التعايشى على دنقلة اجتناب نيران الجيش الزاحف فتقهقر إلى الجنوب مخليا (دنقلة) فدخلتها القوات المصرية يوم ٢٣ سبتمبر ١٨٩٦ =.

ومـا شـاع خـبـر هذه النصـرة المـؤزرة الآفـاق ، وفـرح به الناس وحـمـدوا عقباه ،حتى جاءت كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا بوجوب ترفع الحملة إلى ما وراء دنقلة ، واسترجاع سائر ما بيد خليفة المهدى . فجمع الرئيس جميع الوزراء وعقد مجلسهم ، فتناجوا فى أمر ذلك . قيل فاختلفوا وتفرقت كلمتهم وانقسموا إلى شطرين ، شطر الرئيس الراغب فى تقدم الحملة إلى ما وراء دنقلة ، وشطر الممانعين فى ذلك بالدليل والبرهان . وجـاءتهم كـتب الأمـيـر فى ذلك حـتى لقـد هم بالرجـوع من مصيفه ،فأقلعت(المحروسة) من مرساها لنقله . وبعد أن كان هذا الفرح بهذا الفتح عاما والخواطر مطمئنة بوقوف الحملة عند دنقلة ، عاد الخوف واشتد القلق . وأكد صاحب(التيمس)الناطق بلسان صاحب سياسة الإنجليز العزم على الرمى بالحملة إلى فوق على نفقة الخزينة الإنجليزية . يقال وأرسل صاحب سياسة الإنجليز ثانية فى شأن ذلك إلى الرئيس ونائب اللورد كرومر ، وكثر تحدث الناس فى ذلك وترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى وأعصاها .

أخبرنى صديق من رجال الحرب على عهد إسماعيل باشا ، الملمين بما وراء سياسة الفتح قال(حق الذين جزعوا من ترفع الحملة إلى ما وراء دنقلة أن يهزعوا(٣٦٥) ،وإن العاقبة لشر)فقلت ولم ذلك والنصر حليف القوم إن شاء الله .

= فى فجر يوم ٢٦ سبتمبر ١٨٩٦ إحتلت القوات المصرية مدينة (مروى) ورفعت العلم المصرى عليها . فى أوائل أكتوبر وصلت بقية الجيش وتم توزيعها على المراكز فى (الدابة) (الخندق) (كورتى)و(مروى) . وقسمت المديرية إلى أحد عشر مركزا وعين (هنتر باشا) قائدًا للجيش وحاكما عسكريا(لدنقلة) . تكلفت حملة دنقله ٧١٥,٠٠٠ جنيه . . وبلغت خسائرها ٤٧ قتيلا و ٢٢ جريحا ـ ٣٦٤ متوفياضحية وباء الكوليرا والتيفود .

فى ١٣ أكتوبر عاد السردار مع هيئة أركان حربه إلى القاهرة ، فأستقبل فى محطتها باحتفال عسكرى ـ وأنعم عليه الخديو بالنيشان العثمانى الأول ـ وأنعم على باقى قواد الحملة بنياشين ورتب عسكرية .

وفى ١٥ أكتوبر إنحلت تجريدة دنقلة بصفة رسمية .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢ ـ ٣٣ .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤٥ ـ ١٤٧ .

-Patricia wright (Conflicti on the Nile) Ibid., pp., 75 -77.

ـ انظر الخريطة ملحق رقم (٦)

(٣٦٥) يهزعوا = يجزعوا قراءة ترجيحية .

قال(نعم هو شر ،وأقول ذلك فى هذه الآونة التى قد عم فيها الفرح بهذا النصر المبين ، لأننا لسنا بأنعام تشغلنا خضرة المرعى عن صوت الراعى . لأن الفتح لو تم كله على مثال فتح دنقلة لما كان الجيش كافيا لينقسم إلى شطرين لحماية قطرين ، ولاحتل الإنجليز السودان كما احتلوا مصر بدعوى منع الفوضى وتثبيت الأمن ، ولكن بوسيلة تختلف فى هذه المرة عن سابقتها شرا ، لأنهم إذا أنفقوا على الحملة فقد اشتروا السودان بما أنفقوه ،وربما لم يكفهم السودان كله فيما أنفقوه ، وما تعودت الدنيا بأسرها المكارم من جماعة الإنجليز إلا إلى نفس الإنجليز أو على ما يعود بالنفع على الإنجليز) . قال (هناك أمر خطير لم يتنبه إليه أحد إلا القليلون من الخبيرين أصحاب الحكمة ، فهم يقولون أن هذا الفرار من أصحاب التعايشى بدون طعن ولا ضرب لا بد له من أحد سرين ،فإما هو لما ينوونه من التجمهر فى الخرطوم وصب كل قواتهم منها على جيشنا كما فعلوا بحملة هيكس باشا ،وإما هو تواطوء بين التعايشى وأصحاب الكلمة من الإنجليز على أن يدعوه أميرا فى بلاده تحت سيطرة الإمارة المصرية أو بالحرى السلطنة الإنجليزية ، ويتركهم يستولون على مملكته بشبه قتال خدعة للناظرين) قال (وستكشف لنا الأيام أى هذين السرين هو الحقيقى) . قال (أى نعم وكلاهما ردىء العاقبة فإنه أن يقاتل الدراويش عسكرنا بكل عدتهم وعددهم دفعة واحدة فربما أضاعونا بعضهم أو كلهم . وإن لبثوا مسلمين وأخذنا ما بأيديهم وبقى التعايشى أميرا عليهم تحت رعاية الإنجليز فالداهية أدهى ولا حول ولا قوة) . إنتهى . أطلقت المدافع فى حادى عشرى[٣٦٦] الشهر من قلعة الجبل وسائر قلاع الإسكندرية تبشيرا بفتح دنقلة وظفر العساكر المصرية ، وتابعت العساكر مطاردة العدو إلى (الدبه) ، فقتلوا كثيرا وأسروا تسعمائة من السود ، ونقلوا إلى دنقله كثيرا من الأطفال الذين تركتهم أمهاتهم فى الصحراء ،وغنموا ستة مدافع وكمية من الحراب والقرابينات والذخائر ،

(٣٦٦) عشرى = عشرين .

وثلاث أكـوام من التـمـر وشـيـئـاً كـثـيـرا من المـؤن والعلف ، وأخـذوا راية (ولد بشـاده)[٣٦٧] عنـد هروبه مع عـثـمـان الأزرق إلى (الدبه) . وعـادت العـسـاكـر فعسكرت على قيد ثلاثة أميال من دنقلة لأن هواء البلد كان مشحونا بسموم الحميات الخبيثة والأمراض العفنة والجدرى . ومع ذلك لم يكن ليبطل الموت من الجنود وأتباع الحملة . وقد أوصلوا الأسلاك التلغرافية إلى دنقلة فأصبحت المخابرات بينها بين القاهرة هينة فى كل حين . وأرسل الأمير كتبه إلى السردار مفعمة بالتهانى على إحتلال دنقلة والثناء على جميع الضباط والجنود وسائر أتباع الحملة . فقرأ السردار كتاب الأمير على صفوف المقاتلين ، فصاحوا بالدعاء للأمير .

وفرح أصحاب صحف الإنجليز بهذا الفتح العظيم ، وجعلوا يطرون السردار ويرفعونه إلى أعلى العاليين[٣٦٨] ، حتى تطرف بعضهم إلى القول بأنه أكبر من كل كـبـيـر فى رجـال الحـروب فى القـرن العـشـرين . حـتى لقـد قـال أيضـا صاحب(الدالى نيوز) بعد كلام طويل (على أنه لايمكن الآن متابعة السير إلى الخرطوم عاصمة المهدوية إلا إذا أصبحت الخزينة المصرية حرة فى الإنفاق على جيوشه ، وبطل تحرش الدول بها . إذ من الواضح المبين إن الإستيلاء على الخرطوم أصعب مراسا من الإستيلاء على دنقلة ، ولأن الدراويش قد وطنوا النفس على التفانى فى الذب والدفاع عن بيضة المهدوية ، فضلا عن أن المسافة من دنقلة إلى الخرطوم أبعد من المسافة بين حلفة ودنقلة ، وكل هذا مما يستلزم النفقة الطائلة التى لا يتوقف[٣٦٩] صرفه على رضاء الدول التى تنظر إلى فلاحنا بعين القلى) .وما هى إلا أيام حتى إنحدرت سائر الجنود الإنجليزية من معسكراتها إلى القاهرة على ظهور البواخر ،ومعهم الجرحى من الجند وكبار

---

(٣٦٧) بشاده = بشاره .

(٣٦٨) العاليين = عليين .

(٣٦٩) لايتوقف صرفه = يتوقف صرفها عدلت الجملة ليستقيم المعنى .

الضباط وبينهم(الكولونيل كولفل) وقد أصيب بجراحه وهو على ظهر المفعية[(٣٧٠)] متمد[(٣٧١)] . فقابلهم جماعة الإنجليز على إختلاف درجاتهم بغاية الحفاوة والتعظيم . وقامت العساكر الإنجليزية النازلة بالعباسية فى صبح ذلك اليوم بمناورة كبرى ، فتزلزلت أرض القاهرة بطلقات مدافعها ،وأزعجت الناس أى إزعاج . وأنزلوا الجرحى منهم فى مستشفيات العباسية وقد كادت تضيق بهم على سعتها . وجاء الأمر من صاحب السياسة الإنجليزية إلى السردار بوقوف الحملة عند دنقلة ، وكانوا قد وضعوا رباطا فى(الدبه) ورفعوا على البلد العلم المصرى فلم يتجاوزها ، وخرج السردار مع(هنتر باشا) الإنجليزى ، وونجت بك على ظهر إحدى البواخر ومعهم سائر أركان الحرب قاصدين الجنوب لاستطلاع طلع الأحوال . فوصلوا(دبه) ثم (ميرندى) ،فأتى إليهم جماعة من المشايخ وكبار المهدويين وقدموا خضوعهم للإمارة المصريه وتوبتهم من خطيئة العصيان . وجاءهم أيضا جميع الأشراف من أهل المهدى وطلبوا العفو والرضاء ، فأجيبوا إلى طلبهم . ورسم السردار إلى جماعة الكبابيش الموالين للحكومة المصرية النازلين فى (فجيمة) بأن يتتبعوا خط إنهزام الدراويش ليجمعوا الأسلحة التى تركوها عند هروبهم . وسيروا كذلك قوة أخرى من أولئك الكبابيش إلى الوادى الذى غرب دنقلة المعروف(بوادى قب) حيث جاء الخبر بأن جماعة من الدراويش ذهبوا إليه وهم يريدون التسليم والخضوع ، وأن قائدهم المدعو (أدم سليمان) مع خمسة من الأمراء الكبار وجماعة من الأتباع والخدم قادمون لتقديم الطاعة والتوبة . وبحث السردار فى الغنائم وما عثروا عليه فى طريق الفارين فوجد أن فيها أشياء ذات قيمة وبهجة . منها درع من الزرد وخوذة من عهد الصليبيين ، وسيف عليه كتابة بالفرنسية القديمة ، وسيف آخر مكتوب عليه العبارة الإنكليزية المشهورة بنيشان الساق التى ترجمتها (ليكن

---

(٣٧٠) المفعيه = المدفعية .

(٣٧١) متمد = متمه .

محتقرا من يظن به شرا) .وكمية من البنادق ذات الطلقتين ، وطبنجة ضخمه كبيرة تسع رصاصة وزنها ليبره أى نصف كيلو تقريبا ، ويلزم لحملها رجلان . وعاد السردار ومن معه فاهتم بترتيب العسكر الجديد بحرى البلد ، وأقاموا سوقا هناك ، وولوا(رندل باشا) الإنجليزى إدارة الأحكام فى ذلك الصعيد . قلت من العجب أن صاحب جريدة[٣٧٢](الدالى نيوز) قد نكلت كثيرا على إنتصار الحملة وفتح دنقلة ، وأبانت مواطن الخلل فى سير الحملة إلى أن قالت(وكلنا يعلم بان الخيانه كانت فاشية فى معسكر ولد بشاده[٣٧٣] أمير دنقلة حينما هاجمتها العساكر المصرية ، فكان أولئك الخونة أكبر معين للمصريين على فتح دنقلة ، ولولاهم ما سمعنا ولا رأينا هذا الفتح العظيم) .

وعادت المدفعية الجديدة راجعة من الجنوب وعليها طائفة من قسم المهندسين ، وجماعة من العساكر السود بعد أن بلغت(مروى) .وأحضرت معها جماعة من المسجونين وبينهم زوجة(عثمان الأزرق) وولداه . وقد أسرهما قومندان المدفعية(متمة) فى الدار التى فر منها(ولد بشاده)[٣٧٤] (وعثمان الأزرق) عند ما كبسهما الجند فيه . وما تحقق خبر إستتباب الراحة والطمأنينة فى دنقلة وأرباضها حتى جعل التجار من مصر والإسكندرية يرسلون بضاعتهم إلى دنقلة ، وسافر جماعة منهم بعد الإستئذان من وزارة الحرب وموافقة السردار . وفرح كل من كان له علاقة بذلك البلد قبل ظهور المهدوية فرحا عظيما .

ولما كانت الساعة الثانية والدقيقة الخامسة من بعد ظهر يوم أول أكتوبر من السنة ، وثالث عشرى ربيع الثانى سنة أربع عشرة وثلثمائه وألف ، أطلق مدفع من طابية صالح بالإسكندرية مبشرا بظهور اليخت (محروسة) المقل

---

(٣٧٢) صاحب جريدة = جريدة .
(٣٧٣) بشاده = بشاره .
(٣٧٤) بشاده = بشاره .

للأمير وحاشيته وبطانته وأسرته عائدا من مصيفه . فلما دخل اليخت البوغاز خف للقايه الوزراء والمستشار المالى ومحافظ المدينة وكبيرالفنارات . ولما صارت الساعة الرابعة برح الأمير اليخت ، فأطلقت الطابية واحد وعشرين مدفعا . وكانت كوكبة من الجند مصطفة على رصيف القصر . فبات ليلته تلك فى القصر ، وأصبح وقد عملوا تشريف التهنئة بعودته . فدخل عليه المهنئون من الأمراء والكبراء والأعيان وأصحاب الوظائف وأهل الخطط ووكلاء الدول والقناصل ، وجماعة من مشائخ قبائل العربان . وما هى إلا عشية وضحاها من قدومه حتى أنعم على السردار كتشنر باشا بالنيشان العثمانى الأول مكافأة له على دخول الجيش دنقلة ورفع الراية المصرية عليها . وطير خبر ذلك إلى التخوم ، فأرسل السردار إلى الأمير يدعو ويشكر . وقد إنشأ على أفندى نور مكاتب الأهرام فى(دراو) قصيدة عامرة الأبيات فى انتصار الجنود المصرية وفتح دنقلة قال فى مطلعها .

بشرى بجيش بالمرام لقد ظفر   بالصبر من زمن فبشر من صبر

ومنها

قل للخليفة فز بعمرك ناجيا   من قبل أن يأتى فى زمان لا مفر

وقال فى ختامها وهو تاريخ بديع

والجيش حل بدنقلا مستفتحا   خيرا فقلنا أرخوه لقد ظفر

سنة ١٣١٤

ووصل فى سابع أكتوبر إلى القاهرة سبعة عشر ضابطا مصريا ممن كانوا فى أسر التعايشى ، وهم فى حالة تحزن الرائى . فلم يتمكن أحد من معرفة شئ من أخبارهم وما كانوا عليه أيام الأسر لشدة تكتمهم وابتعادهم عن مخالطة الناس . ثم جاء بعدهم جماعة كثيرة من العساكر المصرية الذين كانوا فى

دنقلة قبل الفتح . وعاد لورد كرومر إلى القاهرة من ديار الإنجليز بعد ظهر الثامن من أكتوبر ، بعد أن قابل الأمير بقصر الإمارة فى الإسكندرية ولبث بحضرته حينا ، فاحتفل جماعة الإنجليز بلقائه إحتفالا عظيما . يقال كانت علامات القهر والكمد بادية على وجه وكأنه كان واجدا على السردار حاسدا له على توفيقه على فتح دنقلة ونصرته على أصحاب المهدوية ، فقد طالما خذله وأكبر عليه الفتح ، وأشار إلى صاحب السياسة الإنجليزية بعدم الركون إليه والإعتماد عليه فى قهر التعايشى وأصحابه . يقال ولكم ما دس له الدسائس ، وكاد له الكيد العظيم ليحول عنه نظر أصحاب الحل والعقد فى ديار الإنجليز . ولكم ما سعى جهده لاسترجاع ما كان له من الكلمة المسموعة والرأى المتبوع فى تدبير بعثة غردون ، وترك السودان ونفوذه فى تلك الأيام فلم يفلح ، ولم تمكنه أقيال سياستهم من تسنم مقام الحركة والتدبير فى هذه المرة ، حتى لقد قيل أن تغيبه عن دار الوكالة فى قصر اليدار[٣٧٥] كل هذه الأيام حتى تم الفتح على يدى كتشنر كان من مستلزمات تلك السياسة التى قضت بالحيلولة بينه وبين السردار . فلما نزل فى قصر الوكالة لم يظهر للناس بما تعودوه منه من العظمة والكبرياء ، ولا تحجب عنهم كما كان يفعل . فزاره الكبراء والأمراء والوزراء وأهل الوظائف وأصحاب الخطط وجماعة من المتعممين الذين إتخذهم صنائع وعيونا ، ونفر من المشائخ الذين يدعون قيادة الناس إلى سراط مستقيم ، والله سبحانه يعلم والناس طرا يعرفون أنهم ذئاب فى ثياب حملان .وما زال عنه وعس[٣٧٦] السفر حتى اهتم أهل الحل والعقد بإعادة النظر فى تهمة الشيخ على يوسف صاحب المؤيد بسرقة صورة تلغراف السردار الذى كان ورد إلى وزير الحرب بكيفية سرية . يقال وقد كانت إلى هذا العهد قدرأت الهيئة القضائية أن لا سبيل إلى إتهام الشيخ وأن التهمة إن تكن فإنما هى على ذلك الفتى

(٣٧٥) اليدار = الدوباره .

(٣٧٦) وعس = وعثاء قراءة ترجيحية .

القبطى العامل بمصلحة التلغرافات .فاستقدموا الشيخ (على يوسف) ،وأوقفوه موقف المجرمين ، وجعلوا يستنطقونه تباعا ، وهو يتنصل من التهمة ويلقى تبعة ذلك على الفتى القبطى ، والقبطى ينكر معرفته للشيخ . وكان لما طلب النائب العمومى من وزارة الحقانية رأيها فى تهمة الشيخ وتوفر أسباب جنايته ، أجابته بأنها لاترى صحة للتهمة ،فلم يلتفت النائب لهذا الرأى وأقام على الشيخ القضية وأوقفه أمام القضاء للمحاكمة . وبانت دلايل ميل جماعة الإنجليز إلى إزلال(٣٧٧) الشيخ وإذهاب ريحه .فتطوع جماعة من المحامين للدفاع عنه ، وكثر تحدث الناس فى تهمته ، وذهبوا فيها مذاهب شتى . واشتغل مأمورو سائر أتمان القاهرة(٣٧٨) ومصرالقديمة أياما فى الأدلة(٣٧٩) على صحة تهمة ذلك الشيخ ، وجعل الإنجليز ينظرون إلى رجال القضاء المولجين بالحكم فى هذه القضية بعين الوعد والوعيد . وقام(جونص باشا) أحد مفتشى وزارة الحقانية من جماعة الإنجليز يراقب ما يصل إليه الإستنطاق فى كل أدواره . واشتغل أصحاب الصحف الفرنسية بهذا الحادث ، وكلهم شامت ناقم على الشيخ إلا القليل ، حتى لقد قالوا أن ذلك الفتى القبطى واسمه(توفيق كيرولس) قد أضافوه صاحب جريدة المقطم يوما وعملوا معه كل ضروب الإغراء بالوعد والوعيد لحمله على إشراك صاحب المؤيد معه فى التهمة فلم يفلحوا . وطال الأخذ والرد فى هذا الحادث أياما كثيرة ، وكل يوم يشاع خبر الحكم على الشيخ بالسجن أو بغيره . وحتى قيل بأن نفرا من موظفى وزارة الحرب قد وعدوا بعض مطبعة(٣٨٠) المؤيد بجائزة من المال إن هم قرروا بأن ذلك التلغراف السرى وصل الشيخ من يد الفتى القبطى . قيل فلم يفلحوا فى ذلك أيضا . واختلط الحال على الشيخ ،واكتنفته الهواجس من كل جانب ، وضاقت عليه سبل النجاة من

(٣٧٧) إزلال = إذلال .
(٣٧٨) راجع حاشية ٢٢٩ ص ٦١٨ .
(٣٧٩) الأدلة = إقامة الأدلة أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٣٨٠) مطبعة = عمال مطبعة أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

هذه الورطة . ومازال على هذا حتى أوقف موقف المجرمين ومعه الفتى القبطى . وقام المدعى العمومى يرميه بالخيانة وارتكاب جريمتى السرقه والتغرير بالغير ، وأطال فى تقريعه والتشنيع عليه . فكان الشيخ يسمع وهو باهت اللون جامد ، وقد أزهله[٣٨١] الجمع المحتشد وبينهم الشامت والضاحك المستهزئ والحزين والمشفق . فكان إذا أحس بحركة من أحد جوانب قاعة المحكمه ظن أن القوم آخذوه ، فيضطرب وينتفض إنتفاض العصفور . وإذا وجه إليه القاضى كلمة تلجلج فى الجواب وغص بريقه . وكان أحد وكلاء النائب العمومى واسمه محمد بك فريد[٣٨٢] قد اشتهر بين الناس ببغضه لجماعة الإنجليز وتشهير أعمالهم ، وإسناد كل حيف يقع على البلاد وأهلها إلى أهل المناصب وأصحاب الوظائف منهم بحق وبغير حق . فكان موضع أسرار مصطفى كامل داعية الحزب الوطنى ومؤسسه ، ويده ورجله التى يتخطى بها إلى مرامى ذلك الحزب . وقد تحقق كما كان يقول أن يد أولئك القوم الإنجليز مدت إلى تهمة شيخ المؤيد

---

(٣٨١) أزهله = أذهله .

(٣٨٢) محمد بك فريد = زعيم وطنى مصرى (١٨٦٨/١/٢٠ ـ ١٩١٩/١١/١٥) ـ حصل على درجة فى القانون من مدرسة الإدارة (الألسن سابقا) عام ١٨٨٧ . عين فى منصب جيد بالإدارة القانونية للدائرة السنية . حصل على الرتبة الثانية (البكوية) فى أغسطس ١٨٩١ ـ نقل فى نفس الشهر إلى النيابة العمومية بوظيفة مساعد نيابة من الدرجة الثانية ـ رقى إلى وظيفة وكيل نيابة عام ١٨٩٣ ـ نقل إلى نيابة الإستئناف فى مايو ١٨٩٥ . إتصل بقضية (التلغراف) التى إتهم فيها الشيخ على يوسف صاحب المؤيد عندما دافع وهو وكيل نيابة الإستئناف عن الشيخ فعوقب بالنقل إلى (مغاغة) ـ إستقال من وظيفته بالنيابة العامة إحتجاجا على هذا النقل واشتغل بالمحاماه على مدى (٧ – ١٠ سنوات تالية) .

إلتقى محمد فريد بالزعيم مصطفى كامل (١٨٩٣) وتوطدت الصلة بينهما عام (١٨٩٥) ـ نشر فى عام ١٨٩١ كتابه (كتاب البهجة التوفيقية فى تاريخ مؤسس العائلة الخديوية) ـ وصدر له عام ١٨٩٤ كتاب (تاريخ الدولة العلية العثمانية) ـ تولى فى عام ١٩٠٨ زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة (مصطفى كامل) ـ إضطر إلى الهجرة إلى تركيا فى ١٩١٢/٣/٢٦ إثر إزدياد اضطهاد سلطات الإحتلال والحكومة له ولحزبه ـ ظل يناضل فى سبيل القضية المصرية حتى وفاته فى نوفمبر ١٩١٩ .

ـــ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ، مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٣ ـ ٥٦ .

ـــ جاك كرابس جونيور (كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٢٧ ـ ٢٤٢ .

فاضطرنت(٣٨٣) نارها لتورى(٣٨٤) بالشيخ جزاء ما يرمى به القوم من المصائب وقلة الدربة والحنكة ، وعدم لياقتهم لمناصب الحكومة فى صحيفة(٣٨٥) اليومية ،والتشهير بأعمالهم ،حتى لقد يطوف(٣٨٦) بالشيخ على بيوت الأمراء والوزراء ويشكو إليهم ما يلاقيه الشيخ من عسف الإنجليز وصنائعهم من الحكام وأصحاب الوظائف ، ويستميلهم إلى الرأفه بالشيخ ومد يد المعونة إليه . قيل وتقرب من رجال قصر الإمارة وبطانة الأمير وخطب عطفهم على الشيخ ، واستمال للدفاع عنه جماعة من كبار المحامين ، ولم يترك بابا لخلاصه إلا وطرقه .

فلما جاءوا بالشيخ للمحاكمة بين تلك الجموع المحتشدة ،أخذ المحامى(٣٨٧)من محمد فريد مأخذه ،فتخطى كل حد لمنصبه ،وجلس ساعة المحاكمة على منصة القضاء خلف القاضى ،وهو ينظر إلى خصوم الشيخ نظر الغاضب المقهور . وكان إذا اشتد المدعى العمومى على الشيخ فى التقريع والملام ، قطب محمد بك فريد وجهه ورمقه بعين السخط ، وإذا أجاد المدافع عن الشيخ فى بعض القول وأطال فى إطراء الشيخ ونزاهته بش وضحك حتى بانت نواجده ، وأشار بيديه إشارات الإستحسان والفرح . وهكذا كان حاله إبان المحاكمة حتى انتقده الحبيب وشمت العدو . وتناقل خبره أصحاب الصحف المحازبة لجماعة الإنجليز .فشكا الإنجليز أمره إلى وزارة الحقانية ومستشارها ، ونقموا عليه كثيرا . وتحدث الناس فيما عساه أن يكون من جماعة الإنجليز بعد الذى رأوه وسمعوه عن ذلك المتهوس الكبير(٣٨٨) . وظلت محاكمة الشيخ يوما

---

(٣٨٣) فاضطرنت = فأضرمت قراءة اجتهادية .
(٣٨٤) لتورى = لتودى قراءة اجتهادية .
(٣٨٥) صحيفة = صحيفته .
(٣٨٦) يطوف = كان يطوف أضيفت الكلمة ليستقيم النص ـ والمقصود هنا هو محمد بك فريد
(٣٨٧) المحامى = الحماس .
(٣٨٨) من الواضح أن ميخائيل شاروبيم كان يحمل ودا مفقودا لرموز الحركة الوطنية فى زمانه كمصطفى كامل ومحمد فريد . وهو هنا يأخذ عليه تحمسه للدفاع عن الشيخ على يوسف ويعتبر مسلكه فى المحكمة أثناء نظر قضيته تهوسا ويسميه بالمتهوس الكبير .

وبعض اليوم ، فلما أتم المحامون دفاعهم نطق القاضى حكمه من فوره بحبس الفتى القبطى ثلاثة أشهر واغترام ربع نفقات القضية ، ثم بتبرئة شيخ المؤيد .فما ختم القاضى كلامه حتى ارتفع ضجيج محبى الشيخ بالدعاء له وصفقوا تصفيقا حادا جدا حتى خيل للناس أن قد انطبق عرش القاعة على أرضها . وكان فى مقدمه المصفقين المهللين محمد فريد بك ، وتغلبت حماسته على هيبة منصبه حتى نسى أنه من هيئه القضاء ، وأنه قاعد فى منصة القضاء وخلف قاضى الحكم . واشتد به الفرح حتى جعل يضرب الأرض برجليه ويشير بيديه . وخرج الشيخ بين ذلك الضجيج وتلك الجلبة المزعجة إلى فناء المحكمة ، فاحتاط به معارفه وذويه يقبلونه ويهنئونه ، واحتشد حوله جمع من العامة وزعانف القوم وهم يصيحون بأعلا أصواتهم بكلمات لا معنى لها ، وظلوا على هذا حتى ركب الشيخ عربته ، فسارت به على عجل .وأقبل رجال الشرطة ففرقوا جموع العامة والغوغاء ومزقوا شملهم ، ولم يمكنوا بعضهم من الجلوس على بعض القهاوى كما كانوا يريدون . وما هى عشية أوضحاها حتى إستدعى النائب العمومى محمد بك فريد . قالوا وعنفه على ما بدا منه من الطيش وتجاوز حدود اللياقة فى جلسات محاكمة صاحب المؤيد ، ثم رسم فى الحال بنقله من وكالة نيابة محكمة الإستئناف إلى نيابة محكمة بنى سويف ، فلم يقبل ذلك . يقال واستقال فأقيل وأبعد عن مناصب الحكومة من يومه . ولم يرض النائب العمومى عن براءة شيخ المؤيد ، فاستأنف الحكم ورفعه إلى محكمة الإستئناف طالبا معاقبة الشيخ وزجه فى الحبوس . يقال وأكبر لورد كرومر حكم البراءة فأعظمه . فكان التعجيل باستئنافه والإهتمام بذلك من نتائج هذا الإكبار ،حتى لقد قالوا أن وزارة الحقانية قائمة قاعدة بسبب تطرف المدافعين عن صاحب المؤيد ، وإلى التعريض بسياسة المحتلين والحط من كرامة أهل المناصب العاليه منهم . وذكر شيئا من المواضيع السياسية العامة التى لم يكن ينبغى للمحكمة أن تسمعها منهم ، وأن

الوزارة عازمة على عمل تحقيق لم يكن[٣٨٩] بشأن الطريقة التى جرت عليها المرافعة يومئذ .وقام أصحاب بعض الصحف الإحتلالية قومة رجل واحد على القضاة المصريين يرمونهم بالضعف والجبن وفساد الذمة ، وسألوا من أصحاب الإحتلال أن يزيدوا فى عدد القضاة الإنجليز فى المحاكم الأهلية ليأخذ العدل بهم حقه من أعناق الدساسين . وأنحوا على خاصة المصريين باللائمة ، ورموهم بالجهل والتعصب وفساد الفطرة الأدبية ، وصاح صائحهم(بها قد قرب يوم القضاء على صاحبكم إنه ليوم رهيب) .ونقلوا القاضى الذى حكم ببراءة صاحب المؤيد من محكمة عابدين الجزئية إلى المحكمة الكلية كى لا يكون له بعد ذلك رأيا معدودا ولا حكما مستقلا ،وأستبدلوه بآخر من المحكمة الكلية . وأنشأوا على أثر ذلك مجالس تأديبية عليا لرجال النيابات ، وخلطوا وخبطوا فى نظام وظائفهم ومسخوه مسخا أخرجه عن حد القانون ، فرسم الأمير بتنفيذ كل ذلك . وما هى إلا أيام حتى استدعوا(الشيخ المؤيد)[٣٩٠] وشريكه الفتى القبطى إلى محكمة الإستئناف لسماع الحكم عليهما ، فغصت قاعة الجلسة بالكثير من العامة وأهل العطلة وقليل من مريدى الشيخ . وتكلم المدعى العمومى ورد عليه المحامون .وظلوا على ذلك بعض اليوم ثم نطق القضاء حكمه ببراءة الشيخ وشريكه القبطى ، فصاح المجتمعون صياحا متتابعا ، وصفقوا بأيديهم ، فأخرجهم الحجاب خارج القاعة وخرج الشيخ معهم ، فهنأه أصحابه وانصرفوا معه إلى داره . وانقضت هذه المحنة بأدوارها وما تخللها من المغامز التى سببتها الأغراض وأكبرتها الغايات . وعندى أنها ما كانت لتبلغ هذا الحد من التشنيع والادهاص[٣٩١] لولا دسائس الدساسين وسعايات الساعين والله بالسر عليم . أخبرنى أحد المقربين من ديوان الوزير مصطفى فهمى باشا قال . ما شاع هذا الحكم ببراءة الشيخ على يوسف من

(٣٨٩) لم يكن = إستبعدت الكلمة من النص ليستقيم المعنى .
(٣٩٠) الشيخ المؤيد = الشيخ على يوسف صاحب المؤيد _ أضيفت الكلمات ليستقيم النص .
(٣٩١) والادهاص = والإرجاف قراءة اجتهادية .

تهمة السرقة ، حتى هاجت عواطف اللورد كرومر ، فأرسل من فوره إلى الرئيس يشدد النكير على عسف محكمة الإستئناف ويطلب محاكمة القضاة الذين نطقوا بذلك الحكم ، وقد كانوا ثلاثة ، إثنين من الأهليين وثالثهم إنجليزى هو(المستر كامبرون) . قال فلما جاء كتاب لورد كرومر على هذا النسيج ، إضطرب الرئيس وحار الوزراء فى أمرهم ، فجعلوا يجتمعون فى النهار والليل ويتشاورون فيما بينهم أياما ،ورسل اللورد تغدو وتروح بين ديوان الرئيس وقصر الوكالة . والناس يسألون عما سيكون من وراء ذلك الطلب الخطير والأمر الكبير . وظل الحال على هذا أياما حتى تمكن بطرس باشا غالى وزير الخارجية من إرجاع اللورد كرومر عن قصده ، وأفلح (بليغ باشا) رئيس محكمة الإستئناف فى تقرير الصلح بين (كامبرون) القاضى الإنجليزى وزميلاه الوطنيين . يقال وكان مما إستظهر به الوزير بطرس باشا على عميد الإحتلال قوله إن الذى تجب محاكمته أمام مجلس التأديب إنما هو (كامبرون) لاخلافه لثلاث إرتكبها ، أولاها إفشاؤه سر المداولة القضائية لغريب عن هيئة القضاء ، وثانيها إتهامه لرصيفيه بالغرض وقبول الإيعاز وإهانتهما شخصيا ، حتى كان من وراء ذلك أن صدر الحكم بالاغلبية لا بإجماع الآراء ، وثالثها توعده لهما وإنذارهما بسوء العاقبة إن لم يجريا على رأيه . قيل لما تحقق لورد كرومر من ذلك عدل عن عزمه وجعل يتلطف فى المقال مع الوزير حتى لا يصر على رأيه فى محاكمة صاحبه (كامبرون) ، وسأل أن يسعى فى إصلاح ذات البين ففعل أ .هـ . واتفق أن زرت صديق لى من أخل[٣٩٢] الحسب وأصحاب بيوت الشرف ، فحدثنى بخبر ما وقع فى تهمة شيخ المؤيد من الشواذ وما تقلب عليها من الأدوار ، ثم قال(ولقد رأيت من الوزير بطرس باشا غالى فى سائر أدوار هذه التهمة همة لاتبادى[٣٩٣] ، وحزما لا يجارى وتدبيرا لخلاص صاحب المؤيد من هذه الورطة

---

(٣٩٢)اخل = أهل .
(٣٩٣) تبادى = تبارى .

الشائنة ، ما لا يقدر عليه إلا كبير القلب واسع التفكير مسموع الكلمة عند عميد الإحتلال متبوع الرأى ، حتى أحسن خلاصه ووقاه شر تلك الهلكة) . قال(ولا ندرى إن كان شيخ المؤيد يعترف لصاحب هذا الفضل بفضله ، أو هو كما نعرفه ويعرفه الناس طرا من المشهورين فى الإنكار والإجحاد ونسيان الجميل ، ولا أخفى عنك أن الرجل إذا ألمت به نازلة هام فى التطواف على بيوت الأمراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط وأكثر كم(٣٩٤) طروق المنازل وغشيان السمر ، وجعل يظهر الضعف والمسكنة حتى ينال عطفهم أو رفدهم ، ويدفعون عنه ما نزل به من حيف أو ديم(٣٩٥) ، أو ما يترصده من هلكة ، فإذا نجا وزال عنه السوء غلب عليه طبعه والطبع غلاب ،ونسى أو تناسى فضل أهل الفضل أولئك الكرام ، وأغفلهم إغفالا ،وربما شوه سمعتهم وقلب آيات شهرتهم إذا رأى فى ذلك غنما أو نال من أجله حطاما قليلا) . فقلت . أعيذك من شر الوسواس ، إنا عرفناك أيها الشريف تحسن إلى جماعة الكتاب والعلم ، وحفاظ الشريعة ، وتدنى مجلسهم وتقرب أهل الفضل وذوى المروءة ، وكل متمسك بعروة الدين ،وما سمعناك يوما تشير إلى نقيصة لأحد أو تومى إلى مغمز فى أحد من العالمين .فقال(إنى أقول لك الحق أنى رجل بطئ الصبر سريع المؤاخذة لمن كانت هذه طباعه ،ومن كان هذا مشيه بين الناس)وعندى إن هذا وصحة(٣٩٦) عظيمة على الرجل أوهن بها مقامه ، ووضع عند الخاص والعام قدره ، وأطلق ألسنة الخلق بالشتم وإثناء القبيح على نفسه ، حتى تنكرت له وجوه الورى . أجل قام هداه الله يدعو الناس فى هذه الأيام إلى مكارم الأخلاق ، وأخباره هو كالريح التى مرت على النتن فحملت نتنا ، فكانت دعوته شرا على الأخلاق الهادئة ووبالا على النفوس المطمئنة . ومن العجائب أعمش

(٣٩٤) كم = من .
(٣٩٥) ديم = ضيم .
(٣٩٦) وصحة = وصمة .

كحال . أوكيف يقدر الأعمى على إن يهدى ، والفقير على أن يغنى ، والذليل على أن يعـز . وقـد قـال الحكيم لن يبلغ الألف رجل فى إصـلاح رجل واحـد بحسن القول دون حسن الفعل ، كما يبلغ رجل واحد فى إصلاح ألف رجل بحسن الفعل دون القول ، وفيه قال الشاعر .

يا أيهـا الرجل المـعلم غـيـره ... هلا لنفـسك كـان ذا التـعليم
تصف الدواء من السقام لذى الضنى ... كيف يح[٣٩٧] به وأنت سـقيم
مـا زلت تلقح بالرشـاد عـقولنا ... عظة وأنت من الشاد[٣٩٨] عديم
إبدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فاذا أنتـهت عنه فأنت حكيم
فهناك يقبل ما تقول ويقتدى ... بالراى منك وينفع التـعليم
لا تنه عن خلق وتأتى مـثله ... عـار عليك أذا فـعلت عظيم

فقد[٣٩٩] أعذرنى أيهـا الحبيب إذا نقلت عنك هذا الكلام . فـقال لا بأس عليك ، إن الرجل إذا خـرج من سلطان الجـهـالة فـلا يقـدم أبدا إلا على ثقـة بمنفعة ، كان أكثر دهره صامتا . فإذا قال بعد القائلين كان متضاعفا مستضعفا ، فإذا جاء الجد فهو الليث عاديا ، لا يدخل فى دعوى ولا يشرك فى مراء وغش ، ولا يتبرم ، ولا يتمخط ولا يشتكى ، ولا ينم ، ولا ينتقم ، ولا يخص نفسه بشئ من إهتمامه وحيلته وقوته . وصاحبنا هداه الله على غير هذا وأبعد ، أى نعم . روى أن حكيما سمع رجلا يذم الزمان وأهله وأنه قد فسد الناس ولم يبق أحد ينصحب .فقال له ياهذا أنت طلبت صاحبا تؤذيه فلم[٤٠٠] ينتصر ، وتنال منه منالا فلا ينتصف ، وتأكل رحله ولا يرزؤك بشئ ، وتجفو عليه فيحلم . فلم تنصف فى الطلب ولم تجد حاجتك ، ولكن إذا أردت صاحبا يؤذيك فلا

(٣٩٧) يح = يصح قراءة ترجيحية .
(٣٩٨) الشاد = الرشاد .
(٣٩٩) فقد = فقلت
(٤٠٠) فلم = فلا .

تنتصر ، ويجفوك فلا تنتقم ، ويأكل رحلك فلا تنال منه شيئا ، وجدت أصحابا وإخوانا . وصاحبنا هو ذاك الذى يؤذى الناس ولا يقبل أنهم ينتصرون ، ويأكل أرحالهم ولا يريد إن يرزؤوه بشئ ، وينال من أعراضهم ولا يرضى أنهم ينصفون ، وينبش قبورهم ولا يسمح أنهم يتوجعون . وقد قال العقلاء إن أفضل المروءة إستبقاء الرجل ماء وجهه ، فأين هى منه(٤٠١) أ . هـ .

وعاد السردار كتشنر باشا من دنقلة ومعه ونجت بك وسلاطين ، فاستقبل إستقبال الفاتح الظافر ، وحيته الجنود المصطفة فى فناء محطة السكة الحديد ، وعزفت الموسيقى ، وصافحته بعض سيدات الإنجليز ، وصافحه الوزراء والكبراء والأمراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط ، ولورد كرومر ، وكل وجيه وكبير من النزلاء : وأرسل الأمير للقائه أحد كبار يدوانه(٤٠٢) ، فسلم عليه وأبلغه تحية الأمير واستدعاه لوليمة أعدت له فى قصر الإمارة بالإسكندرية . فبات ليلته تلك فى القاهرة ، وأصبح وقد سافر إلى الإسكندرية ،فلاقاه الأمير بالبشرى ، وهنأه بالظفر والإنتصار على العدو ، وأدب له مأدبة حضرها الأمراء من البيت العلوى والوزراء والكبراء ، ثم قفل راجعا إلى القاهرة . وقد أكثر الوزراء

(٤٠١) يحمل ميخائيل شاروبيم على الشيخ على يوسف حملة شعواء ويتهمه بأنه كالريح التى مرت على النتن فحملت نتنا ، ويصف دعوته بأنها شر على الأخلاق الهادئة ووبالا على النفوس المطمئنة .
لكن مايعرف عن على يوسف أنه كان شخصية وطنية إسلامية ساهم وجريدته فى إذكاء الروح الوطنية فى البلاد - وتمتع الرجل بعلاقات واسعة مع شخصيات علمية وأدبية وسياسية ــ وما جرى له عام ١٨٩٦ إنما كان تنكيلا من المحتل البريطانى بالرجل ومحاولة للكيد لعباس حلمى (الخديو) صديقه ــ أو تصفية الحسابات مع عباس حلمى فى شخص الشيخ . فتح (على يوسف) صفحات جريدته (المؤيد) لكل صاحب رأى وتعاون معه فى عمله أكثر الناس قدرة والأكثر تميزا فى البلاد ــ وكان (مصطفى كامل) من كتاب جريدته لفترة غير قليلة ــ وكانت جريدته إحدى الصحف الرئيسية باللغة العربية ، وكان لها قراؤها من طنجة حتى الهند ومن تركيا حتى زنجبار . لقد كتب (عباس) عنه بما يشبه الشعر ــ وسحر السلطان العثمانى بشخص الشيخ بعد أن استقبله . كانت مقالات على يوسف - بعد أن نجح فى شد الرأى العام وتجميعه وتعليمه كيف يفكر - تقرأ ويعلق عليها فى أقاصى القرى - وأجمع على حب جريدته المتعلمون والبسطاء .
ــ راجع حاشية ١١٩ ص ١٠٤ .
ــ مذكرات عباس حلمى الثانى ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٢ ــ ١١٥ .

(٤٠٢) يدوانه = ديوانه .

والنزلاء من عمل المأدب تكريما لذلك الفاتح الكبير ، وأدب له أيضا لورد كرومر وخطب فى مأدبته خطبة طويلة عريضة كلها مغامز ومعيمات من معيمات[٤٠٣] أهل السياسات . ودعى أحد الحاضرين من جماعة الإنجليز فى تلك المأدبة السردار إلى إن يقول كلمة فى ما هم فيه فقال(والله إن فتح دنقلة ثانية أهون على من الخطابة التى لم أحبها) . وزاره قناصل سائر الدول وبالغوا فى تكريمه . وما هى إلا أيام قلايل حتى رسم بجمع ثلاثة آلاف نفر من شبان القرعة بالقاهرة ومصر والضاحية . فأحزن العامة هذا الحادث وأزعجهم جدا ، وطاف مشائخ الحارات ينادون بخروج المقترعين إلى حيث رجال القرعة .فكان إذا خرج النفر الواحد أو النفرين من حارة خرج معهما الآباء والأمهات والأخوة والإخوات والجارات صائحات مولولات قارعات صدورهن . وسارت هذه الجموع فى الطريق كأنهم فى جنازة[٤٠٤] .وظل الحال على ذلك أياما ، والعامة

---

(٤٠٣) ومعيمات من معيمات = ومعميات من معميات .

(٤٠٤) قاوم المصريون تجنيدهم فى الجيوش النظامية منذ أن عرفت مصر نظام الجيش الحديث فى عصر محمد على (١٨٠٥ـ ١٨٤٨) ـ فلجأوا إلى تشويه أجسامهم للتخلص من الجندية . ومن جانبه فإن محمد على جندهم وهم مشوهين وعاقب من لجأ إلى مقاومة التجنيد أو التهرب من الجندية بعقوبات وصلت إلى حد الإعدام . ولقد كان لأساليب وأنظمة التجنيد المتبعة ـ ومدة الخدمة العسكرية ـ وبعد قيادات الجيش وضباطه عن أبناء البلاد ـ كل هذه الأسباب كان لها نصيب كبير فى وجود ذلك الكره الشديد للتجنيد . وتزخر كتابات المؤرخين والرحالة الذين زارو مصر خلال سنوات القرن التاسع عشر بالكتابات عن المناظر المؤلمة لجمع المقترعين للجندية ونواح النساء المصريات خلف أقاربهن الذاهبين للتجنيد . ولقد تكونت عند المصريين على مدى سنوات القرن التاسع عشر عقيدة مقتضاها أن التجنيد وجه من وجوه الظلم البين والإجحاف المتلف الضار . ورغم أن خلفاء محمد على وضعوا أنظمة وضوابط وقواعد وقوانين لتحسين أحوال التجنيد ـ إلا أن أول قانون للتجنيد صدر عام ١٨٨٠ فقط .

ومنذ إنشاء الجيش المصرى فى الربع الأول من القرن العشرين وحتى قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ لم يكره المصريون شيئا قدر كراهيتهم للتجنيد ـ ولعل أسلوب التجنيد وطريقة حياة المجندين وطول مدة الخدمة هى من الأسباب الرئيسية لهذا الكره . بل أن الكثيرين من المجندين أصحاب المؤهلات العليا يفضلون حتى الآن (١٩٩٤) أن يجندوا (كجنود) وليس (كضباط مجندين) لا لشئ إلا لأن مدة الخدمة (للمجند مؤهلات عليا) سنة واحدة ، بينما هى بالنسبة للضابط المجند ثلاث سنوات . والرافعى يقول عام ١٩٣٠ (ومن الأسف أنه مازالت كراهية التجنيد باقية فى نفوس معظم طبقات الشعب إلى عصرنا هذا) .

ـ على محمد شلبى (المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر) ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٨ ـ ص ٩ ، ٣١ -٣٣ ، ٣٧ -٣٩ ، ٢٣٨،٥١ .

والسوقة فى هرج وأضطراب ، وهم يسبون السردار بأقبح السب ، بينما هو يشتغل من مأدبة إلى وليمة ، ومن دار أمير إلى ديوان وزير ، حتى تم إقتراع من شاؤا الإقتراع عليهم ،وعادت السكينة إلى نصابها ، وهم هو بالسفر إلى ديار الأنجليز ، فجاءه الخبر بعزم الأمير على مغادرة الإسكندريه والعودة إلى قصره بالقاهرة فتربص .

فلما كان يوم السبت حادى وثلاثين أكتوبر من السنة ، رابع عشر جمادى الأول سنة أربع عشرة ، قام ركب الأمير من الإسكندرية إلى مدينة طنطا . فأقاموا لمقدمه الزينات والإحتفالات العظيمة ، فأمضى ليلة الأحد ويوم الأحد وليلة الإثنين ثانى نوفمبر فى بلدة(سبرباى) أحد ضواحى طنطا ، وفى صبح الإثنين بارحها بموكبه فزار بعض الأماكن والمعاهد العلمية والمستشفى ، ويدزان(٤٠٥) الرى والهندسة ، والمحاكم الأهلية والشرعية . وفى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر برح طنطا ومعه جماعة الوزراء ، ورجال ديوانه وحاشيته وبطانته إلى القاهرة . وبات ليلته وأصبح وقد تمثل السردار بين يديه مستأذنا بالسفر ، فأذن له فبارح القاهرة من يومه إلى مدينة بورسعيد ، ومنها إلى ديار الإنجليز ليقبل يدى ملكته على ما أحسنت به عليه من ألقاب الشرف ونياشين الإعتبار . فلما وصل لندن جرت له مظاهرة إستقبال بهيجة للغاية ، وحضر المأدبة التى أعدتها الملكة فى قصر كولد(٤٠٦) هال فى عاشر نوفمبر من السنة ، وزاره بعد ذلك الأمراء والوزراء ، وجاء الخبر بقرب عودته إلى القاهرة لإنجاز ما كلف به من عظائم الأمور فى أرض السود .

وجاءت الأخبار تباعا من سواكن بتأهب العساكر الهندية المرابطة بها للإنسحاب من مرابطهم إلى الهند وإبدالهم بنفر من الجنود الإنجليزية ، وكانت

---

(٤٠٥) ويدزان = وديوان قراءة ترجيحية .

(٤٠٦) كولدهال = چيلد هول Guild Hall ــ قصر فى لندن يسمى The Hall of the corporation of the city of London تقام فيه الإحتفالات والمآدب الرسمية ويستقبل فيه عمدة المدينة الشخصيات المحتفى بها .

-Webster New universal Dictionary - Second Edition - Dorset and Baber USA- 1983 - p..809.

قد تفشت بينهم بعض الأمراض العفنة . فجاءتهم السفن وشوانى النقل ، فرحلوا عن سواكن ، ومعهم مرضاهم ونزلت فى مرابطهم طائفة من الجنود الإنجليزية يمن[٤٠٧] حضروا من الحملة ونقهوا من أمراضهم الخبيثة التى جاءت معهم من أرباض دنقلة . وأعقب ذلك خبر الإضطراب السائد عند مصوع بسبب ضعف الإيطاليان عن منهاضة[٤٠٨] الحبشان واستخلاص أسراهم ، ووقوفهم أمام الدول موقف الحائر الخجل . فهم كلما أقدموا على عمل الصلح مع منليك ملك ملوك الحبشة وتنازلوا له عن حق وميزة كما يريد وفكوا أسرهم ، كان ذلك حطا من قدر سلطانهم وتصغيرا لهم فى نظر الدول الكبرى لا سيما حليفات إيطاليا . وإن هم أغمضوا على هذا القذى شهرا فلا يقدرون على الصبر عليه دهرا . فكانوا لذلك يطالون[٤٠٩] ويحاولون ، ويكثرون من بعث البعوث والسفراء وكتب الترجى إلى مانليك فى طلب فكاك أسراهم وعقد صلحا شريفا[٤١٠] معهم فلم يفلحوا .حتى لقد تقدم جماعة من الأمراء والكبراء إلى بابا رومية فى طلب الوساطة فى فك أولئك الأسرى ففعل . وسير من بلاطه رسولا بكتاب مخصوص إلى الملك . فأكرم الملك رسالته وأرسل اليه يقول (وددت لو أنى أرضيك أيها الحبر الجليل بكل عزيز لدى ، ولكن واجباتى نحو مصلحة شعبى ومملكتى مقدمة على كل مصلحة سواها ومع ذلك فإنى مطلق لك الأسرى الذين هم من وطنك ومسقط رأسك والسلام) . قالوا وأظهر مانليك بعد ذلك كل تساهل مع الإيطاليان ، وأرسل اليهم يقول(لم يبق فى وسعى أن أفعل غير ما فعلت لكم من التسامح والغض عن سيئاتكم ، فإن أنتم عجلتم بعمل الصلح فلأنفسكم ، وإن حاولتم وطاولتم فعلى أنفسكم) . قالوا ولقد كاد حجز الحكومة الإيطالية على السفينة(دلويك) التى كانت آتية بشئ من المؤن والذخيرة إلى الحبشة ومصادرة ما فيها يقطع كل صلة بين الدولتين ،

(٤٠٧) يمن = ممن .
(٤٠٨) منهاضة = مناهضة .
(٤٠٩) يطالون = يطاولون .
(٤١٠) صلحا شريفا = صلح شريف .

وتعودان إلى تلك الحرب الطاحنة لولا حلم منليك ورأفته وحكمة مستشاريه ورجال بلاطه . ومما ينقل عن حلمه وحنانه أنه أخبر يوما بورود خطاب من[٤١١] جندى إيطالى مع الأسرى يقول فيه . لك منى ألف سلام ياولدى وفلذة كبدى ، لست وحياتك أريد أن أصدق بأنك قتلت بيد الأحباش ، بل إنى أنتظر قدومك والعذراء مريم شفيعتى ومعينتى على بعادك . لأنى أزورها وأبكى حالى أمامها . فلما علم الملك بذلك أمر فى الحال بإحضار الجندى الأسير . فلما مثل بين يديه لاطفه جدا ثم قال إذهب فان والدتك المسكينة بانتظارك وأنا لا أريد إن تبكيك وأنت حى ترزق . وما هى إلا أيام بعد ذلك حتى تم الصلح وتقررت قاعدته بين المملكتين كما أراد منليك وأحب لسلطنته العظيمة . وكان ممن أطلق سراحهم ضابط من كبار الضباط إسمه (ماريا) ، كان أسره فى موقعة (أباكاريا) . فلما بلغ مدينة نابلى راجعا إلى وطنه ، قابله أحد محررى جريدة(دون مارسيو) ودار بينهم الحديث عن الحبشة والحبشان . فقال(ماريا) أشهد بأن الشعب الحبشى ليس شعبا بربريا متوحشا كما يتوهمون ، وأن أديس أبابا بلدا متمدنة آهلة بصنوف المدنية والعمران ، وأشهد بين يدى الله أن الأسرى يعاملون فيها معاملة حسنة ويحترمون ، وأن النجاشى يحب إيطاليا ، وقد قال يوما وهو يتفقد الأسرى إن الملك همبرت[٤١٢] ملك صالح ، وليس هو الذى أحدث الحرب بل وزراؤه الذين يسرهم حب الفتح والإفتخار . قال محرر

---

(٤١١) من = إلى والمفروض أن هذا الخطاب قد ورد إلى الجندى من والدته .

(٤١٢) الملك همبرت = همبرت الأول Humbert (١٤ مارس ١٨٤٤ ـ ٢٩ يوليو ١٩٠٠) ـ خلف والده ڤيكتور إيمانويل الثانى على العرش عام ١٨٧٨ . تزوج من إبنة عمه مارجريتا Marghenta (١٨٦٨) القومية النزاعة إلى الإستبداد . قاد بلاده عام ١٨٨٢ إلى الخروج من العزلة عندما ضمها إلى التحالف الثلاثى Triple Alliance مع النمسا ـ والمجر والمانيا . كذلك فإنه حفز إيطاليا إلى العمل الإمبريالى الذى أدى إلى حصولها (١٨٨٩) على الصومال الإيطالى واندماج (١٨٩٠) مستعمرة إريتريا . إنتهت هذه المرحلة من التوسع الإيطالى بهزيمة عدوة (١٨٩٦) على يد الأثيوبيين . دفع القلق التالى الملك إلى فرض الأحكام العرفية فى ميلان Milan حيث قتل الجيش ٨٠ مدنيا عام ١٨٩٨ ، فى عام ١٩٠٠ إغتال فوضوى همبرت فى مونزا Monza . خلفه إبنه عمانويل الثالث -Victor Emanuel .

- Lexicon Universal Encydopdia, Vol. 10, p., 300.

تلك الجريدة (ثم أثبت بالبرهان نبل شعائر منليك وشرف عواطفه ، فإنه شرف مرارا موائد صغار الضباط الأسرى وخاطبهم بأرق العبارات) . قال(وماديا)[٤١٣] يحتج أشد الإحتجاج على ماردته بعض الصحف الإيطالية على إتهام الحبشان بالغلظة مع الأسرى وتعذيبهم ، وكذب هذه المفتريات تكذيبا باتا) فتأمل . وأما حالة سواكن وأرباضها وحصونها الأمامية فلم تكن لتسر إلى ذلك الحين ، ولا هى على ما تطمئن معه القلوب . فقد كان الأمن مفقودا بين المراكز التى تحتلها الجنود المصرية مثل (طوكر)(وترنسكينات)[٤١٤] (وهندوب) (وهمبوك) . فكثر السطو والقتل فيها من أهل الشقاوة ، وهبت قبيلتى (الشعاب) (والنوارب) إلى نقض الأمن وتضييع الراحه . وجعلت العوا[٤١٥] بالفساد ، لأن جماعة الإنجليز قبضوا على شيخهما وألقوه فى غياب[٤١٦] السجون .ولم يكن فى قدرة العساكر المصرية ردع أولئك الثوار ، لغل أيديهم عن المقاومة إطاعة لإشارة جماعة الإنجليز الذين منعوهم من أن يأتوا بحركة ما البتة . وأما راحلية[٤١٧] سواكن فقد كانت فى إضطراب وتشويش بسبب ما علمته الهيئة الحاكمة من إقدام بعض أصحاب الوظائف على بيع الذخائر ومعدات القتال إلى عثمان دقنه . فقد تحققوا أن أولئك الموظفون قد أرسلوا بتلك الذخره إلى عثمان فى دار[٤١٨] عمه التى يقيم بها . وقد أرسل عثمان كتبا إلى أصحاب الكلمة من الإنجليز[٤١٩] يقول (لقد يغرنكم أخذ دنقلة ، فسوف تلاقون أهوالا ، وأولى لكم إذا كنتم تريدون إستسلام السود أن يكون ذلك بعد خلاصكم من مذلة

(٤١٣) وماديا = ومازال .
(٤١٤) ترنسكينات = ترنكيتات .
(٤١٥)العوا = العواء   قراءة اجتهادية .
(٤١٦) غياب = غيابة   قراءة ترجيحية - وغيابة الجب قعره .
- مختار الصحاح - ص ٢٠٣ .
(٤١٧) راحلية = راحلة   قراءة ترجيحية - والرحل هو مسكن الرجل ومايستصحبه من الأثاث
- والمعنى هو سكان سواكن .
(٤١٨) دار عمه = ادرامه   قراءة ترجيحية - وهى مقر قيادة عثمان دقنه فى ذلك الوقت (١٨٩٦)
(٤١٩) الإنجليز = المصريين .

الإحتلال والخضوع للإنجليز ، وحينذاك أكون أنا وقومى أول الخاضعين لأمير البلاد) فلما علم الإنجليز بما فى ذلك الكتاب وهو بعنوان الأمير ضربوا به عرض الحائط ، ولم يعيروه شيئاً من الإلتفات . وشاع خبر ذلك بين الناس ،فصوبوا رأى دقنه ومدحوه .وكان صاحب سياسة الإنجليز قد سير من قبله سفيرا إسمه(بورتل) إلى منليك نجاشى الحبشة ، قالوا ليسأل النجاشى أمرين ،الأول توثيق العلائق الودية بين الحبشة ومصر ، والثانى سد الطرق والدروب على الدراويش وقطع كل صلة مع عثمان دقنه . فغاب أياما ثم عاد . وقد نقلت عنه أصحاب صحف الإنجليز أنه لم يفلح فى بعثته ، وأن النجاشى لم يظهر فى أقواله أقل تسامح لدولة إيطاليا ، ولا هو كذلك مع الدولة الإنجليزية .وأنه يعتبر أن كل ما هو وراء مصوع ملكا له .بل يعتقد أن فرضة مصوع أيضا هى من أملاك السلطنه الحبشية ،وأن إتفاق الإنجليز والإيطاليان على مناوله(٤٢٠) لن يضره بإذن الله . قيل فكبر خوف الإنجليز من إخفاق رسولهم فى هذه المهمة ، وشددوا فى المراقبة وبث العيون . وزادوا عدد أصحاب المراصد ، وباتوا على قدم الإستعداد ، ولكنهم لم يتعقبوا أهل السفارة من تينك القبيلتين(٤٢١) ولا هم طرقوا مناحيهم ليسدوها عليهم . واتفق أن ظهرت طلائع قافلة قادمة من نواحى السودان القبلى ، فظنها أصحاب المراصد طلائع للعدو فأمطروها نارا حامية ساعة ، فتربصت القافلة . ثم تحقق أصحاب المراصد أنها قافلة فانكفوا عنها . وأرسل محافظ البلد من جماعة الإنجليز يستعلم عما هى بضاعة القوم ، فعلم أنها تحمل شيئا كثيرا من حاصلات السوادن ولا سيما الصمغ ، فمنعها من دخول البلد ورسم لها بإنزال حملها فى(هندوب) ففعلت . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى هطلت الأمتار(٤٢٢)

---

(٤٢٠) مناولته = مناوءته قراءة اجتهادية .

(٤٢١) لم تتضمن السطور السابقة أى إشارة إلى قبيلتين لهما صلة بالمباحثات بين الإنجليز ومنليك ـ ويبدو أن بعض أفراد قبيلتين كانتا تقومان بدورالسفارة بين (بورتل) سفير الإنجليز ومنليك ـ وأن ميخائيل شاروبيم قد فاته أن يذكر ذلك فى الوقت المناسب ثم عاد وذكرهما فى هذا الموضع .

(٤٢٢) الامتار = الأمطار .

بشدة فغطت بعض تلك الأحمال . فاستغاث أولئك السياده[٤٢٣] بالمحافظ ، وترامو على أقدامه طالبين الإذن بدخولهم البلد ، فأذن لهم بشرط أن يضعوا كل ما هو معهم فى مخازن الحكومة فلا تخرج منها حتى يدفعون الأتاوة وهى فادحة .قالوا وكان عذر محافظ البلد فى ذلك هو عذر جماعة الإنجليز ،أنهم إنما فعلوا ذلك مخافة أن يبيع السياده[٤٢٤] ما معهم ويشتروا بثمنه ذخيرة وأسلحة إلى الدراويش . ولم يفرج عن بضاعتهم حتى أدوا الأتاوة صاغرين . فانكمشت قلوب جميع السيارة وانكفوا عن الإنحدار إلى سواكن أو غيرها من الدروب التى باتت فى خفارة العساكر المصرية وجماعة الإنجليز ، وسد فى وجوههم كل صوب وحدب . يقول وقد كاد حبل التجارة يتصل بين الصعيدين ، وتعود المفاوضة بين القطرين على أهون الأسباب لولا ما فعله جماعة الإنجليز من العنت والإعياء وقطع كل أمل من المتاجرين وكل رجاء .وعندى أنه كلما طالت أيام الإحتلال إزداد نفوذ[٤٢٥] التجار الأهليين من أصحابه ، وأشتد بغضهم لعميده ، ونمت فى نفوسهم مقاومته . وهم مع ذلك حيارى تذهب بهم أفكارهم كل مذهب ، وتسلك كل غدر ونجد ، ولا يدرون كيف يكون الخلاص بعد كل هذا الضجر المقيم . وأكثر دعاة الحزب الوطنى من الطعن بجماعة الإنجليز على منابر الخطابة ، واشتدت صحفهم سبا وتقريعا ، وقام مصطفى كامل ومن التف حوله من محبى الظهور وعشاق الخيلاء يستصرخون كتاب صحف الفرنسيس ويستفزوهم إلى حض أحتيالهم[٤٢٦] وأصحاب سياستهم على نصرة الضعفاء من أولئك السيادة[٤٢٧] وأصحاب تجارة السودان فى القاهرة . وجعل[٤٢٨] يقولون أن فتح باب التجارة مع السودان فى هذه الآونة التى بلغت

(٤٢٣) السيادة = السيارة قراءة ترجيحية .
(٤٢٤) السيادة = السيارة .
(٤٢٥) نفوذ = نفور .
(٤٢٦) احتيالهم = اقيالهم أو حكماءهم .
(٤٢٧) السيادة = السيارة..
(٤٢٨) وجعل = وجعلوا .

فيها الحملة ما وراء دنقلة ، وعدم منع القوافل القادمة عن طريق سواكن أو غيرها من الدروب يقرب القبايل إلى الطاعة ، والتخلى عن أصحاب المهدوية ، ويمهد للحملة طرق التقدم إلى الأمام . وقد زاد فى جلبة صحف الحزب وصياح مصطفى كامل فوز لورد كرومر على الأمير والرئيس مصطفى فهمى باشا أيضا بإدخال جماعة من الإنجليز فى هيئة القضاء الأهلى(٤٢٩) ، بعضهم فى المحاكم الإبتدائية ، وبعضهم فى محكمة الإستئناف ، بدعوى ضعف ثقة المتقاضين فى القضاء الأهليين(٤٣٠) بعد الحكم فى قضية شيخ المؤيد وخروجه منها بريئا .



(٤٢٩) فى أعقاب صدور الحكم ببراءة الشيخ على يوسف صاحب المؤيد و (توفيق كيرلس) فى قضية التلغراف ـ والتى اختلف فيها القاضى الإنجليزى مع القاضيين المصريين فى محكمة الإستئناف العليا ـ هاجم القاضى الإنجليزى (كامرون) زميلاه المصريان واتهمهما بالإنحياز إلى المتهمين بإيعاز من الخديو ـ وتفاقمت الأمور بينه وبين القضاة المصريين وحاول الخروج عن رأى الأغلبية . أعقب ذلك أن شكاه القاضيين المصريين إلى نظارة الحقانية وانتهى الأمر بإعتذاره لهما . لكن سلطات الإحتلال البريطانى أضمرت السوء فى نفسها وسعت فى الأيام التالية إلى تعديل نسبة القضاة الإنجليز إلى المصريين .كان عدد القضاة الأوروبيين فى محكمة الإستئناف سبعة ، فصمم (سكوت) المستشار القضائى على زيادتهم بثلاثة . وبالفعل فإن بطرس غالى باشا أيد (سكوت) فى مطلبه ـ وجاءت النتيجة بالموافقة على (تعيين ثلاثة قضاة أوروباويين فى محكمة الاستئناف ينتخبون من بين الرجال الذين تؤهلهم معارفهم القانونية للقيام بوظيفة القضاء)ـ وكان ذلك بناءاً على طلب (كرومر) ألذى طلب من رئيس النظار مصطفى فهمى باشا (١٢ نوفمبر ١٨٩٥ ـ ١١ نوفمبر ١٩٠٨)تعيين مستشارين إنجليز بالمحكمة محتجا (بأن العدد الموجود منهم فى الإستئناف غير كاف لضمان العدالة واستقلال القضاء) ـ وبذلك أصبح عدد القضاة الأجانب فى محكمة الإستئناف يقارب عدد المصريين . وبالطبع فإن التعيين اقتصر على الإنجليز وحدهم ، وأصبحت محكمة الإستئناف إنجليزية القضاة ماعدا قاضيا يونانيا واحدا ـ بل وكان نائب رئيس المحكمة إنجليزيا ـ كل هذا لأن الحكم فى قضية التلغراف لم يرق لسلطة الإحتلال التى كانت تريد التنكيل بالشيخ على يوسف .

ـ حاشية ٣٣٣ ص ٦٦٨ .

ـ لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ ـ ١٩١٤) مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٦ ـ ١٦٠ .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٧٦ ـ ١٧٨ .

(٤٣٠) الأهليين = الأهلى .

الفصل السادس

عام ١٨٩٧

أزمة نفقات حملة السودان

الحرب اليونانية ـ التركية

معركة أبى حمد (٧ أغسطس ١٨٩٧)

الفرنسيون فى فاشوده

سقوط بربر (١٢ سبتمبر ١٨٩٧)

المحكمة المخصوصة ومحاكمة أهالى قليوب (سبتمبر ١٨٩٧)

أزمة السيذ توفيق البكرى الثانية (حادثة جريدة الصاعقة)

إستعادة كسلا (٢٥ ديسمبر ١٨٩٧) .

حوادث سنة ١٨٩٧ هـ

فلما كان شهر يناير إفتتاح سنة سبع وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية ، رسم الأمير بدخول أولئك الإنجليز فى هيئة القضاء بتمييز عظيم فى جماكيهم[١] الشهرية عن جماكى القضاة الأهليين . فكان لهذا التمييز معماً[٢] هم عليه أولئك القوم من الجهل بلغة البلاد وعادات أهلها ، وعدم قدرتهم على فهم ما فى القوانين المعمول بها ، أسوأ وقع فى نفوس أصحاب القضاء . فباتوا وهم لايملكون من إرادتهم فى أحكامهم إلا ما يملكه منها القضاة الإنجليز . وكانوا إذا جلسوا على منصة الحكم لزم على رئيس الهيئة أن يفهم الإنجليزى الجالس معه كل أو جل ما يقوله الخصوم فى دفاعهم ، فإن قصر فى ذلك أو تباطئ لملل أصابه أو ضجر دمدم الإنجليزى وجحظت عيناه . فلا يسع الرئيس إلى[٣] الرجوع إلى بدء دفاع الخصوم وتبليغ ما فات منه إلى صاحبه الإنجليزى وإلا كان معادياً للإنجليز ، وعد معاكساً واعتبر مشاكساً ، ونزلت على هامته نوازل التونيب والعذير[٤] والشخط الكثير من اسكون[٥] مستشار وزارة الخارجيه[٦] . وربما نقلوه من محكمة إلى أخرى تأديباً له وإرهاباً لغيره . وظل

(١) جماكيهم = رواتبهم ـ من الفارسية (جامة) بمعنى اللباس ـ غير أن (دوزى) يرى أنها تعنى دولاب الملابس . أما (باق ألين) فيرى أنها تعنى (بدل الملابس) ـ لكنها إصطلاحا تعنى الجراية الشهرية التى تعطى من غلة الوقف . والكلمة الصحيحة هى جامكية . أما جماكى فهى جمع فاسد بالعربية للكلمة مثلما كان يفعل الجبرتى عندما كان يسمى رجال الاوجاقات العثمانية بالوجاقلية بينما صحتها هى أوجاقلو .
ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٩ .
ـ رد هاوس ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣٩ .

(٢)معما = مع ما .

(٣) الى = إلا .

(٤) العذير = التعذير .

(٥) سكون = سكوت Scott

(٦) الخارجية = الحقانية ـ وقد عين جون سكوت John Scott مستشارا قضائياالنظارة الحقانية فى ١٥ فبراير ١٨٩١ وترك وظيفته فى عام ١٨٩٨ . يذكر (عباس حلمى) فى مذكراته أنه كان يعرف القانون الإنجليزى جيدا ولكنه كان غير ملم بقانون نابليون (Code Napoleon) المعمول به فى مصر .
ـ مذكرات محمد فريد . القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٧ .
ـ مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢١٠ ـ حاشية ٩٧ .
ـ مذكرات عباس حلمى الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

الحال على هذا إلى يومنا الذى نحن فيه ، ويبقى هكذا ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

واختلفت الأخبار عن إستعداد أصحاب عبدالله التعايشى وتأهبهم للقاء الحملة ، وكانت وزارة الحرب تشيعها بين الناس تارة مكبرة وأخرى مصغرة ، وطوراً صحيحة وأخرى ممسوخة لامعنى لها ، ولا دليل على صحتها . وكان السردار إذا أنس من أصحاب سياسة الدول الكارهة لبقاء الإنجليز فى ديار مصر الراغبة فى إرجاعها عن عزمها على فتح السودان ، إذا أنس لها الميل إلى معاودة الكرة على صاحب السياسة الإنجليزية ومناقشته الحساب ، أو أحس بحركة بينهم وبين الباب العالى والمابين ، عمد إلى تجسيم الأخبار وتعظيم الحوادث وتكبير الأهوال التى تترصد الحملة ، بل تترصد المدينة كلها . حتى أنه لما إنحدر إلى القاهرة فى أخريات شهر يناير طلباً للراحة تحدث الناس وتفشى القول بينهم بأن حالة التخوم هادئة مطمئنة ، وأن أصحاب المهدوية يحسبون للحملة حساباً كبيراً ، وأن التعايشى فى قلق دائم وكمد ملازم . فما هى عشية أو ضحاها حتى أشاعت وزارة الحرب أن الحال فى (أم درمان) تقضى بالحذر ودقة النظر . وأن التعايشى معسكر فى (الجمعيات)[٧] شمال أم (درمان) فى عسكر جرار ، وأن (بربر)[٨] حافلة بالجيوش ، والمدد متواصل إليها من أم درمان . وأن أميرها (الزكى)[٩] عزله التعايشى واستبدله بالأمير (يونس الدكيم) ، وأن جيشاً ضخماً نازل فى أباد[١٠] أبى طليح ، وآخر معسكر على شاطئ النيل الغربى فى الموضع المعروف (بولد بشاده)[١١] . ويقولون أن

(٧) الجمعيات = الجميعات قراءة ترجيحية .
(٨) بربر = راجع الخريطة ملحق رقم (٥) .
(٩) الزكى = الزاكى عثمان أمير بربر .
ـ على محمد بركات (السياسةالبريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦١ .
(١٠) اباد = آبار .
(١١) بشاده = بشاره

التعايشى ينوى ضم هذا الجيش الكثيف إلى جيش أباد[١٢] أبى طليح ، وهو لايزال يحشد خيله ورجاله من السودان الجنوبى والغربى إلى أم درمان . قال أصحاب وزارة الحرب من جماعة الإنجليز حتى لقد تمكن (أحمد أبو الفضل) أمير كسلا من الإغارة على قافلة من الجيوش الإيطالية ذاهبة من مصوع إلى أصحاب المراصد ، فغنم ما معها من الذخائر والأسلحة وكانت شيئاً كثيراً ، وقتل حراسها . فتبدلت بعد تفشى هذه الأخبار الأحوال ، وعاد أصحاب الصحف إلى نغمتهم الأولى ، وحزروا[١٣] الهيئة الحاكمة من الركون إلى أنباء أصحاب وزارة الحرب وتصديق رواياتهم ، وطلبوا من وزير الحرب أن ينشئ ديواناً خصيصاً بالاستطلاع ونقل أخبار العدو وتفصيلات الوقائع الحربية وما يحدث فيها من نصر أو إنخذال ، وأطالوا الكلام فى ذلك أياماً . وفيما هم على هذا عادت وزارة الحرب إلى إفشاء القول بأنه رغماً عن حشد الجيوش فى أم درمان ، وتتابع مجىء القبائل بخيلهم ورجلهم حسب إشارة الخليفة عبدالله ، فإن العيش هناك رخيص ، وأردب الغلال لايزيد ثمنه عن الريالين ، وأقة اللحم بقرش صاغ ،وقنطار الأرم[١٤] بماية وخمسين قرشاً . قالت (وكذا الحال فى بربر) . قالت (وأما السودان جنوباً وغرباً فأرخص من ذلك كثيراً) . فلما شاعت هذه الأنباء أيضاً إشتدت جلبة أصحاب الصحف وقاموا يجادلون أصحاب وزارة الحرب من جماعة الإنجليز ، ويسفهون أحلامهم ، وأصحاب الوزارة لا يلتفون[١٥] إلى شىء من ذلك ، بل يزيعون[١٦] الأخبار المتناقضة والأنباء المختلفة كلما جاءهم كلمة من صاحب السياسة الإنجليزية ،كما يقول المقربون من مصادر الأخبار .

(١٢) اباد = آبار .
(١٣) وحزروا = وحذروا .
(١٤) لم أصل إلى معنى الكلمة .
(١٥) يلتفون = يلتفتون .
(١٦) يزيعون = يذيعون .

وبينما الناس فى شاغل من جراء الأنباء المتناقضة عن الحدود ، وأهل المناصب العالية من الإنجليز يجادلون أصحاب الصحف مريقاً[١٧] دعوتهم ، إذ ظهر منسر من اللصوص بالبلاد الواقع[١٨] بين مديريتى جرجاً وقنا بزعامة شقى من أكبر الأشقياء اسمه (على سليم) . فجعل هذا المنسر يعيث فى البلاد شرقاً وغرباً ، ويضرب القرى والنجوع ، ويسوق ماشيتها إلى الجبل الغربى تارة ، والجبل الشرقى أخرى ، ويدخل البيوت بلا خوف ولا مبالاة ، فينهب ويهتك الأعراض ، ويذبح من يقاومه ذبح الشاة . وقد أعيا الحكومة أمره ، فجعلت تطارده أينما ذهب ، وتسد عليه الدروب والمسالك ، فكانت تظفر بالقبض على النفر أو النفرين كل كثير من الأيام وتزجهم فى الحبوس ، حتى لم يبق إلا (على سليم) ووكيل له يعرف (بعبد أبى زعبل) . وهو عبد أسود وستة من رجالهما . واتفق أن نزلوا ناحية نجع حمادى وسطوا على بعض البيوت ،فنهبوا وقتلوا وخرجوا غانمين . فلما علم بخبرهم معاون بوليس مركز نجع حمادى قام خلفهم فى نفر من جنده وتتبع أثرهم . فلما صار على مقربه منهم إرتدوا عليه وعلى من معه من العساكر وأصلوهم ناراً حامية ، فجفل الجند وولوا مدبرين وتركوا المعاون . فقاتل الأشقياء قتالاً عنيفاً وأبلى بلاءاً حسناً للغاية ، ثم سقط ميتاً من رصاصة أصابت منه مقتلاً . فانقلبوا جميعاً عليه فشوهوا خلقه ، وخرقوا كفيه برصاصهم ، ورسموا فى صدره عاموداً من رصاص بنادقهم الواحدة تحت الأخرى ، بعد أن قطعوا من لحمه ليطعموه إياه إلى غير ذلك من أنواع العذاب الأليم والتمثيل الشنيع . وجاء خبر ذلك إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا ، وتناقله أحصاب[١٩] الصحف على إختلافها ، فقاموا على الرئيس يرمونه بالعجز وسوء التدبير ، وينعتونه بنعوت السخرية والجبن المعيب . وأكبر الأمير هذا الحادث وأعظمه ، وكلم الرئيس . يقال وعاب عليه خنوعه واستسلامه إلى

(١٧) مريقا = فى استبدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٨) الواقع = الواقعة .
(١٩) أحصاب = أصحاب

(المستر غورست) مستشار وزارة الداخلية ، الذى خص نفسه بالإشراف على الأمن فى الإقاليم القبلية والبحرية وتطمين الخلق على أرواحهم وأموالهم فى سائر البلاد ، وقبح الطريقة المعمول بها فى مراكز الشحنة[٢٠] ، وأسلوب خفر البلاد ، ومثولية[٢١] العمد والمشايخ . فلا[٢٢] يسع الرئيس إلا التشديد على مديرى قنا وجرجا بالقبض على ذلك الشقى ومن معه ، وضرب لهما أجلاً ، فاهتما بالأمر وأفرغا الجهد فى مطاردته أينما سار وحيث ما صار ، وبثا العيون والأرصاد أياماً . فلما ضاقت بأولئك الأشقياء الحيل ، ورست[٢٣] فى وجوههم مسالك مديرية قنا إنحدروا إلى ناحية البلينا ، واتخذوا مخبأ لهم فى مقصبة لعائلة البطارسة الشهرية[٢٤] ، وهم أولاد بطرس أغا الشهير . وعلم عبد الشهيد بك بطرس بخبرهم ، وأنهم مختبئون فى مزرعته ، فسار إليهم بنفسه وقال لهم إنكم كما تعلمون مطرودون من جماعة الحكام مطاردون ، ولابد من أن الجنود قادمة على أثركم . وقد شرعنا منذ اليوم فى قطع القصب ، فلا يظلكم سوى يومين أو أقل ، وها قد أعدت[٢٥] لكم مكاناً لايراكم فيه أحد ، فإن شئتم فادخلوا الساعة قبل أن يفاجئكم رجال الشحنه ، وكان يريد التمكن من تسليمهم للحكومة . فأجابوه إلى ذلك ودخلوا المكان ، فأرسل لهم طعاماً كثيراً وشراباً ، ورسم إلى خدامه فأقفلوا باب المكان ، وأرصدوا منافذه وسدوها من الخارج بأكياس الرمل حتى صارت لاترام من الداخل . ثم أرسل من يخبر أصحاب الشحنة بخبرهم . فحضرت الرجال وأحاطت بالمكان إحاطة السوار بالمعصم ونادوا على اللصوص بالتسليم ، فقالوا دون ذلك رمى بالرصاص ، وأن عندهم أربعمائة رصاصة ، فإذا انتهت يفكرون فيما يفعلون . قيل وعلى الأثر

---

(٢٠) أى أقسام البوليس .
(٢١) ومثولية = ومسئولية .
(٢٢) فلا = فلم .
(٢٣) ورست = وسدت .
(٢٤) الشهرية = الشهيرة .
(٢٥) اعدت = أعددت .

جعلوا يطلقون بنادقهم على العساكر من الداخل ، فأطلق هؤلاء بنادقهم أيضاً . وظل الحال على هذا ساعة أو يزيد . وإلى هنا إنقسم الرواة قسمين ، قسم يقول بأنه لما اشتد الرمى بين الفريقين أرسل حكمدار البوليس إلى وزارة الداخلية بخبر ما هو صائر من اللصوص ، فجاءه الأمر على جناح البرق بسرعة الإيقاع بهم ، فتسلق بعضهم الجدار إلى سطح المكان فخرقه وصب فيه ثلاث صفائح غاز وأتبعها بالنار ، فالتهمت واشتد اضطرامها وعلقت بالمكان من أسفله إلى أعلاه واحترق اللصوص وماتوا شر ميتة ، فنقلوا ما بقى من عظامهم إلى نجع حمادي . هذه رواية ، وفى أخرى أنه لما كان عرش المكان الذى دخله اللصوص من البوص والقش كسائر أسقف البيوت الريفية ، وقد تابع اللصوص نيرانهم من هنا ومن هناك ، وكانت العساكر من الخارج تطلق عليهم البنادق أيضاً التهب العرش وسقط على اللصوص فأشعلهم بما معهم من الذخرة ، فماتوا حرقاً ونقلت جثثهم . وعندى أن الرواية الأولى أصح . فلما شاع خبر ذلك وتناقله الناس قام أصحاب الصحف المحلية يرمون غورست مستشار وزارة الداخلية بالقسوة وغلظة الكبد ، ويقولون أنه هو الذى أشار بحرق أولئك اللصوص كى يكونوا عبرة لغيرهم ممن يقلقون الناس ويفسدون فى الأرض ، وأنه ما برح منذ تولى هذا المنصب يتصرف فى شئون البلاد الداخلية تصرفاً كله خلط وخبط وجهل بحاجيات البلاد وعادات أهلها ، ولكم ما غير وبدل فى نظام غفر البلاد ، وكم ما قنن القوانين وشرع الشرايع لطغمة أولئك الفقراء رجاء أن يسود الأمر وتذهب ريح أهل الشقاوة واللصوصية فلم يفلح ، بل لم يقو على هذا العمل الخطير . فكان يبطل اليوم ما فعله بالأمس ، ويبدل من الشرائع التى كانت معمول[٢٦] بها قبل الاحتلال بأشياء أخرى لا مسحة فيها من حسن الترتيب ولا هى من حسن القصد فى شىء . حتى بات رجال الشحنة فى سائر المديريات وأصبحوا وهم لا يملكون من إرادتهم شيئاً ، ولا هم يقدرون على

---

(٢٦) كانت معمول = كان معمولا .

عمل شيء ، إذ كانت تأتيهم مراسيم المستشار تباعاً بما هم فاعلوه ، حتى لقد أخبرنى أحدهم أنه كان يرى فى تلك المراسيم الخلط والخبط والخرق لكل نظام ما يتعذر على الكبير والصغير إغفاله أو العمل به . ومع ذلك فقد كانوا يحاكمون إذا أغفلوه ، ويؤخذون على ما ينجم عنه من المضار والمتاعب إذا عملوا به ، ثم يلزمون بالعدول عنه إلى ما هو أدهى وأمر ولا لوم عليه ولا رقيب . وأهل القرى والبلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً فى قلق دائم وكمد ملازم ،يحسب الرجل منهم فى بياض نهاره ما يترصده من المصائب والرزايا فى سواد ليله من طغمة الأشقياء[٢٧] .

حدثنى صديق من كبار المفكرين الذين قضوا مع جماعة الإنجليز أهل المناصب وأصحاب الخطط أياماً من الدهر ، وكنا نتطارح حيث[٢٨] الأمن فى

(٢٧) فى تقريره عن أحوال مصر عام ١٨٩٢ ــ قرر لورد كرومر أنه من بين ٦٦٥٠ جناية إرتكبت عام ١٨٩٢ لم يستطع البوليس أن يقوم بواجبه سوى إزاء الربع منها فقط ـ بينما حفظت القضايا الباقية لانعدام الأدلة وعدم ضبط الجناة ــ وأن من بين ٢٣٥٤٧ جنحة لم يستطع البوليس أن يثبت التهمة على أكثر من ١٠٢٢٤ بينما ترك الفاعلون فى ١٣٣٢٣ جنحة طلقاء .

مع تطبيق نظام الإشراف البريطانى الجديد عام ١٨٩٤ (المستشارية ومفتشو الداخلية) تزايدت ظاهرة الجريمة وتفشت بصورة خطيرة ــ ويبدو أن الخطورة هذه كانت أكبر من أن يتحملها كرومر ــ فعمد إلى التغيير فى أرقام الجرائم مخفيا حقيقة الإحصائيات ومكتفيا بذكر الجرائم الخطيرة فى تقاريره السنوية دون التعرض لباقى الجرائم التى تعد من قبيل الجنايات . فقد ذكر فى تقريره السنوى عن مصر لعام ١٨٩٤ (وهو العام الذى عمل فيه بنظام المستشارية ومفتشى الداخلية) أن عدد الجرائم الخطيرة التى ارتكبت فى مصر عام ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤ كان ١٥٣٦ جريمة . منها ثلاثمائة وثلاثة وخمسون جريمة قتل ـ خمسة وثلاثون جريمة سطو . وأربعمائة وثمانية وعشرين جريمة سرقة بالإكراه . ولم يكشف تلاعب كرومر بإحصائيات الجريمة إلا (رونالد جراهام Ronald Graham) مستشار الداخلية فى تقريره إلى سير إدوارد جراى Edward Gray فى ١٩٠٩/٣/٥ ــ فقد ذكر أن عدد الجرائم الخطيرة فى مصر عام ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤ كان ٢٦٢٩ جريمة ــ بما يعنى أن كرومر كان قد أخفى ١٣٩٠ جريمة عن الرقم الصحيح لعدد الجرائم المرتكبة ــ وهو ما يضعف من مصداقية تقارير كرومر عن مصر بصفة عامة وعن الجريمة ومعدلاتها فى التسعينيات من القرن التاسع عشر بصفة خاصة .

وفى هذا المقام فإن سجل الجريمة خلال الفترة ١٨٩٣ ــ ١٨٩٩ كان كالآتى على التوالى .

٢٦٢٩ ــ ٢٥٠٦ ــ ٢٥٢٤ ــ ١٨٦٦ ــ ١٤٢٤ ــ ١٣٤٢ ــ ١٢٥١

- Egypt No1 (1894(Report on the finances. Administration. and condition of Egypt and the Progress of reforms.

- Fo 407 - 174 - 33861 - No 133.

(٢٨) حيث = حالة .

البلاد وعجز أصحاب الشحنه عن العمل فقال (يا سبحان الله نقلب طرفنا ، فنحن فى الاستبداد من ورائنا وأمامنا ومن فوقنا وتحتنا ، فهل هذا ما يقال له سياسة جماعة الإنجليز الإحتلالية أو هى خطتهم الإستعمارية؟ وهذه درجة الاستباد[٢٩] بنا اليوم فكيف تكون غداً إذا وقعنا بين بدائن[٣٠] الأسد الجائع لكثرة المطامع ، وفى فم الحوت الأجشع الذى لا يروى ولا يشبع . ولقد كان هذا العسف الذى كنا نشكو منه فى أول عهد الإحتلال وفى أواخر أيام الخديوى توفيق باشا وفى أوائل عهد الأمير عباس كما هو اليوم لا يختلف بالغاية ولا المعنى أقل إختلاف . بل بالشكل الظاهر فهو طوراً فى قالب النصيحة تلقى فى السر وتقال فى الخفاء على أن تسمع وتطاع وتنفذ فى الجهر . وتارة فى رسم كرة نارية تخرج من فم المدفع البريطانى إرادة المعاقبه والإنتقام ، وتكان لا[٣١] تكون الليلة بالبارحة أشبه من هذه السياسة من عام أول وما هى عليه من هذا العام . وهلا تذكر يوم فر مساجين (طرا) كيف أطلق الرصاص عليهم فقتل نفر منهم . كذلك كان أول أمس مقتل أولئك النفر من اللصوص وقد لجأوا إلى غرفة واعتصموا بها فأحرقوا من الخارج بنار موقدة) . قال . (فقل لى بحقك إذا أى فرق بين هذا وذاك ، وها هو العام يتلو العام ونحن فى هذا المقام؟ ألسنا نقول ونحن نرى الإحراق بالنار ، والقتل بالقانون ، والظلم بالعدل ، والتعليم بإبطال المدارس ، والجيوش وهى منا تقاتل لغيرنا لا لنا ، والعدو وهو يأخذ أرضنا ، ويستخدم الغرباء لإذلالنا ، وينفق على ذلك أموالنا ما قاله الشاعر وقد أدرك أقصى الأحنة ومنتهى المحنة .

---

(٢٩) الاستباد = الإستبداد .

(٣٠) بدائن = براثن .

(٣١) وتكان لا = وتكاد أن قراءة ترجيحية .

(إشتدى أزمة تنفرجى)

فقلت . إن دوام الحال من المحال . وما وراء الخطب المتفاقم والكرب المتتابع إلا أن يذهب من حيث جاء ، فى يوم لايعلم وساعة لاينذر بها القضاء ، والله سبحانه لطيف بعباده . فقال (وبعد[٣٢] الأمر من قبل ومن بعد) . وعاد القول برجوع عثمان دقنة من أم درمان إلى سوار مصوع[٣٣] بعد أن لبث بحضرة التعايشى أياماً . وجاء الخبر من سواكن إلى وزارة الحرب بقرب ظهور ذلك الطاغية فى جموعه ومريديه عند (سكنات)[٣٤] ،وأن الدراويش يزحفون طلائع إلى ناحية (طوكر) . فظهرت يومئذ الحركة بوزارة الحرب ، وكثر ذهاب وإياب بعض كبار الجند من جماعة الإنجليز إلى سواكن وبعضهم إلى ما ورائها . وتكلم بعض أصحاب الصحف الإنجليزية عن ضرورة الزحف على (بربر) واسترجاعها من أصحاب المهدويه قبل مسير الحمله إلى الخرطوم ، وزينوا لصاحب سياستهم هذه الخطة ، وعدوها من أجل الأعمال الحربية وأيسرها فى هذه الآونة المناسبة . وبينما كانت أصحاب صحف الإنجليز على هذا الحض والترغيب ، كان أصحاب الصحف الإيطالية تندب سوء حظ أصحاب سياستهم وذهاب ريحهم فى مصوع وما والاها ، وتحذرهم من عاقبة الرجوع إلى معاداة الحبشان ، أو الدوى[٣٥] على ذنب ذلك الأسد الخارج من سبط يهوذا ، وهو منليك ملك ملوك الحبشة ، وأن لا يغتروا بترهات رجال الحرب منهم ، وأصحاب السلطة العسكرية ، وأن يخلدوا إلى السكينة ويتركوا الحبشه ما تركوهم . وقد كان[٣٦] صحفهم إذاعة[٣٧] أن أصحاب السلطه العسكرية من[٣٨]

---

(٣٢) وبعد = لله .

(٣٣) سوار مصوع = جوار مصوع قراءة اجتهادية

(٣٤) سكنات = سنكات .

(٣٥) الدوى = الدوس .

(٣٦)وقد كان = وكانت .

(٣٧) اذاعة = قد اذاعت .

(٣٨) من = فى .

رومه ينوون إحداث بعض التعديل فى تخوم مستعمرتهم عند مصوع . فلما شاع هذا الخبر وبلغ مسامع الحبشان ظهرت الحركه فى منازل عسكرهم ، وجعلت كتائبهم تطوف حول تخومهم ، وقعدوا له جماعة(٣٩) الإيطاليان بالمراصد وأذكوا عليهم العيون ، فاضطربت الأحوال هناك أو كادت . وبلغ تيار هذه الحركه فرضة (سواكن) ، فاهتم لها المرابطون من الجنود المصرية ، وخافها أصحاب المراصد ، ووصل خبرها إلى ديار الإيطاليان ، فقامت أصحاب صحفهم يحذرون أصحاب السياسة ويخوفوهم من شر العاقبة . وظلوا على ذلك أياماً ثم خفتت أصواتهم ، وكأن الأمور قد عادت إلى مجراها . وجاء الخبر من سواكن باختفاء طلايع (عثمان دقنه) وكأنهم يتأهبون إلى الهجوم ومقاتلة أصحاب المراصد ، فسافر السردار فى ثانى فبراير من السنة ، وثلاثين شعبان سنة أربع عشرة ومايتين وألف إلى (سواكن) فى قلة من أركان الحرب وكبار الضباط . فدل إهتمامه بخبر طلايع دقنه على أن القوم على أهبة القتال بعد ذلك الخلود الطويل . وما هى إلا أيام حتى عادت الحركة فى منازل الجنود بالعباسية إلى الظهور ، وأخذت مركبات نقل الزخائر(٤٠) لجيش الإحتلال تغدو وتروح بين قلعة الجبل وقصر النيل ، وجعل جنودهم يتمرنون على إطلاق النار عند الأهرام وناحية المناشى . وظلوا أياماً يطلقون المدافع خلف العباسية فى الليل والنهار ، حتى أقلقوا الأهالى وأزعجوهم أيِ إزعاج . وقدم فى هذه الأثناء جماعة من مرضى التخوم القبلية من الضباط والجنود ، فنقلوهم على النقالات إلى مستشفى قلعة الجبل ، ومروا بهم من شارع محمد على . فانزعج السوقة وأصحاب الحوانيت ، وظنوا أن الحرب قائمة مع عثمان دقنه على تخوم سواكن ، وترامح الصبيان خلف عربات نقل أولئك المرضى وهم فى جلبة وصياح ، وأصحاب الشحنة يطاردونهم بالعصى . وكثر تحدث الناس فى كل

(٣٩) له جماعة = لجماعة .
(٤٠) الزخائر = الذخائر .

صوب ، وملأ الخوف قلوبهم من تتابع تلك المناورات الحربية ، وتراسل قنابل مدافع الإنجليز عند العباسية ، حتى لقد بلغت مناوراتهم خطة المنيرة شرقى القصر العينى ، والقصر العالى . فكاد سكان عشش تل القاصد وتل العيون وسكان حارات فم الخليج ينزحون ويتركون منازلهم خاوية على عروشها . واتفق فى هذه الأيام أن قرر مجلس الوزراء ورسم الأمر بالتصريح لشركة الترامواى بردم الخليج الناصرى الذى يبتدئ من المسطبة عند السبع سقايات وينتهى عند ناحية الوايلى الصغرى ما وراء وسط القاهره ، ومد خط للترام على الردم ، فظن أصحاب تلك العشش وتلك الدور أن جماعة الإنجليز يريدون تهديد البلد وإرهاب أهلها ببناء الحصون والمعاقل مكان الخليج ، وأنهم إنما هم فاعلون تلك المناورات بخطتهم ليتحققوا من إتجاهات رمى القنابل ورصاص البنادق . وأكثروا من الإرجاف والتهويل حتى كاد العقلاء يصدقونهم . قلت . وقد كان أصحاب ديوان الصحة على عهد الخديوى توفيق أشاروا بردم هذا الخليج ، ومنع مياه النيل عنه فى زمن الفيضان ، إتقاء شر ما هو مترتب على وجوده من إنتشار الأمراض العفنة ، والحميات الخبيثة فى سائر أنحاء البلد ، وعلى الخصوص فى إبان الصيف واشتداد القيظ ، وركود المياه الآسنة به المتخلفة عن مراحيض سائر البيوت المطلة على طوله ، من السبع سقايات إلى الوايلى الصغرى . فلما شاع خبر ذلك يومئذ قالت[٤١] العامه وقعدت ، وقالوا لايحل ردمه وهو من آثار السلف الصالح . وساعدهم على ذلك بعض العلماء والمعممين ، وأفتى مفتى مصر بعدم جواز ردمه لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان . وقام بعض أصحاب الصحف الساقطة يخدعون الناس بالبرهان والأكاذيب التى لفقوها حسب عقول العامه ، كقولهم أن ذلك الخليج مهبط الرحمة ومجرى الرزق ، ومستقى الفقراء ومغسل المحتاجين واليتامى ، وأن

(٤١) قالت = قامت .

سده ومنع المياه عنه إثم كبير وشؤم ليس بعده شؤم . فلما وصل خبر ذلك إلى الخديوى توفيق وكان كثير التطير يسمع لأقوال العامة ، برز أمره إلى رئيس الوزراء يومئذ بالكف عن الكلام فى هذا المشروع والإقلاع عنه . فانكف أصحاب ديوان الصحة ،ولكنهم عادوا إليه فى هذه الأيام ،وشددوا فى طلبه ، وقد رأوا من رغبة كبار شركة الترامواى فى ردمه ومد خطهم الحديدى عليه ما شجعهم ، وهون على مجلس الوزراء بالتصريح للشركة بردمه ، ففعلت وباشرت العمل ، وأكثرت من العمال فى الليل والنهار ، ونقلت إليه التراب من تلال القاصد وفم الخليج . فعاد بعض المعممين إلى ضجتهم تلك على عهد الخديوى توفيق فلم يفلحوا ، بل توعدوهم إن هم تداخلوا فى أمر ذلك فانكمشوا . قيل . ولكنهم لم ينكفوا عن تحريض العامة فى السر ، والعامة لاقبل لهم على ممانعة أصحاب العمل . أقول أيضاً (وهذا الخليج هو الخليج القديم ، إحتفره بعض الفراعنة الأولين على ما هو مذكور فى محله من كتابنا هذا ، ثم تمادت الدهور والأعوام فجدد حفره ثانية بعض من ملك من الروم بعد الإسكندر ، ثم ضم[٤٢] ، فجدد حفره عمرو بن العاص بإشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وكان يومئذ يصب فى بحر القلزم ، فتسير فيه السفن إلى البحر المالح ، وتمر إلى الحجاز واليمن والهند . ولم يزل على ذلك إلى أن قدم (محمد بن عبدالله بن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب) بالمدينة ، والخليفه إذ ذاك بالعراق (أبو جعفر عبدالله بن محمد المنصور) فكتب إلى عامله بمصر يأمر بطم هذا الخليج حتى لا تحمل الميرة من مصر إلى المدينة . فطمه وانقطع من حينئذ إتصاله بالقلزم ، وصار على ما هو عليه إلى هذا العهد) . قال بعض الكتاب (وكان هذا الخليج أولاً يعرف بخليج مصر ، فلما أنشأ جوهر القائد القاهرة بجانب هذا الخليج من شرقيه ، صار يعرف بخليج القاهرة ، وكان

(٤٢) ضم = طم قراءة اجتهادية ــ وطم تعنى ردم أو دفن .
ــ مختار الصحاح ــ ص ١٦٧ .

يقال له أيضاً خليج أمير المؤمنين يعنى (عمر بن الخطاب) ، والآن تسميه العامة بالخليج الحاكمى ، وتزعم أن الحاكم بأمر الله (أبا على منصور) إحتفره . وليس هذا بصحيح ، فقد كان هذا الخليج قبل الحاكم بمدد متطاولة بل بأجيال كثيرة . ومن العامة وبعض الكتاب المتطفلين على التاريخ من يسميه خليج اللؤلؤة أيضاً .وقد نقل المقريزى عن من يسميه الأستاذ(إبراهيم بن وصيف شاه)كلاماً عن هذا الخليج ليس من الصحة فى شىء . فقد زعم ذلك الأستاذ أن حفر هذا الخليج يرجع إلى عهد الملك (طيطوس بن ماليا ، بن كلكن ، بن خربتا ، بن ماليق ، بن تدراس ، بن صا ، بن مرتونوس ، بن صا بن قطيم ، بن مصر ، بن بيصر ، بن حام بن نوح) . قال والقبط تزعم أنه أول الفراعنة بمصر وهو فرعون إبراهيم . قلت ولا أدرى كيف يكون أول فراعنة مصر ، ثم هو فرعون إبراهيم عليه السلام . وذكر الأستاذ (إبراهيم بن وصيف) هذا قصة طويلة عريضة فى مجىء إبراهيم عليه السلام وسارة زوجته إلى (فرعون طيطوس) هذا ، وفى مكثه فى ضيافة(طيطوس) ،ومكث (سارة) فى ضيافة إبنته جوريا ، وكيف وهبت جوريا إبنة فرعون لسارة (هاجر) ، وأن (طيطوس) عاش إلى أن وجهت(٤٣) هاجر من مكة تعرفه أنها بمكان جدب وتستغيثه ، فأمر بحفر نهر فى شرقى مصر بسفح الجبل حتى ينتهى إلى مرمى(٤٤) السفن فى البحر المالح . فكان يحمل إليها الحنطة وأصناف الغلال ، فتصل إلى جدة وتحمل من هناك على المطايا . فأحيا بلد الحجاز . قال . ويقال إنما أحييت الكعبة فى ذلك العصر مما أهداه ملك مصر إلى (إبراهيم وسارة) عند خروجهما . وقيل أنه لكثرة ما كان يحمله طيطوس من الأموال إلى الحجاز سمته العرب وجرهم(٤٥) الصادوق . قال وإنه ــ يعنى طيطوس هذا ــ سأل إبراهيم عليه السلام أن يبارك له فى بلده ، فدعا بالبركة لمصر ، وعرفه أن ولده سيملكها ويصير أمرها إليهم قرنا بعد قرن .

---

(٤٣) وجهت = رجعت قراءة اجتهادية .
(٤٤) مرمى = مرسى .
(٤٥) وجرهم = وجوارهم قراءة ترجيحية .

قال الراوى فهذا كان أول أمر هذا الخليج أ .هـ) والصحيح من خبره هو ما أوردناه فى محله من هذا الكتاب فارجع إليه إذا شئت . وذكر (الكندى) فى كتاب (الجند العربى) أن (عمراً) ثغره[٤٦] سنة ثلاث وعشرين ، وفرغ منه فى ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ، ووصلت إلى الحجاز فى الشهر السابع ، ثم بنى عليه (عبد العزيز ابن مروان) قنطرة فى ولايته على مصر . وقال (ابن الطوير) وقد ذكر ركوب الخليفة لفتح الخليج (وهذا الخليج هو الذى حفره عمرو بن العاص لما ولى على مصر فى أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من بحر فسطاط مصر الحلو ، وألحقه بالقلزم بشاطىء البحر المالح) . إلى أن قال . (وكان أول هذا الخليج من مصر يشق الطريق الشارع المسلوك منه اليوم إلى القاهرة حافاً بالقربوص الذى على البلاد المعروف بابن كيسان ، وما زالت آثاره اليوم[٤٧] مارة باقية ، إلى الحوض المعروف (بسيف الدين حسين) صهر (ابن رزيك) البستان المعروف (بالمشتهى) وفيه آثار المنظرة التى كانت معدة لجلوس الخليفة فتح[٤٨] الخليج من هذا الطريق) . قال ولم تكن الآدار (جمع دار) المبنية على الخليج ولا شىء منها هناك . وما برح ذلك الخليج منتزها لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة ، إلى أن حفر الملك الناصر (محمد بن قلوون)[٤٩] الخليج المعروف بالخليج الناصرى .

قال (المسيحى)[٥٠] (وفى هذا الشهر ـ يعنى فى المحرم إفتتاح سنة إحدى وأربعمائة ـ منع الحاكم بأمر الله الركوب فى القوارب إلى القاهرة فى

---

(٤٦) ثغره = أى حفره والثغره هى الثلمة
ـ مختار الصحاح ـ ص ٣٦ .
(٤٧) اليوم = الى اليوم أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٤٨) فتح = عند فتح أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٤٩) الناصر محمد بن قلاوون (١٢٩٣ ـ ١٢٩٤م) ـ (١٢٩٩ ـ ١٣٠٨) ـ (١٣٠٩ ـ ١٣٤١) .
ـ جرجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٣١ ـ ٣٣٦ .
(٥٠) المسيحى = المسبحى المصرى ـ عز الملك محمد بن عبدالله بن أحمد ـ مؤرخ الدولة الفاطمية ـ ومن أقطاب مصر الفاطمية فى العلم والسياسة والإدارة ـ تولى حكم البهنسا من أعمال الصعيد فى عهد الحاكم بأمر الله ـ وفى عهده تولى ديوان الترتيب (الرواتب) ، وهو الديوان الذى كان=

الخليج ، وشدد فى المنع ، وسدت أبواب القاهرة التى يتطرف منها إلى الخليج ، وأبواب الطاقـات من الدور التى تشـرف على الخليج ، وكـذلك أبواب الدور والخوخ(٥١) التى على الخليج) أ . هـ وكانوا يطهرونه مما يرثب(٥٢) فيه من الطين وفضلات مراحيض الدور التى على حافته فى أخريات كل عام بعد إنحدار الماء وهبوط النيل . قال (ابن عبد الظاهر)(٥٣) عن (مختصر تاريخ ابن المأمون) أن أول من رتب حفر خليج القاهرة على الناس (المأمون بن البطائحى)(٥٤) وكذلك على أصحاب البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل عليه والياً بمفرده .أ . هـ وقال (الأسعد بن خطير المماتى)(٥٥) فى وصف هذا الخليج بيتين لا بأس بهما :

=يختص بتنظيم الرواتب ودفعها إلى مستحقيها ــ أشتهر بعنايته بالتاريخ والتأليف فيه . ومن أشهر مؤلفاته كتاب(تاريخ مصر) . نقل عنه المقريزى ــ وله مؤلفات أخرى منها (درك البغية فى وصف الأديان والعبادات) و (الأمثلة للدول المقبلة) ــ توفى عام ١٠٢٩م

ــ (الموسوعة المصرية ــ تاريخ مصر القديمة وآثارها ــ تاريخ وآثار مصر الإسلامية) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١٥٦ .

(٥١) والخوخ = الخوخة كوة فى الجدار تؤدى الضوء ـ وهى باب صغير فى بوابة كبيرة يستخدم للإستعمال المتكرر فى الدخول والخروج بدلا من فتح البوابة الكبيرة للبيت كل مره .

ــ مختار الصحاح ــ ص ٨٠ .

-Lane. Edward Willian (Manners and Customs of the Modern Egyptuans) London. 1860 - P.,211.

(٥٢) يرثب = يرسب .

(٥٣) إبن عبد الظاهر = محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن عبدالظاهر بن نشوان المصرى القاضى (١٢٢٣ ــ ١٢٩٢) ــ كاتب وشاعر ومؤرخ ــ ولد بالقاهرة ومات بها ــ تولى ديوان الإنشاء زمن الظاهر بيبرس قلاوون وخليل بن قلاوون . من مؤلفاته (كتاب الروضة البهية الزاهر فى خطط المعزية) (سيرة السلطان الملك الظاهر) و (الألطاف الخفية من السيرة السلطانية الأشرفية) .

ــ الموسوعة المصرية ــ تاريخ مصر القديمة وآثارها ــ تاريخ وآثار مصر الإسلامية)ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٦٨٥ .

(٥٤) المأمون بن البطائحى ـ أبو عبد الله محمد بن فاتك الملقب بالمأمون ــ من خواص الوزير الفاطمى الأفضل بن بدر الجمالى ـ إستخدمه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله (١١٠١ ــ ١١٣٠) فى إغتيال الأفضل عام ١١٢١م ونال منصب الوزارة بدلا منه ــ قام بعمل إحصاء لسكان مصر والقاهرة ودونه فى قوائم ــ مهد لنظام الاقطاع فى العصر الأيوبى عندما أطال مدة الإلتزام بتقبل أرض معينة أو ضمان خراجها من أربع سنوات إلى ثلاثين سنة .

ــ الموسوعة المصرية ــ المرجع السابق ـ ص ١١٤٠ .

(٥٥) المماتى = إبن مماتى ـ القاضى الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبو سعيد مهذب المعروف بابن مماتى ــ أحد مشاهير كتاب الدولة الأيوبية ووزرائها ــ ورد ذكره فى (وفيات الأعيان) لابن خلكان و(عقد الجمان) للعينى و(المواعظ والإعتبار) للمقريزى ــ وتفيد معلومات هذه المؤلفات أن ابن مماتى من نصارى أسيوطـ ، تقلد مناصب فى كثير من الدواوين إلى أن ولى رئاسة ديوان=

خليج كالحسام له صقال ولكن فيه للرائى مسره
رائت[٥٦] به الملاح تجيد عوماً كأنهم[٥٧] نجوم فى مجرة

وكان على هذا الخليج إلى (عهد محمد على باشا الكبير) أربة[٥٨] عشرة قنطرة تهدمت كلها الآن ،ولم يبق لها أثر ولا عين .وتتابعت الأخبار واردة من سوكان[٥٩] ومصوع بوقوع الحالف[٦٠] بين منليك ملك ملوك الحبشة ودعاة المهدوية على مقاتلة الحملة المصرية وجماعة الإيطاليان معاً ، وقطع شأفتهم من هناك ، حتى لقد أكد صحة ذلك بعض عيون الإيطاليين ، وجواسيس الحملة المصرية . ولكن لم تلبث أن انقطعت هذه الأنباء وزالت أو كادت ، وثبت أن الدراويش غادروا (القضارف) فى أخريات يناير الماضى ، بعد أن غزوا قبيلة (بازاس) واجتازوا نهر المغاس ، ليغزوا قبيلة (البازياس) أيضاً ، وربما هاجموا (الكوردات) على حين غفلة .فلما أحست قبيلة (البازياس) بذلك هربت إلى التلال بمواشيها ، وأسرع الإيطاليون بالإحتشاد فى وادى (الكوردات) ، فارتد الدراويش خائبين . قالوا وهم نازلون الآن وراء (آبار أمبدات) على بعد عشر ساعات من (الكوردات) ، وقد أخربوا تلك الآبار كى لاينتفع العدو بماءها . وهم يستقون من العيون التى تركوها سالمة فى الدروب المؤدية إلى (إموازى) . وأزعج جماعة الإنجليز بوزارة الحرب خبر ذلك ، لاسيما وقد جعل أهل الرأى

= الجيش فى الدولة الأيوبية وأسلم فى آخر عهد أسد الدين شيركوه وأصبح واحدا من أبرز وزرائها ـ وأضيف إليه ديوان المال ـ ترك مصر إلى حلب بعد كيد الصفى عبد الله بن شكر وزير الملك العادل أبو بكر بن أيوب له ـ وبقى بها حتى توفى فى عام ١٢٢٩م ، من تصانيفه (سر الشعر) و (علم النثر) و (الشئ بالشئ يذكر) و (الفاشوش فى أحكام قراقوش) و (الحق على الخلق فى التحذير من سوء عاقبة الظلم) ـ أما أهم مؤلفاته فهو (قوانين الدواوين) .
ـ الموسوعة المصرية ـ المرجع السابق ص ٦٩٢ .

(٥٦) رائت = رأيت .
(٥٧) كأنهم = كأنهن .
(٥٨) اربة = أربعة .
(٥٩) سوكان = سواكن .
(٦٠) الحالف = التحالف .

بين هذه الأنباء وسفر السردار على عجل إلى سواكن صلة ورابطة . وقالوا أنه ما سافر على تلك الصورة وفى قلة من الحاشية إلا لشدة حركة الدراويش وتحفزهم لوثبة قاضية . فأرسلت وزارة الحرب إلى أصحاب بعض الصحف المحلية تقول أن لا علاقة قط بين سفر السردار والأنباء عن سواكن ومصوع ، وأنه إنما هو عائد إلى القاهرة بعد أيام . فأكبر هذا القول الظنون ، ولم تطمئن معه الخواطر .

وكانت المجادلة بين صاحب سياسة الإنجليز وصاحبى سياسة الروس والفرنسيس قائمة على قدم وساق ، فى شأن الأموال التى أنفقت على حملة دنقلة ، من المال المودع فى صندوق الدين المصرى ، من الإحتياطى المحفوظ برسم إستهلاك الديون حسب قانون التصفيه(٦١) . كانت المحادثة

---

(٦١) قانون التصفية = خلال الأشهر الأولى من عام ١٨٨٠ إتفق الخديو توفيق مع الدول الأوروبية الدائنة على وضع نظام مالى لتسوية الديون العامة وبيان طريقة وفائها وكيفية أداء فوائد وأقساط هذه الديون ــ ومقدار ما يخصص لها من إيرادات الخزينة سنويا ، وتحديد علاقة الدائنين بالحكومة . تألفت فى أواخر مارس ١٨٨٠ لجنة للتصفية من عضوين فرنسيين ، وعضوين إنجليزيين ، وعضو واحد عن كل من ألمانيا والنمسا وإيطاليا وهى الدول الدائنة ، إلى جانب عضو عن مصر ـ إختصت هذه اللجنة ببحث الحالة المالية ، وتحضير قانون يحدد علاقات الحكومة والدائرة السنية والدائرة الخاصة بالدائنين ، والطريقة التى يتم بمقتضاها تصفية الديون السائرة وتحديد الإيرادات التى يمكن تخصيصها فى الميزانية للديون بأنواعها ـ مع تحديد المبلغ الذى يمكن تخصيصه لحاجات الحكومة .

فى ٩ يوليو ١٨٨٠ صدر قانون التصفية ـ وكانت أهم أحكامه تحديد نفقات الحكومة بـ ٤,٨٩٧,٨٨ جنيه من الإيرادات بما فى ذلك الجزية التى كانت تدفعها مصر لدولة السيادة سنويا (٦٨١,٤٨٦ جنيه) ـ أما ما يتبقى من الإيرادات أى مايزيد على نصفها فقد كان يوجه للدين العام ــ وكان كل مايزيد من الإيرادات يستخدم فى إستهلاك الدين الموحد . قضى القانون بتخصيص أملاك الدائرة السنية والدائرة الخاصة لضمان دين الدائرة السنية مع وضعها تحت إدارة مصلحة دولية ، وحدد لهذا الدين فائدة قدرها ٥٪ منها ٤٪ بضمان الحكومة و ١٪ فائدة تكميلية تدفع أيضا إذا سمحت بذلك ايرادات الأملاك ــ وكل مايزيد من الإيرادات يخصص بعد دفع فائدة ٥٪ لتكوين مال احتياطى قدره ٣٥٠,٠٠٠جنيه ثم لاستهلاك الدين ــ وقرر القانون تخصيص صافى إيرادات مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط وإيرادات الجمارك بما فيها الضريبة على الدخان لخدمة الدين الموحد ــ كما تقرر ضم دين الدائرة السنية إلى دين الدائرة الخاصة على أن تقوم نظارة المالية بدفع القسط السنوى اللازم لخدمته وقدره ٣٤,٠٠٠ جنيه مع بقاء إيرادات مديرية قنا مخصصة لقرض الدومين بصفة ضمانة ثانية . وقد اعتبر قانون التصفية هذا أساس نظام مصر المالى حتى عام ١٩٠٤ .

ـــ الرافعى(الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٩ ـ ٦٢

لم تقف عند حــــد إلى هذا الحــين . وكـانت المحـاكم المخـتلطه(٦٢) قد

(٦٢) المحاكم المختلطة = نظام قضائى أنشئ فى عام ١٨٧٥ وإختص بسلطة نظر كافة الدعاوى بين الأهالى والأجانب أو بين الأجانب مختلفى الجنسية ماعدا ما يتعلق بالأحوال الشخصية ، وفى القضايا بين الحكومة والمصالح الإميرية والدائرة السنية ودوائر أعضاء العائلة الخديوية وبين الأجانب ، وفى التعديات الإدارية على حقوق مكتسبة للأجانب ، وفى الدعاوى المتعلقة بمسائل وضع اليد فى الأوقاف وصحة الرهن ــ والحكم فى جرائم الإفلاس والتدليس مهما كانت جنسية المتهم مادامت التفليسة نفسها من إختصاص المحاكم المختلطة . إفتتحت هذه المحاكم فى ٢٨ يونيو ١٨٧٥ ــ وبدأ العمل فيها فى فبراير ١٨٧٦ ــ شكلت المحاكم الإبتدائية المختلطة من سبعة قضاة ، أربعة منهم أجانب وثلاثة مصريين على أن يصدر الحكم من خمسة قضاة ثلاثة منهم أجانب ومصريان ــ ويرأس الجلسة قاض أجنبى يحمل لقب نائب الرئيس . أما محكمة الإستئناف فشكلت من أحد عشر مستشارا ، سبعة منهم أجانب وأربعة مصريين ــ والحكم يصدر من ثمانية قضاة خمسة منهم أجانب وثلاثة مصريين ورئاسة الجلسة لقاض أجنبى .

وفى توزيع الإختصاص فى المحاكم الإبتدائية تألفت المحكمة المدنية من ثلاثة قضاة أثنان منهم من الأجانب ومصرى واحد ، كذلك كانت المحكمة التجارية ــ فقط يضاف إليها إثنان من المحلفين ينتخبان من التجار أحدهما أجنبى والآخر مصرى ويشتركان مع القضاة فى المداولة والحكم . وتألفت المحكمة الجزئية من قاض أجنبى واحد ،وكذلك كانت محكمة الأمور المستعجلة .

كانت اللغة الفرنسية هى لغة المحاكم المختلطة برغم أن المتقاضين كانوا من المصريين - فكانت النتيجة هى فقدان وسقوط الحقوق - واعتمد تشريع هذه المحاكم على القانون الفرنسى وبعض القوانين الإيطالية والبلچيكية .

استطاعت المحاكم المختلطة أن تصدر أحكامهاعلى الحكومة المصرية وأن تلزمها بهذه الأحكام . من ذلك ماجرى فى ٢٦ مارس ١٨٩٦ عندما أخذت الحكومة مبلغ ٥٠٠,٠٠٠ جنيه من المال الإحتياطى من صندوق الدين لتغطية نفقات (حملة دنقله) إستنادا إلى الأمر العالى الصادر فى ٢ مايو ١٨٨٨ الذى يقول (أنه يتألف مبلغ إحتياطى لايصح التصرف به من لدن الحكومة إلا برأى أعضاء صندوق الدين) وإلى المادة الثانية من قانون التصفية التى تقول بأن حكم صندوق الدين يكون بالأكثرية ــ وكانت الحكومة قد طلبت من الدول عام ١٨٨٨ إيجاد مال إحتياطى تنفقه فى المصاريف الغير عادية فوافقت الدول . وعندما طلبت مصر هذا المبلغ عام ١٨٩٦ وافق الأعضاء الإنجليزى والألمانى والنمساوى والإيطالى فى صندوق الدين واعترض العضوان الفرنسى والروسى ــ بعد أيام رفع المالى الفرنسى (هربولت وشركاه) قضية على الحكومة وعلى صندوق الدين موضحا فيها أن القرار الصادر من صندوق الدين بأغلبية الأراء كان قرارا غير قانونى ــ ودفعت الحكومة المصرية بعدم الإختصاص إذ إعتبرت المسألة دولية وأنها لم تأخذ المال إلا بقرار من أعضاء صندوق الدين . فى ٨ يونيو ١٨٩٦ أصدرت المحكمة المختلطة حكما يقضى بأن المحاكم المختلطة هى صاحبه الإختصاص وأن على الحكومة أن ترد لصندوق الدين المال الذى أخذته منه مضافاإليه فائدة ٥٪ سنويا منذ يوم أخذه حتى يوم سداده مع إلزام الحكومة بالمصاريف ــ وأمرت المحكمة أعضاء الصندوق بالحجز على أيه مبالغ توجد أو ستوجد فيما بعد من الأموال المملوكة للحكومة وذلك لحين إستيفاء المبلغ ــ وفى مرحلة الإستئناف (٢ ديسمبر ١٨٩٦) أيدت المحكمة الحكم الابتدائى . والتزمت الحكومة المصرية صاغرة ودفعت المبلغ من خزينتها وفوائده نقدا . . .=

حجمت[٦٣] على الحكومة برد سائر ما سحبه جماعة الإنجليز من ذلك المال ، وضربت لها أجلاً . فاختلط الحال على أصحاب الحل والعقد ، وتعذر على الخزينة رد ذلك المال إلى صندوق الدين[٦٤] . وقام أعضاء الصندوق فى شخص العضو الروسى والعضو الفرنسى يطالبون وزير الخزينة برد المال ، ويجذر[٦٥] عاقبة التأخير . وبانت على لورد كرومر علامات الفشل والعجز ، وطال الأخذ والرد بين أصحاب السياسات أياماً ، حتى كان خامس فبراير من السنة أى سنة سبع وتسعين وثمنمائة وألف ، وقف السير (ميكائيل هيكس بينش)

= الجدير بالذكر فى هذا المقام أن الحكومة الإنجليزية أبلغت الحكومة المصرية بصفة رسمية بأنه (فى حالة ما إذا عزمت أن ترد إلى صندوق الدين الخمسمائة ألف جنيه المأخوذة من المال الاحتياطى لسد جانب مما أنفق على حملة دنقلة الاخيرة ، فإن حكومة جلالة ملكة بريطانيا تكون مستعدة لتسليف المبالغ التى لا تستطيع الخزينة المصرية الحصول عليها على شروط يتم الإتفاق عليها فيما بعد من حيث الدفع والفائدة .

وهكذا فإن المحاكم المختلطة كانت تحقق للأوروبيين أطماعهم فضلا عن الحماية والأمان ـ على حساب مصر ـ إنتهى دور هذه المحاكم بإلغائها فى ١٤ أكتوبر ١٩٤٩ .

ـ لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٥ ـ ٧٨ .

(٦٣) هجمت = حكمت .

(٦٤) صندوق الدين = مع ارتباك الحالة المالية للبلاد في سبعينيات القرن التاسع عشر ـ وسخط الماليين الأوروبيين من توقف مصر عن دفع الديون الأجنبية فى أبريل ١٨٧٦ ـ أراد إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) إرضاء الدائنين بوضع نظام يكفل لهم استيفاء ديونهم . فأنشأ ـ استجابة لمشروع فرنسى ـ صندوقا للدين بالمرسوم الصادر فى ٢ مايو ١٨٧٦ ـ مهمته أن يكون خزانة فرعية للخزانة العامة تتلقى المبالغ المخصصة لسداد الديون . خصص لهذا الصندوق إيرادات مديريات الغربية ، المنوفية ، البحيرة ، أسيوط ، عوايد الدخولية فى القاهرة والإسكندرية ،إيراد جمارك الإسكندرية والسويس وبورسعيد ورشيد ودمياط والعريش ، إيراد السكك الحديدية ، رسوم الدخان ، إيراد الملح ، مصايد المطرية (دقهلية) ، رسوم الكبارى ، عوائد الملاحة فى النيل ، إيراد كوبرى قصر النيل ، وإيراد اطيان الدائرة السنية .

نص المرسوم الصادر فى شأن (صندوق الدين) أنه يختص بتسلم النقود المخصصة لوفاء الديون العمومية ـ يتولى إدارته مندوبون أجانب تندبهم الدول الدائنة ـ كما جاء بأحدى مواده حرمان الحكومة من تعديل الضرائب التى خصصت إيراداتها للصندوق تعديلا يؤدى إلى إنقاص الوارد منها إلا بموافقة أغلبية أعضاء الصندوق ـ وأن لاتعقد الحكومة قرضا ولا تصدر افادات مالية على الخزانة إلا لأسباب تقضى بها حاجة البلاد ، وبعد موافقة الصندوق . واختصت المحاكم المختلطة بنظر الدعاوى التى يرى الصندوق إقامتها على الحكومة خدمة لمصالح الدائنين .وهكذا فإنه تكونت فى مصر هيئة مالية رسمية لها كل هذه السلطة والاختصاصات .

ـ الرافعى (عصر إسماعيل) ج٢ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(٦٥) ويحذر = ويحذرونه .

وزير الخزينة الإنجليزية فى وسط دار ندوتهم وقال ، أنه يرى ضرورة تخصيص مبلغ سبعمائة ثمانية وسبعين ألف جنيه وثمنمائة جنيه ذهباً لتعاد إلى صندوق الدين المصرى قيمة نفقات حملة السودان ،وإنشاء الخطوط الحديدية من (حلفا) إلى (أبى حمد) ، لتقف هذه المجادلات المعيبة عند حدها . قال . (وأما ما وقع من تلك المحاكم المختلطة من القضاء على وزارة الخزينة المصرية برد هذا المال إلى صندوق الدين ، فإنه عند البحث فى العام المقبل فيما[٦٦] إذا كان يسمح لها بعد الآن أن تختلس لنفسها الحقوق الممنوحة من الدول لصندوق الدين ، وفيما إذا كان يحق لها أن تحكم بمثل هذه الأحكام أو لا . قال وأما ضرورة إقراض هذا المال إلى الخزينة المصرية ، فسيكون من مسببات إطالة زمن الإحتلال ، بل ومن دواعى إطالته أكثر كثيراً مما كان منوياً عليه ، هو رفض دولة الفرنسيس إطلاق يد صاحب سياستنا فى الأمر وتخويله الحرية المطلقة . ثم إننا نعتبر أن التقدم إلى الأمام فى وادى النيل أمراً لابد منه ولا مندوحة عنه ، ولانحيد عن خطتنا قط بمثل هذه العقبات الضئيلة . على أنه قد أصبح فى حكم المقرر الآن أن تتقدم حملة السودان فى الفصل المقبل إلى (أبى حمد) وربما إلى ما ورائها فى المستقبل القريب ، ولكننا سنبدأ منذ الآن بتأييد حكومة الأمير فى ما افتتحناه من البلاد ، ثم نقيم المعاقل والحصون التى يستلزمها الحال يومئذ) . أ . هـ فما ذاعت هذه الأقوال وأتت بها صحف الإنجليز حتى قامت ضجة أصحاب الصحف المحلية ، وقالوا أن هذه اللهجة الجديدة لهى لهجة تعجيز ومعاياه[٦٧] ، وأرسل قونصلاً الروس والفرنسيس إلى الرئيس مصطفى باشا يقولان ، ما كيفية اقتراض الخزينة المصرية لهذا القرض من الإنجليز ، معما[٦٨] فيه من المخالفة لقانون التصفية المصادق عليه من

---

(٦٦) عند البحث فى العام المقبل = سيبحث فى العام المقبل ما عدلت العبارة ليستقيم المعنى .
(٦٧) معاياه = المعاياة أن تأتى بشئ لا يهتدى به .
ـ مختار الصحاح ـ ص ١٩٥ .
(٦٨) معما = مع ما .

جميع الدول الدائنات للخزينة المصرية . فأجابهما جواباً غاية فى الإبهام والمواربة ، بأن المعاهدات والإتفاقات المالية لم تمسها الحكومة باقتراضها ذلك القرض . وطال الأخذ والرد فى ذلك أياماً هاج فى خلالها هياج الروس والفرنسيس ، حتى خيل للمطلع عليها أن الحرب واقعة لامحالة . حتى لقد قالت إحدى صحف الروس يومئذ ، أنه حان الوقت الذى نقوم فيه مع دولة الفرنسيس بعمل سريع حازم قبل أن يصبح إمتلاك جماعة الإنجليز لوادى النيل أمراً لاينتقض ، وكفى تحرش أولئك القوم بنا على غير مساغ أ . هـ .

سألنى يوماً صديق من أهل المناصب بوزارة الخزينة . ما رأيك فى جواب الرئيس على سؤال قنصلاً الروس والفرنسيس بعد أن صمم صاحب السياسة الإنجليزية على إقتراض خزينتنا ذلك القرض وضرب بمعارضتهما عرض الحائط . فقلت . لقد سمعنا أن النعمة فى كل بلد إذا توفرت صانت أهل المناصب فيه وأصحاب الخطط ، وأنمت فى نفوسهم إستغلال(٦٩) الكثير والإزدراء بالعظيم فى جنب عصمة النفوس ونزاهة المبادئ . إلا فى هذا البلد الأسيف فإن نعمه وخيراته جنايات عليه . فكما أنها هى التى أطمعت ذوى الأغراض والغايات ، فكان من وراء ذلك أن أنقلب الحال وتثقلت البلاد بأثقال الإحتلال ، فهى كذلك التى ضربت على سمع أصحاب الكلمة وبصرهم ، فمالوا إلى معاونة العدو وبيع ذممهم إليه بيع السلعة الخاسرة . فقال صدقت والله ـ أتدعونا دولتان عظيمتان لدولتا(٧٠) الروس والفرنسيس إلى إلتزام جانب الحق الذى فيه مصلحتنا ، وترينا طريق الحياد عن ورطة يجرنا إليها الإحتلال ، فنبذل أقصى ما فى وسعنا لنرد عليهما رد العاجز المتهرب الكاذب ، بعد طول المراوغة والمخاتلة . ونخشى أن نقول لجماعة الإنجليز هاتان دولتان مرهوب جانبهما عظيم شأنهما ، شريكتان فى مراقبتنا ، مصادقتان لنا فى سياستهما ،

---

(٦٩) إستغلال = استقلال قراءة ترجيحية .
(٧٠) لدولتا = كدولتا .

وقد كتبتا لنا بما نراه حقاً صريحاً ، فليس فى قدرتنا أن نجيبهما بغير ما هو الحق . فنحن ولابد كاتبون إليهما بأننا مسيرون بقوة الإحتلال لامخيرون . فإن كان لديهما ما تعملانه فلتجادلانكم فيه ، ونحن بعد ذلك نوافق على ما فيه المصلحة لبلادنا ـ أى نعم وماذا يضير الرئيس وأصحابه إن هم سلكوا هذا المسلك القويم ، وكفوا البلاد شراً يتهددها ، ومحنة تتوعدها فى عاجل قريب . لاضرر والله ، ولا إنك تقول[٧١] أن نعمة المنصب هى التى ضربت على سمعهم ، فلم يسمعوا ، وبصرهم فلم يبصروا ، والله من وراء ما يفعلون أ . هـ . وعندى أنه مهما فعل الروس والفرنسيس وغيرهم من الأمم المعادية لهؤلاء القوم الإنجليز من الحيل لإحباط عملهم فى وادى النيل ، واستخلاصه من براثن الأسد البريطانى ، فلا يقوون على ذلك ، ولاهم مفلحون تجاه ما لهؤلاء القوم من القوة وحسن الحظ وإقبال السعادة عليهم من كل صوب وحدب . ولقد صدق فيهم قول صاحب لى كان كثير المجون ذاكراً فى كل كلامه كثيراً من الزجل والأبيات المثالية وهو :

لا تخشى معادة الأيام ... يابو الليالى السليمه
إضرب عصاتك قدام ... عوجه ترجع لك مستقيمة

على أننا ما سمعنا صيحات أولئك الفرنسيس وجعجعتهم من هنا وهناك ، وحتى خلنا أن قامت الألوف تتلو الألوف ، والصفوف تقارع الصفوف ، والمدرعات تطارد المدرعات ، والنسافات تنسف النسافات . على أن كل هذه الصيحات والزعقات المتتابعات لم تتجاوز درج منابرهم . فإن تجاوزتها فإلى صحائف صحفهم كما فصلنا هذا فى كثير من مواضيع هذا الكتاب ، وكا[٧٢]سيتلى عليك فيره[٧٣] من التفصيل فى محله إن شاء الله .

---

(٧١) ولاأنك تقول = وإنك لتقول الحق عدلت العبارة ليستقيم المعنى .
(٧٢) وكا = وكما .
(٧٣) فيره = غيره .

وكان لما عاد السردار من دنقلة بعد الفتح إلى القاهرة وقد عملت له الأفراح والولائم ، وأدبت له المآدب من كبار الإنجليز وغيرهم على ما مر بك بيانه ، قد كان لورد كرومر أدب له أيضاً مأدبة فاخرة فى النزل المعروف (بنزل كونتيننتال) ، ووقف بين المدعوين خطيباً يطرى السردار ويثنى على شهامته وحين[٧٤] تدبيره وتوفيقه . ثم ختم خطابه بأن فتح دنقلة على يدى كتشنر باشا يعد عند الإنجليز عموماً وأهل المناصب منهم خصوصاً ، بمثابة الحصول على نصف ثأر غردون ، وأنه يرجو أن السردار يأخذ النصف الثانى فيكون قد أخذ بثأر فقيدهم . فنقل هذا المقال يومئذ صاحب جريدة (المويد) المحلية لشيخها على يوسف . فوقعت هذه الصحيفة فى يد التعايشى ، أو بعث بها إليه بعضهم . فلما كان خامس عشر فبراير من السنة ، وثالث عشر رمضان سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف ، جاء الخبر من وراء التخوم بأن عبدالله الخليفة جمع منذ أيام من شهر رمضان جمعا من كبراء القوم ورؤوس القبائل ودعاة المهدوية وعدتهم ألف رجل ، وعبروا جميعاً إلى الخرطوم .حتى إذا صاروا فى الموضع الذى صرع فيه غردون إلتفت إلى القوم وقال لهم (من الذى صرع فى هذا المكان المهيب) قالوا غردون الإنجليزى . فقال (أصحيح ما تقولون؟) فصاحوا كلهم (بنعم) . فلفت إلى كاتبه على يمينه وقال (إقرأ يا مونشير)[٧٥] . فقرأ الرجل الخطبة التى ألقاها لورد كرومر فى مأدبة السردار يوم إنحداره من دنقلة ظافراً . فلما أتم الكاتب قراءتها إلتفت الخليفة عبدالله إلى القوم وقال (إعلموا أن جماعة الإنجليز قد خدعوا الدنقلاويين وغشوهم حتى سلموا أنفسهم واستكانوا لهم ، ولكن القوم لطف الله بهم قد عادوا إلى رشدهم ، فتحققوا أنهم ضلوا سواء السبيل ، وهم الآن يعانون الذل ، ويسامون الخسف ، ويذوقون الأمرين ، حتى

---

(٧٤) وحين = وحسن .

(٧٥) مونشير =Monchere كلمة فرنسية تعنى (ياعزيزى) ــ ومن المشكوك فيه أن يكون هذا المصطلح الفرنسى قد صدر عن عبد الله التعايشى .

لقـد صـودرت أمـلاكـهم ، وأخـذت أمـوالهم ، وكل هذا فى نصف ثأر غـردون الإنجليـزى كمـا ترونه صريحاً فى خطاب كرومر عميـدهم فى ديار مصـر ، أما النصف الثـانى ،فـأنتم المطالبون به . وما أنا إلا واحـد منكم ، فـإن سـعيـتم إلى حتفكم بظلفكم كما سعى الدنقلاويون ، فسوف يحل بكم ما حل بهم ولات ساعة مندم ، فالتفتوا رعاكم الله وخذوا الأهبة وتذرعوا بالصبر واسالوا الله الغلبة والظفر بأولئك الغابين[٧٦]) . قال الراوى ثم صاح (الله أكبر الله أكبر على من طغى وتكبر) فكرر القوم ندائه ، ورجعوا إلى حيث أتوا .أ .هـ يقولون كانت كتب أصحاب التعايشى تأتى إلى جماعة من أصحاب التجارة بالقاهرة ومصر القديمة وإلى غيرهم من مجاورى الأزهر السود الذين لم يتمكنوا من العودة إلى ديارهم بعد مصرع غردون ، ولم نعلم كيف كانت ترد هذه الكتب إلى هؤلاء الناس وقد سد السردار على أصحاب المهدوية سبل الوصول ، وأزكى عليهم العيون ، وأقعد لهم بالمراصد . ومع هذا كله فقد كنا نسمع بخبر الواقعة أو الواقعتين بالقاهرة قبل أن يخبر به السردار أو قلم المخابرات ووزارة الحرب ، بل كنا إذا سمعنا نبأ مكذوباً من وزارة الحرب سـمعنا بالصحيح منه بعد قليل من أولئك الناس . بل كنا نسمع الباعة والسوقة يتحدثون بشىء من خفايا التخوم وأسرار الحملة الخافية على أهل المناصب العالية من غير الإنجليز . فكان ذلك من عجائب الأمور . وقد أزاد الظنون سفر الجنرال (نولس) قائد جيش الإحتلال إلى سواكن مساء عشرى فبراير من السنة ، خامس عشر رمضان . فجعل الناس يتكنون[٧٧] بما عساه أن يكون من وراء سفره . حتى لقد كثر غدو ورواح لورد كرومر بين دار الوزير وديوان الوزارة . واجتمع الوزراء مراراً كثيرة فى دار الوزير على غير عادتهم ، ولازم أصحاب الصحف باب الوزير لعلهم يعرفون شيئاً من مسببات هذه الحركة فلم ينالوا أرباً . غير أن بعضهم أخبرنى بأن هذه الحركة ناجمة عما هو واقع بين

(٧٦) الغابين = الغاصبين قراءة ترجيحية .
(٧٧) يتكنون = لعلها مشتقة من (كنه) ـ فكنه الشئ نهايته ـ يقال أعرفه كنه المعرفة ـ
ـ مختار الصحاح ص ٢٤٢ .

الرئيس وبعض الوزراء من الخلاف . فإن الرئيس يرى أن كل جدال يحصل فى شىء مما يطلبه جماعة الإنجليز أو يشير به لورد كرومر عميدهم فهو عداء للإنجليز ، وبغض لسياستهم . وإذا كان ذلك ، فهو عداء لشخصه وحط لكرامة منصبه . وذلك البعض يرى أن الجدال أمر واجب ، وأن تمحيص كل طلب من طلبات أولئك القوم الإنجليز ضربة لازب ، وإلا كانوا عالة على كاهل أهل البلاد الذين يتناولون جماكيهم من عرق جبينهم . قال . ومن هؤلاء الوزراء بطرس باشا غالى ومظلوم باشا . قال . ولكن أنى لهما أن ينالا من ذلك الشيخ الإنجليزى الذى قد قلبه من حجر جلمود .

وشاع فى هذه الأثناء خبر تخلى الرئيس عن منصب الرئاسة ، ووقوع الوحشة بينه وبين مولاه الأمير . وتحقق الخبر بانقطاعه عن ديوانه وتحجبه فى داره أياماً . وتكلمت الجرائد فى ذلك ، وتمنى بعضهم لو سقط الرئيس ، فإن فى سقوطه تفريج للأزمة المحيطه بالبلاد ، وتخفيف من شدة عميد الإحتلال وغطرسته . وقال بعضهم متهكماً (لقد سمعنا كثيراً فى معنى تخلى هذا الرئيس عن منصبه ، ولكننا نعلم عن ثقة أن وزراءنا عافاهم الله عاقدى النية على البقاء فى مناصبهم ولو مشى الإستعباد من أمامهم وخلفهم ،وعن يمينهم وعن شمالهم بصورة أظهر مما عليه الآن ، لأنهم لايظنون(٧٨) بشرف عهودهم ولا يعتزلونها ، إلا بعد أن يتموا صفقة البيع التى اشتروا بها مناصبهم) . واتسعت هوة الخلاف بين الرئيس ومولاه ، إذ كانت عيون الأمير وجواسيس ديوان الإمارة تنقل له عورات الرئيس ما شاؤا إن كذباً وأن صدقاً ، حتى أحرجوا صدره وأفرغوا صبره . وكان دعاة الحزب الوطنى وعظيمهم مصطفى كامل أكثر عيون الأمير عداءاً للرئيس وأعوانه والملتفين حوله من أصحاب الوظائف . فكانوا لايكفون عن تقريعه وتجريحه والشمات به كلما حاول عملاً أشار به عميد الاحتلال ، فيردونه عن كله أو جله خائباً . فإذا تعذر عليهم رده عن قصده بغمزهم ولمزهم ،

(٧٨) يظنون = يضنون قراءة اجتهادية .

إستعانوا عليه بكتاب الصحف الأجنبية التى إستأجروها لهذه الغاية فتسلقه بألسنة حداد . فيتوجع ويشكو حاله إلى العميد ، ويتهم الأمير بتعضيد أولئك الخصوم ومؤاساتهم ، وحملهم على تبغيض الناس له وإغفالهم شأنه ، ليسقط من عرش رياسته ، والعميد يواسيه ويخفف عنه . وظهر فى هذه الآونة صوت شيخ صحيفة المؤيد(٧٩) ، وارتفع عالياً بتقبيح أعمال الرئيس ورميه بالتهم الشائنة والحط من كرامته . ولما كان ذلك الشيخ من الملتصقين بباب قصر الإمارة المدعين العلم بأسرار عرش الأمير ، تحقق للناس أن هذه الضجة موحى بها من عزيز مقتدر ، وأنها لا تلبث أن تعظم وتكبر فلا تبقى على الوزير ولا تذر . وكان مما إتهموا به الرئيس مصطفى فهمى باشا قبوله العمل بمقتضى قرار (مؤتمرّ البندقية) القاضى بإبطال خروج الحجاج إلى بيت الله الحرام بتاتاً فى هذا العام تفادياً من دخول الوباء معهم إلى مصر ، وتفشيه فى القارة الأوروبية بواسطة نقل التجارة ومرسى السفن والبواخر فى المياه المصرية . يقال وكان هذا الرأى من أكبر أمانى لورد كرومر وأحبه إليه ، فرسم إلى الرئيس بتنفيذه والعمل به . فما هى أن ظهرت رغبة الرئيس فى ذلك حتى أخذته صيحة دعاة الحزب الوطنى من كل جانب . وتناولته الصحف على إختلافها ، ونادوا (بالنجدة الأمير) (بالدفع هذا الشر الكبير) . وظل الحال على هذا حتى عقد الأمير مجلس الوزراء . وتناجوا فى الأمر طويلاً ، حتى تقررت القاعدة على أن لايحج فى هذا العام إلا أهل اليسار ومن كان قادراً على نفقة الحج من العامة . وضربوا على كل واحد منهم جعلاً مقدراً من المال يودعه أمانة فى خزينة الحكومة كضمان لها على قدرته على الحج ، ولاسيما إذا ضرب عليه الحجر الصحى فى المحتجرات . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ، فعدل الكثير من طالبى الحج عن قصدهم ، وداخل الناس من جراء ذلك حزن عظيم ، وعاد إلى بلده كل من حضر منهم إلى القاهرة لتجهيز معدات السفر ، وتلاك من

(٧٩) يقصد الشيخ على يوسف .

تلاك[٨٠] . وسافر جماعة منهم إلى مدينة السويس ليبقوا بها حتى يسافروا مع ركب المحمل خفية ، فردوا على أعقابهم ، يخفرهم أصحاب الشحنة . فكانت حالهم تذكرة وعبرة لمن يريد الحج فى ذلك العام .

وأصبح يوم الجمعة خمسة مارس من السنة ، وأول شوال سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف ، وسابع عشرى أمشير سنة ثلاث عشرة وستمائة وألف ، وقد أطلقت المدافع فجراً من قلعة الجبل وميدان العباسية إيذاناً بعيد الفطر . وكانوا قد عملوا على إثبات رؤية الهلال غروب يوم الخميس ، وقعدوا لذلك بالمراصد ، فلم يتمكنوا من رؤيته ولم يحكم قاضى القضاة بصحة الدعوة . فانحدر الأمير بعد أن صلى صلاة العيد بمسجد القبة إلى الإمارة بعابدين . فدخل عليه الأمراء والوزراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط من كل صنف ورتبة بملابس التشريف الكبرى ، فلم نره باشا ولا عاطفاً نحو المقربين من بابه ، بل كان باهتاً مفكراً قليل الكلام كأنه مغلوباً على أمره ، وربما كان هذا العبوس وذلك التفكير مترتب على ما أزاعته[٨١] بعض صحف الإحتلال من أن فى وقوع هذا العيد فى يوم الجمعة وخطابة خطبتى الجمعة والعيد فى يوم واحد تشاؤم وتخوف على حياة الأمير . فلقد تحدث الناس فى ذلك كثيراً وتطيروا من وقوع هذا ، وجعلوا يراقبون الحوادث ويتنسمون الأخبار على عاداتهم عند تفشى مثل هذه الأنباء الكاذبة والظنون المشوشة . ويقولون أيضاً أنه لما كانت الوحشة بين الأمير ولورد كرومر قد بلغت إلى هذا الحين سوءاً[٨٢] بعيداً ، وكان أهم سعى اللورد إنما هو الحط من كرامة الأمير وإماتة فضيلة الكرامة من قلوب الرعية وتبغيضهم فيه ، قد أوعز إلى السير غورست مستشار وزارة الداخلية أن يسير كتبه إلى مدير إقليم الشرقية بمنع سائر مشايخ العربان من الحضور فى

(٨٠) وتلاك من تلاك = وتلكأ من تلكأ .
(٨١) ازاعته = أذاعته .
(٨٢) سوءا = شأوا قراءة ترجيحية .

تشريف العيـد ، وأن يحظر عليهم ذلك . فأزعنوا[٨٣] ولم يجسـر أحدهم على الحضور على العادة المألوفة . وعلم الأمير بما فعل المستشار فأكبر الأمر وأعظمه جداً .قالوا وكلم الرئيس فى ذلك وعاتبه طويلاً والرئيس يتبرم ويظهر عدم العلم بشىء مما وقع . أقول وهذا يشبه ما وقع من (مصطفى رياض) على عهد رياسته أيام الخديوى توفيق سواء بسواء . وذلك أنه لما اتسعت هوة الخلاف بين الرئيس والخديوى توفيق ، وهانت على الرئيس نكاية الخديوى بتعضيد دعاة الإنجليز وجواسيس ساستهم الذين نفخوا فى إضرام الفتنه العرابية يومئذ ، كان إذا أقبل الخديوى على أحد أصحاب الوظائف أو أهل المناصب وقربه من بابه ، عمد مصطفى رياض باشا إلى التنكيل به والضرب على يده بحق وبغير حق ، وربما أقصاه وفرق بينه وبين باب الأمير ، أو إذا رسم الخديو بجعل تشريف الأعياد والمواسم الكبرى عاماً يدعون إليه سائر المأمورين وأصحاب الخطط وعمد ومشايخ العربان وكل وجيه من أهل البلاد ، عمد مصطفى رياض باشا إلى منع القوم من الحضور وسد عليهم سبيل الوصول وحذر المديرين من التصريح لأحدهم بالمجئ إلى القاهرة أيام الأعياد . فكان توجع الخديوى توفيق وتألمه من هذه الإهانة شديد كما فصلناه فى محله ، فارجع إليه إذا شئت تجد فعل العميد[٨٤] مع الأمير اليوم كفعل رياض باشا مع أبيه سواء بسواء ، فتأمل .

وكان إلى هذا العهد قد توترت العلايق بين السلطنة العثمانية ودولة اليونان بسبب المطامع اليونانية فى ضم جزيرة جريد[٨٥] إلى أملاكها ، وتعضيد بعض الدول إليها من وراء حجاب . ثم حصل الأخذ والرد بين الطرفين على

---

(٨٣) فازعنوا = فأذعنوا .

(٨٤) العميد = الرئيس - قراءة ترجيحى .

(٨٥) جريد = كريت . جزيرة كبيرة فى البحر المتوسط تقع بين جنوبى اليونان وتركيا ، وتفصل بحر إيجه عن البحر المتوسط . أكبر الجزر اليونانية - يبلغ عدد سكانها وفقا لتعداد (١٩٨١) حوالى نصف مليون نسمة - يتكلمون اليونانية ويدينون بالمذهب الأرثوذكسى - إستولت عليها الدولة العثمانية من البنادقة عام ١٦٦٩م . لكن أهل اليونان التابعة للدوله دأبوا على تحريضهم على الثورة - فى عام=

أشدهما حتى جعل كل يعد أهبته للحرب والقتال . وبرز أمر السلطان بحشد الجيوش واستقدام الغائبين منهم . فهب العثمانيين على اختلاف مواطنهم يجمعون الأموال تبرعاً لنفقة الحرب إذا قامت . فشكلوا اللجان لجمع التبرعات ، وقام من فى القاهرة من جماعة الباشوات وألفوا لجنة برئاسة مصطفى رياض باشا ،وجعلوا لها فروعاً أخرى فى بعض المدن فى الإقليمين البحرى والقبلى ، فجمعوا قدراً من المال وسيروا بخبره إلى المابين الهمايونى ،فجاءهم جواب رئيس المابين يتضمن محظوظية أمير المؤمنين وشكره لأولئك المتبرعون . وكان إلى هذا الحين لم تبد من الأمير رغبة فى التبرع لجيش متبوعه بشىء من المال أو معدات القتال . وكان لورد كرومر على ما وصفنا من معاداة الأمير والعمل على التفريق بينه وبين رغبة رجال دولته ،فضلاً عن متبوعه ،وإنماء بذور البغض التى ألقاها هنا وهناك . فما هى أن بدت هذه الغلطة التافهة عن قصد أو غير قصد ،حتى دفع أصحاب الصحف الناطقة بلسانه ،فجعلوا يقبحون ما فعله الأمير ويتهمونه بكره متبوعه والحط من كرامة التابعية ، حتى قالوا أنه ليتمنى من صميم قلبه إندحار العساكر السلطانية فى تلك الحرب المنتظرة ، وخروج سائر الولايات التابعة لدار السلطنة من قبضة

= ١٨٦٨ اضطرت الدولة العثمانية تحت ضغط ثورات الجزيرة إلى تشكيل مجلس وطنى منتخب يمثل أغلبية السكان الذين كانوا من اليونانيين ـ ثارت الجزيرة عدة مرات بتحريض من اليونان التى كانت تطالب بضمهاإليها . فى عام ١٨٩٧ نزل جيش يونانى فى الجزيرة ـ فأعلنت الدولة العثمانية الحرب فى ١٧ إبريل ١٨٩٧ على اليونان واحتلت المضايق الموصلة إليها ـ واحتلت مدن ترنوڤو ـ لاريساـ ثغرڤولو ـ ومدينة تريكالا . مع انتصار الأتراك فى (تساليا) خشت الدول الأوروبية توالى الإنتصارات العثمانية بما يؤدى إلى إعادة اليونان تحت الحكم العثمانى بعد أن أصبحت أثينا تحت رحمة الجيش العثمانى بقيادة المشير أدهم باشا .تدخلت القوى الأوروبية لوقف القتال فى مايو ١٨٩٧ ـ وقررت جلاء الجيوش التركية عن كريت ـ وأحلت محلها حاميات دولية لحفظ الأمن بعد أن يقام فيها حكم ذاتى تحت السيادة الإسمية العثمانية ـ وتم تعيين الأمير چورج أحد أبناء ملك اليونان حاكما على كريت ـ إنضمت كريت إلى اليونان عام ١٩١٢ .

ـ أواق مصطفى كامل (المقالات) تحقيق يواقيم رزق مرقص ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤٨ ـ٢٤٩ ، ٢٥٧ حاشية ٢ .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٨٣ ـ ٢٨٨ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 5. - p..342.

السلطان حتى تزول هيبته وتسقط منزلته بين الدول . قالوا . ولولا تقييده ـ يعنى الأمير ـ بسيطرة الإحتلال ومنع تصرفه فى كل ما هو من وراء الباب ، لهُمَ بالخروج وشق عصا الطاعة كما فعل أجداده من قبل ، وقالوا غير ذلك كثير . فما هى أن شاعت أقوالهم حتى أحس الأمير بما وراء ذلك من الكيد الكبير ، فسير كتبه إلى المابين ومعها قدراً من المال ليس بقليل . واهتم القوم بجمع التبرعات فى القاهرة وسائر المديريات ، وأكثروا من اللجان تسهيلاً على المتبرعين ، فكان منها بالقاهرة ومصر القديمة ثلاثين لجنة ومايتين بالمديريات . وتتابعت كتب رياض باشا إلى سائر اللجان بالحث على العمل ، حتى لقد أقاموا لجنة نسائية أيضاً ، فكان نجاحها باهراً على ما يقولون ، إذ كان تبرع السيدات قدراً عظيماً من المال . وعلقوا فى كل مسجدمن مساجد القاهرة ومصر صندوقاً صغيراً مكتوب عليه هذه العبارة .(حب الوطن من الإيمان) .(من أحب الله ورسوله وخليفته فليهد شيئاً من ماله لهذا الصندوق) ،فلم يقبل العامة على هذا العمل ولا أحلوه محلاً لقلة ذات اليد وصعوبة العيش فى هذه الأيام ،إلا القليل من الباعة وأصحاب الحوانيت . فقد كانوا يتبرعون بما تصل إليه قدرتهم . فلما بلغت العناية بجمع هذه التبرعات أشدها ،وبان للناس فلاحها ،وإرتفعت أصوات أصحاب الصحف المحلية بإطراء عمل المصريين والثناء عليهم لتعلقهم بعرش الخلافة وتمسكهم بالتابعية إلى أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد ،إنقلب أصحاب صحف الإنجليز على المصريين عموماً ، والأمير وسائر الباشوات خصوصاً ، يهزأون بهم ويسخرون من أعمالهم ، ويتوعدونهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، حتى لقد قالوا أن الناس يكرهون على دفع التبرعات إكراها معيباً ،وأن كتب مصطفى رياض باشا إلى المديرين والمأمورين مفعمة بالتشديد على إكراه الناس وإرغامهم على التبرع . وتفشى هذا القول بين الناس فلقى من نفوسهم منبتاً خصيباً وأذناً صاغية .يقال وشكا بعض الناس إلى وزارة الداخلية مما يلاقونه من الشدة والإكراه على التبرع من

ولاة الأمور ، واسترحموها فى دفع هذه المحنة عنهم . فسير الرئيس مصطفى فهمى باشا كتبه فى ثامن عشر مارس من السنة ، رابع عشر شوال سنة أربع عشرة إلى سائر المديرين والمحافظين ينهاهم عن التداخل فى هذا الشأن ، ويحذرهم من مكالمة الناس فيه بتاتاً . ويقول أن الناس أحرار فى التبرع ، إن شاؤا تبرعوا ، وإن شاؤا أحجموا ، ولا لوم عليهم ولا تثريب . وكان لورد كرومر قد كلم فى ذلك الرئيس ، وعاب على مصطفى رياض باشا تشديده على اللجان بالتعجيل واستدعاء الناس بلا فارق إلى التبرع ، وقال أن حال العامة وأهل البلاد لا يحتمل هذا التثقيل المستفز للهرج ، وأنه ماذا يضر جماعة الباشوات الذين تألفت منهم تلك اللجنة العليا أن يجودوا من مالهم فى محبة وطنهم ، ومحبة الله ورسوله وخليفتهم ، والله يعلم من أى الطرق وصل إليهم هذا المال ، وينكفوا عن سوم الناس هذا الخسف ، وتثقيلهم بهذه المحنة التى ما أنزل الله بها من سلطان . وقابل أعضاء هذه اللجنة العليا الأمير فى قصر الإمارة ورفعوا إليه واجب الشكر على ماتبرع به من ماله لصندوق اللجنه أيضا . فكبر الأمر على لورد كرومر وزاد امتعاضه . قيل فعاود الرئيس فى ذلك وخاشنه . فكان الرئيس يتبرم ويظهر العجز ويقول أن لاقبل له على منع هذا الأمر ، وقد جعلوا له صبغة دينيه فاستحكمت . قلت . وقد ابتلت الطبيعة — أى طبيعة هذا البلد الأسيف — عمد ومشائخ قراه بوصمة التنافس والتظاهر الباطل والتحاسد الممقوت منهم . فهم إذا دعى أحدهم إلى عمل كهذا فلا ينظر فيه إلى وجه الله تعالى ، بل إلى التفاخر والظهور المعيب . فيعمد على قلة مافى يده إلى بيع بقرته أو ثوره أو دابته التى يركبها إن كان له شىء من ذلك ، أو إلى سوار حليلته ويدفع ثمنه إلى الموكلين ، فإذا علم بأن فلانا جاره الذى هو أقل منه ظهورا وأصغر كرامة على زعمه قد تبرع بشىء أكثر ، عرته رجفة الأنانية الكاذبة ، وأمسك شيطان الحسد بتلابيبه وقاده إلى حتفه ، فيرهن مزرعته أو يبيع بعضها بأبخس الأثمان ، ويدفع ماحصل عليه بذلك إلى الموكلين بالعمل . ولم هذا

كله؟ هذا لكى يقال فى صحف الإخباريين (قد تبرع السرى المفخم والمحسن الكبير المعظم، والوطنى الغيور على الدين، القائم بحفظ كرامة الإسلام والمسلمين عين أعيان بلدة كذا، بقدر من المال تبرعا إلى لجنة الاعانة الفلانية، أكثر الله من أمثاله وضاعف الزيادة فى أمواله والخير فى أعماله) ــ فإذا قضى وطره، ثاب إلى رشده إن كان فيه مسحة من العقل، أو ظل يعلل نفسه بالأمانى ويحدثها بنوال لقب من ألقاب الشرف أو نيشانا من نياشين الإعتبار. فإذا نال شيئا من ذلك قل على مابقى عنده من حطام الدينا السلام، واحتسبه فى عداد الهالكين كما سيتلى عليك حديث أولئك المتهالكين فى شراء الرتب والنياشين فى محله من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. فاصبر والله مع الصابرين. وعندى أن هذه الإعانة التى قد تبرع بها القوم وتنافسوا فى الإقبال عليها ليست إلاعين تلك التى كان السلطان عبد الحميد قد بث دعاته فى طول السلطنة وعرضها لاستنهاض الهمم على جمعها فى حالتى الحرب والسلم، وأنها جارية فى مجراها إلى أن ينقطع العطاء ويكتفى كل بما وهب. ولذلك فقد جعلوها إعانة خصوصية لغرض إجتماعى دينى. قالوا وهى لأجل أن تتقى بها السلطنة والخلافة الإسلامية مصايب الزمان وكوارث الحدثان التى شرها ما يكون من التخاذل الجالب للخسران. قالوا وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً). قالوا، ولما كانت أحوال السلطنة السياسية والمالية خصوصاً فى الأوقات الحاضرة تقضى على ذوى النخوة والمروءة والغيرة الملية المبادرة ببذل المساعى فى تلطيف تلك الحالة ومعونتها، وجبت الإعانة حتماً لحفظ سلامة الإسلام والمسلمين. فكان لذلك الإهتمام بأمرها كبيراً، وكان ما اجتمع منها شيئاً كثيراً. فلم يرض جماعة الإنجليز ولم يعجب لورد كرومر، فكان ما كان بينه وبين الرئيس مصطفى فهمى باشا على ما مر بك بيانه فى محله. ولقد أخبرنى أحد الثقاة المقربين من باب الوزير أنه كان يرى يومئذ من الرئيس إنقباضاً ظاهراً وامتعاضاً

محسوساً عندما كانت عيونه تأتى إليه بخبر إهتمام الناس بهذه التبرعات وإقبالهم عليها بحث من مصطفى رياض باشا واستنهاضه لهم ، وأن الغيظ من جمع هذه التبرعات قد بلغ من جماعة الإنجليز سسواء[٨٦] بعيداً ،حتى لقد كانوا يرجون أن يكون من وراء هذا الحادث الكبير من نوعه على عهد الإحتلال إنفجار بركان صبرهم ، والنداء على رؤوس الملأ بأن الحركة تعصبية دينيه ، ولكن لم يحصل شىء من ذلك . وعجل الرئيس بإرسال كتبه إلى المديرين والمحافظين بامتناعهم منعاً باتاً من إكراه الناس على التبرع والكف عن كل ما من شأنه إظهار ميل الهيئة الحاكمة إلى مصادرتهم فى حريتهم والضغط على أميالهم . قال فما تفشى خبر ذلك بين الناس حتى أحجم الكثير من أهل البلاد عن إجابة دعوة أولئك الدعاة الذين كانوا قد انبثوا فى طول البلاد وعرضها ، بل واهتم جماعة باسترداد هباتهم وألحوا على الموكلين بردها فلم يفلحوا . وشاع خبر ذلك وتحدثوا به فى هيئة لجنة الإعانة العليا بدار عمر لطفى باشا ، فكان وقعه سيئاً جداً ،حتى لقد أقسم بعضهم أن يعاقب الرئيس مصطفى فهمى باشا ويعيب عليه فعاله وبجحه ، ويلقى عليه كل تبعة .فاشتد الأخذ والرد بين المجتمعين ، وأخذت الحدة أحدهم فاخرجته عن طريق التعقل والرزانة إلى مضائق السباب والإهانة .والجماعة بين مستحسن ومستقبح ومتخوف وشامت . وظل الحال على هذا ساعة أو تزيد حتى استحلفهم عمر لطفى باشا أن يكفوا عن الكلام ويتركوا له فض هذه المحنة المتوحمة على إثارة الفتنه من أقرب الأبواب ، فأجابوه إلى ذلك . قال والعجب من مصطفى رياض باشا كيف كان يرى فى عمله من بث الدعاة فى البلاد ، والتشديد على المديرين بالعناية بجمع التبرعات وتحريض الخلق على الإقبال عليها أنه عملاً صالحاً ، بعد الذى وقع من الرئيس من تحذير الحكام وتهديدهم أن هم أكرهوا الناس على إعطاء شىء إلى دعاة اللجنة ، أو هم سهلوا لأولئك الدعاة سبل النجاح ، حتى

(٨٦) سسواء = شأوا قراءة ترجيحية .

ظل على هذا إلى أن تفشى خبر امتعاض الرئيس وجماعة الإنجليز من جمع هذا المال ، وحمله إلى الجيب السلطانى أو المرجع الخليفى ، كما كانوا يقولون ، فانكمش الناس وأعرضوا عن كل طلب . وقام بعضهم فى وجوه عمد ومشايخ البلاد يهددونهم بالشكوى إلى وزارة الداخلية إن هم عادوا إلى مطالبتهم بشىء من ذلك أ . هـ .

وأمسى أصحاب الصحف المحلية وأصبحوا ولا هم لهم إلا ذكر أسماء المتبرعين ومقدار ما تبرع به كل منهم ، وخبر تشكيل اللجان فى الكثير من البلاد . وبالغوا فى القول ، وأكثروا من الإطراء والمدح ، وقد أذهلهم الغرض . فكانوا إذا ذكروا شيئاً من ذلك اليوم عادوا فكرروه غداً مشوها ، وأعادوه بعد غد ، وبعده أيضاً حتى كره الناس الإعانة واسمها ، وسئمت نفوسهم من سماع أخبار اللجان وإقبال الناس على هذا العمل المشكور والأثر المبرور وكليمات الإطراء والتعظيم التى ولابد وأن يحاط بها إسم المتبرع ، ولو كان من السوقة وعامة الناس وأصحاب المهن الحقيرة . فلقد كان لى خولياً فى مزرعة لى ببنى سويف إحدى مدن الأقاليم الوسطى قد ابتلى بحب السلطان وعسكر السلطان ووزراء السلطان . وكان كثير الصلاة ملازماً لذكر الأوراد والأحزاب التى يتلقاها عادة أمثاله عن مشايخ الطرق والمعممين ، وقد علم بخبر الإعانة وتشكيل اللجان وتطواف الدعاة فى البلاد . فجاءنى يوماً وعلامات السرور بادية على وجهه وقال أستحلفك أن تأذن لى بعشرة قروش معجلة من جامكيتى أتناولها اليوم . فقلت ولم هذا التعجيل يا إبراهيم؟ قال أخبرنى جارى فلان أن جماعة من مصر حضروا منذ أيام من ناحية السلطان عبد الحميد يجمعون من أهل الخير مالاً لعساكره المنصورة المحاربون لقرانات(٨٧) النصارى أعداء السلطان . ولا خفاك

(٨٧) تحريف مصرى لكلمة (قرال) التركية ـ كانت تطلق فى الدولة العثمانية على الملوك المسيحيين من غير الأباطرة ـ والكلمة أصلها صقلبى دخلت التركية .
ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

أنى مسلم وموحد بالله ، ولا شىء عندى أعظم ثواباً من هذه العشرة قروش ، فاوهبها لى أو إقرضنى إياها واجعل مهلتها آخر الشهر . فقلت قد وهبتها لك يا إبراهيم فخذها ،وناولته العشرة قروش ،فأخذها وتركنى مهرولاً .وما هى إلا أيام حتى قرأت فى إحدى هاتيك الصحف فى باب أخبار الإعانة العسكرية ما نصه(وتبرع التقى المحسن المركم[٨٨] صاحب اليد البيضاء الشيخ إبراهيم زعتر من أهالى بنى سويف بعشرة قروش صاغ مصرية) . فقلت فى نفسى سبحان الله ، لو علم إبراهيم أنه بهذه العشرة قروش قد نال كل هذه النعوت المباركة لتبرع بكل ما فى صومعته من طعام صبيته وكساء زوجته ، وهو يقول الحمد لله أن حالتى اليوم ليست كحالة معارفى وجيرانى ، ولا كحالة الذين غابت عنهم سبيل الوصول إلى هذه الأمانى . أقول أيضاً ولابد لكل مخلوق آدمى من أن يحب ذاتاً من الذوات أو شيئاً من أرشياء[٨٩] ، أو معنى من المعانى ، وكل ما زاد حبه فى قسيم منها نقص فى قسيمه الآخر ، وقد يكون أحدها سبباً فى زيادة حبه للآخر . وصاحبنا إبراهيم قد كلف بحب السلطان ، فكان حبه له سبباً فى زيادة حبه لعساكره ، فتبرع لنجدتها بما وصلت إليه قدرته . فكان عمله مشكوراً ،وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ ما نوى .ومن عجيب الإتفاق أن ديوان الزروعات على عهد الخديوى إسماعيل المعروف (بالدايرة السنية)[٩٠]

(٨٨) المركم = المكرم .

(٨٩) ارشياء = الأشياء

(٩٠) دائرة أملاك الخديو إسماعيل الخاصة ـ أدخلها عام ١٨٧٠ كضامنة لقرض من القروض العديدة التى اقترضها.بعد أن حظرت عليه الدولة العثمانية الإقتراض بغير إذنها بمقتضى فرمان ١٨٦٩ ـ فاستدان فى أبريل ١٨٧٠ من البنك الفرنسى المصرى مبلغ ٧,١٤٢,٨٦٠ جنيه بضمان أطيانه الخاصة (الدائرة السنية) ـ راحت هذه الممتلكات سدادا لديونه قبل عزله فى يونيو ١٨٧٩ وتحولت إلى أراضى (الدومين) وقامت على إدارتها هيئة أجنبية خاصة ـ وقد كانت توجد فى عهد إسماعيل سبعة دواوين لإدارة الإقطاعيات الخديوية المختلفة (الدوائر السنية) ـ كان أكبرها دائرتان هما (الدائرة الخاصة) و (الدائرة السنية) أما الدوائر الأخرى فكانت (دائرة الوالدة) أى والدة إسماعيل ـ (دائرة الفاميليا Daira della Famiglia)وملكيتها عامة لمختلف أفراد الأسرة الخديوية ـ (دائرة توفيق) ـ ودائرتان أخريان لإدارة أملاك أبنائه القصر .

ـ الرافعى (عصر إسماعيل ـ ج٢ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٢ ـ ٥٤ .

ـ چون مارلو (تاريخ النهب الإستعمارى لمصر ١٧٩٨ ـ ١٨٨٢) ترجمة عبد العظيم رمضان ـ كتاب الساعة ـ الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٦ ـ ص ٢٣٣ ، ٢٦١ حاشية٧ .

وهو اليوم فى حيازة الحكومة ، تعامل ما كان على الخديوى من الديون ، رأى كباره فى هذه الأيام أن يشتروا قدراً من المدى (سكاكين) لاستعمالها فى قطع قصب السكر تخفيفاً على العمال . فلما شرعوا فى ذلك تعذر العمل بتلك المدى ، وطلب الموكلون الرجوع إلى استعمال الفؤوس ،فأجابهم أهل الحل والعقد إلى ذلك ،وأذنوا ببيع تلك المدى صفقة لمن يريد . فاشتراها أحد الأجانب وجعل يبيعها للناس ، وطاف بها جماعة من الأهلين فى الشوارع والحارات ينادون الشارين . فما هى أن راجت هذه السلعة حتى قام أصحاب الإحتلال ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . ويقولون أن العامة على قدم الثورة والخروج على النزلاء اليونان وقطع شأفتهم . وقد دفعتهم الحكومة إلى ذلك بما باعتهم من السكاكين وهيأته من جمع الأموال ، وبث من الدعاة فى طول البلاد وعرضها . وتفشت أقوالهم هذه ، وتناقلها النزلاء على إختلافهم ، وقد ألبسوها لوناً من الحقيقة . فخاف جماعة اليونان ونزح الكثير ممن كان منهم بالقرى والبلدان إلى القاهرة والإسكندرية نفوسهم[٩١] من رؤية العامة ، ومخالطة السوقة على عادتهم . وظن زعر العطوف وزعانف بولاق مصر أن فى بيع تلك المدى سراً يتصل بجمع الإعانات لجيش السلطان ، وأخذ الأهبة لقتال اليونان ، فكثر إجتماعهم على رؤوس الدروب والحارات وهم فى قهقهة وتصارع وشتم وسباب بعضهم لبعض .وكان إذا مر بهم صاحب قبعة أشار إليه بعضهم أو صاحب الكلمة بينهم إشارة الذبح ، بأن يضع ساعده فوق الآخر ويجره عليه جرات سكين الذبح على رقبة الذبيحة .فأكبر النزلاء فعال هؤلاء السفلة وشكوا إلى قناصلهم ، فكلم القناصل لورد كرومر فى ذلك ، وكلموا الرئيس أيضاً وبعضهم شكاً إلى الأمير ، فبرز الأمر من وزارة الداخلية لمأمورى الأقسام بالضرب على أيدى أولئك العطلة وتفريق جموعهم سزراً[٩٢] ، فتتبعوهم وقبضوا

(٩١) نفوسهم = بعدا بنفوسهم أجريت التعديل ليستقيم المعنى .
(٩٢) شزرا = شذرا .

على الرؤساء وأصحاب الكلمة منهم ، وزجوهم فى الحبوس . فزال عن الناس بعض الخوف ، واختفى من بقى من أولئك الزعر العالة . وجعل أصحاب بعض الصحف المعتدلة يطمنون النزالة ويدفعون عنهم الطيرة والخوف ، حتى قال أحدهم بعد كلام طويل(أم تدانت الضغاين بإعداد(٩٣) مصر إلى حد أنهم يرمون بترهاتهم ذات اليمين وذات الشمال ،كما يضرب الأعمى بعصاه حتى يتوهم أنه محمول عليه ، ولايتكلفون بحثاً عن الحقيقة ولا قياماً بما تقضيه الذمة فى مثل هذه التهم الشنعاء .فلتطمئن قلوب الأجانب الذين تهيبوا ، وليعلموا أن الصحف المأجورة للإحتلال قد نكدت عيشهم بكذبها هذا مرة ، كما تنكد عيش المصريين بمثله مراراً فى كل يوم ، وأنها لمثل هذا خلقت ، فلا ينبغى أن يلتفت فى المستقبل إلى ما تفتريه) .إلى أن قال .قلت وعندى أن كل هذه الضجة حول بيع تلك المدى قامت فى هذه الآونة أو هم أقاموها لتكون عقبة فى سبيل رؤساء لجان الإعانة العسكرية ، وعصا تهديد المتطرفين منهم ، ولجماً يلجمون بها أفواه دعاتهم حتى لايذكرون بين أهل البلاد إسم السلطان ،ولا عسكر السلطان ، ولا عزم السلطان على محاربة اليونان ، لأن هذا كله معاكس لسياسة الإحتلال ، ودعايات المحتلين من التبعيد بين الأمير ومتبوعه ، والرعية وراعيها . ولكم ما بالغ فى ذلك غورست مستشار الداخلية وشدد ، حتى جعل سائر أصحاب المناصب وأهل الخطط ينظرون إلى الشىء الواحد بشكلين ، ويتصرفون فى الرعية بقلبين ، حتى نقضوا حد الوظائف . والمصريين كما تعلم أهل سماح ومياسرة ، فكانت الدواوين لذلك بؤرة ملئها تفضيل نزعات الإحتلال على مصلحة البلاد وأهلها ، ولاسيما المديريات .وكان المدير إذا حاسب الضمير وراعى مصلحة الوطن وقام بالقسط بين الناس ، أغضب المستشار وأسخطه ، وأفسد عليه تدابيره ، فلا يلبث طويلاً حتى يأتيه الأمر بالتخلى عن منصبه ، فيتخلى عنه صاغراً ،وربما مهاناً محقراً

(٩٣) باعداد = باعداء .

بشيء من قارص الكلام .وقد بلغ الإستهتار بأصحاب الكلمة من جماعة الإنكليز أن صاروا يدفعون بعض الصبية المتشردين الذين لايجدون لأنفسهم عملاً يكسبون به معاشهم إلى إصدار وريقات أسبوعية بأسماء مختلفة ويكتبون فيها ضد الأمير وعرش الإمارة ، وديوان الأمير ما يستوحش منه الأدب والإنسانية فضلاً عن المدنية ،ولايجدون من وزارة الداخلية وازع ولا رقيب .واسترسل أولئك الصبية فكانوا يلجأون إلى بعض أعشاش الفساد فيعينوهم تارة بالمال ، وطوراً بالقلم ، ويكتبون فى ورقاتهم ما شاؤا من حط كرامة بيت الإمارة أو دفع عن سيئات الوزارة ، أو وقيعة بمن لم يعجب مستشار الداخلية من المأمورين ،حتى أمسى أولئك النفر وأصبحوا وسعيهم ميموناً ، وقصدهم مأموناً وطرفهم قريراً وشأنهم مذكوراً ، ويا ويل من تأخذه أسنة أقلامهم أو أقلام حماتهم فى هذه الأيام .وعار أن يسلح الأغرار والصبية والمتشرون(٩٤) بسلاح الصحف التى جعلتها المدنية سلاح الحقيقة وعصاء التهذيب ، والمربى لعقول العامة ، وهم جعلوها أداة النصب والبذاءة والتهويل لضعفاء القلوب . ولما كان اليوم الأول من شهر إبريل من السنة ، تاسع عشرى شوال سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف ، وخامس عشرى برمهات سنة ثلاث عشرة وستمائة وألف ، فى الساعه الرابعة من بعد ظهر اليوم جرى الإحتفال بوضع الحجر الأول من أساس دار الآثار والعاديات المصرية بالخطة المعروفه بخطة قصر النيل . فحضر الأمير فى موكبه إلى المكان ، وحضر الوزراء ووكلاء الوزارات وقناصل الدول وجماعة من أهل المناصب وأصحاب الخطط ، وبعض ضباط جيش الإحتلال والمهندسين ، وأصحاب الصحف حتى غص المكان . وكانت قد أقيمت سرادقات بهيجة المنظر نفيسة الرياش ليستظل بها المدعوون . فلما استوى بالأمير ووزراؤه المقام لحظة لطيفه قام إلى الموضع المعد لوضع الحجر فيه ووقف ، ونقلوا إليه حجراً فتناوله بيده ووضعه فى

(٩٤) والمتشرون = والمتشردون .

المكان المعد لذلك ، وجعل حوله شيئاً من الطين . ثم أعطى فأساً فضرب به الحجر كأنه يرصه ، ثم تنحى فتقدم فخرى باشا وزير الأشغال العمومية ونقل فعل الأمير سواء ، وتنحى فتقدم المسيو دورينون(٩٥) مهندس هذا العظيم(٩٦) وفعل ما فعله فخرى باشا . وكان بعض المصورين ينقلون عن بعد شكل هذا الإحتفال الكبير بالتصوير الشمسى . ولما فرغوا من وضع الحجر الأول على هذه الصورة وضعوا صندوقاً من الحجر داخله نقود مصرية وبعض الصحف وزنكا من الفضه عمل لهذا الغرض فى جوار الحجر الأول . ثم تقدم جماعة من الحمالين المعروفين بالعتالين يحملون حجراً عظيماً ويسيرون به الهوينا ،وهم يتغنون بنشيدهم المعروف . فما اقتروا(٩٧) من الحجر والصندوق وضع ذلك الحجر العظيم على كليهما وضعاً محكماً ، فتقدم الأمير وضرب ذلك الحجر بمطرقة ثلاث وتنحى ، فضرب الحجر وزير الأشغال والمهندس والمقاولين أيضاً . ثم رجع الأمير فى ركبه إلى قصر الإمارة وتبه(٩٨) الوزراء وانصرف الجمع .

واتفق أن جاء الخبر إلى لورد كرومر بعزم دولته على عمل (يوبيل) ، مرور ستين عاماً على جلوس الملكه فيكتوريا(٩٩) على عرش الدولة الإنجليزية ، وأن

(٩٥) دورينون = دريتون Dryton .
(٩٦) العظيم = العمل العظيم أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٩٧) فما اقتروا = فلما اقتربوا قراءة اجتهادية .
(٩٨) وتبه = وتبعه .
(٩٩) الملكة ڤيكتوريا =Victoria ملكة بريطانيا العظمى وإيرلندا (٢٤ مايو ١٨١٩ ـ ٢٢ يناير ١٩٠١) ـ حكمت الفترة (١٨٣٧ ـ ١٩٠١) ـ أطول فترة حكم ملكى فى التاريخ الإنجليزى ـ ولدت فى قصر كنسنجتون Kensington كإبنة وحيدة لإدوارد Edward دوق كنتKent وابن چورچ الثالث George والأميرة ڤيكتوريا إبنة دوق ساكس ـ كوبرج Sax - Coburg . تولت العرش بعد فاة عمها ويليام الرابع William ـ فى عام ١٨٤٠ تزوجت الأمير ألبرت ساكس ـ كوبرج Albert of Sax - Coburg ـ تميزت بشخصية مؤثرة فى حياتها العامة وأثرت فى التكوين السياسى والإجتماعى لبلادها ـ بعد وفاة ألبرت عام ١٨٦١ إعتزلت فى جزيرة وايت Isle of Wight وفى المرتفعات الإسكتلندية ـ لكنها عادت إلى الحياة العامة بعد فترة ـ أصبحت تحمل لقب إمبراطورة الهند عام ١٨٧٦ . أثبت اليوبيل الذهبى لها فى عام ١٨٨٧ واليوبيل الماسى فى عام ١٨٩٧ أن شعبيتها كملكة لبلادها لم تنقص على مدى تاريخ حكمها الطويل ـ أنجبت من زوجها ألبرت تسعة أبناء .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 19. - p.,574.

عـمل هذه الأفـراح يسـتـدعى ذهاب ملوك أوروبا كلهم أو جلهم إلى عـاصـمـة الإنجليـز للإحـتفـال بها . فكلم الرئيس مـصطفى فـهمى باشا فى وجوب قيام الأمير إلى عاصمة الإنجليز لحضور ذلك الإحتفال والمثول بحضرة الملكة مهنئاً . فكلم الرئيس الأمير فى ذلك وزين له الذهاب وألح عليه إلحاحاً شديداً . قيل فأكبر الأمير الذهاب وعده إعترافاً بالتابعية لملكة الإنجليز وخروجاً عن طاعة السلطان عبد الحميد . فجعل يطاول ويحاول ، والرئيس يهون عليه الأمر ويخفف نتائجه . وظل على هذا أياماً حتى ضجر الأمير ، وبرز الأمر بذهاب شقيقه (الأمير محمد على) نائباً عن عرش الإمارة فى ذلك الإحتفال . قيل فلم يعجب لورد كرومر ، وعاتب فيه الرئيس ، وأكبر عجزه عن استمالة الأمير ، واستظهر له أصحاب بعض الصحف المحازبة . وقالوا أن فى تولى الأمير (محمد على) بالنيابة حقاد[١٠٠] معيب . قالوا ولاسيما أن عرش الإمارة قد بات فى منطقة النفوذ البريطانى منذ فتح التل الكبير ، ولم يبق من أمل للسلطان فى استخلاصه ولو بعد حين . فرد عليهم أصحاب بعض الصحف المحلية وسفهوا أحلامهم ، وامتدحوا حزم الأمير وبعد نظره ، وقالوا أن البلاد للسلطان والإمارة تابعة له . وأن ذهاب الأمير بشخصه مهنئاً خروج عن حد المتبوعية ، ومروقاً عن طاعة الخلافة العثمانية . وظلوا على هذا أياماً والرئيس لا يبدى ولا يعيد .

وفيما هم على ذلك إذ جاء الخبر من دار السلطنة بوقوع الحرب بين عسكر السلطان وعسكر اليونان . وبرزت الأوامر من المابين إلى سفراء وقناصل السلطنة بالرجوع إلى دار السلطنة ، وأن ترد إلى سفير اليونان أوراق تعيينه لينجلى عن الأستانة . وطيروا الخبر بذلك إلى أصحاب سياسة الدول . وجاء الخبر بذلك على جناح البرق إلى ديوان الإمارة وإلى الغازى مختار باشا مندوب الباب العالى ، وبأن يعطى جواز السفر إلى قونصل جنرال اليونان ليبرح القاهره كى لا تبقى علاقة ما بين الإمارة وبين دولة اليونان ما دامت الحرب قائمة مع

(١٠٠) حقاد = إحتقار .

الدولة المتبوعة . ومع أن الخبران بعث بهما فى وقت واحد من دار السلطنة ، فإن أحدهما تسلم إلى الغازى مختار باشا ، والثانى تسلم إلى ديوان الأمير . وعلم الأمير بخبر ذلك فسير إلى الغازى من يطلب صورة من الخبر . وعقد مجلس الوزراء فتناجوا فى ذلك قليلاً ، ثم انفضوا على أن يجتمعوا فى غد صباحاً ريثما تتم ترجمة الخبر من الرومية إلى العربية . قال . كان الأمير على عزم قوى ونية صادقة على قطع كل علاقة مع دولة اليونان ، وتأييد حقوق سيادة السلطان على مصر بصفتها إمارة تابعة لكرسى الخلافة ، ليعلم صاحب سياسة الإنجليز أن الحال على غير ما يتوهم ،وأن كل حركة يأتيها عميدهم بمصر للتفريق بين التابع ومتبوعه على ما اشتهر فى هذه الأيام ضرب من الشطط ، بل هو مما يزيد فى اجتماع القلوب على القلق[١٠١] بعرش الخلافة .ولذلك فإنه ما ورد[١٠٢] أمر السلطان حتى اهتم به إهتماماً كبيراً ، وسير فى طلب صورة منه حتى يأتيه من مكتب التلغراف . قالوا لأنه علم أن فى تأخير إرساله إليه غرضاً يرمى إليه عميد الإحتلال ، وأن ليس فى الوقت مسمحاً .أقول ــ وظهرت على هيئة الوزراء دلايل الإرتباك والحيرة من قطع العلايق مع دولة اليونان فى هذه الآونة المضطربه .فعقدوا مجلسهم وتناجوا طويلاً ، ودخل لورد كرومر فى ظهر اليوم ، أى تاسع عشر أبريل من السنة على الأمير بقصر الإمارة ، ولبث بحضرته طويلاً ، وحادثه فيما لم تصل إلينا معرفته . وكان قد اجتمع فى صبح اليوم قناصل الدول عند (المسيو كوكردان) قونصل جنرال الفرنسيس ــ والمسيو كريباريس[١٠٣] ، وتكلموا معاً فى الأمر . ولم نعلم ما دار بينهم من الحديث ، إلا أنى سمعت أنهم بحثوا فى أمرين ، أحدهما يختص بإعطاء جواز السفر لقنصل اليونان من عدمه . والآخر يتعلق بتولى الوكالة البريطانية حماية اليونانيين فيما إذا تقرر قطع العلائق الرسميه بتاتاً . وأرسل الباب العالى منشوراً إلى سفراء

(١٠١) القلق = التعلق .
(١٠٢) ماورد = ما أن ورد اضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٠٣) قنصل اليونان فى مصر .

الدول فى دار السلطنة يقول فيه (لقد أخبرناكم فى تلغرافاتنا السابقه أن اليونانيين تجاوزوا الحدود فى صبيحة تسع[١٠٤] الشهر ،واحتلوا(قمة كرانيا) الواقعة على مسافة ساعتين من خط التخوم ،وأخبروا[١٠٥](حصن بستلينو) بكرات المدافع ، وحرقوا مركز خفارة (لوليكا) (وكيلى) (وسترونكا) ، وأنهم تلقوا أوامر الهجوم بصوت النفير ، ونحن بعد أن أثبتنا المساعى التى بذلتها الحكومة الشاهانية فى سبيل توطيد السلام ، وأيدنا حقها فى إتخاذ الوسائل اللازمة لحماية أملاكها ، نلقى الأن مسئولية هذه الحالة كلها على عاتق الحكومة اليونانية التى هى البادية بالعداء . وأن الحكومه الشاهانية قد برهنت للعالم أجمع على شدة رغبتها فى توطيد السلم ، بتحفظها الذى ما انفكت عن تأييده بالشواهد والأدلة ، والصبر الذى لزمت خطته وسلكت سبله . ومع ذلك كما أخبرناكم تلغرافياً فى ليل أمس فإن جنوداً يونانية نظامية كثيرة العدد ، مجهزة بالمدافع قد اجتازت الحدود من ناحية (بيرقدار) (وقدمان) (ومرديكا) ، وشهرت العداء الذى لايزال متصل الأسباب إلى الآن . فالحكومة الشاهانية بأزاء هذه الهجمات والإعتداءات قد وجدت نفسها مكرهة على أن تصدر أمرها رسمياً إلى قائد جيوشها العام بأن يعمد إلى إتخاذ جميع الوسائل العسكرية ، التى من شأنها أن تضمن صيانة حقوقها وحماية أراضيها من تعديات اليونان .

وأنتم تعلمون أن الحكومة الشاهانية سواء فى مسالة (كريت) أم فى الحوادث التى نجمت عنها ، قد قامت إلى آخر لحظة بكل ما ينبغى عليها لتأييد السلم ، وأنها ما حادت أبداً عن المناهج السليمة التى اتبعتها الدول العظمى فى هذه الظروف . غير أن اليونانية[١٠٦] إزدرت بالحقوق الدولية . وهى بعد أن جردت جيوشها إلى (كريت) ، وقامت باستعدادات عسكرية عظيمة

---

(١٠٤) تسع = تاسع .
(١٠٥) واخبروا = وخربوا .
(١٠٦) اليونانية = الحكومة اليونانية أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

على الحدود ، فتحت باب العداء . فالحكومة الشاهانية لم يكن فى وسعها إلا أن تقابلها بالمثل ، وتستدعى إلى حمل السلاح قسماً كبيراً من رديفها[١٠٧] ، متحملة تضحيات عظيمة لتعبئته ،وجالبة أضراراً شديده على زراعتها وتجارتها . ونحن موقنون أيضاً أن الوزارات الأوروبية بالنظر إلى الإعتبارات المتقدم ذكرها لتعترف بما يخامرها من شعائر العدالة والإنصاف بأن كل تبعات الحرب واقعة على الدولة اليونانية وحدها ،وأن الحكومة الشاهانية كما كررنا لكم مراراً عديدة لاتعلل نفسها بأدنى فكر فى الفتح ضد اليونانية[١٠٨] . ولكنها إذا كانت اليوم مجبرة بقبول الحرب وواجدة نفسها فى حالة الدفاع الشرعى ، وذلك(١٠٩) فقط لصيانة أقدس حقوق سلامتها .

هذا وإذا كانت الحكومة اليونانية تستقدم جنودها من كريت والحدود فى زمن قصير ، فإن الحكومه الشاهانية لم تتأخر عن إيقاف حركاتها العسكرية لتؤدى للعالم برهاناً جديداً على نياتها السليمة والسلام . أ . هـ .

وقد كان إعلان الحرب فى يومى سابع عشر وثامن عشر إبريل من السنه . إذ أرجعت إلى (البرنس مافرو كورداتو) سفير اليونان فى دائر[١١٠] السلطنة العثمانية أوراق تعيينه على حين فجأة ، بحيث أن سفراء الدول دهشوا من السرعة التى جرى الأمر بها . ويقال أن جماعة الوزراء العثمانيين الذين كانوا يميلون إلى الإقتتال مع اليونانيين إغتنموا تلك الساعة ما لاح لهم من ميل السلطان إلى الحرب . فبادروا بتسليم السفير أوراقه ، وأعلنوا سائر النلاء[١١١] اليونانيين بأنهم إن لم يتعهدوا فى بحر خمسة عشر يوماً من تاريخ الإعلان

(١٠٧) أى إحتياطيها من الجيش ـ فالرديف هو إحتياطى الجيش النظامى ـ راجع رد هاوس Red House ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٩٧١ .
(١٠٨) اليونانية = اليونان .
(١٠٩) وذلك = فإن ذلك أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١١٠) دائر = إستبعدت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١١١) النلاء = النزلاء .

بحسن السير ، والسلوك مسالك السلام ، أبعدوا عن دار السلطنة جمعاً . وبرز الأمير[١١٢] إلى سائر قناصل السلطنة فى بلاد اليونان بترك مراكزهم والرجوع إلى الآستانة . وعهد بحماية العثمانيين فى بلاد اليونان إلى دولة ألمانيا .

والتهمت[١١٣] نار الحرب على خط التخوم كله . واشتغل أصحاب سياسات الدول جمعاً بأخبارها . وبرز أمر السلطان إلى (أدهم باشا) قائد جيوش هذه الحرب بالزحف على (ريفيتى) التى هى ممر طريق (لاريسا) مركز الجيوش اليونانية العام . فسار من يومه فى معظم جيوشه ، فوقفت فى وجههم الجيوش اليونانية ، واقتتلوا قتالاً عنيفاً جداً . واشتبكت القتال[١١٤] فى البحر أيضاً ، واليونان على أشد ما يكون من الحماس ، والعثمانيين على غاية الثبات والقوة . فكانت ضحايا اليونان كثيرة منذ بدأت الحرب ، وكانت أول المعارك فى (بريفيزا) ، فقد جعلت العساكر اليونانية تناوش أصحاب مراصدها وتستفزهم إلى القتال نظراً لقلتهم وكثرة اليونان عند هذا التخوم حتى قاموا ، ودارت رحى الحرب ثم اتصلت بناحية خليج (أرتا) (ولارتا) وغيرها . واشتد القتال واتسع نطاقه . وتتابعت الأنباء بفوز اليونان وتغلبهم على الكثير من المواقع والحصون والدروب المنيعة . وما هى إلا أيام حتى دارت على اليونان الدوائر ، فاحتلت الجيوش العثمانية الحصون المشرفة على (زنوفا) بالسلاح الأبيض ، واضطرت العساكر اليونانية إلى التقهقر على أعقابهم ، وأخذوا منهم أيضاً أكثر المرتفعات المشرفة على (لارتسا)[١١٥] ، وقد كانوا تغلبوا عليها . وصار النصر فى هذا الحين حليف العثمانيين بلا جدال .

واجتمع مجلس الوزراء بحضرة الأمير فقرروا سفر قنصل جنرال اليونان ومبارحته للقطر كأمر السلطان ، رغم ممانعة لورد كرومر . واجتمع قناصل الدول

---

(١١٢) الأمير = الأمر .
(١١٣) والتهمت = واندلعت .
(١١٤) القتال = سفن القتال أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١١٥) لارتسا = لاريسا قراءة ترجيحية .

أيضاً ليروا فى(١١٦) إذا كانت التبعة اليونانية تبقى تحت جماعة(١١٧) دولة الفرنسيس ، أو دولة الدانيمارك . وأرسل القنصل الجنرال إلى دار القنصلية الجنرالية بالإسكندرية يعلنها بوجوب تنزيل الراية اليونانية عن ساريتها والشارة أيضاً عن مكانها ، وأنه على قدم السفر ومبارحة الديار . فكان لهذا الخبر وقع شديد عند جماعة اليونان ، وحزن(١١٨) ما عليه من مزيد . فاجتمع جمع منهم فى غداة اليوم أمام دار القنصلاتو وكلهم حاسروا الرؤوس . فلما أنزلت الراية والشارة صاحوا صيحة عظيمة ، وبكى بعضهم بكاء مراً ، وظهرت على وجوه نزلاء القرى والريف منهم علامات الكمد والحزن الملازم . وانكمش من بالقاهرة منهم من أهل البطالة والكسل والأخلاق الذميمة . على أنه لم يكن من داع لذلك الخوف ولا موجب لحصول الكمد . فإن المصريين كما هو مشهور أهل مياسرة خصوصاً لأمة قد عايشوا نزلاها(١١٩) من زمان تقادم منهم ، لايغيروا شيئاً من معاملتهم المعتادة ، وهم يجرون على ما هو محمود أبداً من خطتهم فى آداب المعاشرة وفضل المعاملة . وعندى أن الخوف يجب أن لايكون من هذا السبيل ، بل من تحمس المحاربين من اليونان على قلة عددهم ، إذ هم لايبلغون على رواية أصحاب الصحف الكبرى سبعين ألفاً بما فى ذلك مرفوتى الرديف ، ومعهم ماية وثمانية وستين مدفعاً . على حين أن عدد الجيش العثمانى الزاحف مع (أدهم باشا) أثنين وسبعين ألفاً من المشاة ناحية (الاصونه) ، وستة طوابير من الفرسان ، ومائة ستة وخمسين مدفعاً ، وأربع آلايات من فرسان ، وإدارية ومتنقلة ، وتلغرافية ، واستحكامية . وفى جهة (يانبا) أربعين ألفاً أخرى للدفاع . ورقه(١٢٠) جديدة من الرديف متسلحة ببنادق فورد .

---

(١١٦) فى = ما .
(١١٧) جماعة = حماية .
(١١٨) وحزن = وحزنوا حزنا — عدلت الكلمة لتتفق مع السياق .
(١١٩) نزلاها = نزلائها .
(١٢٠) وررقة = وفرقة — قراءة اجتهادية .

وتتابعت الأنباء بنصر الجيوش العثمانية وفوزها فى كل موقعة وكل صقع وكل بلد ، حتى اختلف[١٢١]على صاحب سياسة اليونان الحال ، ووقع مقدمى عساكرهم فى الخبال . فخرج ولى عهد اليونان من أثينا ومعه شقيقه الأمير جورج إلى موقع الحرب ، ونصبوا خيامه على رأس المعسكر ، وسلموه القيادة العامة فلم يفلح .وكانت قيادته شؤماً واندحاراً لجميع الصفوف . فعظم غضب القوم عليه ورموه بكل شيء معيب ، حتى قالوا أن من كان مثله فى مواقف القتال ورواح المسك والطيب تخرج من سرداقه[١٢٢] لا يصح أن يولى قيادة الجيوش . وكانت كتب القوم تأتيه ملأى بهذه الشتائم ، وكان تقهقره بجيوشه متواصلاً كلما قهرهم الترك وغلبوهم على ما فى أيديهم ، حتى أخذوا منهم (لاريسا) التى هى معسكرهم العام ، فوجدوا بها كثير من المؤن والذخائر الحربية ، ومدافع قلعتها معطلة . وكذلك أخذوا منهم خطوط (تيرمافو) . قالوا وكان تقهقر اليونان بانتظام فى جل المواقع . فاتخذ أهل المجون والخلاعة من المصريين هذا القول فكاهة يضحكون منها . فكان إذا قابل أحدهم صاحبه وسلم عليه قال له (لعلك اليوم متقهقر بانتظام) فيجيبه (وعلى أتم ما يكون من التحفظ) ، وجعلت العساكر التركية تطارد العساكر اليونانية وتوقع بها أينما لحقتها .

ووافق يوم ستة عشرى إبريل من السنة ، ورابع عشرى ذى القعدة سنة أربع عشرة يوم شم النسيم للأقباط الأرثوذكس والروم . فخرج الناس على عادتهم إلى الجناين والمنتزهات ، وتزاحم العامة على أبواب محال القصف واللهو على عادتهم فى أيام المواسم والأعياد . ولكن لم يخرج من جماعة اليونان فى ذلك اليوم إلا القليل جداً تألماً من تلك الحرب القائمة ،وقد كانوا إذا جاء يوم شم النسيم يخرجون أفواجاً ومعهم المأكول والمشروب والحملان للذبح . فيذهبون

---

(١٢١) اختلف = اختلط .

(١٢٢) سرداقه = سرادقه قراءة اجتهادية .

إلى المطرية من ضاحية القاهرة والنيل ، وشبرا ، ومصر القديمه ، فيقضون يومهم فى لعب وغناء ورقص وضحك وأكل وشرب . وربما اشتبك بعض فتيانهم من[١٢٣] بعض ، فيتضاربون بالأيدى والعصى وربما بالسكاكين حتى مغيب الشمس ، فيرجعون إلى منازلهم سكارى .وكان الأقباط يفعلون ذلك أيضاً فى مختلف طبقاتهم إلى عهد الخديوى محمد سعيد باشا .فلما تغيرت الأحوال وتبدلت العادات وارتقت الأخلاق ،وبلغت المدنية العصرية مبلغها ، إنكفوا عن الخروج إلى ظاهر المدينة إلا القليل من أصحاب الحرف والصنائع والأخلاق الساقطة . وصاروا يحفلون بعيدهم هذا فى بيوتهم أو بساتينهم الخصوصية ، متحجبين عن العامة ومخالطة الطبقة الواطئة كما كان الحال قبل ذلك . فسبحان مقلب الأحوال .

كبر دهش أصحاب سياسات الدول كلها من تتابع إنتصار الترك على اليونان ومطاردتهم من بلد إلى بلد ، ومن صوب إلى صوب ، ومن حدب إلى حدب ، ون[١٢٤] تولى الرعب على قلوب اليونان إلى حد أذهلهم عن موتاهم وجرحاهم . فقد كانوا يتركونهم أجداساً[١٢٥] فى ساحات القتال . وكانت أهل القرى اليونانية إذا جاءهم الصائح باقتراب الترك من ديارهم خرجوا على وجوههم حفايا لايلوون على شيء من متاعهم . وكان أهل الشقاوة واللصوصية منهم إذا هموا بنهب قرية وسرقة ما عند أهلها صرخ صائح فيهم (الترك الترك) . فيهب جميع أهل القريه مزعورين[١٢٦] ويخرجون على وجوههم هائمين . فيدخل أولئك اللصوص البيوت ويأخذون ما فيها ويتركونها خاوية . ولقد أظهر أصحاب بعض الصحف الكبرى الشماتة بدولة اليونان ، ورموا أصحاب سياستها بالطيش وسوء التدبير وفساد الرأى . فقال أصحاب صحف الروس أنهم أغرار قليلو الخبرة

(١٢٣) من = مع .
(١٢٤) ون =من .
(١٢٥) أجداسا = أكداسا .
(١٢٦) مزعورين = مذعورين .

بسياسات الدول .وألفتوهم إلى ما كانوا قد أبدوه لهم من النصح والإرشاد قبل وقوع هذه الحرب .ثم قالوا مخاطبين لدولة اليونان على لسان دولة الروس(إنك أيتها اليونانية لم تطيعينى يوم قتالى الأخير[١٢٧] مع دولة الترك ، بل استسلمت إلى دولة الإنجليز استسلامك إليها فى هذه المرة أيضاً ، فانظرى منها قد تبين لك الرشد من ألغى . وها قد ذقت مرارة الحالتين وعرفت أنى أصدق فى خيرك ، وأحفظ لسلامتك من سواى . فتنبهى وارجعى إلى رشدك أصلح الله حالك) . أ . هـ . وكان ميل الخصوم إلى حسن سير العساكر التركية والتزام كبارها وصغارها جانب التأدب والحشمة فى كل أدوار هذه الحرب الطاحنة عظيماً جداً ، وثناءهم كثيراً . حتى لقد شهدوا لهم بأنهم كانوا مثال الدعة والرزانة والتأدب فى معاملة سكان البلاد المسيحيين منها قبل المسلمين ، وأطروا عناية أركان الحرب بدفن قتلى اليونان مع التجلة والتكريم ،والإهتمام بجرحاهم بقدر إحترامهم واهتمامهم بقتلى وجرى[١٢٨] المسلمين .وقد أكد أصحاب تلك الصحف أنه لولا تردد صاحب السياسة الإنجليزية فى الرأى وعدم وقوفهم فى المراوغة عند حد ، حتى أغضبوا جميع الدول ، ما وقع اليونان فى هذه الهاوية التى لا قرار لها ، ولا إستبسل الترك فى سحقهم كل هذا الإستبسال العجيب ، ولا ظهرت تلك الحركه العدوانية من الشعب اليونانى ضد ملكهم وأسرته . حتى كانوا إذا جاءهم الصائح بانخزال جندهم فى موقعة احتشدوا جموعاً تحت قصر الملك ،ونادوا بالويل والثبور وعظائم الأمور ،وتهددوا الأسرة بذهاب الملك من أيديهم . أقول وقد نسب بعض خصوم الدولة العثمانية نصرة الترك هذه النصرة المؤزرة إلى سببين . أولهما كثرة العساكر ، وثانيهما وضعهم تحت قيادة كبار من الألمان . قالوا ولولا ذلك ما انتصروا . على أنه قد تحقق أن نسبة الجيش السلطانى فى مواقع التخوم ومواقع

(١٢٧) يقصد الحرب الروسية ـ التركية ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ التى إنتهت بمعاهدة سان ستيفانو (١٨٧٨) San Stefano

(١٢٨) وجرى = وجرحى .

(لازيتا[١٢٩])إلى الجيش اليونانى نسبة ثلاثة إلى إثنين . أعنى أن كل إثنين من اليونان كانا يقاتلان ثلاثة من الترك . قال أحد رجال الحروب ، ولكن إذا حسبنا أن الترك هم المهاجمون أى أنهم مكشوفون معرضون لنيران اليونان ، وهؤلاء هم متحصنون فى معاقلهم ووراء متاريسهم ، ظهر جليا أن النسبه غير كبيرة الفرق . وأما قيادة الترك بكبار من قواد الألمان فلا نصيب له من الصحه . أ . هـ قلت وقد قرأت فى جريدة الدالى نيوز الإنجليزية خبراً عن مراسل شركة روتر التلغرافية هو(رأى مراسل شركة روتر عجائب وغرائب من بسالة الترك فى معركة (ملونه) ، وهى من أكبر المعارك ، وثبات جنانهم وصبرهم على الكريهة) . وذكر حادثة دليلاً على ذلك فقال(رأيت بعينى رأسى أربعة من العساكر التركية هاجمين على اليونانيين ورصاص البنادق ينصب عليهم كالمطر ، بعد أن تركوا صفهم لفرط ما تولاهم من الحماسة والإقدام ، فأصيب واحد منهم فسقط ميتاً ، ثم أصيب الثانى والثالث فخراً صريعين . وبقى الرابع هاجماً لايبالى ، وجعل يطلق النار حتى زحزح اليونانيين عن مركزهم فارتحلوا) قال فياله من ثبات وياله من بأس . أ . هـ .

فلما تمت هزيمة اليونانيين وكبرت مصيبتهم ، برز أمر ملكهم باجتماع رجال دار شوراهم ، فاجتمعوا وتناجوا فيما هم فيه طويلاً . قالوا (ولقد كان إنسحاب الجيوش اليونانية وتقهقرها فى الموقعة الأخيرة سابق لأوانه ، ولذا فقد أصبحت حالة الأسرة المالكة شديدة الخطارة . وأن لابد من تنزيل الوزراء الذين قبلوا بوقوع هذه الحرب على فراغ خزانتهم من المال ، وقلة دبرته[١٣٠] عساكرهم ، وحاجتهم الزائدة إلى المؤن والذخيرة ومعدات القتال ، لابد من تنزيلهم من كراسيهم وإقامة وزارة تصلح ذات البين وتجمع بين النقيضين) .

---

(١٢٩) لازيتا = لاريسا قراءة اجتهادية .

(١٣٠) دبرته = خبرة قراءة ترجيحية .

وكان مصطفى كامل داعية الحزب الوطنى المصرى وخطيبه نزيلاً فى باريز عاصمة الفرنسيس يدعو القوم إلى نصرة المصريين والعمل على إخراج الإنجليز من ديارهم . فلما تحقق خبر إنتصار العساكر الشاهانية على الجيوش اليونانية ، وعلم بأن الترك صاروا على مقربة من عاصمة اليونان ،جمع إليه من فى باريز من التلامذه المصريين والمصطافين هناك من مصر ، وحضهم على التبرع بشىء من المال لنفقة المحاربين من عسكر السلطان . فجمع قدراً فأرسله إلى لجنة مصر العليا ، وأرسل على جناح البرق إلى المابين عبارات التهانى والإطراء للجيوش الإسلامية المظفرة ، وأنهم يدعون للسلطان دعوات صالحات . وأرسلوا كذلك إلى إمبراطور الألمان رسالة يشكرونه على ما يبديه من الولاء للعثمانيين ومصر وجاء خبر ذلك إلى مصر ، فأعجب قوم وأساء آخرين . يقولون وفى الوقت التى جاءت فيه تهانى مصطفى كامل والملتفين حوله إلى إمبراطور الألمان ، أرسل هو إلى سفيره فى دار السلطنة يأمره بالمثول بين يدى السلطان ، وتبليغه تهانى الإمبراطور بنصرة جيوشه المتتابعة .فذهب السفير إلى القصر السلطانى ولبث بحضرة السلطان ساعة أو يزيد . وقد اشتد الحال على الجيوش اليونانية شدة بالغة ، واحتاطت إلى[١٣١] الكسرات من كل جانب ، ولازمها الزعر[١٣٢] والإضطراب . وقد أبان شىء من ذلك مكاتب شركة روتر التلغرافية المرافق للجيوش اليونانية فى رسالة خصوصية إلى مدير الشركة حيث قال (إعلم أن معركة (ماتى) التى استولى الترك بعدها على (تور نافوس ولاريسا) لم تكن فى الحقيقة سوى مناوشة لا أهمية لها بين أصحاب المدافع من الجيشين . فإن اليونانيين كانوا فى الساعة السابعة ونصف من مساء يوم الجمعة الذى حدثت فيه المعركة لايزالون مستوليين على مراكزهم . ولكن لم تمضى على ذلك ثلاث ساعات حتى أخذ الجنود يتشتتون ويهربون) . (قال والسبب

(١٣١) إلى = بها .
(١٣٢) الزعر = الذعر .

فى ذلك أنه فى الساعة الثامنة من المساء إذ كان اليونانيون يظنون أن المعركة قد انتهت ، رأوا بطاريتين للترك قد عادتا إلى إطلاق النار من جهتى (ديليلر وكوتافى) ، ثم شعروا بفرقة كاملة من الفرسان الترك خارجة من الأدغال وهى تنحدر من (وادى تمبة) ،فأدرك اليونان أن جيش (حمدى باشا)إنضم إلى جيش (مضيق ملونة) بعد أن استولى على (نيزيروس وريسانى) . ونظرنا وإذا النار قد اشتعلت فى قريتى (كوتافى وديليز) . وكان الليل قد أقبل ، فظننا أن القتال سيعاود فى الصباح ، يعنى صباح السبت . فعدنا إلى (تيرنافوس) ورأينا فيها بيوتاً كثيرة مدمرة . وفى نحو الساعة الحادية عشرة نظرنا إلى الخارج ، فإذا بمركبات الذخيرة تسير راحلة عن المدينة . وفى الوقت ذاته علمنا بكل دهشة وإنزهال(١٣٣) أن قد برز الأمر إلى من بقى من السكان فى (ترنافوس) بالرحيل عنها . وعلمنا أن قوات من الترك تحتل (النبى إيليا) ، وأن الجيش اليونانى منسحب كله) . (قال وكان أمر هذا الإنسحاب قد تقرر منذ الساعه ثمانية . وفى الساعة الثامنة ونصف برز الأمر إلى سائر الجيش بالإرتداد إلى (لاريسا) . فقاموا بذلك بكل نظام وترتيب . قال (فبرحنا (ترنافوس) مع جماعة من الضباط الأجانب . فالتقينا فى الطريق بكثيرين من مراسلى الصحف ذاهبين إلى (لاريسا) . ولم نلبث أن لقينا عساكر المشاة اليونانية ، فمررنا أمام الجنود فكانوا صامتين لاينطقون ببنت شفة ، وكانت الليلة حالكة الظلام لايبدو فيها سوى لهيب النار المشتعلة فى تينك القريتين) . قال . (وكذا كلما سرنا نلاقى النساء والأولاد هاربين وهم فى أسوأ حال والسكان مختلطين بالجنود ، والفرسان بالمشاة ، بأصحاب المدافع . حتى بلغت الطريق الواقع ،بين (ترنافوس) وكادكالار) ، وهناك تدفقت صفوف الرجال على جوانب الطرق .وكان الحزن قد قام مقام الحركة والجلبة ،فضاع النظام واضطرب المقام ، وعلا أصوات الجنود بالسباب والشتائم لكبار القواد وصغار الضباط . وقد تحول الإنسحاب حينئذ

(١٣٣) وانزهال = انذهال .

إلى هزيمة تامة . ثم سمعنا فجأة ضجة عظيمة ، ولم يكن وراء هذا الجيش المبعثر مدفعية تحميه فى إرتداده ، ثم تعالت أصوات الصارخين (هو ذا الترك هوذا الترك فوزوا بأرواحكم) وكأن صاعقة قد هبطت على الرؤوس . فهبت تلك الجموع من العساكر والرجال والنساء والأطفال والمركبات والخيل والحمير والبقر والجاموس ، وكلها مختلطة يدوس بعضها بعضاً ، ونفرت نفرة واحده . ومنهم من سقط ولم ينهض ، وانقلبت بعض تلك المركبات فزادت فى الإرتباك) . قال (وانقلبت مركبتنا فى خلال ذلك الهرب ، ففقد بعضنا الآخر . ثم أخذ العساكر والناس كلهم الذين كان قد استولى عليهم خوف أشبه بالجنون يطلقون البنادق على غير موجب وفى كل صوب . فكانوا يقتلون بعضهم بعضاً . وظل إطلاق البنادق على هذه الصورة زهاء نصف ساعة دون أن يتمكن الناس من سماع النداء بالكف عن إطلاق البنادق) . قال (ولكن ذلك لم يجد ، فإن البنادق ظلت تطلق مدة خلناها شهراً ، ثم أخذ الأمر يتناقص شيئاً فشيئاً) . قال وإنى والله لم أسمع لا فى (بلفنا) ولا فى (شبكا) ولا فى غيرهما من المواقع العظيمة صوت إطلاق بنادق يشبه في قوته وشدته إطلاق بنادق الجيش اليونانى فى هذه المرة .إذ كان هذا الجيش يقتل نفسه بيده) . قال (ثم عدنا على الحقول المنزرعة إلى قارعة الطريق ، وقد كانت منزرعة بجثث القتلى من الرجال والنساء والأطفال والبهائم . وكانت الخيول شاردة تصهل فى تلك السهول ،والأرض مغطاة بالمؤن والذخيرة ، والصناديق والأسلحة والمدافع ، وسائر معدات الحروب ، وغير ذلك من كل ما كان يزيد فى صعوبة المسير) . قال وأما دخول (لاريسا) فمما يصعب وصفه ،لما تخلله من المصاعب والمرابك والهلكات . ولقد بلغ عدد القتلى فى هذه الهزيمة زهاء الستمائة . ولم تكد الجنود تستقر فى (لاريسا) حتى برز الأمر بالرحيل عنها إلى (فرسالا) . فلما كان الصباح جعل السكان والجنود يهاجرون بمثل الحالة التى برحوا فيها (تيرنافوس) ، ولم يستطع أحد أن يركب أرتال السكة الحديدية لأنها كانت كلها لولى العهد وشقيقه وأركان حربه الذين برحوا البلد فجراً) . أ . هـ .

قلت ولم نأت هنا بهذا الحديث مع عدم علاقته بحوادث مصر فى هذه الأيام إلا لنبين للقارئ كيف كانت مصائب هذه الحرب وويلاتها ، وكيف كان إندفاع اليونان والدخول فى غمارها بقوة خارقة على غيز أهبة ولا استعداد ولا حساب لمستلزمات الحروب . قال خدعتهم جمعية أنستيكى هتايرا[١٣٤] اليونانية ومنتهم بقيام أهل السقالين[١٣٥] معهم على قتال الترك . فلما قامت الحرب وتتابع الطعن والضرب فى[١٣٦] كل صوب وحدب إختفت رجاء[١٣٧] تلك الجمعية ، ولم يظهر لكبارها أثر ولاعين . فكان اليونان إذا عثروا على أحد منهم مثلوا به تمثيلاً وقتلوه شر قتلة ، ونادوا عند التمثيل به (أنتم أيها الخونة أصل هذا المصاب العظيم والبلاء العتيم) . وتحمس سراتنا المصريين[١٣٨] وأخذتهم نشوة ظفر العساكر السلطانية ، فاتفق جماعة منهم مع أعضاء لجنة الاعانة العليا على أن يقدموا إلى (أدهم باشا) قائد الجيوش العثمانية فى تلك الحرب سيفاً بديعاً ، وقيل مرصعاً هدية له واعترافاً بحسن قيادته ، وظفره المتتابع على القوم اليونان . وشاع خبر ذلك وتحدثت به العامة والسوقة وحسبوه من شعار الدين . فلما كان يوم الأحد حادى عشر مايو من السنة ، سابع ذى الحجة سنة أربع عشرة ، إجتمع جماعة كثيرة من السوقة والمتشردين وأهل العطوف ، وطافوا فى حى الموسكى وهم فى ضجة وصياح شديدين (بالله أكبر الله أكبر ، نصر الله دين الإسلام ، أهلك الله دين الكفار ، الله ينصر السلطان

---

(١٣٤) ألمفروض أنها الجمعية اليونانية الثورية التى كانت تحرض على قتال العثمانين أثناء الحرب اليونانية التركية (١٨٩٧) مثل جمعية فيليكا هيتيريا Philike Hetaeria ألتى كانت تحارب العثمانيين أيام ثورة المورة (١٨٢١ - ١٨٢٧) . وهيتيريا Hetaeria كلمة لاتينية تعنى جمعية Society .
- Maxim Newmark (Dictionary of Foreign words and phrases) - philosophical library -Newyork - 1986 - p..106.

(١٣٥) السقالين = السقالبة قراءة اجتهادية ـ والسقالبة هم السلوڤينيين Slavonians ـ سلاڤ Slavs . ردهاوس ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٠٦٣

(١٣٦) فى = من .

(١٣٧) اختفت رجاء = اختفى رجال قراءة اجتهادية .

(١٣٨) المصريين = المصريون .

ويخزل[١٣٩] الكفار) . وتبعهم الصبيان يصيحون كذلك ويهللون .وكانوا لما[١٤٠] مروا بحانوت لبقال صاحوا عليه سافر من هنا يا ملعون . فاستفزوا بعض النزلاء من الروم إلى العراك والضرب . وبلغ الخبر مأمور قسم الموسكى فحضر فى الحال إلى محل الحادثة ومعه نفر من الجند وقبض على نفر من أولئك الزعر ، وهرب باقيهم واختفوا ، وزجوا من قبض عليهم فى الحبوس وشددوا فى عقابهم . ثم اجتمع أعضاء لجنة الإعانة العليا أيضاً وغيرهم من وجهاء مصر والقاهرة ، وأرسل[١٤١]رسالة على جناح البرق إلى باشكاتب المابين الهمايونى تقول (نرفع للسدة الشاهانية تهانئ الأمة المصرية للفوز الساطع الذى ناله الجيش المظفر بمعونة الله ورعاية مولانا الخليفة المعظم) .أ . هـ وبعثوا أيضاً برسالة أخرى إلى إمبراطور الألمان يشكرونه فيها على خطته الودادية للدولة العلية ،ويستلفتونه فيها إلى المسألة المصرية .قلت وهذه الرسالة من مصطفى كامل ورجال الحزب الوطنى ومن جرى مجراهم فى هذه الأيام .

وتحدث أصحاب سياسات الدول الكبرى فى تقرير قاعدة للصلح بين المتحاربين ، وإيقاف هذه الحرب عند هذا الحد . فأظهر اليونان ميلاً إلى ذلك ، يقال بل هم طلبوا من وراء ستار . واختلفت أصحاب السياسة فى قاعدة ذلك الصلح وفى من الذى يبدأ بطلبه من الخصمين . وقد رفع الباب العالى صوته عالياً يقول أن العثمانية لاتعقد صلحاً دون أن تبقى (تسالياً) رهناً على غرامة الحرب وإلا سيرت جنودها على عاصمة اليونان ، وأنه إذا شاء أصحاب سياسات الدول التداخل فى الأمر أجابتهم بقولها ، أنه بعد حرب سنة ستة وسبعين وثمنمائة وألف ميلادية[١٤٢] التى أذهبت الحرث والنسل ، أكرهنى

(١٣٩) ويخزل = ويخذل .
(١٤٠) لما = كلما .
(١٤١) وأرسل = وأرسلوا .
(١٤٢) الحرب الروسية ــ التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) .

مؤتمر برلين[١٤٣] على أن أقدم (تساليا) هدية لليونان على غير مساغ . واليوم وقد دفعونى على إضرام نار الحرب ، لذا لست بتاركة تساليا كضمان قد استرجعته بدماء أبطالى . قال هذا الصدر الأعظم إلى سفراء الدول فى دار السلطنة ، وهو رافع الرأس ،مناد بفوز الجيوش السلطانية ونصرها الباهر . وكان سفراء إنجلترا وروسيا وفرنسا سعوا[١٤٤] لدى الباب العالى للحصول على هدنة يكون من ورائها تقرير قاعدة للصلح فلم يفلحوا ، إذ قال لهم السلطان بأن حكومتى لاتدخل قط فى مخابرات مع اليونان قبل أن تنجلى جنودهم عن كريت . فلبث أصحاب سياسات الدول سكوتاً حتى تتقدم اليونان إلى طلب الصلح بعد الذى حل بهم من الهزيمة والإندحار . فلما لم يبق على الجيوش التركية إلا دخول أثينا عاصمة اليونان ، سير (الملك جورج) إلى كريت فى طلب من بها من العساكر اليونانية . وأرسل إلى أصحاب سياسة الدول يعلمهم بخبر ذلك ، أنا[١٤٥] نتقدم إلى الوساطة على شرط أن تسلم اليونانية إلينا زمام مصالحها بلا قيد ولاتحفظ . وقال السلطان إنى أعد بمنح الإستقلال النوعى فى كريت ، ولكنى أطلب غرامة حربية حقيقية وتحويراً طفيفاً فى التخوم اليونانية . وقد إزدادت أحوال اليونانية خبالاً بقيام العامة على بيت الملك وخروجهم عن طاعته فى كل صوب

---

(١٤٣) مؤتمر برلين = عقد مؤتمر برلين فى ١٣ يونيو ١٨٧٨ تحت رآسة المستشار الألمانى أوتوفون بسمارك Otto von Bismark ، لحفظ التوازن الدبلوماسى للقوى فى أعقاب الحرب الروسية - التركية (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) . كانت معاهدة سان ستيفانو San Stefano (٣ مارس ١٨٧٨) ألتى أنهت هذه الحرب قد زادت من النفوذ الروسى فى البلقان وبالتالى أثارت معارضة القوى الأوروبية الأخرى . شاركت فى المؤتمر ألمانيا . النمسا والمجر ، بريطانيا - فرنسا - إيطاليا - روسيا - وتركيا . وفقا لمعاهدة برلين (١٣ يوليو ١٨٧٨) فإن إقامة بلغاريا الكبرى كدولة مستقله بدعم روسيا كنتيجة لمعاهدة سان ستيفانو إستبدل ببلغاريا أصغر تحت السيادة العثمانية . حصلت روسيا على جنوبى بسارابيا Bessarbia من رومانيا ــ وقارس Kars ، وأردهان Ardahan ،وباطوم Batum من تركيا . حصلت مونتينجرو Montenegro (الجبل الأسود)والصرب Serbia ورومانيا على أقاليم إضافية ، إلى جانب إستقلال كامل من الإمبراطورية العثمانية . حصلت النمسا على حق احتلال وإدارة البوسنة والهرسك Bosnia and Hercegovina دون سلطة ضمهما من تركيا.

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 3 - p..217.

(١٤٤) سعوا = قد سعوا أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١٤٥) إنا= فقالوا إنا أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

وحدب ، حتى أنهم هجموا على مزارع وأراضى ولى العهد فى قرية (أوخايا) فى اليوم الثالث من مايو من السنة . ونهبوا القصر المقام فيها وأخذوا أسلحة الحرس الملكى ، وكسروا ما فيه من الأمتعة والرياش ، وحرقوا أوراق ولى العهد ، وذهبوا يزمجرون سخطاً على الملك وأسرته ويكثرون فى سبهم . وعندى أنه لولا إستسلام صاحب هذا البيت إلى صاحب سياسة الإنجليز واندفاعه إلى إصلاء نار هذه الحرب أخذا بقوله ، ما وقعت هذه الحرب ولاسمع لبنادق جيوشها صوتاً فى طول اليونانية وعرضها . فلقد نقلت بعض صحف الإنجليز خبراً عن (بطرسبرج) عاصمة الروس مؤداه أنه لما رجعت والدة القيصر من الدانيمارك ، رجعت وهى ناقمة على الدولة الإنجليزية ، ساخطة على أصحاب سياسة الإنجليز ، إذ تحققت وهى عند والديها أن أخاها ملك اليونان لم يقدم على هذه الحرب الطاحنة إلا مدفوعاً من الإنجليز . وقال صاحب (الدالى نيوز) الإنجليزية أن ملك اليونان قال لصديق له «إننى لو رضيت باعطاء (مرفاء صورة) لتلك الدولة العظيمة يعنى انجلترا ، لأخذت كريت من زمن بعيد . قلت وقد ثبت أن صاحب السياسة الإنجليزية لم يعمل على إضرام نار هذه الحرب ويقذف بالعثمانية إليها إلا من أجل مصر وإشغالها عن مصر . ولذا تألبت الدول كلها عليه وعيرته ورمته بسوء النية . وقال صاحب (الفولو) الإفرنسية (إن اليونانية قد ضربت ضربة الموت والإضمحلال ، غير أن القوم الإنجليز لم يستفيدوا شيئاً ولم يربحوا فتيلاً بعد ما سببوا ذبح عشرات الألوف من جماعة الأرمن ، وطوحت فى مهاوى الخراب بلاداً نحبها جداً ، ونغار عليها كثيراً . ونحن نأسف على كل ما جرى من حبنا لليونانيين وغيرتنا على صالها[١٤٦] ، ولكننا لانستطيع أن نتحمل تبعات أعمال أولئك القوم الإنجلير) . أ . هـ .

وأصبح يوم الخميس أول ذى الحجة من السنة ، أى سنة أربع عشرة وثلثمائة وألف ، ثانى عشر مايو من السنة ، وقد أطلقت المدافع من قلعة الجبل

(١٤٦) صالها = مصالحهم قراءة ترجيحية .

وطوابى الإسكندرية إيذانا بعيد الأضحى الكبير .وكان الأمير بمصيفه فى الإسكندرية . فدخل عليه فى صبح اليوم المهنئون من الأمراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط فى قصر الإمارة وهم بملابس التشريفة والزينة . فرأيناه باشا متلطفاً ، وجاءت إلى ديوانه رسائل التهانى والتبريك بهذا العيد من شرق البلاد ومغربها . وأرسل هو إلى المابين الهمايونى على جناح البرق رسالة يهنئ بها السلطان بهذا العيد ، ويبالغ فى عبارات التهانى مشيراً إلى ظفر الجنود الشاهانية فى تلك الحرب اليونانية . وعندى أنهم ــ أعنى أولئك الأبطال ــ جديرون بالمدح والاطراء كما شهدت لهم الخصوم . فقد قال مكاتب شركة (روتر) التلغرافية المرافق لأولئك الجنود بعد كلام طويل ، مفكرة[١٤٧] يوم الجمعة تاسع عشرى إبريل الماضى ما نصه (رجعت بعد ظهر يوم إثنين الجارى يعنى ثانى شهر مايو من السنة بعد أن زرت القوة العثمانية التى ذهبت إلى ناحية (فيلستينو) بقصد التجسس والإستطلاع ، ولكن يبدو لى أن أولئك الترك لاتطاوعهم حماستهم حين يرون العدو وهم يتجسسون على السكوت والتربص . ودليلى على ذلك أنهم لما اضطروا أن يرجعوا القهقرى من (فيلستينو) فى مساء يوم الجمعة تاسع عشرى أبريل لقى كبارهم صعوبة عظيمة جداً فى إرجاعهم عن القتال . فاضطروا أن يردوا حقوقهم[١٤٨] بأيادى سيوفهم رداً ، وهددوهم بالجزاء الشديد إن هم لم يجرعوا[١٤٩] على أعقابهم . فكانوا يصيحون بأعلا أصواتهم «حاشا أن يرجع التركى من أمام اليونانى» . قال فلما ارتدوا وبلغوا السهول جعلوا يتغنون بانشودة وطنية ، فسألهم الضباط ولم هذا التغنى وماذا تريدون به فى اللحظة الغير الموافقة ، قالوا نريد إغراء القوم على اللحاق بنا فيتجدد بيننا القتال) .قال (ومع أن الليلة كانت حالكة فقد كان

---

(١٤٧) مفكرة = فى مفكرة — أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٤٨) حقوقهم = جنودهم — قراءة ترجيحية .
(١٤٩) يجرعوا = يرجعوا .

رجوع أولئك الترك على أحسن ما يكون من النظام ، هذا وغناؤهم متتابع طول وقت المسير ،حتى الجرحى يغنون أيضاً مشاركين لسائر إخوانهم وقد علاهم جميعاً التراب من قمة الرأس إلى إخمص القدم .وكان الذى ينظرهم يخال لهم أنهم قوم منصورون لاعساكر مرتدون متقهقرون) . قال(ومع هذا كله فلم أراليونانيين يحاولون أن يتبعوا الترك بالرغم عن كثرة عددهم فى تلك الموقعة . وهنا يجمل أن أقول بصراحة أن العساكر التركية أصبر العساكر وأقدرهم تحملاً للمتاعب والمشاق وأثبتهم جأشا ، فهم قد ساروا فى يوم الجمعة ثمان ساعات قبل مطلع الفجر ، وقضوا النهار كله فى القتال . وبعد غروب الشمس مشوا ثمانية فراسخ أو يزيد ، ولم تبد على أحدهم إمارات التعب وعلائم الخور) . قال (ومما يستوقف الطرف[١٥٠] تلك الهجمات المتتابعة والحملات التى حملتها فرسان أولئك القوم الأتراك . فقد كان يقودهم الميرالاى[١٥١] محمود بك وهو فى ذى[١٥٢] ياور سلطانى ويحمل معهم على العدو حملات ما بعدها حملات وهو فى طلعتهم ،فرماه أحد الضباط اليونان بمسدسه بأربعة رصاصات فأخطأه ، فانقض عليه محمود بسيفه وأطار رأسه عن بدنه بضربة واحده لم يثنيها) فتأمل .أ .هـ .

ومما يجب ذكره أن مصطفى كامل داعية الحزب الوطنى أرسل يوم عيد الأضحى رسالة على جناح البرق إلى باشكاتب المابين الهمايونى يقول (أرجوكم أن ترفعوا لجلالة مولانا أمير المؤمنين أجل وأصدق تهانينا بانتصار الجيوش الشاهانية المظفرة وبعيد الأضحى المبارك . وأن جميع المتعلقين بجلالة الخليفة الأعظم يؤملون أن جلالته يحن لأنين مصر المسلوبة الحقوق بسلطة الإحتّلال الإنجليزى ـ ويشترط على دول أوروبا جلاء الإنجليز عن مصر

---

(١٥٠) الطرف = النظر قراءة ترجيحية .

(١٥١) الميرالاى = رتبة عسكرية تقابل (عميد) Brigadier - General .

(١٥٢) ذى = زى .

قبل جلاء العساكر الشاهانية عن بلاد اليونان ليتم بذلك فوز تركيا وخلاص مصر) .أ . هـ . فتناقل أصحاب صحف الإحتلال هذا القول وسخروا به على عادتهم وعدوه من سقط المتاع . وقد كان فى وسط سوق السروجية فى مدينة طنطا رجلاً من زعانف القوم وزعر العطوف متشحاً بشملة خضراء وعلى رأسه خوذة حديدية قد أكل الدهر عليها وشرب ، وبيده هراوة غليظة قد لف على رأسها شيئاً من الخرق البالية القذرة . فجعل يهدر ويرعد ويزبد ويقول (نصر الله عسكر السلطان ، أهلك الله عسكر الروم الكفار ، ألله ينصر الخليفة ، ويهلك قران[١٥٣] الروم ، ألله الله الله) . وجعل يتمشى فى وسط السوق وهو على هذه الحال وقد انتفخت أوراجه[١٥٤] وجحظت عيناه ، ثم جعل يقفز وينط ويتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، وأصحاب الحوانيت يعجبون بكلامه ويقولون أنه من الأولياء أهل الكشف المطلعين على ما فى اللوح المحفوظ . وظل على هذا ساعة أو بعضها . وإذا بضابط من الشرطة قد أقبل راكضاً وقبض على ذلك الولى وقاده إلى ديوان المديرية وهو يصيح (ألله الله يا مسلمين ، يا مؤمنين يا حزب الدين) . فألقوه فى الحبس أياماً ثم سيروا به مخفوراً إلى بلده إحدى قرى ولاية المنوفية .

فلما تناقل أصحاب صحف الإحتلال كلام مصطفى كامل إلى باشكاتب المابين ، قالوا أن الرجل يعمل برسائله هذه وأشباهها على تهييج العامة وحملهم على الثورة ضد النزلاء من الأجانب ، وأنه لمدفوع إلى ذلك العمل من قوى عزيز ، وأن أصحاب الإحتلال لن يطيقوا الصبر على هذا النكر والجحود . قيل وكلم لورد كرومر الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك وشدد عليه فى منع ذلك الداعية من التطرف إلى حد إثارة العامه ، وتهييج الرعاع وإلا طوح البلاد إلى أمر غير محمود . قيل فانقبض الرئيس وأكبر فعال مصطفى كامل ، وكلم

(١٥٣) قران = قرال ـ ملك ـ انظر حاشية ٨٧ ص ٧٣٦ .
(١٥٤) أوراجه = أوداجه .

الأمير فيما قاله لورد كرومر ، وكشف له عن بعض ما فى ذلك من المغامرة ، وخوفه من عاقبة هذا العمل الخطير . قيل فلم يرض الأمير عن قوله ولم يلتفت إليه .

وكان فى هذا الحين قد شاع أن ضابطاً من الضباط النمساويين وقيل الألمان إسمه (إيتجز) قد جاء إلى مصر متنكراً يريد الذهاب إلى السودان واللحاق بخليفة المهدى لتمرين جيوشه والخروج بها لمحاربة الإنجليز وإسترجاع ما أخذوه من مملكة التعايشى ، واهتم لورد كرومر بمجيىء الرجل إهتماماً كبيراً ، فأزكى عليه العيون وقعدوا له بالمراصد . وتتبعه الجواسيس فى كل صوب وحدب . وزاد خبر هذا الرجل خطورة تطوع (البرنس دورليان) أحد أبناء ملوك الفرنسيس فى معاكسة سياسة الإنجليز والإيطاليان فى السودان الشرقى ، وذهابه متنكراً إلى سواكن وإلتقائه بجماعة من قوم عثمان دقنه ، ثم عقده العزم على المسير إلى نجاشى الحبشة والتطوع فى خدمته على ما يقولون . ومع هذا وقادة الحزب الوطنى يرجون من ورائه الفلاح لسياستهم والنجاح لشرعتهم التى شرعوها ، ولكنها لم تخف على عميد الإحتلال . وكان ممن اتخذه العميد جاسوساً رجل أسبانى الجنس والتبعة واسمه (خيمنس) داهية محتالاً ، فذهب وراء ذلك الضابط النمسوى (إيتجز) وتتبع خطواته .

وما زال يتبعه حتى قبض عليه فى ضاحية سواكن ، فأنزلوه إلى السويس مخفوراً . فلما وصلها سيروا به على ظهر إحدى السفن الإنجليزية منفياً مبعداً عما كان ينوى عمله . وارتاح جماعة الإنجليز من همه كما كانوا يقولون . فقام عند ذلك أصحاب صحف الألمان وقعدوا ، ونادوا على صاحب سياسة الإنجليز بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وعابوا على لورد كرومر تصاغره إلى حد إتخاذ ذلك الأسبانى الساقط جاسوساً ، وجعل الجاسوسية أساس أعماله فى ديار مصر والسودان . ونقلوا عن رسائل مصطفى كامل فى ذلك شيئاً كثيراً ، وأبلغوا صاحب سياستهم إلى الخطر الداهم بمصالح الدول فى القارة الأفريقية

من فعال القوم الإنجليز ، وأكثروا من إطراء الحزب الوطنى والثناء على زعيمه مصطفى كامل . والعجيب أن ذلك الأسبانى المحتال كان قد جاء من باريز عاصمة الفرنسيس ليعمل على قلب سياسة الإنليز[١٥٥] فى السودان ويستعين بنفوذ الزبير[١٥٦] باشا على بلوغ هذه الأمنية بمختلف الطرق والأسباب . فلقد أخبرنى صديق عن صاحب له من العارفين بأخبار جواسيس أصحاب الإحتلال ، قال بعد كلام (ولا يحسب الذين يطلعون على حديث ذلك الجاسوس الأسبانى وأعماله الخارقة أنه مختلق أو هو مبالغ فيه ، ولكن الرجل عرفته وأصدق كل قول عنه ، وكل حديث على أعماله . وقد جرى لى معه أنى كنت فى صباح يوم من أيام الشتاء لا أزال فى منزلى فى ثوب نومى . وإذا بخادمى يناولنى بطاقة زيارة باسم صديق حميم ، فأذنت بدخوله على حالة أنى فى زى غير زى الاستقبال ، فدخل ذلك الصديق ووراءه رجلان غريبان ، فخجلت واعتذرت إليهم عن مقابلتى لهم فى ذلك اللباس ، وعرفنى صديقى بالرجلين وقال فى عبارة التعريف وهذا المسيو (خمسن)[١٥٧] أحد عظماء أسبانيا ورجال الصحف فيها ، وقد زار لوندرة وباريز وغيرهما من العواصم الأوروبية ، جاء اليوم إلى مصر فى مهمة كبرى وقصد عظيم ، فأحببت أن تكون معينه على قصده ، لأنك تحب مصر وترغب فى نجاحها . فقلت مرحباً بالضيف وأنا فى خدمته متى شاء . فقال الأسبانى أول ما أسألك إياه هو أن ترتدى ملابسك أيها الكريم ونذهب معاً لمقابلة الزبير باشا ، وأرجو أن تكون المترجم بينى وبينه فى مهمتى ، فقلت فى موعد آخر إن شاء الله) وكان خيمنس هذا ربعة من الرجال ذا عينين براقتين كعيون اللصوص والمحتالين ، فلم يطمئن له قلبى . قال وكأنه لمح ذلك منى فبالغ فى محاولة إسترضائى ، وتكلم بالفرنسية الفصحى فى ساعة ما كان غيره لا يقوله فى بضع ساعات ،

(١٥٥) الانلير = الإنجليز .
(١٥٦) الزبير باشا = راجع حاشية ٢٨٨ من حواشى عام ١٨٩٣ ـ ص ٢٤٠ .
(١٥٧) خمسن = خمنس .

فكان فى حديثه ما دلنى على نيات الرجل التى منها ذهابه إلى السودان وعمله عملا عظيماً فيه ، تقوم لذكره الدنيا وتقعد ، ويحيق بجماعة الإنجليز شر هذا العمل الخطير ، قال ثم نظر إلى باسماً وقال (واعلم أنه مهما كانت أرباح عملك وكسبك اليومى فإنك ستربح أضعافها إذا رافقتنى فى هذه المهمة) . فلما بلغ إلى هذا الموقف من الحديث إزددت ريباً فى أمره وسألته عما كان يفعل فى لوندره وباريز لعلى أعرف شيئاً من ماضيه . فتكلم حتى كاد يرغى ، ولم يزدنى علماً بشىء من حقيقة حاله . ثم تفارقنا على أن نلتقى بعد يوم . وسرنا معاً إلى دار الزبير فعرفته به . فجرى بينهما حديث كنت مترجمه . وكان كله ثناء من (خيمسن)[١٥٨] على علو همة الزبير واعترافاً بما له من الذكر الكبير ولاسيما فى السودان . وسؤالاً عما إذا كانت تتوق نفس الزبير إلى العودة إلى إمارته . وكان الزبير يجيب على هذا تارة بالشكر وتارة بالأجوبة التى تحتمل التأويل الكثير ولا يستقر معها على معنى . ثم إنصرفنا من حضرة الزبير وقد إزددت ضلالاً فى مقاصد ذلك الأسبانى التى تخيلتها لغزاً من ألغاز السماء على الأرض ،فجعلت أسايره وأخاتله حتى أقف على جلية أمره . وبعد أخذ ورد وجذب ودفع طال فى الحديث بيننا ، أباح لى أمره بما فهمت منه أنه كان جاسوساً لصاحب السياسة الإنجليزية على إحدى السفارات فى لوندره ، وأنه كان كذلك لصاحب السياسة الفرنسية أياماً من الدهر . وذكر لى فى جملة سماهم[١٥٩] إناساً أعرفهم ، ثم أفهمنى أنه قدم إلى مصر وقد سمع يوجود غلام للزبير ، شاب مسرف مضيع للأموال مفتون بحب الغانيات ، مثقل بالديون ، وأنه إنما توسل بى لمعرفة الزبير لأنه ينوى أن يأخذ منه على إنفراد جميع المعلومات المتعلقة بإمارته فى السودان ، ثم يغرى ولد الزبير على الفرار من هذه الديار التى ثقلته بديونها إلى بحر الغزال ليكون فيها الأمير الثرى . قال الراوى فاستضحكت فى نفسى من

---

(١٥٨) خيمسن = خمنس .

(١٥٩) سماهم = من سماهم أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

هذه الغريبة وجهل ذلك الأسبانى المطلق ، ولكنى شعرت براحة فى ضميرى ، وقلت له وما قولك لو علم بخبرك جماعة الإنجليز من أهل المناصب . قال غاية ما أحبه أن يعلم الإنجليز وكل من فى الأرض والسماء أننى فررت بابن الزبير واستطلعت أحوال السودان ، وسواء بلغت به إمارة أبيه أو لا فإنى واثق بكسب المال الوفير .قال فتبسمت وقلت لقد ضجت[١٦٠]الصيف اللبن . قال ولم ذلك؟ قلت أن الزبير لا ولد له ولا شىء هنا مما تتخيله ، فبهت .فتركته وانصرفت . قال وما هى إلا أيام حتى جاءنى كتاب من ذلك الذى عرفنى بذلك الأسبانى المحتال يعتذر إلى ويظهر غاية الأسف عن جنايته التى خبأها على وهو لا يفطن إليها . وأخبرنى أن (جمسن)[١٦١] هذا كان جاسوساً محتالاً نصاباً ، وأنه أخذ من صاحب إحدى الصحف الكبرى مالا بدعوى أنه يكاتبها من السودان ، وأخذ من أخرى بدعوى أنه يكاتبها من الحبشة . وأنه لم يدفع ما أنفقه مدة أشهر فى منزل كذا الذى هو أكبر فنادق القاهرة فطرد منه طرداً . قال واتفق لى بعد ذلك أن لمحت ذلك المحتال فى بعض المطاعم الحقيرة يأكل لقمته فى شبه خفية ، ثم انقطع عهدى به ، فقيل لى أنه ذهب إلى الحبشة يقتفى أثر (البرنس دورليان) ، وأنه تناول خمسمائة جنيه عدا من الوكالة البريطانية لهذا الغرض . فسار إلى (جيبوتى) وهو تارة يدعى أنه تاجر أسلحة ، ومتعهد للحبشة بشىء من معدات الحروب ، وطوراً أنه من علماء الآثار ومحبى الأسفار . والحقيقه أنه جاسوس لجماعة الإنجليز على ما هو عليه من الحقاره وسفالة الأصل فتأمل) . قال مخبرى فلم أستعظم عمل ذلك الأسبانى ولم أرى فيه ما يوجب الدهشة . لأن الجاسوسية عند أولئك القوم مهنة تتطاول إليها الأعناق ، وتطمئن لها نفوسهم . قال فقلت لمحثى[١٦٢] الراوى هذا الخبر (إنى أراك تستعظم إتخاذ جماعة الإنجليز تلك[١٦٣] الأسبانى جاسوساً فى أطراف السودان

(١٦٠) ضجت = ضيعت قراءة ترجيحية ـ فالمثل العربى يقول (ضيعت الصيف اللبن) .
(١٦١) جمسن = خمنس .
(١٦٢) لمحثى = لمحدثى .
(١٦٣) تلك = ذلك .

والحبشة ، فكيف يكون حالك إذا علمت أنهم قد اتخذوا من قومك المعممين المصليين أصحاب العكاكيز عيوناً لا تغفل عن التطواف على بيوت الناس يتبصصون فى منافذها ، ويلاوحون من ثقوب أقفالها ، ومن خصاص أبوابها ، وشقوق حيطانها ، وهم كما يقول الشاعر .

إن يعلموا الخير أخفوه وإن علموا شراً أذاعوه وإن لم يفلحوا كذبوا

فقطب وجهه وقال (تباً لقوم هذا حالهم) . وتركنى وانصرف سامد[١٦٤] الرأى ساخط من الغيظ أ . هـ .قلت ولم يكن قول مخبرى مبالغ فيه . فقد كان بين أعيان وعمد بعض البلاد فى الإقليمين وأهل القاهرة أيضاً ، نفر قد تقربوا من بيت العميد بالجاسوسية وكشف عورات الناس ، وآخرون بالسعاية والنميمة ، وغيرهم بالمدح والإطراء وتحسين القبيح من فعال العميد ، وتقبيح الحسن من أعمال الأمير ، حتى لقد رأيت لبعضهم قصائد طويلة من مائة بيت أو يزيد فى مدح العميد وإطرائه ، ووصفه بالكياسة وأصالة الرأى ، وأنه المهاب المسموع الكلمة المطاع القابض على دفة السياسة فى القارة السوداء ، وغير ذلك من التشبيهات الضخمة والاستعامات[١٦٥] الثقيلة على أسماع الكثير من الناس ، ولا أدرى إن كان العميد يفهم معناها بعد نقلها إلى الإنجليزية أو لا؟ وما إذا كان يحلها محلاً من خاطره أو لا . ولكنه لايرى عيباً فى تكريم أولئك النفر وإدخالهم أو إدخال بنيهم فى مصاف أصحاب المناصب وأهل الخطط ، وربما فى مصاف الوزراء . أى نعم فعل ذلك ، وها بعضهم يتصدر فى كراسى الوزراء ومقاعد المديرين والمحافظين ، ومأمورى المراكز بل ومنصة القضاء إلى يومنا الذى نحن فيه . وبعضهم ما برح يزاول مهنة الجاسوسية على شرطها المعيب . وبعضهم قد مات وأعماله تتبعه .

---

(١٦٤) سامد = لاه ــ مختارالصحاح ـ ص ١٣١ .

(١٦٥) الاستعامات = الكلمات قراءة اجتهادية .

وكان الأمير قد سير على إحدى بواخر (شركة الحاج داود) جماعة من العساكر المصرية والضباط لا يتجاوز عددهم الثمانين ومعهم شيئاً من الذخيرة والآلات الحربيه إلى طشيوز[١٦٦] التى هى من الإقطاعات المقطوعة من سلاطين آل عثمان إلى محمد على باشا الكبير على عهد السلطان محمود[١٦٧] .فبينما هم فى طريقهم فى عرض البحر وهم على قيد عشرة أميال من(تنديوس) لمح الباخرة الطراد اليونانى المسمى (بينوس) ، فأطلق من فوره مدفعاً فى الهواء أنذارا للباخرة بالوقوف فوقفت . فأرسل إليها زورقاً وفيه عدد من رجاله ، فصعدوا إلى الباخرة وجعلوا يفتشون ويبحثون ما فيها ، فعثروا على بعض ذخائر حربية ، وكثير من الأسلحة وأربعة مدافع من طراز متراليوز ، وأربعة آلاف جنيه عدا . قالوا والذخيرة مذكورة فى ورقة الشحن باسم(بريات فاكهة) . ولما سئل الضابط والجند قالوا جميعا أنهم مرسلون إلى(طشيوز) من أمير مصر . فقاد الطراد الباخرة إلى ميناء(بيرا) . وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الداخلية

(١٦٦) طشيوز = راجع حاشية ٣٣٤ من حواشى عام ١٨٩٥ ــ ص ٥١٢ .

(١٦٧) السلطان محمود = محمود الثانى ـ السلطان العثمانى (٢٠ يوليو ١٧٨٥ ــ ١ يوليو ١٨٣٩) ـ حكم الإمبراطورية العثمانية من ١٨٠٨ حتى وفاته وبدأ إصلاحات حديثة حولت الإمبراطورية خلال القرن التاسع عشر . بعد فشل مبادرة ذاتية لتحديث الجيش سيطر على (محمود) مجموعة العناصر المحافظة خلال العقدين الأولين من حكمه . ومع هذا فإنه قوى وضعه تدريجيا عن طريق تعيين محاسيب Protégés له فى المناصب الحساسة ــ واستخدم الهزائم العثمانية على يد الصرب واليونانيين الثائرين ليضعف الثقة بالإنكشارية ــ فى عام ١٨٢٦ أوقع بالإنكشارية فيما يسمى (بالواقعة الخيرية) التى قضى فيها عليهم متخلصا بذلك من سلاح الجيش الذى كان يستخدمه الرجعيون . تبع ذلك إصلاحات مكثفة فى مجالات الضرائب الجيش ، والبيرقراطية . أسست مجالس نيابية منفصلة ووزارات ذات مهام لأول مرة فى الدولة بدلا من المجلس السلطانى القديم .
أعترف محمود الثانى بالاستقلال الذاتى الفعلى للصرب عام ١٨١٥ ، وبعد هزائم بواسطة الحلفاء الأوروبيين لليونان فى معركة نافارينو Navarino(١٨٢٧) وبواسطة الروس فى الحرب الروسية ــ التركية ١٨٢٨ - ١٨٢٩) قبل استقلال اليونان . ساعده محمد على ضد اليونانيين بجيشه الحديث . وعندما رفض أن يمنحه (سوريا) استدار الجيش المصرى عليه (١٨٣١ - ١٨٣٣) ولم ينقذ القسطنطينية سوى التدخل الروسى . قامت حرب أخرى (١٨٣٩) مع مصر وانتهت بهزيمة مروعة له قبل موته بأيام (نصيبين) . حالت هذه المنازعات دون استكمال إصلاحات محمود فى بلاده ، لكنها ارست ــ مع هذا ـ الأسس لمن تولوا هذه الأعمال فيما بعد خلال القرن التاسع عشر .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 13 - p..65.

وديوان الأمير ، وتفشى بين الناس ، فأكبروه . وكلم الأمير قنصل جنرال اليونان فى ذلك . وطال الأخــذ والرد فى أمــر إطلاق ســراح تلك البــاخــرة بمــا معها .ومضت أيام والأخبار كل يوم فى شأن . وعلم الباب العالى والمابين بخبر هذا الحادث فاستعظموه ، وأكبروا وقوعه من الأمير فى هذه الظروف الحرجة . وما زالت الباخرة وركبها محجور عليها فى ميناء بيرا حتى وقعت الهدنة بين دار السلطنة واليونانيين(١٦٨) . وجاء الخبر من صدر الدولة(١٦٩) إلى الغازى مختار باشا بإيقاف رحى الحرب بناء على طلب الدول ووساطة قيصر الروس ومخاطبة السلطان فى ذلك مباشرة دون واسطة ، فأذن لتلك الباخره بالإقلاع من بيرا . وقد كانت شركة داود صاحبة الباخرة قامت تطالب بثمنها وبتعويض مالى عما لحق بها من الخسارة فلم تفلح ، أو هى كما يقولون نالت بعض الشىء التافه القليل . وأخذ أسرى اليونان يفدون إلى دار السلطنة أفواجاً ، فأنزلوهم على الرحب والسعة . وبرز أمر السلطان بشدة العناية بأمرهم . وشاع خبر وصولهم إلى الآستانة وقدوم بعض المرضى والجرحى أيضاً ، فأرسلت الأميرة والدة قيصر الروس إلى السلطان مستشفى نقالى فيه خمسمائة سرير هدية منها لمرضى المتحاربين . فقبله السلطان وأرسل يشكرها على هذا الجميل الباهر والعمل المبرور . وجاء الخبر بتمام عقد الهدنة ووقوف رحى الحرب فى سائر المواقع والحدود . وذلك أنه لما اشتدت ولم تكن لتهدأ الأسماع(١٧٠) من توارد أخبار الحرب وتطمئن الخواطر من إنقطاع أنباءها المزعجة ، حتى جاءت إلى وزارة

---

(١٦٨) ذكر محمد فريد هذه الواقعة فى أحداث الأسبوع الثانى من شهر مايو ١٨٩٧ ـ وقال أن قوة من مائة خفير ومائتى بندقية وبضعة آلاف خرطوش كانت مرسلة من الخديو (لخفارة هذه الجزيرة) ـ وأن اليونانيين صادروا الأسلحة (بدعوى أنها مرسلة لمساعدة الدولة العلية) .

ــ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٩١ .

(١٦٩) يقصد الصدر الأعظم ــ رئيس الوزراء العثمانى .

(١٧٠) وذلك أنه لما إشتدت ولم تكن لتهدأ الاسماع = ولم تكد الأسماع تهدأ ـ عدلت الكلمة لتتفق مع التسلسل اللغوى فى الصفحة التالية

الداخلية أنباء الفتن التى قامت بين أهل سيوا[١٧١] الشرقيون والغربيون . وامتناع السواد الأعظم منهم عن دفع الضرائب لجباتها ، وخروجهم عن طاعة الحكومة جملة . وتحرير الخبر من أوثق المصادر أن الناس هناك أصبحوا يوماً وإذا بالطبول تقرع مستنفرة إلى الحرب . فخرجوا جميعاً وجعل كل فريق منهم يتحيز إلى فريق آخر ، ثم تحصنوا فى المنازل ، وجعل الفريقان يتراميان برصاص البنادق يومين كاملين بلا إنقطاع ليلاً ونهاراً . فلما كان اليوم الثالث إتفق المتحاربان على ترك المنازل والخروج إلى ظاهر البلد حيث لا شىء يحول دون رصاص البنادق ، فخرجوا صفوفاً منتظمة بالطبول والرايات وخلفهم النساء والغلمان يحملون آلات الحرب ومعدات القتال . فلما وقف كل فريق فى مكانه دقوا طبولهم فانتشب القتال ودوت أصوات البنادق ،وتطاير رصاصها كالمطر من كل جانب .فما هى إلا ساعة حتى قتل من الغربيين خمسة وسبعين قتيلاً ومن الشرقيين خمسة وأربعين ،وجرح من الجانبين ستين جريحاً ،وجرح أيضاً كثير من النساء والغلمان .فكانت معركة هائلة جداً .وطيروا الخبر إلى جغبوب[١٧٢]

---

(١٧١) سيوه = منخفض يشكل جزءا من الواحات الغربية بالصحراء الغربية الممتدة من غرب وادى النيل إلى ليبيا ـ وتضم الواحات الغربية هذه (من الجنوب الشرقى إلى الشمال الغربى) : الواحات الخارجة والداخلة والفرافرة والبحرية وسيوة ـ تنخفض واحة سيوه عن سطح البحر ـ ويقع بينها وبين محافظة الفيوم منخفض القطارة الذى تبلغ مساحته حوالي ثمانية عشر ألف كم . فى ثلاثينيات القرن الحالى كانت الصحراء الغربية التى تقع بها الواحة تنقسم إداريا إلى محافظتين تابعتين لمصلحة أقسام الحدود : إحداهما تشمل القسم الشمالى بما فيه الواحات البحرية والفرافرة تعرف بمحافظة الصحراء الغربية والأخرى الجزء الجنوبى بما فيه واحتى الخارجة والداخلة وتسمى بمحافظة الصحراء الجنوبية ـ وتدخل سيوة فى النطاق الإدارى لمحافظة الصحراء الغربية ـ ووفقا لتعداد (١٩٢٧) فإن عدد سكان المحافظة البحرية ـ الفرافرة ـ سيوة) كان ٤٨٩٥٦ نفسا .

ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٠ ، ٧٦ .

ـ أنظر الخريطة (ملحق رقم ٧) .

(١٧٢) جغبوب = واحة صغيرة شمال غرب سيوة ـ تبعد عنها بمسافة ١٢٥كم ـ وبينها وبين السلوم ٢٤٠كم ـ تقع على خط الطول ٢٤,٥ وبين خطى العرض ٢٩ - ٣٠ ـ قائمة على تل أرتفاعه ١٥ مترا ـ تقع بصفة عامة على الطرف الغربى المنخفض فى الصحراء الغربية ـ كانت مقرا للطريقة السنوسية . كانت إيطاليا قد أحتلت برقة وطرابلس عام ١٩١٢ ووقعت صلح (أوشى) مع الدولة العثمانية ـ فى أبريل ١٩١٥ وقعت إتفاقية لندن بين إيطاليا ـ بريطانيا ـ فرنسا ـ وروسيا ، وبمقتضى=

فحضر بعض مشائخها ، وتوسطوا بين الخصمين ، وعقدوا بينهما هدنة حتى تتقرر قاعدة الصلح . قالوا وقد مات فى الموقعه (الشيخ حسونة منصور) (والشيخ أحمد حماد) (والشيخ جبريل خلاف)(والشيخ موسى عثمان) وكلهم من كبار القوم ورؤوس الأسر وقواد الفرق . قالوا ولو أن الرئيس مصطفى فهمى باشا عمل برأى مدير إقليم البحيرة وسير من أهل المناصب من يوقف بين المتخاصمين لزالت أسباب الوحشة من بينهما ، وانصرفوا جمعاً عن الهرج والخروج بعضهم على بعض . ولكن الرئيس لم يهتم بالأمر ولا أنزله محله من الأهمية . فكان من وراء ذلك ما وقع من سفك الدماء واستحكام البغض بين أهل البلد الواحد ، وتطلع الباب العالى إلى ضم ذلك البلد إلى ولاية طرابلس الغرب ، ومنع تيار الفتنة من الوصول إلى تخوم الولاية . قالوا وقد كلم الغازى مختار باشا الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك ، وأشار إليه من طرف خفى على عادة أهل السياسات) .

لما اشتدت نيران الحرب على اليونانيين وطردوا من كل صوب ودرب ،وكثرت قتلاهم وجرحاهم كثرة بالغة ،ولم يبق إلا القليل على دخول الجيوش التركية أثينا عاصمة اليونان ، طاف صاحب سياسة اليونان على بيوت سفراء الدول يرجو وساطتهم ، وأكثر من التوجع والشكوى . فأشار سفير الألمان

=هذه الإتفاقية كانت إيطاليا تدخل الحرب مع دول الحلفاء على أن تمنح بعض المستعمرات ـ وأن ترث الدولة العثمانية فى طرابلس وبرقة . فى اتفاقية ملنر ـ شالويا (أبريل ١٩٢٠) تعهدت بريطانيا بتسوية الحدود الغربية المصرية التى كانت تعنى إيطاليا باعتبارها تحتل طرابلس وبرقة . على مدى السنوات ١٩٢٢ - ١٩٢٥ ظلت إيطاليا تطالب مصر بتسوية الحدود الغربية حتى تم فى ١٩٢٥/١٢/٦ التوقيع على إتفاقية الحدود الغربية المصرية ـ وفيها عدلت حدود مصر مع ليبيا لتدخل جغبوب فى أراضى الأخيرة ـ وفى عام ١٩٢٦ وضعت إيطاليا يدها على الواحة تنفيذا للإتفاق الذى صدق عليه البرلمان المصرى فى عهد وزارة إسماعيل صدقى (١٩ يونيو ١٩٣٠ ـ ٤ يناير ١٩٣٣) .

ـ محسن محمد (سرقة واحة مصرية) كتاب اليوم ـ العدد ١٧٧ ديسمبر ١٩٨٠ ـ دار أخبار اليوم ـ ص ٢٣ ، ١٤٣ ـ ١٥١ .

ـ انظر الخريطة ملحق رقم (٧) .

على الملكة أولغا(١٧٣) ملكة اليونان أن تلتمس وساطة قيصر الروس ففعلت ، وكان ما كان من إرسال القيصر رسالته البرقية إلى السلطان . وقيل أن الذى فعل ذلك هو ولى العهد ، فقد أرسل إلى القيصر رسالة برقية ذكر له فيها صلات القربى التى بينهما والتمس منه أن يتداخل لوضع حد لقتال يبلغ العدو فيه أربعة أضعاف اليونان . فلما وصلت الرسالة إلى ديوان القيصر أرسل من يومه إلى السلطان رسالة أعرب فيها عن أمله فى إيقاف رحى الحرب جملة وقال (إن جلالتكم أبنتم فى منشوركم الأخير إلى الدول المحايدة عن إعتدال تام ، وجهرتم بأنكم إنما تقومون بحرب دفاعية ولا غرض لكم البتة فى غزو أو فتح جديد) قال (وأنى ألفت نظر جلالتكم إلى شعائركم الكاملة الإنسانية وإلى أن ما دام أن جيوش جلالتكم ظافرة فى كل صوب وحدب ، فلم يبق من حاجة إلى إراقة دم جديد) . فلما وصلت الرسالة إلى السلطان أجاب القيصر برسالة شكر له فيها حسن ظنه وعباراته الودية ، ورجا منه أن يمنحه مساعدة فى إتمام شروط الصلح وتقرير قاعدة ثابتة له ، وأبرز فى الحال أمره إلى (أدهم باشا) قائد جيوش تساليا (وعثمان باشا) قائد المحاربين فى (أبيروس) بعقد الهدنة ، والكف عن مضايقة اليونان ففعلا . وكان إمبراطور الألمان قد امتنع عن مشاركة الدول فى كل ما كانوا متفقين فيما بينهم على عمله لمصلحة اليونانية ، لعدم رضوخها لنصائحه وتشامخها المعيب ، فلم يبق فى وسع الدول العمل بدون اشتراك الإمبراطور معها . فأرسل إليه القيصر يرجوه التساهل والغض عن غزو اليونان الذى أوقعهم فى هذا الخراب المقيم ، فأجابه إلى ذلك . وكان صاحب سياسة الإنجليز قد أعيته الشفاعة فى كل ذلك فلم يفلح . وعلم صاحب سياسة اليونان بأن الباب العالى قد صمم على طلب غرامة حربية لاتقل عن

---

(١٧٣)أولجا = أولجا كونستانتينوفنا Olga, Constantinovna ـ ملكة اليونان ـ إبنة الدوق الروسى قنسطنطين Constantin ـ ولدت فى بافلوسك Pavlosk عام ١٨٥١ .

- Larousse Universel, Vol. II. p., 419.

ستين مليوناً من الفرنكات على أى حال كان . فكاد يسقط فى يده ، وجهر بأن حكومته لاتريد ولاتقدر أن تؤدى غرامة لأن المزروعات فى (تساليا) قد دمرت وفى (تريخالا) أيضاً . وأن لديها مائة وثلاثين ألفاً من المهاجرين ، وهم تقوم بالإنفاق عليهم . وأن مقاطعتين من أكبر مقاطعات اليونانية قد صارتا فى حالة تستدعى التصليح والعناية . وكل هذا يستلزم الشىء الكثير من النفقة . وعلمت الدول الوسيطات بذلك فلم يعجبهن هذا القول . وقامت ضجة أصحاب سياستهن ، فمنهم من أشار باحتلال الجيوش التركية لبعض أراضى (تساليا) اليونانية بمثابة ضمان لدفع مال الغرامة ، ومنهم من أشار بأن تقوم بعض الدول بكفالة اليونان حتى يدفعوا الغرامة وهم صاغرون . ومنهم من أشار بغير ذلك . وطال الأخذ والرد أياماً حتى تقررت القاعدة بينهم على ما لايهمنا البحث فيه لبعده عن غرضنا فى هذا الكتاب .

لما رجع لورد سلسبورى صاحب سياسة الإنجليز من استرضاء إمبراطور الألمان بصفقة المغبون ، وخاب سعيه كما تقدم بك القول ، أكبر الأمر وأعظمه جداً . فقام لنصرته بعض أصحاب صحفهم ، وأنحوا على ذلك الإمبراطور شتماً وتعذيراً ورموه بحب سفك الدماء وسحق الأبرياء ، وظلوا على هذا أياماً . فلما وصلت صحفهم إلى أيدى أصحاب بعض الصحف المصرية فى القاهرة والإسكندرية قام أحدهم صاحب (المشير) الذى ينتهى إلى أصحاب الاحتلال ويسبح بحمد عميده ونقل تلك الشتائم فى صحيفته ، وزادها سماجة وسخافة . فلم يبق على كرامة الإمبراطور ولم يذر ، فتفشت شتائمه بين السوقة والعامة . فظنوا أن إمبراطور الألمان إنما هو المحارب لعساكر السلطان وأنه ناصر لدولة اليونان على دولة آل عثمان . فجعلوا يتحككون بأصحاب القبعات ، وينظرون إلى النزلاء بعين القلى غير مفرقين بين الألمانى واليابانى والفرنسى والإيطالى . واجتمع يوماً جماعة منهم خارج باب الحسينية على هيئة جيشين متحاربين أحدهما تركى ورايته شملة حمراء ، والثانى يونانى ورايته نعال قديم

على عصاء . فلما انتظم الصفان جعلا يتراشقان أولاً بألفاظ سمجة بذئة يسمونها فى عرفهم (بالنكتة) ، وهى كما كانوا يومئذ يقولون عنها (قافية المراطور) وكلها سباب موجه لشخص إمبراطور الألمان . وظلوا على هذا وهم فى قهقهة وتمايل حتى حميت بينهما نار النكتة واشتدت قافيتها ، فأخذوا يترامون بالحصى وقشر البطيخ ويعفرون بعضهم بالتراب وهم فى ضجة وصياح متتابع كأن الحرب قائمة على ساقها . وفيما هم على هذا إذ أقبل أصحاب الشحنة على عجل وقبضوا على من لحقوه منهم ، وفر من لم يدركوه ، وقادوهم إلى الحبوس ، ثم أوقفوهم أمام القضاء فحكم عليهم بالعقاب . فلم يعجب قنصل جنرال دولة الألمان ما حكم به القضاء ، وكلم الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك ، فكانت بينهما وحشة . حدثنى صديق من أهل المناصب فى ديوان الرئيس قال . كنت يوماً فى غرفة الرئيس ومعه الوزير بطرس باشا غالى ، وناوله أحد الحجاب بطاقة لزائر ، فتناولها ونظر فيها وسلمها إلى الوزير قائلاً له ها قد جاءنا ، ثم وقفا الإثنين . فتواريت فى أودة داخل الغرفة . فدخل صاحب البطاقة ، وإذا به قنصل جنرال الألمان . فسلم وعلامات الغيظ بادية على محياه وجلس . فجعل الوزير بطرس باشا يحادثه وفى حديثه شيء من الرقة والملاطفة لدالة بينهما ، ثم التفت القنصل إلى الرئيس وقال يا سبحان الله أنى أراكم تكيلون فى محاكمكم بمكيالين وتزنون جرائم سفلائكم بمعيارين ، فإن وقعت جريمة عامتكم أصحاب(١٧٤) الإحتلال قمتم وقعدتم وشددتم فى العقوبه ، وإن وقعت ضد غير الإنجليز أغضيتم ما استطعتم وخففتم ما قدرتم . وها(١٧٥) صاحب جرية(١٧٦) المشير قد سود وجه صحيفته بفحش القول وهتر الكلام والسباب لشخص الإمبراطور ، ولم نر منكم فى ذلك عدلاً ولا صرفاً . ورأيناكم يوم قام أصحاب بعض الصحف الإسلامية تندد بسياسة الإنكليز فى هذه

---

(١٧٤) أصحاب = ضد أصحاب أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٧٥) وها = وها هو أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٧٦) جرية = جريدة .

البـلاد ، وتشيـر من طرف خـفى إلى ضـعف إرادة ملكة الإنجليـز وعجـزها عن الحركة قد قمتم وقعدتم . بل قامت هيئة حكومتكم بخيلها ورجالها ، فنكلتم بأصحاب تلك الصحف ، وضربتم على أيديهم ضربة كانت القاضية . فلم تقم لهم من بعـدها قـائمـة ، فمـا هذا الفـارق المـعيـب يا ترى .إن دولة الإمـبـراطور غليـوم(١٧٧) لـم يبلغ بهـا الوهن إلى حـد أن تنهـشـهـا أنيـاب صـحف سـاقطة ، وأصحابها لايخافون الحساب ولايخشون يوم العقاب . قال محدثى فامتقع لون الرئيس وجـعل يلاطف القنصل ويخـفف عنه . ومـال إلى القـنصل أيضـاً الوزير بطرس باشا فأشبعه عطفاً ، ومسايرة واسترضاء بحلو الكلام وملاحة التعبير ، وما زال به حتى انصرف وهو راض عما كان متربصاً لما عساه أن يكون من تصاريف الزمان .أ . هـ . أقول وكان من وراء إقدام بعض أصحاب الصحف الساقطه على نهش الأعراض وتسمم أفكار العامة ضد الأجانب وتقليدهم حروب العساكر السلطانية مع العساكر اليونانية كما مر بك البيان ، أن حدث سادس عشرى مايو من السنة ، رابع عشرى ذى الحجة سنة أربع عشرة أن (المسيو فيسيه) وكيل شـركة (هافاس) التلغرافيـة قـدم من الإسكندرية فى صبح اليوم إلى القاهرة ، وركب إحدى العربات من ميدان المحطة يريد منزله . فلما بلغه ناول الحوذى أجرة المركبة ، فلم ترضه ورماها فى وجهه شاتماً . فتقدم إليه (المسيو فيسيه) بعصاه مهدداً . فأمسك الحوذى بالعصاة ولطم (فيسيه) على وجهه وصاح (يا مسلمين يا مسلمين ، ما يحل من الله أن الكافر يضرب المسلم) . وجعل يصيح ويستغيث وهو قابض على الفرنسى . فاجتمع حولهما جمع عظيم من السوقة والبرابرة والمتشردين وانهالوا على الفرنسى بالضرب واللكم والرفس بالأرجل . وجاء على الأثر شرطى فأمسك بعصا الفرنسى ونزعها من يده وضربه بها ثلاثاً على ظهره ، فانكسرت وصاح صائح الفرنجه . فأقبل جماعة منهم ممن كانوا جلوساً على القهاوى وممن كانوا فى الشوارع وأعملوا الضرب فى بعض السوقة

(١٧٧) راجع حاشية ٢٥٩ من حواشى عام ١٨٩٢ ــ ص ١٥٨ .

والبرابرة .فعلى[١٧٨] الصياح واشتد العجاج وتطايرت العمائم والقبعات ، وأمسك بعضهم بأطواق البعض ، وانضم بعض الحوزيه[١٧٩] إلى رفيقهم ، وقد سدوا الطريق بعرباتهم . وأقبل صاحب الشرطة يعدو بجواده ومعه جماعة من الفرسان ، فاكتسحوا الجموع بصدور الخيل ، وقبضوا على ذلك الشرطى ومعه عصاء الفرنسى . وقبضوا على الحوزى[١٨٠] وآخرين معه ، وساقوهم إلى القسم ومعهم (المسيو فيسيه) حاسر الرأس مصاباً ببعض الجروح الخفيفة . وبلغ خبر الحادث قنصل الفرنسيس ، فركب من ساعته إلى محافظ المدينة ، ثم إلى وزير الخارجية . فسير الوزير فى طلب المحافظ وشدد عايه بتحقيق الحادث ومعاقبة الجانى . وبرز الأمر بحبس الشرطى وقد نزعوا عنه سلاحه ، وقضوا اليوم فى البحث والتحقيق ، ثم حكموا على الحوزى[١٨١] بالحبس وكذلك الشرطى مع التشغيل فى الأشغال الشاقة . وخمدت نار هذه الفتنه بعد أن كانت[١٨٢] تتأجج ويعلو لهيبها ، ولكن نفوس النزلاء باتت فى ريب من العامة وقلوبهم فى إنقباض وتخوف . وهذه نتائج إقدام أصحاب الصحف الذين لا خلاق لهم على نهش أعراض الملوك والأمراء والكبراء فى هذه الأيام فتأمل .

ولما كان اليوم الأول من شهر يوليو من السنة وغرة المحرم افتتاح سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف ، عاد السردار كتشنر باشا من دنقلة إلى القاهرة ، وسار تواً إلى قصر الوكالة البريطانية ، ولبث مع لورد كرومر ساعة ، ثم حضر إلى وزارة الحرب . فلم يستقر به المقام حتى برز الأمر إلى ساير المديرين والمحافظين بالتعجيل فى إرسال جميع المقترعين من شبان الجندية ، وإلى مخازن وأشوان المعدات الحربية بتعجيل إرسال قدراً من المعدات مقدوراً إلى

---

(١٧٨) فعلى = فعلا .
(١٧٩) الحوزية = الحوذية .
(١٨٠) الحوزى = الحوذى .
(١٨١) الحوزى = الحوذى .
(١٨٢) كانت = كادت

التخوم . وشاع الخبر بأنهم أخذوا الأهبة أو كادوا للزحف إلى ما وراء دنقلة من جهة ، وإلى إحتلال بربر وكسلا من جهة أخرى .وظهرت الحركة فى جميع منازل الجند بالقاهرة وبين العساكر الإنجليزية بالإسكندرية . ثم برح السردار القاهرة إلى مصيف الأمير بالإسكندرية ، ولبث أياماً يغدو ويروح بين قصر الإمارة ومقر الوزارة ، ثم عاد فبرز الأمر بتسيير جميع المستودعين من مقترعى سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف إلى وادى حلفا ، فأرسلوهم على ظهور الشوانى الكبار ، وأرسلوا معهم جميع أصحاب المدافع الذين بالقاهرة وقلعة الجبل ، ويقال أن قد برز أمر السردار إلى قومندان دنقلة بأن يحشد الجنود كلها قبل نهاية شهر يونية الجارى بين (كورتى)[١٨٣] (ومروى)[١٨٤] ليكونوا على استعداد لإجتياز بربر[١٨٥] والشلال الخامس عند أول إشارة تصل إليه . فتحقق الناس أو كادوا من أن الحملة زاحفة إلى ما وراء دنقلة لا محالة ، وأن السردار قد أخذ أهبته ، وأن قد جاءه الأمر من ديوان صاحب السياسة الإنجليزية بذلك . وعندى أن ظهور هذه الحركة فى هذا الحين أمراً لابد منه بعد عودة البعثة الإنجليزية[١٨٦] الذين[١٨٧] كانوا قد بعثوا بها إلى منليك ملك ملوك الحبشة منذ أيام من الدهر . وذلك أنه لما تعذر على عيون السردار وجواسيه[١٨٨] معرفة شىء ما البتة من أخبار وحركات الدراويش فى مكامنهم بعد إحتلال دنقلة ، وكان كل ما يأتون به عن أولئك القوم أبتر قليل الفائدة أو هو مبالغ فى شره ومغبته ، وكانت جواسيس الإيطاليان تنقل عن منليك أخذه الأهبة لنصرة أصحاب المهدويه ، وتألبهم معاً على طرد الإنجليز والإيطاليان فى ساير أرجاء السودان شرقاً وجنوباً ، برز الأمر إلى السردار ولورد كرومر بتسيير بعثة من قومهم إلى

---

(١٨٣) كورتى= انظر الخريطة ملحق رقم (٨) .

(١٨٤) مروى = أنظر الخريطة ملحق رقم (٨) .

(١٨٥) بربر = أنظر الخريطة ملحق رقم (٨) .

(١٨٦) راجع حاشية ٢٥٧ من حواشى عام ١٨٩٥ ـ ص ٤٩٤ .

(١٨٧) الذين = التى .

(١٨٨) وجواسية = وجواسيسه قراءة ترجيحية .

الحبشة لعلها تعلم عن سر النجاشى ما تطمئن معه القلوب . فسارت البعثة وظلت أياماً . ثم عادت وقد أكدت للورد كرومر حسن ولاء النجاشى للسلطنة الإنجليزية ، وأنه لم ينو الإتفاق مع الدراويش على مقاتلة الحملة المنوية ، ولا مساعفة عثمان دقنه على طرف[١٨٩] الإيطاليان ،اللهم إلا إذا بدا من الأسباب مما يضطره إلى ولوج هذا الباب .فحرر اللورد محضراً بذلك وسير به إلى صاحب السياسة الإنجليزية ، فبرز الأمر وظهرت الحركة بين العساكر فى القاهرة وعلى التخوم ، وقد قال رجال البعثة أن عبدالله التعايشى صار الآن بين نارين ، نار مصر شمالاً ، ونار الكونغو جنوباً ، وقد ذهب عنه كل رجاء فى مشاركة الحبشان لجيوشه فى مقاتلة الحملة المصرية . قلت . ولم تكن مهمة تلك البعثة قاصرة على ما أشاعه القوم من رضا النجاشى بالإمتناع من معاونة عبدالله على قتال الحملة ، بل كانت تتناول أموراً هامة ومقارب[١٩٠] أخرى جمة تتعلق بعلاقات مملكة الحبشان مع دولتى الإنجليز والإيطاليان فى مستقبل الأيام . ولكنها لم تفلح فى هذا كله ، وعاد ونجت بك زعيم البعثة يحمل شيئاً من الهداية[١٩١] والتحف إلى ملكة الإنجليز ، وكتاباً من النجاشى لم يعلم سر ما فيه أحد سوى ونجت ولورد كرومر والسردار كما يقولون . فما هو أن بلغ لندن حتى قامت ضجة أصحاب صحفهم وجعلوا يتساءلون عما كان وعما عساه أن يكون بعد رجوع ونجت زعيم البعثة بصفقة المغبون فى كثير من تلك المطالب والشؤون . وظهرت كذلك ضجة أصخاب صحف الإيطاليان ، ورموا صاحب سياسة الإنجليز بالحيف والبهتان . وعادت الحركة إلى منازل الجند بالعباسية وقصر النيل وتحت قلعة الجبل ، وخرجت عرباتهم تحمل حاجات الجند من هنا وهناك . وبرز الأمر من صاحب السياسة الإنجليزية إلى جميع مقدمى العساكر المصرية من جماعة الإنجليز بأن يلازموا مراكزهم ، ويزاولوا وظائفهم فى

(١٨٩) طرف = طرد .
(١٩٠) ومقارب = ومآرب .
(١٩١) الهداية = الهدايا .

النصف الثانى من شهر يوليو ، وأن يتأهبوا إلى الزحف إلى ما وراء دنقلة . قالوا لأن الأخبار التى جاءت بها جواسيس قلم المخابرات تنبىء أن الخليفة عبد الله يجيش جيشاً جراراً حتى اجتمع له فى أم درمان ستة عشر ألف جمل ، وأن المقاتلين يفدون عليه أفواجاً ، وأن كل شىء هناك يدل على وقوع مقاومة عنيفة للحملة ، ولكنهم لايعرفون أين تكون هذه المقاومة . قالوا وقد برز الأمر من التعايشى باجتماع سائر الدعاة والزعماء والكبراء المجاهدين فى أم درمان فى أواسط شهر يوليو الجارى ليقرروا خطة الحرب ومواقع القتال . قالوا وقد أقسم جماعة الجواسيس والأدلاء أنهم يأتون بسر مجتمعهم بعد خمسة عشر يوماً ، وحينئذ تقرر وزارة الحرب الإنجليزية تفاصيل الحملة وزحفها على السودان .

قالوا ولا يخفى على المقاتلين من[١٩٢] جند التعايشى (بالدارفور) وأرباضها قد استقدمهم ،فقدموا جمعاً إلى(الأبيض)عاصمة (كردفان) . ثم برز الأمر بذهابهم إلى (أم درمان) عند إرتفاع النيل الذى يأخذ فى الزيادة عادة فى الأسبوع الأول من شهر يوليو الجارى . ثم برز الأمر إلى مقدمى الجيوش المصرية النازله فى دنقله وأرباضها بعبور النيل إلى الضفة الشمالية ليشرفوا على أهم الأماكن المجاورة(لأم درمان) (والمتمة) وبربر . فعبروا النيل وعسكروا فى تلك الأنحاء ، ولبثوا على قدم الأهبة والإستعداد .وجعلوا وجهة سيرهم (أبى حمد) . قالوا فإذا تمت زيادة النيل ساروا إلى (بربر) وربما هاجموا قبل بلوغ زيادة النيل حدها ، وقبل أن تصل إليها سكة حديد (حلفا) القائمة طائفة من الجند بمدها . قالوا لأن تأخير الإستيلاء على (أبى حمد) فيه مفسدة لعمل السكة الحديد ، وحال الدراويش دون مدها ، وهاجموا البواخر وشوانى النقل المسافرة إلى (أبى حمد) فى الدروب الضيقه من النيل . أما إذا استقرت الجيوش فى (أبى حمد) سهل عليهم إرسال الطلائع إلى نواحى بربر .

---

(١٩٢) من = أن قراءة ترجيحية .

ومن هذا الحين كثر ظهور عيون الدراويش وطلائع فرسانهم فى الصحراء على طول الخط المرسوم إلى مد السكة الحديد إلى (أبى حمد) . وتوالت هجماتهم على طلايع العساكر المصرية ، وجماعة الكشافين . وكثر عبثهم وتخطفهم ، ونزلوا على (السلامات) فى ثالث يوليو من السنة وثالث المحرم حتى صاروا ما بين (الحفير) (ومروى) ، فلاقتهم طليعة الكشافين المصرية . فاقتتل الفريقان قتالاً عنيفاً ، واشتد الدراويش على الطليعة فقتلوا منها جماعة ، وجرحوا جماعة ، وجرحوا البكباشى (تيون) الإنجليزى مقدم تلك الطليعه جرحاً خطيراً . وقتل منهم خمسة عشر قتيلاً ، وقد دخل الليل فافتروا ، فتوارى الدراويش وغاب عن العساكر أثرهم .

وبينما الناس والهيئة الحاكمة فى شاغل مبشاغل[١٩٣] الحملة وتناقض أنباءها عن صاحب السياسة الإنجليزية تارة ، وعن القابضين على عنق التخوم ومنازل الجيوش تارة أخرى ، إذ جاء الخبر على جناح البرق من مدينة طنطا فى سابع يوليو بنشوب نار هائلة فى صبح اليوم بمنزل بخطة الصاغه ، وامتدت فى الحال جنوباً وغرباً بسرعة هائلة مزعجة وجفت لها القلوب . فقام لإخمادها سائر أصحاب المطافى ورجاء[١٩٤] الشحنة . وتراكد[١٩٥] الناس وارتفع الصياح والبكاء من كل ناحية ، واشتغلت المضخات بهمة وشدة فلا[١٩٦] تكن لتقوى على إخماد اللهيب المتباعد . وعلقت النار فى جميع بيوت تلك الخطة ، واتصلت ببعض أجران الغلال التى كانت أهراء على مقربة من تلك الخطة ، فارتفع لهيبها إلى عنان السماء ، وتطاير شررها إلى ما يجاورها من الدور والوكايل والحوانيت . واشتد صياح وبكاء النساء . وتعذر على أصحاب المطافى إيقاف تيار النار ولسان اللهيب المندلع من هنا ومن هناك . فأرسل المدير إلى وزارة

---

(١٩٣) مبشاغل = بمشاغل .
(١٩٤) ورجاء = ورجال .
(١٩٥) وتراكد = وتراكض .
(١٩٦) فلا = فلم .

الداخلية فى طلب مدد أصحاب مضخات القاهرة ، وأرسل كذلك إلى محافظ الاسكندرية ، فقاموا فى قطارات مخصوصة . فجعلوا من ساعتهم يكافحون النار حتى غابت الشمس ، وتمكنوا من حصرها فى الذى دمرته . وقد أكلت تسعين بيتاً بما تحتها من الحوانيت ودكاكينها ، بما فيها من أثاث ومتاع ، وخمسة عشر من النساء والأطفال ، وزهاء ثلاثين جرنا للغلال . واستمر أصحاب المضخات يعملون الليل كله فى إخماد النار ، وثانى يوم أيضاً حتى خمدت . وبينما هم على هذا إذ جاء الخبر على جناح البرق بظهور الحريق الهائل فى (أبى طور) التابعة لمركز طنطا ، وأنه دمر البلد كله . فأسرع أصحاب المضخات إليها فلم يبلغوها حتى رأوا[197] كلها شعلة من النار لاتقاومها قط المضخات . فكان المنظر مريعاً مزعجاً ، والناس سكارى وما هم بسكارى ، والصياح والعويل من النساء والأطفال من كل صوب . وقد مات كثير فى بيوتهم لعجزهم عن الهرب . وجاء الخبر بذلك إلى المدير فسار إليها مسرعاً . فما هو أن وصل إليها حتى جاء الخبر من (ميت جبيش) بنشوب النيران فيها أيضاً ، فلم يبلغها أصحاب المطافىء حتى كانت النار قد دمرت نصفها ، فجعلوا يكافحونها حتى خلصوا النصف الثانى ، وباتوا ليلتهم تلك وهم على قدم العمل ، دائبون على توجيه المياه إلى مكامن النيران حتى مطلع الفجر . وإذا بالخبر قد جاء بحصول الحريق فى المحلة الكبرى أيضاً ، وأن النار تكاد تدمر البلد . فقاموا بالمطافىء إلى المحلة ، ولبثوا بعض اليوم يكافحون الحريق حتى أخمدوها[198] . وبلغت خسائر هذا الحريق مبلغاً عظيماً جداً . فاهتمت وزارة الداخلية بإرسال الخيام والمؤن إلى المصابين بخسائر الحريق ، فلم يكفهم ما فى مخازن الحكومة من الخيام ، وبات الكثير منهم بلا مأوى ولا غطاء ، بل وبغير كساء . فكان المشهد محزناً والمصاب شديداً والخطب عظيماً جداً .

---

(١٩٧) رأوا = رأوها .

(١٩٨) اخمدوها = اخمدوه .

قلنا فى ما مر بك أنه تعذر على جواسيس الحملة الإتيان بالأنباء عن أحوال التعايشى وقومه بعد إحتلال الجيوش الإنجليزية لدنقلة وأرباضها . وأن كلما(١٩٩) كانوا يأتون به إنما هو قليل الفائدة أو مبالغ فى معناه . ذلك أنه لما علم التعايشى بخبر إنخداع الدنقلاويين واستلامهم(٢٠٠)لأصحاب الحملة بغير ضرب ولاطعن ،وأن أصحاب الحملة يعلمون من أخبار حركاته وعدد مقاتليه وما عنده من عدد وعدة ما لا يعلمه إلا هو ، كاد يتميز غيظاً ، وشدد على مقدمى الدراويش ودعاة المهدوية بالقبض على كل من وقعت عليه شبهة الجاسوسيه وكشف عوراتهم إلى جماعة الإنجليز ، فتتبعوهم وأمسكوا خمسة وعشرين جاسوساً من جواسيس الحملة ، فأمر بهم فصلبوا جميعاً فى يوم واحد . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فكان وقعه عظيماً فى قلوب أهل البلاد ، ولاسيما بين قبيلة الجعليين . وكان عميد هذه القبيلة قد صادق السردار وتعهد له بعدم خلود قبيلة الجليين(٢٠١) إلى السكينة ، وإحجامها كلها عن مقاومة الحملة أو الإنضمام إلى جماعة الدراويش . فلما انقطعت عن السردار الأخبار بسبب القبض على جواسيس الحملة سئل الرجل عما كان يأخذه على عهدته فأجاب أنه لم يبق فى قدرته إتيان شىء من ذلك البتة لأن القوم الجعليون قد أبدلوا عزمهم ، وسالموا التعايشى وأطلعوه على نياتهم السابقة فصفح عنهم ، فعاهدوه على السمع والطاعة والجهاد فى الكفار . وأخبرنى كبير من أهل المناصب العالية على عهد الخديوى إسماعيل باشا ،وبينه وبين زعيم الجعليين مودة وصحبة قديمة ومراسلات سرية ، بأنه لما كثرت عيون الحملة وانبث جواسيسها فى البر والبحر وراء (أبى حمد) ، برز أمر الخليفة عبد الله بتتبع أولئك القوم والقبض عليهم أينما وجدوهم . فقبضوا على كثيرين منهم وساقوهم

(١٩٩) كلما = كل ما .
(٢٠٠) واستلامهم = واستسلامهم .
(٢٠١) الجليين = الجعليين ـ وعن مأساة الجعليين فى (المتمة) راجع حاشية ٣١٧ من حواشى عام ١٨٩٧ ــ ص ٨٤١ .

إلى أم درمان ، فرسم الخليفة بصلبهم جمعاً ، فصلبوا على أخشاب فى يوم واحد . وأصبحوا وقد اعتلى الخليفة المنبر ونادى مناديه أن احتشدوا ، فاجتمع الناس وتكوفوا حوله . فحمد الله وأثنى عليه كثيراً . ثم قال أيها الناس جاءنى الخبر أن جماعة من جواسيس الحملة القادمة إلى ديارنا أشاعوا وأكدوا للقوم الإنجليز أننى على عزم الفرار من (أم درمان) عند ما تقترب منها جيوش الإنجليز . فهذا النبأ الكاذب أضحكنى أكثر مما أحزننى ، ودلنى على جهل أولئك القوم وقصر نظر أصحاب المناصب من الإنجليز . ولكن لا لوم عليهم ولا تثريب ، فهم مأجورون لاغاية لهم سوى المال يسدون بهم عوزهم ولايبالون بعدها هلك الإسلام أم فنى المسلمين عن بكرة أبيهم . وقد طيروا أولئك السفهاء خبر ذلك إلى الآفاق ، بل فى جميع الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً . ومع هذا فإنى قائل لكم كيف يكون ما يريدون وقد طالما هزمنا جنودهم وأسطاطير[٢٠٢] الغلا[٢٠٣] من لحومهم ، وكم ما كسرنا أبطالهم شر كسرة ونكسنا أعلامهم وأفسدنا أحلامهم . وأنتم يا قوم تعرفون أن فى خزائنى زهاء الألف قبعة عليها شعار السلطنة الإنجليزية وكلها مخضبة بدمائهم شاهدة على ما حل بهم . فهل يقال بعد هذا أننى أولى وجهى شطر الفرار؟ يا قوم إننى أفضل الموت على عار الفرار وتشويه وجه سمعتى التى سارت بها الركبان . فالجهاد الجهاد والله من وراء ما يفعلون . وليعلم أولئك الكفار أنى لا أفارق (أم درمان) إلا إلى نعيم الجنان ، فى يوم تسيل فيه الدماء أنهرا حتى تبلغ نحر جوادى (عصار) وأنا يومئذ على ظهره ألاقى بصدرى قنابل مدافع كتشنر السردار . أ . هـ .

وكان السردار وجماعة الإنجليز بوزارة الحرب يظنون أن من بربر[٢٠٤] من أصحاب المهدوية لايتجاوزون الألف ، وأنهم ليسوا من الأهبة والإستعداد فى

---

(٢٠٢) وأسطاطير = وأكل قراءة اجتهادية .
(٢٠٣) الغلا = الفلا .
(٢٠٤) بربر = ببربر .

شىء . فما هو إلا أن جاءهم نفر من الجعليين فأخبروهم بأن فيها إلى يومهم ذلك سبعين ألف مقاتل أو هم يزيدون . وأن الأمير محمود معسكر خارج (أم درمان) وهو ومن معه على أهبة الزحف إلى بربر مدداً لمن هم بها من المقاتلين . فأكبر السرادر هذا الخبر وعاود الجعليين فى تحقيقه ، فأقسموا له بصحته . وبينما هو على هذا إذ ظهرت الحركة فى محافظة دنقله بسبب الإحداثات التى أحدثها محافظ البلد فى نظام الأحكام ، وإبطال بعض العادات المألوفة عند مشائخ القبائل ، ومن ذلك منح النساء حرية البغى وغير ذلك . وكانت الحركة بأن قام شيخ قبيلة الشائقية فى مركز (مروى) وعارض مقدم عساكر تلك النقطة فى ذلك المنح ، وقال له لايصح أن تطلق للنساء حرية البغى ، الشىء الذى حرمته جميع الشرائع . فلم يلتفت لقوله وأخرجه من حضرته صاغراً . واتفق أن قدم السردار إلى دنقلة ، فسار إلى[٢٠٥] الشيخ وشكى[٢٠٦] مقدم أولئك الجند ، وبالغ فى الشكوى وعظم البلوى . فطيب السردار خاطره وصرفه فقفل راجعاً إلى بلده . يقال وهو عاقد النية على مقاومة حرية أولئك النسوة .وعلم مقدم العسكر بذلك فأرسل يهدد الشيخ ويحزره[٢٠٧] من العاقبة . فرد عليه يقول إننا والله نرضى بظلم أصحاب المهدوية مع صون أعراضنا ، ولا نرضى بهذا العار الكبير . فسير فى طلبه فجاء يتوكأ على رمحه .فقال له ألم أقل لك أن ترجع عن غيك وتقلق[٢٠٨] عن عنادك ولاتعرض نفسك إلى العقاب الأليم . فقال والله ما رجعت قط وفى رمق من الحياة ، فسبه مقدم العسكر وأكثر من شتمه . فرد عليه الشتم ، فانهال عليه الإنجليزى بالضرب لكماً ورفساً وساعده على ذلك نفر من الجند ، وما زالوا حتى سقط مغشياً عليه ، فحملوه إلى داره . وشاع خبر ذلك بين الناس فأكبروه وخافوا قيام

---

(٢٠٥) إلى = إليه .
(٢٠٦) وشكى = شكا .
(٢٠٧) ويحزره = يحذره .
(٢٠٨) وتقلق = وتقلع .

الشايقية وإيقاظهم للفتنة الراقدة . وتحدثوا فى ذلك كثيراً فثاب الإنجليزى إلى رشده ، وأرسل طبيبه لعيادة الشيخ فى داره ، فقاوم الطبيب بنو الشيخ وأهله وطردوه . فكبر الأمر على الإنجليزى واهتم له إهتماماً عظيماً ، وسير رسله إلى جماعة المشايخ يسترضون المضروب ، فما زالوا به حتى استرضوه . ومع ذلك فإنه لم ينل أمنيته من منع حرية البغى . وما هى عشية وضحاها بعد ذلك حتى بانت طلائع أصحاب المهدوية عند (محلة سلامات) وجعلوا يقلقون راحة أصحاب المراصد ويتخطفون كلما[٢٠٩] وصلت إليه أيديهم فى الليل والنهار . وظلوا على هذا أياماً لم يهدأ فيها للمرابطين بال ، ولم تسكن لهم حركة ، والأخبار مرادفة إلى وزارة الحرب وديوان الأمير بتتابع المناوشات من[٢١٠] القوم والدراويش . وكان إلى هذا الحين قد بلغ خط السكة الحديد أرباض (أبى حمد) . فتوفرت المؤن وكثرت المعدات وما يحتاجه أصحاب المراصد من أسباب الراحة .وأصبح ما أمدوه من الخطوط الحديدية فى السودان من سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف زهاء مايتين ثلاثة وستين ميلاً ، مدتها أيادى الجنود المصريه الذين هم أصبر جنود العالم بأسره على المتاعب واحتمال المشاق ، ولاسيما فى تلك الأنحاء التى تصهر الأجساد ، وتذيب الأفئدة بحرارتها .

وجاء الطلب من التخوم القبلية بتسيير الشبان الذين اقترعوا للخدمة العسكرية . فسيروا منهم فى سادس عشر يوليو من السنة ، وسادس عشر المحرم من السنة خمسمائة من صفوة الشبيبة . وسيروا معهم أيضاً كثيراً من المؤن والعلوفة والمدافع الرشاشة ، وغير ذلك من حاجيات الجنود ، ومعهم جماعة من الضباط الإنجليز . فما هم أن بلغوا حلفاً حتى إنحدر المرضى ممن كانوا فى دنقلة وحلفاً إلى القاهرة وهم فى حالة تنفطر لها المرائر لشدة أمراضهم

(٢٠٩) كلما = كل ما .
(٢١٠) من = بين .

وعفونة جراحهم ، ومعهم جماعة من الممرضين . فأنزلوهم فى مستشفيات العباسية وقلعة الجبل فغصت بهم . وقدم فى هذه الأثناء إلى الإسكندرية سفينتين إنجليزيتين تحملان شيئاً من معدات الحروب للحملة المصرية . فاهتم لوصولها كبار الإنجليز بوزارة الحرب ، وقام جماعة منهم إلى الإسكندرية ، ولبثوا بها أياماً حتى نقلوا تلك المعدات فى قطارات السكة الحديد إلى حلفا ، ثم تبعها جماعة آخرون . ومع هذا كله فقد كانت الإشاعة متفشية بتربص الحملة وعدم مبارحتها مواقفها الحالية إلى أجل غير مسمى .

ولما كان يوم الثلاثاء ثانى عشر يوليو من السنة ، وثانى عشر المحرم سنة خمس عشرة ،أطلق من قلعة الجبل وسائر الطوابى والحصون بالإسكندرية ستين مدفعاً إيذاناً بعيد يوبيل الماس لستين سنة مضت على ملك ملكة الإنجليز . وكان لورد كرومر وعظماء الإنجليز بالقاهرة قد رتبوا لذلك العيد أفراحاً بحديقة الجيزة حاوية كل صنوف الزهور والبهجة ، ودعوا جميع الأمراء والوزراء والكبراء ووجوه البلد ، وأهل المناصب ، وأصحاب الخطط لحضور الإحتفال فى تلك الحديقة . فتوافدوا جماعات من الساعة الرابعة بعد الظهر ، وأعدوا كذلك فى رمل الإسكندرية مكاناً لهذا الإحتفال . فلما كانت الساعة التاسعة أطلقوا الألعاب النارية والحراقات على أشكال بديعة للغاية . وظل المدعويين على هذا إلى منتصف الليل ، ثم انصرفوا . وأرسل الأمير على جناح البرق يهنئ الملكة وشعبها بهذا العيد ، ويدعو لها بالعمر المديد والعيش السعيد ، وفعل كذلك لورد كرومر وسائر قناصل الإنجليز بمصر بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن جميع النزلاء الإنجليز ، مظهرين فرحهم بهذا العيد الكبير ، داعين لملكتهم بدوام الهناء وطول البقاء . وكلم لورد كرومر الرئيس مصطفى فهمى باشا فى ذلك اليوم بأن يأذن بعطلة سائر وزارات ودواوين الحكومة إجلالاً لذلك العيد . فلم يوافق الرئيس على ذلك ، فشدد اللورد كرومر فى الطلب ، فارتبك الرئيس وحار فى أمره لخروج هذا الأمر عن المألوف عند أهل البلاد ، لاسيما وهم فى

هرج بأسباب الحوادث المترادفة والأنباء المتناقضة . فراجع اللورد وقال إن حالة البـلاد اليـوم لاتسـاعـد على وقـوع هذا الحـدث ، والناس كـمـا ترى فى هرج والخواطر فى اضطراب من جراء تفشى الإشاعات المقلقة بين حين وحين . قيل فأكبر اللورد مقالة الرئيس وإنحى على الوزير بطرس باشا باللائمة . فجعل الوزير يسايره ويهون عليه بدهائه المشهور ، وما زال به حتى سرى عنه ، وخرج الرئيس من هذا المأزق الحرج .واجتمع نفر من أهل البلاد الداءبون على التصدر فى مجالس السياسة والأندية الخصوصية ، وأرسل(٢١١) على جناح البرق يهنئون الملكة بهذا العيد الستينى ، ويذكرونها بوعود أقيال حكومتها المتواترة بشأن مصر . راجيين أن تكلل حياتها السياسية بإرجاع استقلال مصر إليها ، فذلك أشرف الأعمال وأعظمها قدراً . وفعل كذلك بعض أصحاب الصحف المحلية ، وأقاموا على قدم الإنتظار .فكان انتظارهم من المخزيات المبكيات ، وكان نداءهم صرخة فى واد ، أو نفخة فى رماد . وجعل أصحاب الصحف المحازبة لجماعة المحتلين تبدى وتعيد فيما قاله الرئيس إلى عميد الإحتلال ، وتعده نكراً وأمراً معيباً . وأطالوا الكلام فى ذلك أياماً حتى خيل للناس أن قد استحكم الخلاف بين الرئيس ولورد كرومر وتعاصى الوفاق . فسألت أحد المقربين من قصر الإمارة رأيه فى ذلك فقال (أما الخلاف بين الرئيس وكرومر فليس هو من الأهمية فى شىء ، فإنا كلنا يعرف ما هى صلة الرجلين والرابطة بين الإثنين ، ويعرف خنوع الرئيس للإحتلال وعميد الإحتلال وصحف الإحتلال ودعاة الإحتلال ، وكل من عليه شبه مسحة من الإحتلال . وأما الشىء الذى يدعو إلى الطيرة فهو أن لورد كرومر لم يسأل الرئيس الإحتفال بيوبيل الملكة ، إلا ليسدد خطوته التى هم بها فى هذه الأيام فى سبيل إبعاد الإمارة عن عرش السلطان عبد الحميد وإلصاقها تدريجياً بشىء من مثل هذه

---

(٢١١) وأرسل = وأرسلوا .

التقاليد التافهة الضئيلة بالعرش البريطانى . أى نعم ، على أنه لا[٢١٢] يكن ليدور فى خلدنا أن أصحاب الإحتلال يفتحون بابا للجدال فى هذا المعنى ، بل كنا نحسب أن إطلاق المدافع من قلعة الجبل شتين[٢١٣]ورفع الرايات إجلالاً وتعظيماً ، وقدوم جماعة الوزراء والأمراء من الاسكندرية إلى القاهرة ،مقيدين بأغلال الرتب ، واشتراك زمن[٢١٤] المأجورين بالمال فى إرسال كتب التهانى من هنا وهناك . كل هذا يكفي عميد الإحتلال دليل على حسن قيامنا بحمل النير . ولكننا وهمنا ورأينا دعاة الإحتلال يقرعوننا ويملأون الفضاء صخباً وجلبة ، ويقولون أن الأمير أبعد الناس عن مجاملة المحتلين ، ومسايرة عميدهم ، وأبغضهم لكل عمل يعملونه أوأمر يأتونه . وأرادوا أن نتشبه (بالرئيس كروجر) رئيس جمهورية الترنسفال فيما فعله مجاملة لعرشهم . ولو كنا فى مثل مركز الرجل لفعلنا فوق ما فعل ، ونحن أشهر الخلق بالمجاملة والتلطف مع العالمين ،ولكنا نحن المعتدى عليهم ، المحتلة بلادهم ، المغلولة أيديهم ، المهتضمة حقوقهم ، المدوس مقامهم . فكيف يسألوننا أن نضرب على ذكر كل ذلك بعمل كبير يكون منا دليل منتهى الذل والخسة وضعف الإحساس . أننا أحسنا والله بأن لانشترك هذا الإشتراك الشائن المعيب فى يوبيل الملكة . أولاً لأننا فى بلد غير إنكليزى إلى يومنا الذى نحن فيه ، وثانياً لأننا شعب لم يفقد الأمل باستقلالنا ، وثالثاً لأن عندنا بقية حرمة لإيمان أصحاب سياسة الإنجليز ووعودهم التى طالما سمعناها ، ورابعاً لأن عندنا بقية من الدم فى أعراقنا لاتدعنا أن نقبل يد الحانث التى قطع بها وريد حياتنا المعنوية ، ونعنى بها الحرية التى هى أثمن من كل حياة حسية) . قال وفيما خلا هذا فإننا على إختلاف النزعات قد هنأنا الملكة بما يجب من التعظيم والدعاء ، ولم نفعل ما فعله الأرلانديون الذين نادوا على رؤوس الملأ بأنهم لايشاركون القوم الإنجليز

(٢١٢) لا = لم .
(٢١٣)شتين = استبعدت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٢١٤) زمن = زمرة قراءة ترجيحية .

فى أفراح ملكتهم ما دام الإنجليز يمتازون عنهم فى الحياة المعنوية وفى كل مرافق الحياة الحسية . على أنه ومع هذا كله ما برحنا والله نستعصم بالصبر الجميل ، ونبتعد عن المظاهرات التى هى منتهى حيلة المظلوم ،ونعلل النفس بأن مركز هذه البلاد الأسيفة الذى يربط طرف المشرق بالمغرب يرجع بأصحاب السياسة الإنجليزية عن المخاشنة ، ويصرفهم عن الغلظة إلى إستعمال التلطف ، وأرداك[٢١٥] النصفة والسلامة . أ . هـ .

قلت وبلغت مساعى لورد كرومر فى أبعاد القلوب عن ولاء الأمير وتنفير الطباع منه مبلغاً عظيماً للغاية ، حتى لقد إستمال بعض قناصل الدول إلى رأيه ، وحببهم فى مذهبه ، وغرس فى قلوبهم بغض الأمير والإنصراف عن مجاملته . فكان قنصل جنرال النمسا أول المعجبين بمذهب لورد كرومر المحبذين له فى السر والعلن . وقد أنس الأمير منه ذلك ، فلم يلتفت إليه ولا أحله محلاً . واتفق أن أهدى إمبراطور النمسا للأمير (نيشان ليوبولد) الذى هو من أكبر نياشين دولة النمسا قدراً . فاستلمه الأمير فى حفلة حافلة بالأمراء والوزراء وأهل المناصب ،وهو أول نيشان أهدى إليه من الممالك الكبرى بعد إرتقائه عرش الإمارة . فقام أصحاب الصحف المحلية يهنئون بهذا الإلتفات ، ويطرون صنيع إمبراطور النمسا ، ويقولون أن هدية الإمبراطور كانت واجبة بعد الذى عرفه من شمائل الأمير يوم كان يتلقى دروسه فى مدارس النمسا العسكرية . فلم يعجب هذا القول قنصل جنرال النمسا . قيل فاندفع أو هم دفعوه إلى تكذيبه والحط من منزلة الأمير فى أعين شعبه ، فكتب فى بعض الصحف المحازبة لأصحاب الإحتلال يقول إن إهداء ذلك النيشان لم يكن من طريق الإستحقاق والأهلية كما يزعم أصحاب الصحف المحلية ،وإنما هو على سبيل المجاملة بعد إلحاح وإستعطاف من أحد المقربين من بلاط الإمبراطور ،وقال غير ذلك كثير . وكان لما جعل يتلو خطابه فى حفلة

(٢١٥) وارداك = وإدراك .

التسليم ،أى تسليم النيشان للأمير ، وهو خطاب يقرأه عادة قنصل أو مندوب الدولة صاحبة الهديه فى حفلة التسليم ، يتضمن شيئاً فى إطراء المهدى إليه ، وشيئاً آخر من العلائق الحسنة الودية بين الطرفين ، وغير ذلك من كليمات التلطف وعبارات المجاملة ، فيرد عليه المهدى إليه رداً جميلاً ، ويطرى صاحب الهدية ويجله ، ويعيد ذكرى العلايقه(٢١٦) الحسنة والمودة بين الطرفين . فلما جعل يتلو خطابه هذا أشار فيه بالتصريح إلى التقدم الباهر والرقى الظاهر الذى وصلت إليه مصر على عهد الإحتلال ، وارتياح دولة النمسا إلى عمل أصحاب الإحتلال العظيم فى هذه الديار . كما أشار من طرف خفى إلى كيفية إهداء ذلك النيشان للأمير والأثر المترتب على إهدائه فى سياسة هذا الزمان . وكأن الأمير كان يعلم بما فى ذلك الخطاب من المغامز . فكان فى جوابه عليه شيئاً من التحفظ والغمز . حتى قال إن نجاح مصر وبلوغها هذا الرقى المحسوس ، إنما هو نتيجة طبيعية لما تلقاه من العلم فى كلية النمسا ، وما شب عليه من المعارف السامية التى لم تسمح له الظروف بتلقيها تماماً ، حتى يمنيه(٢١٧) على نوال غايته من إسعاد البلاد والعباد . أخبرنى ثقة أن ذلك القنصل قد تولاه الخزى والكدر عندما تحقق ما كان لخطابه من سوء الوقع لدى أهل المناصب وأصحاب الخطط من المصريين ، وأنه قصد أن يفعل حسنة فجاءت سيئة ، وقد كان يظن أنه يرضى بالوسام الأمير وشعبه ، وبلهجة خطابه جماعة المحتلين وعميدهم ، فخاب ظناً فى الأمرين ، ولم تتحقق أحلامه فى إرضاء الفريقين . قال وسافر الرجل إلى الإسكندرية آسفاً مما كان .

وجاء الخبر من فرضة مصوع بأن قدم إليها الوفدان الروسى والفرنسوى اللذان كانا بارحاها إلى النجاشى منليك فى مهمة من قبل دولتيهما ، على(٢١٨)

---

(٢١٦) العلايقة = العلائق .

(٢١٧) يمنيه = تعينه قراءة اجتهادية .

(٢١٨) على = وأنهما على أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

أهبة العودة إلى السويس ،وأن قد جاء معهما جماعة من رؤوس الأحباش مشيعين . ونقلت الأنباء الخصوصية أن أولئك القوم نالوا من عطف النجاشي وحفاوته وتعظيمه ما لم ينله جماعة الإنجليز الذين سافروا من قبل . حتى لقد قالوا أن جماعة الإنجليز لم ينالوا شيئا قط من الأغراض السياسية التى هى سبب بعثتهو غاية[٢١٩]ما فعله النجوشى معهم أن استقبلهم بطائفة كبيرة من عساكره ، وودعهم كذلك . وقد رسم فصفوا جميع المدافع التى غنمها جماعة[٢٢٠] الإيطاليان صفين على طريقهم فى الذهاب والإياب لتكون تذكاراً لهم بالبؤس العظيم الذى أحاق بإيطاليا حليفتهم الأسيفة . وعلم أصحاب صحف الإنجليز ما يزيعه[٢٢١] وفود الروس والفرنسيس من إنكار كل احتفاء ونجاح لرسلهم لدى النجوشى . فقاموا وقعدوا وجعلوا يطرون عمل بعثتهم ، ويكذبون كل ماقيل عن وفد الروس والفرنسيس ، ويقسمون بالسماء أن القوم لم ينالوا من النجوشى شيئاً سوى قرع الطبول وإطلاق المدافع وعبارات المحاسنة والموادعة ، وأن السفارة الإنجليزيه نالت ما شاءت وبلغت فى شوطها هذا مبلغاً عظيماً . ثم إنحوا على صاحبى سياسة الروس والفرنسيس باللائمه ورموهما بسوء القصد والعمل على تعكير صفو السلام ، وغير ذلك من آيات التهديد ، حتى تم على الفريقين قول القائل :

كل يدعى وصل ليلى   وليلى لا تقر لهم بذلك

أجل قد جعل كل فريق يكذب الآخر حتى يكاد السامع يشتبه فى الصدق مفسه[٢٢٢] من القولين . وعندى أنه إذا بحثنا فى الأمر وقلبناه وطبقناه على ما هو مشهور من دهاء النجوشى وقدرته على تدبير الأمور ، إستنتجنا النتيجة الآتية ، وكانت هى الحقيقة بلا مراء . وهى أن النجوشى بالغ فى إكرام

(٢١٩) بعثتهوغا = بعثتهم ، وغاية .
(٢٢٠) جماعة = من جماعة   اضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٢٢١) يزيعه = يذيعه
(٢٢٢) مفسه = نفسه   قراءة ترجيحية .

وفد الإنجليز ، كما فعل مع الروس والفرنسيس ، وقال لكل من عرض عليه مشروعاً تجارياً(حسناً إنى إشاركك عليه ، وسأعمل به فى وقته إن شاء الله) . فأجاب الروس والفرنسيس(إن صداقه دولتيكم البعيدين عنا المأمونتين منا صداقة عزيزه لدينا) ، كما أجاب جماعة الإنجليز (أن موالاة دولتكم المجاورة لنا المرهوبة الجانب منا معززة لدينا) . وهكذا أرضى الفريقين بالمواعيد وربما ببعض العقود المكتوبة التى لا تمس مصلحة جوهرية فى عرشه وبلاده . فخرج كل من حضرته وهو يتخيل أنه صاد الجوزاء وبالغ فى الفوز عنان السماء فتأمل . وعادت البعثتين الروسية والفرنسية عن طريق قناة السويس . وظن الناس أن خلود المشاغبين من أصحاب(عثمان دقنه) إلى السكينة بعد أن علموا بخبر النجدة التى وصلت إلى معسكر الإيطاليان بمصوع بعد رجوع سفراء الإنجليز من بلاد النجوشى . فما هى إلا عشية وضحاها حتى تفشى الخبر بتحرك عثمان دقنه وجموعه ، وشنهم الغارات على كسلا ليل نهار ،وأنهم يتوغلون فى غاداتهم[٢٢٣]إلى مقربة من (سنهيت)[٢٢٤] عند نقطة (غوردت) . وأن الطريق بين مصوع وكسلا[٢٢٥] أصبحت غير مأمونة ،ولا هى مطروقة إلا للعيد[٢٢٦]الكبير والمقالته[٢٢٧] الكثيرين مع الإحتراس واليقظة . قالوا وقد علم الدراويش بما يكنه لهم النجاشى وقومه ، فابتعدوا عنهم ما استطاعوا ، واتفق أن مرت بهم قافلة تحمل مؤن لجماعة الإيطاليان فاعترضوها ، وكانت دوابها وحمالوها من بلاد الأحباش ، ومعهم جواز السفر من (الرأس الولا) ، فلما إطلع عثمان دقنه على الجواز برز أمره بإطلاق سراح القافلة وأن لايمسوها بسوء . فلما بلغ خبر ذلك أهل المناصب من جماعة الإيطاليان بمصوع أكبروه وأعظموه جداً ،

---

(٢٢٣) غاداتهم = غاراتهم .
(٢٢٤) أنظر الخريطة ملحق رقم (٨)
(٢٢٥) أنظر الخريطة ملحق رقم (٨)
(٢٢٦) العيد = للعدد قراءة ترجيحية .
(٢٢٧) المقالته = المقاتلة .

واتخذوه دليلاً على تحالف الدراويش والأحباش ، وأن كل مسعى عند النجوشى باطل لامحالة . فصاحوا (المدد) ، وعلت أصواتهم بطلب النجده العاجلة ، فأرسلوا إليهم طائفة من الجند النازلين بنابولى ، وشيئاً من المؤن والذخيرة على ظهور بعض السفن .

فلما كان صبح رابع يوليو من السنة ، ورابع صفر سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف ، سافر السردار كتشنر باشا إلى إسكندرية ، ودخل على الأمير فى قصر الإمارة مستأذناً بالسفر إلى التخوم . وحادثه ساعة فى الخطة التى أعدها لزحف الحملة على (أبى حمد) والتربص فيها حتى تأتى ساعة المسير إلى ما ورائها . قيل فأعجب الأمير رأيه وأوصاه بالرفق بالجنود ، وتقصير مراحل السفر عليهم . قالوا فقد كان يقطع بهم فى كل يوم إثنين وأربعين ميلاً للحاق بدنقلة ، وساقهم إلى مقاتلة العدو عند الإلتقاء به بعد قطع هذه المرحلة الشاسعة ، وهم فى غاية التعب والإعياء . ومعما(٢٢٨) كانوا عليه فإنهم أبلوا فى العدو وبالا(٢٢٩) حسناً وطردوه من كل مراكزه وانتصروا عليه نصرة مؤزرة كما تقدم القول . وجاء الخبر إلى وزارة الحرب بوصول بعض البواخر تحمل عدداً من السفن الحربية التى أعدوها لخدمة الحملة ومقاتلة أصحاب المهدوية مفككة أجزاءها بعضها عن بعض ، وكان الذى وصل منها إلى التخوم ستة . فسلموها(٢٣٠) بالمدافع الرشاشة ، فأفلحت جداً فى طرد الدراويش من دنقلة إلى ما ورائها . قيل وقد أوصوا المعامل الإنجليزية على بناء إثنى عشر سفينة ،فلم يتم منها غير ستة ،ووصلت إثنتين أخريتين . فاهتم جماعة الإنجليز بنقل أجزائها من القبارى بالإسكندرية إلى السكة الحديد توا ، فإلى التخوم . وفرحوا بوصولها فرحاً عظيماً ، لأنهم يقولون أن اعتمادهم على نقل هذه السفن فى

(٢٢٨) ومعما = ومع ما .
(٢٢٩) وبالا = بلاءا
(٢٣٠) فسلموها = فسلحوها .

الفتح والزحف على الخرطوم لعظيم جداً وآمالهم لكبيرة . وشاع خبر قيام السردار وحاشيته وأركان حربه إلى التخوم ، وتناقله أصحاب الصحف الأجنبية . فما هى إلا أيام حتى قدم جماعة من الفرنسيس وغيرهم من الإيطاليان إلى فرضة (هرر) يريدون الوصول إلى جوف السودان القبلى من تخوم الحبشة ، وكلموا (الرأس مكونين) فى طلب الإذن بذلك من النجوشى . فلما علم النجوشى بخبرهم أرسل كتبه إلى (الرأس مكونين) بمنع القوم من عبور التخوم وعدم قبول أحد ما من الأجانب والدخلاء ما لم تكن له صفة معلومة ، أو هو سفير لإحدى الدول . فمنعهم الرأس وشدد عليهم بالسفر ومبارحة (هرر) بلا توانى . فرحلوا عنها مكرهين . وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب بالقاهرة وإلى وزارة الداخلية ،فعده جماعة الإنجليز فوزاً لسياستهم فى بلاط النجوشى واستكانة منه بعد أن سير إليه صاحب سياستهم (ونجت بك) ومن معه ، وقالوا أن النجوشى مكره لابطل . وعندى أنه وإن كان هذا الملك العظيم شرقى من رأسه إلى أخمص قدميه ، لايعنى أنه يرتدى لباسه الحبشى ويجلس على عرشه حافى القدمين كما يزعم القوم ، بل بمعنى أنه يعرف تاريخ أمته ماضيها وحاضرها ، كما يعرف تاريخ كل شعب وأمة شرقية ابتليت بتحمل النير الأجنبى . ولذلك فهو لايثق بكل نزيل على بلاده ، ولايأمن غريباً ولا يستنيم لوعد ، ويحب أن تبقى مملكته كما كانت بعيدة عن المدنية المحدثة التى تحمل إليها الدعة والرخاء ، ومن ورائها الموت والفناء . فكان منه أن برز أمره إلى (الرأس مكونين) بأن لايقبل بعد الآن وفود الغرباء إلى دار ملكه ما لم تكن لهم تلك الصفة . فإذا بحثنا فى هل أن هذا العظيم قد استسلم إلى جماعة الإنجليز واستكان كما يزعمون ، أو أنه لم يزل على عهده القديم من الأنفة وعزة النفس ، وفى هل أن المدنية الغربيه تجد مسرباً إلى مملكته فتدخلها وتفعل فعلها المعلوم لكل شرقى عامل لموجدنا أن الذكاء وتوقد الذهن وقوة الإرادة التى اتصف بها ذلك النجوشى تباعد بينه وبين الرضاء عن أولئك الغرباء ، بل تدفع

به إلى كره الأجانب عامة والإنجليز خاصة ، لوقوفه على دخائل سياستهم . ولذلك قد اشتهر عنه أنه لايسترف(٢٣١) لأمة منهم ، ولايجعل أزمة(٢٣٢) إلا فى يده التى يحركها قلبه الحذر . وربما زاد فى محاسنة دولة على محاسنة أخرى بقدر ما يتوقع منها من المنفعة ، أو يخشى من المضرة كما فعل مع سفارة الإنجليز وسفارة الفرنسيس على ما تقدم بك بيانه فى محله . وقد زاده أولئك الوفود الذين وقفوا أياماً ببابه علماً وخبرة ، واستفرغ ما تكنه صدور بعضهم لبعض ، وما يقوله رجال كل دولة ضد الأخرى . وأما عن تسرب المدنية الغربية إلى بلاده ، فهو وإن كان يأنف منها ويبغضها ، ولكن كما أن هاته المدنية قد دخلت ديار مصر بواجبها الحسى والمعنوى ، فلابد أن تتسرب أيضاً إلى مملكته فى عهد غير بعيد على الرغم منه ومن كل من يخلفه من المقاومين لها . لأن موقع الحبشة الطبيعى أصبح يقضى بها قضاء مبرماً ، وإلا فلا يتسنى لها دوام الإستقلال وجيرانها اليوم الإنجليز والفرنسيس والإيطاليان ، ونسمع يوماً بأن قد وقع فى هاته المملكة العظيمة التى لم تمسها يد أجنبية إنقلاباً سريعاً عظيماً يدهش العالمين .

وكثرت عناية صاحب السياسة الإنجليزية فى هذا العهد بالسودان الشرقى وكثر إهتمامه . فلما كان سابع يوليو من السنة ، وسابع صفر الخير سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف ،برز الأمر بإنشاء مكتباً للبريد بين زيلع وهرر . واختطوا له خطة مقررة فأفلحت ، وكان نفعه عظيماً . فلم يقبل عليه جماعة الحبشان إلا مع الكره والتحذر .وانكشف سر إخفاق البعثة الإنجليزية إلى نجوشى الحبشة ،وإفساد أصحاب صحف الفرنسيس . وقد كانت صحف الإنجليز تبالغ فى نجاحها ، حتى لقد قالت أن النجوشى قد أبرز أمره إلى سائر الأجانب النزلاء فى بلاده بالجلاء عنها ما خلا جماعة الإنجليز ، وأنه عقد العقود

(٢٣١) يسترف = يأمن عدلت الكلمة لتتفق مع المعنى .
(٢٣٢) ازمة = أزمته قراءة اجتهادية .

وأعطى العهود على أن يكون لها عوناً على كل عمل يريدونه ، حتى وعلى قتال أصحاب التعايشى . فقال أصحاب صحف الفرنسيس أن كلما[٢٣٣] يدعيه جماعة الإنجليز عن نجاح وفدهم إلى النجوشى كلام فى كلام . فقد كان من أهم مطالب صاحب سياسة الإنجليز إتفاق الوفد مع النجوشى على تحديد التخوم بين الحبشة والسودان المصرى .وقد كان[٢٣٤] رئيس الوفد أن الحصول على هذا الأمر من الهنات الهينات ، فلم يصب ظنه المرمى . فقد ثبت أنه لما سمع النجوشى مقالة مقدم الوفد قال له (أنى أعرف قيمة ما فعلته دولة الإنجليز فى بلادى ، وكانت السابقة إليه . ولكنى لا أجهل تاريخ أمتى ، وأحب شىء إلى الآن أن نسبل ستر النسيان على ما مضى ونعقد صلات الصداقة والتجارة مع مملكتكم . أما فيما يتعلق بالتخوم فإنى مستعد أن أحذر[٢٣٥] مع وفدكم رأساً تخوم قطعة من الأرض مساحتها من خمسين إلى ستين كيلو متراً وأهبها إلى دولتكم عبة[٢٣٦] منى ، فى نواحى (هرر) (وأوغادن) طبقاً للشروط المصادقه عليها دولة الإيطاليان ودولة الفرنسيس . ولكنى لا أتقدم إلى تحديد التخوم مع دولتكم مباشرة إلى تخومنا فى الشمال ، والغرب ، والجنوب ، والجنوب الشرقى) . قال (وأما فى الجهة الشرقية فحدود بلادى لاتتغير بعد عن حدود الأريتره الإيطالية . وهناك مادتان بيننا وبين الإيطاليان ، أولهما تقضى بحفظ الحالة الراهنة ريثما يحصل هذا التحديد ، وثانيهما تقضى على الإيطاليان بأن تسلم للحبشة كل أرض تريد التنازل عنها) .

قال (وفيما يتعلق بالأريتره فإنى أقول أن العهدة التى كان عقدها سلفى طيب الذكر يوحنا فى ثالث يونية عام أربع وثمانين مع الولاية المصرية ، وقد ارتبطنا به وخلفنا مع الخديوى توفيق باشا وخلفه ولده الأمير عباس باشا ، وهى

---

(٢٣٣) كلما = كل ما .
(٢٣٤) كان = قال .
(٢٣٥) احذر = احدد — قراءة ترجيحية .
(٢٣٦)عبة = هبة .

تتضمن(٢٣٧) !! وإذا أحب ما على رعايتها والإحتفاظ بها . ولكن من يضمن لنا تتفق(٢٣٨) إيطاليا والخديو ودولة الإنجليز على إنفاذها . وهل تستطيع يا ترى الإستيلاء ثانية على كسلاً كماتقضى به المادة الثانيه من العهدة . وعليه فإنا نرى أنه لا يجب بعد(٢٣٩)عقد مثل هذه المعاهدات التى لا تتعدى قيمتها الورق المخطوطة عليه والتى هى سبب كل مصاب أليم بين المسيحيين والمسلمين أو بين النصارى أنفسهم . والواجب أن تكون العهدات المختصة بتحديد التخوم الحبشية وافية مستوفاة . ولنا الحق أن نطلب التصادق عليها بين معتمدى الدول المجاورة ، أى مصر وإيطاليا وفرنسا مع المصادقة عليها أيضاً من سائر الدول ذوات المصلحة فى استتباب السلم بالقاره الأفريقيه ، لا أن نعقد مع دولتكم الإنجليزية فقط) . (قال وإنه ليسوء كل محب للسلام أن دولتكم قد خولت لجماعة الإيطاليان منذ سنة خمسة وثمانين ألحق فى تملك بلادى ، وقد أكثرت من العهدات على هذا العمل الغريب . ولكنى مع ذلك لست فى حاجة إلى أن أصرح بأن كل هاته المعاهدات ما كان لها عندنا قط قيمة بل كنا نهتبرها(٢٤٠) من سقط المتاع . ولذلك فاجتناباً لمثل هذه الأعمال نطلب تداخل إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا أيضاً فى أمرها ، وذلك(٢٤١) دولة الروس

---

(٢٣٧) عقدت معاهدة (عدوة) بين أثيوبيا وكل من مصر وبريطانيا فى ٣ يونيو ١٨٨٤ ، ونصت على السماح للملك يوحنا الرابع نجاشى الحبشة بالمرور من (مصوع) وأن يعطى له إقليم (بوغوص) فى مقابل أن يسهل لجيش الخديو الإنسحاب من (كسلا) و (عميديب) و(سنهيت) واجتياز أثيوبيا إلى (مصوع) ـ على أن تسلم الحاميات المصرية الأبنية الحكومية للأثيوبيين أو تقوم بتدميرها ـ على أن يتم ذلك فى حالة عدم وجود قوات أثيوبية لتسلم هذه الأبنية .

وفى ١٢ سبتمبر ١٨٨٥تسلم الأثيوبيون مقاطعة بوغوص .

ـ رأفت غنيمى الشيخ (سياسة إنجلترا إزاء إجلاء مصر عن السودان ١٨٨٢ ـ ١٨٨٥)ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٦٧ ـ ص ٢٥٥ .

ومن الواضح أن ناسخ المخطوط قد أغفل ما تضمنته المعاهدة ـ ولذلك فإنه يبدو أن هناك بضع سطور قد سقطت منه ـ ذلك أن نهاية السطر الثامن لا تتفق مع بداية السطر التاسع من النص ـ وقد حددتها هنا بعلامتى تعجب بعد كلمة «تتضمن» .

(٢٣٨) تتفق = أن تتفق أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٣٩) بعد = إستبعدت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٤٠) نهتبرها = نعتبرها .

(٢٤١) وذلك = وكذلك

العظيمة ، بالنظر إلى صلاتنا الدينية معها ، وينبغى أيضاً إطلاع الدول الست العظمى على الإتفاقات التى تحدد تخوم الحبشة والسودان المصرى التابع لولاية مصر وللسلطنة العثمانية التى أصبحت سلامتها فى هذا الزمان أساس الإتحاد الأوروبى .على أننا مستعدون للمفاوضة فى هذه المهمة مع وكلاء مصر الذين ينوبون عن خديويها وعن سلطانها ، وتصادق على نيابتهم دول أوروبا العظمى ، ولاسيما إيطاليا وروسيا وفرنسا .وحينئذ يصبح حدود مملكتنا واضحة معلومة غير قابلة للتغيير ، ويستتب السلام فى القارة الأفريقية ، ونتمكن من إنماء ثروة بلادنا وإسعاد شعبنا وإرقاء عيشته ، بفتح أبوابها لرسل التجارة ورواد المدنية ، فبلغوا عنا هذا لصاحبكم . أ . هـ .) قلت . قال النجوشى هذا كله غير هياب ولاحاسب لأحد حساب . فلم نسمع لأصحاب صحف الإنجليز ضجة ، ولا إعتلى صاحب سياستهم منبره ونادى النجوشى بالويل والثبور وعظائم الأمور كما كان يفعل قبل . بل صمم على عزله وتغافل عن لمزه . وهكذا فعل صاحب سياسة الإيطاليان ، فباتت مهمة أولئك البعوث فى خبر كان . ورفع النجوشى رأسه على سياسة هذا الزمان(٢٤٢) .

وعلم عبدالله الخليفه بخبر أولئك البعوث والتقاءهم بالنجوشى فى عاصمة مملكته ، فأخافه جداً ، وجمع إليه قومه وشاورهم فى الأمر . قيل فاختلفوا وتفرقت كلمتهم ، فمنهم من أشار بالتأهب والإستعداد لقتال النجوشى إن هو عاون الإنجليز على قتالهم ، ومنهم من أشار بالتودد والتلطف معه وأهداه الهدايا الفاخرة مع وفد من رؤوس المهدوية ، عله يعرض عن جماعة الإنجليز ويرد وفودهم خائبين . وظلوا على هذا أياماً حتى استقر رأيهم على تسيير وفداً منهم ،فسار نفر من عظمائهم يحملون الهدايا من سن الفيل والريش والجلود وشيئاً من الأقمشة القطنية والرماح المحلاة بالذهب . فلما بلغوا أديس

(٢٤٢) عقدت إتفاقية الحدود الحبشية ـ السودانية فى ١٩٠٢/٥/١٥ ـ راجع حاشية ٨١ من حواشى عام ١٨٩٩ ـ ص ١٠٠٢ .

أبابا أنزلوهم على الرحب والسعة ، ولم يأذن النجوشى بالمقابلة ، فلبثوا أياماً وحولهم العيون والجواسيس ، فلم يدخل عليهم فيها إلا صاحب طعامهم وشرابهم والموكلين بخدمتهم ، فأعظموا الأمر جداً وضاقت صدورهم . وبينما هم على ذلك إذ برز الأمر برجوعهم إلى صاحبهم كما حضروا ومعهم هديتهم ومتاعهم . فخرجوا وحولهم جماعة من الفرسان والمشاة تخفرهم ، وعظيم من الحبشان لم يعرفوا من هو ، حتى بلغوا التخوم فالتفت إليهم وقال (مولاى يقريكم السلام ويقول لكم قولوا لصاحبكم إنا على غير استعداد الآن لقبول رسالته حتى تبدى له الأيام ما تكنه الليالى) ، ثم ودعهم وقفل راجعاً بقومه . فما بلغ وفد الخليفة عبدالله أم درمان ، حتى هاج كبار الدراويش وماجوا ، وأكثر الخليفة من الخلوة بأصحاب شوراه . ثم جاء الخبر فى رابع عشر يوليو من السنة ، ورابع عشر صفر الخير سنة خمس عشر إلى وزارة الحرب بالتقاء أصحاب المهدوية والجعليين (بالمتمة) واقتتالهم قتالاً عنيفاً للغاية . وهؤلاء الجعليون هم الباقون على مصافاة الإمارة وولائها . قالوا وقد كان السردار كتشنر باشا فى طريقه إلى دنقلة فجاء خبر ما وقع للجعليين ، فعجل السفر حتى بلغ دنقلة ، واهتم بترتيب القوة النازلة بها ، وبث العيون حول الدراويش وأقعد لهم بالمراصد ، ثم سار إلى (مروى) ورتب حاميتها وتعهد معاقلها وحصونها . وتفشى القول بأن إخفاق سفراء التعايشى فى بعثتهم لدى النجوشى قد أخافه جداً وأضاع حسابه . فبرز أمره بسد جميع الطرق فى وجه الحملة ، وقطع شأفة كل من يصافى الإنكليز ويواليهم وسحق عيونهم وجواسيسهم أينما ساروا وحيثما صاروا .فانحدرت طائفة من أصحابه إلى(المتمة) ،فلاقاهم الجعليون واستبسلوا فى قتالهم ،فكانت موقعة هائلة تطاحن فيها الفريقان ثم افترقا ، وقد تخضبت الأرض بدمائهما . وأرسل جماعة الإنجليز فى وزارة الحرب فى طلب الزبير باشا(سيدرباح) . فجاءهم وظل يغدو ويروح إليهم أياماً والناس لا يعرفون معنى لهذا الرواح والمجى . والذى نظنه أن ليس كبير أمر وراء هذا المجئ

والمرواح فى هذه الأونة ، وربما كان ذلك وسيلة لاتخاذ الرجل عدة فيما إذا اشتد الموقف على الحملة فيما وراء دنقلة بعد إخفاق سفارة الخليفه عبد الله لدى النجوشى ،وبعد أن فعل بالجعليين ما فعل من القتل والتشريد . وكان قد أحس منهم بمصافاة مقدمى الإنجليز ومعاونة الحملة على قتاله . فنكل بهم ذلك التنكيل . ثم ظهرت الحركة على أثر ذلك فى منازل الجند وتحت قلعة الجبل ، وجعلت العساكر الإنجليزية تغدو وتروح ما بين قصر النيل وبولاق الدكرور والعباسية بعجلاتهم وخيلهم ودواب حملهم . وتفشى القول بأن ستصل قريباً فرقة مؤلفة من ثمانية[٢٤٣]صف ضباط وجنود من أصحاب المدافع البحريين الملكيين للإشتراك فى الحملة على ما وراء دنقلة .وأن قد تم الخط الحديدى الذى أمدوه من حلفا إلى أبى حمد وطوله مائة ميل ، فأصبح وصول المؤن والذخيرة مأموناً ، وطلب المدد هيناً وميسوراً . ثم برز أمر السردار بعد ذلك أى فى عشرى يوليو من السنة ،وعشرى صفر بضرب إتاوة جديدة على كل قنطار من البضائع ، وساير أصناف المأكول والمشروب التى تنقل إلى ما وراء حلفاً قدرها أربعة قروش ديوانية . فلما شاع خبر ذلك بين الناس أكبروه وعدوه من الأسباب المناعه[٢٤٤] ما افتتح من السودان ، وإقبال أصحاب التجارات على إستيطانها وتعميرها . وقد كانت ألظنون ترمى إلى غير ذلك من فتح أبواب التجارة لأصحابها وتسهيل كل عقبه فى سبيلها ، فكان لبروز هذا الأمر وقع فى النفوس ونقد كبير ، وكان من دواعى النقد أيضاً وأسباب التنفير ما قننه السردار من القوانين وسنه من السنين فى محافظة دنقلة بعد فتحها ، وما أجاز لقاضيها الشرعى من العقوبات والأغرام ،وغير ذلك من الأحكام التى لم يأت بها أحد من النبيين ،ولا هىَ فى شىء من القوانين . ذلك أنه ما أن تسنم هذا القاضى منصبه حتى برز أمره بمنع كل عوايد البلاد من (ختان الفتيات)(ووشم

(٢٤٣) ثمانية = ثمانمائة .

(٢٤٤) المناعة = المانعة من التعامل مع – أضيفت العبارة ليستقيم المعنى .

الشفاه) ، وإبطال الشيء الكثير من عوايد النساء الشخصية الموروثة ، وقد فرض عقوبة الجلد والغرامة على من مارس شيئا من هذه العادات . وليس ذلك فقط بل إنه سن قانوناً يقضى بمنع كل فتاة من الزواج إذا كان سنها دون الخمس والعشرين سنة ، وفعل غير ذلك كثير ، فأكبر الدنقلاويون أمر القاضى وأعظموه جداً ، وداخلهم الريب فى مقاصد الفاتحين ، وكانوا إذا شكوا حالهم إلى كبار الإنجليز وأصحاب المناصب منهم قالوا لهم إنا خلصناكم من جور البقاره[٢٤٥] ،ودفعنا عنكم عسف الخليفة وأمناكم على أرواحكم وأعراضكم وأموالكم ، فلا يحق لكم أن تكفروا بهذه النعم وتظهروا ما أنتم مظهروه من الجحود والنكران .فإذا ظلوا على شكواهم قالوا لهم هذه شريعة قد شرعناها فلا مناص منها ولا إستبقاء عليكم بدونها .

وأنس السردار من القوم تذمراً وتوجعاً ، فرسم إلى حكمدار المحافظة بالتخفيف والتلطيف معهم حتى لا تخرجهم شدة القاضى عما تستلزمه دواعى الحال ، لاسيما وقد تحقق أن أصحاب عبدالله دائمون على قتال الجعليين فى كل صوب وحدب حتى أفنوهم أو كادوا . فبرز أمره إلى هنتر باشا بالشخوص إلى (المتمة) ، فوصلها فى طايفة من الفرسان وقافلة تحمل كثيراً من الأسلحة والذخيرة ، ففرقها على جماعة الجعليين . قيل وأعطاهم مدفعين من صغار المدافع وذخيرتها ليقووا على قتال الدراويش والغلبه عليهم . وبلغ خبر ذلك عبدالله التعايشى ، فنادى مناديه بالجهاد فى أولئك القوم الكفار وقطع شأفتهم من أرض السودان ، فحملوا عليهم من كل صوب ودرب ، وتتبعوهم والجعليون يقاتلون برزانة وتحذر ، لقلة عددهم وضعف عزيمتهم ، لاسيما وقد كانوا منوا بتفشى الأمراض الخبيثة بينهم وفى أكثر مواطنهم . يقال ولذلك برح بهم أولئك البقارة تبريحاً فظيعاً وقتلوا منهم مقتلة عظيمة بلغ قتلاها ألفى نفس . فأكبر السردار وجماعته هذا الأمر وأعظموه واهتموا له كثيراً . وعندى أن هذا

---

(٢٤٥) يقصد المهديين ــ راجع حاشية ٢٧٣ من حواشى عام ١٨٩٦ - ص ٦٣٥ .

الإكبار وذلك الاهتمام ليسا من الحقيقة فى شىء ، وهما من ضروب التغرير . إذ كانت غاية القوم من تسليم الجعليين تلك المؤن والذخرة والأسلحة على إختلافها إنما هى اشتداد غمار الوغى بينهم وبين البقارة ، وإطالة أيام القتال والتطاحن حتى يفنى بعضهما بعضاً فتكون الغنيمه لاصاحب(٢٤٦) الحملة ، ويكون فتح السودان بعد ذلك هيناً ميسوراً ،وهذه سياسة أقيال الإنجليز فى كل ناحية تعذر عليهم فتحها ، أو قام أهلها فى وجههم مدافعين عن حريتهم واستقلالهم .

ولما رأى السردار من(٢٤٧) غالبية الجعليين وفوز البقارة ، وعلم بحقيقة عدد من قتل من الجعليين ، وقد بلغ على ما رواه أصحاب وزارة الحرب من جماعة الإنجليز عشرين ألفاً أو يزيد ، برز أمره بحشد معظم الجيش فى محافظة دنقلة ، وجعله على أهبة السفر إلى ما ورائها ، فحشدوه فكان ثمانية عشر طابوراً من المشاة وعشرة كواكب من الفرسان ، وأربع بطريات من المدفعية ماعدا عدة مدافع من الطراز الرشاش ، وست بواخر حربية . فلما تم لهم ما أرادوا جعلوا يزحفون على (مروى) بعد أن أقاموا الأرصاد القوية فى (الدبه) (وكورتى) . قالوا وقد كان السردار يفضل أن يرسل قوة من الجيش عن طريق النيل ، فلما علم أن ذلك الطريق وعر المسالك ، وأن اشتداد الحر فى شهرى أغسطس وسبتمبر عظيم غير محتمل البتة ، وأنه إذا لم تتلق هذه الجنود مقاومة فى ذلك الطريق من أصحاب المهدوية فهى لاتصل إلى (أبى حمد) إلى(٢٤٨) بعد مسيرة ثلاثة أسابيع ، ثم تضطر أن تنتظر البواخر الحربية التى يستلزم حلها وتركيبها وإنزالها إلى النيل أياماً كثيرة .هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أنه إذا أرسلت هذه القوة كلها أو بعضها عن طريق النيل إلى (أبى حمد) كانت مضطرة إلى اجتياز

---

(٢٤٦) لاصاحب = لأصحاب .
(٢٤٧) من = الضعف من أضيفت العبارة ليستقيم المعنى .
(٢٤٨) إلى = إلا .

كربيكان ، وهذا البلد هو الذى إقتتل فيه أصحاب عبدالله مع الجنود الإنجليزية عام خمس وثمانين وثمنمائة وألف ، وقتلوا الجنرال (أرل) الإنجليزى . لما علم كل هذا عدل عن رأيه . قلت (وكربيكان) هذه هى البلد الذى بلغ إليه الجنود الذين أرسلوا لنجدة غردون أيام حصره فى الخرطوم على ما يذكر القراء ، فلم يكن من وراء هذه النجدة نفع لغردون رحمه الله . وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب ، فبرز الأمر باستدعاء جميع الضباط المتغيبين للحضور بأسرع ما يمكن ، بحيث يكونون فى صفوفهم قبل تحرك الحملة الحركة الأخيره . فقدموا مسرعين ولحقوا بصفوفهم . وسافر معهم أيضاً زهاء الثلثمائة من السودانيين وستة من مهندسى الأسلاك البرقية الإنجليز الموكلين بمد الخطوط البرقية فى التخوم الجديدة . يقال وسير السردار طليعة من الكشافين لترتاد الطريق وتتنسم أخبار العدو فى (أبى حمد) . فعادوا وأخبروا بأن البلد خال من الدراويش ، وأن احتلالها هين ، ودخول العساكر إليه لاتحول دونه عقبة سوى عقبة الطريق وصعوبة المسيرة . ففرح السردار بذلك فرحاً عظيماً ، وشدد على القائمين بمد الخطوط الحديدية بالإهتمام والفراغ منها حتى يسهل نقل الجنود على أرتالها . ورسم إلى جماعة من العبابدة أن يذهبوا إلى (أبى حمد) فيحتلوها ما دامت خالية من أصحاب المهدوية ، ويبقوا بها حتى تصل الحملة إليها ، فساروا ثم عادوا لإختلاف وقع بينهم . وجاء خبر هذا كله إلى وزارة الحرب وديوان الأمير ، وتناقلة أصحاب صحف الأخبار واستنتجوا منه أن القوم الدراويش عازمون على أن يقصروا دفاعهم عن الخرطوم وحدها . وأجمعت كلمة أصحاب الرأى على أن حركة الحملة فى هذه الآونة وإهتمام السردار بتعجيل الزحف على (أبى حمد) إنما هو ناجم عن إخفاقه فى مسعاه الأخير .لأنه لما تحقق صاحب سياسة الإنجليز أن موقف السلطنة الإنجليزية بإزاء نجوشى الحبشة أصبح أشد حرجاً من ذى قبل ، وأن البقاء على هذه الحال ضرب من الضعف والإستكانة ، برز أمره إلى السردار ، أن إرسل إلى الخليفة عبد الله سفراء يعرضون عليه الإعتراف

بسلطنته على السودان وسنار والدارفور وكردفان . وأن حكومة جلالة ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند تمده بالمساعدة على من يعصاه من قومه وعلى أعدائه الحبشان إذا قبل بحمايتها . فلما تمثل السفراء بين يدى الخليفة وهو فى مجلسه بين كبار الدراويش ، عرضوا عليه مقاتلة(٢٤٩) صاحب السياسة الإنجليزية فلم يقبلها ، وأرجعهم كما أتوا . وعلم صاحب سياسة الإنجليز برجوع وفده خائباً ، فجاء على الأثر أمره إلى السردار بتسيير الحملة واحتلال (أبى حمد) ، فأخذ أهبته لذلك كما تقدم القول .

قلت . واختلفت الروايات واضطربت بعد تحرك الحملة عن (بربر والمتمة) ، (وأم درمان) . وجعل أصحاب المناصب من جماعة الإنجليز يتلقفونها مشوشة من الفارين من التجار السودانيين الذين ظلوا إلى هذا العهد فى مكامنهم . فكانوا يقولون أن فى بربر ثلاثة عشر ألف جندى أسود مسلحين بالبنادق الرمنتون ، وكثير من الفرسان ، ماعدا الرجال المسلحين بالسيوف والحراب . وأن فى المتمة مع الأمير (محمود أحمد) إبن عم الخليفة خمسة وثلاثين ألف جندى أسود مسلحين بالبنادق أيضا ، وجماعة كثيرة من الفرسان ، ماعدا أصحاب السيوف والرماح . وأن (الأمير خليل إبراهيم) شقيق (محمود) معسكر عند مضيق (عقبة الرويان) جنوبى (المتمة) ، وهى عقبة على شاطىء النيل يحجبها جبلان من الصوان ومعه جيشاً ضخماً عدده ضعفى جيش (محمود) ، وأن الخليفة أشار بتحصين جبلى الروان بالمدافع لمنع عبور بواخر الحملة المدفعية ، وأنه أقام المتاريس والإستحكامات من معسكر (إبراهيم الخليل) إلى (أم درمان) جنوباً . قالوا وأما (أم درمان) فإن بها ثلاثة عشر ألف جندى أسود مسلحين بالبنادق ، ونحو خمسين ألف فارس ، ما خلا الجيوش المتفرقة فى عرض الجزيرة . وأن التعايشى لم يكتب إلى الناس يدعوهم الدعوة العامة للجهاد على مألوف عادة المهديين . وأنه سير ثلاثة من

---

(٢٤٩) مقاتلة = مقالة قراءة ترجيحية .

الأمـراء ومع كل منهم أربعـين ألفـاً وأمـرهم بأن يهـاجـمـوا (مـروى) (وكـورتى) (والدبه) عندمـا تبرحـهـا الحـملة إلى (أبى حـمـد) (وبربر) . روى الفـارون هذه الأخبار وكأنهم يريدون إرجاع السردار عن قصده ، أو تخويفه من عاقبة التوغل فيما وراء دنقلة . وقد بالغوا جداً فى عدد جيوش المهدوية ، وفيما هم عليه من الأهبة والإستعداد . فلم يرى السردار فى كل هذا ما يقعده عن العمل بما أشار به صاحب السياسة الإنجليزية ، أو يضطره إلى تأجيل زحف الحملة إلى حين . وقد جاء الخبر بأن التعايشى عاد إلى مخابرة النجوشى والتعاهد وإياه على مقاومة الحملة ، بأن أرسل إليه وفداً آخر برياسة الأمير الكبير (محمد عثمان الحاج خالد) ، وهذا الأمير من الخبيرين بأساليب السياسة . قالوا وله أطلاع على سياسة الدول الكبرى . وكان مكاتباً لجريدة الجوائب لصاحبها (أحمد أفندى فارس) المعروف ، وله مكانة عند جماعة الدراويش . فلم يكن حظ هذا الوفد إلا كحظ الذى سبقه ، إذ لم ينل من النجوشى مأرباً ، ولم يبلغ غاية ، وعاد إلى أم درمان كما ذهب .

واتفق فى هذا الأثناء أن زار (البرنس دورليان) الفرنسى الذى كان ذهب إلى لقاء النجوشى منليك ، قصر الإمارة وقابل الأمير ، فأجله وأكرمه ، ولبث فى حضرته ساعة .فما هو أن برح القصر حتى قام أصحاب صحف الإحتلال ينادون بالويل الثبور وعظائم الأمور ، ويقولون أن الرجل كان رسول الأمير يحمل للنجوشى كتب استعطاف ، وحض على كبح جماح جماعة الإنجليز والإيطاليان الذين شاركوهم فى إحتلال بعض السودان الشرقى إضراراً بالحبشة ومصر معاً ، وأن النجوشى أجاب الأمير إلى ذلك ، وسير الجواب مع البرنس دورليان . وجعلوا يبدون ويعيدون وينذرون ويتوعدون ، ويلقون كل تبعة على الأمير إذا فشلت الحملة وقام الحبشان لنصرة أصحاب المهدوية . واشتد تحمس لورد كرومر وغلظته إلى حد كاد يحسب له تهوساً وطيشاً . وعاد مصطفى كامل زعيم الحزب الوطنى إلى مقارعة أصحاب تلك الصحف

والإنتصار عليهم بجماعة من أصحاب صحف الفرنسيس . فجال جولته وجالوا هم كذلك جولتهم فى ميدان السباب والهتر وفحش القول . وباتت صحف الفريقين وأصبحت وهى كالكشكول فيه الفاسد والمنتن وكلما[٢٥٠] تعافه النفوس الأبية . وعندى أن احتفاء الأمير (بالبرنس دورليان) ،وتعظيم ضيافته لا علاقة له بالسياسة ولا هو من إهانة للدولة الإنجليزية كما يزعن[٢٥١]لورد كرومر فى شىء . فإن مصر وأميرها لا ينسيان ما لبيت (أورليان) العظيم من الأيادى البيضاء عليهما معاً ، لاسيما أجداد الأمير . فإنه لما قامت دولة الإنجليز عام أربعين وثمنمائة وألف للميلاد لتعمل على عزل محمد على باشا الكبير ونفيه إلى بلاد النوبة ، كان بيت أورليان المانع لها من نوال بغيتها ، المدافع عن محمد على باشا دافعاً[٢٥٢] ضاعت معه كل حيل أصحاب سياسة الإنجليز ، فرجعوا عنه خائبين . فثبت عرشه وتأيد ملكه ، وتولاه بنوه وأحفاده إلى هذا الحين[٢٥٣] . وأما أن (البرنس دورليان) كان سفير الأمير إلى النجاشى كما كان

(٢٥٠) وكلما = كل ما .

(٢٥١) يزعن = يزعم .

(٢٥٢) دافعا = دفاعا .

(٢٥٣) عندما تزايدت إنتصارات (محمد على) على السلطان العثمانى عام ١٨٣٩ ـ إتفقت الدول الكبرى على التدخل لصالح السلطان العثمانى بهدف منع روسيا من إنفاذ شروط معاهدة (هنكار أسكله سى) ـ وطلبت منه ألا يتفق مع محمد على إلا بواسطتها(أى الدول الأوروبية الكبرى) . كانت فرنسا فى جانب (محمد على)فى بادئ الأمر ـ وعرضت على إنجلترا أن يمنح محمد على وذريته من بعده كل الأقاليم التى تحت يده ـ لكن بالمرستون Palmerstone لم يوافق وعرض على فرنسا فى أكتوبر ١٨٣٩ أن تكون مصر وراثية لأسرة محمد على ـ وأن يتولى محمد على (ولاية عكا) . كان تيير Tieres رئيس الوزراء الفرنسى يخابر فى هذه الأثناء (محمد على) و (الباب العالى) سرا فى إبرام إتفاق لمنح (محمد على) كل بلاد سورية ـ فلما علم (بالمرستون) بذلك قطع الأمل فى مؤازرة فرنسا له . بدأت روسيا ، بروسيا ، النمسا ، وإنجلترا تفاوض محمد على بواسطة الكولونيل هُدجس Hodges قنصلها فى مصر ـ لكن محمد على رفض كل عروضه مرتكنا إلى تأييد فرنسا له ووعدها له بالمساعدة ـ فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ وقعت معاهدة لندن دون علم فرنسا ـ وفيها إتفق على إلزام محمد على بإرجاع ما فتحه من بلاد الدولة العثمانية وأن يكون لإنجلترا ـ بالإتفاق مع النمسا ـ حق محاصرة الشام ـ وأن يكون لسفن روسيا والنمسا وإنجلترا معا حق الدخول فى مضيق البوسفور والدردنيل لوقاية القسطنطينية من جيوش محمد على . فى الفترة اللاحقه نجحت إنجلترا فى إقناع لويس فيليب Louis Philippe ملك فرنسا (١٨٣٠ – ١٨٤٨) وسليل أسرة أورليانز Orleans الفرع الأصغر من البيت البوربونى الحاكم ، بالتخلى عن سياسة رئيس وزرائه المؤيدة لمحمد على ـ ففعل وعزل (تيير) وعين بدلا منه جيزوت Guizot (١٨٤٠ – ١٨٤٨) الذى أحجم عن مساعدة=

يتـوهم جـمـاعـة الإنجليـز ، فـلا مـعنى له بعـد الـذى قـاله النجوشى للوفـد الإنجليـزى . (أنى لا أعـاهد مـدعى المـهـدوية ، وأنى أبغض أولئك الدراويش بغضاً كبيراً) . فصار كل قول بعد ذلك هتر وإرجاف .

أصبح يوم الخميس خامس أغسطس من السنة ، سادس ربيع الأول سنة خمسة عشرة وثلثمائة وألف ، وقد أطلقت المدافع من قلعة الجبل إيذاناً بالإحتفال باستقبال ركب المحمل فى ميدان قراميدان ، تحت قلعة الجبل بعد رجوعه من مكة والمدينة على الطريقه المعتادة فى كل عام . فجاء إلى الميدان الرئيس مصطفى باشا فهمى فى إحدى عربات التشريف ، وخلفه كوكبة من الفرسان نائباً على الغيبة ، وجاء بعده جميع الوزراء ، ثم الأمراء والكبراء من أصحاب الماصب[٢٥٤] والخطط والعلماء ، وجلسوا فى المصطبة . فأقبل أمير الحج يقود جمل المحمل بخطامه . فلما دار به الثلاث دورات المقررة سلم الخطام للرئيس مصطفى باشا فقبله ، ثم رفعه إلى الوزراء ،وانتقل منهم إلى الأمراء وأهل المناصب والعلماء فقبلوه . ثم سار الجمل فى موكبه الحافل إلى ديوان الخزينة . فأناخوه فى محله على عادته فى كل عام .

وأصبح يوم الجمعة سادسة والقول متفشى بأن إحدى صحف الإنجليز الكبرى تقول وتؤيد قولها بالحجة والبرهان ،بأنه لما علمت لجنة التحكيم والسلم الدولية بخبر زحف الجيوش المصرية على ما وراء دنقلة وعزن[٢٥٥]جماعة الإنجليز على إحتلال(أبى حمد) ،كما برز لهم أمر صاحب

= محمد على . نزلت الجيوش المتحالفة ضد محمد على فى الشام (سبتمبر ١٨٤٠) ، وهزم الجيش المصرى عند (برومانة) و (قلعة ميدان) فى ٨ أكتوبر ١٨٤٠ ، وسقطت عكا بعد ذلك عندما عجز الجيش المصرى عن المقاومة ضد جيوش أوروبا المتحالفة ضده ــ أصدر محمد على أوامره إلى القائد إبراهيم بإخلاء الشام كلها ففعل بدءا من ديسمبر ١٨٤٠ ـ وهلك ثلثا الجيش المصرى(٦٢,٠٠٠) المتقهقر فى طريق العودة إلى مصر . ثم تلا ذلك رضوخ محمد على لشروط الدول الأوروبية المهينة التى لم يكن هناك بد من قبولها ــ راجع عبد الرحمن الرافعى (تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر ــ ج ٣ ــ عصر محمد على) ــ مرجع سبق ذكره ص ٣١٠ ــ ٣٣٣

(٢٥٤) الماصب = المناصب قراءة تصحيحية .

(٢٥٥) وعزن = وعزم .

سياسة الإنجليز اهتمت لذلك جداً ، وعقدت إجتماعاً فقررت فيه التقرير الآتى : أن هذه اللجنة قد علمت مع الأسف الشديد عزم الإنجليز على تسيير جيوش جديدة إلى أم درمان ، على حين أن هذه اللجنة قد احتجت منذ سنين عديدة على إستمرار إحتلال الإنجليز لمصر ، وهو إحتلال تعتبر أنه يفقد دولة إنجلترا ولاء سائر الدول ، لأنه يفتح بابا لاتهامها بسوء النية وخبث الطوية .وما لاريب فيه أن هذه الحملة الجديدة ستثير عواطف الحسد عند الدول ، وتقيم على الإنجليز قيامة الإحتجاج . ولما كانت هذه الحملة ستنجلى عن احتلال أمراض(٢٥٦) جديدة ، لم يكن من المستحيل أن تبعث الدول إلى صاحب السياسة الإنجليزية إنذاراً نهائياً بوجوب الجلاء عن مصر ، ولا يكون من وراء ذلك إلا إذلال دولة الإنجليز ، أو دخولها إلى مضمار الحرب الطاحنة .

فلذلك تبدى هذه اللجنة لحكومة جلالة الملكة رغبتها فى أن تخابر رؤساء القبائل السودانية وكبار القوم فيها مخابرة سليمه(٢٥٧) للوصول إلى حل نهائى مفيد للصناعة والتجارة ، ويكون داع إلى تسكين الهياج القائم والخروج الملازم ، وإعادة الطمأنينه إلى ما كانت عليه .أ . هـ . قلت فكان من غريب الإتفاق أنه لم يكاد(٢٥٨) ينحل عقد هذا الإجتماع حتى أصبح يوم السبت سابعه والبشرى شائعة بإحتلال فريق من الحمله لمركز (أبى حمد)(٢٥٩) بعد

---

(٢٥٦) امراض = اراض   قراءة ترجيحية .

(٢٥٧) سليمة = سلمية .

(٢٥٨) يكاد = يكد .

(٢٥٩) بعد إحتلال (دنقلة) ورفع العلم المصرى على (مروى) فى ٢٦ سبتمبر ١٨٩٦ ـ كان الرأى المتفق عليه هو صعوبة التقدم لمسافة أبعد دون إقامة (خط حديدى) . إقترحت الحكومة البريطانية على (كرومر)أن يرسل فرق إستطلاع فى المنطقة بين (الدابة) و (مروى) . وفى ديسمبر ١٨٩٦ كانت الأحوال مواتية لقبول فكرة التقدم إلى ما وراء (دنقلة) . فى زيارته للسودان فى ديسمبر ١٨٩٦ قرر (كتشنر) مد الخط الحديدى من (وادى حلفا) إلى (أبى حمد) رغم تعرض المنطقة لهجمات عناصر الإستطلاع المهدية ــ كان الخط الحديدى قد وصل إلى (كرمه) فى أوائل مايو ١٨٩٧ ، وكان لابد لإنجاز خطة الخط الحديدى وفقا لأفكار كتشنر ـ من الإستيلاء على المدن الكبرى فى طريق الخط . لكن التقارير التى كانت ترد للسردار عن قوة الجيش المهدى كانت مضطربة وغير=

معركة قتل فيها ضابطان من الإنجليز . وتحرير الخبر أنه لما بلغ قسم من الجيش ضواحى أبى حمد ، علم كباره بأن أصحاب عبدالله التعايشى قد تتسرى(٢٦٠) بعضهم خلف متاريس(أبى حمد) ، وبعضهم خلف جدران البيوت ، وأنهم على أهبة للقاء رجال الحمله . فبرز الأمر إلى العساكر باليقظة ودقة الإلتفات ، وجعلوا يزحفون الهوينا . وفيما هم على هذا خرج عليهم كمين قوياً من الدراويش والعبيد . فاشتبكوا معه فى القتال ، واشتد الجند على الدراويش شدة بالغه ، فاندحروا وفروا إلى البلد ، وتركوا قتالاهم(٢٦١) ، فتتبعتهم الرجالة وهجموا على البلد ، واشتبكوا مع من بها من المتترسين ، وقاتلوهم بالسلاح الأبيض قتالاً عنيفاً جداً . وجاء المدد إلى الجنود فاشتدوا على العدو حتى أخذوه ، ولم ينج منهم إلا القليل جداً . فخرجوا على وجوههم هائمين لا يلوون على شيء . فكان من قتل فى هذه الموقعة من العساكر المصرية والعساكر السودانية إثنان وثلاثون جندياً ، وثلاثة من الضباط . والذين جرحوا تسعة وستين جندياً . وقتلى وجرحى الدراويش كثيرين . وطيروا خبر

= مؤكدة . كان الخط الحديدى يسير فى طريقه المرسوم نحو (أبى حمد) التى أصبح من الضرورى الإستيلاء عليها وانتزاعها من يد العدو إذا أريد لهذا الخط أن يستمر فى الإمتداد . فى ٧أغسطس وبعد معركة شرسة واختراق لأرض المناصير نجح (هنترباشا) قائد الفرقة المشاة المصرية فى الإستيلاء على (أبو حمد)- ورغم صعوبة موقف القوة التى احتلت المدينة لصغرها نسبيا (أى القوة) وانفصالها عن القوة الرئيسية للجيش وإمكانية القضاء عليها لو تنبه المهديون وأرسلوا حامية إلى (بربر) أو لو وصلت تعزيزات من الجنوب - إلا أن تقديرات الخليفة التعايشى الخاطئة جعلته يعتقد أن الجيش الزاحف سيرسل فرقة عبر الصحراء إلى (المتمة) ، وبذلك يزول الغرض من وجود حامية (بربر) - فأرسل أوامره إلى أمير (بربر) بإخلائها - وبالفعل فإن الجيش المصرى بعد الإستيلاء على (أبو حمد) دخل (بربر) دون قتال فى٣١ أغسطس ١٨٩٧ بعد أن اخلاها المهديون ولجأوا إلى (شندى) و(المتمة) . وبذلك أصبح الطريق بين (بربر) و (سواكن) آمنا . فى ١٩ نوفمبر تم إتصال خط السكة الحديد بين (حلفا) و (أبو حمد) - ثم بدئ فى مد الخط الحديدى إلى (بربر) - انظر الخريطة ملحق رقم (٦) وملحق رقم (٨) .

- أورطة البنادق الرابعة المشاة - مرجع سبق ذكره - ص ٣٧ .

- على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) - مرجع سبق ذكره - ص ١٥٩ - ١٦١ .

(٢٦٠) تتسرى = تترس .

(٢٦١) قتالاهم = قتلاهم .

ذلك إلى الآفاق .وجاءت إلى السردار رسائل التهانى والتبريك من كل صوب وناحية ، وأرسل الأمير وهو بمصيفه بالإسكندرية رسالة على جناح البرق يهنئ السردار ويثنى عليه الثناء الجميل ، ويهنىء عساكره المنصورة ، ويسأل عن صحة الجرحى منهم ويطيب خواطرهم . قالوا وكانت كل الخسارة فى هذا الفتح واقعة على الأورطة العاشرة . فقد كان قتلاها أربعة عشر رجلاً ، وجرحاهم هم جميع المجروحين . وقد أسر من الدراويش الأمير (محمد الزين) أحد كبار الدراويش وصاحب الرأى فيهم . فلما استراح الجند بعد أن تم لهم النصر ، رسم لهم (هنتر باشا) الإنجليزى قائد حملتهم بناء المعاقل والحصون حول البلد ، فأقاموها . ثم رتبوا البريد بين (مروى) (وأبى حمد) من جهة وبين (مروى) (وآبار مرات) من جهة أخرى . وأخذوا يمدون الأسلاك البرقية . ووصلت بعض السفن (أبى أحمد) تحمل كثيراً من الذخيرة والميرة . وشاع خبر هذا الفتح بين القبائل ، فداهمهم الخوف حتى جاء مشايخ وكبار قبيلة (الرباطات) إحدى أفخاذ (الجعليين) الضاربون بين (أبى حمد) (وبربر) وقدموا طاعتهم وأظهروا مصافاتهم لعرش الإمارة ، فأمنهم السردار وأكرمهم . وبث هنتر باشا العيون والجواسيس يتجسسون حركات العدو بعد هذه النصرة المؤزرة . فغابوا وجاءوا فقالوا بأن حملة قوية يقودها جماعة من الفرنجة واصلة إلى فاشوده(٢٦٢)

---

(٢٦٢) فاشوده = (كودوك) قرية سودانية على النيل الأبيض ونهر سوباط . كانت مسرحا لمواجهة بين بريطانيا العظمى وفرنسا عام ١٨٩٨ نجمت عن المنافسة بين القوتين العظميين على الأقاليم فى افريقيا . جرى تحدى الهدف البريطانى لربط مصر بجنوب افريقيا بخط حديدى (القاهرة ـ الكاب ـ جرى تحديه باندفاع فرنسى لإقامة حزام عبر القارة من السنغال إلى الصومال Somaliland . قوبلت قوة فرنسية عسكرية متقدمة نحو الشرق عند فاشودة على النيل الأبيض بقوة بريطانية تحت قيادة السردار كتشنر فى ١٨ سبتمبر ١٨٩٨ . رغم أن الدولتان كانتا على حافة الحرب فإن المباحثات الدبلوماسية فى أوروبا توصلت إلى حل القضية . سحبت فرنسا قوتها وقبلت مستجمع الأمطار بين الكونغو وحوض النيل كحد بين مناطق النفوذ الخاصة بها ومناطق نفوذ بريطانيا فى وسط افريقيا

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 8. - p..33.

ـ أوراق مصطفى كامل ـ المقالات ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢٢ حاشية ١ .

- Patricia Wright (Conflict on the Nile) Ibid.. - pp.. 107, 121, 150, 161, 162 - 163.

لتحتلها ، وأن سيرها إلى تلك الناحية حثيثاً جداً . شاع هذا القول وتناقله أصحاب الصحف المحلية ، وجاءت به صحف الإنجليز معظماً مكبراً ، وحقهم أن يكبروه . فقد ظن بعضهم أنها حملة الرحالة البلجيكى الذى خرج يريد الوصول إلى الكونجو من أبعد المسالك وأوعر الدروب . وظن البعض الآخر أنها حملة فرنساوية يقودها عظيم من ضباطهم تريد معاكسة الإنجليز وإفساد ما هم قايمون بتدبيره منذ حين من الدهر ، لتعظيم سلطنتهم الأفريقية العديدة فى القريب العاجل . وكثر تكهن القوم وتخوفهم من أنباء هذه الحمله . وجاءت كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى السردار بالتعجيل فى إكتشاف سير تلك الحملة ، وأن لاتبارح العساكر المصرية (أبى حمد) حتى يصل إليها الخط الحديدى . وأن قد قام البرنس لوف تك[٢٦٣] أحد أولاد البيت المالك الإنجليزى ليكون ضمن أركان حرب السردار فى الحملة . فاهتم السردار بذلك إهتماماً عظيماً ، وسير إلى وزارة الحرب بالقاهرة يطلب منها أن تعجل بإرسال جميع البنادق القديمة التى هى من طراز رمنتون المخزونة بمخازن قلعة الجبل . قالوا يوزعها على بعض القبائل التى دخلت فى ولاء الإمارة ، وعلى الجواسيس المكلفون باكتشاف سير حملة فشودة . وجاء الخبر من سواكن بأن التعايشى أرسل يطلب عثمان دقته إلى أم درمان ، فسافر من يومه فى قلة من القوم . وأن الدراويش ما برحوا يسلبون الجعليين بين (المتمه وبربر) ، ويطاردونهم حتى باتوا يخافون الخروج من بيوتهم ، وقد ساءت حالهم جداً . فبرز الأمر بإعطائهم ما يحتاجونه من الذخيرة والميرة ففعلوا ، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً . وشدد السردار بعد ذلك بمنع سائر مكاتبى الصحف الإنجليزية وغيرها من متابعة الحمله ولانقل شيء من أخبارها البتة ، وقد كانوا تبعوها إلى حلفا وبعضهم بلغ (مروى) . فأكبروا هذا الأمر وأعظموه وشكوا إلى صاحب السياسة الإنجليزية ، فلم يرد عليهم ، وأرسل إلى أصحاب صحفهم يقول أن الحالة فى ما وراء حلفاً لاتحتمل جولة أولئك المكاتبون .

---

(٢٦٣) البرنس لوف تك = البرنس أوف كنت Prince of Kent

فلما كان خامس عشرى أغسطس من السنة ، سادس عشرى ربيع الأول من السنة ، وصل إلى القاهرة نحو العشرين من الدراويش الذين أسروا فى وقعة (أبى حمد) . فأنزلوهم فى حى الجند بالعباسية ورتبوا لهم طعامهم فى كل صباح ومساء . وقد دلت حالتهم على أنهم كانوا فى أشد حالات البؤس والشقاء ، أو هم خارجون من القبور ، وكلهم أو جلهم شيوخ مزهلين بالمرقعات التى هى شعار المهدوية . ولم يسمحوا لأحد بمشاهدتهم ولا الإقتراب منهم ، إذ طوقوا فحبستهم العساكر وأدلوا حولهم العيون .واشتد خوف آباء الضباط المصريين وأهلهم لانقطاع أخبار الحدود ، ومبالغة السردار فى كتمانها والتشديد على كل من فى الحملة بعدم مراسلة الأهل والولد ،حتى لقد[٢٦٤] أصحاب البريد يعرفون كل الذى ذكر فى ما ينقلونه من كتب ورسائل رجال الحملة ، ويبلغونها إلى قلم مخابرات الجيش . هكذا قيل فى الأيام الأخيرة لتنقل الحملة . ولما تم وصول المفعيات[٢٦٥] كلها إلى أبى حمد ، خرج (هنتر باشا) فى طائفة من الفرسان للإستطلاع ،فوصل إلى منتصف طريق بربر ، فلم ير مقاومة . وتحقق أن الأهالى قد كرهوا حكم التعايشى وساءت حالهم كثيراً ، وأنهم على استعداد تام لمعاونة الحملة على قطع شأفة الدراويش حالماً تصل الجنود إلى (بربر) . قالوا فاطمأن السردار لذلك وعزم على جعل (أبى حمد) مركز حركة جيوشه وباب زحفهم للقاء العدو فى كل صوب وحدب ، وأنه سير إلى وزارة الحرب بالقاهره بطلب النجدة . فسيروا إليه طائفة كبيرة من الفرسان وخمسمائة برميل من البارود صنع معامل الإنجليز ، وقد كانت استحضرتها إلى الإسكندرية إحدى بواخرهم ، وكثيراً من المؤن أيضاً .

فلما كان سابع سبتمبر من السنة ، وعاشر ربيع الثانى وصلت الأنباء إلى وزارة الحرب وديوان الإمارة بسقوط بربر فى يد الجعليين . وذلك أنه لما علم

(٢٦٤) لقد = لقد كان أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٦٥) المفعيات - المدفعيات .

السردار باستعداد أهلها إلى معاونة رجال الحملة على الدراويش ، رسم إلى الشيخ (عبد العظيم) زعيم المصافيين بالمسير إلى بربر ، فسار إليها فى نفر من المقاتلة ، وعلم من بها من الدراويش بحركة العساكر فى (أبى حمد) وعزمهم على اللحاق بالشيخ (عبد العظيم) ، فأخلوا البلد ، وتسللوا منها ليلاً . فأصبح الشيخ عبد العظيم وقد احتل شون الغلال بها ، وهى إحدى أماكن الحكومة القديمة ،وطيروا الخبر بذلك إلى السردار . فرسم إلى هنتر باشا بالخروج فى أربع مدفعيات من (مروى) إلى أبى حمد ، فسار بها على الأثر . وبرز أمر السردار إلى الشيخ (عبد العظيم) باليقظة والإلتفات حتى تصل إليه المقاتلة . ولقد تحيرت الألباب فى كيفية إخلاء القوم الدراويش (لبربر) بغير ضرب ولا طعان حتى من رجال الحرب أنفسهم ، فهم لايدرون إلى الآن ، أذلك جبن من خليفة المهدى؟ أم هو خبث وخداع يريد بهما أن تتوغل الجنود.صحراه حتى إذا تمكن منها أوقع بها وأبادها كما أبادوا جيش هيكس . والذى يؤيد صحة أن وزارة الحرب لاتعلم السر فى هذا التقهقهر ، ما قرأناه فى إحدى صحف الإنجليز فى هذه الأيام من أن فى الدوائر العالية الإنجليزية مناقشة شديدة يراد منها معرفة ما إذا كان يجوز للسردار أن يتمادى فى المسيرة بالحملة ويتوغل فى تلك القفار بغير مدد من العساكر الإنجليزية ، نظراً إلى الموقف الحرج المخيف المنتظر وقوفه به بالعساكر المصرية القليلة أمام قوة أصحاب المهدوية الضخمه البالغة ستين ألفاً من المقاتلة على تقدير الخبراء وأصحاب الجاسوسية؟ أو أنه يلزم أبى حمد ولا يتعداها . وسألت صديقاً لى من كبار رجال الحرب على عهد غردون رأيه فى ذلك فقال (إن الوسيلة إلى إحتلال بربر ممكنة هينة بلا عناء ، لاسيما وأن أصحاب التعايشى قد انجلوا عنها ، فلم يبق منهم إلى[٢٦٦] بعض العيون والجواسيس . وربما كان إحتلال بربر معيناً على إحتلال غيرها ثم غيرها ثم فتح الخرطوم . ولا خفاك أن وسائل النقل قد توفرت كما توفرت الميده[٢٦٧] التى

(٢٦٦) الى = إلا
(٢٦٧) الميده = الميره .

تركها جماعة الدراويش . وللحكومة الآن بين قبائل المتمة والقبائل المجاورة أصدقاء لابد أن يكون السردار قد تحقق صدقهم بما احتمله بعضهم من البلاء الشديد . وإذا صح ما سمعناه من أن النية معقودة على إنقاذ(٢٦٨) حامية سواكن وأصحاب مناقلها(٢٦٩) إلى كسلا ، كان ذلك من أكبر الأسباب الداعية إلى إنقسام الدراويش إلى قسمين ووقوعهم بين نارين . فلا يلبس(٢٧٠) أن يكون الفريق الأكبر من العساكر قد أجهز على الفريق الأعظم من مقاتلتهم ، حتى يعود فينضم إلى بقية الصفوف ، فيتم الفتح على أهون السبيل) . قال (ويشترط أن ينبذ كبار الحملة من بينهم التحاسد وأن يستعملوا فى أعمالهم كل حزم وتأنى ودهاء ، بحيث لايوقعون الجند فى شرك لايفلتون منه ، أو كمين يكون الضربة القاضية . والتاريخ مشحون بمثل هذه العبر التى جرت لأعظم الممالك شأناً وأضخمها سلطاناً . أ . هـ) .

وسيروا أسرى الدراويش فى هذه الوقائع الضئيلة إلى حلفاً فكانوا خمسة وأربعين درويشاً ، وخمس وثمانين إمرأة ، وثلاثين غلاماً . وجاء خبرهم إلى وزارة الحرب فى القاهرة وقصر الإمارة . وأعقب ورود هذا النبأ خبر أن وزارة الحرب قد ضربت جعل(٢٧١) قدره خمسة قروش ديوانية على حمل كل بعير من البضاعة التى يراد نقلها إلى محافظة دنقلة من مدينة القاهرة وحلفاً . وشاع هذا الخبر وتناقله أصحاب الصحف المحلية وبعض الأجنبية ، فتحدثوا فيه الناس كثيراً . واجتمع جماعة التجار وألفوا منهم لجنة تضارع(٢٧٢) الهيئة الحاكمة وترد العاملون(٢٧٣) علي غرس(٢٧٤) هذه المحنة عن غيهم . فكلم رجال اللجنة الرئيس

(٢٦٨) انقاذ = إنفاذ .
(٢٦٩) مناقلها = مراصدها — قراءة ترجيحية .
(٢٧٠) يلبس = يلبث .
(٢٧١) جعل = جعلا .
(٢٧٢) تضارع = تصارع — قراءة ترجيحية .
(٢٧٣) العاملون = العاملين .
(٢٧٤) غرس = فرض — قراءة ترجيحية .

مـصطفى فـهـمى باشـا ، وبالغوا فى الشكوى ، وعظمـوا نتـائج هذه البلوى وقـد أنستـهم أتراحـها أفراحـهم بفتح ما افتتح من السودان فى هذه الأيام . يقال فلم يروا من الرئيس قدرة على رد السـردار عن قصـده ، ولا ميلاً إلى التـفاهم مـعه ، لأن صاحب سياسة الإنجليز لم يكن ليرضى بمناقشة الهيئة الحاكمة للسردار فى شىء ما من شئون الحملة ، ولافيما يفتحه من بلاد السودان ، وقد أطلق يده وتصرفه فى أموالها وجبايتها ، وفرض الفرض وضرب المكوس وسن القوانين ، وتقرير اللوائح وغير ذلك بغير حصر ولا تقييـد ولا معـاودة . حتى لقد كان إذا أرسل فى طلب شىء من المـال وكـانت الخـزينة خلوا منه برز الأمـر باسـتـدانة فيستدينوا ، ولو كان هذا خارقاً لكل قانون ونظام ، وهم لايطلبون منه حساب عما ينفق . فـإذا طالبـوه زلزلـت الأرض زلزالهـا ، وأخـرجـت الأرض أثقـالهـا .وأخـذت وزارة المـالية والرئيس مـصطفى فـهمى باشا صيحة لـورد كرومر من كل جانـب ، وقـامت ضجة أصحاب صحفهم أياماً حتى يستعيدوا طلبهم صاغرين أو يعتذروا مكرهين . ومع[٢٧٥] ذلك غير مرة ، وكان من ورائه ما كـان ممـا مر بك بيـانه فى حينه . فلما أنس رجال اللجنة من الرئيس ذلك الضعف والتـهيب ، إلتقوا بلورد كـرومـر وشـكوا له مـا وراء تلك المـحنة . فطيب خـاطرهم بلين القـول وتلطف بهم ،فانصرفوا وهم يعتقدون بأن المنفذ من هذا الخطب أعسر من دخول الجمل ثم[٢٧٦] الخياط . ولا مشاحة فقد بدأ القوم يتصرفون فيـما افتتحوه من السـودان تصرف الفاتح المستقل المستنظر لكل أمر إلا أمره ، والمـستكبر لكل عمل إلا عمله . وكان أصحاب التجارة إذا هموا بإرسال شىء من بضاعتهم إلى التخوم أو ما وراء التـخوم ، وقفوا ببـاب وزارة الحرب أياماً ينتظرون الأمر من جـانب نائب السـردار ، أو رئيس المـخـابرات ، وربمـا برز الأمـر بعـد كل ذلك الإنتظار بالمنع وعدم التصريح لهم بإرسال بضاعتهم ، فيرجعون خائبين .

(٢٧٥) ومع = وقد وقع عدلت الكلمات على هذا الشكل ليستقيم المعنى .

(٢٧٦) ثم = سم والسم هو الثقب ومنه سم الخياط بفتح السين ـ ومسام الجلد ثقوبه ـ مختار الصحاح ـ ١٣٢ .

وبينما كان هذا الحادث شغل الهيئة الحاكمة وأصحاب تجارة السودان الشاغل عما سواه ، كانت الفتنة قائمة بين زاوية العميان ، ومشيخة الأزهر ، وورثاء الأميرة زينب هانم إبنة محمد على باشا الكبير ، والضجة عالية . وذلك أن بعض أصحاب الغايات دسوا إلى شيخ زاوية العميان وعميان تلك الزاوية بأن الأميره قد أوقفت عليهم قبل وفاتها عيناً لها من الغلة ما يكفى أولئك العميان ويزيد فى بسطة عيشهم . فما هم أن علموا بذلك حتى اجتمعوا فى صحن الأزهر وصاحوا ، وارتفعت جلبتهم ، واجتمع شيخهم بشيخ الجامع ومفتى الديار ، وتناجوا فى الأمر طويلاً ، حتى تقررت القاعدة بينهم على رفع الأمر إلى ديوان الأمير . فرفعوه وطال فيه الأخذ والرد ، وتليت أدواره وتشكلت بألوان مختلفة ، وتجسم حتى صار من القضايا المعقدة العسرة التى يكاد أن يكون حلها من أعسر الأمور . وقد تناولتها أيدى القضاة الشرعيين والمدنيين وتعددت فيها المرافعات ، وكثر المتكلمون والمدافعون . وكانت إذا حكمت فيها أو فى بعضها المحاكم الشرعية حكماً ، قامت المحاكم المدنية وحكمت على خلافه ، فتقوم مشيخة الإسلام بدار السلطنة وتحكم على خلاف هذا أيضاً . وظل الحال على هذا أياماً من الدهر حتى سئمت النفوس وملت الآذان من ترداد حوادث قضية أولئك العميان . يقال وكان من النافخين فى نار هذه المحنة جماعة من الأمراء ، وآخرون من أهل المحاماة ، وكل عن معناه يسأل . لقد اتهموا الأمير بالميل تارة إلى الخصوم ، وأخرى إلى جماعة العميان ، وأسندوا إليه كثيراً من الشوائن التى يجب أن لا تلتصق بعرش الإمارة . كل هذا وجماعة العميان يستصرخون أهل الحل والعقد ، ويتنجدون أهل المروءة والحنان ، ويتزاحمون على أبواب المحاكم متماسكين بعضهم ببعض ، وهم يصيحون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وكانوا إذا زجرهم زاجر أو هم بأن يفرقهم مفرق قاموا عليه بعكاكيزهم ضرباً ، وتماسكوا بأثوابه وأمطروا عليه من السب والشتم ، وأشد اللعنات شيئاً كثيراً . فخاف الناس شرهم ، فكانوا إذا جاءوا إلى

باب إحـدى المـحـاكم قطر بعـد قطر يجـر بعـضـهم بعـضـاً أفسح الناس لهم ولاطفوهم ، ودعوا لهم بخير . فيجلس بعضهم على عتبة الباب ، وبعضهم فى طريق الداخل ، وبعضهم يتلمس الأخبار ويسترق السمع داخل قاعة المحكمة ، فإذا انفضت الجلسـة صـاحوا بالقـاضى وتهـددوه وتوعـدوه على غـيـر مـسـاغ . أخبرنى أحـد إخوانى القضـاة بأن أولئك العـمـيـان ذهبوا يوماً إلى المـحكمـة المدنية فوقفوا على بابها وسدوا طريقها ، فخاف الناس شرهم وابتعدوا عنهم ، فجاءهم أحد حجاب المحكمة يسألهم التخلى عن طريق أصحاب القضايا وأن يجلسوا إلى جانب حتى تأتى دورهم ، فأغلظوا له الجواب وأحـدقوا به يريدون ضربه ، فلطم أحدهم وفر منهم ، فصاح الملطوم (آواه يا ابن الزانية) ، فما سمع إخوانه صياحه حتى إنهال بعضهم على بعض بضرب العكاكيز ظانين أنهم إنما يضربون المـعـتـرضـين لـهم . وظلوا على هذا لحظة حتى وقع بينهم القـازف[٢٧٧] بالأصوات ، والتماسك بالأثواب ، والناس من حولهم يكادون يهلكون من شدة الضـحك . قـال وقـد وقـفـت الجلسـة وسكت المـتـرافعـون حتى جـاء نفـر من أصحاب الشرطة ، ونحى بهم إلى ناحية من فناء المحكمة . قلت وطالت أيام هذه الفتنة حتى برز الحكم من المحكمـة المدنيه فى مصلحة العمـيـان ، بأن يعطى إلى شيخ زاويتهم القدر المقرر فى كل سنة صفقة واحدة . فلم يعجب ديوان الأوقـاف هذا الحكم ، ورفع عند تنفيـذه إلى المـحكمـة (إشكالاً) يريد تصحيح الحكم ، بجعله شاملاً لجميع المستحقين كلا بمفرده ، بحيث يتسنى للديوان أن يوزع على كل منهم القدر الذى له ، فعارض وكيل العميان فى ذلك . وما زال يعمل حتى تحصل على المال المحكوم به جميعه . ولما حصله بين يديه هم بتوزيعه على العميان بنفسه ، فأبت عليه مشيخة الأزهر ذلك ومانعت ما استطاعت ، كـمـا مـانع هو من قـبـل ديوان الأوقـاف ، فلجأ ذلك الوكيل إلى القـول بأن بعض أولئك العـمـيـان تنازل عن نصيـبـه إلى جـمـاعـة من الفـرنجـة ،

(٢٧٧) القازف = القذف .

ولذلك قد صار من المحتم إيداع جميع المحكوم به فى خزينة المحكمة المختلطة . وعندى أن هذه حيله لا يحنث الذى يحلف بأن العميان لم يأتوها . ويقال أن الذى أشار بها هو مؤسس هذه القضية ومهدى جماعة العميان إليها . وقد كشفها من بعض السجلات القديمة على أن يشاطرهم مكاسبها . قالوا وهذا ما خشيته مشيخة الأزهر ومشيخة العميان ، وهمتا بدفعه عنهم ، وأرادتا أن تتوليا توزيع المال على المستحقين تحت مراقبة مجلس إدارة الأزهر ، فعمد مؤسس هذه الفتنة إلى الحيلة ، وتمكن من إقناع جماعة العميان بأن المشيختين لا تريدان لهما خيراً ، وأن القليل الذى سيصيبهم بعد أخذه هو حقه المشروط ، قد يصيبهم أقل منه من يد غيره ، ولذلك قد تكلف هذا بينهم ثانية كما هداهم أولاً ، فعلمهم أن يتنازلوا عن حقوقهم إلى جماعة الفرنجة . هذا ما كان يرمون به صاحب هذه المحنة ، ولعله إدريس بك إبن الوزير راغب باشا صاحب الحوادث المذكورة على عهد الثورة العرابية وقد مرت مفصلة فى المجلد الرابع من هذا الكتاب .

وما هى عشية وضحاها حتى اجتمع أولئك العميان بعضهم يقود بعض ، وساروا إلى حيث المحكمة المدنية ووقفوا عند بابها وصاحوا وصيحوا . ثم نادوا (إنا لله وإنا إليه راجعون ، أدركونا يا أهل النصفة ، أغيثونا وأعطونا ما حكمتم به ، أعطونا مالنا ، أعطونا حقوقنا ألا لعنة الله على القوم الظالمين) . فاجتمعت حولهم الغوغاء والعطلة وسدوا الطريق على المارة . وبرز أحد العميان وجعل يقفز وينط ويضرب كفاً على كف ، ويهزئ ويصيح بأن مشيخة الأزهر تضطهدنا بقطع مرتباتنا ، وتنذرنا بالطرد والتبعيد ، فهل من مغيث؟ يا غياث أغثنا . فجاءهم أصحاب الشحنة يفرقونهم ، فيرز لهم الأمر بالرجوع إلى زاويتهم وأنهم سينالون ما قضى لهم به . فانصرفوا وهم يترامحون بعضهم وراء بعض ، والغوغاء من خلفهم يهللون ، والعميان يسبون ويشتمون ويضربون بعكاكيزهم ، فأزعجوا الناس المارة ، وأضحكوا أصحاب الحوانيت . وقد رأيتهم على هذا الحال عند رأس شارع الغورية فتذكرت قول القائل .

أخلق بذى الصـبـــر أن يحظى ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وكانت بلدية الإسكندرية قد عنت بإنشاء مجزر جديد فى فناء المكس على شاطىء البحر المالح على شكل وترتيب وهندام مخصوص . فلما تم بنائه وكمل زخرفته برز الأمر إلى جماعة الجزارين بالذبح فيه ، فصدعوا بالأمر . وما هى إلا أيام حتى جاءهم الخبر بأن البلدية رسمت بزيادة رسوم الذبح قدراً مقرراً على كل رأس من الماشية . فتضرروا من ذلك وامتنعوا من قبول الزيادة ، فلم توافقهم البلدية ، وأصرت على الزيادة . وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياماً . فلما كان سادس عشر من السنة(٢٧٨) ، تاسع عشر ربيع الثانى أصبح الناس ولا شىء من اللحم من(٢٧٩) حوانيت القصابين ، والمدينة خالية والحوانيت مقفلة . وكان ما طلبته البلدية من الزيادة قرشين صاغاً على كل رأس باسم عوائد تنظيف (السقط) . وكانت حجة الجزارين فى رفض هذا الرسم قلة الأغنام اللازمة لحاجة البلد ، بسبب منع دخول الغنم الشامى مما أدى إلى غلاء الأثمان حتى بلغت الأقة ثمانية قروش صاغاً . وقد زاد على ذلك إنتقال المجزر إلى ذلك المكان البعيد ، فأصبحوا وهم مضطرون إلى أن يدفعوا أجر مركبات النقل مضاعفة ، فضلاً عن أن وضع الأغنام بالمجزر معرضين لضربة الشمس فيه خسارة فادحة عليهم . ووقف الجزارون فى وجه رجال البلدية ومنعوهم من فتح أبواب المجزر ، وأرجعوا من حضر بأغنامه إلى البلد ، فلم يتمكن أحد من ذبح شاة إلا ما كان برسم جيش الإحتلال . فأرسل محافظ المدينة طايفة من أصحاب الشرط بين مشاة وركبان فعسكروا أمام باب المجزر ، فلم تبد من جماعة الجزارين مقاومة لأحد ، وقد كانوا يتوقعون حصول موقعة بين أصحاب الإعتصاب وأصحاب الشحنة . وارتفعت أثمان الطيور والدجاج والأسماك إرتفاعاً عظيماً بسبب هذا الاعتصاب الذي لم يقع له مثيل إلى ذلك الحين ،

(٢٧٨) السنه = شهر سبتمبر .
(٢٧٩) من = فى .

وخلو البلد من اللحم . وظل الحـــال على هذا الإضطراب ، وطالت أيام الإعتصاب ، ووقف الجزارون فى طريق المجزر يمنعون بالقوة كل ذاهب إلى[٢٨٠] بماشيته ،إلا إذا كان بصحبة بعض أصحاب الشحنة .وحدث أن يونانياً مر بأولئك المعتصبون سائقاً ست بقرات ومعه نفران من الشحنة . ولما كان المعتصبين لايقدرون على معارضة ذلك اليونانى ، وقد تحققوا أن ذبح البقرات الست واقع لامحالة ، عمدوا إلى مساومة اليونانى فيهن واشتروهن بمائة جنيه بزيادة أربعين جنيهاً عن ثمنها الأصلى . وفى اليوم الثانى ذهب أحد الجزارين وأسمه عبد المجيد إلى المجزر أيضاً ومعه أربعة عجول وست جواميس ، وكانت كلها ضعيفة ضئيلة قد أنهكها السفر ، فلما رأى أن أبواب المجزر مقفلة وأنه إذا عاد بها إلى البلد ماتت فى الطريق وثمنها كل رأس ماله ، فسـأل الموكلون بعمل المجزر أن يذبحوها وأن يأخذوا منه رسومهم التى قرروها حديثاً ، فقبلوا منه ذلك وذبحوا له ما شيته وعاد بها إلى البلد مذبوحة ، وسير بنصفها إلى سوق العطارين ، والنصف الآخر إلى سوق راتب باشا . فلما بلغ اللحم إلى هذا السوق هجم على المركبة التى كانت تحمله جماعة من الجزارين ، وقطعوا اللحم أرباً ثم تقدم أربعة منهم وصبوا عليه زيت البترول ، فجاءهم أصحاب الشحنة مسرعين وقبضوا عليهم ، أما اللحم الذى أرسل إلى سوق العطارين فقد رافقه جماعة من أصحاب الشحنة حتى أدخلوه الحوانيت . ووقفوا يحرسون البائعين والمشترين .

واجتمع فى ذلك اليوم أمام المجزر زهاء الأربعمائة من صغار الجزارين ، وهم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور . وكانوا إذا رأوا من كبارهم ليناً أو ميلاً إلى مسايرة أصحاب البلديه صاحوا فى وجوههم (لا لكم[٢٨١] ولا كرامة حتى يخففوا عنا أساوتهم ويدفعون عنا ظلامتهم) . فيرجع الجزارون إلى تشديدهم

(٢٨٠) إلى = إليه .
(٢٨١) لكم = لكم عزة اضيفت الكلمة ليستقيم النص .

وعنادهم . فكبـر قلق الناس وعظمت حـاجـتـهم إلى اللحم ، وعـمـدت المستشفيات والفنادق الكبرى والمطاعم إلى استجلاب ما تحتاج إليه من اللحم من القاهرة ، وبعض الضاحية . وظل الحال على هذا أياماً حتى عدلت البلديه عن بعض الشيء من طلباتها ، وعدل كذلك الجزارون عن شيء مما كانوا يطلبون . فانفك الإعتصاب وامتلأت حوانيت القصابين باللحم من الضأن وغير الضأن ، واطمأنت قلوب الناس من ذلك الحال .

وما كادت هذه الأزمة تنفرج حتى شاع الخبر وزاع[٢٨٢] بعزم أصحاب الإحتلال على وضع حامية جديدة من عسكرهم فى مدينتى طنطا والزقازيق ، وأن قد وقع الإتفاق على ذلك بين الرئيس مصطفى فهمى باشا ولورد كرومر ، وأنهم قد أخذوا فى الأهبة لذلك . وتحرير الخبر أنه لما تفشت بين العامة والسوقة وأهل الحرف الدنيئة مبادىء الحزب الوطنى الذى أنشأه مصطفى كامل على ما تقدم بك بيانه ، وكان مما حبب العامة فى ذلك الحزب مزجه تقاليد الدين الإسلامى بكل قصد من المقاصد المادية والإقتصادية ، وكل أمر من الأمور حتى التافه القليل النفع . وكان دعاة هذا الحزب لاينكفون عن غرس محبة السلطان فى قلوب أولئك البسطاء بصفته حامى حمى الدين ، وخليفة رسول رب العلمين وأنه عو[٢٨٣] القوة الهادمة للإحتلال المذهبة لنفوذه ، فوجد هذا الغرس من قلوب القوم تربة طيبة ، فنما نمواً سريعاً كانت ثمرته إطاعة القوم لأولئك الدعاة ، وإنقيادهم إليهم ، واتباعهم خطواتهم والعمل باشارتهم فى السر والجهر . فكان إذا تشاجر أحدهم مع آخر قال (نحن رعية السلطان ، نحن أولاد الخليفة أمير المؤمنين . نحن أهل هذا البلد الأمين) . وانتقل هذا الداء الوبيل من العامة وبسطاء العقول إلى غيرهم من الطبقة الوسطى كتلامذة المدارس ومعلميها ، والأطباء والمهندسين والمحامين ، وبعض المتعممين وأصحاب

(٢٨٢) وزاع = وذاع .
(٢٨٣) عو = هو .

العكاكيز . وتطرق إلى بعض الطبقة العليا كأصحاب الوظائف وأهل الخطط ، ثم تسرب إلى عمد البلاد ومشايخها وغيرهم كثيرين . فكان الحزب الذى لم يؤلفه مصطفى كامل إلا ليخلص به البلاد من شر الإحتلال ، ويحفظ به كرامة عرش الإمارة من مكائد أصحاب الإحتلال كما كانوا يقولون ، قد أصبح وهو عدو لكل شىء إلا الدين ونصرة الدين شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، حتى أجفليت النزلاء وأخافتهم خوفاً عظيماً .

واتفق أن حل يوم عيد جلوس السلطان عبد الحميد سلطان الوقت ، فقام دعاة الحزب وقادته يحضون الناس على الإحتفال بهذا العيد وعمل الأفراح والمآدب ، والتباهى بإظهار الإخلاص فى التابعية للسلطان ، والتعلق بعرش الخلافة . فأجابهم الناس إلى ذلك فى مختلف البلدان وفى القاهرة والإسكندرية ، وأقاموا الأفراح وعملوا الزينات والألعاب النارية ، وطاف العامة وزعر الحارات فى بعض البلدان فى الليل ينادون (بنصر الله دين الإسلام ، أهلك الله دين الكفار) وغير ذلك من بذىء القول وفحش الكلام . وكان ممن سلك هذا المسلك الشائن المعيب جماعة من حرافيش السويس والزقازيق ، وقد بالغوا كثيراً فى تطوافهم ونداآتهم وصيحاتهم ، حتى بلغ بهم التهوس إلى حد إرهاق الأجانب وإزعاجهم ورجمهم بالحجارة . فمر بعضهم بحانوت لأحد التبعة الإنجليز ، فأوسعوا صاحب الحانوت سباً وشتماً ، وجعلوا ينادون بفحش القول على مسمع من صاحب الشرط ، وكذلك فعل بعض زعانف الزقازيق بأجنبى ورجموه بالحجارة رجماً متتابعاً على مرأى من شرطى كان على مقربة من حانوت ذلك الأجنبى . وجاء خبر ما جرى إلى عميد الإحتلال فأكبره ، وبالغ فى إكباره لحاجة فى نفسه على ما كانوا يقولون ، وركب من ساعته ودخل على الأمير وحدثه بالخبر . قيل وأقسم أنه لاينفك عن وضع حامية فى طنطا وأخرى فى الزقازيق عقاباً لأهلها على ما وقع . ثم قابل الرئيس ، قيل وعنفه وأبلغه خبر وضع الحاميتين بذينك البلدين وفى غيرهما إذا بدا من أهلها شيئاً جديداً . قالوا فاضطرب الرئيس فى أمره ،وظهرت عليه دلائل الحيرة وراجع

اللورد ولاطفه ، وسير كتبه إلى مديرى الغربية والشرقية يستحثهم على معاقبة أولئك الزعانف ومحاكمة أصحاب الشرطة الذين تغافلوا عنهم . فقامت عند ذلك صحف الأحزاب تبدى رأيها فى هذا الأمر ، وتعيد وتجهر بالوعد والوعيد أياماً . وأصحاب الإحتلال يظهرون الحركة فى منازل جندهم على كثرتها . وهب جماعة من أصحاب صحف الألمان والفرنسيس يتساءلون عن السبب الحامل لصاحب السياسة الإنجليزية على تغيير خطة سياسة الإحتلال المتفق عليها بين الدول الكبرى ، والبلاد هادئة مطمئنة لاهرج فيها ولاخروج ،فلم يرد عليهم أصحاب صحف الإنجليز ،ولاهم دخلوا معهم فى ميدان هذا الجدال .

أقول كنت يوماً أحادث صديقاً من أهل المناصب فيما وصلت إليه حالة البلاد بعد تفشى مذهب الحزب الوطنى[٢٨٤] فيها ، وكيف كان تأثيره على أصحاب العقول الضعيفة وأصحاب المأدب[٢٨٥] الذاتية فقال (صدقت ، والله ما

---

(٢٨٤) ليس المقصود بعبارة (الحزب الوطنى) التى يذكرها ميخائيل شاروبيم فى النص ــ ذلك الحزب الذى أنشئ فى ديسمبر ١٩٠٧ على يد مصطفى كامل ــ فالفترة التاريخية التى يناقشها شاروبيم فى هذه الصفحات هى الثلث الأخير من عام ١٨٩٧ ، وهى فترة لم يكن الحزب بالمفهوم المتعارف عليه فى أوروبا من أنه (جمعية تم تنظيمها على أساس تحقيق مبدأ معين أو بلوغ سياسة بعينها وذلك بواسطة السيطرة على الحكم بالوسائل الدستورية) ـ قد قام بعد . أما هذه العبارة التى ذكرها شاروبيم فى معرض حديثه عن مصطفى كامل ومن تبعه فهى خلط واضح بين الحزب الوطنى كتنظيم سياسى له هيكله الواضح وبرنامجه المرسوم وعلاقاته المتنوعه ــ وبين حركة وطنية ذات اتجاه سياسى عام يجمع كافة المشتغلين بالسياسة والمهتمين بمصير وطنهم .

مبعث هذ الخلط هو أن الحركة الوطنية التى قامت ضد الإحتلال خلال تسعينات القرن التاسع عشر واستمرت تنمو حتى عام قيام الحزب (١٩٠٧) قد تزعمها بالدرجة الأولى (مصطفى كامل) منشئ الحزب الوطنى (١٩٠٧) . هذه الحركة أطلق على القائمين عليها مسمى (الحزب الوطنى) دون أن تحمل مضمون الحزب أو أبعاده .

لقد ظهر قبل عام ١٩٠٧ ما عرف (بالحزب الوطنى) مرتين ــ كانت الأولى أيام (الثورة العرابية) وكانت الثانية ما أسسه الخديو عباس (١٨٩٢ ــ ١٩١٤) من جماعة تعمل لصالح الوطن عام ١٨٩٤ . وهذه التسمية أيضا لا تعبر عن المفهوم الحزبى الأوروبى الذى ظهر فى مصر بعد عام ١٩٠٧ ـ وإنما تعبر عن (إتجاه وطنى عام) قام ضد التدخل الأجنبى فى عهد عرابى ــ وضد الإحتلال البريطانى فى المرة الثانية .

ــ يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ ــ ١٩١٤) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٢١ ، ٥٣ــ ٥٦ .

(٢٨٥) المأدب – المأرب .

كنت أحسب أن دعاة الحزب الوطنى يتخذون هذا الدين الحنيف سلاحاً يقاتلون به قوات الإحتلال وسياسات الدول ، ويفرقون به وحدة الأهلين ، ويبنون عليه آمال الفوز ، ويضربون به عرض كل مطلب ، حتى أرهقوا المستكن ، وأخافوا المطمئن ، وأوحشوا المستأنس وحشة ليس من ورائها إلا الحزن الدائم والكمد الملازم ، ولا أخالك تجهل أن كل حركة تبدو من صغار العقول عن قصد أو عن غير قصد ، لايتركها أصحاب الإحتلال تمر دون الإنتفاع بها ، وانظر كيف أنه لما أقام لورد كرومر يحرك دفة إدارة البلاد من مشرقها إلى مغربها فى شخص الرئيس مصطفى باشا على ما هو مشهور ومعروف ، والرئيس لايرد له قصداً ولايخالف له رأياً ، وقد رأى الأمير يومئذ أن بقاء الحال على هذا من أضر الأمور وأعسرها حلاً على كل قادر حكيم ، فهب من سكونه وخلع الرئيس من منصب الرئاسة وأبعد سائر الوزراء عن مناصبهم حتى فرح الناس به ، وقالوا قد نفض تراب الرقدة الطويلة عن رأسه . فلما فعل ذلك يومئذ غضب أهل الإحتلال وزمجر صاحب سياستهم ، وحسب فعل الأمير وفرح المصريين به ذنباً عظيماً وجرماً لايغتفر ، فعاقبوهم يومئذ بزيادة عدد جيش الإحتلال ، واستكتبوا صحفهم المأجورة أن يأسفوا على زمان مضى فى السكينة والسلام ، وعلى رجل مثل مصطفى فهمى باشا كان وزيراً عاقلاً حكيماً يدفع الرزايا ويحول دون البلايا . فلم يكن جماعة الإنجليز(٢٨٦) يوماً مما كانوا يطلبون . إنظر الآن فقد دار دولاب الزمان ،وكأن سوء حظ البلاد أبى إلا أن يرى كل بصير كذب أولئك الكاتبون ، فاسترجع الأمير الرئيس مصطفى باشا إلى دسته كارهاً . فما هو أن تربع فيه حتى جرى ثانية على خطته القديمه ، وألقى أزمة الأمور بين يدى جماعة الإنجليز ، وأذل أهل النقد والناقمين على عمل المحتلين ، وأخمد أنفاس كل مناد بهياً(٢٨٧) على الفلاح . فما دفع هذا كله عن البلاد بلايا

---

(٢٨٦)الإنجليز = الإنجليز يكلون .

(٢٨٧) بهيا = بحى .

تزاحمت ، ورزايا تفاقمت حتى أفضت يومئذ إلى زيادة عدد جيش الإحتلال . وها قد أفضت اليوم إلى وضع حامية جديدة حمراء فى بعض أمهات البلاد إرهاباً للناس وتهويلاً عليهم . وذلك لأنهم إحتفلوا فى هذه الأيام بعيد جلوس سلطانهم كما احتفلوا منذ أعوام بنهضة أميرهم) قال (وما الذى فعله الرئيس عندما تفهم إليه غرض صاحب سياسة الإنجليز من هذا الغرض المخيف المشئوم الذى يقع على رأس بلاده كالقضاء المحتوم) . قال[٢٨٨] إنى قضيت العمر يستخدمنى جماعة الإنجليز فى كل مآربهم ويكلفوننى إنفاذ جميع رغايبهم ، فإن قالوا أفعل كذا فعلت ، وإن قالوا إسحق فلان سحقت ، وكانت كل أيامى الماضية لهم ، فهذا يوم لى أبر فيه بأهلى وإخوانى وضميرى وأوطانى ، وأمحو ذلات جمة بحسنة واحدة ، إذ أدفع عن البلاد هذه البلية الوافدة؟ ــ لا وأبيك فقد جرى على عادته وأمضى الذى أراده سوء حظ البلاد وتمام المحنة . وعندى كأن[٢٨٩] بذلك يشهد أنه يوم سقط عن كرسيه كان السيف[٢٩٠] ، سقطته على قلب البلاد ، وأنه يوم أعيد إلى دسته أعيد كالسيف معلقاً فوق رقاب العباد . فقل لى بحقك ماذا أفادنا هذا الإستسلام ، وأين الأمان من عميد الإحتلال ، ومن أجل ماذا تعاقب البلاد بمثل هذا العقاب الأليم . إلا لأن غلمانا من مدينة السويس رموا باب حانوت لأحد التبعة الإنجليز بحجارة ، وغلماناً من مدينة الزقازيق أهانوا أجنبياً عن جهل منهم أنهم سيخربون بذلك البلاد ويجرون إليها الشقاء والبلاء) ــ فقلت ــ إن الحامية أو الحاميتان إن تزاد على بلد أو بلدين لاتقدمان فى المسألة على ما أرى ولا تؤخران . ولكن إذا نظر إلى هذه الزيادة من حيث لها شكل العقوبة والتنكيل ، توهم النزلاء أن مصر قد تدهورت إلى حضيض التعصب وكره الغرباء . وكبر

---

(٢٨٨) قال = أقال .

(٢٨٩) كأن = كأنه قراءة ترجيحية .

(٢٩٠) السيف = كالسيف قراءة ترجيحية .

عند القوم هذا الوهم فيكون هو الخطب الذى يلتهم غرباء الديار ويلتهب كالنار ، وتكون عاقبته شر العواقب ، ولاسيما وليس لنا فى بلاد القوم الغربيين لسان ينطق بشكوانا ، ويستميلهم إلى دفع بلوانا . فقال (أصبت ووالله إنى لأرى نار الفتنة مخبوءة تحت رماد التحريض ، فلا تلبث على هذا إلا قليلاً حتى يعلو إضطرامها ويعم خصامها . يومئذ تشتد الكبائر والجروم ، وتتسمم أمزجة أهل البلاد كافة بهذه السموم .فلا ينفع إرهاق ولا إرهاب ، ولا يوجد للخلاص من هذه المحنة إلا أحرج المواقف وأضيق الأبواب) . أ .هـ . وكان عيون الإنجليز وجواسيسهم قد نقلوا إلى عميد الإحتلال خبر ما ظهر وبان من حركة الخواطر فى القاهرة والإسكندرية ،فضلاً عن القرى والبلدان شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً بسبب تلك المحنة . فجعل يتباطئ فى إعداد معدات ذلك الإحتلال الجديد فى طنطا والزقازيق ، والإضطراب كل يوم فى إزدياد ، حتى تحقق الناس أو كادوا يتحققون أن قد بلغت مساعى دعاة الحزب الوطنى شوطاً بعيداً ، وأن هذه الحركة المستطيرة لم يزدها تفشياً وانتشاراً إلا رضاء الأمير وإقبال أصحاب ديوانه على داعيتها . وظهرت من هذا الحين بوادر الخوف ، وبدت إشارات التحذير من جانب النزلاء ، وتكلمت صحفهم فى ذلك كثيراً ، فجعل أصحاب الصحف الأهلية يدفعون هذه التهمة عن أهل البلاد ، ويقولون أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان . فلما كان عشرى سبتمبر من السنة ، ثالث عشرى ربيلاً[٢٩١] الثانى ، كتب صاحب الأهرام فى معنى ذلك يقول . (ذكرنا فى مقالة سبقت أننا نخاف من جهل النزلاء بين ظهرانينا لأمور ، مثل ما نخاف من جهل الأجانب الذين لم يطأوا وادى النيل قط ولم يختلطوا بساكنيه . وقد رأينا أن نعود اليوم إلى بسط الكلام فى هذا المعنى لأهميته ، راجيين أن يتحرك أحد من رؤساء هذه الأمه الأسيفة ـ يعنى الأمة المصرية ـ وممثلى رأيها لمدفع الشر الذى يقع عليها لامحالة إذا اشتدت الحال على هذا المنوال .

---

(٢٩١) ربيلا = ربيع .

فلا يجهل أحد أن كل أجنبى ينجلى عن بلاده ويستوطن الشرق يدخله من حين تطأه رجلاه كالفاتح إبن الفاتح ، يُرىَ فريداً ، وإن يكن ينظر سائر الأفراد من الناس . وقد يكون عاملاً حقيراً ، أو فقيراً مدقعاً لايحسب له حساب ، ولايخاطب إلا بالكاف(٢٩٢) ،ولكن أمامه ووراءه وعن يمينه وعن شماله مئات ألوف من الجند البرية والبحرية تحميه ، وأدوات حرق وغرق ترود عينيه ، وأموالاً طائلة معدة للأخذ بثأره .ولذلك ترى عليه حتى فوق أطماره الباليه منذ حلوله مسحة من مهابة الإمتياز الممنوح له ، المؤيد(٢٩٣) وصفناه من آلات الضرب ومهيآت الحرب .

وقد رأى المصريون خاصة أن الأجانب الذين أتوهم بأعظم المنافع الأدبية والمدنية التى يشكرون عليها ، ويكرمون كل الإكرام من أجلها ، قد أتوهم أيضاً بأعظم البلايا والمحن ، التى منها السلاسل والقيود فى عهد المرحوم إسماعيل ، ومنها الإحتلال فى عهد المرحوم توفيق ، ومنها الضغط القاتل على الأفكار والنفوس حتى والأجسام فى عهد الأمير الحالى عباس ـ غلطاً فى التعبير . فإن هذه المصائب لم يصبها علينا النزلاء بأنفسهم لتكون بيننا وبينهم نفرة بسببها ، بل حلت علينا بدعوى السهر على مصالحهم ،والمراعاة لحقوقهم وامتيازاتهم ، والصون لحياتهم وممتلكاتهم . فإن كان المصريون لم يفهموا فى كل هذا الزمان الطويل العريض ولاسيما الخمس عشرة سنة الإحتلاليه ، أنه لاسلامة لهم ولأوطانهم ، ولاتحقق لأمانيهم العامة الجليلة إلا بمسالمة نزلائهم وحسن المعايشة لهم ، فالذى ينسب إليهم ذلك ، إنما يرميهم بالجهل المطلق بمصلحتهم وخيرهم ، ويحب إلحاق الضرر الذى ما بعده ضرر بهم . لأنه ثابت لدى الجميع أنه إن كان فى القطر أقل خطر على الأجانب أياً كانوا ،

(٢٩٢) ربما كان قصد المؤلف من (الكاف) هنا أنها الحرف الأول من كلمة (كلب) ـ فاستخدمها تأدبا فى معرض وصفه لحقراء الأجانب النازلين .

(٢٩٣) المؤيد = المؤيد بما أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

فالدول العظيمة من مصادقة الآن للمصريين وغير مصادقة ، على إستعداد لإهمال أمرهم بل للمساعدة على التنكيل بهم .

ألم تعلمهم جميع العبر الماضية والحوادث الحاضرة ، من صغيرة وكبيرة هذا العلم الذى لايعز فهمه ، ولاتصعب الإحاطة به . فكيف يدور فى خلد منصف يعايشهم ساعة من الزمان أنهم يغررون بوطنهم وبجامعتهم وبأشرف أمانيهم فى الحال والإستبقال ،[٢٩٤] ليعادوا فريق الأجانب على قلة من فيهم من الذين يُمقتون لسوء سيرتهم وشدة كبريائهم ومظالمهم ، وكثرة الذين جنوا الثروات العظيمة فى البلاد منهم قد أخذوها وطناً ثانياً ، وهم يحبونها ويراعون مشارب أهلها وأخلاقهم ، ولم يجدوا منهم إلى يومنا هذا سوى الملاينة والموادعة ،وهذه فى الحقيقة حالنا مع الأجانب منذ أسقط الله فئة المطاميع[٢٩٥]الحمقى المرتشين ، الذين خذوا[٢٩٦] الشعب ودفعوه إلى هاوية التفانى[٢٩٧] فى اليوم المشهود من شهر يوليو عام إثنين وثمانين وثمنمائة وألف[٢٩٨] . فمن يتوهم أن هذا الشعب نفسه ، على ما ينسب إليه من الجهالة يعود إلى مثل غلطته السابقة ، وهو لايزال إلى اليوم يدفع الفدية عن ملايين دنانير من أمواله نقداً سوياً لمجيشى الإحتلال الإدارى والعسكرى ، فضلاً عما يتحمله من مضايقة الوصاية وعارها ، وعيب الإنحطاط بين الشعوب الأخرى المماثلة له ، والخوف المستمر على المستقبل أن لايرد إليه وطنه وهو أعز مفقوداته) . قال . ولنُجار ذوى الأغراض ونقدر أن الشعب المصرى لايزال بأمر[٢٩٩]بأمر بعض المتقدمين فيه ، فمن ينكر على هؤلاء العقل والإدراك

(٢٩٤) الاستبقال = الإستقبال .
(٢٩٥) المطاميع = الطامعين قراءة ترجيحية .
(٢٩٦) خذوا = خذلوا .
(٢٩٧) التفانى = الفناء قراءة اجتهادية .
(٢٩٨) يقصد حريق الإسكندرية (١٢ يوليو ١٨٨٢) .
(٢٩٩) يأمر = يؤمر .

والإخلاص ، فيظن أنهم يجعلون ذويهم على هذا المركب المفضى إلى الفناء . ولكن هذا الأمـر الذى يدركـه[٣٠٠] ذوى القلوب السـقـيـمـة ، والأحـلام التى لايضلها الغرض ، لايدركه أكثر النزلاء ويتوهمون عند المصريين لهم العداء ، لأن جرايد الإحتلال غير العربية أبداً تدخل فى أفئدتهم هذا الخوف ، وفى أذهانهم هذا الوهم ، حتى جعلهم أعوان الإحتلال علينا ، ولاسيما بعد الحرب اليونانية العثمانية الأخيرة ، ونحن لا لسان أعجمى لنا نستنطقه بالحق أمام أولئك الجاهلين لأمورنا دفعاً للظنون عندهم ، ودفاعاً عن أنفسهم) . قال (ولست أحتاج إلى زيادة كلمة على ما قدمته ليعلم الأولياء الذين بيدهم ناصية الرأى العام المصرى ما يتعين عليهم من الواجب ، ليضعوا حداً لهذا الإهمال السىء منهم ، وينتبهوا من غفلتهم العائبة التى جرت على البلاد هذه المصيبة) . قال (وأما الأمة فلا نعود إلى مخاطبتها بتكرار ما طالما كررناه من حيث خطة السير التى ينبغى أن تجرى عليها مع الأجانب . بل نحن نقول لها بعبارة واحدة ــ ما دمت تريدين سلامة البلاد من البلاء ، فاستوى على ما أنت فيه من مسالمة) . ولم يكاد[٣٠١] يعم صوت نداء صاحب الأهرام بتحذير الناس من معاداة النزلاء ، والإبتعاد عن كل ما يثير الخواطر ، ويؤلم النفوس[٣٠٢] ،حتى ظهرت فتنة أخرى

---

(٣٠٠) يدركه = لا يدركه أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٣٠١) يكاد = يكد .

(٣٠٢) يحذر ميخائيل شاروبيم ــ على لسان صديق من أهل المناصب ـ ألمصريين من إظهار مشاعرهم العدائية تجاه الأجانب أو التعبير عن فرحهم بانتصار دولة الخلافة على اليونانيين ـ ويشير من طرف خفى إلى اتجاه الحركة الوطنية التى كان يتزعمها مصطفى كامل فى ذلك الوقت إلى إتخاذ (الدين سلاحا يقاتلون به قوات الإحتلال وسياسات الدول) ـ ثم يعرج على تأثير هذا المسلك من جانب مصطفى كامل على (وحدة الأهلين) . ويطالب الشعب بالرضوخ لمشيئة الأجانب وعدم إظهار مشاعرهم ــ ويخوفهم من العواقب التى جرت للبلاد عندما قاد (عرابى) الأمة ضد التدخل الأجنبى ـ وهو فى هذا المسلك السلبى من الإحتلال والأجانب يستخدم (قول صديق) مرة ــ و(مقالة فى جريدة الأهرام) مرة أخرى نأيا بنفسه عن تهمة أن يكون صاحب هذا الرأى فى الحركة الوطنية فى تسعينات القرن التاسع عشر .

لكن شاروبيم بمسلكه هذا ينسى أن (عرابى) قاد الأمة بأكملها نحو تيار وطنى ينادى بأن (مصر للمصريين) ـ ويتجاهل أن (مصطفى كامل) حرك مشاعر أمته نحو رفض الإحتلال ورفض الرضوخ له ـ وسعى إلى تعريف العالم الغربى بقضية البلاد وبذل كل طاقاته من أجل إستقلال بلاده .

فموقف ميخائيل شاروبيم فى الواقع من الحركة الوطنية فى الثمانينات والتسعينات موقف سلبى يحسب عليه .

وداهية كبرى . ذلك أنه جرت عادة كبار جيش الإحتلال أن يخرج بعضهم بجنده إلى صحراء الهرمين أو سهول القناطر الخيرية أو ببيداء (وردان) وهم فى طبولهم وزمورهم وعدة حربهم ، يقضون اليوم واليومين يتمرنون على إطلاق البنادق وتجويد الرماية ، ثم يرجعون إلى منازلهم . فحدث أن خرجت طائفة منهم إلى سهول القناطر الخيرية فى كبكتهم(٣٠٣) المعتادة وقضت يومها ذلك .ولما كانت راجعة فى طريقها خرج على فرسانها جماعة من عامة الفلاحين ورموها بالحجارة ، وجعلوا يسخرون بها وينادون رجالها بفحش القول . فلم يلتفت الجند إليهم وظلوا فى طريقهم حتى دخول القاهرة . وباتوا وأصبحوا وقد دخل (المستر رنل رود) نائبا عن اللورد كرومر على الرئيس مصطفى فهمى باشا وأخبره بخبر ما وقع ، وطلب منه سرعة محاكمة أولئك الجهلة أمام المحكمة المخصوصة التى أقاموها لتحكم فى التعدى الذى يقع من الأهلين على العساكر الإنجليزية ، وحكمها لايستأنف ولا هو ينقض . وفى الساعة التى دخل فيها كاتب سر اللورد كانت قد وصلت إلى بلدة قليوب طائفة من فرسان الإنجليز ، وأحاطن(٣٠٤) بالبلد من كل صوب ، ومنعوا الداخل إليها والخارج منها ، فانزعر(٣٠٥) الناس وتولاهم الرعب ، وجعلت النساء تولول والرجال يترامحون هنا وهناك ، ولم يجسروا على الخروج إلى زروعاتهم . وكان المحاصرون من المشاة والكربان(٣٠٦) وأصحاب المدافع . حصل ذلك فى حادى عشر سبتمبر من السنة ، ورابع عشرى ربيع الثانى . فكان المنظر مهيباً مزعجاً للغاية ، ولم يكن الناس ليعلموا داعى هذا الحصار ولا ما وقع من أولئك المشاغبين . ورأى الرئيس مصطفى باشا من تشديد نائب الغيبة ووعيده ما أشغله وبلبل بلباله . ولاسيما وقد أخذته صيحة أصحاب الصحف على

---

(٣٠٣) كبكتهم = كبكبتهم
(٣٠٤) وأحاطن = وأحاطت .
(٣٠٥) فانزعر = فانذعر .
(٣٠٦) والكربان = والركبان .

إختلاف نزعاتها من كل جانب . قيل وأكبر الأمير محاكمة أولئك الغلمان أمام تلك المحكمة الجائرة لجرمهم الضئيل ، وراجع الرئيس فى ذلك فلم ير منه قدرة على رد أصحاب الإحتلال عن قصدهم . وأصبحوا ثانى يوم وقد ذهب (هارفى[٣٠٧] باشا) صاحب شرطة القاهرة إلى قليوب يبحث ويحقق ، ويقبض على هذا ويترك ذاك ، حتى اهتدى على أصحاب تلك الفعلة ، فقبض على عشرين منهم ، وساقهم إلى القاهرة مكبلين بالأغلال . فبرز الأمر بفك الحصار عن البلد ورجوع المحاصرين إلى القاهرة فعادوا . ومن العجب أن ذلك الحصار قد تم قبل أن يعلم الرئيس بخبره . واتفق أن عاد لورد كرومر فى رابع يوم هذا الحادث من ديار الفرنجة . فما هو أن وصل حتى جاء مدير القليوبية إلى قائد جيش الإحتلال معتذراً عما وقع من أولئك الغلمان . قالوا وبالغ فى الإعتذار والإسترضاء ،ثم قابل الرئيس وعاد إلى مقر وظيفته . واهتم وزير الحقانية بأمر تشكيل المحكمة المخصوصة ،وجاء من مصيفه فى الإسكندرية إلى القاهرة .

---

(٣٠٧) هـارفى بـاشا = چـورج هـارفى George Harvey ــ ضـابط استكلندى ــ كـان بـرتبة ملازم Sub -altern فى الكتيبة الثانية والأربعين هايلاندرز 42 nd Highlanders التى حاربت فى التل الكبير فى سبتمبر ١٨٨٢ــ عين بعد الحرب فى الجندرمة المصرية تحت قيادة بيكر باشا ـ فى ١٠يونيو ١٨٨٥ كان حكمدارا لأورطة الجندرمة والبوليس برتبة القائمقام (بك) فى ـ ١٨٨٦/٣/٢٧ حصل على النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ـ فى ١٨٨٧/٩/١٠ كان حكمدارا للبوليس الإحتياطى ومنح رتبة الأميرالاى . فى ٢٨مايو ١٨٩٢ كان حكمدارا لبوليس الإسكندرية . فى ١٨٩٧/٤/١٤ نقل حكمدارا لبوليس مدينة القاهرة خلفا لكولس باشا الذى عين مفتشا لعموم السجون ـ فى عام ١٩٠١ نقل مفتشا بنظارة الداخلية . فى ١٩٠٥/١/٢١ منح النيشان المجيدى الثانى ــ شارك فى يناير ١٩٠٩ بصفته مفتشا بنظارة الداخلية فى دراسة حالة مدرسة البوليس ـ عند إنشاء قسم تفتيش النظام فى١٣ فبراير ١٩٠٩ وتعيين اللواء منسفيلد Mansfield حكمدار بوليس القاهرة باشمفتشا للقسم المذكور ، عين هارفى باشا حكمدارا لبوليس القاهرة ــ فى أول مارس ١٩١٨ وفي أعقاب فضيحة (چورج فيليبيدس) مأمور ضبط محافظة القاهرة أحيل الميرالاى چورج هارفى باشا إلى المعاش ليحل محله توماس رسل T.W Russell كحكمدار لبوليس القاهرة حتى عام ١٩٤٦ .

ــ الوقائع المصرية ١٨٨٥/٦/١٠ ، ١٨٨٦/٣/٢٧ ، ١٨٨٧/٩/١٠ ، ١٨٩٢/٥/٢٨ ، ١٩٠٥/١//٢١ .

ــ الأوامر العمومية لنظارة الداخلية فى يناير ١٩٠٩ ، فبراير ١٩٠٩ ، مارس ١٩١٨ .

- Russell Pasha (Egyptian Service - 1902 - 1946) - John Murray - London- 1949 - pp., 163 -164, 166, 167, 169.

فما هى إلاعشية وضحاها حتى برز الأمر بعقد المحكمة المخصوصه فى يوم الثلاثاء ثامن عشر سبتمبر من السنة ، أى عشرة جماد الأول من السنة الهجرية . قالوا وهى تؤلف من (أحمد فتحى بك زغلول) رئيس محكمة مصر الإبتدائية الأهلية ، والمستر (ويلمور) القاضى فى محكمة الإستئناف ، والمستر (مسمون) من ضباط جيش الإحتلال ، وأن يتولى رياستها المستر (كمرون) القاضى بالإستئناف بدلاً من المستشار القضائى أو وزير الحقانية . وأنه قد وقع الإختيار على السيد (أحمد بك الحسينى) ليكون مدعياً عمومياً يقيم الدعوة على المتهمين بدلاً من مندوبى الشرطة . وتطوع (إسماعيل بك عاصم) أحد المحامين للدفاع عن المتهمين جميعاً . وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ، فلم يعجب الناس رضاء (أحمد بك الحسينى) بهذه المهمة ، وعدوه غلطة معيبة فى مهنته ، وأخذته صيحة صحف الحزب الوطنى .

فلما كانت ليلة الثلاثاء ثامن عشرى سبتمبر أعدوا كل شيء لمحاكمة أولئك الغلمان .وأصبحوا يوم الثلاثاء وقد وضعوا رجال الشرطة على أبواب محكمة الإستئناف الأهلية زوجين زوجين ، يمنعون الناس من الدخول إلى قاعة المحكمة المخصوصة إلافريقا منهم بقدر ما تسع المقاعد . ولما كانت الساعه الثامنة والدقيقة الخامسة صباحاً فتحت الجلسة ، وكان وزير الحقانية فى كرسى الرياسة وعلى يمينه المستر كمرون ــ النائب عن المستشار القضائى ، ويليه الضابط (سمسون) المندوب العسكرى ، وإلى شماله المستر ويلمور القاضى فى محكمة الإسئناف الأهلية ، ويليه فتحى بك رئيس محكمة مصر ، وكان شاكر بك الخورى (باشترجمان) جيش الإحتلال إلى يمين الضابط الإنجليزى من وراء ، ويليه (هارفى باشا) صاحب التحقيق ، وعلى مقربة منه (أحمد بك الحسينى) المنتدب للقيام بوظيفة المدعى العمومى . وكان المنظر منظر وقار وهيبة ، والسكوت سائر كأن على رؤوس الناس الطير ، وأصحاب الشرطة متفرقون فى جوانب القاعة بملابس نظيفة للغاية . فكانت

هذه أول جلسة رأيناها على مثل هذا النظام والترتيب المستحسن . فلما نادى الرئيس بافتتاح الجلسة ، قام الترجمان وحلف يمين الصدق فيما ينقله بين يدى القضاء . ثم سئل المتهمون واحداً واحداً عن أسمائهم وأعمارهم وما أسند إليهم فعله فأنكروها كلهم . فأشار الرئيس إلى السيد (أحمد بك الحسينى) بأن يتكلم ، فقام وروى الحادثة كما وقعت باختصار ، وطلب العقوبة للمتهمين بوجه التعميم ، على أن يفصل التهمة عند استئنافه الكلام ، ثم طلب أن تسمع المحكمة شهادة شهود الحال . فاستدعت المحكمة أولاً (الضابط هور) رئيس الجند الذين مروا بقليوب ، وبعده الضابط الذى كان مساعداً له واسمه (جونستون) ،فشهدا بما مجمله أن العساكر مرت بالقرب من محل قد اجتمع فيه جمهور من الناس ، ورأوا أن كثيرين منهم يهزأون بهم ويزدرونهم بالإشارات ، ويبصقون عليهم . فوقف الضابط الكبير بجنوده ووجههم نحو أولئك القوم ففروا ، وظن الضابط أن الحادث قد انتهى ، فأمر الجند بالمسير . فما بعدوا إلا قليلاً حتى رأوا أن نحو العشرين حجراً تساقطت بالقرب منهم ، فلوى الضابط (هور) والضابط (جونستون) عنان جواديهما وهجماً على أولئك الغلمان الذين رجموا تلك الحجارة ، وكانوا بمكان منعزل ينتهى منه إلى بناء ، فرأيا القوم قد فروا ودخلوا كلهم فى البناء . فلما وصلوا إليه وكان بابه قد أقفل وأمام الباب (على حسن جلل) صاحب الحانوت واقفاً ، وكان قد استقدم بعض أصحاب الشرطة ، فطلبوا من الرجل أن يفتح الباب فاعتذر بأنه قد أقفل من الداخل ، فأنذروه بكسره إن لم يفتحه . فامتثل وأمر بالباب ففتحه غلام صغير من الداخل . وكان الذين لجأوا إليه قد فروا من باب آخر . وتمت شهادة الضابطين ، فاستدعوا شاهدان من أصحاب الشرطة وآخران من الغفراء ،فأيدوا هذه الأقوال جملة وزادوا عليها بعض التفاصيل التى رجحت التهمة على ثلاثة من المتهمين .وبعد الفراغ من سماع الشهود عاد(أحمد بك الحسينى) إلى بسط مفصلات التهمة ، وقال (أن أولئك الصبية لم يفعلوا ما فعلوه عن تآمر

بينهم ، بل كان خروجهم من حانوتهم فى ذلك الوقت بقصد التفرج على صفوف الجند ، ثم تطرف بعضهم إلى السخرية ، ولكنهم لما عادوا الكرة ورموا تلك الحجارة كان ذلك بايعاز موعز سيىء القصد) . قال . (ولابد وأن يكون ذلك الموعز صاحب الحانوت (وعبدالله هشة) الذى أجمعت أقوال المتهمين على أنه كانت له اليد الطولى فى هذه الحادثة . ولذلك فإنى أطلب معاقبة هذين الرجلين بشدة) . ثم تكلم على سائر المتهمين واحداً فواحداً ، وأن ثلاثة منهم مشكوك فى حضورهم وفى اشتراكهم ، ولذلك إلتمس لهم البراءة ، وأن ثلاثة آخرين صغار السن يرجو معاقبتهم بإرسالهم إلى سجن الأحداث بضعة شهور ، وأن نفراً من الباقين يستحقون العقوبة بأقل من الفاعلين الأصليين ، وأكثر من سواهم ، وأن يفوض المحكمة فى اختيار العقوبة وتقديرها لسائر المتهمين . فكان كلام الرجل غاية من الإعتدال مقصوراً على سرد الحوادث وتبيان الأدلة بلا مغالاة ولاتشويش . وإلى هنا ظهر الملل والتعب على أعضاء المحكمة فأرجئت إلى ثلث ساعة . ثم عادوا فتكلم المدافع عن المتهمين وقال أن هذه المحكمة ليست مختصة بنظر هذه الحادثة لأنها ليست بجناية ولاجنحه وإنما هى مخالفة بسيطة. وجعل يؤيد قوله بأدلة ، فنفى التآمر وسوء القصد . ثم دافع بالتخصيص عن المتهمين التى كانت الشبهة فيهم أقوى منها فى غيرهم . وفى خلال كلامه أثنى على رجال جيش الاحتلال لحسن سيرهم بين الأهالى بقطع النظر عن الإحساسات التى فى قلوب المصريين من جهة الإحتلال . ثم ختم طالباً البراءة للجميع إن حكمت المحكمة بأنها مختصة .

فلما انتهى المدافع من كلامه قام القضاة فاختلوا فى غرفة المداولة ، ثم عادوا فى الثلث من الساعة الواحدة بعد الظهر ، وتلى وزير الحقانية الحكم بتشغيل (على حسن جلل) (وعبدالله هشة) الفاعلين الأصليين فى الحملة السودانية مدة ثمانية أشهر ، ومثل ذلك ستة أشهر على الثلاثة الآخرين . أما

أرخون[٣٠٨] فقد حكم بتوبيخهم توبيخاً شديداً ، فوبخهم الوزير بمشهد من الجمهور . ثم أثنت المحكمة ثناء مستطابا على الضابط (هور) لأنه بحكمته وحزمه قد رفع حدوث أعظم ما قد حدث. ثم قالت (ومراعاة لأنها عقدت اليوم أول جلسة لها ، فهى قد استعملت الرفق والرحمة بالمتهمين) . وتفشى خبر الحكم بين الناس فتحدثوا فيه كثيراً وعده أصحاب[٣٠٩] المحلية من أغلاط الرئيس مصطفى فهمى باشا ونتائج استسلامه لعميد الإحتلال . أقول وسمعت أحدهم يقول وقد أخذته الحدة عند الكلام على تلك المحكمة المخصوصة والحكم التى أصدرته (يا سبحان الله إن أجل ما يفتخر به من الإصلاح أصحاب الاحتلال ، ويتغنون بمدحه إلغاء المحاكم الاستثنائية الكثيرة التى كانت فى هذه الديار ، وإعاضتهم عنها بمحاكم قانونية عامة . فهل كان يدور فى خلد هؤلاء المصلحون وهم وقوف موقف المباهاة على أنقاض تلك المحاكم ،أنهم يعودون يوماً فيجمعون تلك الأحجار ويشيدوا منها بناء شامخاً لمحكمة إستثنائية واحدة ،وهى أجمع من جميعها للظلم ، وأقبح ما يرد فى مخيلة مستبد من وسائل الإستبداد . ولم يكفهم أنهم جعلوها ماسة لحقوق الإمارة ، تصدر أحكامها نافذة على الأثر ،وهى غير مقيدة بقانون ممدوداً[٣١٠] ظل الشك فوق أكتافها ، لأن أكثرية أعضائها من جماعة الإنجليز الذين وضعت للإنتقام لهم بحق أو بغير حق ، ولذنب أو لشبه ذنب) . إلى أن قال (وقالت المحكمة أنها مراعاة لأول جلساتها قد استعملت الرأفة العظمى ، وإنا نوافقها على ذلك أى على التخفيف . ولكنا نقول لها أن الشدة كل الشدة فى نوع العقاب الذى لم تسبق إليه المحكمة ، وهو إرسال المحكوم عليهم للتشغيل فى أشغال الحملة السودانية الشاقة) . قال(ولا نرى كيف استحلت هذه العقوبة

---

(٣٠٨) ارخون = الآخرين .

(٣٠٩) اصحاب = أصحاب الصحف أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٣١٠) ممدودا = ، بل إستبدلت الكلمة ليستقيم المعنى .

وهى فى نظر الجميع أشدها وأضرها بالمحكوم عليهم لاسيما الغلمان . فهم الذين دفعهم النزق إلى الوقوع فى هذا المأزق الضيق على غير عمد ولاقصد مقصور(٣١١) . أ . هـ .

قلت ما هى إلا أيام بعد أن تمت محاكمة أولئك الغلمان حتى عدل لورد كرومر عن طلب وضع الحاميتان الإنجليزيتان بالزقازيق وطنطا ، وكلم الرئيس فى ذلك ، وفى أنه ستقوم طائفة من فرسانهم سائرة من القاهرة إلى الإسكندرية مارة بأكثر المدن البحرية ، ثم تعود على نفس الخط المرسوم لذهابها ،فتصل القاهرة فى سابع عشرى سبتمبر من السنة . وشاع خبر ذلك بين الناس وتحدثوا به ، فزالت عنهم تلك الوحشة المسيطرة . وبرز الأمر من الرئيس إلى سائر المديرين الذين ستمر تلك الطائفة فى دائرتهم بدقة الإلتفات والسهر على راحة الجنود السائرة ، ومنع كل تشويش بالقول أو بالفعل ، وتسهيل السبل ومنع كل عقبة فى طريقهم ، وتوعدهم بكل وعيد ، فخرجت تلك السرايا فى أحسن لباس مدججين بالسلاح ، وساروا على أتم ما يكون من النظام . فكان إذا حلوا فى بلد خرج للقائهم ضابط الشرطة وجماعة الغفراء وعمدة ومشايخ البلد وبعض الأعيان وأهل الوجاهة ،وأكرموا مقدمهم وبالغوا فى الإحتفال بهم ، ثم يشيعونهم المرحلة والمرحلتين ، فإذا بلغوا البلد الثانى حصل لهم غاية التكريم وتلقوهم على الرحب والسعة ، وظلوا على هذا حتى بلغوا الإسكندرية وعادوا إلى القاهره على نحو ما ذهبوا إلى الإسكندرية . يقال كانوا إذا وصلوا إلى بلد لايرون فى

---

(٣١١) عقدت هذه المحكمة تطبيقا للأمر العالى الصادر فى ٢٥فبراير ١٨٩٥ بتشكيل محكمة مخصوصة لتحكم فى الجنايات والجنح التى تقع من المصريين ضد جنود أو ضباط الجيش الإنجليزى إذا تقدم عنها طلب من قنصل جنرال بريطانيا إلى ناظر الخارجية بناء على طلب الجنرال قائد جيش الإحتلال ـ ووفقا للمادة الخامسة من الأمر فإنه كان للمحكمة أن لاتتقيد بأحكام قانون العقوبات ، ولذلك فقد حكمت بتشغيل بعض المتهمين فى الحملة الموجهة ضد المهديين فى السودان ـ وكان هذا عقابا جديدا من نوعه ابتدعته إنجلترا فى مصر ـ راجع الوقائع المصرية فى ١٨٩٧/١٠/٤ .

طريقهم أحداً ، فيبيتون أنى شاء مقدمهم البيات ، فلا يرون إلا دوراً ساكنة كأن لاديار فيها ولا نفاخ نار ، والناس كأن على رؤوسهم الطير . فإذا رحلوا عن البلد خرج الناس يتلمسون الطريق وهم فى فزع وخوف ما عليه من مزيد ، حتى يتم رجوع الجند إلى القاهرة على النحو الذى رسموه ، وزال عن الناس الخوف مما كانوا يتوقعون .

وكان قد عاد لورد كرومر إلى مصر من مصيفه فى ديار الإنجليز بعد حكم تلك المحكمة المخصوصه بيومين ، فأقام فى القاهره متشاغلاً عن زيارة الأمير بمصيفه فى الإسكندرية على ما جرت به المجاملة بينهما . وكان لما وصل إلى مقره طيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ، فجاء على الأثر رسول من التخوم يحمل رسالة خصوصية من السردار (كتشنر باشا) . قالوا تتضمن رأيه فى الزحف بجيوشه إلى ما وراء (أبى حمد) (وبربر) ،وما لديه من الأسباب الحاملة على ذلك . وما هى أن وصلت تلك الرسالة حتى إنحدر السردار إلى القاهرة مسرعاً بغير حشم ، والتقى باللورد كرومر فى خلوة يوماً وبعض يوم ، لايعلم أحداً بشىء مما دار بينهما من الحديث إلى يومنا الذى نحن فيه ، رغماً عن تكهن أصحاب الصحف المحلية وإدعائهم العلم بما كان . وعندى أنه يكذب من يدعى العلم بشىء مما وقع بينهما ،حتى الرئيس ومن معه من الوزراء . فلما كان رابع أكتوبر من السنة سادس جمادى الأولى سافر اللورد إلى الإسكندرية. وقابل الأمير بقصر الإمارة برأس التين ، فأكرم الأمير لقاءه ، وكان معه المستشار المالى ، ثم عادا إلى القاهرة . وعاد السردار إلى التخوم مسرعاً ولحقه جماعة من مقدمى الجند الذين كانوا فى أجازاتهم . فما هم أن وصلوا حتى جاء الخبر وتناقله أصحاب الصحف الإنجليزية بأن قد وصل إلى (مروى) أحد الجواسيس الفارين من أم درمان وأخبر مؤكدا بأن الدراويش محتشدون فى (المتمة) وأرباضها ، وأنهم متأهبون لمقاتلة الحملة . وأن الخليفة عبدالله سير كتبه إلى (الأمير محمود) يأمره أن يمنع الحملة من الوصول إلى (المتمة) ما استطاع .

وأن عثمان دقنه قد قطع نهر عطبره أثناء مسيره إلى النيل الأزرق . فلم تكن إلا أيام بعد تفشى هذا الخبر حتى شاع أن قد تقرر بين أهل الحل والعقد فى ديار الإنجليز إرسال نجدة من ألفين مقاتل أو يزيد إلى التخوم ، لمعاونة المرابطين وأصحاب المراصد ، وأنهم قد أخذوا الأهبة لتسييرها . ونقلت صحفهم أيضاً عن سفير إيطاليا فى ديارهم أن المخابرات مع صاحب السياسة الإنجليزية بشأن إرجاع كسلا قد تمت ، وأن كل شىء قد أصبح معداً لاحتلال جماعة الإنجليز لذلك البلد . قالوا وأن الإيطاليان يريدون التخلص من هذا المقام الذى لافائدة منه والذى يكلفهم ثلاثة ملايين فرنك فى كل عام . وقد أثبتت المصادر الصحيحة ولاسيما الجرائد النمساوية الشبيهة بالرسميه أن صاحب السياسة الإنجليزية بذل جهد المستطيع لحمل صاحب السياسة الإيطالية على الاشتراك معه بالعمل فى حملة السودان فلم يقبل ، وامتنع من ذلك منعاً باتاً ، وأصر على تضييق نطاق سياسته فى أفريقية ، والتعجل فى التخلص من البقاء فى كسلا . فقامت ضجة أصحاب الصحف الإنجليزية من كل جانب ، وهاج ساكن أصحاب شوراهم ودار ندوتهم . وتكلم خطباؤهم على منابرهم ، وقال أحدهم بعد كلام طويل فى ذلك (إذا تركنا هذه السنة تمر دون عمل فى السودان شرقاً وجنوباً ، إستطاع القوم الروس والفرنسيس أن يقيموا فى النيل الأعلى ويوطدوا أقدامهم) قال (وعندى أنهم هم الذين سلحوا الأحباش وقادوهم إلى مقاتلة الإيطاليان ، وإذا كان هذا ما فعلوه مع الأحباش فماذا يمنعهم من قيادة جماعة الدراويش ضد حملتنا السودانية . فإذا بلغ هؤلاء الروس والفرنسيس النيل الأعلى ، بات السودان ومصر تحت رحمتهم . فعلينا إذن أن لانضيع الوقت ، فإن ما ليس حقيقاً فى هذا العام قد يصبح فى العام القابل أمراً مقضيا) . قال (وأما إذا وعد الفرنسيس وعداً صريحاً بأن يجروا على خطة المجاملة فى هذه الآونه ،فإنا نتساهل معهم فى (تونس) ، ونقابل المجاملة بمثلها . ولكنا نرى أن صحفهم ما برحت تظهر لنا العداء فى هذه الأيام على أشده ، وتنكل بنا تنكيلاً لم تظهره قط فى ما سلف من الأيام) . أ . هـ .

وبينما الناس فى تفكير فيما سيكون من وراء ذلك ، إذ جاء الخبر بوصول نقالة كبرى من نقالات الجند تحمل جماعة كثيرة من العساكر الإنجليزية قادمون من قبرص ، وجماعة أخرى منهم قادمين من جبل طارق . فنزل الأولون منهم بمنازل الجند التى فى رأس التين ، وجاء الآخرون إلى القاهرة على قطار مخصوص ، فأنزلوهم فى قصر النيل . واهتم أصحاب الإحتلال لحضورهم . فلم يستقر بهم المقام حتى وصلت نقاله أخرى إسمها (سملا) وعليها طائفة كبيرة منهم ، فأرسلوا بعضها إلى القاهرة وأبقوا بعضها بمنازل الإسكندرية فى رأس التين . وظهرت الحركة فى ساير منازلهم وتحت قلعة الجبل ، وكثر غدو ورواح مقدم الجيوش الإنجليزية إلى مقر اللورد كرومر . وظهرت مركبات حملهم بين قلعة الجبل والعباسية والجيزة ، وسارت كتائب مشاتهم هنا وهناك متتابعة أياماً ، وكثرت تمريناتهم وإطلاق مدافعهم عند سفح الجبل الأحمر وصحراء الهرمين . وبرز الأمر بفرز أربعين ألفاً من شباب القرعة العسكرية ليستخرج اللائقين للخدمة العسكرية منهم .

واهتمت وزارة الخزينة ووزارة الحرب بربط الخراج على ما افتتح من بلاد السودان . فبرز الأمر من ديوان الأمير بأن يكون الخراج على أطيان مديرية دنقلة على درجتين ، أولى وثانية .أما الجزر التى تروى من النيل بالسقايات والشواديف فيربط على الفدان من الدرجة الأولى فيها ستون قرشاً ، ومن الدرجة الثانية خمسون ،وأما الأطيان التى على شاطىء النيل وأطيان جزيرة إدكو فالدرجة الأولى من ضريبتها أربعين قرشاً ، والثانية ثلاثين ، وأما الأطيان التى تسقى من الفيضان ، والأطيان التى تسقى من الآبار ، والأطيان المعروفة (بالسلوقة) فضريبتها لاتتجاوز العشرين قرشاً . ويجبى نصف هذا الخراج فى سنة ثمان وتسعين وثمنمائة وألف ، ويشرع فى جباياتها كلها من سنة تسع وتسعين . أما النخيل فقد ضرب على النخلة قرشاً ونصف قرش تجبى من بدء السنة الآتية ، يعنى سنة ثمان وتسعين وثمنمائة وألف . فلم يرتح أهل تلك

البلاد لهذا القرار ، وقد منيت بلا محال(٣١٢) وهلاك النسل فضلاً عن الإنسان ، بسبب الفتنة المهدوية وتوالى غارات الأقوياء على الضعفاء وما ابتلوا به من الكواين الأخرى . يقال وأنس السردار منهم بعض الهرج والتألم ، فطيب خواطر كبارهم ومشايخهم ، ومناهم بالتخفيف عند خروج أصحاب الجباية ، وحثهم على تهدئة خواطر أهل البلاد ، وحذرهم من عاقبة الهرج فامتثلوا .

وكانت الأنباء تأتى تباعاً إلى كبار نقط المعسكرات الأمامية للتخوم بدخول جماعة من الفرنجة إلى (فشوده)(وبحر الغزال) ، ووضعهم لراية مثلثة الألوان فى تلك الأنحاء . فكانوا يبعثون بهذه الأنباء زرفاً إلى السردار وقلم المخابرات والناس ، بل والرئيس لايعلم من أمر أولئك الفرنجة الفاتحين شيئاً ، إلا ما كان ينقله إليه جماعة الإنجليز بوزارة الحرب على ما فيه من خلط ومواربة . وكان السردار شديد القلق كثير الإهتمام باستطلاع أخبار أولئك القوم ، وهو يعلم جيداً أنهم بعثة أو بعثتين من الفرنسيس سارتاً عن طريق الكونغو لتحتلا (فشودة) قبل دخول الحملة السودان المصرى كما تقدم القول فى محله . فأرسل رسله وجواسيسه إلى تلك الأطراف على أشكال وصور مختلفة لتأتى له بالأنباء الصادقة . وقد زاده قلقاً أن برز إليه الأمر من جانب صاحب السياسة الإنجليزية بإيقاف حركة الحملة ، وترك الجند فى (بربر) فلا تتعداها فى سنتهم تلك . قلت ولعل ذلك ناجم عن اشتباك الإنجليز فى الحرب مع (الأفرديين) فى مضيق خيبر بالقرب من (جمرود) . فقد كانت وردت الأنباء بقيام الفتنة بين القبايل الضاربة بين الأفغان والهند الإنجليزية ،وأنها فتنه يخشى القوم إتصالها بالإيسالات(٣١٣)الناقمة على السياسة الإنجليزية . فاهتم حكمدار المملكة الهندية بها إهتماماً عظيماً جداً ، وسير الجنود إلى الحدود

---

(٣١٢) بلا محال = بالأمحال قراءة ترجيحية . ـ والمحْل هو الجدب وهو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلا ـ يقال بلد (ماحل) وزمان (ماحل) وأرض (محل) .
ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٥٧ .

(٣١٣) بالايسالات = بِالايالات قراءةاجتهادية .

تباعاً وبالغ فى الأهبة والإستعداد ، وحشد جيشاً ضخماً فى جبال ساماته لمقاتلة الأوراكزيس ، وغيره لمقاتلة الاموندين والمهنديين . فكانت الحرب بين الفريقين طاحنة ، والقتلى والجرحى كثيرين ، وإحراق القرى والمزارع العظيمة من دواعى الحال . وقتل كل من وقعت عليه أقل شبهة من أيسر الأعمال . قال المستر مورلى أحد إقيال السياسيين فى رسالة بعث بها الى صاحب التيمس بعد كلام .(وإنى أؤيد سوء النية التى اتهمت بها الحكومة الهندية بإنشاء طريق سنترال ، وأقول جهاراً بأن القبائل الهندية قد أكرهت إكراهاً على قبول رسم الطريق الذى ضربته الحكومة ، وجعلته فرضة دائمة لا خلاص منها . وأن القول بأن تأخير بعض القبايل فى دفع هذه الضريبة لايغير شيئاً من التهمة والشكوى) . إلى أن قال (وأما ما قاله اللورد نورثبروك والى الهند فليس سوى دليل من جملة الأدلة على أن السياسة قد تغيرت تغييراً مضراً عام خمسة وتسعين وثمنمائة وألف ، فكان من وراء هذا التغيير قيام الفتنة) . أ . هـ . ومع بروز الأمر للسردار بتربص الحملة ، فإنه لم يطق الصبر على ذلك ، ورسم إلى أربعة من البوارج المدفعية التى فى خدمة الحملة بالذهاب إلى (المتمة) واستكشاف حركة العدو . فسارت وتفقدت حصونها واستحكاماتها وناوشت من بها من المقاتلة ، فظهر لها أن عددهم كثير ، وأن غدوهم[٣١٤] مخيفة ، ولايمكن التهجم عليها إذ ذاك . فعادت وحدث ربانها بما شاهد من قوة العدو ، فانكمش السردار وأطاع . وقد جاءت الأخبار بقبض التعايشى على أولاد الزبير باشا وأبنائه بعد واقعة (المتمة) ، وأنهم[٣١٥] زجهم جميعاً فى سجون أم درمان . وذلك أنه لما تمت هزيمة أصحابه فى (المتمة)وخرجوا منها ،عثر بعضهم على عدة كتب دلت على أن قبيلة الجعليين مدفعون[٣١٦] إلى الخروج عليه بإغراء جماعة الإنجليز وتعضيد الزبير . فلما وصلت تلك الكتب إلى التعايشى غضب

(٣١٤) غدوهم = عدتهم
(٣١٥) وانهم = وأنه .
(٣١٦) مدفعون = مدفوعون .

غضباً شديداً ، ورسم بالقبض على أولاد الزبير وأقاربه جميعاً ، وقبض أيضاً على (إلياس أم بربر) الجعلى أحد أقارب (عبدالله بن سعد) أمير الجعليين . قالوا ولايعلم أحد مصير كل سجين من سجناء التعايشى ، ولاسيما متى كانت الجرائم سياسية[٣١٧] . واشتدت رغبة التعايشى فى استمالة منليك ناجوشى الحبشة إلى محالفته ، والإتفاق على الخطة التى يدفعون بها زحف الحملة وتقدمها إلى ما وراء (بربر) . فعاد إلى إرسال الكتب والسفراء مزودين بالهدايا الثمينة والتحف الفاخرة ،حتى لقد أرسل إليه تاج الناجوسى يوحنا وخاتمه وأسلابه التى كان الدراويش قد غنموها بعد مقتله فى وقعة (القلابات)[٣١٨] ، رجاء عطفه والإتحاد معه على دفع الإنجليز فلم يفلح ، ولم ينال السفراء من الناجوسى سوى الوعد وحسن الضيافة .

---

(٣١٧) كانت قبيلة الجعليين تقيم فى (المتمة) - وعلى حسن جوار وتحالف ظاهرى مع المهديين ، لكنهم كانوا يضمرون بعض الضيق منهم ولا يرغبون فى التعاون معهم فى الحرب ضد الحملة المصرية . عندما احتل الجيش المصرى أبو حمد فى أغسطس ١٨٩٧ قرر التعايشى أن يقيم خط دفاعه على النهر عند (المتمة) . لذلك فقد طلب من ابن عمه محمود أحمد أن يأتى من دارفور ليتولى الدفاع عن (المتمة) بعد أن يخليها (الجعليون) الذين كان قد تقرر انتقالهم بقيادة زعيمهم (عبدالله ودسعد) إلى الضفة الشرقية . لكن (ودسعد) لم يكن راغبا فى التعاون مع المهديين ولا فى إخلاء المدينة . ويرى بعض المؤرخين أن خلاف الجعليين مع المهديين كان يرجع إلى فرض التعايشى قدرا من المؤن والرجال عليهم للمشاركة فى جيش ابن عمه (محمود أحمد) الذى سيتولى الدفاع عن (المتمة) . لكن رأيا آخر يقول أن التعايشى كان يشك فى ولاء الجعليين الذين تصافوا مع الجيش المصرى بعد إحتلال دنقلة ولم يلتفتوا لأوامر الخليفة . وعلى ذلك فإن (ود سعد) صمم مع كبار الجعليين على مقاومة المهديين فى (المتمة) . فأصدر التعايشى التعليمات إلى ابن عمه (محمود أحمد) الذى كان قادما من دارفور لاحتلال المتمة حسب تعليمات الخليفة - أصدر إليه التعليمات بسحق الجعليين فى (المتمة) قبل أن تصلهم الأمدادات من دنقلة - وبالفعل فإن جيش المهديين اكتسح البلدة ودارت معركة شرسة انتهت بمقتل (ود سعد) وقبيلة الجعليين بأكملها - وهكذا فإنه فى الوقت الذى كان على المهديين التجمع والتربص إنتظارا لهجوم الحملة المصرية فإنهم دخلوا فى معارك جانبية إمتصت بلا شك جهدا كبيرا من جيش محمود أحمد الذى كان يفترض فيه أنه سيعسكر فى (المتمة) إنتظارا لقتال الحملة المصرية عندما تخرج من أبى حمد وبربر .

- على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره - ص ١٦٢ .

(٣١٨) صدام وقع فى ٢٩ مارس ١٨٨٩ بين المهديين والأحباش إنتهى بهزيمة الأخيرين ومصرع يوحنا الرابع - ملك الحبشة - تعرف هذه الموقعة بموقعة (القلابات)

- راجع حاشية ٦٩١ من حواشى عام ١٨٩٤- ص ٤١١ والحاشية ١٦٩ من حواشى عام ١٨٩٥ - ص ٤٧٦ .

وبينما الأفكار فى شاغل بحوادث التخوم واختلاف رواتها ، إذ جاء الخبر من السويس على جناح البرق إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة فى صبح سادس نوفمبر من السنة ، وحادى عشر جماد الثانى سنة خمسة عشرة وثلثمائة وألف بظهور اليخت الملوكى المسمى (ماحاشخرى) على ظهر البحر يقل (شولا لونونكورن) ملك مملكة سيام . فبرز الأمر على الأثر إلى سائر رؤساء الدواوين بالوفود إلى قصر رأس التين وهم بملابس التشريف والنياشين . فساروا جميعاً إلى القصر يتقدمهم الأمير محمد على باشا ، وقد كان جاء من القاهرة لاستقبال الملك باسم الأمير ، ومعه بعض حاشية القصر ومحافظ المدينة ، وغيرهم من أهل المناصب كثير . فلما كانت الساعة العاشرة والدقيقة خمس وأربعين إجتاز بوغاز الميناء ، واستقل الأمير محمد على باشا وحاشيته زورقاً ، وركب كذلك من حضر من الكبراء وأصحاب المناصب ، وساروا جميعاً لملاقاة اليخت ، وقد رسى بالقرب من اليخت محروسة . وأطلقت البارجة الإنجليزية الراسيه هناك واحد وعشرون مدفعاً إكراماً وترحيباً ، ثم جعلت طابية الثغر تطلق مدافعها ترحيباً بالملك وردالسلام يخته . ولبث الأمير محمد على بحضرة الملك فى يخته لحظة لطيفة ،ثم نزلوا جميعاً إلى قصر رأس التين حيث رسى الزورق الملكى .وكانت شرزمة من الجنود المصرية على رصيف القصر بموسيقاتها .فأدت الجنود السلام العسكرى وصدحت الموسيقة بالنشيد السيامى .

وكان الملك لابساً بدلة عسكرية بيضاء السترة سوداء البنطلون ، وعلى رأسه قبعة عليها ريش أصفر ، وهو دون الربعة قليلاً ، فاجتاز الرصيف بين صفين من أرباب الوظائف وأهل المناصب ، وعلى يمينه الأمير محمد على باشا وجماعة الوزراء ورجال البلاط ، وجميعهم بملابس الزينة والتشريف ، وهم فى أحسن ما يكون من الهيئة والزينة . فلما استوى به المقام تقدم إليه محافظ المدينة يعرفه بكل الذين حضروا للقائه من أهل المناصب وأصحاب الخطط ، فكان يحييهم باسماً متلطفاً . ثم قدمت للجمع أطباق الحلوى ، فأكلوا

وانصرفوا . فلما صارت الساعة الواحدة وربع بعد الظهر ركب الملك فى عربة من عربات القصر ، تحيط بها جماعة من الحرس إلى محطة الباب الحديد ، حيث كانت الموسيقى العسكرية وشرزمة من الجند فى إنتظاره . فركب وركب معه الأمير محمد على باشا وحاشية الملك وبطانته ورجال ديوان الإمارة قطاراً مخصوصاً . وفى الساعة الثانية أطلقت المدافع مؤذنة بتحرك القطار بهم إلى القاهرة ، فوصلوا فى نحو الساعة الخامسة بعد الظهر ، وكان الأمير فى انتارهم[٣١٩] فى المحطة . فخرج للقائهم وهو بين جماعة الوزراء والأمراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط على إختلافها . وكان الرصيف مفروشاً بالنسيج الأحمر والمحطة مزدانة بالرايات . وكان الأمير بالملابس العسكرية من رتبة فريق ، وجميع الوقوف بملابس الزينة والتشريف الكبرى . فلما وقف القطار أطلقت المدافع ، فخرج الملك وصافح الأمير ثم قدم له الأمراء والوزراء فصافحهم أيضاً . ثم مشى والأمير بجانبه بين لفيف المدعويين ،وكان الملك يحيى الجميع برفع يده إلى قبعته ، وكان الحرس الأميرى أمام باب المحطة الكبير نحو خمسين فارساً أو يزيدون ، وبجانبهم شرزمة من أصحاب الشرطة ، فخرج الملك والأمير من ذلك الباب ، وركباً فى عربة التشريف الكبرى المسماة (بالعربة الحمراء) ومشت أمامها وورائها الجند ، وتلت هذه المركبة مركبة أخرى فيها الأمير محمد على باشا وابن الملك الأصغر ، ثم ثلاث مركبات أخرى وفيها أبناء آخرون للمليك ووزراؤه ورجال دولته ، ثم الوزراء المصريين . وسار الجمع إلى قصر الإمارة بعابدين ، فلما بلغوه حيا الأمير ضيفه وعاد فى كبكبته إلى قصر القبه وتفرق الجمهور .

أقول وقد رأيته شاباً جميل الطلعة على غرابة منظره ، قوى البنية ربعة من الرجال ، ضارب اللون إلى الإصفرار ، لابس زياً أقرب إلى الزى الإنجليزى ،

(٣١٩) انتارهم = انتظارهم .

وقبعته على شكل القارب المقلوب مملوءة بالريش الأبيض ، وفى عينيه لمعة زكاء ساطعه ، وزى رجاله كزيه لاغرابة لنا ولا لجماعة الفرنجة فيه ، وتظهر دلايل الشباب على جميع مصاحبيه . فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد ركب الملك فزار الأمير فى قصره ، ثم ذهب للفرجة على جامع الحاكم بأمر الله ، السلطان[٣٢٠] المعز ، وفيه دار الآثار العربية ، ثم جامع برقوق[٣٢١] ، فالأزهر[٣٢٢] ، فجامع المؤيد[٣٢٣] ، فجامع السلطان حسن[٣٢٤] ، فقلعة الجبل ، ثم عاد إلى قصر الضيافة فتناول الغذاء . ولما كانت الساعة الخامسة بعد الظهر خرج فى كبكبته فزار القناصل زيارة رسميه ، وزار الوزراء وعاد إلى مقره . فلما أذنت العشاء تناول العشاء على مائدة الأمير بحضور جمهور من المدعويين ، منهم الأمراء والوزراء والقناصل وأهل المناصب . وبعد زيارته للأمير أهداه النيشان الملكى الخاص ، ونيشان الفيل الأبيض من الدرجة الأولى للأمير محمد على باشا . وفى اليوم الثالث من وصوله قام مع حاشيته وبطانته فى قطار مخصوص لزيارة الآثار بالأقليم القبلى . وقبل مبارحته القاهرة أهدى للرئيس مصطفى فهمى باشا وسام الفيل الأبيض الأول ، وكذلك أهداه إلى بطرس باشا غالى وزير الخارجية ، وأهدى عشرة نياشين أخرى إلى رجال ديوان الإمارة وبعض الدواوين . فأهدى

---

(٣٢٠) السلطان = والسلطان قراءة ترجيحية ـ فالحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١) لم يتسمى بالمعز ، وإنما كان لقبه هو الحاكم بأمر الله ـ وهو ابن العزيز بالله أو العزيز بدين الله (٩٧٥ - ٩٩٦) . أما المعز فهو معد أبى تميم الملقب بالمعز لدين الله (٩٦٩ ـ ٩٧٥) ـ وجامعه هو الجامع الأزهر . وقد أنشئ جامع الحاكم والمسمى الجامع الحاكمى فى الفترة (٩٩٠ ـ ١٠١٢) .
تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٨ ـ ١٤١ .

(٣٢١) جامع برقوق = انشئ فى الفترة ١٣٨٤ - ١٣٨٦ ويقع فى شارع النحاسين بالقاهرة ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ص١٣٨ـ ١٤١ .

(٣٢٢) الأزهر = انشئ فى الفترة ٩٧٠ - ٩٧٢ ويقع بعد ميدان الأزهر بالقاهرة ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ص١٣٨ـ ١٤١ .

(٣٢٣) المؤيد = انشئ فى الفترة ١٤١٥ - ١٤٢٠ ويقع بشارع السكرية بالقاهرة ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ص١٣٨ـ ١٤١ .

(٣٢٤) السلطان حسن = انشئ فى الفترة ١٣٥٦ - ١٣٦٣ ويقع بشارع محمد على بالقاهرة ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ص١٣٨ـ ١٤١ .

الأمير هاشية(٣٢٥) الملك ومستشاريه أكبر نياشين الإمارة . وعاد من الصعيد منحدراً بالنيل فلبث فى قصر الضيافة إلى ما بعد ظهر يوم الإثنين خامس عشر نوفمبر من السنة ، عشرى جماد الثانى سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف . فركب قطار خاص هو وحاشيته وجميع أتباعه مبارحاً القاهرة إلى السويس ، فودع كما قوبل . فقفل راجعاً إلى تخت سلطنته .

سافر ملك سيام بعد أن احتفل بمقدمه ورجوعه إحتفالاً باهراً عظيماً ،وأصحاب الصحف على إختلافها يثنون على الأمير الثناء الجميل ، ويحبذون ما فعله لذلك الضيف من التجلة والتكريم ، فلم يبق صحيفة إلا وصاغت فلان(٣٢٦) المدح وعقود الثناء تلا(٣٢٧) الصحيفة الهزلية المسماة بالصاعقه(٣٢٨) ، فإن صاحبها خالف كل مألوف فى المجاملات وأنشأ قصيدة طويلة عريضة فى ذم الأمير والحط من كرامته ورميه بكل رزيلة لاتلتصق إلا بالعامة والسوقة . وكان جماعة من أسافل باعة الجرائد والمكارية(٣٢٩)أو مساحى الأحزية(٣٣٠)يلقون تلك القصيدة فى الطرق وحوانيت الباعة ، ويعونها(٣٣١) على خوانات القهاوى والمجتمعات العمومية بلا خوف ولا مبالاه . فكان بعض زعانف القوم وأهل المجون يقرأونها وهم فى ضحك وقهقهة ومناجاة بعضهم البعض بغير حشمة ولا وقار . وتفشى خبر هذا الحادث

(٣٢٥) هاشية = حاشية .

(٣٢٦) فلان = فنان قراءة ترجيحية ــ المفروض أن تكون الكلمة (افنان) إذا كان المقصود هو أغصان ــ فالفنن هو الغصن و جمعه أفنان .
ــ مختار الصحاح ـ ص ٢١٤ .

(٣٢٧)تلا = خلا قراءة ترجيحية ــ وخلا كلمة يستثنى بها ـ تقول جاءونى خلا زيدا .
ــ مختار الصحاح ـ ص ٧٩ .

(٣٢٨) الصاعقة = صحيفة باللغة العربية صدرت فى مصر عام ١٨٩٧ .
ــ إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـ ١٩٨١) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٣٦ .

(٣٢٩) المكارية = أى الذين يقودون الحمير لإركاب الناس بالأجر .

(٣٣٠) الأحزية = الأحذية .

(٣٣١) ويعونها = ويوزعونها قراءة ترجيحية .

وتحدث الناس به كثيراً ، فهب أصحاب بعض الصحف المحلية المحازبة لقصر الإمارة يقبحون عمل صاحب الصاعقة وينادون عليه بالويل والثبور وعظائم الأمور . واشتد بعضهم على أصحاب الشحنة ورموها بشيء من التهم المعيبة ، وتطرف بعضهم إلى غمز اللورد كرومر ولمزه بالقول أن[٣٣٢] المشجع لصاحب الصاعقة وآخرين على شاكلته على هذا التهكم المعيب ، والحط من مقام صاحب الإمارة . قيل وكلم الأمير الرئيس في ذلك ، وعاب عليه خنوعه وعجزه عن إيقاف أولئك السفلة عند حد الأدب . قالوا فامتعض الرئيس وسير إلى المدعى العمومى فى طلب محاكمة صاحب الصاعقة وتأديبه ومعرفة القائمين بالنفقة على صحيفة تلك السوداء[٣٣٣] .فقبض عليه وأوقف موقف التحقيق ، فاعترف بأن ناظم تلك القصيدة هو الشيخ (مصطفى لطفى) وطابعها الشيخ (محمد الخيامى) قاضى ولاية جرجا قبلا ، وأنه لم يحرض على نشرها من أحد . فترامت الظنون . يومئذ إلى أن المحرض له إنما هو حسن موسى العقاد[٣٣٤] ،أحد كبار أصحاب الجرائم السياسية الذين ألفوا النفى والتبعيد إلى

---

(٣٣٢) ان = بأنه .

(٣٣٣) صحيفة تلك السوداء = تلك الصحيفة السوداء عدلت الجملة ليستقيم المعنى .

(٣٣٤) حسن موسى العقاد = معارض مصرى ـ ظهرت مواقفه المعارضة للإستبداد فى عهد نظارة رياض (٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ــ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) عند ما اعترض على إلغاء قانون المقابلة الذى كان يقضى بإعفاء المزارعين من نصف المربوط على أطيانهم من الضرائب فى مقابل دفعهم الضريبة على أطيانهم لمدة ست سنوات مقدما ــ وكان قد صدر فى عام ١٨٧١ كنوع من القرض الإجبارى الذى فرضه إسماعيل على الأهالى . قدم (العقاد) مظلمة إلى لجنة التصفية نشرها فى جريدة (لاريفورم Lareforme) وصف فيها هذا العمل بأنه إستبداد ، وأبان أن قانون المقابلة وما احتواه من المزايا لدافعى الضرائب مقدما هو عقد لا يجوز نقضه من جانب الحكومة وحدها ــ طالب الحكومة برد ما أخذته من الأهالى قبل إلغاء ذلك القانون . إعتبر (رياض باشا) هذا العمل من جانب حسن موسى العقاد تشهير بالحكومة وإثارة للأفكار عليها ـ حيث كان العقاد قد دعا الأهالى إلى توقيع عرائض بهذا المعنى ـ قبض على العقاد وقدم للمحاكمة فحكم عليه مجلس مصر الإبتدائى بالحبس سنتين ، وشدد المجلس الإستئنافى الحكم فزاده إلى خمس سنوات ـ وقضى مجلس الأحكام بنفيه إلى (فازوغلى) بأقاصى السودان ـ ونفذ فيه الحكم وأرسل إلى فازوغلى ــ ولم يفرج عنه إلا فى عهد وزارة شريف باشا (١٤ سبتمبر ١٨٨١ ـ ٤ فبراير ١٨٨٢) .
ــ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٨ .
ــ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ــ ص ٧٨ ـ٨٤ .

سواكن ومصوع ، وكان له مواقف مشهورة تحت مشنقة كبار الإيطاليان بمصوع وأمام أفواه مدافعهم لتحرشه بسياستهم وأعماله على الفتنة ضدهم . والرجل من أشد خصوم الأمير وأعدى أعداء البيت العلوى مع أنه غرس نعمتهم ، وعمه موسى العقاد صنيعتهم وخادمهم إلى النفس الأخير . وظن آخرون غير ذلك ، وقالوا أن (حسن موسى) هذا ليس هو المحرض لصاحب الصاعقة على إرتكاب فعلته هذه فقط ، بل هو القائم أيضاً بالنفقة على وريقته ، العامل على إنتشارها تشفياً وإتقاناً ، وأن (للسيد توفيق البكرى) (وإبراهيم بك المويلحى) ضلعاً فى نظم تلك القصيدة والإيعاز بنشرها . وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى قبضوا على صاحبى المطبعة الشيخ (محمد الخيامى) وشريكه (مصطفى لطفى) المنسوبة إليه أكثر أبيات القصيدة ، وزجوهم فى الحبوس مع (أحمد فؤاد) صاحب الصاعقة . ورأى المحققون أن التخفيف[٣٣٥]سيتناول بعض أصحاب الحيثيات والمقامات وبعض من لهم علاقة بدار عميد الإحتلال ، فجعلوا يحققون سراً ويكتمون عن الناس ما يرون إفشائه ضاراً . ودل (أحمد فؤاد) صاحب الصاعقة أصحاب التحقيق على عوراة[٣٣٦] كثيرة جداً للسيد (توفيق البكرى) (وإبراهيم بك المويلحى) . حتى لقد قال لهم تحروا ما فى بيت المويلحى من الأوراق فانك[٣٣٧] تجدون فيها أسراراً حيرت الناس من زمان طويل ، وأوقفت[٣٣٨] الهيئة الحاكمة فى الخبال ، وتجدون أسرار مشاكل وحوادث أخرى تفيد الأمن العام . قال وليس ذلك فقط بل وتتأكدون من أن هناك عصابة من ذوى المقامات المتسترين بستار الوطنية والغيرة القومية هم عيون عميد الإحتلال وأعوانه علي كشف عورات الناس ، والعلم بما وراء جدران البيوت .فكان لاعتراف أحمد فؤاد هذا دويا فى المحافل العمومية والأندية

(٣٣٥) التخفيف = التحقيق قراءة ترجيحية .
(٣٣٦) عوراة = عورات .
(٣٣٧) فانك = فإنكم .
(٣٣٨) وأوقفت = وأوقعت .

الخصوصية ، وتناقله أصحاب الصحف كافة وفصلوا فيه وقاسوا وخاطوا . والهيئة الحاكمة تحسب له ألف حساب حتى شاع أن المستشار القضائى أرسل فى طلب القاضى الوطنى الموكول إليه انتطاق[٣٣٩] أحمد فؤاد والسيد توفيق البكرى ليؤنبه على ما فعله من تفتيش منزل السيد البكرى وضبط أوراقه والحجر عليها . فقال الناس أنها من دلائل رضاء اللورد كرومر عن بلوغ هذه الفتنة حدها من الشناعة وسوء التأثير فى نفوس أنصار الأمير ، وأحسن الوقع فى قلوب أعوان الإحتلال . وظل الحال على هذا ثبت[٣٤٠] التهمة قبل كل من (السيد توفيق البكرى وأحمد فؤاد والشيخ مصطفى لطفى والشيخ محمد الخيامى) . وقد كان أنصار الأمير فى خوف من أن تسود المساعى الخفية على النيات الحسنة ، وأن لايجرى التحقيق فى مجراه ، لأن سياسة العميد كانت على ما كانوا يقولون تحول دونه . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى شاع الخبر وتحدث الناس بأن يد العميد قد عبقت[٣٤١] بالتحقيق ، وبرز الأمر بإعادة عمله بمعرفة (يوسف بك سليمان) أحد القضاة الأقباط ، وأن جماعة الإنجليز قائمون قاعدون لتهمة السيد توفيق البكرى وإيقافه موقف المجرمين أمام الهيئة الحاكمة ، وهم يجلونه ويعظمون قدره نكاية بالأمير وأعوانه ، حتى لقد قالوا أنهم صاروا أبغض الناس للمدعى العمومى بسبب هذا الحادث . حدثنى أحد رجال قصر الإمارة قال (زعم الخصوم أن الأمير لما علم بخبر تلك القصيدة الشنعاء إستدعى إليه الرئيس مصطفى باشا وكلمه طويلاً فى محاكمة ناظمها ومساعديه على نظمها ، وما زال به حتى أجابه إلى ما طلب) . قال (ولكن الرئيس كان يرمى[٣٤٢] العدول عن ذلك أفضل وأحفظ لمقام الإمارة وأولى) .قال (والصواب أن جماعة

---

(٣٣٩) انتطاق = إستنطاق .

(٣٤٠) ثبت = حتى ثبتت — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٣٤١) عبقت = عبثت .

(٣٤٢) يرمى = يرى أن — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

الوزراء هم الذين عرضوا على الأمير أمر هذه القصيدة وإندمالة[٣٤٣] إستياؤهم الشديد منها . فقال لهم إننى علمت بهذه القصيدة ولم تكن عندى شيئاً مذكوراً ، فإن كان عزمكم صحيحاً على تأديب الجانى بالطرق القانونية التى لايعتورها شائرة[٣٤٤] ،ولاتكون محدثة لجلبة كبيرة ونتيجة صغيرة فافعلوا ، وإلا فلبست أول أمير إستطال عليه بعض طغام الناس وهجاه بعض السفلة الذين لاخلاق لهم . فوعده الوزراء بمعاقبة الجانى كما يقضيه القانون ، ثم برز الأمر إلى المدعى العمومى بما كان) . أ .هـ . وعندى أن جماعة الإنجليز لم يكونوا ليعظموا هذه الفتنة ولا ليحلوها محل اهتمامهم بعظائم الأمور ، لولا ما بدا من الإستطالة من أصحاب الصحف المحلية والأجنبية المحازبة لقصر الإمارة على شخص اللورد كرومر وأهل المناصب من جماعة الإنجليز ، واتهامهم بتحريض الناس على شق عصا طاعة الأمير وتقبيح أعماله بكل وسائل وأسباب التقبيح ، حتى لقد قالوا أن إقدام السيد توفيق البكرى على هذا الإجرام كان عملاً صالحاً فى عينى اللورد كرومر وجميع أصحاب الإحتلال .مبالغ[٣٤٥]القوم فى هذه التخيلات وأشباهها ،وساعدهم على ذلك جماعة ممن كانوا عوناً للسيد البكرى وشركائه على هذا الإجرام إستفزازاً للورد ودفعاً به إلى مديره[٣٤٦] لخلاص المجرمين . وقد تحققوا أنهم مسوقون إلى الحبوس لامحالة ، فكان ما كان من تغيير وجه الحادث وإعادة التحقيق إلى غير قاضيه ،وتهديد المدعى العمومى بعزله من منصبه ،وغير ذلك من آيات الوعيد ،حتى استفزته العزة إلى الاستقالة . فخلع نفسه وخرج من منصبه كارهاً ، وقيل خلعوه صاغراً ، وردوا وكيله الذى كان التحقيق بيده وولوا أحد مستشارى محكمة الإستئناف المستر كوربت الإنجليزى محله ، وسلموه زعامة الدعوة[٣٤٧] العمومية . قالوا وقد بلغت

(٣٤٣) واندمالة = وأبدوا له قراءة اجتهادية .
(٣٤٤) شائرة = شائبة قراءة ترجيحية .
(٣٤٥) مبالغ = وبالغ .
(٣٤٦) مديره = تدبير .
(٣٤٧) الدعوة = الدعوى .

الشدة بلورد كرومر يومئذ أن دخل على الأمير فى قصره وقال له أن المستشار القضائى قد صمم على خلف[٣٤٨] نفسه من منصب الإستشارة إذا ظل (حمد الله) بك المدعى العمومى فى منصبه . فتألم الأمير كثيراً وقال سنرى فى ذلك إن شاء الله . فلما كان بعد ظهر يوم الخميس ثمان عشر نوفمبر من السنة ، ثالث عشرى جماد الثانى سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف ، إستدعى جماعة الوزراء وكلمهم فيما هم فيه . فقالوا أن جماعة الإنجليز يلحون فى طلب خلع (حمد الله بك) ـ وجعلوا يتجادلون فى الأمر ساعة . ثم برز الأمر بخلعه وتولية المستر كوربت بدله .يقال كان الجدال على أشده بين الأمير وجماعة الوزراء ، فقد كان مما ضبط فى بيت السيد البكرى أوراقاً تحتوى على شىء يمس بكرامة الحكومة ، وينم على شواين ومعائب كثيرة . ومع كل هذا فقد سار المستر أسكوت مستشار الحقانية إلى دار السيد توفيق البكرى واعتذر له عما فرط من الخطأ من ضبط أوراقه وتفتيش منزله أثناء التحقيق . قلت وهذا شىء لم نعهده من أصحاب الإحتلال منذ وطأة[٣٤٩] أقدامهم أرض الكنانة . ولله فى ذلك شؤون أقول أيضاً .

ومن غريب ما حدث فى أدوار هذه الحادثة أن قد تطوع أحدهم بنظم قصيدة كثيرة الأبيات رد بها على قصيدة السيد البكرى ، وبعث بصورة منها إلى جريدة الوقائع وهى جريدة الحكومة الرسميه فنشرتها فى محلياتها الغير الرسمية . فما هى أن ظهرت حتى قام لورد كرومر وقعد ، وظن أن نشرها كان بإيعاز من الأمير ، فقام لساعته ودخل على بطرس باشا غالى وزير الخارجية وكلمه فى ذلك . قيل واشتد الآخر[٣٥٠] والرد بينهما طويلاً . ثم خرج اللورد وهو

---

(٣٤٨) خلف = خلع .
(٣٤٩) وطأة = وطأت .
(٣٥٠) الأخر = الأخذ .

مقطب الوجه حانق . وأصبحوا وقد برز القرار من مجلس الوزراء بإبطال القسم الغير رسمى من جريدة الوقائع وتحذيرها من نشر شيء قبل أن يقرها على نشره قلم المطبوعات . فباتت وهى لاقيمة لها بين الصحف ، وأصبحت وهى لاتنشر إلا إعلانات بيع أراضى الحكومة ، أو طلبات مشترى زيتا أو إيداماً أو تبنا أو شعيراً لخيول الجند أو ما شاكل ذلك ، بعد أن كانت طافحة بالمقالات الشائقة فى أهم المواضيع السياسية والإقتصادية والأخلاقية فضلاً عن المواضيع العلمية .ولاخفى أن الجريدة الرسمية لسائر حكومات العالم المتمدن إنما هى لسان حال الهيئة الحاكمة ، فإذا نشرت يوماً قولاً فى غرض من أغراض السياسة قامت له بعض الدول وقعدت ، وربما أعدت لاتقاء شره جيوشها البرية وأساطليها البحرية ، أو سرت به وعدته من مبادئ التقرب وتوثيق رباط الإتحاد فتأمل .

وعظمت رغبة عميد الاحتلال فى إفلات السيد توفيق البكرى من يد القضاء ، وإبعاده عن عقوبة الحبس . فلم يقف عند خلع (حموده[٣٥١] بك) المدعى العمومى ولا رد قاضى التحقيق ، ولاترك الأمر للمستر كوربت المدعى العمومى الجديد يتصرف فيه كما يقتضيه واجب القانون والذمة ، بل أوعز إلى المستشار القضائى أن يطلب من وزير الحقانيه إبداء رأيه فى جواز وعدم جواز محاكمة البكرى ففعل . فبدأت الناس يتساءلون عما سيكون من وراء هذا الحدث الهادم لكل نظام . فلما كان تاسع عشرى سبتمبر من السنة ، وقع الإتفاق على إخراج السيد توفيق البكرى من التهمة والإكتفاء بمحاكمة الآخرين ، وبرز الأمر بذلك . فعجب الناس وتولى أهل القضاء الدهش ، وأخذت أكثرهم الحيرة من هذا الفعل الخطير ، وعلت صيحة أصحاب الصحف ، وذهبوا

(٣٥١) حمودة بك = حمد الله بك .

فى ذلك مذاهب . ثم أجمعوا على أنه سيأتى يوم تستبدل فيه شرائع البلاد تبديلاً فلا يبقى منها إلا ما شاءه أصحاب الإحتلال ، ولو كره ذلك كل عظيم[٣٥٢] .

وتشاغل أصحاب الحل والعقد عن هذا الحادث بحوادث التخوم ، وسعى صاحب السياسة الإيطاليه إلى الخلاص من كسلا ، وما تتحمله الدولة من نفقة الجند المرابطين بها ، وصاحب سياسة الإنجليز يحاول ويطاول ، حتى تقررت القاعدة بينهم على إرجاعها إلى الأملاك المصرية مقابلة قدر من المال فرضوه للدولة الإيطالية . وبرز الأمر بتسيير جماعة من العسكر وإثنى عشر ضابطاً إليها ،فسافروا وسافر معهم السردار عن طريق مصوع تسهيلاً لجلاء العساكر الإيطالية عن ذلك الصقع . فاحتلوها[٣٥٣] وكفى الله الإيطاليان شر القتال . قالوا وبلغت الحيطة من السردار أن رسم بإصلاح حصونها ومعاقلها وترميم ما تشعث منها لعجز جماعة الإيطاليان عن النفقة واشتغالهم بدفع العدو عنهم فى الليل والنهار . وكان من حظ العساكر المصرية أنهم ما[٣٥٤] احتلوها وعلوا حصونها حتى تفرق العدو عنها واختفى أثره ، وربما كان علم جماعة

---

(٣٥٢) تخلص الواقعة المذكورة فيما نشره أحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة من قصيدة هجاء ضد الخديو عباس كان مطلعها (قدوم ولكن لا أقول سعيد . : ومُلكٌ وإن طال المدى سيبيد) . بإحالة الموضوع إلى النيابة اتضح أن كاتب القصيدة هو (مصطفى لطفى المنفلوطى) . قرر المنفلوطى فى التحقيق أن السيد/ محمد توفيق البكرى شاركه فى إعداد أبيات منها . أنكر السيد / البكرى ما نسب إليه . إنتهى الأمر بإلصاق التهمة بالمنفلوطى وقدم للمحاكمة . تدخل المعتمد البريطانى لإنقاذ أعداء الخديو ـ فعزل أمين بك حمدالله الموكل بالتحقيق وعين بدلا منه (كوربيت) كاتب عام ـ وانتهت القضية إلى الحفظ نكاية فى الخديو وحماية لخصومه أمثال السيد/ محمد توفيق البكرى ـ ومصطفى لطفى المنفلوطى . وأحمد فؤاد صاحب جريدة الصاعقة .

ـ أوراق مصطفى كامل ـ المقالات ـ الكتاب الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ .

ـ مذكرات سعد زغلول ـ الجزء الثانى ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٥٧ ـ ٧٦١ .

(٣٥٣) فى ٢٠ ديسمبر ١٨٩٧ إستلمت الأورطة السادسة عشرة المصرية وبطارية من المدفعية مدينة كسلا من الجيش الإيطالى .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٧ .

(٣٥٤) ما = ما أن

الإنجليز بتفرق العدو عنها هو الذى دعاهم إلى التعجيل بقبول احتلالها ، على ما تعهدوا به من أهون التعهدات . ولبث السردار بها أياماً ثم عاد إلى القاهرة . فما هو أن وطأت قدماه أرض الكنانة حتى جاء الخبر من التخوم بأن بعض مشائخ قبيلة الكبابيش الضاربة فى الصحراء الغربية قد قدموا خضوعهم لكبار جند التخوم ، فقبلوهم وأمنوهم وأحسنوا لقاءهم . وما شاع هذا الخبر وتحدث الناس به حتى أعقبه خبر وقوع الإختلاف بين لورد كرومر ، وقائد جيش الإحتلال ، والسردار كتشنر باشا على الرجوع إلى تسيير الحملة وتقدمها إلى الأمام .قالوا وكانوا فى ذلك على رأيين . فاللورد كرومر كان يرى أن لا بد من التربص وعدم تسيير الحملة إلى حين . قالوا وكان يريد بذلك كبح شكيمة السردار والحط من كرامته بعد أن بلغ من الشهرة العسكرية بين قومه أسمى منازلها . وكان قائد جيش الإحتلال يرى رأى السردار فى ملائمة الظروف لاستئناف السير والتقدم على مهل . قالوا وظل الخلاف واقع بين الفريقين أياماً حتى جاءهم الأمر من صاحب السياسة الإنجليزية ببقاء الحال على ما هو عليه حتى يأتيهم كتابه . وكان إلى هذا الحين قد وردت الأخبار عما هو جار وراء التخوم ، وكلها تنبئ بأن عبدالله الخليفة لم يبق لديه فى أم درمان سوى بضعة مئات من الجنود وكلهم قائم على حراسته . وأن جيشه الذى لم يتجاوز الخمسة وثلاثين ألفاً معسكر فى (شبلوقه) على مقربة من الشلال السادس . وهناك أيضاً جميع الدراويش وكل مدافعهم التى تؤلف من مدفعية سهلة ، واثنين وعشرين مدفعاً . قالوا ويوجد غير ذلك زهاء ثلاثة آلاف مقاتل فى تلال (روجان)و(كرى) على الضفة اليسرى للنيل ، وهى أقوى المراكز هناك . قالوا وقد تحقق أن عثمان دقنه مقيم فى أم درمان ، ولكن عساكره ما زالوا مرابطين فى (أبى دلك) ، وأن الطريق بين كسلا وبربر مفتوحة ، وقد قطعها جماعة من الإيطاليان لتنسم الأخبار فى تلك الأنحاء ، وأن أقرب منازل الدراويش إلى كسلا هى منازلهم بالمكان الذى يدعى (عساكر) ، وفى مكان آخر يسمى (باجر) حيث أنشأوا لهم مراكز أمامية . وأن قد بلغ كسلا جماعة من الفارين

من أم درمان فأخبروا بأن التعايشى قد رسم بذبح جميع الأسرى البيض الذين بالخرطوم ، وأنه فى قلق دائم وكمد ملازم من جراء الأخبار المتواترة عن قرب مسير الحملة ، وأنه يريد الفرار إلى الناحية القبلية ، ولكن الأمراء والمقربين منه يمنعونه من ذلك ، ويخوفونه شر العاقبة . قالوا وكانت هذه الأنباء وأشباهها دافعة بالسردار وقائد جيش الإحتلال إلى طلب التعجيل بتسيير الحملة وعدم التوانى فى ذلك ، كى لايفسحوا للتعايشى فى الأجل ، فلم يوافقهم لورد كرومر على ذلك ، وجاءهم الأمر بالتربص فأذعنوا . فشاع الخبر بأن هذا التربص إنما هو لأنهم يتأهبون لإعداد قوة من الجيش الإنجليزى مؤلفة من ثلاث أورط من المشاة وثلاث أورط من أصحاب المدافع للإشتراك مع الحملة فى الزحف إلى الخرطوم ، وسحق قوة التعايشى سحقاً . فلم يحفل الناس بهذه الإشاعة ولا أحلوها محلاً ، ولم يتكلم بها أصحاب الصحف المحلية كعادتهم عند تفشى مثل هذه الأقوال . وما هم أن أغضوا عن هذه الأقوال حتى تألبوا حول الأنباء التى أذاعها أصحاب الصحف الإنجليزية منقوله عما وراء التخوم عن مقتل البعثة الإفرنسية التى يقوها فرسان(٣٥٥) ، أحد كبار جند الفرنسيس إلى النيل

---

(٣٥٥) يقوها فرسان = يقودها مارشان قراءة ترجيحية .
فى مجال التنافس البريطانى ـ الفرنسى حول أعالى النيل تأتى حادثة مارشان . ذلك أن إنجلترا حاولت فى ربيع ١٨٩٥ الوصول إلى تسوية مع فرنسا ـ لكن ذلك لم يتحقق . فى الفترة سبتمبر إلى نوفمبر ١٨٩٥ طلبت فرنسا من أحد ضباطها (الكابتن مارشان Marchand) أن يبحث مسألة إمتداد النفوذ الفرنسى إلى أعالى النيل . فى ٢٥ فبراير ١٨٩٦ صدرت التعليمات إليه بقيادة حملة فرنسية إلى أعالى النيل عن طريق الغرب . كان الهدف من الحملة هو الوصول إلى القضاء على كل الحجج التى تتذرع بها بريطانيا فى إحتلال مصر ووضع حد لأحلامها فى ربط مصر بالكاب وممتلكاتهم فى شرق افريقيا . فى ٢٥ يونيو ١٨٩٦ غادر مارشان باريس فى طريقه إلى الكونغو الفرنسى فى حملة مكونة من ثمانية ضباط ومترجم وطبيب وإثنى عشر صف ضابط فرنسى ومائتى جندى سنغالى . وصل مارشان (الوانجو) فى الكونغو الفرنسى في ٢٢ يوليو ١٨٩٦ ـ ثم اتجه إلى (برازافيل) وتركها فى مارس ١٨٩٧ ـ ووصل إلى (بنجوى) فى أبريل ١٨٧٩ . فى أوائل أغسطس كان قد وصل إلى (زميو) . فى ١٨ أغسطس غادر (زميو) . فى أواخر العام ١٨٩٧ كانت جملة مارشان قد وصلت إلى (مشرع الرق) بعد أن أقامت مجموعة من المحطات فى المنطقة .
ـ أنظر الخريطة ملحق رقم (٩) ـ أنظر الحاشية ٢٦٢من حواشى عام ١٨٩٧ـ ص ٨٠٩ .
-Patricia Wright (Conflict on the Nile) Ibid,pp., 111 - 143.

الأبيض وذبح رجالها جميعاً عند بحر الغزال . وجعلوا يبدون ويعيدون ويتمنون لمرشان هذا وبعثته السلامة فى الحال والترحال . فقد كانوا يزعمون أن بلوغه فاشودة ورفعه للراية الأفرنسية على ربوعها فيه تعجيز لجماعة الإنجليز وخذلان لسياستهم ، فلا هم يقدرون على إخراج القوم من أرض إمتلكوها بحق السابقة ، ولاهم منفردون بملك السودان المصرى جمعاً . ومن العجب أن أصحاب صحف الإنجليز قد نقلت هذا النبأ عن بعض صحف الفرنسيس ، وعلها الصحف المأجورة لخدمة المصالح الإنجليزية . وأعقب خبر ذبح رجال بعثة مارشان خبر نجاح بعثة مكدولاند[٣٥٦] الإنجليزيه واحتلالها أوغاندة بالفتح . وتحرير خبر هذا الفتح حدثنى به عظيم من كبار العسكر المصرى على عهد الخديوى توفيق باشا ،وهو من كبار الخبيرين بأحوال السودان وأعمال جماعة الإنجليز وراء التخوم . قال (إنى لا أضمن الفلاح لبعثة مكدولاند هذا ، ولا أظن إلا قيام من هم معه من الجنود وشق عصا طاعته لأسباب كثيرة ، منها إلى[٣٥٧] طريق الحملة من أوغنده إلى (ودلاى) (فالرجاف) (فاللادو) (فواد لاى) كلها فى قبضة أصحاب المهدوية . وللقوم فى مدينة (اللادو)عاصمة خط الاستواء زهاء ثلاثين ألف جندى ، ولهم معسكرات فى(الرجاف) وفى كل تلك الأنحاء . فإذا علمت ذلك تحققت أن حملة مكدولاند ضئيلة وضعيفه أمام هذه القوات وتلك المعدات ، فضلاً عن وعورة الطريق . ومن جهة أخرى فإن سكان تلك الأطراف قوم متوحشون يبغضون الأجنبى بغضاً ما عليه من مزيد ، وعلاقتهم بعبدالله الخليفة أحسن منها إبان تسلط الحكومة المصرية عليهم ، لأن جماعة الإنجليز كانوا يظلمونهم ويعاملونهم بالعسف والجور لينفروا قلوبهم من الولاة المصريين ويستميلوهم إليهم عند توليهم عليهم باسم مصر . ولذلك ترى أنه يبعد جداً معاونة رجال تلك الحملة على جماعة الدراويش . قال

(٣٥٦) مكدولاند = مكدونالد Mcdonald قراءة ترجيحية .
(٣٥٧) إلى = أن .

ولعلك تقول لى إذا كان هذا شأن الحملة الإنجليزية ، فكيف فازت الحملة الإفرنسية وبلغت فشوده) قلت . إن حملة مارشان قد سارت فى صحراء من صحارى الكونغو إلى بحر الغزال ففشودة ، والطريق كلها خالية من أصحاب التعايشى منذ بضع سنوات . وأما ما يزعمونه جماعة الإنجليز من السود المرافقين لحملة مكدولاند من أنهم بقايا جنود أمين[٣٥٨] باشا فلا حقيقة له ، وإنما هم جنود سود مصريون كان مقدمهم القائمقام سليم بك مطر[٣٥٩] ألذى كانت مهمته إقتفاء أثر(أمين باشا ،والمستر استانلى) الذى أتى لخلاص أمبينا[٣٦٠]بعد مبارحتها[٣٦١]خط الاستواء .وكان المستر استانلى يتهدد (أمين باشا) ويكرهه على المسير ، وعدم انتظار وصول جنود سليم بك بغية أن يقع أولئك الجنود فى يد جماعة الإنجليز القائمون على مقاتلة الأوغانديين منذ أيام كثيرة من الدهر . وقد خابت لهم عشرين حملة فى سبيل فتحها . وما زال استانلى يعمل جهده حتى أدرك متمناه ، ووقعت جنود (سليم بك) فى يد

---

(٣٥٨) أمين باشا = إدوارد شنيتزر Edward Schnitzer (٢٨ مارس ١٨٤٠ - ٢٤أكتوبر ١٨٩٢) مستكشف ألمانى فى افريقيا . خدم (١٨٧٦ ــ ١٨٧٨) كطبيب فى السودان ، وخلف تشارلز چورچ جوردون Charles George Gordon كحاكم لمديرية خط الإستواء (جنوب السودان) . حاصرته قوات المهدى ، ووصلت إليه حملة سير هنرى ستانلى Henri Stanley (١٨٨٩) . أرسلته الحكومة الألمانية بعد ذلك إلى وسط افريقيا ، بأمل أن تمد نفوذها ،لكنه قتل قرب شلالات ستانلى على نهر الكونغو بواسطة تجار الرقيق .

- Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 7 - p..156.

(٣٥٩) سليم بك مطر = ضابط مصرى ضمن قوة مديرية خط الإستواء (١٨٨٤ ــ ١٨٨٩) وقتما كان أمين باشا حاكما لها ــ نظم قوات الدفاع عن المديرية أثناء حصار المهديين لها عام ١٨٨٤ - أصبح قومندانا للأورطة الثانية فى مديرية خط الإستواء عام ١٨٨٨ . قاتل حملة الدراويش الثانية على مديرية خط الإستواء بوصفه قائد حامية (الدفلاى) وهزم الدراويش واضطرهم إلى الإرتداد إلى الرجاف . ترك المديرية عام ١٨٨٩ بعد نجاح (استانلى) رئيس حملة إنقاذ أمين باشا فى إقناع رجال المديرية بتركها تنفيذا لخطة إخلاء السودان . توفى فى أوغندا وهو على أهبة السفر إلى مصر .

ــ عبد الرحمن الرافعى (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال) مرجع سبق ذكره - ص ١٤٧ ، ١٥٢ -١٥٣ .

(٣٦٠) أمبينا = أمين .

(٣٦١) مبارحتها = مبارحتهما .

أصحاب فتح أوغاندة ،فاستخدموهم لهذا الفتح . وقد زوروا كتاباً إلى سليم بك من الخديو توفيق باشا يأمره فيه بطاعة جماعة الإنجليز ، ويخبره بأن هذا الفتح للإمارة المصرية . فصدع سليم بك بالأمر وجعل يهاجم أوغاندة حتى فتحها واستباحها أياماً .،وهم[٣٦٢] بوضع الراية المصريه عليها قام فى وجهه جماعة الإنجليز ومنعوه من ذلك ، وجرت بينهما شؤون كادت تفضى إلى امتشاق الحسام ،لو[٣٦٣] أن القوم الإنجليز عادوا فأظهروا له اللين بعد الشدة ، وحسبوا له حساباً كبيراً . قال . وظلوا على هذا حتى قتلوه مسموماً ، وقتلوا أكثر ضباطه ، وسيروا بمن بقى منهم إلى القاهرة ، فجردوهم من رتبهم وقطعوا مرتباتهم ومكافآتهم . واستخدم الإنجليز ذرارى الأموات فى بيتهم[٣٦٤] يعاملونهم معاملة العبيد الأرقاء . قال وترامت إلى الجنود الذين بقوا هناك أخبار ما حل بظباطهم[٣٦٥] من الخسف والهوان ، فأسروا ذلك كله فى نفوسهم ولبثوا على بغضهم لجماعة الإنجليز إلى يومنا الذى نحن فيه . وربما إنتهزوا فرصة الحملة على جماعة الدراويش فنكلوا بمددولاند[٣٦٦] وأتوا أمراً خطيراً يخفيه عنا الإنجليز ،لكنه سيظهر بعد حين) . أ . هـ .

قلت وجاءت الأخبار إلى وزارة الحرب وديوان الوزير بأن قد أتم عبدالله تشييد المعاقل والحصون فى أم درمان على ضفة النيل ، وأن قد بلغ عددها خمسين حصناً ، وأنه قد استؤنف[٣٦٧] من القائمقام (السيد بك جمعة) الذى كان من مقدمى العساكر المصرية والآن مقدم أصحاب مدافع التعايشى بأنه إذا إنهزمت جيوش المهدوية من (المتمة) (والسبلوكا) فإنه يبقى من المستحيل

---

(٣٦٢) وهم = وعندما هم — أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٣٦٣) لو = لولا — عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٣٦٤) بيتهم = بيوتهم .
(٣٦٥) بظباطهم = بضباطهم .
(٣٦٦) بمدد ولاند= مكدونالد .
(٣٦٧) استؤنف = علم — عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .

إجتياز حراقات الأسطول النيلى لتلك المعاقل والحصون . ووصلت بعض الكتب الخصوصية من (بربر) إلى جماعة ممن كانوا بالسودان أن غادات[٣٦٨] جماعة الدراويش متوالية عليها ، وأن الجنود يقضون لياليهم على ظهور السفن حذراً من مهاجمة العدو لهم تحت جنح الليل ، إذ لاحصون لديهم تدفع عنهم غاراته ، وأن أهل البلاد عادوا إلى معاقرة الخمرة عاكفون عليها ليل نهار . وكان أصحاب المهدوية يحرمون عليهم شربها ويعاقبون شاربها بالقتل . قالوا وقد راجت تجارة الخمور وتفشت حتى بلغ ثمن زجاجة البيرة الإنجليزى خمسة عشر قرشاً . وتفشت المواخير ومكامن الفجور ، وكثرت المومسات كثرة بالغة ، وفسدت أخلاق البشر . وبرز الأمر بتشكيل أورطة جديدة من المصريين سموها بالأورطة التاسعة عشرة . فتفرقت لجان القرعة فى الولايات القبلية والبحرية ، وجمعت عساكرها من المفروزين من شبان القرعة ،وأتوا بهم إلى القاهرة تباعاً .فلما ساروا على قدم الرحيل سيروا بهم إلى التخوم .قالوا وستتبعها أورطة أخرى جديدة هى الأورطة العشرين ، وكان الناس يظنون أن الحالة لاتستلزم كل هذه الأهبة وذلك الاستعداد . فلما كان يوم الإثنين ثالث عشر ديسمبر من السنة ، وثامن عشر رجب الفرد سنة خمس عشرة ، سافر السردار إلى (بربر) فى قلة من الأتباع ولم يقابل الأمير قبل إرتحاله على ما جرت به العادة . ولعل سفره كان بناء على الأنباء التى وردت إليه من (بربر) . وكان أصحاب وزارة الحرب من الإنجليز يكتمونها عن الناس . ذلك أن عثمان دقنة عاد إلى الحركة وظهر على رأس جيش جرار ، ونزل على قرية (الدامر) فى الضفة اليمنى من نهر عطبرة ، يتهدد (بربر) بالزحف إليها من حين إلى حين . فأقلق أصحاب المرابط عند التخوم وأدهشهم بجمعه تلك الجيوش الضخمة ، وقد كانوا يظنون وجود عشر تلك القوات عند التعايشى . قالوا وانحدر أيضاً (عثمان الأزرق) فى لموم

(٣٦٨) غادات = غارات .

كثيرة ، فأغار على قبائل الكبابيش والبيوضه والحسانية والهوادير ، وغيرها من القبائل التى خرجت عن طاعة التعايشى ، ووالت الإمارة المصرية ، فقتل منها خلقاً كثيراً ، وسبى ذراريها ، وانتهب ماشيتها وعاد بها غانماً . فلما شاع خبر إرتحال السردار إلى (بربر) على تلك الصورة ، وأنه قد قصر فى مقابلة الأمير على ما جرت به العائدة وتقاليد أهل المناصب وأصحاب الخطط ، وكان صدى تأثير قصيدة الهجاء والحكم على (أحمد فؤاد) ناشرها والشيخ (مصطفى المنفلوطى) ناظمها ، وخروج السيد توفيق البكرى من تبعتها بإشارة جماعة الإنجليز لم يبرح من الأذهان ، ظن صغار العقول ومن لاخلاق لهم من أصحاب الصحف الساقطة أن التطاول على مقام الإمارة والقدح فى كرامة الأمير صاراً من مستلزمات سياسة الإحتلال ، ومن آيات استرضاء عميده فى هذه الحال ، وأنهما مميت[٣٦٩] للزرق ، وحصناً من الفاقة والإمحال ، فتألبت جماعة منهم على ذلك ، وجعلوا يفترون ويكذبون ، ويكتبون الفصول الطوال ، واتخذوا صحيفة الرأى العام[٣٧٠] إحدى الصحف الأسبوعية عوناً على نشر سبهم وشتمهم للأمير وآل بيته . فاندفع صاحبها إلى تيارهم ، يقول فى الأمير وإمارته وقصره وديوانه ما قال مالك فى الخمر . وظل على هذا أياماً كان الرئيس فيها يتخبط بين محاكمة الرجل والإعراض عنه .وكانت بطانة الأمير وأصحاب ديوانه يأنون من تهكم صاحب تلك الوريقة الجارح ،ويرمون الرئيس بالتفرض[٣٧١] وقصر النظر حتى كلمه الأمير فى ذلك . قيل وأعاد عليه ذكر ما قاله له يوم ظهور قصيدة الهجاء التى فلت السيد توفيق البكرى من عقابها . فقام الرئيس من ساعته وعقد مجلس الوزراء ، وقرروا محاكمة صاحب الرأى العام ،

(٣٦٩) مميت = مصدر عللت الكلمة لتتفق مع المعنى الذى يقصده شارويم - والمقصود هنا أن (التطاول) على الخديو و(القدح) فى كرامته أصبحا فى نظر أصحاب الصحف الساقطة مصدر الرزق وحصن ضد الفاقة ، نظرا لتعضيد المعتمد البريطانى لمن يفعل ذلك نكاية فى عباس حلمى .

(٣٧٠) الرأى العام = صحيفة صدرت فى عام ١٨٩٣ باللغة العربية .
- إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ - ١٩٨١) - مرجع سبق ذكره - ص ٣٣٦ .

(٣٧١) بالتفرض = بالتقصير قراءة اجتهادية .

وبرز الأمر بذلك إلى المدعى العمومى ، فقبضوا عليه من يومه وجعلوا يستنطقونه أياماً ، والرجل غير هياب ولا وجل ، كأن قلبه من حجر أو أن قوة قادرة تحميه من وراء الستار . وظلوا معه على هذا حتى برز الحكم عليه بالحبس أشهراً معدودة . وشاع خبر ذلك فكان له رنة فى أندية ومجتمعات المحازبين لأصحاب الإحتلال وأعداء الإمارة المستهترين . ومن غريب الإتفاق أنه بينما الناس فى حديثهم بحادث الحكم على صاحب (الرأى العام) وزجه فى الحبوس ، إذ نقلت إحدى الصحف المحلية عن صحيفة أجنبية نبوءة عن أحد المتنبئين من أهل النمسا يقول بأن نهاية هذا العالم ستكون فى بدء القرن الحالى ، ووافقه على ذلك أحد الإنجليز . غير أنه يظهر أن هذا الإنجليزى أشد من صاحبه النمسوى نكداً وأعظم بأساً ، فإنه لم يمهل العالم إلى بدء القرن الجديد ، ولم يفسح له بالبقاء إلى هذا العهد ، بل إنه قد كشفت له الطلاسم ورموز القدر التى تسلم مقاليدها أن إنقراض البشر وتلاشى العالم كله ، وغمر الأرض بمياه العباب ، وانحلال الكائنات سيكون فى اليوم الثالث عشر من شهر نوفمبر سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية . ومع أن هذين النبيين قد إتفقا على قرب هذا الإنقراض ، ولكنهما قد اختلفا فى زمنه وكيفيته . فأحدهم يقول أن الإنقراض سيتم فى يوم زمهرير يشتد فيه البرد إلى أن يبلغ المئات من الدرجات تحت الصفر ، فلا يبقى على وجه الأرض حى ، والآخر يقول أن الإنقراض سيتم بالموت جوعاً إذ تعجز الأرض عن إخراج نباتها وعشبها ، فيهلك الحيوان ويموت بموته الإنسان . أقول وقد قرأت لغيرهما من أولئك الأنبياء الكذبة أن إنقراض هذا العالم سيكون فى يوم قريب ، ستمور فيه الأرض وتخر الجبال هدا من الزلزال ، وتحرقها البراكين . ويقولون أيضاً أن زيادة الخلق ستفضى به حتماً إلى النقصان ، ثم التلاشى لعجز الأرض عن القيام بحاجاتهم . واستشهد أحد هؤلاء القائلون على ذلك بأن عدد العالم كان فى عام اثنين وثمانين وثمنمائة وألف للميلاد ألف مليون وثلثمائة وإثنى عشر مليوناً ،

فبلغ فى عام تسعين وثمنمائة وألف (ألف مليون وأربعمائة وثمانين مليوناً) بزيادة ثمانية وثمانين مليون نسمة فى ثمانية أعوام ، ولعله برهان مقبول قد يدعو إلى وقوع الإضطراب فى العالم وتعدى بعضه على بعض ، ولكنه لم يدل على إنقراضه لهذا إذا اطردت هذه الزيادة على هذه القاعدة .ولكن من لنا بإطرادها ومناجل الحروب وأسياف القطوب تحصد الرؤوس وتخمد ما يزيد من النفوس . ولما تناقل الناس هذا النبأ وتحدثوا به على عاداتهم عند ظهور مثل هذه الأنباء الكاذبة ، نقله أهل المجون والخلاعة مقلوباً مشوهاً ، وجعلوا يتغنون به وفيه شيئاً من كلمات العطف والحنان على صاحب (الرأى العام) . فكان فعلهم هذا داعياً إلى سرور خصوم الأمير الذين لم يقفوا عند حد من الأرجاف . وحدث أن الأمير عزيز(٣٧٢) أحد أبناء الأمير حسن إبن الخديوى إسماعيل خرج من القاهرة فى جماعة من الخدم والأتباع والخيل والبغال وكلاب الصيد والخيام يريد جزيرة العرب والتغلغل فى صحاريها كما يفعل الرحالة من علماء وكبراء الفرنجة . فما هو أن رحل عن الطور حتى قامت ضجة أصحاب صحف الإنجليز ، وأخذت صيحتهم عرش الإمارة من كل جانب ، وقالوا أن (الأمير عزيز) موفد من قبل الأمير إلى بلاد العرب ، ليدعو كبارهم إلى خلع ثوب الخلافة عن السلطان عبد الحميد ، وإقامة خلافة عربية بدلاً منها ، وأن يستميل القوم إلى خلع طاعة السلطان والخروج عليه . قالوا وقد أسر الأمير أموراً أخرى كبيرة الخطر على دولة آل عثمان ، لم تصل معرفتها إلى حد إلى ذلك اليوم . قالوا ولكنه لم يفلح ، فقد خزله(٣٧٣) القوم ومنعوه من الوصول إلى

---

(٣٧٢) أنجب الأمير حسن أحد أبناء الخديو إسماعيل أربعة أبناء هم : الأمير عز الدين - الأمير محمد على حسن - الأمير إبراهيم حسن - والأمير عزيز حسن - وأنجب هذا الأخير النبيلين (حسن عزيز) و (إسماعيل عزيز) .

- المصور ٤ يوليو ١٩٣٧ .

(٣٧٣)خز له= خذله .

(نجد) ، وسدوا عليه الدروب والمسالك . فنزل فى (نخل)[٣٧٤] على مرحلة[٣٧٥] من الطور ، وسير كتبه إلى الأمير فى معنى ذلك . قالوا والناس يحسبون فعل الأمير قحة وخروجاً على سلطانه ، وقد لصقت به تبعته ووجبت مؤاخذته . قلت . ولما تفشى خبر ذلك جعل أصحاب بعض الصحف المحلية يدفعون عن عرش الإمارة مظنة هذا السوء ، وينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور على مروجى هذه الأراجيف ، وأصحاب هذا الأفك العظيم . قيل وكلم الرئيس لورد كرومر فى ذلك أيضاً ، وأكد له أن رحلة (الأمير عزيز) إلى ذلك الصعيد خالية من كل غرض سياسى أو قصد مستور . قالوا وكلمه فير[٣٧٦] ذلك مما لم تصل إلينا معرفته . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى خفت صوت أصحاب تلك الصحف جملة . وعاد الأمير عزيز فى خدمه وخيامه وأتباعه بعد غيبته الطويلة .



(٣٧٤) نخل = مدينة فى شبة جزيرة سيناء ـ تقع فى وسط قاعدة المثلث المقلوب الضلعين الذى يكون ضلعاه خليج العقبة وخليج السويس وتقع فى منطقة سهل منبسط ومنها ينبع وادى العريش ـ وهى نقطة تقاطع طرق نخل ـ التمد ـ جنوب النقب ، والطريق العرضى نخل ـ بئر الحسنة ـ العريش ـ وهى تحت خط عرض ٣٠ْ وخط طول ٣٤ْ
ـ أنظر الخريطة ملحق رقم (١٠) .

(٣٧٥) المرحلة وحدة قياسية للمسافات فى العصر الإسلامى ــ تساوى (٢ بريد) ـ والبريد تساوى (٤ فرسخ) ـ والفرسخ يساوى (٣ ميل) ــ أى أن المسافة بين (نخل) و (الطور) تساوى ٢٤ ميل ـ فإذا كان الميل يساوى ١٦٠٠ متر فأن المسافة بين (نخل) و (الطور) تساوى ٣٨ كيلو مترا و ٤٠٠ متر .
ــ والتر هانتس (المكاييل والأوزان الإسلامية)ـ ترجمة كامل العسيلى ـ عمان ـ الأردن ـ ١٩٧٠ ص ٨١ -٩٥ .

(٣٧٦) فير = غير .

الفصل السابع

عام ١٨٩٨

بدء تنفيذ مشروع خزان أسوان

موقعه العطبرة (ابريل ١٨٩٨)

حادث الشروع فى قتل الأمير أحمد فؤاد (ملك مصر فيما بعد) (مايو ١٨٩٨)

تأسيس البنك الأهلي المصري (يونيو ١٨٩٨)

معركة أم درمان (سبتمبر١٨٩٨)

ألمواجهة الإنجليزية ـ الفرنسية في فاشودة (سبتمبر ١٨٩٨)

الإستيلاء على القضارف (سبتمبر ١٨٩٨)

وصول الكابتن مارشان Marchand إلى القاهرة (نوفمبر١٨٩٨) .

عام ثمان وتسعين وثمنمائة والف ميلادية

استهل عام ثمان وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية بيوم السبت ثامن شعبان سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، ورابع عشرى كيهك سنة أربع عشرة وستمائة وألف للشهداء ، والأخبار متتابعة بنجاح حملة مارشان الإفرنسيه وبلوغها (فشوده[1]) ، وحركة جند الإحتلال بادية فى سائر منازلهم ، والأنباء مترادفة بقرب وصول طايفة كبيرة من الجنود الإنجليزية من مالطا ، وجبل طارق نجدة إلى أصحاب المرابط بالتخوم . فلما كان ثالث يناير من السنة أى سنة ثمان وتسعين ، وعاشر شعبان من السنة ، إجتمع الرئيس بجماعة الوزراء ، وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم سار الرئيس إلى دار لورد كرومر وغاب عنده ساعة ،ثم عاد إلى ديوان الوزارة . فما هى الا ساعة بعد وصوله حتى برز أمر السردار على جناح البرق إلى الاورطة الرابعة المرابطة بسواكن بقيامها إلى(بربر) . وتفشى القول بأنه فضلا عن خوف أصحاب الإحتلال من إحتلال (مارشان) الفرنسوى ومن معه فشوده قبل وصول العساكر الإنجليزية والمصرية إليها ، فإن الأخبار متتابعة على وزارة الحرب من التخوم بأن أصحاب المهدوية قد أحسوا بقرب رجال الحملة من مواقفهم الأمامية ، فاحتشدوا زمرا ، وتأهبوا لماجمة العساكر المصرية فى (بربر) ، وقطع كل مواصلة بينهم وبين مركز

---

(١) تحركت بعثة مارشان Marchand من باريس إلى الكونغو الفرنسى فى ٢٥ يونيو ١٨٩٦ ـ وصلت إلى لوانجو Loango فى الكونغو الفرنسى فى ٢٢ يوليو ـ ثم تحركت إلى برازاڤيل Brazzaville فى مارس ١٨٩٧ . فى أغسطس وصلت البعثة إلى زميو Zemio . فى ٨ أغسطس اتخذ مارشان طريق زميو ـ تامبورا Tambura مستخدما أحد روافد نهر الأوبانجى Obangi وهو نهر مبومو M'bomu . فى أواخر عام ١٨٩٧ كانت البعثه قد وصلت مشرع الرق Meshra Erreq . فى مارس ١٨٩٨ كان مارشان قد وصل إلى بحر الغزال ، وفى ٤ يوليو ١٨٩٨ وصلت البعثة إلى بحيرة نو Lake No ـ وفى ١٠ يوليو وصلت البعثة إلى فاشودة .

ـ أنظر الخريطة ملحق رقم (٩) عن خط سير البعثة .

-Patricia Wright (Conflict on the Nile) Ibid.pp., 127 - 163.

ـ راجع أيضا الحواش ٣٦٨ ص ٣٤٠ ، ٤٩٩ ص ٣٦٥ ، ١٠٩ ص ٥٧٨ ، ٢٦٢ ص ٨٠٩ .

الحملة . وجعلت وزارة الحرب تعد المعدات والمؤن ، وتسير جنود الإحتلال تباعا على بواخر (شركة كوك) الإنجليزية التى تمخر فى النيل ، والسردار يوالى التفتيش على منازل الجند وأماكن فرز شبان القرعة العسكرية ، ولورد كرومر يكثر من مقابلة (الجنرال جرانفل) قائد جيش الإحتلال ، والناس فى تساؤل عما سيكون من وراء إحتلال الفرنسيس(فشودة) والتمكن منهاقبل وصول الجنود الإنجليزية والمصرية .وقد تحقق وصول مارشان إليها أوكاد . وسافر السردار إلى حلفا للقاء العساكر الإنجليزية الراحلة إلى التخوم ، وقد اعدوا لها كل ماتحتاج اليه من المؤن والذخيره والعلوفة وسائر معدات القتال ، وسيروا الضباط إلى قبرص لشراء الخيل والبغال ، وسيروا آخرين إلى مدينة السويس لمراقبة قدوم الإنجليز القادمين من الهند للحاق بالحملة . وانصرفت عناية أصحاب الحل والعقد إلى كل ما من شأنه تصريف سير الحملة ، أو[٢] التراخى فى تنفيذ أوامر سردارها .

وحل اليوم الثامن من شهر يناير من السنة ، أى سنة ثمان وتسعين وثمنمائة وألف الموافق خامس عشر شعبان سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، وهو يوم عيد جلوس الأمير على عرش الإمارة . فاحتفل الناس بهذا اليوم إحتفالهم المعتاد ، وأطلقت المدافع إيذانا بذلك من قلعة الجبل بالقاهرة ،ومن طوابى الإسكندرية والسفن الراسية ، ودخل الأمراء والوزراء والكبراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط على الأمير فى قصره ، فهنأوه وهم فى ملابس التشريف الكبرى ، فلم نر منه ذلك الوجه الباش على عادته فى مثل هذه المواسم ، بل كان كثير التفكر قليل الكلام . وقد قلنا فيما تقدم بك أن (مصطفى كامل) داعية الحزب الوطنى وزعيمه قد استمال إلى مباديه[٣] أناسا من أهل الحرف وأرباب الكارات ، وآخرين من المحامين والأطباء

(٢) أو = وعدم . علت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٣) مباديه = مبادئه .

والمهندسين ، وأصحاب الشحنة وضباط الجند وتلامذة المدارس ،وأن قد تخمرت أدمغة أولئك التلامذة بدعوته ، فتعلقوا به وتتبعوه أينما سار ،وحيثما سار ،حتى أن نفرا منهم إنقطعوا إلى ملازمته ولم يلوا(٤) على شئ . فلما حل يوم عيد الجلوس إجتمع جماعة منهم كثيرة وسألوا هذا الزعيم أن يخطب فيهم خطبة تناسب المقام .فما ارتقى المنبر حتى علت أصواتهم بالهتاف إليه والدعاء له ، وامتلأ فضاء المكان بضوضائهم وتصفيقهم الحاد ، فجعل يبدى ويعيد ويظهر لهم وجوب التعلق بحب الأمير وبعرشه ،والإخلاص فى خدمة الوطن ، والتفانى فى سبيل حريته واستقلاله ، وأن أول واجب عليهم السعى فى تنوير أذهان الأمة ، ونشر راية العلم والعرفان كما تنوروا هم وتعلموا .ثم إنتقل إلى موضوع الحياة الحرةوأظهر أهمية الجمعيات والشركات ، ومالها فى بلاد القوم الإفرنج من التأثير ،وكيف أن نظام المدنية أصبح الآن قائما بجهد الأفراد ومساعيهم ، أكثر مما هو قائم بجهد الحكومات . ثم ناداهم (الإتفاق الإتفاق . الإتحاد الإتحاد . ألتعاون ألتعاون) . فصاحوا صياح الفرح ،وعلت أصواتهم بالدعاء إليه . ثم اتفقوا على أن يحرروا عريضة بتواقيعهم كلهم يهنئون فيها الأمير ويرفعونها إلى ديوانه على يدى ذلك الزعيم ففعلوا .وخرج (مصطفى كامل) وهذه الجموع خلفه . فلما هم بركوب عربته وقفوا فى طريقه ، وأرادوا جرها بدلا من الخيل ، فلاطفهم ومازال بهم حتى عدلوا عن غرضهم .وحدث أن أحدهم صاح (فليسقط الإنجليز) ، فاشتد هياج القوم وكرروا هذا النداء بحماس عظيم ، وصفقوا تصفيقا حادا ، وصاح آخر (فليحى مارشان فلتحى فشودة) ،فأجابوا كلهم نداءه وتفرقوا . قلت ، وحدثنى صاحب من أهل المناصب بوزارة الحرب قال ، يتحدثون بوصول مارشان ذلك الضابط الفرنسى إلى (فشودة) مع رجال حملته سالمين ، بعد أن أشاعوا خبر موتهم جميعا ، فجعلت أستعلم من هنا وهناك حتى عثرت على صحيفة من صحف القوم

(٤) يلوا = يلووا .

الفرنسيس اسمها ديبيسيش(٥) ، وهى تطبع فى طولوز أحدى عمالاتهم ، فرأيت فيها رسالة من أحد ضباط تلك الحملة مؤرخة فى خامس عشرى شهر يوليو من العـام الفـارط ، بعث بهـا إلى إبن عم له يقـول فـيـهـا ، أنه وصل إلى مـصـر العليـا(٥مكرر) وأخـذ فى بناء مـركـز منيع على ضـفـة (سـوه) أحـد فـروع النـيل الأبيض . إلى أن قـال وأعلم ياابن العـم أن السـفـينة (بلو) ألتى هى سـفـينتنا المحبوبة قد بلغت بحيرة تساد ،(٦) ولله ما أجملها فإنها أول سفينة تمخر فى تلك البحيرة تحمل الراية المثلثة(٧)الإفرنسية . قال محدثى ، وعلمت أيضا بأن أحد رجال هذه الحملة بعث أيضا برسالة أخرى إلى صديق له فى طولوز مؤرخة فى غرة شـهـر أغسطس عـام أول ،فـبحـثت عنهـا فعثرت عليـهـا فى صحـيـفـة الريفورم(٨) الفرنسية ،وإذا هى تفيـد أن الحملة كلها بخير وسلامة وأنها نازلة فى محلة (بيما) ، وأن كلما(٩) قيل عن هلاكها لاحقيقة له ، قال محدثى ، ويقول

---

(٥) ديبيسش = صحتها ديبش Depeche وتعنى بالفرنسية رسالة أوبرقية ــ أما الجريدة المقصودة فهى Ladepeche de Toulouse ألتى ظهرت عام ١٨٨١ فى تولوز Toulouse بفرنسا

ــ راجع Larousse Universel - vol. I - P., 1246

(٥ مكرر) لايتصـور أن تكون حملة فاشودة قد ذهبت إلى مصر العليا ــ والصحيح أن يكون المقصود به (سـو العـليا Uppersueh) وهو أحد روافد النيل الأبيض

ــ راجع حاشية ١ ص ٨٦٥ ــ والخريطة فى ملحق (٩) وفيها تفاصيل خط سير بعثة مارشاند .

(٦) بحيرة تساد = بحيرة تشاد Lake Chad ــ بحيرة عذبة المياه تقع على تقاطع حدود نيجيريا ، الكاميرون ، تشاد ، والنيجر فى شمال غرب أفريقيا الوسطى . تتراوح مساحتها بين ١٠٣٦٠ ــ ٢٥٩٠٠ كيلو متر ، وعمقها ما بين ٤ ــ ١١ متراً . صالحة للملاحة فى الجنوب . للبحيرة منطقة تصريف كبيرة وتصرف أغلب أنهار أفريقيا الغربية مياهها فيها ــ كنهر السنغال ونهر النيجر . تعتمد البحيرة على مياه نهر شارى Chari River من الجنوب وعلى الكثير من الأنهار الأصغر والجداول ــ ليس للبحيرة أى مخارج وإن كان يوجد نوع من التسيل Seepage ألتحت أرضى .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 4. - P., 266

(٧) الراية المثلثة = العلم الفرنسى منذ ١٧٨٩ ــ ذو ثلاثة ألوان هى الأبيض ، الأزرق ، والأحمر .

- La Rousse Universel - vol. 11 - P., 1144

(٨) الريفورم = لاريفورم La Reforme صحيفة فرنسية صدرت فى مصر فى أواخر عهد الخديو إسماعيل ــ اشتهرت فى أول الأمر بحملاتها على الحركات السياسية المصرية التى صاحبت نهايات عهد إسماعيل ــ غير أنها عادت وساندت الأمانى المصرية ــ وحملت على الإدارة الأوروبية فى مصر .

ــ إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٧٩ ــ ٢٨٠ .

(٩) كلما = كل ما .

صاحب الرسالة لصديقه ذلك بعد كلام (واعلم أنه لايصلك كتابى هذا حتى تكون قد وصلت إحدى سفننا إلى بر السلامة ، لأننا قد وصلنا إلى رفاعى[١٠] الملاصقة للدارفور التى استقبلنا سلطانها أحسن استقبال وأكرم وفادتنا ، فقدم له القائد مارشان الهدايا والتحف النفيسة من الأقمشة والجلود والصفر وغير ذلك . وبعد أن استرحنا سرنا إلى زيمبيو[١١] ، وسندخل بلاد النيل بعد بضعة أيام ، ونصل إلى (فشودة) حيث ننزل سفننا فى النيل فتمخر فيه إن شاء الله صعدا وهبوطا . قال محدثنى[١٢] فمن هذا كله ترى أنه لم يبق للريب محلا فى وصول ذلك الفرنسى ومن معه إلى فشودة واحتلالها باسم دولة الفرنسيس . فإذا تقرر ذلك فماذا يكون بينه وبين جماعة الإنجليز ياترى إذا بلغت الحملة غايتها ودوخت أصحاب المهدوية .لا جدال فى وقوع أحد أمرين ،إما إخراج ذلك الفرنسى من قشودة[١٣]قهرا فيتفجر زلزال الحرب بين الفرنسيس والإنجليز وتتبدل الأحوال ، وتتنكر الصور والأمر لله يومئذ ، وإما أن الإنجليز يخفضون من كبرائهم[١٤] ، فيتشاغلون عن فشودة بغيرها من غنائم الفتح وعظمة السلطان ، ويتحينون الفرص ، حتى إذا ماتبينوا انتفاعها وثبوا وثبتهم المقهورة[١٥] عنهم فى السياسة واسترجوا[١٦] فشودة بلا حرب ولاطعان .ولكنى أرجح القول أنه[١٧] لايطيقون الصبر على هذا الكمد ، ولا يخفضون الجناح[١٨] اللدد[١٩] ،

---

(١٠) رفاعى = رفاى Rafai ـ نقطة على نهر مبومو فى خط سير الحملة ـ انظر الخريطة ملحق رقم (٩) .
(١١) زيمبيو = زيميو Zemio ـ انظر الخريطة ملحق (٩) .
(١٢) محدثنى = محدثى .
(١٣) قشودة = فاشودة .
(١٤) كبرائهم = كبريائهم
(١٥) المقهورة = المشهورة
(١٦) واسترجوا = واسترجعوا
(١٧) أنه = بأنهم
(١٨) الجناح = جناح قراءة ترجيحية
(١٩) اللدد = أى الخصومة . رجل (ألد) أى رجل بيِنُ (اللدد) أى شديد الخصومة ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٤٨

مهم[٢٠] إذايا[٢١] محدثون حدثا سيكون له دوى شديد فى عالم السياسة والله سبحانه أعلم أ .هـ قلت ودلت عناية أصحاب الإحتلال واهتمامهم بتسيير جنودهم تباعا إلى التخوم ، على أنهم ينوون مشاركتهم للعساكر المصرية فى الفتح ،ومشاركة الإمارة فى الحكم ثم الإمتلاك . فقد أشارت إلى ذلك بعض صحفهم الكبرى بوجه التلميح ، وصرحت بشئ منه (صحيفة التيمس) .أما نتيجة هذه المشاركة فلا يعلمها إلا الله ، وربما ظهر شئ منها على غير انتظار فى أحد الأيام .فماذا عساه يكون من أصحاب الحل والعقد إذا ضاعت السودان شطرا أو جملة .ولا خفى أن الإمارة ضعيفة ، والأمة عزلاء لا دعوى عندها ، ولا بوارج ولا جنود ، إلا القليل الموجود فى قبضة الإنجليز وتحت سيطرتهم .فإذا تم ذلك وكان القدر المحتوم عون الدهر العادى على البلاد وأهلها ،أصبحت مصر جسما بلا روح ، أو عينا بلا إبصار ماظلت السودان منفصلة عنها أو شبه منفصلة . وقد كانوا يقولون أن الجملة[٢٢] لاتتجاوز الخرطوم إذا تم لها النصر . وهم يقولون الآن أن لابد من زحفها إلى ماوراء الخرطوم حتى تبلغ بحر الغزال أو ما وراء ذلك أيضا ، جتى حار أصحاب الرأى فى فهم معانى هذه الأحاجى والمعميات التى لاحد لها ، وأختلط عليهم الحال وايما[٢٣] اختلاط . قلت أن تعبئة جنود[٢٤] كان متواصلا ، واهتمامهم بذلك كان عظيما بالغا حدا غير المعلوم . فقد اجتمعت منهم الفرقة المعروفة عندهم باسم (كمرون) الجبلية التى تقرر تسييرها فى رابع عشر نوفمبر من السنة إلى التخوم ، واحتفلت إحتفالا لم يسبق له نظير ولايخلو من الغرابة . ذلك أنهم تكوفوا[٢٥]حول الراية التى خصت بها منذ نشأتها ، ثم حملها إثنين من مقدمى الجند ، وساروا بها سيرا

(٢٠) مهم = فهم
(٢١) أذايا = إذن قراءة ترجيحية
(٢٢) الجملة = الحملة
(٢٣) وايما = أيما .
(٢٤) جنود = جنودهم .
(٢٥) تكوفوا = تجمعوا ــ قراءة ترجيحية .

عسكريا ،وأمامهم الموسيقى وضاربى الطبول إلى حيث يسكن الجنرال جارنفل[٢٦] قائد جيوش الإحتلال ليودعوها عنده .فلما بلغوا داره وقفوا على هيئة صفين للتشريف ، شاهرين سلاحهم تعظيما لتلك الراية ،فمر حاملو الراية من بينهم ، ودخلوا دار الجنرال وخلفهم سائر ضباط الفرقة يخفرون الراية .وكان الجنرال(جرانفل)واقفا فى فناء الدار بملابس الزينة والتشريف ،فحيوه التحية العسكرية ،ثم قدموا له الراية مع التجلة والتعظيم .فتسلمها بيمينه وألقى فيهم خطابا ذكر فيه المجد الذى أحرزته تلك الراية منذ نشأتها بهمة الأبطال البواسل الذين طالما دافعوا عنها بأرواحهم ، وحثهم على الشجاعة والإقدام ، وإتيان كل عمل يزيد رايتهم رفعة ومقاما . فصدت[٢٧] الموسيقى بالنشيد الملكى وعادت الجنود على نظامها وترتيبها إلى المنازل . فكانت هذه أول حادثة من نوعها حدثت منذ الإحتلال إلى يومنا الذى نحن فيه .وجاء الخبر بظهور الحركة عند التخوم وانتقال بعض النقط الخلفية إلى الأمام ،وانكف الضباط المصريين عن إرسال كتبهم إلى الأهل والولد كما رسم السردار . وسار من القاهرة جماعة من مقدمى جندهم وكبار حربهم وأرسلوا شيئا كثيرا من الأسلحة والكراع والمؤن ودواب الحمل ،وتأكد الناس أن الزحف والقتال واقعين لا محالة . وتحقق جماعة الإنجليز بوزارة الرحب[٢٨] أن(مارشان) الفرنسى ومن معه قد وصلوا فشودة واحتلوها بسلام آمنين .وتفشى خبر ذلك ، وتحدث الناس به . وازاعت[٢٩]وزارة الحرب أن السودان الشرقى كله قد عاد إلى راية الإمارة المصرية ،وأن العساكر المظفرة قد احتلت (ادرامه) ،وأن القبايل المصافية للحكومة نازلة الآن بقرب(اباد[٣٠] أم باك) . ففرح الناس بهذا النبأ واطمأنت

(٢٦) جارنفل = جرانفل Granfel .
(٢٧) فصدت = فصدحت .
(٢٨) الرحب = الحرب .
(٢٩) وازاعت = وأذاعت .
(٣٠) اباد = آبار ـ قراءة ترجيحية .

قلوب آباء الجند وأمهاتهم . وانطلقت كتبهم مع البريد ، فجاءتهم الكتب مبشرة بذلك ايضـا .كل هذا وتعبـئـة الجنود مـتـواصلة والمـدد يرد من مـالطة وجـبل طارق .ورست فى مياه الإسكندرية صبح يوم السبت ثانى عشر يناير سنة ثمان وتسعين وثمنمـائة وألف دارعـة قـادمة من عاصـمـتهم عن طريق جبل طارق ، تحمل ألف ومائة أربعة وتسـعين عسكريا إنجليزيا ،ومعها شئ كثير من المؤن والذخـيـرة ،وعـدد من المـدافع الرشـاشـة . فـأنزلوهم بمنازل جندهم برأس التين .فأقاموا بها أياما ثم سـاروا إلى القـاهرة بالسكة الحديد ،فاستعرضـهم الجنرال جـرانفل باشـا ، وسـيـرهم على الأثر إلى التـخـوم .ومـا هى إلا أيام حتى[٣١] تلك الحركة وسكنت تلك الضوضاء ولم يعرف سببا لقيامها ولاعلة لسكوتها . وانقطعت الأخبار جملة ،فكثر تساؤل الناس عـمـا سيكون من وراء هذا السكوت ، فبالغت وزارة الحرب فى الكتمان .قالوا وبرز أمر السردار إلى سائر الضبـاط ومـقـدمى الجند بالكف عن مكاتبة ذويهم إلى حـين .وأصبـحـوا يوم الثلاثاء أول فبراير من السنة وقد دوى صوت المدافع من خلف ميدان العباسية عند سفح الجبل الأحمر ،حيث اجتمعت سائر العساكر والأجناد من الإنجليز بذلك الميدان وعملوا مناورة حربية عظيمة للغاية على شكل هجوم من الجيش على العدو ودفاع من العدو ، فكان المنظر مهيبا فخيما .ولكن أصوات المدافع وهريع[٣٢] البنادق أحدث ضجة بين العامة وقلقا عظيـمـا ،حتى خرج سكان العطوف من خطة الحسينية هايمين على وجوههم إلى باب زويلة ،وعطوف خطة الجامع الأزهر .وظل إطلاق المدافع والبنادق متواصلا حتى الزوال ، والناس فى تساءل وخوف ماعليه من مزيد ، والروايات عن هذه الحركة شاينة مبالغ فيها إلى حد يوجب خوفهم لامحالة . وماهى إلا عشـيـة أو ضحاها حتى جاءت الكتب الخصوصية الى بعض كبار القوم بالقاهرة مثبتة إحتلال القوم الفرنسيس فشودة ،وأن منليك ناجوسى الحبشة قد أحكم الإتفاق مع الخليفة عبد الله

---

(٣١) حتى = حتى هدأت .

(٣٢) وهريع = وفرقعة قراءة ترجيحية .

على الدب[٣٣] والإتفاق ، وأن الخليفة قد جاءه الدعاة فى شهر نوفمبر من السنة الفارطة بخبر قدوم الحملة الفرنسية إلى أعالى النيل وزحفها إلى صفافه .[٣٤]فرسم إلى أمرائه هناك بأن لا يتعرضوا دون تلك الحملة أبدا . قال لأن الفرنسيس حلفاء النجوسى . وأن قد برز أمره أيضا بان لاتتعرض جنوده لجاميات الفرنسيس التى وضعها مارشان فى طريقه .قالوا وقد أرسل الأمير (عبد الحسين) كتبه إلى التعايشى يخبره فيها بأن حملة الفرنسيس إجتازت النيل الأبيض من الضفاف الشمالية إلى الضفاف اليمنى ،وأنها على عزم انشاء معسكر على مقربة من بحر الحجر[٣٥] وانتظار وصول قائد عسكر النجوسى . فلم يبق من ريب فى وصول مارشان إلى فشودة .ولذلك تحولت أفكار أصحاب الإحتلال إلى أن تأهب النجوسى وحشده الكتائب تلو الكتائب ،وإكثاره من الكراع ومعدات القتال ليس هو لمحاربة الإيطالين ،بل هو نتيجة ماهو متواصل بينه وبين الخليفة عبد الله للعمل ضد خصومهما .وجاءت صحف الألمان مؤيدة لذلك ايضا .وماتفشت هذه الأخبار وتناقلها أصحاب الصحف المحلية ، حتى قامت ضجة أصحاب صحف الإنجليز ،وأخذت صاحب سياستهم من كل جانب . فأوعز إلى بعضهم يقول أن العهدة التى عقدت فى ربيع العام الفائت مع النجوسى[٣٦] هى من أحسن العهدات التى أبرمت وأقربها إلى مصلحة الدولة الإنجليزية ، وأن قاعدتها تسوية جميع مسائل النيل الأعلى مع النجوسى منليك .وأن الوفاق معه فى هذا الشأن مبنى على مبدأ مؤداه أن خير للإنجليز أن يكون فى النيل الأعلى جيشان مواليان ومصافيان للإنجليز ، من أن يحتله فرنسيس معادون لهم فتأمل .

(٣٣) الدب = الود ـ قراءة إجتهادية .

(٣٤) صفافه = ضفافه .

(٣٥) بحر الحجر = بحر الجبل ـ الإسم الذى يطلق على المجرى الأساسى للنيل الأبيض ـ راجع تقويم سنة ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٧ .

(٣٦) مفاوضات سير رينيل رود Rennel Rodd مع منليك الثانى (٤/٢٨ ـ ١٨٩٧/٥/١٤) ـ راجع حاشية ٢٥٧ ـ من حواشى عام ١٨٩٥ ـ ص ٤٩٤ .

وقدم فى هذه الاثناء وفد من قبل النجوشى منليك موفدا إلى نقولا قيصر الروس والسلطان عبد الحميد فى مهمة سرية ،هى وساطتهما فى أخذ دير السلطان[٣٧] الخاص بقبطة مصر فى بيت المقدس ،وقد تقدم بيان دعوى الأحباش ملكية هذا الدير فى محله من هذا الكتاب .فسار الوفد توا من السويس إلى الإسكندرية ،ومنها إلى دار السلطنة العثمانية ،ثم إلى عاصمة الروس ومعه كثير من الهدايا والتحف .فقوبل رجاله بالحفاوة والتعظيم ، وأنزلوا

(٣٧) منح صلاح الدين الأيوبى الأقباط هذا الدير بعد استخلاصه بيت المقدس من أيدى الصليبيين عام ١٠٩٩م ، علامة على رضاه عنهم بعد أن لمس إخلاصهم ووفاءهم له . وسمى هذا الدير الواقع بالقدس (دير السلطان) إعترافاً بجميل صلاح الدين .

سمح الأقباط للأثيوبيين بالإقامة فى الدير باعتبار أنهم تابعون للكنيسة القبطية فى مصر ـ حدث نزاع بين الرهبان المصريين والأثيوبيين بعد ذلك وانتهى الأمر إلى إخراج الآخيرين من الدير واستئثار الرهبان المصريين به .

تجددت مشكلة دير السلطان بالقدس بين الأقباط والأثيوبيين ـ فأثيرت خلال سنوات القرن التاسع عشر والقرن العشرين . ففى عام ١٨٥٠ اختطف الرهبان الأحباش مفاتيح كنيسة الملاك ميخائيل بالدير عقب أحد (القداسات) ، لكن المفاتيح أعيدت بأمر من الوالى العثمانى . فى عام ١٨٥٩ إنتزع الرهبان الأحباش مفاتيح الدير مرة أخرى واستعادها الرهبان الأقباط مرة أخرى بإرادة سنية من السلطان عام ١٢٨٠هـ (١٨٦٣م) .

جرت عدة محاولات لإنهاء النزاع حول هذا الدير كان أهمها ما قام به (قلينى فهمى باشا) لدى الإمبراطور هيلاسيلاسى Haile Selassi خلال فترة ولايته للعهد (١٩١٦ ـ ١٩٢٨) عندما اتفق على إعتراف الأثيوبيين بملكية الأقباط للدير وإن لايكون لسكنى رهبانهم ترتيب ملكية للدير . وتقسيم منافع الدير إلى قسمين بين الرهبان الأقباط المصريين والرهبان الأثيوبين . ورغم إثبات الكنيسة القبطية مراراً ملكيتها للدير واستعادتها له فإن الأثيوبيين استغلوا فرصة الإحتلال الإسرائيلى بعد عدوان سنة ١٩٦٧ واستعانوا بالشرطة الإسرائيلية فى إخراج الأقباط من الدير فى أبريل ١٩٧٠ وحتى اليوم . فى عام ١٩٧٠ رفعت الكنيسة المصرية الأمر أمام المحكمة الإسرائيلية العليا وحصلت على أحقيتها فى ملكية الدير بالحكم بالرقم ١٠٩ لسنة ١٩٧٠ ـ لكن الحكومة الإسرائيلية رفضت تنفيذ الحكم بدعوى أن اتخاذ أى قرار بشأن الدير قد يؤثر على العلاقات الإسرائيلية الأثيوبية . فى أغسطس ١٩٩٣ قامت لجنة إسرائيلية برأسه شيمون بيريس وزير الخارجية الإسرائيلى وعضوية السفيرين المصرى والأثيوبى فى تل أبيب بمعاينة الدير على الطبيعة تمهيداً لحل الأزمة . ـ لكن الموضوع لم يحسم . يربط الأنبا شنودة بطريرك الأقباط بين سفر الأقباط إلى إسرائيل وبين إعادة إخضاع الدير لإشراف المطرانية المصرية فى القدس . لازال موضوع الدير معلقاً حتى اليوم .

ـ قلينى فهمى باشا (أعمال الملوك) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢١ ـ ٢٢ .
ـ رياض سوريال (المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص١٧ ـ ١٨ .
ـ الأهرام ـ ٣٩٣٣٠ ـ الجمعة ١٩٩٤/٨/١٢ .

على الرحب والسعة .فلبثوا أياما ثم عادوا وقد حمل السلطان رئيس الوفد الوسام العثمانى المرصع من الدرجة الأولى وسيفا غاليا وعلبة للسجاير مرصعة بالأحجار الكريمة هدية إلى النجوسى ، مع فرسين من جياد الخيل .وأرسل معه أيضا وسام الشفقة الأول ، وهدايا ثمينة جدا للإمبراطورة طاطيو ، وعدة وسامات أخرى لكثيرين من قواد الجيوش الحبشية ومقدمى عسكرهم . نكان[٣٨] بعض رجال هذا الوفد قد ذهبوا مع رئيسه(اينو جوزيف)وهو كاتم سر النجوسى إلى عاصمة الانجليز بشأن فكاك الباخرة التى كانت تحمل بعض الذخائر والمعدات الحربية اللازمة للحبشة . فأقام أصحاب الكلمة من الإنجليز الصعوبات فى سبيلها ،ومانعوا فى إطلاقها ،وسدوا فى وجه كاتم سر النجوسى كل فرجة لخلاصها . فأقام على السعى ومواصلة الترجى أياما ،حتى سرحوها بالسفر بعد أن أخرجوا منها ماكان بها من كرات المدافع .قال كاتم سر النجوسى (وهى شعائر عدائية لم أكن أؤمل أن القاها عند أولئك القوم الإنجليز ،بعد الذى سمعه مولاى النجوسى من عادات التودد والتحبب من فم سفيرهم(زنل[٣٩] رود) ،وما شهده هذا السفير من حسن عواطف الحبشان وعظمة جيشهم . قال(فإن كان القوم يريدون بذلك إظهار العطف والحنان على دولة الإيطاليان ،فهذا الصنيع لايقدم ولايؤخر فى إعادة الكرة على جماعة الإيطاليان كلما حركوا منا ساكنا) .أقول كل هذا وإرسال المدد من العساكر الإنجليزية متواصل ، ونقالاتهم تأتى تباعا من مالطة وجبل طارق إلى مياه الإسكندرية ، والحركة ظاهرة فى كل مكان من أمكنة الجند .وجاءت الأخبار الخصوصية إلى القاهرة بأن أصحاب التعايشى فشكوا[٤٠] ببعض الجنود فى الدامر[٤١] ،وجرحوا

(٣٨) فكان = وكان .
(٣٩) زنل رود = رنل رود ـ راجع حاشية ٢٥٧من حواشى عام ١٨٩٥ ـ ص ٤٩٤ .
(٤٠) فشكو = فتكوا .
(٤١) الدامر = قرية سودانية جنوب غرب النخيلة ، وشمال المتمة وشندى .
ـ انظر الخريطة ملحق (٨) .

وقتلوا جماعة آخرين .فكثر تساءل[٤٢] والدى[٤٣] الضباط وذويهم ، وتزاحموا على أبواب وزارة الحرب أياما ،فلم ينالوا مأربا .وتجاهل جماعة الإنجليز خبر ذلك جملة .فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى برز الأمر إلى فرقة إنجليزية فى ثانى مارس من السنة ، تاسع شوال بسرعة الزحف على بربر[٤٤] لتعزيز حاميتها الذين هم من العساكر المصرية ، إذ ثبت لدى مقدمى الحملة أن التعايشى رسم إلى(الأمير محمود) أمير (المتمة) بالتقدم نحو(الدامر) فى العطبره ،وإصلاء أصحاب الحملة نارا حامية ، وقد تحرك جماعة الإنجليز النازلون ببلدة (خرام) إلى أصوان ، وبرز لهم الأمر أيضا بركوب السفن توا إلى أسوان ،حيث ينتظرون أياما ثم يتوغلون فى التخوم . وأصبحوا يوم الخميس ثالث مارس ،وعاشر شوال وقد خرجت جنودهم النازلون بقصر النيل يريدون الرحيل إلى التخوم . فوزعهم[٤٥]فى محطة السكة الحديد القائد العام لجيش الإحتلال .وكانوا كلما مروا فى طريقهم بفندق من الفنادق التى تنزلها الإنجليز صفقوا لهم وهللوا وكبروا تكبيرا ، وكانت طبولهم تقرع قرعا متواصلا ،والعامة من خلفهم وعن يمينهم وشمالهم يضجون ويصيحون ، وهم لايدرون من أمر خروج أولئك الجند شيئا ،حتى لقد سمعت عجوزا عند شارع أولاد عنان تقول لأخرى معها (الإنجليز خارجين باأخيه[٤٦] زغرتى ، الإسلام منصور) ، فلما اقترب الجند من محطة السكة الحديد ، برز أصحاب الشحنة ففرقوا العامة ، ومنعوهم من الوصول إلى أبواب الدخول ، ثم فرقوا جمعهم . وجاءت الأنباء من وراء التخوم بأنه لما ثبت للتعايشى أن رجاء[٤٧] الحملة كل يوم فى ازدياد ، والتحفز للوثبة

---

(٤٢) تساءل = تساؤل .

(٤٣) والدى = أباء ــ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٤٤) دخلتها القوات المصرية فى ٣١ أغسطس ١٨٩٧ دون قتال بعد أن أخلتها القوات المهدية ــ راجع الحاشية ٢٥٩ ــ من حواشى عام ١٨٩٧ ــ ص ٨٠٧ .

(٤٥) فوزعهم = فودعهم .

(٤٦) با أخيه = يا أختى ــ قراءة ترجيحية .

(٤٧) رجاء = رجال ــ قراءة ترجيحية .

على أصحابه بادية لا تخفى على أحد ، برز أمره إلى (الأمير محمود) إبن عمه مقدم الدراويش فى (المتمة) بأن يتولى القيادة العامة على سائر المجاهدين ، وعهد اليه مقاومة الحملة جهد الإستطاعة بلا أخذ ولا رد[٤٨] .

وبينما الناس مسوقون إلى التحدث بأخبار ما وراء التخوم ، وحوادث توغل الجنود فى طريقهم الى (بربر) وما والالها ،إذ برز أمر الرئيس إلى سائر المديرين والمحافظين بإعلان الناس بأن لا حج فى عامهم هذا ، تفاديا من الطاعون المتوقع تفشيه بين الحجاج أتيا إليهم من مسلمى الهند (وجاوا) وغيرهم .فلما شاع هذا الخبر أكبر[٤٩] الناس وأعظموه ، وتناقلته أصحاب الصحف على اختلافها ، ففصلوا فيه وقاسوا وخالها[٥٠] وألبسوه للعامة مشوها مقلوبا فهاج هايجهم . وتحرك بعض المشايخ وأصحاب العكاكيز وكثر تساؤلهم من شيخ الجامع الأزهر وكبار المدرسين فيه .وقال قايلهم(ما ضر الرئيس حتى لو منع المسلمين من الصلوة والزكاه إسترضاءاً لجماعة الإنجليز؟ أن هذا لبلاء عظيم) . واشتدت حركة القوم ، وبدت علائم الهرج فى أحياء المدينة .وعندى أن ليس من سبب لهذا المنع والتحذير سوى انتشار الطاعون فى معظم الولايات الهندية

(٤٨) باحتلال القوات المصرية لبربر فى ٣١ أغسطس ١٨٩٧ أصبحت القوتين المتصارعتين (قوات إسترجاع السودان ، وقوات المهديين) وجها لوجه مع وجود مساحات كبيرة تفصل بين قوات الإسترجاع وبعضها البعض . وكانت هناك مخاوف من قيام القوات المهدية بعمليات إلتفاف حول خطوط الجيش المصرى الطويلة ، وتهديد خطوط السكك الحديدية فى الشمال .
على الجانب الآخر كان الخليفة عبدالله يعتقد أن الفرق المصرية ستزحف إلى (المتمة) . لذلك فإن خطته كانت إقامة خط دفاعى على النهر عند (المتمة) بعد أن سقطت (أبى حمد) و(بربر) فى يد القوات المصرية . ويلاحظ أن خطة المهديين فى هذه المرحلة كانت دفاعية بحتة .
فى الشهور الأولى من عام ١٨٩٨ كانت (بربر) قد أصبحت مركزا لتجمع قوات الجيش المصرى التى بلغت ١٤ ألف مقاتل منتظم فى لوائين مصريين إلى جانب لواء بريطانى ـ ٢٤ بطارية مدفعية ـ ٢٢ بطارية من مدافع مكسيم Maxim .
ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان (١٨٨٩ ـ ١٨٩٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٢ ـ ١٦٥ ، ١٦٧ .
(٤٩) أكبر = أكبره .
(٥٠) وخالها = استبعدت الكلمة .

الإسلامية ،وتمسك أولئك القوم بشعائرهم الدينية وحسبانهم للموت فى تلك الأراضى تخفيفا لذنوبهم ،بل غفرانا وقبولا فى جنات النعيم .فهم لذلك لايبالون بما وراء حجهم من عدوى أو موت .أما الحكومة فلا يرفض عليها دينها إلى هذا الحد ،ولكنها بما رسمت أخطأت الحكمة وحادت عن طريق السداد ، وربما كان قصدها حسن . فهى قد فعلت ما فعله إسماعيل باشا الخديو على عهده ،إلا أن بين الحالتين فرقا ،ففى ذلك العهد كان الحجاز كلع(٥١)موبوءا ،وأما اليوم فليس موبوء .قال الرئيس أن الحجاز معرض لويلات الطاعون حتى يصح أن يحسب أن الداء فيه ، بالنظر إلى الوافدين إليه من تلك الأطراف الموبوءة . ولا مشاحة فى ان الحجرعلى أهل تلك الأصقاع ،ومنعهم من الخروج من بلادهم إلى الحج ،هذا ما لا تجيزه القوانين ولا مبادئ العدالة ، فلهم أن يفروا إلى حيث يشاءون ،ولغيرهم أن يتقوا عدواهم . وقد كان أحرى بالرئيس أن يقيد السفر إلى الحج بقيود تكون حاملة للناس على الإمتناع ،واتقاء شر العدوى ،وتلويث البلاد بهذا الداء الوبيل .وماهى إلا أيام حتى عقد الوزراء مجلسهم زتناجوا(٥٢) فى هذا الأمر طويلا ، حتى تقررت القاعدة بينهم على العدول عن هذا المنع ، والرجوع الى تكليف الحجاج بالتوسعة فى النفقة والعناية بأسباب الراحة . فاهتمت بعمل الإحتياطات الصحية وتحسين حالة المحاجر ،وتوسيع نطاقها وتكميل معدات التطهير ، ووسائل الوقاية .وبرز الأمر بذلك مجملا ومفصلا فاطمأن الناس وذهبت عنهم تلك الوحشة ،وانكف المشاغبون من المشايخ وأصحاب العكاكيز عن سعاياتهم ، وأصحاب الصحف عن صيحتهم بالرئيس مصطفى باشا .

---

(٥١) كلع = كله .
(٥٢) زتناجوا = وتناجوا .

وانصرف الناس على اختلاف طبقاتهم عن أبناء [٥٣] التخوم ، وقيود الحاج والعناية بالمحاجر ومستلزماتها ،إلى التحدث فى عمل من أجل الأعمال وأعظمها خطورة ونفعا للبلاد ، من جنوبها إلى شمالها ، ومن مشرقها إلى مغربها . وتحرير الخبر أنه جاء من ديار الفرنسيس عظيم من أهل العلم واليسار منذ بضع سنين ، وأقام أياما يغدو ويروح مابين أصوان وأسيوط والقاهرة ، ومعه جماعة من كبار المهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض ، ثم إجتمع بالوزير نوبار باشا زهز[٥٤] يومئذ رئيس الوزراء ، وكلمه فى ضرورة إنشاء خزان فى جهة أصوان عند قصر أنس الوجود لتخزين مياه النيل فوق منحدره بطريقة هندسية ، بحيث توفر المياه المنحدرة فى مجرى النيل إلى مصبيه عند دمياط ورشيد ، وتأمن بلاد الأقاليم القبلية شر الشرق ، والأقاليم البحرية شر الغرق ، ويكون انحدار النيل فى إبان فيضانه على مستوى واحد ، لا خوف معه على الجسور والقناطر من الإنهيال والتكسر .واطلع الوزير على مالديه من الرسوم والتخطيط الهندسى ، وعلى حسابه وتقديراته ، وطلب أنه إذا وقع الإتفاق على إخراج هذا المشروع الخطير إلى حيز العمل[٥٥] .قيل فأعجب الوزير رأيه واهتم له إهتماما عظيما ، وكلم أصحاب الرى وكبار مهندسيه فى ذلك ، فجعلوا يطاولون ويحاولون أياما من الدهر ، عاد الرجل فى خلالها إلى دياره حزينا ، وقد أحس بوقف جماعة الإنجليز فى سبيله ، والعمل على إحباط سعيه . ومضى على هذا الحادث حين من الدهر حتى تنساه[٥٦] الناس أو كادوا . واتفق أن إختارت دولة الفرنسيس لعضوية مجلس إدارة السكك الحديد المصرية حسب قانون

---

(٥٣) أبناء = أنباء .
(٥٤) زهز = وهو .
(٥٥) العمل = العمل إسند إليه ــ أضيفت العبارة ليستقيم المعنى .
(٥٦) تنساه = نساه .

التصفيه[٥٧] ، رجلا من أصحاب المناصب العالية فى دار العلوم الهندسية عندهم إسمه المسيو[٥٧ مكرر] ، وهو شيخ جليل واسع المعرفة . فلما استقر بالرجل

---

(٥٧) وفقاً لمرسوم ١٨ نوفمبر ١٨٧٦ الصادر بفرض الرقابة الثنائية على المالية المصرية لتسوية الدين العام ، أسندت إدارة السكك الحديدية وميناء الإسكندرية إلى لجنة مختلطة مؤلفة من خمسة مديرين ، منهم إثنان إنجليزيان وإثنان مصريان ، وواحد فرنسى ـ ونصت المادة (٢٣) على أن يكون أحد المديرين الإنجليز رئيساً للجنة ـ ووفقاً لذلك عين الجنرال ماريوت Maraiott الإنجليزى رئيساً لقومسيون السكك الحديدية وميناء الإسكندرية حتى توفى ـ فى ٢٥ ديسمبر ١٨٧٩ صدر مرسوم بتعديل تأليف اللجنة المختلطة لإدارة السكك الحديدية وميناء الاسكندرية بأن جعلت من ثلاثة مديرين أحدهما إنجليزى وله الرآسة ، والآخر فرنسى ، والثالث مصرى . عندما صدر قانون التصفية (١٨٨٠/٧/١٧) استمرت الإدارة الأوروبية المصرية للمرفق ـ مع هيمنة العضو الإنجليزى على الإدارة ـ تولى عضوية وإدارة المرفق على مدى الفترة ١٨٧٩ ـ ١٩٠٥ كل من لمجرير Lamgrere ـ هالتون Halton ـ ف . أ . روبرتسن F. A. Robertson ـ إدوارد برس كرانويل جيرارد Edward. P. C. Gerard ـ الماجورج . هـ . لسترانج جونستون H. Gohnston .

أما المديرون الفرنسيون أعضاء مجلس الإدارة فكانوا م . تمرمان Timmerman حتى ١٨٨٩/٤/١٩ ـ براون Brown حتى ١٨٩٨/١٢/٢٨ ـ ثم جوليان بارو Julian Baro حتى ٢٠ نوفمبر ١٩٠٥ .

كانت الفترة ١٨٩٥ ـ ١٩٠٥ فترة انتعاش متزايد فى مصر . فقد إرتفعت إيرادات الحكومة بانتظام ، وتلقى الوضع المالى دعماً بالوفاق الودى الإنجلو فرنسى (أبريل ١٩٠٤) الذى أعطى الإنجليز حرية مالية وسياسية فى مصر . وفقاً لهذا الاتفاق ، الذى كان جزءاً من تسوية أكبر للمسائل المعلقة بين الإنجليز والفرنسيين وافق الأخيرون على أن لايعرقلوا الحكم البريطانى فى مصر بالمطالبة بتحديد موعد لإنهاء الإحتلال . أصابت تعديلات كثيرة الترتيبات المالية المتصلة بمصر . ألغيت الإدارات المختلطة كالسكك الحديدية ، ميناء الإسكندرية ، والتلغرافات ووضعت تحت السيطرة المباشرة للحكومة المصرية . وهكذا فإنه فى نوفمبر ١٩٠٥ ألغيت الإدارة الدولية للسكك الحديدية وميناء الاسكندرية بالأمر العالى الصادر فى ١٨ نوفمبر ١٩٠٥ وآلت إلى مصر وأدارها مدير عام يعين بقرار من ناظر الأشغال العمومية . لكن الإدارة مع هذا ظلت إنجليزية ـ فتولى إدارة المصلحة بعد ذلك التاريخ الماجور جونستون ـ ثم اللفتنانت كولونيل (السير فيما بعد) جورج ماكولى Mccoauly ـ فالبريجا دير جنرال ر . ب . و . بلانكى Blanky ـ فالمستر برسفورد مكسويل Maxwell . ولم يتسلم زمامها مصرى إلا فى ١٩٢٤/٤/١٠ .

ـ محمد عفت سليمان (السكك الحديدية المصرية وأثرها فى المجتمع المصرى ١٨٨٢ ـ ١٩١٩) ـ رسالة ماجستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ـ ١٩٩٣ ـ ص ٥٧ ، ١٣٠ ـ ١٣١ .

ـ سكك حديد مصر فى ١٢٥ عاماً (١٨٥٢ ـ ١٩٧٧) ـ مطابع السكك الحديدية ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ ص ٦٧ ـ ٨١ .

- Robert Tignor (Modernization and British Colonial Ru (Lein Egypt) Ibid., P., 214.

(٥٧ مكرر) أغفل المؤلف ذكر إسم العضو الفرنسى لمجلس إدارة السكك الحديدية ـ وهو المسيو جوليان بارو .

[illegible]

المقام ، جعل يتنقل من سائر البلاد ، من قبليها إلى بحريها ، ومن شرقيها إلى غربيها ، ثم ترفع إلى أصوان وأقام بها أياما ، وعاد وقد أخذت منه فكرة انشاء ذلك الخزان مأخذا . وكانت رياسته[٥٨] الوزراء قد انتقلت إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ، فكلمه فى ذلك وباحثه كثيرا ، فرأى منه استكبارا للأمر ، واستصغارا للفائدة ، وأنه إنما هو مغلوب على أمره ، فأذاع مشروعه للناس وبسطه بسطا وافيا إلى أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ، فتناقلوه وتحدثوا به ، وبالغوا فى مدحه وإطرائه ، وحثوا الرئيس على العناية به . واستمالوا الأمير إلى تمييز أيام ولايته وتجميلها بمثل هذا العمل الذى لم يسبقه اليه أحد منذ ظهور الملك حنا[٥٩] أول ملوك مصر إلى هذا الحين . قالوا وكان كلما ظهرت حجة صاحب المشروع ، وبانت للعاملين محاسنه ، قام جماعة الإنجليز من أصحاب الخزينة وأصحاب الرى أحمال[٦٠] الخزينة ، وتعذر القيام بنفقه هذا العمل الجسيم ، الذى لم يسبق له مثيل ، والأمر على عكس ماكانوا يدعون . وظل الحال على هذا والرجل لم تفتر له همة ، ولم تنسن[٦١] له عزيمة ، والإنجليز يطاولون ويحاولون ، حتى وصلت كتب سياسة[٦٢] الفرنسية إلى الرحيل[٦٣] بمبارحة القاهرة والشخوص الى عاصمة الفرنسيس . فبارحها مغلوبا على أمره ، واجدا على خصومه . فما هى الا أيام حتى جاء من ديار الإنجليز جماعة من المهندسين ، فاقاموا بالقاهرة أياما ، ثم ترفعوا إلى أسوان ، ولبثوا بها أياما أيضا ، ثم انحدروا إلى القاهرة ، فوكلوا ثلاثة منهم لعمل حساب بناء السد وأكلافه ووضع تخطيطه . فظلوا على هذا أياما كثيرة ، حتى فرغوا من عملهم وظهرت للناس أكلافه ، وشاع أنهم سيوزعونها على روك[٦٤] الأطيان قدرا مقدورا

(٥٨) رياسته = رياسة .
(٥٩) حنا = مينا .
(٦٠) أحمال = بالإعتذار بأحمال ـ عدلت العبارة ليستقيم المعنى .
(٦١) تنسن = تنثنى قراءة ترجيحية .
(٦٢) سياسة = صاحب السياسة ـ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٦٣) الرحيل = الرجل ـ قراءة ترجيحية .
(٦٤) روك = بمعنى مساحة الأراضى الصالحة للزراعة تمهيداً لتوزيع الضرائب والتكاليف عليها .

على كل فدان منها . فانكمش أصحاب الزروعات ، وانقبضت نفوسهم لانهم منكوبون بالضرائب الفادحة والمكوس الشديدة . وكان إلى هذا العهد قد سقط الرئيس مصطفى رياض باشا من منصة الرئاسة وتولاها مصطفى فهمى باشا ، وهو على ماهو معهود فيه من الإستكانة وعدم الخروج عن طاعة عميد الإحتلال . فجعل العميد يتصرف فى الأمر ويديره كما يشاء . فجاء إلى القاهرة جماعة من المقاولين وأصحاب الأموال ، وتكفلوا بالعمل والنفقة حتى النهاية ، مقابلة قيام وزارة الخزينة بدفع إثنين مليون جنيه نقدا على أقساط متساوية . فلما تم الإتفاق على ذلك وتحقق أصحاب الزروعات أنهم مؤاخذون به لا محالة ، ظهر ضجيجهم من كل صوب وحدب ، وقام لنصرتهم بعض أصحاب الصحف المحلية ، وأنحوا على الرئيس مصطفى باشا باللائمة ، وقالوا ماضره لو كلم فى ذلك أصحاب صندوق الدين ، وطلب منهم الموافقه على صرف هذا القدر الجسيم من الإحتياطى المتوفر فى الصندوق ، رحمة بالفلاح الذى أحملته الديون ، وقصم ظهره الرباء الفاحش . قالوا وعهدنا بالقيوم[٦٥] انهم ما احجموا يوما عن عمل كل مافيه تخفيف المغارم وتقليل المكوس . وهم لما سئلوا فى القيام باكلاف مصارف مياه القاهرة وقدرها ألف ألف جنيه ومايتين ألف جنيه نقرة لبوا الطلب ولم يمانعوا فى ذلك البتة . فلو كان الرئيس ومن معه أبرياء من جريمة الخنوع والأخذ برأى جماعة الإنجليز بغير معاودة ، ما ابتليت أهل البلاد بهذه المحنة . قلت . وأخبرنى صديق من أصحاب المناصب فى وزارة المالية أن الاكلاف التى تم الإتفاق على اعطائها لجماعة المقاولين هى إثنين مليون جنيها مصريا ، تسدد فى مدة ثلاثين سنة برباء سنوى ، مضافا إلى رأس المال لا ينقص عن إثنين مليون جنيها وثمانمائة ألف جنيه . فيكون مجموع ما ينفق على السد أربعة مليون جنيه وثمنمائة الف جنيه . فتأمل . وكثر التحدث فى شأن ذلك الخزان ، وقام أصحاب الرأى من جماعة الإنجليز

(٦٥) بالقيوم = بالقوم .

يعظمون عمله ويحبذونه ويؤكدون أن بنائه سيؤدى إلى زراعة ثمنمائة وخمسين ألف فدانا من الأطيان البور ، منها أربعين ألف فى الفيوم وعشرة آلاف فى إقليم الجيزة ، وثلثمائة وخمسين ألف فى الإقليم البحرى . قالوا وسيزيد دخل الخزينة من ربط الخراج على هذه الأطيان زيادة عظيمة ، وستبلغ زهاء خمسمائة وسبعين ألف جنيه فى الإقليم البحرى على حدته(٦٦) .

أقول . وقد كنت يوما عن الحسيب السيد عبد الخالق السدات(٦٧) نقيب السادة الوفائية لمودة ومحبة بيننا ، فحدثنى بحديث الخزان وأكلافه ، وما يترتب على بنائه من نفع وخير . ثم قال أو تنكر أن ضرره أكثر من نفعه فى حين أن الفتنة فى السودان قائمة على ساقها ، والحرب مع التعايشى لم تضع اوزارها؟ فقلت لا ريب أن ضرره يكون أكثر من نفعه إذا طال امد الفتنه وامتد أجل التعايشى . ولكن الامل بزوال ملك المهدوية عظيم ، والفتح مؤكد بعد كل هذه الحركة البادية . قال وما قولك فى أن أجدادنا العرب فكروا كثيرا فى عمل هذا السد(٦٨) الملك المعز الحاكم بأمر الله . قلت أعلم ذلك ، وأذكر أنى قرأت فى كتاب (قلائد الأجياد) فى حوادث سنة أربعمائة للهجرة أو تزيد ، أن رجلا من أهل البصرة كان مهنديا عامل(٦٩) كبيرا فطن الى عمل هذا السد فى أيام المعز ، ولكنه لم يفلح ، ولم تحضرنى أسباب إخفاقه وعدم فلاحه ، ومن لنا بالحصول على هذا الكتاب وقد مضى على رؤيتى إياه أعواما كثيرة عن(٧٠)شيخ بيع(٧١) العقاقير ، جمعتنى به الصدفة مع صديق من رفاق المدرسة . فتبسم

---

(٦٦) عن مشروع خزان أسوان قارن الحاشية ٢٢٨ من حواشى عام ١٨٩٢ ، من حواشى عام ١٨٩٤ .
(٦٧) السدات = السادات ـ عن عبد الخالق السادات ـ راجع حاشية ٧٠٣ من حواشى عام ١٨٩٤ .
(٦٨) السد = السد فى عهد   أضيفت العبارة ليستقيم النص .
(٦٩) مهندياً عامله = مهندساً عالماً   قراءة إجتهادية .
(٧٠) عن = عند .
(٧١) بيع = يبيع .

السيد وقال ، إن الكتاب عندى مما جمعه [٧٢] فى مكتبة والدى الشيخ فهل تريد الإطلاع عليه؟ فقلت جعلت فداك ، يسرنى والله أن يكون كلما[٧٣] فيه حديثنا اليوم ، ونعم الحديث هو . فغاب عنى لحظة لطيفة وعاد معه الكتاب ، فتناولته وجعلت أقلب صفحاته فعثرت على العبارة الآتى نصها تحت هنوان[٧٤] (إبن الهشيم) قال المؤلف (هو أبو على محمد بن الحسن بن الهشيم ، أصله من البصرة ، ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى أخر عمره ، وكان فاضل النفس ، قوى الذكاء ومتفننا فى العلوم ، لم يماثله أحد من أهل زمانه فى العالم الرياضى ولايقرب منه ، وكان دائم الإشتغال كثير التصيف[٧٥] ، محبا للخير . وقد لخص كثيرا من كتب ارسطوطاليس وشرحها ، وكذلك لخص كثيرا من كتب دليانوس فى الطب ، وكان خبيرا بأصول صناعة الطب ، ونوايتها ، وأمورها الكلية . وتصانيفه كثيرة الإفادة . وكان حسن الحظ[٧٦] جيد المعرفة بالعربية . قال وحدثنى الشيخ (علم الدين قيصر بن ابى ألقاسم بن عبد الغنى بن مسافر النفى) المهندس قال ، كان ابن الهشيم فى أول أمره بالبصرة ونواحيها ، وقف[٧٧] تولى الوزارة . وكانت نفسه تميل إلى الفضائل والحكمة والنظر فيها ، ويشتهى أن يتجرد عن الشواغل التى تمنعه من النظر فى العلم . فأظهر خبالا فى عقله وتغيرا فى تصوره ، وبقى كذلك مدة حتى تمكن من ترك الخدمة وصرف من النظر الذى كان فى يده . قال ووجدت بخط (الصاحب جمال الدين أبى الحسن) كتابة ذكر فيها عن ابن الهشيم ماهذا نصه (قال أنه لما بلغ الحاكم بأمر الله صاحب مصر وهو من المبعوثين الفاطميين خبره ، وماهو عليه

(٧٢) جمعه = جمعته .
(٧٣) كلما = كل ما .
(٧٤) هنوان = عنوان .
(٧٥) التصيف = التصنيف .
(٧٦) الحظ = الخط .
(٧٧) وقف = وقد .

من الإتقـان فى فن الهندسـة نفسـه(٧٨) من رؤيتـه(٧٩) ، لأنه نقل له عن إبن الهشيم المذكور أنه قال : لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص .فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال ، وهو فى طرف الإقليم .فازداد الحاكم إليه شوقا ، وسير إليه سرا جملة من المال وأرغبه فى الحضور ، فساد(٨٠) نحو مصر . فلما وصلها خرج الحاكم إلى لقائه ، والتقيا بقرية على باب القاهرة المعزيه تعرف (بالخندق) ، وأمر بإنزاله وأكرامه واحترامه ، وأقام حتى استراح . وطالبه بما هو وعد به من أمر النيل ، فسار ومعه جماعة من الصناع المتوليين للعمارة بأيديهم ليستعين بهم على هندسته التى حضرت له . ولما سار إلى(٨١) الإقليم بطوله ورأى آثار من تقدم من ساكنيه من الأمم الخالية ، وهى على غاية من إحكام الصنعة وجودة الهندسة ، وما اشتملت عليه من أشكال سماوية ، ومثالات هندسية ، وتصوير معجز ، تحقق ان الذى يقصده ليس بممكن ، فان من تقدموا فى الصدور(٨٢) الخالية لم يغرب عنهم علم ماعلموا ، ولو أمكنهم لفعلوه . فتكسرت همته ووقف خاطره . ووصل إلى الموضع المعروف بالجنادل قبلى مدينة أسوان ، وهو موضع مرتفع ينحدر منه ماء النيل ، وباشره واختبره من جانبيه ، فوجد أمره لا يتمشى على موافقة مراده . فتحقق الخطأ والغلبية(٨٣) عما وعد به ، وعاد خجلا ومنخذلا . واعتذر بما قبل الحاكم ظاهره ، ووافقه عليه . قال ثم أن الحاكم ولاه بعض الدواوين فتولاها) أ . هـ .

---

(٧٨) نفسة = تاقت نفسه أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٧٩) من رؤيته = لرؤيته .
(٨٠) فساد = فسار .
(٨١) إلى = فى قراءة ترجيحية .
(٨٢) الصدور = العصور قراءة ترجيحية .
(٨٣) والغلبيه = والغلبه قراءة ترجيحية .

فقلت لما علمنا سبب عجز الرجل وغلبته ، لا سيما بعد أن رأى من اتيان[٨٤] علوم المصريين الهندسية ، وعظمة بنيانتهم[٨٥] وعجائب صناعاتهم ما أدهشه . أما وقد هان فى هذا القرن العشرين[٨٦] كل عسير من الأمور ، وسهل كل صعب على المفكرين فى كبير الأعمال ، فلم يبق مانع فى سبيل إتمام هذا المشروع الخطير والعمل الجليل ، وكان[٨٧] فائدته للبلاد لايعادلها فائدة أخرى ، إذا روعى جانب أصحاب الزروعات فى أكلافه وروعى جانب البلاد فى الإنتفاع بمياهه ، لا أن يكون سدا عليها ورواء للسودان عاليها وأسفلها . فقال السيد صدقت والله وصدق من قال .

(وستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود)

وأهتم أصحاب الحل والعقد بعمل الخزان إهتماما عظيما . وجعل الرئيس مصطفى باشا ، والوزيرفخرى باشا ناظر الاشغال العموميه والسير بلمر المستشار المالى يوالون الإجتماع ولورد كرومر لايغفل عن حضهم على التعجيل وتقرير قاعدة الإتفاق مع من حضر من كبار ممولى الإنجليز ومهندسيهم لهذا الغرض . حتى تقررت القاعدة ، وأخذ القوم يتأهبون للعمل . فاستقدموا جماعة كبيرة من بنائين الإيطاليان ، ومهندمى الأحجار ، وآخرين من غواصين البحار الإنجليز والحدادين والتجارين[٨٨] ، واستحضروا عددا من الآلات البخارية الرافعة ، وكثيرا من شوانى النقل الكبار ، والسفن والزوارق والكراكات ، وأنشأوا الأشوان والمخازن والمصانع والمساكن للعمال ، وأباحوا للبياعين والسوقة على اختلاف تجارتهم إقامة الحوانيت والأكواخ اسكناهم[٨٩] . وأقبل أصحاب الحرف من كل صقع ودار ، كالحلاقين والطباخين والخياطين

(٨٤) اتيان = إتقان قراءة ترجيحية .
(٨٥) بنيانتهم = بنيانهم .
(٨٦) المفروض أن يقول (القرن التاسع عشر) .
(٨٧) وكان = وكانت .
(٨٨) والتجارين = والنجارين .
(٨٩) اسكناهم = لسكناهم .

ومرقعى الاحذية ، وباعة الأقمشة والمناديل والقمصان على أصوان ، فاستوطنوها أيضا وعرضوا بضاعاتهم تهيئاً لقدوم أولئك القادمون من الصناع وأصحاب الخدم فى ذلك العمل الجسيم والمشروع العظيم . فانقلبت أصوان إلى مدينة عظيمة مترامية الأطراف ، وقد كانت من أصغر القرى وأقلها سكانا وأحقرها بنيانا . وأصبح الساكن فيها كأنه يسكن أعظم المدن وأكثرها حفاوة ومدنية ، ولاسيما وقد ازدحمت بالمواخير ومكامن الريب وحانات الخمور والميسر . ورتبوا لها العسس وأصحاب الشحنة فى النهار ، واهتموا لذلك اهتماما عظيما لاختلاف القوم فى الجنس واللغة والدين والعادات والأخلاق والأداب ، وكلهم خليط من الطبقة الواطئة ، ومزيج من أصحاب الأمزجة الجافية . وكان من وراء كل هذا ماسيتلى عليك فى محله إن شاء الله .

وكان لما ضاقت أماكن المحاكم الأهليه بمن فيها من القضاة والعمال من الكتاب والمحضرين ، وقد تداعت تلك الأماكن الى السقوط ، إجتمعت كلمة أصحاب الحل والعقد على إنشاء بناء كبير ضخم فى الخطة المعروفة بباب الخلق يكون كافيا لمحاكم القاهرة الإبتدائية ومحكمة الإستئناف . فاهمت[٩٠] وزارة الاشغال بعمل رسوم وأكلاف ذلك البناء . ومازالوا بين أخذ ورد حتى تم الإتفاق على الشروع فى العمل ، وتأهب الموكلون به . فلما كان يوم السبت تاسع عشر مارس من السنة ، سادس عشر شوال سنة خمسة عشر وثلثمائة وألف ، إحتفلوا بوضع الحجر الأول لذلك البناء إحتفالا عظيما ، فقان[٩١] حسين فخرى باشا وزير الأشغال العمومية بين المدعويين وألقى خطابا لذلك شائقا . ثم ادرت[٩٢] على الحضور المرطبات وأطباق الحلوى . وبعد لحظة لطيفة انصرفوا ، فأخذ العمال يعملون من يومهم ، وأظهرت وزارة الأشغال العمومية

(٩٠) فأهمت = فاهتمت .
(٩١) فقان = فقام .
(٩٢) أدرت = دارت .

أهتماما به ومراقبة دقيقة على البناء ، لانه من الأمكنة العمومية التى يكثر إجتماع الخلق بها فى كل يوم بالمائين والآلاف حتى تم العمل على أحسن مايكون من التنسيق والهندام ، واحتله جماعة المستشارين والقضاة والكتاب والمترجمين والمحضرين والحجاب ، فهو من الأبنية المشهورة فى هذه الأيام شكلا وضخامة(٩٣) .

وبينما حديث الناس فى بناء سد أصوان وماسيكون من ورائه لم ينقطع ، إذ عادت أخبار الحملة ولقاء أصحاب المهدوية إلى الظهور . وأتت الأنباء تباعا على وزارة الحرب ، والكتب الخصوصية على بعض أصحاب الحيثية من سكان القاهرة ، وكلها تشير إلى وقوع القتال بين الفريقين . فإنه لما تم للسردار مد السكة الحديد إلى (الترنكيتات)(٩٤) ، وقصرت مسافة الطريق من سواكن إلى كسلا ، برحت سواكن طايفة من الجنود المصرية ذاهبة إلى (ترنكيتات) لتسافر منها بطريق السكة الحديد إلى طوكر(٩٥) ، ثم تشخص من هناك مشيا على الأقدام إلى كسلا . فلما بلغوا (طوكر) لاقاهم جماعة من العربان يرعون ماشيتهم فظنوهم أعداء ، ثم ظهر أنهم من أصدقاء الحكومة وأنصارها . وكان قد بلغ طريق (هورى)(٩٦) جماعة من العسكر المصرى والإنجليزى ، فأنشأوا فيها معسكراً ولبثوا به أياما حتى يأتيهم أمر السردار . فلما كان ليلة حادى عشر مارس من السنة برز الأمر باطفاء نيران المعسكر كلها عند الساعة الثامنة دون أن ينفخ فى البوق . وفى الساعة العاشرة والدقيقة أربعين سمع صوت بارودة فى جهة غير معينة ، فأحدث هذا الصوت رعبا وقلقا فى جميع العسكر . وأسرع

---

(٩٣) يقصد المؤلف مبنى محكمة الإستئناف الكائن بميدان باب الخلق والمجاور لمبنى مديرية الأمن بالقاهرة والمواجه لدار الكتب والمتحف الإسلامى .

(٩٤) انظر الخريطة ملحق رقم (٥) .

(٩٥) انظر الخريطة ملحق رقم (٥) .

(٩٦) هو رى = رأس الهودى .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩ ـ ١٨٩٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٦٧ .

الجنود فتقلدوا سلاحهم وسددوا حرابها فى رؤوس بنادقهم . وكان الظلام حالكا جدا ، وحدث أن أحد الجنود الإنجليزية قام مدهوشا من نومه ، فحمل على أحد رفاقه بحربته فصوب إليه الأخر رأس بندقيته ، فاخترقت حربتها صدره فسقط ميتا ، وكان[٩٧] يقع الهرج بين جميع الجنود ويقتل بعضهم بعضا ، لولا العناية الربانية .وظلوا على قدم الإستعداد حتى مطلع الفجر ، فزال عنهم الرعب وعادوا إلى مضاربهم واستراحوا ساعة . ثم نفخ فى البوق فقاموا وخلعوا مضاربهم وفكوها ، وحملوا أثقالهم ورتبوا صفوفهم ، وساروا قاصدين هورى .[٩٨] فكانوا تارة يقطعون مواقع رملية عميقة وأخرى يصعدون مرتفعات كثيرة الصخور والأحجار . وما زالوا على هذا حتى بلغوا (راى هورى)[٩٩] ألذى يبعد عن البلد نحو ستة أميال على ضفة نهر عطبرة . وهناك حطوا رحالهم ونصبوا خيامهم ، واقاموا ينتظرون رجوع الجواسيس الذين ساروايتنسمون الأخبار عن جيش الأمير محمود . قالوا وكانت الجنود النزالة[١٠٠] فى معسكر (ادرامة) تقاتل فى ذلك الحين أيضا الدراويش الذين هاجموهم بقيادة شقيق عثمان دقنه ، آتين من طريق (دلبق) الواقعة فى منتصف الطريق بين (ادرامة) وأم درمان .وقد اشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس ، وانضم الى الجنود جماعة العربان المصافيين ، واشتدوا على العدو شدة بالغة حتى هزموه ثلاث مرات . وفى ك[١٠١] مرة يهجم بخيله ورجاله هجمة المستقتل ، حتى انهزموا تماما وولوا الأدبار ، تاركين قتلاهم وجرحاهم فى ساحة الوغى . وأصبحوا يوم الثلاثاء ثانى عشر مارس من السنة وقد خرجت طلائع الخيالة المصرية للإستكشاف . فما

---

(٩٧) وكان = وكاد .

(٩٨) هورى = رأس الهودى .

ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٧ .

(٩٩) راى هورى = رأس الهودى

ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٧

(١٠٠) النزالة = النازلة .

(١٠١) ك = كل .

هى ان صارت الساعة الواحدة بعد الظهر حتى خرجت عليها فرسان الدراويش على إحدى عشر فرسخا من نهر عطبره ، وقاتلها(١٠٢) قتالا عنيفا جدا بالأسلحة والحراب ، حتى كادت الجنود تنهزم . وكانت المدفعية الراكبة قد برز لها الأمر باللحاق بجماعة الفرسان ، فأدركتها وهى على شفا جرف الهزيمة فأنجدتها وأطلقت مدافعها على الدراويش فمزقت جمعهم ، وقتلت منهم خلقا . وعادت الطلايع ومعها الجرحى من العساكر إلى معسكر هورى[١٠٣] قبل نصف الليل . فباتوا ليلتهم تلك على قدم الإستعداد وأصبحوا وقد جاءتهم الأخبار بان كوكبة الفرسان الثانية التى تعاونها الأورطة السودانية الثالثة عشرة لاقت جماعة الدراويش ، فانتشب بينهم القتال واشتدوا فى قتالهم شدة بالغة . وما زالوا على هذا حتى انهزم الدراويش وارتدوا الى ناحية نهر عطبرة . فبرز الأمرفى الحال إلى سائر الجنود ، فتقلدوا سلاحهم وساروا زاحفين إلى ناحية (زيريبه) واصطفوا هناك للقتال . وكان السردار يظن أنه ستقع بينه وبين الأمير محمد[١٠٤] موقعة فاصلة . وظلوا على قدم التأهب والإستعداد للقاء العدو حينا . وإذا بطلائع الحملة قد عادت وأخبرت بان الدراويش قد انفشلوا وعادوا الى عطبره ، وأنهم لاينوون مهاجمة الحملة .فبرز أمر السردار برجوع الجيش كله إلى معسكر راى[١٠٥] هورى . فعادوا فلم يتركهم الدراويش فى راحة ، إذ كانوا يقلقونهم فى الليل والنهار بهجماتهم وزعقاتهم ووقع حوافر خيلهم . فكانوا على أهبة القتال فى الليل والنهار . وبينما هم على هذا إذ أقبل اثنين من الفارين من معسكر الأمير (محمود) ، فأخبرا أن (محمودا) قد أمر بنقل التمر والدوم وسائر

---

(١٠٢) وقاتلها = وقاتلوها .

(١٠٣) هورى = هودى .

(١٠٤) محمد = محمود ـ هو الأمير محمود أحمد ابن عم الخليفة عبدالله وقائد القيادة الشمالية فى (المتمة) التى اعتبرت مركز خط الدفاع ضد قوات الجيش المصرى فى الفترة التالية للسابع من أغسطس ١٨٩٧ ، تاريخ سقوط (أبو حمد) .
ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٧ .

(١٠٥) راى هورى = رأس الهودى .

مـايصلح للأكل ، وأن جيشه على عزم أن يغادر المتاريس التى أقامها فى (جلحى) العظيمة فى سواد تلك الليلة ، ليهجم على المعسكر المصرى فى (رأس هور)[١٠٦] . فلما تحقق السردار صحة هذا الخبر برز أمره بالإستعداد وإطفاء النور المعسكر فى الليل . وأصبحوا وقد وصل أحد زعماء قبيلة العبابدة وأخبر أم[١٠٧] الأمير محمود لم يبارح (جلحى) وهو قلق البال مضطرب الأحوال ، فلا تمر ليلة إلا ويامر فيها بتأهب سائر المقاتلين فالرزحف[١٠٨] عند مطلع فجرها ، فيعمد القوم إلى ملء أكياس الجلد بالماء وينزلوا مضاربهم ، فإذا طلع الفجر ينادى مناديه بأن إنصبوا خيامكم فقد هبط الوحى بالتربص والبقاء على قدم الدفاع فإن الترك قادمون لمهاجمتنا ، فلا ينجو منهم ديار ولا نفاخ نار ، فينصبون خيامهم ويقفون على قدم القتال . قالوا فبرز الأمير[١٠٩] بتعزيز المعسكر من خارجه بالأسلاك الحديدية المتشابكة ، فعززوه وأقيمت الصلاة طلبا للنصر . وبنما[١١٠] جماعة الإنجليز بوزارة الحرب يرسلون الرسائل البرقية تباعا الى السردار متنسمين الأخبار ، إذ جاءهم أبناء[١١١] - بسقوط (شندى)[١١٢] وتنكيس أعلام أصحاب المهدوية فيها ، فنشروه[١١٣] عند منتصف ليلة ثلاثين مارس من السنة . وتحريره أن ثلاث مدفعيات ذهبت يوم خامس عشر مارس للإستكشاف ، فبلغت شندى فى منتصف الساعة الخامسة من صبح يوم سادس عشريه ، وأنزلت من بها من المقاتلة وبدأت بالمهاجمة ، وكان فى

(١٠٦) راى هورى = رأس الهودى .
(١٠٧) أم = أن .
(١٠٨) فالرزحف = فالزحف .
(١٠٩) الأمير = الأمر .
(١١٠) وبنما = وبينما .
(١١١) أبناء = أنباء .
(١١٢) إستولت عليها الأورطة الثالثة بنادق مشاة المصرية وأنقذت بعض أفراد قبيلة الجعليين الذين كانوا قد أسروا فى معركة (المتمة) التى اكتسحهم فيها الأمير محمود .
ـ راجع حاشية ٣١٧ ـ من حواشى عام ١٨٩٧ .
ـ على محمد بركات ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
(١١٣) فنشروه = فنشروها .

معاقل الدراويش نحو ألفى مقاتل ، ومعهم جماعة من الأمراء . ثم برز الأمر إلى الجنود بإطلاق النيران على العدو ، فأطلقت من البر والبحر ، ثم انعطف جماعة من الجنود إلى جنوب البلد واشتدوا فى التضييق عليها شدة بالغة حتى اخذوها عنوة بالسلاح الابيض . فقتل من المصريين رهطا ومن أصحاب التعايشى زهاء مائة وستين وأكثرهم من عربان البقارة ، وجرح منهم كثير وكانت اسراهم نحو ستماية واربعين اسيرا ، واخذوا إثنى عشر حصانا ، واربعة جمال ، ومايتين وعشرين بغلا وحمارا ، وأربعة عشر صندوقا من الذخيرة . وثبت انه باحتلال الجنود المصرية فى (رأس هورى)[١١٤] قد ضاقت السبل على الأمير محمود ، وتعذر عليه شن الغارة حتى من جهة (بربر) لبعد المسافة فى عرض الصحراء . وثبت أن الآبار كلها ملئت .قالوا فالأمير محمد[١١٥] بنزوله وامتناعه فى أجمة (الجلحى) صار فى مركز تحصره العساكر المصرية . قالوا بحيث لانه[١١٦] لا يبعد عن المعسكر أكثر من عشرين فرسخا[١١٧] أو يزيد قليلاً . وأما الأمراء الآخرون وعثمان دقنه ولمومه فالزاد عندهم قليل ، وسائر الدراويش يقتاتوم[١١٨] من البلح والدوم ، وهم ضعاف قد أخد السقم منهم مأخذه ولكن خيولهم جيدة لكثرة المرعى على طول ضفاف العطبرة . فكان لهذه الأنباء وقع حسن فى قلوب الناس . وسير الأمير كتبه الى السردار يهنئه بهذا الفتح ويهنئ جنوده ومقدمى جيشه ويقرئهم جميعا السلام . هذا والأنباء عن احتلال مارشان وحملة فاشوده والامتناع فيها مترادفة . حتى لقد قالوا أن (الخشيم[١١٩]

(١١٤) راس هورى = رأس الهودى .

(١١٥) محمد = محمود .

(١١٦) لأنه = أنه .

(١١٧) الفرسخ يساوى ثلاثة أميال ـ فتكون المسافة بين الأمير محمود والقوات المصرية فى بربر حوالى ٦٠ ميل .

ـ والترهانتس (المكاييل والأوزان الإسلامية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٨١ .

(١١٨) يقتاتوم = يقتاتون .

(١١٩) الخشيم = الختيم موسى ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧٩ .

ولد موسى) عامل ألتعايشى على كردفان كتب إليه يقول أن قد وردت اليه الأنباء الأكيدة من طريق بحر الغزال بأن الفرنسيس قد دخلوا تخومها من جهة الجنوب وأن كبار جند الحمله المصرية كتبوا اليه ــ يعنى الى الخشيم ولد موسى ــ يقولون له ان الحكومة المصرية تمدك بالمال والذخيرة ، ويطلب(١٢٠) منك أن تتقدم الى الجنوب لمقاومة كل أبيض يدخل إلى حدود بحر الغزال من الشق الجنوبى ، وأنت مع ذلك على طاعة مولاك الخليفة . قال (الختيم) وأنهم ـ يعنى مقدمى الحملة ـ قد سلحوا زهاء ستة الاف مقاتل من قبائل كردفان ، وجعلوا لهم اجرا معلوما وأوعزت(١٢١) اليهم بالوقوف فى سبيل الفرنسيس . قيل فلما علم التعايشى بذلك نادى مناديه أن اجتمعوا لسماع خطبة خليفة المهدى . فاجتمع الناس واحتشدوا حول الخليفه فى أم درمان ، فقام وحمد الله وأثنى عليه ثناءاً كثيرا ثم قال (أيها الناس لقد ابتلينا بأهل الغش والإفساد فاندسوا بيننا بالوشاية والسعاية وإلقاء بذور الشقاق والتفريق . هذا سلاطين باشا(١٢٢) ألكافر المارق قد نفث سمومه بين بعض القبايل فانقلبوا على حملة الفرنسيس الذاهبة إلى فشوده ، وقد كنا نرجو الخير فى احتلالها ذلك البلد لتكون قذا(١٢٣) فى أعين الإنجليز . وماكفاه حتى دجج جماعة آخرين من القبايل بالسلاح ، وأعطاهم الشئ الكثير من الذخيرة ليستعينوا بهم على من بزاخم(١٢٤) فى تلك الأرجاء . فتساندوا وتماسكوا بعضكم بعضا ، والله ولى الصابرين) . ثم صلى على النبى وأثنى . قيل فجعل قومه يتساءلون عما هى حملة مارشان ، ومن هم أولئك الفرنسيس الذين يرجو الخليفة من وراء إحتلالهم فشودة خيراً ، وهم مع ذلك لم يعلموا شيئا عن سقوط (شندى) . ولما

---

(١٢٠) ويطلب = وتطلب ــ قراءة ترجيحية .

(١٢١) وأوعزت = وأوعزوا .

(١٢٢) سلاطين باشا = راجع حاشية ١٥٦ ــ من حواشى عام ١٨٩٤ ـ و٤٢٨ من حواشى عام ١٨٩٥ .

(١٢٣) قذا = قذى .

(١٢٤) بزاخم = يزاحم .

كـان رابع أبريل من السنة ، ثالث عـشـر ذى القـعـدة سـارت الحـملة من (رأس هورى)[١٢٥] إلى ابادار[١٢٦] ومنهـا إلى (أم دابيـه) فـاحتلوها ، وعـسكروا فـيـهـا ، وحصنوا مواقفهم تحصينا منيعا ، وجعلوا يناوشون العدو العدد وهولا يجسر على الخروج من مواقفه . وكان عدته إثنى عشر ألفا وعلى رأسه الأمير محمود ، فظلوا على هذا أيامـا . فلمـا كـانت ليلة الشـامن من[١٢٧] برز الأمـر إلى سـائر الجنود بالخـروج ، فـخـرجـوا بسـلاحـهم وآلات حـربهم ، وسـاروا حـتى جنح الظلام قاصدين مـعسكر العدو . فوصلوا إلى مواقفه طلعة الفجر ، فرسم السردار إلى أصحاب المدافع بإصلاء العدو نارا حامية ، فصبوا قنابلهم ، وتقدم العسكر كله إلى مواقف العدو ، وتقدمت الجنود الإنجليزية الى ميسرة العدو وضيقوا عليه ، فالتحم الدراويش ، وأطبقت عليهم الجنود من كل جانب ، فانهزموا شر هزيمة ، وكثرت قتلاهم وجرحاهم وفر من بقى ، وسـقط الامير مـحمود أسيـرا . وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب وديوان الأمير ولورد كرومر ، فكان الفرح شاملا . قالوا وكـانت خـسائر الحملة عظيـمة ، اذ قتل وجرح جماعة من كـبار الضبـاط الانجليز ، ومات عدد من العساكر المصرية والإنجليز ، فقد كان القتال وجها لوجه والعـدو متمـاسك متسـاند كالبنيان المرصوص ، يقـاتل مسـتقتـلا حتى كادن[١٢٨] تفنيه نيران الجنود ، فقد كان معهم أربعة وعشرين مدفعا فى ميمنة الجيش ، وإثنى عشر من طرز مكسـيم موزعة بين الـميمنة والـميـسرة والوسط . فكانت هذه المدافع كلها ترسل نيرانها تباعا على العدو دراكا[١٢٩] .

---

(١٢٥) هورى = هودى .
(١٢٦) أبا دار = رأس عدار .
ـ على محمد بركات ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٨ .
(١٢٧) من = من أبريل .
(١٢٨) كادن = كادت .
(١٢٩) هذه هى معركة (العطبرة) التى وقعت فى الثامن من أبريل ١٨٩٨ ـ وتعتبر هذه المعركة ـ وفقاً لسجلات أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ من أهم المعارك السودانية ـ وقد أوضح السردار كتشنر باشا مجمل هذه المعركة فى برقيته إلى الخديو ـ وهذا بعض مما ذكره (حصل الهجوم على مراكز=

حدثنى صديق من مقدمى العسكر ألذى كان يقاتل فى هذه الوقعة قال(خرجنا من معسكرنا فى ليلة ثامن أبريل ، ومازلنا نسير تحت جنح الظلام والسكون مخيم ، وخطوات الجنود متتابعه ، حتى بلغنا منازل العدو عند الساعة الرابعة صباحا ، فتربصنا قليلا حتى استراحة[١٣٠] الجنود . فلما صارت الساعة السادسة والربع صباحا بدأت كرات المدافع تتفجر على معسكر العدو كله ، فكانت تفتك به فتكا ذريعا ، وإذا بفرسانه قد خرجت من آخر الناحية الشمالية من أجمة كثيفة عند معسكره ، ولكنهم عادوا على الأثر لانصباب نيران المدافع عليهم . وبعد لحظة لطيفة برز الأمر لأصحاب مدافع الحصار بإطلاق نيرانها ، فانهالت قنابلها على المعسكر ، وأشعلت فيه النيران من كل جانب . ومع ذلك فإن الدراويش لم تجاوب . حتى إذا دام إطلاق المدافع عليهم بشدة وعنف مدة نصف ساعة ، مر رصاص بنادقهم يصفر فوق رؤوسنا بضع دقائق ثم كفوا . قال ، وفي الساعة السابعة ونصف بطل إطلاق المدافع ، ونفخ فى البوق بأن تقدموا فتقدمنا . وجعل أصحاب المزمار من الجنود الإنجليزية ينفخون فى مزاميرهم إيذانا بتقدم العساكر للقتال . وفى الوقت ذاته أخذت بقية الجنود

= الأمير محمود المحصنة بنجاح تام ــ وتوضيح ذلك أنى زحفت الليلة الماضية من (أم دابية) فوصلت فى الفجر إلى مسافة ميل واحد من تلك المراكز ، ثم تقدمت إلى مسافة خمسمائة ياردة منها . وعندئذ ابتدأنا فى إطلاق المدافع عليها . وكان إطلاق أول مدفع فى منتصف الساعة السابعة من الصباح . وفى الساعة السابعة وخمس وأربعين دقيقة أخذ الجيش أهبته للقتال واتخذ خطة الهجوم . وكان الجناح الأيسر من الجيش المهاجم مؤلف من ثلاث فرق إنجليزية ــ ثم زحف مجموع الجيش بشدة عظيمة وساق أمامه الدراويش الذين كانوا متحصنين فى الزرائب والإستحكامات إلى جهة النيل . وكانت خسائر الدراويش جسيمة جداً لأنهم ثبتوا فى مواقف الدفاع وأطلقوا النيران حتى وصلنا قريباً من معقلهم . وقد أخذ قائدهم (الأمير محمود) أسيراً . وفى تلك اللحظة إقتفت البطارية الرابعة بمدافع المكسيم أثر الفارين) .

بلغت خسائر قوات الحملة ١١ ضابطاً منهم خمسة من الإنجليز ــ ٥٧ قتيل من الجنود ــ و٣٦٥ جريح . أما خسائر القوات المهدية فكانت ثلاثة آلاف قتيل . وغنم الجيش عشرة مدافع وكمية كبيرة من البنادق والرايات وطبول الحرب والأسلحة البيضاء والماشية .

تمكن عثمان دقنه من الهرب إلى (القضارف) مع عدد من القوات المهدية .

ــ أورطة البنادق الرابعة المشاة ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٧ ــ ٣٨ .

(١٣٠) استراحة = استراحت .

تفتح ثغورا فى زريبة العدو التى كان متحصنا بها ، وبعضهم كان يعتليها بواسطة سلالم من الخشب ، وتبعتهم الجنود الانجليزية فزحف[١٣١] زحفا عجيبا ، وظلوا على هذا ساعة ثم وقفنا حتى وصلت مقدمة العساكر الانجليزية إلى قمة الأكمة التى تجاوز زريبة العدو ، ثم انعطفت على الزريبة بسرعة غريبة واستولت عليها ، فعند ذلك أصلت الدراويش عساكرنا نارا حامية جدا . ولكن رصاصهم كاد[١٣٢] ينطلق من أماكن عالية . فلم يكن قتله فينا عظيما كما كنا نتوقع من مثل هذه النيران الشديدة) قال (وفى اثناء ذلك كانت طائفة من العساكر الإنجليزية تتقدم نحو المعاقل وأمامها طايفة من العساكر السودانية المصرية تمهد الطريق أمامها وتزيل العقبات . ولم يمض على ذلك ساعة حتى تمكن الانجليزوالعساكر السودانية من دخول الزريبة بعد استيلائهم على مشارف الأكمة ، ومهدوا الطريق لبقية الجنود الزاحفة خلفهم صفوفا صفوفا . وقد وجدنا على بعد ثلاثين قدما من الزريبة حواجز منيعة وراءها معاقل ومتاريس ، فهاجمناها مهاجمة هائلة ، فاصابتنا خسائر عظيمة بسبب مهاجمتنا لتلك الحواجز والمتاريس . إذ بقى الدراويش يطلقون عليها[١٣٣] نيرانهم من وراءها إطلاقا شديدا جدا) قال (وكانت مدافع مكسيم تطلق قنابلها تباعا دراكا ، والجنود الإنجليزية والمصرية والسودانية تدخل معسكر الدراويش أفواجا ، فتبدد من لم يقتل من الدراويش ، واركنوا[١٣٤] إلى الفرار ناحية النيل والصحراء الجنوبية ، فتبعتهم الفرسان وجعلت تطاردهم) قال (ومن الغريب أن الجرحاء منهم كاشر[١٣٥] أشد خطراً على عساكرنا من الأصحاء ، فقد كانوا يطلقون

(١٣١) فزحف = فزحفوا .
(١٣٢) كاد = كان .
(١٣٣) عليها = علينا .
(١٣٤) واركنوا = وركنوا .
(١٣٥) كاشر = كانوا .

بنادقهم على عساكرناطلقا حاميا شديدا . فكانت هذه الواقعة من أشد الوقائع وأكبرها . وقد تم لنا النصر فيها ، فغنمنا وأسرنا من الدراويش أربعة الاف مقاتل ، بينهم الأمير (محمود) ، ضبطه جماعة من الفرقة التاسعة السودانية وهو مختفيا تحت عنجريب[١٣٦] . فلما أتوا به إلى حيث مقدمى الجنود فرحنا فرحا عظيما لوقوعه فى قبضه الأسر) قال (وأما خسايرنا فتربو على مايتين مقاتل ، وأكثرهم جرحى ، وبينهم ثمانٍ وستين إنجليزيا معظمهم من فرقة كمرون وسسيفودث [١٣٧] . قال وبعد أن انتهى القتال طاف السردار رابكا[١٣٨] فى حومة الوغى . وكان قد لبث طول النهار معرضا لنيران العدو ، فتلقته طلائع الجنود الإنجليزيه بأصوات التهليل وحيته الجنود المصرية والسودانية) قال (وكان بين الغنائم شئ كثير من الأعلام والحراب وطبول الحرب والذخائر وأشياء أخرى كثيرة جدا . وطير السردار الخبر بذلك إلى الآفاق ، فجاءتنا رسائل التهانى من ديوان الأمير ووزارة الحرب وديار الإنجليز ، وأرسلت ملكة الانجليز كتبها إلى السردار تهنئه بهذا النصر وتهنئ عساكره جمعا) قال (وأصبحنا وقد استقدم السردار الأمير (محمود) وأجلسه فى حضرته وهو بين جماعة من مقدمى الجنود الانجليزيه والمصرية ، وحادثه فقال (محمود) ، إنى أتيت من (شندى) وباشرت أمر القتال فى (العطبرة) كما رسم لى الخليفة ، وقد قدر الله بوقوعى فى قبضتك أيها السردار . فلاطفه السردار وخفف عنه) قال (ورأيت الرجل كبير

---

(١٣٦) عنجريب = أى سرير .
ـ اللواء إبراهيم باشا فوزى (السودان بين يدى غردون وكتشنر) ـ الجزء الأول ـ المؤيد ـ القاهرة ـ ١٣١٩هـ ـ مواضع متفرقه .

(١٣٧) سسيفودث = يحتمل أن تكون التسمية هى سى ورث Seaworth إذ أن معناها قادر على مواجهة العواصف ـ أما ما ورد فى النص فلا يحمل أى معنى ـ وقد جرت العادة على تسمية الفرق العسكرية بمسميات تحمل معنى الشجاعة والبطولة والإقدام .

(١٣٨) رابكاً = راكباً .

الجسم خليع[١٣٩] حسن الملامح ، ولو[١٤٠] لم يكن من دم عربى صرف ، وهو مهيب المنظر وحملته[١٤١] تدل على أنه ليس من العامة والسوقة ، ومخايل الذكاء وثبات الجنان وصحة العزم بادية ظاهرة على محياه . ومرفعته[١٤٢] ليست كمرفعة[١٤٣] سائر الدراويش . ووجد بين اثاثه الذى غنمه عساكرنا ستة رؤوس معلقة على أوتاد ، وجثة رجل ممثل بها تمثيلا فظيعا . وبعد هذا كله عادن[١٤٤] الجنود الإنجليزيه إلى معسكراتها الصيفية ، ونقلوا المرضى والجرحى الى قلعة (عطبرة) حيث أنزلوهم فى النيل على النقالات الكبيرة ، ومن[١٤٥] ساوروا بهم إلى (جينانتى) التى هى مركز المستشفى . وجاءت من ملكة الإنجليز إلى الأمير كتب التهانى بفوز الجنود المصرية ودحرهم للعدو ، فرد عليها ردا جميلا جدا . وارسل السردار إلى وزارة الحرب وديوان الأمارة ولورد كرومر يقول أن من أفظع ماشوهد فى زريبة العدو عند احتلالها هو منظر المتاريس وحفر البنادق . فقد علم منها أن رجال قبيلة البقاده[١٤٦] كانوا يقيدون بالسلاسل كل الرجال الذين كانوا يظهرون نفورا أو فتورا فى القتال ، ويشدونهم إلى اوتاد وأعمدة .

---

(١٣٩) خليع = استبعدت اللكلمة .

(١٤٠) ولو = وإن ــ قراءة إجتهادية .

(١٤١) وحملته = لعل المقصود بالكلمة (المحمل) بوزن (المرجل) علاقة السيف أى السير الذى يتقلده المتقلد .

ــ مختار الصحاح ــ ص ٦٥ .

(١٤٢) ومرفعته = ومرقعته ــ قراءة ترجيحية ــ ويقصد بها الجبة المرقعة التى اشتهر بها أنصار محمد أحمد المهدى (الدراويش) ــ وكان لباس الدراويش بصفة عامة هو الجبة المرقعة والسبحة والعكاز .

ــ جورجى زيدان (تاريخ مصر الحديث) ج ٢ ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٨١ .

(١٤٣) كمرفعة = كمرقعة .

(١٤٤) عادن = عادت .

(١٤٥) ومن = ومنها .

(١٤٦) البقادة = البقاره ــ وهى القبيلة التى تضم أغلب رجال المهدية .

ــ واجع حاشية ٢٧٣ من حواشى عام ١٨٩٦ .

فلما تم النصر للعساكر والأجناد فرح أهلها يربر[١٤٧] فرحا لا يوصف ، وزينوا الطرق والبيوت بالأعلام المختلفة وسعف النخيل . واحتشد الناس حول المدينة ، واحتشدوا جموعا على أسطحة البيوت وخلف مواقف الحاميات المحازية للشوارع والحارات . فلما كان ثانى عشر أبريل وصل لواء الكولونيل (مكدونالد) فى نحو الساعة السابعة صباحا ، ووصل فى الوقت نفسه السردار والجنرال هنتر واركان الحرب قادمين من (السالم) . فاستقبلهم الفرسان وأطلقت لهم المدافع الراكبة واحد وعشرين مدفعا . وكان وراء السردار وأركان حربه الأمير(محمد)[١٤٨] يحف به عدد عديد من أسرى الدراويش والغنائم . وظل السردار سائرا مع أركان حربه حتى بلغوا وسط البلد ، فوقف فى رحبة عالية فوقها مظلة ،ومرت امامه الجنود مرور الإستعراض ، والموسيقى تصدح بألحانها والناس يهتفون هتاف الفرح . فلما استوى بالأمير(محمود) المقام دخل عليه سلاطين باشا مسلما فكانت مقابلة الإثنين غريبة فى بابها . قالوا وذكره سلاطين باجتماعهما السابق وبشئ من الحوادث ، فقال له (محمود) لعلك تتوقع أن تصل إلى الخرطوم فى القريب العاجل . فقال سلاطين أوأ نت من شك فى ذلك؟ فقال الله يحكم بيننا . وانحدر السردار إلى أصوان ومنها إلى القاهرة ، فاستقبله على المحطة سائر ضباط وقائد جيش الإحتلال ، وكبير تشريفات ديوان الأمير والوزراء والكبراء ،وكل ذى حيثية ومقام وهنأوه جميعا ، وبالغوا فى إطرائه والثناء عليه . فلبث فى القاهرة أياما إحتجب فيها عن الناس إلا جماعة الإنجليز ، ثم برح القاهرة إلى الاسكندرية ومنها إلى ديار الانجليز ، قالوا ترويحا للنفس من عباء الحرب والكروب وعظائم الخطوب .

(١٤٧) أهلها يربد = أهل بربر ـ قراءة ترجيحية .

(١٤٨) محمد = محمود .

وجعل أهل التفكير منذ اليوم يتساءلون عما سيكون نصيب السودان من جماعة الإنجليز ، بعد هذا الفتح الدال على تضعضع حال الخليفة عبد الله وذهاب ريحه . فهب جماعة من أصحاب الصحف يتكهنون بانباء السوء ، ويلصقون بمستقبل تلك البلاد كل شر مستطير ، حتى لقد قالوا أنها لن تفتح الإ باسم الانجليز ، لأنهم لم يقاتلوا أصحاب المهدية إلا ليخضعوهم لسلطنة الإنجليز . وتشاءموا وتطيروا وأخذتهم الظنون من كل جانب . وظلوا على هذا أياما بعد ذهاب السردار إلى ديار الإنجليز . وقد زاد الطين بلة ماقالته صحف الإنجليز من آيات الإطراء والمدح للعساكر الذين جاهدوا فى حفظ كرامة رايتهم الإنجليزيه التى ستخفق يوما على ربوع السودان . فكان لهذا الكلام أثرا رديئا ، وجعل الناس يتحدثون به ويتوقعون من ورائه أمرا خطيرا .

حدثنى عظيم ممن كان له المقام الأول فى أرض السود على عهد الخديو إسماعيل قال (إعلم أن كل عمل يعمله جماعة الإنجليز فى السودان شرقا وجنوبا إنما هو لسلخ السودان عن مصر والحيلولة بين الصقعين . فقد صار من الثابت المقرر عندهم عجز الإمارة المصرية عن أن تمد يدها إلى استرجاع شئ مما اضاعته من سودانها شرقا وجنوبا . انظر مثلا ان كسلا لو لم ترجع إلى مصر بعد ترك الإيطاليان إياها لما استطاع الإنجليز أن يرفعوا رايتهم عليها ، فكذلك السودان لو لم يفتح ظاهرا بدعوى إسترجاعه إلى الإمارة المصرية لما تسنى للمحتلين ابتلاعه ، وفى جواره دول تزاحم . ومن ذا الذى يضمن لنا أن أولئك الإنجليز لم يتخذوا إسم مصر ورايتها تعوزيتين[١٤٩] لوقاية السودان من الدول المناظرة ، وكلنا يعلم حالهم . إنهم لن[١٥٠] يتعففون عن ملك الناس وأموالهم كما يدل ذلك[١٥١] تاريخهم ، وإنما الحقيقة التى لا شبهة فيها والتى

(١٤٩) تعوزيتين = ذريعة ــ قراءة ترجيحية .
(١٥٠) لن = لا .
(١٥١) ذلك = على ذلك ــ قراءة ترجيحية .

يعترفها[١٥٢] القوم فى سرهم وجهرهم ، بل من الخطة التى يجرون عليها فى كل بلد من بلدان الدنيا يقع تحت مخالبها ، أن هؤلاء القوم شديدو الدهاء طاويلى الاناءه[١٥٣] بعيدى االآمال ، منتهين للغرض لا يهيمهم[١٥٤] العدل من أجل العدل ، ولا الحلم سرورا بالحلم ، ولا الإنسانية حبا بالإنسانية ، بل هم يتخذون كل ذلك أدوات لفوزهم بما يرمونه[١٥٥] ، فإن لم يمكنهم فهم لا يأنفون من المكر والخديعة والقسوة والظلم) قال (وعندنا فى مصر من ذلك شواهد ، فماذا ياترى يمنع أن يكون من شواهد المستقبل أخذها السودان إذا أحرجتها الدول على الخروج من مصر ، أو رأت لها مصلحة عظيمة بذلك) . لم[١٥٦] أطرق لحظة ورفع رأسه وقال (اللهم لاتكن قاضيا عدلا على أولئك الأمم الذين جنوا على أنفسهم بغفلتهم ، جل[١٥٧] كن لطيفا بالذين قوى عليهم الزمان والمكان والحدثان ، ولا تجعلهم بحقك طعمة للذين لم تشبعهم الدنيا ومافيها) أ .هـ

قالوا ووصل الخبر الى التعايشى بسقوط (بربر) وأسر الأمير (محمود) ، وتمزيق شمل من بقى من جموعه ، فحزن حزنا عظيما ، واحتجب عن الناس أياما لايرى أحدا حتى من المقربين اليه . واختلط عليه الحال ، فكان إذا أبرم أمرا فى نهاره عاد فنقضه فى ليله ، واستولى اليأس والقنوط على من هم معه من الدراويش ، وتزعزعت سلطته من أساسها ، فى حين لم تتعد جيوش الحملة شندى على النيل (ودخيله)[١٥٨] على العطبرة . وقد صارت الخرطوم منذ اعواما[١٥٩] أطلالا دارسة ، وغدت أم درمان نفسها سهلا لدخول العساكر

---

(١٥٢) يعترفها = يعرفها .
(١٥٣) طاويلى الإناءة = طويلو الأناة .
(١٥٤) يهيمهم = يهمهم ــ قراءة ترجيحية .
(١٥٥) يرمونه = يرومونه .
(١٥٦) لم = ثم .
(١٥٧) جل = بل .
(١٥٨) ودخيله = ونخيله .
ــ انظر الخريطة ملحق (٨) .
(١٥٩) أعواماً = أعوام .

المـصـرية ، وظهـرت على قـبـائل الصـحـراء عـلات[١٦٠] الضـجـر والقلق ، وشادات[١٦١] الميل إلى موالاة الحكومة وشق عصا طاعة الخليفة .

قالوا وقـد كـان [١٦٢] عثمـان دقنة يقع أسيـرا فى يد الجنود المصـرية يوم سقوط(شندى) ، لولا زوغانه وتلصصه . فإنه لما حمى وطيس القتال ، ورأى بعينه زحف الجنود على مواقف الدراويش من كل صوب ، ركب فى قلة من مريديه وانحدر بهم الى النيل ، فركبوا زورقا عبر بهم الى الضفة الثانية . فكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء ، حتى ظنوا أنه تسرب إلى (طوكر) أو (كسلا) أو مجاهل السودان الشرقى . وكان السردار يود لو أنه قبض عليه وأراح العباد من مخاديقة[١٦٣] وهناته الكبيرات . وعلى ذكر كسلا التى لم تطق جماعة الإيطاليان الصبر على حراستها حتى تنازلت عنها إلى الإمارة المصرية ، أذكر هنا ما يحضرنى من أحوالها بعد دخول العساكر المصرية فيها . فهى بلد شديد الحر تشبه(طوكر) و(سواكن) ، ولكن هواها جاف قليل الرطوبة ، وبيوتها من القش المبنى على عهد الثورة المهدوية وقبل الثورة ، وفيه[١٦٤] ثكنة للجنود المصرية أنشئت قبل الثورة ، ووابور حليج أنشأه الخديوى إسماعيل باشا ، وقد حولوه الآن إلى استحكامات ومعاقل للجيش . وليس فى هذا البلد من السكان غير بعض القبايل التى كانت تسكنها قديما ، وهى (الحلنقة) (والهدندوة) (وبنو عامر) (والشكريه) (والباريه) وغيرهم . أما المأكل فأثمانه فادحة جدا حتى أن بيضة الدجاجه الواحدة يزيد ثمنها عن القرش الصاغ ، والقوة القائمة على حراستها الأن هى الأورطة التاسعة عشر المصرية وجماعة من المرتزقة يقال لهم (البندة) يقودهم مشائخ القبائل . وعلى رأس

(١٦٠) علات = علامات .
(١٦١) وشادات = وإشارات .
(١٦٢) كان = كاد .
(١٦٣) مخاديقه = مخادعاته ـ قراءة إجتهادية .
(١٦٤) وفيه = وفيها .

أولئك الجنود ضابط من الإنجليز وآخر من السود . وهؤلاء المرتزقة هم قبيلة بنى عامر ، مع فريق من الأحباش والسودانيين الذين كانوا عسكرا للحكومة المصرية قبل ثورة مدعى المهدوية ، ومن قبايل القادين والصومال والبادية والحباب . وأسلحتهم إيطالية وهى جيدة ، وهم يقبضون جماجيهم(١٦٥) شهريا ، ومنها يبتاعون حوائجهم من مأكل ومشرب وملبس . وهم قديرون على المشى صبورون على المشاق والمتاعب وشظف العيش . هذا حال كسلا إلى يومنا الذى نحن فيه ، وربما تبدلت أحوالها ، فإن الأيام قلب والليالى حبالى . وقد أمنت الطرق من كسلا الى بربر لا خطر فيها ولا خوف على أبناء سبيلها ، فجعل السيادة(١٦٦) ينتقلون من جهة إلى أخرى ، وراجت أسباب التجارة وتبادل الحاصلات ، واهتموا بمد الأسلاك البرقية بين البلدين ، ففرح بذلك أهلها فرحا عظيما ، وقد تمكنوا من إيصال السكة الحديد السودانية إلى حد مركز (ابادية) ثم الى (بربر) .

وحدث فى مساء تاسع مايو من السنة ، وثامن عشر ذى الحجة أن اجتمع فى (النادى الخديوى) القريب من البنك العقارى الأمير (فؤاد) عم الأمير الكبير ، والأمير (أحمد سيف الدين) إبن الأمير (إبراهيم باشا) إبن الأمير (أحمد باشا) الكبير . وكان بين الأمير (فؤاد) والأمير (أحمد أحمد(١٦٧) سيف الدين) نفور ومغاضبة كبيرة لأسباب عائلية . فاعتدى (أحمد سيف الدين) على الأمير (فؤاد) بالقول ، ثم بالشتم والسباب وفحش القول ، وأخرج مسدسا من جيبه وأطلق عليه ثلاث رصاصات الواحدة فى كم قميصه ، والثانية فى فخذه ، والثالثة فى أسفل بطنه تحت الكبد ، وانتهت إلى مادون القلب . فسقط

---

(١٦٥) جماجيهم = جماكيهم ـ أى رواتبهم .
(١٦٦) السيادة = السيارة ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٧) أحمد أحمد = أحمد ـ والمقصود هو الأمير أحمد سيف الدين إبن الأمير إبراهيم أحمد بن الأمير أحمد رفعت إبن إبراهيم باشا إبن محمد على .
ـ راجع المصور ١٩٣٧/٧/٨ ـ مرجع سبق ذكره .

الأمير فؤاد يتخبط فى دمه ، وخرج سيف الدين من باب النادى مسرعا يحاول الفرار . فقبض[١٦٨] نفر من أصحاب الشحنة ، وسلموه إلى مغفر عابدين فسجن فيه . وشاع خبر ذلك ، فحضر محافظ المدينة وجماعة الأطباء والجراحين ، وحضرت والدة الأمير فواد إلى النادى وترامت على ولدها باكية . فنقلوه إلى إحدى غرف النادى ، ووضعوه على سرير أعدوه . واجتمع حوله الأطباء والجراحين ، وجعلوا يبحثون جراحته ، حتى اهتدوا إلى موضع الرصاصات وأخذوا يخرجونها . وأصبحوا وقد أخذوا فى استنطاق سيف الدين . فقال أنه خرج فى عصر أمس حاملا لمسدسه ، فذهب الى دار خطيبته وأودع لدى أحد الخدم كتابا منه اليها ، ثم ركب عربته وسار قليلا .ثم فكر أن إيداع ذلك الكتاب لدى الخادم ليس بصواب ، فعاد واسترده ، وذهب ليودع النيل . وبعد ذلك قصد صانع أحذية فى المدينة . وفى خلال الطريق خطر له أن لا حاجة به إلى لقاء الرجل فى تلك الساعة ، فسير مركبته يقصد باعة الحلوى ، ولكن خطر له أيضا أنه لا حاجة به إلى ذلك ، فسار إلى النادى الخديوى ، ووصل اليه فى الساعة السابعة والدقيقة عشرين ، فسأل البواب عما إذا كان الأمير فواد هناك ، فقال أنه فوق . فصعد إلى الغرفة العليا ،وكان فواد إذ ذاك يلعب البلياردو مع جماعة لا يعرفهم ، فلما رأى سيف الدين قطب وجهه . فقال له ياأمير خذ حذرك فقد أتيت لأنتقم منك الساعة لإساءتك معاملة أختى[١٦٩] ، وهى حليلتك . وأخرج للحال مسدسه وأطلقه عليه . قال وأطلقت على[١٧٠] الرصاصة الأولى فتوارى وراء عبانى باشا ، وزير ديوان الحرب وكان هناك . قال (ولما رأى الباشا أنى سأكرر إطلاق النار وربما أصابته قذيفة ، تخلى عن الأمير فؤاد ،

(١٦٨) فقبض = فقبض عليه .

(١٦٩) المقصود هنا الأميرة شويكار شقيقة الجانى ، وكانت زوجة للأمير (السلطان والملك فيما بعد) أحمد فؤاد قبل زواجه بنازلى كريمة عبد الرحيم صبرى باشا ــ وقد أنجبت له (فوقية) فى السادس من أكتوبر عام ١٨٩٧ .
ــ المصور ١٩٣٧/٧/٨ ــ مرجع سبق ذكره .

(١٧٠) على = عليه .

فأطلق سيف الدين طلقتين أخريين على الأمير فواد فنفذا فيه) . قال (وهممت أن أخرج فوجدت الباب مقفلا ، ولما فتح قبض على أحد رجاء[١٧١] الشرطة . فقلت دعنى فإنى ذاهب معك الى حيث تريد ، فأتى بى الى هذا المكان) أ .هـ أقول وقد أخبرنى من شهد الحادث أنه لما قبض الشرطى عليه هم بإطلاق مسدسه للتخلص منه . وكان قد حضر أحد الجنود الإنجليزية ، أحد غفر الدار التى يسكنها الجنرال جرانفل باشا قائد جيش الإحتلال ، فصوب الى الأمير سيف الدين بندقيته تحذيرا له من محاولة الفرار ، وارتكاب جنايات أخرى . وعلى هذه الصورة سيق سيف الدين إلى المغفر .

وبذل جماعة الجراحين جهدا عظيما فى العناية بجراحة الأمير حتى ظهرت علامات الفلاح ، فقرروا بقائه فى النادى . وأصبحوا وقد عاده الجراحون . قالوا ومن العجيب أن القاتل لم تكن لتظهر عليه آثار الجزع ، وكان صوته لا يترجرج ، وربما بالغ فى المظاهرة بعدم الإكتراث ، فكان يخاشن الذى[١٧٢] يخاطبوه . وجاء[١٧٣] كتب الأمير من مصيفه بالإسكندرية بالاستعلام عن حالة الجريح . وجاء الأمير حسين[١٧٤] باشا والأمير ابراهيم باشا[١٧٥] أخوى الجريح ، فحضرا مشاورة الجراحين . وكذلك حضر إلى النادى كثير من نساء البيت العلوى ، وبعضهن أقمن مع والدته يخففن عليها مصابها . وظهر من التحقيق ايضا أن سيف الدين كان يريد قتل عمه الأمير أحمد باشا كمال[١٧٦] والأمير فواد ، لطلب الأمير أحمد الحجر عليه والقوامة على أرزاقه .

---

(١٧١) رجاء = رجال .
(١٧٢) الذى = الذين .
(١٧٣) وجاء = وجاءت .
(١٧٤) المقصود الأمير حسين كامل سلطان مصر (١٩١٤ ـ ١٩١٧) ـ المصور ١٩٣٧/٧/٨ ـ مرجع سبق ذكره .
(١٧٥) المقصود الأمير إبراهيم حلمى أحد أبناء الخديو إسماعيل .
ـ المصور ١٩٣٧/٧/٨ ـ مرجع سبق ذكره .
(١٧٦) أحمد باشا كمال إبن الأمير أحمد رفعت إبن إبراهيم باشا إبن محمد على .
ـ المرجع السابق .

وسألوا شهود الحال الذين كانوا ساعتئذ جلوسا وقياما بقاعة النادى التى ضرب فيها الأمير فواد ، فشهدوا بان سيف الدين جاء الى النادى عامدا متعمداقتل الأمير فؤاد . وأصبح سيف الدين وقد زالت عنه تلك الغلظة والخشونه ، وظهر عليه الإضطراب وتولاه الوجل والذعر . فكان إذا سئل تلجلج واضطرب حتى لقد قال أحد(١٧٧) سائليه (إنى اظهر من الجبن شجاعة ، ومن الضعف عزيمة ، ولكنى على خور شديد فى العزيمة) . ومن العجب أنه كتب كتابا الى خطيبته إبنة جلال باشا يسألها فيه أن ترسل اليه منديلا يتعزى به ، ووعد أحد جند السجن بعشرة جنيهات أن هوأوصل الكتاب إليها ، فأخذه الجندى وسلمه إلى محافظ المدينة ، وهذا سلمه إلى المدعى العمومي . فلما كان تاسع عشر مايو من السنة ، ثامن عشرى ذى الحجة نقلوا الأمير فواد من غرفة النادى الى قصر الإنشاء(١٧٨) ،وقد زال عنه الخطر واتجهت صحته للعافية . فاكتفى المحققون بما حققوه ، وأحالوا أوراقهم على محكمة الجنايات لتحكم على سيف الدين بالعقوبات المنصوص عنها فى المواد ٨و١١و٢٠٨ من قانون العقوبات . وشاع

(١٧٧) أحد = لأحد .

(١٧٨) أنشأ إسماعيل فى (منطقة الإنشاء) بباب اللوق ثلاثة قصور تمت كلها فى فبراير ١٨٧٤ ـ كان أحدها هو سراى منصور باشا التى أنشأها لإبنته (توحيدة) زوجة منصور باشا ـ طلت الواجهة الشمالية منها على شارع الطرقة الغربية (إسماعيل أباظة الآن) ـ وطلت الواجهة الشرقية على شارع منصور ـ والغربية على شارع الفلكى ـ أما الجنوبية فكانت على شارع الإنشاء المعروف الآن بشارع صفية زغلول ـ وقد شغلت وزارة الحربية هذا القصر وأعيد بنائه عام ١٩٠٠ ، ثم شغلته وزارة الإنتاج الحربى الآن . كان القصر الثانى هو سراى الأميرة فائقة إبنة إسماعيل بالتبنى وزوجة مصطفى إبن إسماعيل صديق باشا ـ كان له واجهتان رئيسيتان طلت الشمالية منهما على شارع الطرقة الغربية (إسماعيل أباظة) ـ أما الشرقية فكانت تطل على شارع الفلكى . أما القصر الثالث فكان سراى الأميرة جميلة إبنة إسماعيل وزوجة محرم باشا إبن شاهين باشا كنج ناظر الجهادية ـ وكان للسراى ثلاث واجهات رئيسية تطل الشمالية منها على شارع الطرقة الغربية (إسماعيل أباظة باشا) ـ والغربية على شارع القصر العينى ـ والجنوبية على شارع الإنشاء (صفية زغلول الآن) ـ وقد شغل هذا القصر المدرسة السعيدية ثم مدرسة محمد على للبنات ـ فوزارة التجارة والصناعة ، فوزارة الإسكان والتعمير ، ووزارة البحث العلمى ، ووزارة التموين .

ـ محمد حسام الدين إسماعيل (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩) رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ، سوهاج ـ ١٩٩٤ ـ ص ٣١١ ـ ٣١٢ .

خبر ذلك ، وتحدث الناس به كثيرا . قالوا وفرحت والدة الأمير فؤاد بخبر معاقبة سيف الدين . وعلم سيف الدين بإحالة اوراق جنايته على تلك المحكمة ، فطلب من المدعى العمومى أن يتولى الدفاع عنه إثنين من المحاميين أحدهما مصرى والثانى أجنبى . وأرسل الأمير من مصيفه بالإسكندرية رئيس ديوان تشريفاته إلى القاهرة ليأتى بخبر ماجرى فى التحقيق تفصيلا . فلبث بها أيام ، وعاد فأخبر الأمير بما جرى . قيل فغضب الأمير ورسم إلى وزير الحقانيه بإعطاء العدالة حقها . وتعافى الأمير فواد وتحسنت حاله .فأرسل يطلب المأذون الشرعى ليسجل طلاق زوجته أخت سيف الدين ، فطلقها ودفع متأخر صداقها ونفقة الأشهر الثلاثة الشرعية . وتحددت جلسة محاكمة سيف الدين والحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة . وتقدم (بورلى) المحامى الأجنبى أحد الاثنين المنتدبين للدفاع عنه ، وطلب من ذوى الشان إجازته بالدفاع بلغة الفرنسيس التى هى لغته ، فأبوا عليه ذلك ، فبالغ فى السعى وأكثر من الوسطاء لدى الهيئة الحاكمة . قيل واستعان بلورد كرومر فلم يعينه ، فانفشل وكاد يتخلى عن الدفاع ، وحجته فى ذلك واهية ضئيلة ، لأنه إذا دخلت الإستثناءات فى كل قضيه كما يرام إدخالها فى هذه القضية ، فيوما يجئ فرنسوى ويتكلم بالإفرنسية ، وغدا إنجليزى يرطن بالإنجليزية ، وبعده إيطالى بالإيطالية ، وكل هذا ما لا يسهل التسامح فيه حال كون لغة البلاد ولغة محاكمها وقضاتها إنما هى العربية . وظهرت فى هذه الأثناء على سيف الدين علامات الذعر والإضطراب ، فكان كثير القلق كثير الوجل حزينا كثير الكلام بلا معنى ، يخلط فى حكاياته خلطا دل على أنه مصاب بمس فى عقله . فكان يقضى ليله متجولا فى غرفته ، فإذا(١٧٩) أركن ظهره إلى الجدار ، ثم يعود إلى ما كان عليه .

---

(١٧٩) فإذا = فإذا تعب ـ إضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

فلما كان يوم سابع عشرى مايو من السنة ، وثامن صفر الخير سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف هجرية ، أوتى[١٨٠] به أمام محكمة الجنايات وهو فى ملابسه الإعتيادية وفى وسط إثنين من أصحاب الشرطة . فلما صار فى موقف المجرمين سأله رئيس الجلسه هل كان ارتكابك لجنايتك عامدا متعمدا ، فأجاب بصوت خافت لا لا . فتقدم عندك[١٨١] ترجمان (بورلى بك) المدافع عن المتهم وطلب من هيئة المحكمة أن تأذن الى (بورلى) بالدفاع عن موكله باللغة الإفرنسية ، وأن يرفع لها بعد ذلك مذكرة بالعربية تتضمن أوجه ذلك الدفاع ، فلم تأذن له المحكمة بذلك وأخذت تسمع أقوال الشهود ، وكلهم شهد بجناية سيف الدين وتعمده القتل . وظهر فى غضون المناقشة بين المدعى العمومى ، وشهور[١٨٢] النفى والمحكمة[١٨٣] أن أحد المدافعين عن سيف الدين قد أغرى بعضهم بالرشاوى على أداء الشهادة لمصلحة المتهم ، وأنه نفحهم بألف جنيه ذهبا أجرا . فكان لهذا الفعل وقعا رديئا جدا بين السامعين ، وكلهم شخصوا الى ذلك المحامى الذى فعل هذه الفعلة الشنعاء . وبعد دفاعا[١٨٤] طويل إستغرق يومين كاملين ، وأخذ ورد بين هيئة المحكمة والمدعى العمومى والمحاماة ، حكمت المحكمة بحبس سيف الدين سبع سنين ، وإلزامه بدفع ألف وثنمائة[١٨٥] خمسة وأربعين جنيها عوضا ودينا ، ورفض طلب الحجر عليه . فلما سمع سيف الدين حكم القضاء أطرق وجعل يدمدم بالتركية والعربية . فتقدم إليه نفر من أصحاب الشرطة وأخذوه إلى غرفة السجن . وكان بعض أتباعه يسير خلفه باكيا . وكان لهذا الحكم وقعا حسنا للغاية . وكان هذا الحكم نهائيا ، فنقلوا الأمير من سجن المحافظة الى السجن

---

(١٨٠) أوتى = أتى .
(١٨١) عندك = عندئذ .
(١٨٢) وشهور = وشهود .
(١٨٣) والمحكمة = بالمحكمة .
(١٨٤) دفاعاً = دفاع .
(١٨٥) وثنمائة = وثمانمائة .

العام وهو فى حالة من الذعر والخلط فى القول . فطلبوا من ديوان الإمارة العفو عنه والإكتفاء بالمدة التى لبثها مسجونا ، فلم يعفو الأمير وأصر على عدم العفو عنه مع كثرة الوسطاء وسعاة الخير . وظل الأمر على هذا حتى كثر خلطه وكبر هذيانه ، وبانت عليه علامات الجنون المطبق . واستعانوا بلورد كرومر على إخراجه من السجن ووضعه فى إحدى المستشفيات الخاصة بالمجانين . فكلم لورد كرومر الأمير فى ذلك ، وأشار إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا بتلبية هذا الطلب ، فأجابه الى ذلك . فبرز الامر من قصر الإمارة بخروجه وإرساله إلى حيث يشاءون . فسيروا به مع نفر من الخدم إلى أحد المستشفيات بعاصمة الانكليز وهو مقيم بها إلى يومنا الذى نحن فيه .

وعاد الأرجاف بزحف الرأس (ماكونين) مقدم الجيوش الحبشية على رأس فريق من جيشه إلى النيل الأعلى لاحتلال المواقع التى وقع الإتفاق بين الحبشان وجماعة الإنجليز على إحتلالها بحق الامتلاك[١٨٦] . وجاء الخبر بذلك الى وزارة الحرب وقصر الإمارة . قيل فلم يعجب صاحب السياسة الإنجليزية ، لانه لم يكن ينتظر وقوعه فى هذه الآونة التى تمكنت فيها حملة مرشان الفرنسوى من إحتلال فشوده واطلاق يد الفرنسيس فى بحر الغزال . وظهرت صحف الفرنسيس محبذة لعمل الحبشان راضية عنه ، مهددة لسياسة الإنجليز بما سيكون من وراء ذلك الإتفاق ، وزحف الحبشان على تلك الانحاء . فظهرت الحركة فى وزارة الحرب وفى منازل الجند ، وجاءت الأخبار تباعا من ديار الإنجليز بتجهيز طائفة من عسكرهم بالذخيرة ومعدات القتال وإرسالهم على ظهر النقالات والشوانى إلى الاسكندرية ، مددا إلى أصحاب

(١٨٦) كان هذا الاتفاق الذى عقد فى المدة ٢٨ أبريل ـ ١٤ مايو ١٨٩٧ فيما عرف ببعثة (رينيل رود) ـ قد نص على تخطيط الحدود الأثيوبية مع السودان بين خطى عرض ١٠ و١٥ شمالاً بما لايجاوز منطقة النفوذ الإيطالية وفق إتفاق ١٥أبريل١٨٩١ ـ وامتداد الحدود الأثيوبية حتى النيل الأزرق فيما بين (كركوج) و(فامكة) ـ راجع حاشية ٢٥٧ من حواشى عام ١٨٩٥ .

المرابط فى السودان . وتفشى خبر ذلك حتى قالوا أن فتح أم درمان والخرطوم منوى عليه فى شهر أكتوبر القادم ، والزحف إلى بحر الغزال وطرد جماعة الفرنسيس أمر لابد منه .وظهرت نوايا كبار الإنجليز بوزارة الحرب ، فجعلوا يذيعون أن المال متوفر عندهم ، وأن النفقة على هذا الزحف متيسرة جدا ، والذخيرة والمؤن وكلما[١٨٧] يلزم موجود بكثرة . وأن كسر شوكة أصحاب المهدوية فى هذا العام من آيات السداد والحكمة ، وأن تركيب الثلاث بواخر الجديدة الجارى العمل فيه بنقطة (العبيدية) قارب على الإنتهاء .وقد سميت أحداهم الملك ، والثانيه السلطان ، والثالثة الشيخ . قالوا وهى أكبر جميع السفائن المدفعية ، فمتى انضمت إلى بقية السفن صار الأسطول هناك تسعة سفن . ووصلت طائفة من الجنود المصرية من سواكن ، فلم تلبث القاهرة[١٨٨] إلا أياما قلائل ثم سيروهم إلى التخوم ومعهم الشيء الكثير من الذخيرة والمؤن والأكسية والعقاقير والأدواء للمرضى ، فقد تفشت الحميات فى سائر مرابط الجنود ولا سيما الإنجليزية وفعلها فيهم شديدا ، ولكنه مأمون العاقبة . وقد جاءت الأنباء مبشرة بإخلاء جماعة الدراويش لمركز (شيلوقه[١٨٩]) الذى هو أكبر معاقلهم وأمنعها ، وأنهم تراجعوا إلى مركز أخر يبعد زهاء أربعين ميلا من أم درمان . فتأمل .

أقول وقد تفشى القول بأن عميد الإحتلال لورد كرومر والسردار قد طلبا فى هذه الآونة على يدى السير بلمر المستشار المالى ، أن يوافق الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعة الوزراء على بيع السكك الحديد السودانية ، إلى جماعة من الماليين الإنجليز كانوا قد تقدموا إلى لورد كرومر فى طلب ذلك . فتحدث

(١٨٧) وكلما = وكل ما .
(١٨٨) القاهرة = بالقاهرة .
(١٨٩) شيلوقه = خانق سبلوقه .
- على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره - ص ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٠ .

الناس فى هذا الأمر كثيرا ، وتناقله أصحاب الصحف المحلية وعابوه ، وأنحوا على الرئيس وجماعة الوزراء باللائمة ، ورموهم بالوهن وضعف العزيمة . وقالوا أن الرئيس لن يقدر على معاداة لورد كرومر ولا مخاشنة المستشار المالى ، ولا الخروج عن دائرة إرادته المحدودة .

وبسطوا الرجاء إلى الأمير بألا يستسلم إلى إرهاصات إصحاب الإحتلال ، ولا يتحمل تبعة هذا الأمر العسير . وكأن هزة الرجاء قد أخذت الامير ، فكلم الرئيس فى ذلك . قيل وخاشنه وعاب عليه رأيه . فكثر غدو الرئيس ورواحه إلى قصر الإمارة ومقر لورد كرومر . وتوترت العلائق بين الفريقين ، واختلط على الرئيس وجماعة الوزراء الحال ، واختلفوا فى مصير هذه المحنة ، وتفرقت آراؤهم فيما(١٩٠) صائر من الامير ، فكانوا يوما معه ويوما عليه ، والأمير لا يتساهل ولا يلين . وامتنع من الحضور فى جلسة مجلس الوزراء أياما ، وجعل يتغيب عن القاهرة أياما حتى كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة تضطرم . قلت . ولا خفى أن عادة أصحاب الرياسات وديوان أهل السياسات فى بلاد الأمم الدستوية(١٩١) ، هى أنه إذا حدث امر من الأمور الهامة عندهم التى تحتاج إلى رأى وحسن تدبير ، لزم على أهل الحل والعقد أن يناقشوا انفسهم أولا ، ثم ملكهم أو أميرهم فى ذلك ، وبعد أن يوفوا ذلك الأمر حقه من الأخذ والرد ،فإذا اتفقوا عليه انفذوه ، وإن اختلفوا تركوه ، وإن أصر جماعة الوزراء عليه إعتقادا أنه مفيد صالح ، او وأقع(١٩٢) لضرر محتم ولم يوافقهم ملكهم أو أميرهم إعتزلوا مناصبهم ، فيتولاها من هم أقدر على إذهاب الفرقة وإصلاح ما فسد . وأما فى هذه البلاد فإذا وقع الخلاف بين الأمير وجماعة الوزراء ، قام أصحاب الإحتلال وأيدوا إحداهما إذا كان فى مصلحتهم ، أو أيدوا الوزارء فيفوزوا برغائبهم . فإذا لم

(١٩٠) فيما = فيما هو ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٩١) الدستوية = الدستورية .
(١٩٢) واقع = دافع ــ قراءة ترجيحية .

يؤيدهم أصحاب الإحتلال لعلة وتعاصى عليهم ضم الأمير إلى جانبهم ، عادوا فطأطأوا الرؤوس ، وخـفـضـوا جناح الطاعـة لقـوله ، ولـم يتخلوا عن مناصبـهم . ومعلون[١٩٣] أن الأمير لا يملك أن يعزل وزراءه المخالفين لرأيه ، فإذا فعل ذلك وهو مـا لا يقـدر على فعله إرتجت أركـان دولة الإنجليـز ، وثارت ثورة الإحتـلال واتهـموه بأنه عـدوه[١٩٤] الإصـلاح ، وأحـاطت به الأهوال من كل جـانب ، فـلا يلبث أن يرجع عن رأيه صاغرا مقهورا . وظل الحال على هذا أياما كثيرة حتى جاءت إشارة صاحب السياسة الإنجليزية بالرجوع إلى[١٩٥] هذا الأمر وتركه بلا مشاغبة . أقول ايضا ، وكما كان لورد كرومر كثير التجافى للأمير متخاشنا فى قوله متعنتا فى فعله ، فقد كان الامير كذلك لا يرضيه من لورد كرومر قولا ولا يعجبه منه فعلا ، وكان كثير التأفف من لقائه ، حتى فى أدعى الأحوال وألزمها إلى ذلك . فكان أصحاب ديوانه يعلمون حالهما ووزراؤه لا يجهلونه ، والكل لا يرجـون من وراء ذلك السـلامة . وبلغ شطط لورد كـرومـر فى هذه المـحنة شـوطا بعيدا ، حتى جاءت كتب السلطان إلى قصر الإماره وديوان الوزارة باستهجان بيع تلك السكك ، وأنها من المعدات العسكرية التى لا يجوز تسليم زمامها إلى غير السلطة الحـاكـمة .وأقام أيضـا قناصل دوللا[١٩٦] الروس والفـرنسيس والألـمان الحجة على بيع تلك السكك بدعوى أن هذا البيع مخالف للمعاهدات الدولية ، مـميز رعايا الانجليز عى[١٩٧] رعايا سواهم . وعلت أصوات الناقمين وارتفعت ضـوضـاؤهم . وبرز[١٩٨] صـاحب السـياسـة الإنجليـزية مـشـددا بتـرك الأمـر إلى حين ، فلم يسع لورد كرومر إلا السكوت وتحين الفرص . فلما كـان خامس يوليو

(١٩٣) ومعلون = ومعلوم .
(١٩٤) عدوه = عدو .
(١٩٥) إلى = عن ـ قراءة ترجيحية .
(١٩٦) دوللا = دول .
(١٩٧) عى = عن .
(١٩٨) وبرز = وبرز أمر ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

من السنة ، سادس عشر صفر ركب الأمير يخته (المحروسة) ومعه نساؤه وحشمه وأتباعه ، وأبحر فى الساعه الرابعة ونصف صبحا ، وأبحر خلفه اليخت (صفاءالبحر) قاصدا(كورفو) (فتريسته) . وقد برز الأمر إلى الرئيس مصطفى باشا بأن يتولى نيابة الغيبة فتولاها . واتفق أن خسف القمر فى تلك الليلة خسوفا جزئيا ، كاد يكون كليا ، إذ لم تكن الساعة الحادية عشر من الليل حتى لم يبق من القمر مضيئا إلا جزء صغير جدا . وقد بدأ الخسوف فى نحو الساعه التاسعة والدقيقه خمسين ، وكان معظمه فى الساعه الحادية عشرة ، واستمر على ذلك إلى نحو منتصف الليل ، ثم أخذ النور يتراجع إليه شيئا فشيئا حتى تم جلاؤه . فما أحست به العامة حتى ذهبوا مذعورين ، وطاف صبيانهم فى الشوارع والحارات ينادون (بيالطيف ألطف بنا إحنا صغار إيه ذنبنا) وهم يضربون على النحاس ضربا متتابعا مزعجا . وظلوا على هذا الضجيج والنداء حتى انجلى القمر وزال الخسوف . وتطير الناس من حدوث هذا الحادث الخطير عندهم ليلة سفر الامير ، وحسبوا له حسابا كبيرا حتى تطرف بعضهم إلى القول بأنه من علامات السوء ودلائل النحس ، وآخرون إلى أنه من دلائل أفول نجم الأمير ، وظهور نجم لورد كرومر فى هذه الايام . فما وصل الأمير إلى (تريستا) وسافر منها إلى ڤينا عاصمة النمساء حتى سافر لورد كرومر إلى ديار الإنجليز لقضاء أيام الصيف فيها ، وقيل جاءه الطلب[١٩٩] السياسة الإنجليزية لوقوع المنافرة بينه وبين المستر بوبرنصون[٢٠٠] مدير السكك الحديدية وترك روبرتصون لمنصبه غاضبا . وأعقب ذلك أن أنزل السير(بلمر نفسه) أو هو أكره على تنزيل نفسه من منصب استشارة المالية ، ودخوله فى منصب مدير إدارة البنك الأهلى[٢٠١] الذى أنشىء حديثا بالقاهرة . والرجل كان من صغار الإنجليز

---

(١٩٩) الطلب = الطلب من صاحب ــ أضيفت الكلمتان ليستقيم النص .

(٢٠٠) بوبرنصون = روبرتسون F. A. Robertson ــ راجع حاشية ٥٦ من حواشى عام ١٨٩٨

(٢٠١) البنك الأهلى = أسس بموجب أمر عال فى يونيو ١٨٩٨ ــ وكان له الحق فى إصدار أوراق مالية تدفع لحامليها عند الإطلاع . يرجع الفضل فى تأسيس البنك إلى شخصية مالية كبيرة اتخذت من=

الذين لا حسب لهم ولا نسب ، ولا هو فى عداد المعروفين بين اهل المناصب وأصحاب الخطط . جاء على عهد الخديوى إسماعيل إلى مصر من الهند فى طلب الرزق ، وتقدم إلى الهيئة الحاكمة يومئذ فى طلب عمل بوزارة المالية لا يتجاوز راتبه الشهرى العشرين جنيها ، فلم ينله فعاد إلى الهند حزينا . فلما جاء الإحتلال وقبض على كل شىء من مرافق البلاد ، وبث قومه فى سائر دواوين الإمارة ،كان ممن تورك منهم فى وزراة الماليه ، واستقل بحسابها رجل منهم إسمه (فتس جرالد)(٢٠٢) . متهوس مختال كثير التقلب قد تكلمنا عنه فى

= مصر مركزاً لها فى أواخر القرن التاسع عشر ، هو السير إرنست كاسل Ernest Cassel . كان كاسل واحداً من كبار الماليين العالميين فى أواخر القرن التاسع عشر . ولد كاسل فى كولونيا Cologne وارتقى بسرعة فى بنك أنجلو ـ إجبشيان Anglo - Egyptian فى باريس ثم فى بنك بيشوفهايم Bi-schoff sheim وجولد شميت ـ Golds chmidt فى لندن . كون ثروة مع هذه المؤسسات ثم استقل بنفسه عام ١٨٨٤ . تضمنت إستثماراته فيما وراء البحار السكك الحديدية السويدية والأمريكية ، لكن مصر كانت المنطقة التى مارس فيها أكبر قدر من النفوذ الاقتصادى . كان من المؤسسين الأوائل للبنك الأهلى المصرى ، البنك الزراعى ، شركة الدائرة السنية ، شركة سكر الدائرة السنية ، والعديد من شركات الأراضى . وفرت صداقته الحميمة للمعتمد البريطانى كرومر الدعم المالى اللازم لعملية فتح السودان ، وإنشاء البنك الأهلى ، وإنشاء سد أسوان . وقد شارك (كاسل) فى تأسيس البنك الأهلى كلا من رافايل سواريز Raphael Suares وقسطنطين سلفاجو Constantin Salvago من كبار المستثمرين الأجانب ونجوم المجتمع المالى الأوروبى فى مصر ـ وقد تولى السير إلوين بالمر المستشار المالى منصب مدير البنك الأهلى فى ١٨٩٨ وعين فى مكانه المستر (سير فيما بعد) إلدون جورست مستشار الداخلية مستشاراً ماليا .

— Tignor (Modernization and British Colonial Rulein Egypt) Ibid - P.. 369

ـ تقويم ١٩٣٣ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٩٥ .

ـ الوقائع المصرية ٣ سبتمبر ١٨٩٨ ، ٢٢ أكتوبر ١٨٩٨ .

ـ حاشية ٩٦ ـ من حواشى عام ١٩٨٢ .

ـ عباس حلمى (عهدى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣٤ .

(٢٠٢) فتس جرالد = جيرالد فيتز جيرالد Gerald Fitzgerald مدير عام الحسابات المصرية فى أوائل عهد الاحتلال . دخل الخدمة المصرية عام ١٨٧٧ . فى سبتمبر ١٨٨٢ قدم للسير إدوارد مالت قنصل بريطانيا العام فى مصر أشهر تقرير عن الخدمة الأوروبية فى الحكومة المصرية . أدخل بعد الإحتلال نظاماً جديداً لحساب الدخل والمنصرف . عند إعادة تنظيم الخزينة المصرية عام ١٨٨٤ فى عهد نظارة نوبار الثانية (١٠ يناير ١٨٨٤ ـ ٩ يونيو ١٨٨٨) ومع تعيين إدجار فنسنت Edgar Vin-cent مستشاراً مالياً خلفاً لأوكلاند كولفن Auckland Colvin عين فيتز جيرالد عضواً فى (اللجنة المالية) التى شكلت من ناظر المالية (مصطفى فهمى) والمستشار المالى (فنسنت) والنمساوى (بلوم باشا) وكيل نظارة المالية والفرنسى فيلكس مازو Felix Mazue المفتش العام للدخولية Oc-trois . وقد أصبحت هذه اللجنة هى الهيئة المالية العليا فى البلاد ـ وتجُبُّ قراراتها فى الشئون المالية أى قرار حتى ولو كان صادراً من مجلس النظار .=

حينه فى هذا الكتاب . فجاءه (بلمر) هذا ، ولازم بابه وتقرب منه زلفى ، فأعانه وولاه منصبا ضئيلا فى خزينة الوزراة ، فأقام فيه ما شاء الله ، حتى أقلق صياح الوزراء والكبراء وأصحاب المناصب الديوانية صاحب السياسة الإنجليزية من فعال (فتس جرالد) هذا وتعسفه ، واخذته ضجة أصحاب الصحف من كل جانب . فاوفد صاحب السياسة الانجليزية احد عظمائهم وأسمه لورد(لورسبروك[٢٠٣]) ليرى فى أمر (فتس جرالد) وما يشكو منه . فلبث فى القاهرة ما شاء ثم استصحب معه(فتس جرالد) وقفل راجعا إلى ديارهم . وقد ولى (بلمر) مكانه . فأظهر التأدب مع الناس وبالغ فى إكرام الوزراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط ، ولاطف صغار الموظفين ما استطاع ، حتى أذهب عنهم ذلك الخزن والحزن . واتفق أنه تولى الرياسة مصطفى رياض باشا ، فتقرب منه(بلمر) وخادعه وجعل يتأدب معه فى مخاطبته وفى قيامه وجلوسه ، حتى لقد كان إذا هم بأن يتناول قلمه ليكتب شيئا أسرع(بالمر) فناوله إياه ، وقدم له دواته ، وربما ظل واقفا أمامه حتى يفرغ من عمله . وكان الرئيس مصطفى رياض باشا فخورا معجبا بنفسه لا يعجبه إلا المتملق ولايحفل إلا بالمداهن المطرئ ، كما هو مشهور عنه بين الناس . مال إليه وسايره وظنه أداته على جماعة الإحتلال ، وصنيعة يجعلها كالسوط فيضعه فى خاصرة مخالفيه منهم . وعلم (بالمر) ذلك منه فبالغ فى استرضائه على ما

= تعرض فيتز جيرالد لسخط (نوبار) باعتباره أحد دعائم الإحتلال الإدارى البريطانى الذى كان يرفضه . وأعيد إلى بلاده فى أعقاب زيارة اللورد نورثبروك Northbrook المعتمد البريطانى الذى جاء إلى مصر فى سبتمبر ١٨٨٤ للنظر فى المسألة المالية وأحوال الإدارة الداخلية .

-- Robert L. Tignor (The "Indianization" of the Egyptian Administration Under British Rule) - Middle . East Journl. XVI - Spring 1962. P., 639

ـ جورجى زيدان (تاريخ مصر الحديث) ج ٢ ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

ـ يونان لبيب رزق (تاريخ الوزارات المصرية) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٢٠ .

Egypt No. (3) 1883 - Papers Respecting Europeans in the Service of the Egyptian Government - — in Continuation of Egypt Nos. 4 and 6 (1882).

(٢٠٣) لورسبروك = نورثبروك Northbrook .

ـ راجع حاشية ٢٠٢ من حواشى ١٨٩٨

يحب وما تميل إليه نفسه . واتفق أن سافر لورد كرومر إلى ديار الإنجليز على عادته فى كل عام ، فتقدم بالمر إلى الرئيس مصطفى رياض فى طلب التعاقد مع الحكومة على إشغاله منصب الإستشارة الماليه مدة خمسة عشرة سنة براتب . وتم الإتفاق فإذا أنزلته الحكومة عن منصبه لزم عليها أن تعطيه راتب ما بقى من الخمس عشرة سنة ، وان أنزل هو نفسه لأسباب ، حق له أن يأخذ ألفين جنيه وخمسمائة جنيه فقط ،وإن مات وهو فى منصبه أخذت عائلته معاشا لا ينقص عن الخمسمائة جنيها فى كل سنة . فأجابه الرئيس إلى ذلك وسجلوا هذا التعاقد . فبات بالمر وأصبح وهو غير الذى كان يطأطئ الرأس للرئيس وينحنى له عند كل التفاتة . فشمخ بأنفه وتعاظم وأعطى الوظيفة حقها من الكبرياء والعظمة . فكان إذا طلبه الرئيس إلى ديوانه تباطأ فى مشيته وربما امتنع أو سَّوف . وإذا سئل فى أمر تخاشن ولم يوافق عليه وعده من سقط الأمور . وإذا حادثه أظهر الغلظة وتثاقل فى الرد استخفافا وتحقيرا .فأكبر الرئيس حاله وكره فعاله واشتد بغضه إليه ، وهم بإرجاعه إلى ما كان عليه فلم يفلح . وعاد لورد كرومر من مصيفه فعلم بما فعله بالمر من التقاعد(٢٠٤) مع الرئيس على ما تقدم ، فتولاه الدهش وأخذ منه الكدر مأخذه . قالوا لأنه كان يكره الرجل وينوى خلعه من منصبه .كان يكرهه لأنه من صغار الإنجليز الذين لا هم فى العيد(٢٠٥) ولا هم فى النفير ،وكان يروم خلعه لأن الإنجليز لا يولون المناصب العالية إلا أهل البيوتات وأصحاب الحسب ،ولذلك لا ترى فى عامتهم كبيرا ولا وزيرا ولا مديرا ،ولا بين مقدمى عسكرهم سوقيا ولا وضيع الحسب ،وهذا هو الذى وطد أركان ملكهم ،وبسط سلطانهم وأفسح أرجائه فى مشارق المعمور ومغاربه ،حتى صار لا تغيب الشمس عنه . ورأى كرومر أن تبعيد الرجل أو خلعه من منصبه أصبح من تعسر(٢٠٦) الأمور وأعصاها ، وأنه إن فعل شيئاً من

(٢٠٤) التقاعد = التعاقد .
(٢٠٥) العيد = العير .
(٢٠٦) تعسر = متعسر .

ذلك أبعد عنه قلوب العاقلين ، واستنزل سخط أصحاب الرأى من جماعة الإنجليز ، إذ هم يحسبون أن إجرام الفرد منهم إجراما من مجموعهم ، والمحمدة من أحدهم محمدة من مجموعتهم(٢٠٧) .فجعل يناويه العداء ، ويحقره تحقيرا والرجل متبجح جامد الوجه كأنه قد من صخر .وظلا على هذا أياما من الدهر . فلما اختلفت أحوال اللورد مع الأمير ، وقامت الوحشة بينهما على ما مر بك بيانه فى محله عمد اللورد إلى الإنتفاع من الرجل بجاسوسيته وسماجته . فأدناه من مجلسه وقربه من ديوانه . قيل وأسر إليه بعض ما نفسه ، فأقسم له الأيمان المغلظة أنه عونه على عدوه ، وأنه يؤيده فى كل غرض يريده ،وأنه حافظ سره والقائم بأمره فى الليل والنهار .فكان إذا أراد كرومر بالأمير شرا أوساءه منه امرا دفع بالمر إلى صدر الأمير فيفعل من الأفاعيل ما تنقبض منه نفسه ، ويضيق صدره ، حتى بات وأصبح وإليه المرجع فى حل أعصى الأمور وألصقها بإرادة الأمير . وصار مقامه فى مجلس الوزراء كمقام الدفة من السفينة التى تلاطمها الأمواج . وكان من أمره فى أدوار رئاسته ما بسطناه فى حينه . فلما انقضت أيامه وكانت خمس عشرة عاما ، وحدث أنهم أنشأوا ذلك البنك باسم (البنك الأهلى) زجوه فى رياسته ، وأتوا على كئ(٢٠٨) عمل من أعماله ، وولوا مكانه المستر غورست مستشار وزارة الداخلية . فقام بالأمر ولكنه لم يكن يد كرومر ورجله وأداته القاطمه كما كان(بالمر) ،لأنه من علية القوم . وانظر كيف هم يولون مناصب البلاد لأغرار المصريين وضيعى الحسب ، لا يفرقون فى ذلك بين ذوى الكمامة وسومال(٢٠٩) الناس .فقد سهلوا لهم سبل الإرتقاء إلى تلك المناصب بما أفسحوه لكل طالب فى صفوف المدارس على اختلاف طبقاتها ،وزجوهم غير ناظر(٢١٠) إلى حسبهم ولا إلى من هم ينسبون ، حتى صار

(٢٠٧) مجموعتهم = مجموعهم ـ قراءة ترجيحية .
(٢٠٨) كئ = كل .
(٢٠٩) الكمامه وسومال = القمامه وسمال ـ قراءة إجتهادية .
(٢١٠) ناظر = ناظرين .

منهم القضاة ومنهم المدعيين والمحامين والأطباء والمهندسين وأصحاب الشرطة الموكول إليهم حفظ المال والروح والعرض الثمين .فعمل كل من هؤلاء على هوى نفسه الأمارة وما يوجه(٢١١) إليه أصله إلا من نمت فيه الملكة الكسبية ،وتغلبت على الملكة الفطريه ، وهؤلاء قليلون ، إذ الإناء ينضح بما فيه . أقول أيضا وقد جاءنى يوما أحد الأصدقاء زائرا فرأيته كاسف البال مفكرا فقلت .ما الذى دهاك وعهدى بك غير ما أنت عليه اليوم ، فقال إنى أفكر فيما دهانا به هذا الزمان من تحكم الصعاليك وقيام دولة الزعر وزعانف القرى . كان عندى منذ سبعة أعوام أو يزيد خوليا فى مزرعة لى بإحدى قرى الجيزة ، وله ولدا فى الثالثة عشرة حسن الوجه طويل القامة ،ولكنه متكاسل ثقيل الحركة . وكنت إذا ذهبت إلى مزرعتى وأقمت بها أياما قام هذا الصبى بخدمتى وقضاء حاجاتى ،فكنت أكره منه ذلك التثاقل وأنهه(٢١٢) عن التمادى فى ذلك الكسل . وحدث أن وسوس الوسواس الخناس فى صدر أبيه وزين له سرقة ثلاث كيلات من علوفة الماشية ، فأمسك(٢١٣) وهو يحملها إلى سوق البلد . وجانى(٢١٤) الخبر من ناظر المزرعة بذلك ، وبأن الرجل قد تعود الإجرام منذ حين . فأرسلت إليه أقول إطلقه وأفرغه من مهنته واختر لنفسك صالحا ففعل . وحدث فى هذا الأسبوع أن إبنة من بنات الفلاحين دخلت حوش البهايم بغير سبب وجعلت تناوش عجلا من البقر حتى استفزته ، فنطحها فأدماها وكسر ذراعها ،فأبلغ الناظر خبرها إلى القسم ، ولم يكتم إصابتها . فأصبحوا وقد جاءهم ملاحظ بوليس المركز ومعه إثنين من أصحاب الشرطة ، فترجل عن فرسه عند باب الناظر ، وأشار بسوط فى يده وقال(أين المصابة وأين ناظر هذه المزرعة المتناهى فى الإهمال القاتل للنفس بغير ذنب) .فلاقاه الناظر وأكرم

---

(٢١١) يوجه = يوحيه .
(٢١٢) وأنهه = وأنهاه .
(٢١٣) فأمسك = فأمسك به ــ أضيفت الكلمة ليتفق المعنى .
(٢١٤) وجانى = وجاءنى .

لقاءه وقال(يا سيدى الأمر على غير ما تظن ، والحقيقة هى كيت وكيت ، وأبو المصابة شهيد على ما تقول) . فهز صاحبنا كتفه ونفخ ادراجه[٢١٥] وقال(نحن نعلم أنك من شر الناس معجبا مختالا ،وأنك فى هذه المزرعة كالسلطان المستبد ، تجرم على هذا ، وتضر ذاك وتفترى على الناس زورا وبهتانا ، وصاحبها يظنك من الصالحين . قف متأدبا حتى أسألك ، وإياك والإنكار فتكون العاقبة وبالا) . فامتعض الناظر وقال (سل ماشئت والله مع الصابرين) . فجعل يسأله ويخلط فى سؤاله ، والناظر يلاطفه خوفا من مؤاخذتى له ، فلم يعجب ذلك كاتب المزرعة ،وأرسل على جناح البرق يستدعينى ،فقمت لساعتى مشغول البال .فلما صرت فى المزرعة وعلمت بكلما[٢١٦]وقع ، ونظرت وجه ذلك الضابط عرفته أنه إبن الخولى المطرود . فقلت أظنك إبن فلان وقد ربيت فى هذا المكان . فقال وهو خجل (وهل هذه مزرعة فلان) فقلت(هى هى وصاحبها هو الذى يناجيك ، لقل[٢١٧] لى بأبيك فلان متى صرت من رجال الشرطة ، وكيف وصلت إلى هذا السبيل) . قال(فأطرق لحظة وقال وصلت إلى ما أنا فيه بطرق لا يسع المقام سردها) . فقلت(يافتى دع عنك هذا ، فالإبنة تقص عليك ما جرى لها وأبوها شهيد على ما هى تقول ، فاذكر الحادثة كما سمعتها وأنى أعيذك من شر الوسواس الخناس الذى وسوس فى صدر أبيك ففعل ما فعل ، فأطلقناه فصار من الطلقاء ولا تكون من الجارعين[٢١٨] أنفهم بكفهم ، ولا تنقم على هذا الناظر جزاء ما فعله بأبيك ، فانه لولا ما فعله مما تحسبه جورا وظلما ما بلغت هذا المرتقى ، ولا تزينت بمحاسن هذا الزى الشريف ، فاستغفر الله واسأله السلامة ، وأن يحفظ عليك نعمته) . فلما سمع هذا الكلام إمتقع لونه ، وأنجز عمله . ثم التفت إلى الإبنة وقال (إنى مرسلها الساعة إلى

(٢١٥) إدراجه = أوداجه .
(٢١٦) كلما = بكل ما .
(٢١٧) لقل = فقل .
(٢١٨) الجارعين = الجادعين .

المستشفى) ،فقلت(وإنى قائم بالنفقة إبتغاء وجه الله الكريم) . ففعل وتركنا وانصرف .فقلت ياحاج والله إنها لعبرة ، وإنها لمن أعجب الأمور وأدعاها إلى سوء المصير .قلت وأشاع بعضهم أن السير(بالمر)هذا لم ينجلى عن منصبه مكرها ، وإنما تركه حانقا على صاحب السياسة الإنجليزية لأنه لم يوليه منصب وزارة الماليه بديار الهنود ،وسيوليها لغيره من عظماء الإنجليز ،والأمر على عكس ما يشيعون .

وكان إلى هذا الحين لم يرجع السردار من غيبته كما تقغم(٢١٩) القول . فلما عاد إلى القاهرة ، ظهرت الحركة على أثر عودته بين منازل الجند بالعباسية وقلعة الجبل وقصر النيل .وما هى إلا أيام حتى وصلت إلى مياه الإسكندرية بعض السفن والنقالات تحمل المقاتلة من الإنجليز ،وكثيرا من معدات الحرب ،وجماعة من الضباط والمهندسين ووبان(٢٢٠) السفن والمدفعيات . وترفعوا جميعا إلى التخوم . وتبعتهم ذخيرتهم وآلات حربهم ،وجماعة من أرباب الصنائع كالحدادين والنجارين وغيرهم . واهتم جماعة الوزراء بنفقة المسافرين ، وما تحتاجه الحملة بعد الذى انفق ، ووالوا البحث والتدبير أياما حتى وقع اتفاقهم على تخصيص مليونا من الذهب لنفقة سنتهم المقبلة أى سنة تسع وتسعين وثنمائة(٢٢١) وألف . وبرز الأمر(٢٢٢) السردار بجمع ماوجب جمعه من شبان القرعة لسنتهم هذه ، فطاف الموكلون العمل الإقليمين القبلى والبحرى . وجاءت الأخبار من التخوم تباعا بإقبال الناس على طاعة الحكومة ، وخروج كثير من الدراويش هن(٢٢٣) طاعة الخليفه عبدالله ،ومجيئهم إلى منازل الجنود بمراكز الحملة الأمامية . وقد فر أكبر أولاد الزبير باشا من معسكر

(٢١٩) تقغم = تقدم .
(٢٢٠) ووبان = وربان ـ قراءة ترجيحية .
(٢٢١) وثنمائة = وثمانمائة .
(٢٢٢) الأمر = أمر .
(٢٢٣) هن = عن .

الدراويش ووصل إلى الاتيره[٢٢٤] . فبرز أمر الخليفة بشدة المراقبة وتتبع الفارين وذبحهم أينما وجدوهم .فقبضوا يوما على زورق ثلثه[٢٢٥] زوارق حاملة جماعة من الهاربين على مقربة من (شيلوقة)[٢٢٦] وذبحوا سائر ركابها . وقدم إلى القاهرة بعض المرضى من العساكر الإنجليزيه ، فسيروا بهم على ظهور النقالات إلى مالطة للإستشفاء . وترفعت المدفعيات إلى ما وراء(شندى) تزور[٢٢٧] الأراضى وتتنسم الأخبار . فعلم ربانوها أن الخليفة رسم بحصين شبلوفة[٢٢٨] ،فحصنوها تحصينا منيعا ، وأنهم أقاموا المتاريس والمعاقل المنيعة أيضا فى (كرادى[٢٢٩]) وأم درمان . واستأذن جماعة من مكاتبى الصحف الإنجليزية السردار بالسفر إلى التخوم ، فأذن لهم .فسافروا مساء الثانى من أغسطس من السنة ، خامس عشر ربيع الأول سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، ومعهم مندوب حربى لدولة الألمان وآخر إيطالى ليشهدوا فتح الخرطوم . وجاء وفد من قبل كبار أهل العبيد[٢٣٠] يطلب من السردار إحتلال جيوشه للبلاد فرارا من مظالم الخليفة . قيل فلاطفهم ووعدهم خيرا . ورسم من يومه ببذل الجهد فى إرسال المهمات والذخائر والمعدات إلى(جزيرة نصرى) . فاهتموا لذلك إهتماما عظيما ، وبالغوا فى العناية بأمر إيصال السلك البرقى بالأتيرة[٢٣١] على طول النيل ، حتى صار من الهين جدا إرسال الرسائل البرقية رأسا من الأتيره[٢٣٢] إلى الإسكندرية .

---

(٢٢٤) الأثيره = العطبره ـ وهى المنطقة التى استولت عليها قوات استرجاع السودان فى الثامن من إبريل ١٨٩٨ .

ـ انظر الحاشية ١٢٩ من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٢٢٥) زورق ثلثه = ثلاثة ـ قراءة ترجيحية .

(٢٢٦) شيلوقة = سبلوقة .

ـ راجع حاشية ١٨٩ من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٢٢٧) تزور = تذود ـ قراءة ترجيحية .

(٢٢٨) بحصين شيلوقة = بتحصين سبلوقة ـ قراءة ترجيحية .

(٢٢٩) كرادى = كررى ـ انظر الخريطة ملحق رقم ٥ .

(٢٣٠) أهل العبيد = وادى عبيد .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٩ .

(٢٣١) بالأثيرة = بالعطبرة .

(٢٣٢) الأثيرة = العطبرة .

وكان مما سهل على الحملة الإنتقال وسرعة الحركة ارتفاع النيل وفيضانه ، بعد أن كانوا يخشون من عدم بلوغه حد الزيادة المألوفة ، فقد أخذ فى الإرتفاع بغتة ، وجرى ماؤه حتى كاد يركب الجسور ، فاهتم أسحاب الرأى[٢٣٣] من جماعة الإنجليز بالمحافظة عليها ، وتعهد القناطر وأمهات الترع . وطاف المهندسون سائر القرى والبلاد يستفزون[٢٣٤] أهلها إلى الخروج ، وملازمة الجسور فى الليل والنهار . ففعلوا وبثوا جماعات على ضفتى النيل شرقا وغربا ،حتى آمن الناس من الغرق . وكأن[٢٣٥] تأخر زيادة[٢٣٦] فى هذا العام عم[٢٣٧] ميعادها المعروف أوجب[٢٣٨] سخط أصحاب الخزينة من جماعة الإنجليز . فقد قرروا تنقيص المبلغ المخصص للإحتفال بجبر الخليج على العادة المقررة فى كل عام من مائة وخمسين جنيها إلى مائة جنيه فقط . وأرسلوا إلى محافظ المدينة يعلمونه بذلك ويحذرونه من الزيادة .فلما كان يوم الثلاثاء سادس عشر أغسطس من السنة ،ثامن عشرى ربيع الأول سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف ،أقفلت دواوين الحكومة وسائر مصالحها إحتفالا بوفاء النيل .وفى مساء الإثنين[٢٣٩]جرى الإحتفال فى مصطبة فم الخليج على النسق والترتيب المعتاد . فأطلقت المدافع والحراقات النارية . ووصلت العقبة[٢٤٠]من

(٢٣٣) اسحاب الراى = أصحاب الرى .

(٢٣٤) يستفزون = يستنفرون .

(٢٣٥) وكأن = وكان .

(٢٣٦) زيادة = الزيادة .

(٢٣٧) عم = عن .

(٢٣٨) أوجب = قد أوجب ـ إضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٣٩) الإثنين = الثلاثاء ـ قراءة ترجيحية .

(٢٤٠) العقبة = سفينة نيلية كانت مخصصه لركوب باشا مصر وأمرائها فى القرن ١٩ ، ثم أصبحت لاتستعمل إلا لخرجة واحدة كل عام للإحتفال بوفاء النيل . كانت ترسى فى مرسى السفن الحكومية ببولاق . وعند الإحتفال المذكور كانت تخرج من مرساها مزينة بالورود وأغصان الأشجار والرايات وفيها بعض المدافع ، ويجرها رفاص بخارى فتسير فى النيل حتى تصل إلى نهاية جزيرة الروضة ، فتطوف حولها وتدخل فى ذراع النيل الفاصل بين هذه الجزيرة وبين مصر القديمة (المنيل) ، وتستمر فى سيرها حتى تصل إلى مكان الاحتفال ـ وبعد جريان المياه فى الخليج كانت تعود إلى مرساها فى بولاق إلى العام التالى .

ـ انظر درويش النخيلى (ألسفن الإسلامية على حروف المعجم) ـ جامعة الإسكندرية ـ ١٩٧٤ ـ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

بولاق إلى فج[٢٤١] الخليج ، وفيها الطبول والزمور والمغنيين والمغنيات ،ورست تحت المصطبة بجوار السد . واجتمع المدعوين بالسرادق المنصوب بفناء المصطبة وبينهم بعض العلماء وقاضى القضاة ،فأكلوا وشربوا ولبثوا ردحا من الليل ثم انصرفوا .وقد حضر قاضى القضاة وجماعة من المحكمة الكبرى الشرعية ،ولم يحضر أحد من الوزراء من مصيف الإسكندرية ، وحضر محافظ المدينة بصفته نائبا للغيبة .فلما جاءت الساعه المعينة لكسر السد برز الأمر بكسره فكسروه ، فألقت[٢٤٢] المدافع تباعا من البحر والبر ، وأشار قاضى القضاة إلى كاتب المحكمة بتحرير الحجة الشرعية الناطقة بوفاء النيل أذرعه المقررة ، ووجوب جمع الخراج السلطانى . وبعد تحريرها ألبس قاضى القضاة فروة سمور ، وقلد كاتب المحكمة بشال من الكشمير وانصرفوا .

وتتابعت زيادة النيل ، وامتلأت الشلالات بعد انخفاضها الكبير ، وتحقق ذلك للسردار فسافر يوم تاسع عشر أغسطس من السنة على إحدى البواخر الى (شبلوقه)[٢٤٣] ،فثبت لديه أنه صار من السهل جدا عبور تلك السفن النيل .قالوا وقد قطعت بعض المدفعيات النيلية المسافة بين(شبلوقة)[٢٤٤]والخرطوم ،حتى وصلت الى الخرطوم ، وأطلقت قنابلها على أسوارها وخرائب حصونها فلم تجد مجيبا ، فعادت تقص خير[٢٤٥] مارأت . قلت . فإذا صح هذا النبأ فربما إستكتم السردار أمره ليدخل الخرطوم فى أول شهر سبتمبر من السنة كما وعد وأوعد ، وليس ببعيد الإحتمال أن يكون قد نوى إحداث موقعة من حيث كانت كما فعل فى (أبى حمد) لتجسيم الفتح ، وتعظيم أخطاره حتى لايكون فتحا بلا عناء ولا قتال ولا فضل لأولئك الجنود الأبطال .وجاء الخبر من السردار إلى

---

(٢٤١) فج = فم .
(٢٤٢) فألقت = فأطلقت .
(٢٤٣) شبلوقه = سبلوقه .
(٢٤٤) شبلوقه = سبلوقه .
(٢٤٥) خير = خبر .

وزارة الحـرب باستـيـلاء السـفن الحـربيـة على جـبل الريان)(٢٤٦) ، وأن إرسـال الذخيرة والمؤن إليه جار بسرعة ماعليها من مزيد ، لجعله مستودعا أماميا ، وأن لواءا من الجنود الإنجليزية قد بلغ (الهجير)(٢٤٧) وهى على الضفة المقابلة لذلك

(٢٤٦) جبل الريان = بعد انتصار (عطبرة) فى ٨ أبريل ١٨٩٨ عاد الجيش المصرى إلى (بربر) واشتغل بمد الطرق الحديدية والخطوط التلغرافية لتسير مع طلائع الجيش ـ وسارع بإرسال المعدات والتشوينات الحربية والمؤن والذخائر إلى النقط الأمامية . واستقدمت الأورطة الخامسة المصرية من سواكن إلى (بربر) بطريق البر كما استقدمت الأورطة الثانية عشر المصرية من مصر .

فى أوائل أغسطس ١٨٩٨ تقدمت اللواءات المصرية براً بقيادة الجنرال (هنتر باشا) وتبعتها اللواءات الإنجليزية بحراً وعسكرت فى مكان يدعى (مغانيا) . فى ٢٣ أغسطس وصل الجيش إلى نقطة تدعى (ولد حمد) واحتشدت القوات جميعها على الضفة الغربية للنيل بتعداد يبلغ ٢٢,٠٠٠ رجل . وفى ذلك الوقت كانت المسافة الفاصلة بين القوات المتجمعة و(أم درمان) ٤٠ ميلاً فقط .

فى ٢٦ أغسطس احتلت المدفعيات (السفن النيلية المزودة بالمدافع) جزيرة صغيرة أمام جبل الرويان ـ كما وصلت وحدات الجيش إلى بلدة (الهجير) حيث عسكرت والتحق بها السردار . ثم تقدمت إلى (وادى عبيد) . فى ٣٠ أغسطس ١٨٩٨ كان الجيش الزاحف على مسافة عشرة أميال من (أم درمان) .

كانت القوات المشتركة فى هذا التمهيد لمعركة أم درمان كالآتى : ـ

ـ لواآن إنجليزيان وثلاث بطاريات وأورطة فرسان من حملة الرماح ووحدات صغيرة من المهندسين .

ـ الجيش المصرى وكان يتألف من :

ـ تسعة بلوكات فرسان .

ـ بطارية مدفعية فرسان .

ـ أربع بطاريات ميدان .

ـ عشرة مدافع مكسيم .

ـ ثمانية بلوكات هجانة .

ـ اللواء الأول بقيادة الميجور (الرائد) مكدونالد (ويتألف من الأورطة الثانية المصرية والأورط التاسعة والعاشرة والحادية عشرة السودانية .

ـ اللواء الثانى بقيادة الميجور مكسويل (ويتألف من الأورطة الثامنة المصرية والأورط ١٢ ، ١٣ ، ١٤ السودانية) .

ـ اللواء الثالث بقيادة الميجور لويس (ويتألف من الأورطتان الثالثة والرابعة المصرية والأورط السابعة عشرة والثانية عشرة المصرية .

ـ أسطول من المدفعيات النيلية عددها عشرة ، وخمسة بواخر نقل .

ـ قوات غير نظامية من القبائل الموالية لمصر (المتحابة) يبلغ عددهم ٢٠٠٠ رجل من العبابدة ، الجعليين ، الجميعاب ، الشكرية ، الشيقية (أو الشايقية) ، والبطاحين بقيادة الماجور ستيوارت ورنلى . وكان على هذه القوات الغير نظامية أن تسير بمحازاة الجيش على الضفة الشرقية للنيل بينما كان الجيش الزاحف يسير على الضفة الغربية .

ـ أورطة البنادق الرابعة المشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٨ ـ ٣٩ .

(٢٤٧) راجع حاشية ٢٤٦ من حواشى عام ١٨٩٨ .

الجبل ، وأنهم مشتغلون بتنظيم قوة من بقايا القوم الجعليين وجميع القبايل المصافية من المتعلمية والشكرية والبطاقين(٢٤٨) . وسيروا هذه القوة بالضفة اليمنى من النيل تجاه الجيش الذى يسير من الضفة اليسرى .فشاع خبر ذلك بين الناس ، وجاءت كتب بعض الضباط المصريين الى ذويهم بالقاهرة منبئة بما هم عليه من الحركة والزحف المتوصل(٢٤٩) إلى الأمام ، وأنهم على وشك أن يقربوا من معاقل الأعداء وحصونهم الأماميه لأم درمان ، وأنهم جميعا بصحة وعافية . قالوا وقد شرع نفر من الدراويش فى وضع لغم من الألغام المدمرة فى النيل لينسف المدفعيات الصاعدة إلى أم درمان ، فانفجر منهم خط(٢٥٠) ، ونسف عددا من سفنهم بما عليها وقتل زهاء الثلاثين منهم ، فعدلوا عن وضع خلافه .

وحدث أن المدفعية المصرية المسماة (الظافر) كانت تتابع الصعود فى النيل ، وبعد أن وصلت الى مسافة عشرة أميال من (شندى) تعطلت آلاتها وجعلت تقذف مياهها ، وكان محمولها من الفحم كثيرا وفوق ماتقدر على حمله وقلة الماء . فما هى إلا ساعة حتى جنحت ، ثم غرقت على عمق قامة منها فى موضع عميق للغاية .وكان غرقها فى ثلاث دقائق ، وكان بها الجنرال (راندل) باشا (والقومندان كيل)والأمير الملكى (كريشان(٢٥١) فيكتور)إبن ملك الدنمارك متطوعا فى هذه الحملة . وكانت بعض زوارق للأهالى على مقربة من المدفعية ،فقفز الثلاثة إليها وتمكنوا من الوصول الى الشاطئ ،فنجوا ونجا من كان بها من الجند وأهل المناصب بعد عناء شديد ، ووصلوا إلى البر سالمين . واهتم ربان المفعيه(٢٥٢)ومن معه من العساكر بخلاص

(٢٤٨) المتعلمية والشكرية والبطاقين = الجميعاب والشكرية والبطاحين .
ـ راجع أسماء هذه القبائل فى الحاشية ٢٤٦ من حواشى عام ١٨٩٨ .
(٢٤٩) المتوصل = المتواصل .
(٢٥٠) خط أ = خطأ .
(٢٥١) كريشان = كريستيان ـ قراءة ترجيحية ـ أما اللواء راندل Randell فقد كان رئيس أركان حرب الجيش الزاحف .
(٢٥٢) المفعية = المدفعية .

المدفعية ،فربطوها بالسلاسل التخينة وسحبوها إلى الشاطئ حتى لاتسقط الى قاع اليم . ولحقت بمحل الحادثة المدفعية (طاهره) ،فحملت من كان بالمدفعية الغارقة ، وأتت بهم إلى المعسكرات الأمامية . فلما كان يوم الثلاثاء ثلاثين أغسطس من السنة ، ثانى عشر ربيع الثانى من السنة زحف الجيش على قسمين ،قسم المصريين منهم وسار فى جانب الصحراء ،والقسم الإنجليزى وسار على النيل . هذا وكانت المدفعيات تتقدم فى الناحية اليسرى والفرسان وأصحاب المدافع تسير فى تلك الجهة أيضا .وظل الجيش سائرا على هذا الترتيب مسافة عشرة أميال أو يزيد ،ثم وقف المشاة للإستراحة ،وظل الفرسان وأصحاب الهجن دائبون فى السير حتى دنوا من الرابية المعروفة (برابية الشيخ الطيب) التى كان العدو يرصد منها حركات الحملة ، فاحتلوها وعسكروا بها .وجاء الخبر بذلك إلى مقدم الحملة ، ففرح جماعة الضباط بذلك وبشروا جنودهم بذلك ، وكان الضباب فى ذلك اليوم كبيرا . وعاد قومندان المدفعيات وأخبر بأنه قد قطع شأفة جميع أصحاب المهدوية ومحى آثارهم من جانب النيل الشرقى ، فلم يبق منهم أحد .وأنه قد دمر بمدافعه (جزيرة توتى) ودكها دكا بعد أن أسكت مدافعهم وخربها ، رغم ما لقيه منها بالجزيرة . وباتوا ليلتهم تلك حيث انتهى بهم المسير .وأصبحوا وقد عاد رواد الحملة وأخبروا بما استكشفوه من أحوال (أم درمان) ،وكان بدء هذا الإستكشاف من (تلة كردى) .وقالوا بإن الفرسان من أصحاب المهدوية قد قدم[٢٥٣] الكر والفر ،وأن طول مقدمة جيشهم من ثلاثة إلى أربعة أميال ، وأعلامه كثيرة جدا ، وضجيجهم بالغ عنان السماء . فلما علم مقدم العساكر الإمامية بذلك نادى فى عسكره بالنفير ، فخرجوا من معسكرهم وهم على أكمل مايكون من النظام وأتمه . فلما صارت الساعة السادسة والدقيقة أربعين من اليوم الثانى جعلت أصحاب المدافع تطلق قنابلها على العدو ، وقد اصطف للقاء العساكر ، فأخذ هو

(٢٥٣) قد قدم = على قدم ــ قراءة إجتهادية .

كذلك يطلق بنادقه تباعا .وماهى إلا لحظة حتى هم جيش العدو بمهاجمة ميسرة العساكر المصرية منصبا عليهم من الروابى والتلال ، ولكن أخذته نيران المدافع والبنادق من كل جانب ساعة ،فشرعوا يهاجمون الوسط ، وهم فرسانهم أن يقابلوا النيران التى كانت تنصب إنصباب المطر فى[٢٥٤] العساكر الإنجليزية والعساكر السودانية ،ولكن النيران طحنتهم طحنا . فنكص جيشهم كله على عقبيه وقد اكتست حومة القتال بالجثث والأشلاء . وقد أظهروا من البسالة وشدة البأس فى هذه الهجمة ما أشهد[٢٥٥] جميع مقدمى العسكر . فقد إقتحم حملة البنادق منهم صفوف الجيش على مسافات بعيدة ، وكان أمراؤهم يبيعون أرواحهم بيع السماح فى سوق المنايا . ثم سكتت نيرانهم فنادى منادى العسكر بالبوق أن تقدموا إلى(أم درمان) ،فزحف الجيش كله وهو يفتك بالدراويش ، حتى صار أمام أبواب (أم درمان) .وهرب العدو إلى الروابى والآكام متقهقرا مذعورا .فبرز أمر السردار الى فرقتين بالوقوف بالمرصاد للعدو كى لايحاول الكرة على ميسرة الجيش .وبعد أن استسقى[٢٥٦] الجيش وملأوا أوعيتهم ، ساروا صفوفا زاحفين إلى (أم درمان) على نظامهم وترتيبهم . فشوهد إجتماع الدراويش ثانية مختفين تحت الصخر وراية الخليفة السوداء تخفق فوق رؤوسهم .فبرز الأمر إلى العساكر السودانية وقوة أخرى من نحو خمسة عشر ألف مقاتل بأن يهبطوا لمعاونة العساكر المصرية الزاحفة على يمين النيل . وكان أصحاب المدافع الرشاشة قد وصلوا للنجدة ، فاصطفت الجنود ثانية فى مكانها وتأهبت لمقاتلة العدو إذا هاجمها ،وكان السردار يطوف حول جنود الوسط والميسرة . ثم سارت قوة من العساكر السودانية فاستولت على الرابية الصخرية . فما هى إلا لحظة لطيفة حتى أصبح معظم جيش الخليفة عرضة لنيران

---

(٢٥٤) فى = من .

(٢٥٥) اشهد = شهد به .

(٢٥٦) استسقى = استقى

قتـالة .فـأظهـر القـوم(٢٥٧)من البسـالة والإقـدام مـا لا ينكره مكابر ، إذ فتـحـوا طريقهم وسط ذلك الضيق المستحكم ،ولكن نيران الجنود قد حصدتهم حصدا وردتهم على الأعـقـاب .واشـتـدوا عليـهم برمى البنادق والقنابل شـدة بالغـة جدا ،وراسلوا الرمى ساعة .فلما ضاقت عليهم المذاهب وأيقنوا أنهم مأخوذين لا محالة أركزوا أعلامهم فى الأرض وأحاطوا بها حتى قتلوا بجانبـها .وكـان منظرهم مـؤثرا رهيـبـا مـحـزنا ،ومن بقى منهم خـرج على وجـهـه هائمـا فى الصـحـراء ،وقـد تغطى وجه ذلك الفناء بالجـثث المكسـيـة بالمـرقعـيـات(٢٥٨) والشـمـلات البيضاء ،فكانت الأرض كأنها مكسية بالثلج . وتتبعت العساكر الفـارين تقـتـل وتعـمـل السـيف فى أقـفـيـتـهم ، وظل الفرسـان يقـاتلون فـرسـان البـقـادة(٢٥٩) اليوم بطوله حـتى دحـروهم .ومن العـجـب أن إقـدام العـدو وبسـالتـه كانت فـائقة كل وصف . فـإنهم بعد أن تمـزق شـملهم وخـارت عزائمـهـم ،كـانوا يجـمـعـون شـمـلهـم كلمـا تمكنوا من ذلك ويهـجـمـون على صـفـوف العـسـاكـر ويقـاتلونهم قـتـال الأسـود حـتى يتـقلوا(٢٦٠)عن آخـرهم .وكـان الأمـراء منهم يشنون الغارة غـيـر هيـابين ولا وجلين من المـوت ،وكـان الجـرحـا(٢٦١) والمـصـابين منهـم يطلقون على العسـاكر النيران وهم فى حشرجة الموت .

فلمـا صـارت السـاعة الحـادية عشـرة وربع صبـاحـا أى قبل الظهر من اليوم الثـالـث ، نفخوا فى البوق بأن تقدموا .فزحفت العساكر كلها صفوفا وهى تدحـر بقايا العدو المبـددة فى الصحراء ،فى حين أن الفرسان كانت تقطع عليهم خط الرجـعـة إلى أم درمـان . فـمـا هى إلا سـاعة حـتى دخل السـردار فى ركـبـه وبين

(٢٥٧) المقصود هنا القوات المهدية .

(٢٥٨) جبة بها رقع تشبه لبس الدراويش وهذا ما دعا بعض الكتاب إلى تسمية المهديين بالدراويش ــ وكان هذا هو ملبس محمد أحمد المهدى وملبس أتباعه ــ راجع مكى شبيكه (مختصر تاريخ السودان الحديث) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٨٦ .

(٢٥٩) البقاده = البقاره .

(٢٦٠) يتقلو = يقتلوا .

(٢٦١) الجرحا = الجرحى .

أركان حربه المدينة ،ودخلت طليعة الجيش أيضا ومعه راية الخليفة السوداء . وقد هرب الخليفة واختفى فى نفر من خواصه وأصحاب ديوانه وزعماء قومه البقارة . فتبعهم طائفة من الفرسان تجد فى أثرهم ، ومابقى فى المدينة وسوارها من الدراويش سلموا طائعين . ففتش السردار المدينة وأطلق من وجده فيها من الأسرى الأجانب على اختلافهم . وتفقد خرائب الخرطوم ، وطير الخبر بهذا النصر العظيم إلى ديار الإنجليز أولا ثم إلى وزارة الحرب بالقاهرة ، وإلى فخرى باشا نائب الغيبة ، فدقوا البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق .وأرسلوا البشرى إلى الأمير بديار الفرنجة على جناح البرق . وأطلقوا واحد وعشرين مدفعا من قلعة الجبل وسائر قلاع الإسكندرية ،ففرح الناس فرحا عظيما ،وازدحم آباء الضباط المصريين وعيالهم على أبواب وزارة الحرب يسألون عمن مات فى هذه المواقع الطاحنة . فأخبروا بمن مات ومن لم يمت .فكنت ترى أعينا باكية وأوجها باشة فرحة ،فقد كانت القتله[٢٦٢] والجرحى من مقدمى الجند ،والجند من الإنجليز والمصريين والسودانيين كثيرين . ومات من كبار جند الإنليز[٢٦٣] جماعة كثيرة أيضا ،نعوهم إلى عيالهم بديار الإنجليز على جناح البرق . وحكوا كثيرا عن شجاعة العساكر المصرية وإقدامهم العجيب ،حتى حكوا أنه لما حملت الفرسان المصريين على جيش العدو الإحتياطى والشرازم المتبعثرة من الدراويش بعد هذه النصرة الوزرة[٢٦٤] كى تمنع رجوعهم إلى أم درمان ،كانت حملتهم صادقة .فإنهم عند ما وصلوا إلى مسافة ثلاثين ياردة من موقع ذلك[٢٦٥] وجدوهم متحصنين فى ملاحة أرض واطئة ،وهم متحمسون ومتحفزون للقتال ، فأعادوا[٢٦٦] عليهم .فاضطر الفرسان أن يفتحوا لهم طريقا فى

---

(٢٦٢) كانت القتله = كان القتلى .
(٢٦٣) الأنليز = الإنجليز .
(٢٦٤) الوزرة = المؤزرة .
(٢٦٥) موقع ذلك = ذلك الموقع ــ قراءة إجتهادية .
(٢٦٦) فأعادوا = فأغاروا ــ قراءة ترجيحية .

وسط صفوف العدو المحتشدة ،وجاهدوا جهادا عظيما ،وأبلوا بلاءاً حسنا .وكان كلما سقط فارس منهم يقطعه الأعداء بسيوفهم تقطيعا بمجرد سقوطه الى الأرض . فارتد الفرسان على أعقابهم إلى الطرف الأقصى من الطرق الضيقة التى هجموا منها على صفوف العدو ،وهنالك انتظم عقدهم ثانية . قالوا وحدث أن أحدهم كان دمه يسيل وجسمه يرتجف فى سرج جواده ، صاح بهم عند ماناداهم البوق بالرجوع وهو يحرك رمحه) لاتعودوا ياإخوان أدراجكم أبدا ، لا ترجعوا إليها أيها الأبطال ، ضموا شملكم وقاتلوا هؤلاء السود ، إهجموا) . فهجموا هجمة شديدة فأمطرهم العدو نارا حامية . فسقط القائمقام (غرانفيل) قتيلا ، فتقدم الضابط (مونتمورسى) والجاويش (سورباك) لينتشلا جثته والملازم (كتا) . وجعلوا يطلقون على العدو غداراتهم حتى أبعدوهم عن الجثة ، ولكن جمح حصان القتيل فلم يقدروا على إنقاذه . فحمل الفرسان حملة ثانية وجعل جماعة منهم يطلقون غداراتهم على العدو حتى دحروه إلى جهة النيران المنصبة من صفوف المشاة بعد أن بلغوا خط الدفاع .قالوا فكانت هذه الحملة فريدة فى بابها ، ونسى جماعة الإنجليز ماكانوا يتهمون بخ[٢٦٧] الجنود المصرية من ضعف العزيمة وعدم الثبات .

وماهى إلا ساعة بعد هذه النصرة المؤزرة حتى رفعوا الراية[٢٦٨] والراية الإنجليزية معا فوق ربوع الخرطوم . وجاء الخبر بذلك إلى نائب الغيبة ، وبأنهم أصبحوا يوم الأحد رابع سبتمبر من السنة ، سادس عشر ربيع الثانى ، وقد اجتمع ساير الجنود على اختلاف ألويتهم وهتفوا هتافا عظيما ثلاثا لتحيا جلالة ملكة الإنجليز ،وليحيا الأمير عباس باشا الثانى . ثم أقاموا حفلة العزاء ، فعزف أصحاب المزامير بمزاميرهم (لحن الموتى) وصدحت الموسيقى بألحان الحزن ، ثم صدحت النشيد المعروف عندهم ب(خليك معى) . وظلوا على هذا

---

(٢٦٧) بخ = به .

(٢٦٨) الرايه = الراية المصرية ــ أضيفت الكلمة لتتفق والحقيقة التاريخية .

ساعة ، ثم تقدم كبار الجند وهنأوا السردار كتشنر باشا ، ثم جعلوا يتفرجون على مابقى فى الخرطوم من الآثار التاريخية والمعالم القديمة لاسيما المكان الذى قتل فيه غردون باشا ، ثم رجع السردار فى سفينة إلى المعسكر العام(٢٦٩) .

---

(٢٦٩) فى ٨ أبريل ١٨٩٨ وبعد سقوط العطبرة ركز الخليفة عبدالله التعايشى دفاعه فى أم درمان . ولما كانت المدفعيات (الزوارق النيلية المسلحة) هى مصدر الخطر فى تصوره ، فقد أقام الطوابى على النيل ووضع سلاسل بعرضه لتعوق تقدم هذه الزوارق .

فى ٣١ أغسطس خرج الخليفة عبدالله التعايشى فى جيش قوامه ٥١٧٨٩ رجل بينهم ٥٤٩٥ فارساً إلى غربى أم درمان . مع فجر أول سبتمبر تمكنت القوات الغير نظامية من احتلال الخرطوم وجزيرة توتى وأمكن إنزال بطارية من مدفعية الهاوتزر Hawitzer إلى البر . وشرعت المدفعية فى ضرب أم درمان فى ظهر يوم أول سبتمبر . وصل الجيش إلى منطقة (العجيجة) وأقام معسكره على شكل نصف دائرة يمثل النيل قطرها ـ واتخذت القوات المصرية مواقعها إلى اليمين واتخذت المدفعيات مواقعها فى النيل لتحمى الجيش الذى كان يفصله عن جيوش الخليفة سهل فسيح عسكرت خلف جبل فى وسطه اليسار قوات الخليفه ـ وكانت تلال كررى على يمين ذلك السهل . بدأت معركة (أم درمان) فى الساعه السادسة وأربعين دقيقة من صباح الجمعة ٢ سبتمبر . قام المهديون بثلاث هجمات مركزة . كانت الأولى فى شكل هجوم مباشر على شكل هلال قاده (عثمان الأزرق) بقوة قوامها ٨٠٠٠ مقاتل ، واستمرت المعركة حتى الثامنة والنصف ، ثم انسحبت هذه الموجة لتعقبها موجة أخرى بقيادة (يعقوب) أخ الخليفة ركزت على لواء الميجور مكدونالد لاختراقه ـ لكن هذه الموجة فشلت بدورها وانتهت إلى مصرع قائدها (يعقوب) . ثم جاءت الهجمة الثالثة والأخيرة بقيادة الخليفه ومعه (على ود حلو) وابنه (عثمان شيخ الدين) ـ وكسابقتيها فإن هذه الهجمة تبددت بدورها .

بذلت بعض القوات المهدية محاولة يائسة لمنع الجيش من الزحف على أم درمان لكنها فشلت أيضاً ـ وأصبح الطريق مفتوحاً أمام قوات استرداد السودان لاحتلال أم درمان .

فر الخليفه عبدالله إلى الغرب ومعه ابنه عثمان شيخ الدين وعلى ودحلو وعثمان دقنه بعد أن تكبدت قواته عشرة آلاف قتيل و١٦ ألف جريح .

بلغت خسائر جيش الإسترداد ٩ ضباط و١٢٢ جندى إنجليزى ـ و١٤ ضابطاً منهم ٥ ضباط إنجليز و٢٤١ جندياً مصرياً .

فى ٤ سبتمبر تم رفع العلمين المصرى والإنجليزى على الخرطوم .

تكلفت حملة الإسترداد فى الفترة ١٨٩٦ ـ ١٨٩٨ مليونان وثلثمائة أربعة وخمسون ألفاً من الجنيهات منها مليون ومائتى ألف جنيه للخطوط الحديدية والبرق ـ أما النفقات العسكرية فلم تتجاوز مليون جنيه ـ ساهمت بريطانيا فيها بثمانمائة ألف جنيه وتحملت مصر مليوناً ونصف من الجنيهات .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩ ـ ١٨٩٩) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧٣ ـ ١٧٥ .

ـ الأورطة الرابعة بنادق مشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٠ ـ ٤١ .

وجعل سلاطين باشا ومن سار معه من الجنود يطاردون الخليفة عبد الله ويجدون فى أثره ، حتى صاروا على بعد ثلاثين ميلا من أم درمان فلم يتمكنوا من اللحاق به ، وقد تمكن من النجاة فرجعوا على أعقابهم . وقام الكولونيل (هوب) من أم درمان فوصل إلى القاهرة فى أقل من أربعة أيام بثلاث ساعات ،ويقال أنه آت فى أمور مهمة ورسائل خطيرة للغاية لم تصل الينا معرفتها لشدة كتمانها . فلما ألقى عصا ترحاله أصابته حمه[٢٧٠] شديدة ، فكانت حالته تنذر بالخطر فى كل لحظة من الزمان ، وظل على هذا حتى تعافى . وجعل مشائخ القبائل وكبار القوم ممن كانوا فى أم درمان وأرباضها وبعض المنازل الغربية يفدون على السردار طالبين الأمان وخاضعين له . فكان يؤمنهم ويظهر لهم العطف والحنان إلا من ظهرت عصاوته ومقاتلته من جماعة الدراويش .وكانت النساء والأطفال يأتون من داخل البلد وهم فى هتاف وصياح بالدعاء يصم الآذان . وكان هتافهم يتزايد كلما رأوا صفوف العساكر تمر حول البلد وعند قلعة الخليفة ، والسود منهم[٢٧١] محتشدات فى الطرق والشوارع يغنين وينشدن أناشيد الحرب . وعند ما شاهدن آباءهن وأزواجهن وأولادهن سايرين فى حراسة الجنود أظهرت[٢٧٢] من العطف والنو[٢٧٣] ما يؤثر فى النفوس ويهيج الجوارح .

(٢٧٠) حمة = حمى .
(٢٧١) والسود منهم = والنسوة منهن .
(٢٧٢) أظهرت = أظهرن .
(٢٧٣) والنو = والنواح ـ قراءة ترجيحية .

وكان لما دخل الجنود أم درمان هرع جماعه منهم إلى جثة قبر المهدى ، وقد كانت قنابل المدافع قد هدمت القبة وحطمت بعض جدرانه ، فامتلأ أحد جوانبه بالأحجار والتراب وتعذر الوصول الى داخله . فتقدم جماعة من العساكر السود وفتحوا لهم فتحة فى أحد جوانبه القائمة ، ودخلوا الى القبر لعلهم يجدوا فيها شيئا من كنوز الخليفة أو خبايات المال . وكان العامة قيل[٢٧٤]سبقوهم إلى بيت المال فنهبوا ماوجدوه واحتملوه ، فلم يعثر الجنود على شئ . وكان ممن دخل مكان القبر من جماعة الإنجليز إبن أخى غردون باشا ذبيح أصحاب المهدوية .قيل فلما رأى القبر مزينا بالأعلام والبيارق وحوله درابزين حديد منقول من كنيسة الأقباط أخذته رجعة[٢٧٥] الغضب ونسفه مسفا[٢٧٦] بالديناميت ،ومثل برفات المهدى ورأسه إنتقاما لعمه غردون .ونقل خبر ذلك مكاتبى الصحف وعابوه على إبن أخى غردون وعدوه عملا وحشيا لامسوغ له . فاهتم بعض أصحاب الصحف الكبرى الإنجليزية بتكذيبه ، فلم يغن تكذيبه عنهم شيئا .وقد فعلت مدافع الحراقات بقلعة أم درمان أيضا فعلا شديدا ، وهى مبنية من الحجر الصلد المنقول من خرائب الخرطوم . قالوا وطول الحجر عشرة أقدام وعرضه أربعة . وذهب السردار وأركان حربه يوم ثامن سبتمبر من السنة لمساعدة[٢٧٧] ترسانة التعايشى . فما هو أن وصل إليها حتى رأى عند سورها جماعة كثيرة من عظماء المدينة وكبار مشايخها قد جاء[٢٧٨] لتقديم الطاعة وطلب الأمان ، وبين[٢٧٩] كثير من حكام الأقاليم السودانية القديمة من ترك ومصريين ، وكذلك جماعة من مقدمى عسكر حملة هيكس ومعه[٢٨٠]حاكم

---

(٢٧٤) قيل = قد .
(٢٧٥) رجعه = رجفة .
(٢٧٦) مسفا = نسفا .
(٢٧٧) لمساعدة = لمشاهدة .
(٢٧٨) جاء = جاءوا .
(٢٧٩) وبين = وبينهم ـ قراءة ترجيحية .
(٢٨٠) ومعه = ومعهم ـ قراءة ترجيحية .

سنار التى هى آخر ماملكه مدعى المهدوية من الأملاك المصرية .وكان معهم بناء[٢٨١]حصون ومعاقل التعايشى وكبار ضباط ديوانه ،وكلهم بقايا حملة هيكس ، وطبيب غردون باشا . قالوا وهو لا يزال يعرف طرقا[٢٨٢] من الإنجليزية . وغبر[٢٨٣] السردار بينهم ودخل الترسانة وطافها كلها ، وهى بناية مساحتها زهاء ثلاثة أفدنة ، وهى مبنية بالآجر . فوجد فى باحتها الداخلية خمسة عشر مدفعا من النحاس الأصفر مرفوعة على مركبات ، وهى من مدافع إسماعيل باشا الخديو ، منها إثنان من مدافع كروب الرشاشة من الطراز القديم ، ومدفع من طراز (نورد نفلت) ، ومنها مئات من الأدوات المتنوعة ، وفى جملتها مركبة الخليفة عبد الله الخصوصية وهى مركبة مقفة[٢٨٤] (لندو)[٢٨٥] مجللة بالجوخ الأزرق ، ومعزف مكير[٢٨٦] . ووجدوا بعض مكابس حديد وجميع الآلات والأدوات التى تلزم لصنع المدافع والبنادق . وفى حوشها الداخلى معمل لصنع القنابل والخرطوش على طريقة معمل (كروب)الألمانى .وهذا المعمل مصنوع فى أم درمان وعليه بعض الكتابات العربية .ووجدوا أيضا دوائر[٢٨٧] وبنادق رمنتون مصنوعة على الطريقة الاوروبية ، وفيها مجموعة كبيرة جدا من الأسلحة والبنادق على اختلاف أنواعها من قديمة وحديثة ، وحراب من جميع الأشكال ، وطبول من صنع أهل بحر الغزال ، وأرحال للجمال كثيرة جدا ،

---

(٢٨١) بناء = بناة ـ قراءة إجتهادية .

(٢٨٢) طرقا = طرفا ـ قراءة إجتهادية .

(٢٨٣) وغبر = وعبر .

(٢٨٤) مقفة = مقفلة .

(٢٨٥) (لندو) = لاندوا Landau ـ عربة ركوب مقفلة ذات أربعة عجلات ـ تنقسم قمتها إلى قسمين ، يمكن خفض أى منهما مستقلاً عن الآخر .

ـ (Webster's New Universal Unabridged Dictionary) - Ibid.. P. 1016

(٢٨٦) أى آلة عزف يستخدم فيها (الكير) وهو المنفاخ فى جلب الهواء لإصدار الصوت ـ وهى ما تسمى بالأكورديون accordion .

ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٤٤ .

(٢٨٧) دوائر = أى طلقات نارية ـ وهى ترجمة حرفية للكلمة الإنجليزية Round أى طلقة نارية .

وسيوف وحراب من باقايا[٢٨٨] حملة هيلكس[٢٨٩] ،وأزناد لقدح النار ، وبراميل مملوءة من ملح البارود ،وخوزة[٢٩٠] قديمة من عهد الصليبيين ، ومنطقة[٢٩١] النحاس الأصفر ألتى كانت فى كنيسة الخرطوم ، وصناديق كثيرة من البارود .قال الراوى وشوهد فى زاوية البناية البرج الذى سمع منه يوم الكريهة قرع الطبول عند ما استفز التعايشى جنوده إلى الخروج للقتال . ثم ذهب السردار فى ركبه إلى مشاهدة ما فى بيت مدينة يعقوب[٢٩٢] ، فوجد فيه أيضا أشياء كثيرة من الخوز[٢٩٣] والدروع والسيوف الدمشقية القديمة ، وآلات ومعدات للحرب تكفى جيوشا كثيرة من الفرسان ،ورايات مدعى المهدوية التى كان ينشرها فى غزواته وحروبه . وخرج عايد[٢٩٤] إلى معسكره فجاء من أخبره بام[٢٩٥] مئات من الجرحى المشوهة أجسامهم قد زحفوا إلى اقزر[٢٩٦] حى فى المدينة واختفوا به ، وأن الدماء تسيل من جروحهم ، فتخرج من الأكواخ التى يختبئون فيها ، فتشرق عليها الشمس فتصيرها بركانا[٢٩٧] سوداء فرسم بإحصائهم فأحصوهم ، ولكنهم لم يمدوا له[٢٩٨] يد المساعدة ، ولا هم خففوا آلامهم بتضميض[٢٩٩] جروحهم كما تقضيه[٣٠٠] الشفقة والحنان . قال مكاتب

---

(٢٨٨) باقايا = بقايا .
(٢٨٩) هيلكس = هيكس ــ عن هيكس وحملته انظر الحاشية ٣٥٧ ــ من حواشى عام ١٨٩٦ .
(٢٩٠) خوزة = خوذة .
(٢٩١) ومنطقة = ومنطقة من ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص ــ قراءة إجتهادية .
(٢٩٢) يعقوب هو أخ الخليفة عبدالله التعايشى .
ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٧٤ .
(٢٩٣) الخوز = الخوذ .
(٢٩٤) عايد = عائداً .
(٢٩٥) بأم = بأن .
(٢٩٦) أقزر = أقذر .
(٢٩٧) بركاناً = بركاً .
(٢٩٨) له = لهم .
(٢٩٩) بتضميض = بتضميد .
(٣٠٠) تقضيه = تقتضيه .

شركة التلغرافيه[٣٠١] لأنهم ــ يعنى أولئك القوم الدراويش ــ قد نبشوا قبور إخوانهم الإنجليز من قبل ، ومثلوا بموتاهم تمثيلا قبيحا .

وفرح القوم الإنجليز بسقوط أم درمان وزوال دولة المهدوية ، وصاح أصحاب صحفهم صيحة الفرح ،وأمطروا السردار وابلا من الثناء والمدح ، ورفعهم[٣٠٢] بعضهم إلى مصاف آلهة الحروب عند قدماء الرومان . وتجمهر الشعب الإنجليزى حول تمثال(غردون) فى الساحة المعروفة عندهم ساحة ترافلكاد[٣٠٣] (أى طرف الغاد[٣٠٤])وراء العامود المقام تذكارا لأمير سفنهم الحربية نيلسون الشهير ،فقاموا هناك بمظاهرة عظيمة ، ووضعوا إكليل الزهر على تمثال (غردون) ، وكتب أحدهم على قاعدة التمثال هذه الكليمات(قد إنتقم له) وقال أصحاب صحفهم أن هذا الشعب منهمك بالبحث عن القايدين[٣٠٥] الباسلين اللذين تم على يديها هذا النصر الباهر ،وهما السردار (كتشنر) ، والقبطان (كولين ريشاد)[٣٠٦] وكيل قائد المدفعيات النيلية . قالوا وقد تقرر إلى

---

(٣٠١) لم يذكر شارويبم إسم الشركة التلغرافية التى كان ينتمى إليها المكاتب ــ لكن الإحتمال هو أن تكون رويتر Reuter أوهاڤاس Havas . وقد أنشئت الأولى عام ١٨٥١ وكان مقرها لندن ــ أما الثانية فقد أنشئت عام ١٨٣٥ فى فرنسا ــ كما كانت هناك وكالة تلغرافية ثالثة Telegraphic News Agency أنشئت فى نيويورك عام ١٨٤٩ . وخلال القرن التاسع عشر أنشئت فى نيويورك وكالة الأسوشيتد برس Associated Press (١٨٤٨) من تجمع ستة صحف تطبع فى نيويورك للتغلب على نفقات إرسال مراسل من كل صحيفة لتغطية الحرب المكسيكية (١٨٤٦ ــ ١٨٤٨) .

ــ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 15 - P., 533.

(٣٠٢) ورفعهم = ورفعه .

(٣٠٣) ترافلكاد = ترافلجار Trafalgar ــ وساحة ترافلجار أو ميدان الطرف الأغر ــ هو ميدان فى وسط غرب لندن يسمى Trafalgar Square يتوسطه تمثال هوراشيو نلسون Horatio Nelson قائد معركة الطرف الأغر Battle of Trafalgar التى وقعت فى ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ بين الأسطول الإنجليزى بقيادته وأسطول فرنسى ــ أسبانى مشترك تحت قيادة الأميرال ڤيلنيڤ Villeneuve عند ساحل أسبانيا الجنوبى الغربى . وفى هذه المعركة التى أنهت خطط نابليون لغزو إنجلترا فى إطار الحروب النابليونية Napoleonic Wars ــ تم تدمير الأسطول الفرنسى ــ الأسبانى ــ وموت القائد نلسون الذى خلدت ذكراه بلاده بإقامة تمثاله هذا فى ميدان سمى باسم المعركة التى لقى مصرعه فيها .

ــ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 19 - P., 264 ــ

(٣٠٤) طرف الغاد = الطرف الأغر .

(٣٠٥) القايدين = القائدين .

(٣٠٦) كولين ريشاد = كولين ريشارد Richard Collins .

ذاك الحين أن يعين السردار عضوا لمدينة (لوندره) فيستقبل فى حفلة فى كيلد هول[٣٠٧] وهى إحدى قصورهم المشهورة ، وتقدم له شهادة العضوية فى علبة من الذهب جريا على عادتهم فى مثل ذلك . وقد إتفق قولهم جميعا على أن سيرقى السردار إلى (رتبة الأشراف) فيقال له (لورد كتشنر أوف خرطوم) .

وأخذت الجيوش الإنجليزية كلها أو جلها تنحدر من أعالى السودان إلى القاهرة غانمة ظافرة ،ورايات الفخار ترفرف فوق رؤوسها .وانحدر معهم أسرى الحبشان الذين كانوا فى جيوش التعايشى ، وعددهمماية وخمسين أسيرا عائدين إلى بلادهم . وانحدر كذلك كثير من المهمات وادوان[٣٠٨] الحروب والأدواء ، واحتياجات المرضى على ظهور المراكب ، والنقالات ، وملحقات من المهندسين . وجاء من (وادى حلفا) الملحقين العسكريين الأجانب الذين كانوا برفق[٣٠٩] الحملة .وجاء الخبر إلى وزارة الحرب ونائب الغيبة من السردار بقيام المدفعيات إلى الجنوب قاصدة (فشودة) لاستكشاف ما حل بها .وقد جاءت الكتب إلى نائب غيبة لنرد[٣١٠] كرومر أيضا فى معنى ذلك . فما أن وصلته حتي قام من يومه إلى الإسكندرية ، وقابل جماعة الوزراء ، ومعتمدى سياسة الفرنسيس والروس والألمان ، وحادثهم جميعا فى أمر فشوده ، ورفع الراية الافرنسية على ربوعها .أقول وقد كنت فى شهر أغسطس ،شهر الحملة على السودان وتدويخ مهدويتها ، نزيل(لوندرة)عاصمة الإنجليز ، ذهبت إليها زائرا متفرجا من (باريز) عاصمة الفرنسيس ، فأقمت بها من اليوم الأول من الشهر إلى ثامن شهر سبتمبر ، فكنت أينما توجهت أرى من إهتمام القوم بأخبار هذه الحملة وتتبع سير الجنود مرحلة فمرحله ما أوجب اندهاشى ، وحقق عندى أن القوم إنما هم يقاتلون لسلطنتهم ، ويفتحون لتوسع مملكتهم ، لا

---

(٣٠٧) كيلد هول = جيلد هول Guild Hall .
ــ راجع حاشية ٤٠٦ ــ من حواشى عام ١٨٩٦ .
(٣٠٨) وأدوان = وأدوات .
(٣٠٩) برفق = برفقة .
(٣١٠) لنرد = لورد .

ليسترجعوا تلك المملكة المترامية الأطراف إلى مصر صاحبتها . كنت أرى صحفهم تتبارى فى نقل الحوادث والأنباء من أوثق المصادر ، فيعلقون فى صبح كل يوم على جدران المكاتب والحوانيت والدور لوحاتا[٣١١] مخطوطة بالخط العريض الملون بأزهى الألوان تحت إسم الصحيفة ،يقولون فيها مثلا(دخول جيوشنا مروى) ،(وصول السردار إلى عكاشة) ، (إنحدار المدفعيات من الشلال الرابع) ،وأمثال هذه العبارات حتى يطلع الجمهور عليها ويختار الصحيفة التى تعجبه أنباؤها .فكنت إذا اشتريت صحيفة منها ، فما جاء فيها خبر وصول السردار إلى(عكاشة)مثلا[٣١٢]رأيت تفصيلا وافيا عن وصوله ، وما فعله عند وصوله ،وما دبره من الأمور ،وما رسمه من تكتيك القتال حتى يتخيل القارئ أنه بين صفوف الحملة يشاهد بعينه تلك الأعمال . وكنت أرى أهل المناصب وأصحاب الوظائف فى حركة لاسيما أصحاب وزارة الحرب ، فقد كان تزاحم الضباط ومقدمى الجنود على أبواب تلك الوزارة بالغا مبلغه ، والسعاة من هنا وهناك يحملون زرم الأوراق ويدخلونها تباعا ، وكان شقيقى أسكنه الله فردوس جناته يرسل إلى من البريد كل ثمانية أيام زرمة من الصحف المصرية . فكنت لا أرى فيها إلا ندفا من أنباء الحملة وأخبار القتال ، فاذا رأيت فسها[٣١٣] شيئا مطولا نوعا كان منقولا عن صحف الإنجليز مشوها متأخرا عن أوانه . فكنت آسف لذلك كثيرا[٣١٤] وأقول فى نفسى (يالله مابال قومنا يبذلون الآلاف

(٣١١) لوحاتا = لوحات .

(٣١٢) مثلاً = مثلاً حتى ـ إضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٣١٣) فسها = فيها .

(٣١٤) يأخذ ميخائيل شاروبيم على الإعلام المصرى فى نهايات القرن التاسع عشر تأخره فى اللحاق بركب الصحافة الجيدة التى توافى قرائها بالأخبار مفصلة لتشفى غليله وتعلمه ببواطن الأمور وحقائقها .

ويبدو أن الإعلام المصرى مصاب من قديم بداء التعتيم والتجهيل ـ حتى ليخيل للمرء ـ وقد كان الكاتب يكتب عن مصر أواخر القرن التاسع عشر ـ أنه يكتب عن الإعلام فى مصر ، ونحن فى أواخر القرن العشرين (كتب هذا عام ١٩٩٤) ـ فالتعتيم والتجهيل والتخلف عن الفن الإعلامى الحديث والضن بالمعلومات الحيوية وعدم مواكبة ومتابعة الأحداث التى تعنى الناس ، ووجود الصحف فى واد والقارئ فى واد آخر هى نفس شكوى الناس فى مصر بعد قرن من ملاحظة ميخائيل شاروبيم على الصحافة المصرية . فما أشبه الليلة بالبارحة .

من الأموال المجموعة بعرق جبينهم ، ويجهزون الآلاف من بنيهم جندا للقتال ، ويشترون المدافع والبنادق ، ويسيرون البوارج النيلية ، ويضعون الخطوط الحديدية ، وهم يقاسون الأمرين ، وينصبون الأسلاك البرقية ، ويجتازون الصحارى والقفار سنة بعد سنة ، ويحاربون ويبذلون نفس أبناءهم ونفائس أموالهم .كل هذا يفعلونه وهم مع ذلك لايملكون من أمره شيئا ،ولا يعرفون من أخبار تلك الحملة شيئا ،ولا يعلمون مما حل بعيالهم وأموالهم فى تلك الأرجاء شيئا ،فى حين أن القوم هنا ،أميرهم وحقيرهم ، غنيهم وفقيرهم أعلم بك(٣١٥)من أقرب المقربين من قصر الإمارة وديوان الوزارة ،وأدرى بما تكتبه(٣١٦) سرائر أصحاب السياسة وأهل الرئاسة بعد هذا الفتح القريب) .أى نعم ، فقد خرجت من مكانى بشارع بيكادلى(٣١٧) فى ساعة ورود خبر الفتح ، فرأيت الناس أفواجا قد سدوا منافذ الطرق بسن(٣١٨) نساء ورجال وأطفال وكلهم يصيحون بأصوات الفرح ، ويترنمون أناشيد النصر ، وبعضهم يحملون الرايات الصغيرة منقوش عليها حروفا هجائية . واحتشدوا ألوفا لاتحصى أمام تمثال غردون ،وبعضهم كتب على قاعدة التمثال «قد أخذنا بشاره(٣١٩) بعد فراغ الصبر» .ولم يكن لهم حديث فى ذلك اليوم إلا بما من الله به عليهم من دخول السودان فى سلطنتهم ، وسهروا تلك اليلة كأنهم فى ليلة عيد أو عرس ،وهم على أتم مايكون من الفرح والحبور فتأمل .

وتحولت الأحوال من تلاطم السيوف ووقوف الألوف للألوف إلى حرب الأقلام ، وترامى الظنون والأوهام ، واستنتاج المجهول من الظاهر المعروف .

---

(٣١٥) بك = بكل شىء أكثر ـ إضيفت الكلمات لتتفق مع المعنى .

(٣١٦) تكتبه = تكتمه ـ قراءة ترجيحية .

(٣١٧) بيكادلى = بيكاديللى Piccadilly شارع من أكثر شوارع لندن إزدحاماً وأناقة ـ يقع بين ميدان بيكاديللى Piccadilli Circus وهايد بارك كورنر Hyde Park Corner .

_Larousse Universel - vol. II. P., 578

(٣١٨) بسن = بين .

(٣١٩) بشاره = بثأره .

وسير الغازى(أحمد مختار باشا) مندوب الباب العالى فى مصر كتبه إلى المابين على جناح البرق قول[٣٢٠](إن الراية الإنجليزية قد رفعت على أطلال الخرطوم بجانب الراية المصرية ، وأن نائب غيبة لورد كومر قد أبلغ ديوان الإمارة بأن قد عزم صاحب السياسة الإنجليزية عزما أكيدا على جعل نفوذه فى السودان فوق كل نفوذ) .وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة ، وتناقله أصحاب الصحف على اختلاف نزعاتهم ، فهاج أصحاب الصحف الإنجليزية وماجوا ونادوا كلهم بصوت واحد (ألا إن مقام سلطنتنا الفاتحة برجالها ، المستعينة بأموالها لايعادله مقام ، وكل قول غير ذلك باطل ومعيب) .وجاء الطلب من المبايين[٣٢١] إلى ديوان الوزارة ببيان حقيقة الحال والخص[٣٢٢] على عدم التفريط فى شئ من حقوق السلطنة ،وأخذ الحيطة لمستقبل الأيام . فكثر اجتماع جماعة الوزراء ،وغدو ورواح نائب غيبة لورد كرومر .واستنصرت صحف دار السلطنة أصحاب صحف الدول الكبرى . فبرز لنصرتهم أصحاب صحف الروس ، وقام صاحب أكبرهم مقاما وأوسعهم انتشارا وألصقهم بأهل السياسة يقول(دع جماعة الإنجليز يثابرون على أعمال التمدن والحضارة الذين[٣٢٣] يأتونها فى ديار الفراعنة ، ولكن يجب عليهم أن لاينسوا أن لهذه الديار مركزا خاصا ، ومقاما محدودا يخولها الحق فى العزلة الدائمة والحماية الدولية) .وظلت حرب الأقلام على هذا حينا ، ثم جعلوا يرشقون بالكلام على فشودة ، واحتلال الفرنسيس لها ، على قصد الوقوف فى وجه الأنجليز وسد طريقهم المرسومة منذ إحتلالهم للقاهرة ،حتى أختلط عليهم الحال جمعا .

أقول وزارنى يوما صديق ممن كان فى مناصب السودان على عهد الخديو إسماعيل باشا وولاية غردون ، فسألته رأيه فيما تحولت إليه مسألة

(٣٢٠) قول = يقول .
(٣٢١) المبايين = المابين .
(٣٢٢) والخص = والحض .
(٣٢٣) الذين = التى .

السودان بعد فتح أم درمان . فضحك وقال (إعلم أن الخطة التى جرى عليها أولئك القوم الإنجليز مع مصر لابتلاع السودان ، لو جرى عليها أحد الأفراد لعد فى نظر العقلاء بين أكبر المجرمين .أى نعم ،عند ما اشتدت فتنة السودان وقويت شوكة أصحاب المهدوية ، حمل صاحب السياسة الإنجليزية يومئذ أمير البلاد المصرية على سلخ السودان . وكان من أمر إعلان ذلك ماهو معلوم ، ثم جعلوا يهولون بقوة الدراويش ويجسمونها فى نظر الدول ، ويصفونها بالأوصاف المريعة المزعجة كل الزمن الذى كام[٣٢٤] مركز احتلالهم قلق مضطرب ، والدول حائرة فى أمرها ، لا تعلم الصدق من الكذب . فلما زادت مشاغل الدول ورسخت قدم الإحتلال فى أرض الكنانة ،أسدل جماعة الانجليز الستار على هذا الفصل ،وجعلوا يمثلون فصلا جديدا هو فصل فتح السودان وكسر شوكة أصحاب المهدوية .فما هى إلا أيام بعد ذلك حتى جعل لورد كرومر يستفز الأمير تارة والرئيس أخرى إلى إشهار الحرب على مدعى المهدويهة ، وما زال يجد ويعمل بين وعد ووعيد . وكان ذلك فى الظروف التى عرفها القاصى والدانى ، حتى قامت الحرب على ساقها وتم أول الفتح على يد جنودنا ، وبأموال خزينتنا . فلما توغلت عساكرنا فى ديار المهدوية أعوزها المال ، فأقرضتها الدولة الإنجليزية مليونا من الجنيهات قرضا حسنا .ولم يكن شئ إلى ذلك الحين يدل على ما ينويه صاحب سياستهم . وكانت الظنون تترامى إلى أن حكم مصر سيكون كحكم السودان فى مستقبل الأيام إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا . فلما تحقق لهم أنه لاتكاد تكون الدراويش[٣٢٥] قوة سوى شجاعتهم وإقدامهم على الموت الزؤوم ، وهذه لاتغنى عنهم شيئا تجاه المدافع ، وثبت أنهم لايحسبون الحركة العسكرية ،ولايفهمون معنى تكتيك القتال وتعبئة الجيوش ، جاءنا النبأ باشتراك الجنود الإنجليزية فى الحملة

---

(٣٢٤) كام = كان .

(٣٢٥) الدراويش = للدراويش .

المنوية ، وأزاعوا[٣٢٦] فى كل ناحية أن القوم الدراويش قد أقسموا الأيمان الغلظة أنهم سيقاتلون عن (بربر) حتى لم يبق منهم دينار ولا نفاخ نار . فقامت الحملة وزحـفت الجـحـافل ، ودخلت بربر بلا طعن ولاقـتـال ، ثم جـرت مـوقـعـة (الاتيره)[٣٢٧] ،وعلم الناس طرا مبلغ سطوة أهل المهدوية ، ثم فتحت (أم درمان) وبعد تلك الموقعة المشهورة . قال (وقد تبين لك من كل ما تقدم أن المصريين لو زيد جيشهم واقترضوا المال الذى يكفى للنفقة لأتموا استرجاع السودان وحدهم بغير احتياج إلى جيش يساعدهم .ولكن القوم الإنجليز قد أقرضوا ذلك وجيشوا أولئك الرجال وازاعوا[٣٢٨] على رؤوس الملأ أنهم متبرعين لايريدون عوضا ولا بديلا ، ثم هم ماعتموا أن صاحوا بملء أفواههم يقولون أن لهم الحق الأول والنصيب الأوفر فى السودان . أعقلوا ذلك·وهم الأقوياء ونحن الضعفاء؟ وهكذا تحولت النعمة أشد من النقمة ،وأصبح الإحسان شر من الإساءة) . قال (ولذلك قلت لك عند سؤالك إياى أنه لو فعل أحد الأفراد مافعله أصحاب سياسة الإنجليز فى هذا الأمر لعد جانيا كبيرا) . قال (وهل يدور فى خلدك أن أقيال سياسة الدول القائلين بعدم جواز تقسيم أملاك السلطنة العثمانية تصير[٣٢٩]على انتزاع السودان ، فى حين أنها ترى الخطر ينتاب مصالحها) . فقلت ياعفاك الله والله إنى لا أدرى ،اللقمة سائفة[٣٣٠] ،وأصحاب سياسات الدول عنا لاهون يتساهلون . وقد ذكرنى هذا الأمر (بمعاهدة ولف) ، وهى المعاهدة التى اختار لعقدها صاحب سياسة الإنجليز (السير درمند ولف) ، واختار الباب العالى الغازى أحمد مختار باشا رسوله فى مصر ، عام سبع

(٣٢٦) وأزاعوا = وأذاعوا .
(٣٢٧) الأثيره = العطبره .
(٣٢٨) وأزاعوا = وأذاعوا .
(٣٢٩) تصير = تصبر .
(٣٣٠) سائفة = سائغة .

وثمانين وثمنمائة وألف للميلاد[٣٣١] . ويعلم الناى[٣٣٢]طرا أن هذه المعاهدة كانت تقضى بجلاء الإنجليز عن مصر بعد مضى ثلاث سنوات من يوم التوقيع عليها على شروط معروفة لامحل لها هنا . قال أعلم ذلك جيدا قلت . فوقعت عليها ملكة الإنجليز بخط يدها ، ولكن السلطان عبد المجيد[٣٣٣] رفضها وامتنع من التوقيع عليها ، ذلك لأن بعض الدول تعهدت له بأمور كثيرة مهمة تتعلق بديار[٣٣٤] ، ومن جملتها أن لاتمس أراضى الدولة مسا ، وأنها لاتفقد من أملاكها شبرا . فقال أعلم أن إمبراطور الألمان وقيصر الروس وغيرهما فعلوا ذلك . قلت وهؤلاء لايجهلون أن السودان من أملاك مصر ، وأن مصر جزء من جسن[٣٣٥] السلطنة العثمانية . فأين ياترى وعد أولئك الأقيال ، وقد آن أوانه وحقت عليهم المعونة ، وقد حملوا السلطان على رفض معاهدة (ولف) وأن يضرب بها عرض الحائط بما وعدوه به من المحافظة على أملاكه . وإذا كان احتلال الفرنسيس لفشودة إنما هو مقدمة لوفاء هذا الوعد ، فأنعم به من عمل لايقدر عليه إلا كل جبار عنيد . ولكن أتقدر جماعة الفرنسيس على الثبات فى هذا المأزق الحرج الذى يحتاج الى الحزامة وحفظ الكرامة ، وقد أسمعونا وأرونا فى سائر أدوار محنتنا أنهم قوالون غير فعالون؟ أفلا تراهم يوما وقد أخذتهم ضجة أولئك القوم الإنجليز من كل جانب ، وكسروا[٣٣٦] لهم عن أنياب الغضب ، فازدرت[٣٣٧] حملتهم على أعقابها فائزة من الغنيمة بالإياب ، ويرجع مارشاق[٣٣٨] فى طريقه بصفقة المغبون ، بعد أن شهر[٣٣٩] له العدو قبل الصديق

(٣٣١) عن المعاهدة الإنجليزية ـ التركية ١٨٨٧ انظر الحواشى ١٢ ، ١٥ من حواشى عام ١٨٩٢ ـ ٣٢٨ من حواشى عام ١٨٩٣ .

(٣٣٢) الناى = الناس .

(٣٣٣) عبد المجيد = عبد الحميد .

(٣٣٤) بديار = بدياره .

(٣٣٥) جس = جسم .

(٣٣٦) وكسروا = وكشروا .

(٣٣٧) فازدرت = فارتدت .

(٣٣٨) مارشاق = مارشان Marchand .

(٣٣٩) شهر = شهد .

بأنه الرحالة الذى لم يسبقه رحال ، والبطل الذى لم يهاب مقابلة الرجال .فقال صدقت وسيأتيك بالأخبار من لم تزود .

وسار السردار من الخرطوم الى فشودة فى عدد من العساكر السودانية وعدة كثيرة ، والأعناق متطاولة إليهم ، والقلوب مرتجفة .والناس يتحدثون بما عساه أن يكون من وراء إلتقاء الرجلين وجها لوجه .وجاءت كتب صاحب سياسة الإنجليز إلى وزارة الحرب ونائب غيبة لورد كرومر تباعا فى معنى ذلك .وأثبت الكونيل[٣٤٠] (فرانك رود) ألذى كان مكاتبا لصاحب التيمس فى الحملة أن القوم البيض الذين سيلاقيهم السردار فى (فشوده) ليسوا الماجور مكدولند[٣٤١] الإنجليزى ورجال حملتهم ، وإنما هم (مرشان) وقومه . فلم يبق محل للريب ولا داع للظنون . وما هى إلا أيام حتى جاء النبأ بوصول السردار راجعا إلى أم درمان بنفر ممن كان معه من العساكر السود . قال على أنه لما وصل فشوده لاقاه (مرشان) وأكرم لقاءه ، فحادثه السردار ساعة . قالوا وسأله أن يهبط معه إلى أم درمان فيسافر منها إلى القاهرة هو ومن معه على الرحب والسعة ، فأبى (مرشان)ذلك وقال ،حتى يأتينى الأمر من صاحب السياسة الفرنسية ، فلم يخاشنه السردار ولم يجافيه ، وأبرز أمره إلى طائفة من جنوده بالبقاء فى ناحية تقرب من فشودة رباطا ،وشدد عليهم بمسالمة القوم وأن يحسنوا جوارهم حتى بتيهم[٣٤٢] كتابه فى معنى ذلك . ثم هبط بمن بقى معه من العساكر إلى (أم درمان) ، وقد نصب العلم الإنجليزى والمصرى على الناحية التى أقام فيها رباطه . فلما وصل (أم درمان) رسم بإنزال ساير المرضى من الجنود ومقدمى الجنود إلى القاهرة . فحملتهم النقالات إلى حيث السكة الحديد ، وانحدروا من هناك فى عرباتها إلى القاهرة ، فمستشفى العباسية وهم زهاء المايتين ، وكلهم

(٣٤٠) الكونيل = الكولونيل .
(٣٤١) مكدولند = مكدونالد .
(٣٤٢) بتيهم = يأتيهم .

فى أشد حالات الضعف . وبات الناس يتطلعون إلى ماسيكون بين الإنجليز والفرنسيس بسبب فشوده ، وقد برح الخفاء ، وعرفت الدول قاطبة أن فتح السودان على ماتقدم وصفه هو باسم سلطنة الإنجليز ولها وحدها . وكتب الأمير (هنرى دورليان) الرحالة الفرنسى الذى عينه ناجوسى الحبشة مع (الكونت ليونيف) الروسى مديرا للمقاطعات الإستوائية الحبشية مقالة فى إحدى صحفهم الكبرى يقول فيها بعد كلام طويل (ما الذى منع جماعة الإنجليز ياترى من ترك مصر تسترجع السودان بنفسها ولنفسها .وما الذى حدا بها إلى إقراضها ذلك المال وإمدادها بأولئك الرجال؟ هل كان سبب ذلك ضعف مصر عن أن تسعى لنفسها بنفسها . كلا والله ثم كلا ، فقد قام رجلين من أكابر الرجال فى مصر واقترحا على الأمير ووزرائه أن يفتحا له السودان فتحا سليما[٣٤٣] بقليل من النفقة ، واشترطا أن لايتدخل أصحاب تلم[٣٤٤] الملابس الحمراء . وكان غرض هذين الرجلين أن يعملا الواحد لمصلحة السلطنة العثمانية ، والآخر لمصلحة الإيالة المصرية . وتقدم غيرهما إلى الرئيس بأن يأتوا برأس مدعى المهدوية بثمن لايزيد عن ألف جنيه ،فضلا عن[٣٤٥]جماعة الدراويش أنفسهم أظهروا ميلا كثيرا إلى الدخول فى طاعة الأمير بشرط أن لا يتداخل جماعة الإنجليز فى أمورهم ، ولايتم لهم أمرا على يدى أحد منهم . ولكن مع هذا كله فإن السادة الإنجليز عافاهم الله قد رفضوا الفتح السلمى ، ورفضوا رأس صاحب المهدوية بذلك الثمن البخس ، ورفضوا دخول الدراويش فى طاعة الأمير لأغراض فى النفس .هى فتح السودان بأموالهم ورجالهم ،حتى يكون لهم غنيمة .فقل لى أذن بحقك ،أبعد هذا عسف ومين؟لا وأبيك ، فليفقه صاحب سياستنا ويجعل الحزامة رائده ،وإلا ابتلينا بما نكره والسلام) أ .هـ .فلما كان سادس أكتوبر من السنة تاسع عشر جمادى الأول وصل السردار

(٣٤٣) سليماً = سلمياً ـ قراءة ترجيحية ـ راجع المزيد من ذلك فى السطور التالية .
(٣٤٤) تلم = تلك ـ قراءة إجتهادية .
(٣٤٥) عن = عن أن ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

إلى القاهرة فاستقبله الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماة[٣٤٦] الوزراء وبعض قناصل الدول وأهل المناصب وأصحاب الخطط ، وأطلقت المدافع لوصوله . فنزل من القطار وصافح القوم مسلما . فلما خرج إلى الطريق هتف له الجند هتاف الترحيب ، وحيته العساكر الإنجليزية . فركب جوادا إلى جانب السردار (غرانفل باشا) قائد جيوش الإحتلال ،ومرا بين صفوف الجنود إلى داره ،ووارئه طائفة من الجنود ، وتلامذة المدرسة الحربية ، وأصحاب الموسيقى يعزفون أناشيد النصر وأغانى الفرح بمقدمه .ونال السردار بهذا الفتح مقاما لايبارى ، وقدرا عظيما للغاية بين مقدمى جند الإنجليز وكبارهم ، وأعجب به أقيالهم إعجابا كبيرا .وكان الأمير معجبا ميالا إليه يوم كان مقدم أصحاب الشرطة المصرية ،وحدث أن وعده بإعطائه منصب السرداريه يوم ترك السير(غرانفل باشا) .فعارض لورد كرومر فى ذلك وأباه عليه لأمور بينهما ،فكبر الأمر على الأمير وأعظمه جدا ،وأصر على مافى نفسه ،وأصر كذلك لورد كرومر على رأيه .واتفق أن كان بالقاهرة يومئذ أمير من العائلة المالكة الإنجليزية ضيفا كريما ،فعلم بالخبر وكلم لورد كرومر فى ذلك ، فلم ير بدا يومئذ من الرجوع عن رأيه ، وتولى كتشنر باشا منصب السردارية رغم أنف كل ممانع .أقول ولما كان الإنكليزى خادم أمين لوطنه فى كل أدوار حياته ،وعبدا مطيعا لرؤسائه يتخلق بهذين الخلقين ويجعلهما شعاره ويقدمهما على سواهما ،فلا يعرف فى جنبهما للجميل محلا ولاذكرى للحسنى ،فإنه لما وقع الخلاف المشهور أمره بينه وبين الأمير عند الحدود[٣٤٧] ،نسى كل جميل وأعرض عن كل حسنى ،وخاشن الأمير ثم صمم على ترك منصبه كما تقدم بيان ذلك فى حينه قياما بواجب الأمانة لوطنه ، والطاعة لرئيسه يومئذ ، وأعنى به لورد كرومر .وها هو اليوم على ماترى بطل الحدود وفاتح أم درمان وأحد أقيال هذا الزمان . فسبحان مقدر الحظوظ وواهب النعم .

(٣٤٦) وجماة = وجماعة .

(٣٤٧) حادثة الحدود (٩ يناير ١٨٩٤) .

وبدأت الأمور الخفية التى جرت أثناء الفتح تعلن للناس .فإنه مابلغ السردار القاهرة حتى تواردت كتب الجند وضباط الجند على ذويهم وعيالهم وكلها مفعمة بالحوادث والأنباء التى لم تعلم من قبل طريقها الصحيح .قالوا فقد كانت متاعبهم وما قاسوه من الشدة وشظف العيش ، ونار ورمال الصحارى المحرقة ، والسير مراحل كثيرة فى اليوم ومثلها الليل ،ورقادهم بلا مأوى تحت برد الليل مما لايقدر الواصف على وصفه . وقالوا غير ذلك كثير .ومن غريب ماقالوه عن اقتسام الغنائم أن قد غنم أحد مقدم(٣٤٨) العساكر السودانية راية المهدى السوداء بعد مصارعة شديدة بينه وبين حامل الراية ، فلما استخلعها فرح بها فرحا عظيما .وعلم الجنرال (جاتكر) الإنجليزى بخبر ذلك فأمر باخذها من ذلك الجندى الباسل قهرا .فأخذوها وأتوا إليه بها ،فأرسلها إلى ديار الإنجليز ، قاولو(٣٤٩)من هذه الغرائب أيضا أن (الضابط غردون) إبن أخى (غردون باشا) قد ظفر بجمجمة صاحب المهدوية بعد أن نسفوا قبره ، فأرسلها إلى دار التحف فى ديار الإنجليز غنيمة .

وجعل أهل الرأى يتطلعون إلى ما سيكون بين الإنجليز والفرنسيس بعد إحتلال مارشان لفشودة ،ونصب الرايتين الإنجليزية والمصرية على بعد قليل من الراية الإفرنسية ،التى سبق مارشان فرفعها على أعيان فشودة ، وماسيكون من وراء وقوف المدفعيات النيلية رباطا عند ذينك الرايتين .وقد إهتم صاحب السياسة الإنجليزية لذلك إهتماما عظيما جدا ، وجعل أصحاب الصحف الإنجليزية والفرنساوية يتبادلون عبارات التهديد وآيات الوعيد ،وكل فريق يحبذ أعماله حتى(٣٥٠) صاحب (الإستندارد) الإنجليزية بعد كلام طويل .(وقد زعم أصحاب صحف الفرنسيس أن سيصل صاحب سياستنا إلى حد من الضعف ،

---

(٣٤٨) مقدم = مقدمى .
(٣٤٩) قاولو من = قالوا ومن .
(٣٥٠) حتى = حتى قال ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

يشترى معه من صاحب سياسة الفرنسيس إنسحاب مارشان من فشوده باتفاق يوقع عليه معها ، فتغنم به ما تشاء) .قال (وأما نحن فنرى أن (الأحوال المحلية) ستكفى صاحب سياستنا مؤونة الإتفاق على كل مرضى بشأن فشودة) . فرد صاحب (الطان) على هذا القول بكلام رزين ،إلى أن قال ،(ولعل صاحب (الإستندارد) يعنى بالأحوال المحلية قطع المدد عن مارشان ليضطره إلى إخلاء ذلك المكان الذى احتله بعد جهاد وبلاء .ولكن إذا كان أصحابنا الإنجليز يرون أن مارشان لا يتيسر إمداده من المكان الذى اتخذه قاعدة لحملته ، فهل تستطيع مدفعياتهم النيلية الراسية هناك أن تمنع من وصول المدد اليه عن طريق نهر الأوبانغى وبحر الغزال . على أن دولة الفرنسيس لم تبعث بمرشان إلى فشوده إلا بناءاً على الحق الدولى الذى يخولها حرية العمل فى الأنحاء السائبة التى لا مالك لها) قال (فإذا جرى الإنجليز على رأى صاحب(الإستندارد)لزم أن تعتبر ذلك عملا عدائيا) .واتفق أن عاد فى هذه الأثناء إلى باريز المسيوليوتاد[٣٥١] حاكم

(٣٥١) ليوتاد = ليوتارد Liotard, victor حاكم إقليم الاوبانجى الأعلى Upper Ubanghi فى الكونغو الفرنسية فى التسعينيات . كلف فى ١٨٩٤/١١/١٧ بقيادة حملة إلى أعالى النيل فى إطار الجهود الفرنسية لمناوئة بريطانيا فى أفريقيا والوصول إلى منابع النيل . وقد رد سير إدوارد جراى Edward Grey وكيل وزارة الخارجية الإنجليزية على هذا المسلك فى مجلس العموم فى مارس ١٨٩٥ بقوله : (The advance of a French expedition under secret instructions right From the other side of Africa. into a territory over which our claims have been known for so Long, would not be merely an inconsistent and unexpected act, but it must be perfectly well known to the French Government that it would be an unfriendly act, and would be so viewed by England).

أن تقوم حملة فرنسية تحت تعليمات سرية من الجانب الآخر من أفريقيا ، إلى أقاليم عرفت مطالبنا فيها من زمن طويل ، لايعد فقط عملاً متناقضاً وغير متوقع ، بل يجب أن يعرف تماماً للحكومة الفرنسية أنه عمل عدائى ، وينظر إليه كذلك من جانب إنجلترا) . ورغم أن نغمة جراى كانت تحمل فى طياتها استعداد بريطانيا للحرب حول النيل إذا لزم الأمر إلا أن فرنسا التى لم تعترف أبداً بأى دعاوى بريطانية فى المنطقة نظرت لهذه النغمة على أنها هجومية من الدرجة العليا لكنها غير حقيقية ، استفزازية . ولم تحدث هذه النغمة فى باريس أى تأثير على استعداداتهم سوى المسارعة بالتنفيذ حيث كان الوقت مهماً للغاية .

خلال مرحلة استعداد ليوتارد لحملته ظهر نقيب البحرية جان ـ بابتيست مارشاند Jean - Baptiste Marchand فى سبتمبر ١٨٩٥ وعرض على وزارة المستعمرات خطته لحملة إلى بحر الغزال ـ وفى نوفمبر ١٨٩٥ تمت الموافقة على خطة مارشاند على أن تكون حملته غير عسكرية وإن لاتوقع معاهدات مع الحكام المحليين .

_Patricia Wright (Conflict on the Nile) - Ibid , - PP., 55, 114 - 115, 120 - 121

إقليم الأوبتغى(٣٥٢) الإفرنسى ،وهو أيضا زعيم الحملات النيلية الإفرنسية ألتى منها حملة مارشان . فاستقبله على ظهر الباخرة حتى(٣٥٣) جاء معها (مدير الجمعية الجغرافية) ،وحياه بخطبة أنيقة إختتمها بما ملخصه (أما فرنسا فلا مشاحة فى أن من حقها أن تطلب حقا مؤسسا على حرية التجارة فى أفريقيا ، وسلوك الأنهر فيها بناء على ماقرره مؤتمر برلين . وإنى فى هذا المقام الذى أحييك فيه باسم الجمعية الجغرافية لايسعنى إلا ذكر البطل المغوار مارشان ، والأبطال الذين يصحبونه . أى نعم فليكونوا على ثقة(٣٥٤) ننظر الآن إليهم ،وإلى علم المدنية الذى نصبوه فى أعالى النيل ، فى تلك الأرجاء السائبة المتروكة منذ أربعة عشر عاما .وسيؤيد المستقبل إن شاء الله هذا العمل العظيم الذى عمله مارشان فاتحا الهمجية بسيف المدنية)أ .هـ .

وكان قبل أن يترفع السردار فى جنده إلى بقاء(٣٥٥) مارشان ،قد سير طائفة من الجنود المصرية وعلى رأسها الكولونيل (بارسونز باشا) فى عدة كاملة لفتح (القضارف) والإجهاز على من بقى فيها من أصحاب المهدوية .فساروا وقاتلوهم قتالا عنيفا للغاية حتى أخذوا البلد عنوة . وأعملوا القتل والتشريد فى من بها من الأعداء حتى مزقوهم كل ممزق . وجاءت البشائر بذلك إلى أم درمان ، فطيروا خبرها إلى الآفاق . وبرز الأمر الى الكولونيل (بارسونز باشا) بالبقاء هناك حتى يأتيه جواب السردار . فما استقر به المقام حتى عاد (أحمد الفضيل) وعبأ رجالا من أصحاب المهدوية وهاجم بهم الكولونيل وعساكره مهاجمة شديدة .فخرج الكولونيل بعساكره ظاهر البلد وقاتل الأعداء .فقتل منهم مقتلة عظيمة للغاية ، ورد من بقى منهم على أعقابهم .وسير كتبه إلى أم درمان بطلب المدد والنجدة على القبض على (أحمد الفضيل) ، فجاءه

(٣٥٢) الأوبتغى = الأوبانجى Obanghi .
(٣٥٣) حتى = التى ـ قراءة ترجيحية .
(٣٥٤) ثقة = ثقة أننا ـ إضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٣٥٥) بقاء = لقاء .

المدد .قيل وكان فتح القضارف[٣٥٦] ،وتمزيق شمل من بها باعثا إلى التشديد فى طلب جلاء مارشان ومن معه من الفرنسيس عن فشودة .فأنذر صاحب السياسة الإنجليزية صاحب سياسة الفرنسيس ،واحتج عليه إحتجاجا شديدا للغاية ، فرد عليه صاحب سياسة الفرنسيس ردا جميلا ،وتلطف معه وبالغ فى التلطف ما استطاع ،وصاحب السياسة الإنجليزية لايكسر من سوداته[٣٥٧] ولا[٣٥٨] يقلل من حدته ،حتى لقد برز أمره إلى وزارتى البر والبحر الإنجليزية بالتأهب والإستعداد ،والوقوف على قدم القتال .كل هذا ليحمل صاحب سياسة الفرنسيس على استرجاع مارشان ومن معه فى العاجل القريب .أقول وقد ذكرتنى هذه الغرائب السياسية بحكاية جرت فى عهد كارلوس العاشر[٣٥٩]ملك

(٣٥٦) بعد سقوط (أم درمان) فى ٢ سبتمبر ١٨٩٨ قرر (أحمد فضيل) قائد القوات المهدية فى القضارف الخروج لنجدة الخليفة عبدالله التعايشى ــ وبالفعل فإنه خرج إلى (رفاع) على النيل الأزرق .
فى ذلك الوقت كان السردار يتأهب للخروج إلى (فاشوده) لمواجهة الوجود-الفرنسى المتمثل فى حملة الكابتن مارشان ، فعلم بخروج (الفضيل) من القضارف فقرر الإيقاع به فى خطة مقتضاها زحف اللواء بارسونز Parsons قائد حامية (كسلا) على القضارف ــ ومراقبة اللواء (هنتر) المكلف بمواجهة الأثيوبيين فى النيل الأزرق (لأحمد فضيل) ومنعه من عبور النيل الأزرق إلى الجزيرة .
خرج بارسونز من (كسلا) فى ٧ سبتمبر ١٨٩٨ وعبر العطبرة واستولى على القضارف) فى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨ . وفى اليوم التالى سقطت (ودمدنى) .
ــ أورطة البنادق الرابعة المشاة ــ ص ٤١ .
ــ انظر الخريطة فى الملحق (٥) .
(٣٥٧) لا يكسر من سوداته = لا يكسر من شدته ــ قراءة إجتهادية .
(٣٥٨) ولا = ولاشئ ــ عدلت العبارة ليستقيم المعنى .
(٣٥٩) كارلوس العاشر = شارل العاشر Charles ــ (٩ أكتوبر ١٧٥٧ ــ ٦ نوفمبر ١٨٣٦) ــ أخر ملوك البوربون Bourbons فى فرنسا . تميز قبل ١٧٨٩ بالعبث والرجعية بين طبقة النبلاء فى بلاط أخيه لويس السادس عشر ، وفى الأسابيع الأولى للثورة الفرنسية هرب من فرنسا وقضى الخمسة وعشرون سنة التالية فى المنفى . خلال عهد أخيه الثانى (١٨١٤ ــ ١٨٢٤) لويس الثامن عشر كان شارلز قائدا لأنصار الملكية المتطرفين Ultraroyalists الذين أرادوا إعادة فرنسا إلى نسخة منمذجة ideal-ized للحكومة ما قبل الثورية ومجتمعها . بعد اعتلائه العرش عام ١٨٢٤ حكم أكثر كقائد لهذه المجموعة منه كملك لكل فرنسا ، واتبع سياسات محببة لطبقة النبلاء والكنيسة . كانت الملكية والكنيسة والأسرة المالكة والمجتمع عنده مهددين حتى الموت من قبل المعارضة الليبرالية فى مجلس النواب والصحافة الليبرالية . فى يوليو ١٨٣٠ حاول كسر قوة المعارضة بواسطة أكثر من قانونية فى قوانين الصحافة والإقتراع . قوبلت المحاولة بمقاومة عنيفة فى باريس واستخفاف وتحد من المعارضة النيابية . كنتيجة (لثورة يوليو) إضطر هو وابنه دوق أنجوليم ducd'Angouleme إلى التنازل فى ٢ أغسطس ١٨٣٠ ــ توفى شارل فى المنفى .
ــLexicon Universal Encyclopedia - vol. 4 - P.. 293

الفرنسيس . ذلك أنه وقعت بين الدولتين مشكلة كبرى ومحنه حسرى ضاق بها أصحاب السياسة ذرعا ،وتعاصى عليهم فضها .فعمد سفير للإنجليز[٣٦٠] لقاء[٣٦١]صاحب السياسة[٣٦٢]الفرنسيس فى ديوانه يوما ،وجعل يكلمه فى معنى ماهم فيه .وطال الأخذ والرد بينهما ، وبالغ سفير الإنجليز فى الخطر الذى ينشأ عن إستمرار ذات البين ،وشدد عليه بأن يعده وعدا جميلا ،فأباه صاحب سياسة الفرنسيس عليه .فوقف السفير عند ذلك وقد احمرت عيناه وظهر الغضب على وجهه وتناول قبعته علامة الإنصراف ، والتفت إلى صاحب السياسة وقال له بلهجة الغضب(إذا فنحن على أبواب الحرب) . فاضطرب الوزير الفرنسوى لهذه اللفظة ،وخاف أن تسوء العاقبة .فنظر من فوره إلى سفير الإنجليز وقال له باسما إنى موعدك وعدا جميلا .فانصرف السفير قرير العين غانما . وشاع خبر ذلك فى ديار الإنجليز وأعجبوا بسفيرهم ، وسميت هذه الحيلة من يومها بحيلة القبعة .أقول فإذا كانت حيلة القبعة نفعت القوم الإنجليز مرة ، فهل هى نافعة مرة أخرى .وعندى أنها نافعه مادام أولئك القوم الفرنسيس لم يغيروا ما بأنفسهم من الإستكانة والقهقرة عند الإحتكاك . وفيما تقدم بك بيانه برهانا على ذلك .

وبينما الأفكار على هذا والظنون تترامى إلى أبعد المرامى وأعصاها إذ جاء الخبر الى بطرس باشا غالى وزير الأمور الخارجية بعزم الإمبراطور (غليوم) عاهل الألمان على زيارة مصر والتفرج على آثارها عند مبارحة فلاسطين[٣٦٣] . فأخذت الحكومة الأهبة لذلك ،وقامت على قدم الإستعداد ، والأنباء تأتى كل يوم متباينة مختلفة .ثم جاء الخبر إلى قنصل جنرال الألمان بعدول الإمبراطور عن الحضور إلى مصر ،وأنه سيقصر سيحته[٣٦٤] على دار السلطنة العثمانية وبلاد

(٣٦٠) سفيرا للإنجليز = سفير الإنجليز .
(٣٦١) لقاء = إلى لقاء ــ إضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٣٦٢) السياسة = سياسة .
(٣٦٣) فلاسطين = فلسطين .
(٣٦٤) سيحته = سياحته .

فلسطين .فأبلغ القنصل وزير الخارجية هذا الخبر .فتقرر العدول عن كلما[٣٦٥] هموا بإعداده لهذا الضيف الكبير .وما هى أن شاع خبر ذلك حتى استكشف أصحاب الشرطة أن فى الإسكندرية عصابة من الفوضويين الإيطاليان عددها تسعة عشر قاتلا قد سكنوا فى دار بالحى المعروف بمحرم بك . وأن لديهم أدوات وأشياء جهنمية ،وهم على عزم إغتيال إمبرطور الألمان حين وصوله وذهابه من محطة مصر إلى قصر الإمارة .فقام صاحب الشرطة ومعه نفر من المخبرين السريين وقنصل إيطاليا وكبسوا مساكن أولئك القتلة ،فوجدوا عندهم قنبلتين محشوتين بالزئبق مصنوعين فى البلد ،وهما من القنابل التى تنفجر بالفتيل أو بإلقائها على الأرض فى أى مكان .ووجدوا عندهم أوراقا ورسائل كثيرة فوضوية واردة عليهم من جمعيات الفوضى فى بلاد السويس[٣٦٦] وإيطاليا . فلما بلغ أولئك القوم خبر عدول الإمبراطور عن زيارة مصر عقدوا العزم على إرسال القنبلتين إلى بيت المقدس مع جماعة منهم ،وهناك يستعينون بزملائهم الذين قدموا إلى فلسطين وبلاد سوريا على ارتكان[٣٦٧] فعلتهم هذه الشنعاء . وقد وجدت عندهم أيضا رسائل ومكاتيب متضمنة أسماء جميع الذين دخلوا خفية إلى بلاد فلسطين وسورية . فبادر قنصل إيطاليا بإرسال البرقية إلى قنصليات إيطاليا فى تلك البلاد ، يخبرها بأسماء أولئك السفاكين ويوعز إليهما[٣٦٨]بأن تحث رجال الحكومة للبحث عنهم والقبض عليهم . وسير محافظ الإسكندرية كتبه فى معنى ذلك إلى ديوان الوزارة ، فطير الرئيس الخبر إلى ولاية بردث[٣٦٩] ومنصرفية القديس[٣٧٠] الشريف ، وكذلك فعل وزير

(٣٦٥) كلما = كل ما .
(٣٦٦) السويس = سويسرا ـ قراءة إجتهادية .
(٣٦٧) إرتكان = إرتكاب .
(٣٦٨) إليهما = إليها .
(٣٦٩) بردث = بيروت ـ قراءة إجتهادية ـ
(٣٧٠) ومنصرفية القديس = ومتصرفية القدس ـ منذ الفتح العثمانى لبلاد الشام وحتى الحرب العظمى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) كانت فلسطين تابعة إدارياً لولاية دمشق ، وكانت تتكون من ثلاثة ألوية (مفردها لواء) هى القدس ، نابلس ، وعكا ـ فى عام ١٨٧٤ انفصل لواء القدس عن ولاية دمشق وشكل=

الخارجية ، بأن إرسل إلى وكالة دولة الألمان السياسية بالقاهرة لتخبر صاحب سياستهم به أيضا ليكونوا على حزر[٣٧١] ويبالغوا فى الحيطة . ومن العجب أل[٣٧٢] أولئك القتلة لم يأتوا إلى الإسكندرية منذ شاع عزم إمبراطور الألمان على زيارة مصر ، بل إنهم مقيمون فيها منذ مدة .فمنهم أصحاب حانات ، ومنهم خياطون ، وبعضهم دهانون .ولم يعلم أصحاب الشحنة من أمرهم شيئا حتى انفضح سرهم فى هذا الحين . فكان لتفشى خبرهم بين العامة دهشة ،فأظهروا البغض لكل صاحب قبعة ،وظنوا أنهم جميعا قتلة سفاحين ونارهم الشر ،فكانوا إذا رأوا فقيرا من الأجانب أى[٣٧٣] كان جنسه فى أطمار رثى[٣٧٤] أو قبعة قذرة ، ظنوه سفاحا فوضويا[٣٧٥] ،فيوسعونه سبا وشتما ، وربما انهالوا عليه بالضرب واللطم ، وصاح به الغلمان وترامحوا خلفه ، وهم ينادون (ياطليان ياسكران) ، ولا يتركونه حتى تفرقهم أصحاب الشرطة .فاهتم لذلك محافظ القاهرة ، وبالغ أصحاب الشحنة فى الحيطة .وجاء كتب[٣٧٦] الرئيس إلى محافظ الإسكندرية بشدة اليقظة والإلتفات ، ومنع رعاع الإسكندرية من التجمهر وتتبع أحد من النزلاء .وظل حال القوم على هذا أياما عاد فى خلالها الأمير من غيبته الصيفية فى ديار الفرنجة ودار السلطنة العثمانية . فمو[٣٧٧]هو أن استقر[٣٧٨]المقام حتى تفشى القول بأن جماعة من

= (متصرفية) مستقلة ضمت جنوب فلسطين وعرفت باسم (متصرفية القدس المستقلة) ، وكانت تتبع مباشرة وزارة الداخلية العثمانية فى الآستانة . أما لواءى (نابلس) و(عكا) وهما يشكلان شمال فلسطين فقد ألحقا (بولاية بيروت) بعد تنظيم (ولاية دمشق) عام ١٨٨٣ .

– إبراهيم رضوان الجندى (سياسة الإنتداب البريطانية الإقتصادية فى فلسطين ١٩٢٢ – ١٩٣٩) – دار الكرمل – صامد – عمان – الأردن – الطبعة الأولى ١٩٨٦ . ص ١١ – ١٢ .

(٣٧١) حزر = حذر .

(٣٧٢) الـ = أن .

(٣٧٣) أى = أيا .

(٣٧٤) رثى = رثة .

(٣٧٥) عن الفوضوية راجع حاشية ٤٢٥من حواشى عام ١٨٩٣ .

(٣٧٦) كتب = كتاب .

(٣٧٧) فمو = فما .

(٣٧٨) استقر = استقر به – إضيفت الكلمة ليستقيم النص .

أخـوان أولك[٣٧٩] الفـوضـويون قـد جـاؤا من إيطاليـا إلى الإسكندرية خـفـيـة ودخوا[٣٨٠] القاهرة وهم آتون لاغتيـال الأمير جزاء ماحل في بلاده بأصحابهم . وعمت الإشاعة وتحدث الناس بها كثيرا حتى كادت تتجسم حقيقة راجحة . فأكثر أصحـاب الشحنة تطوافهم في شـواع البلد ،وبثوا عيـونهم وأرصادهم ، وأحاطوا قصر الإمارة بالجواسيس ، ورتبوا أصحاب السيارات خلف ركب الأمير في روحاته وجيـاته[٣٨١] . وأحس بعض الأمراء والكبراء بشئ من الزعر[٣٨٢] ، وأوجسوا شرا من كل فقراء الأجانب والنزلاء كأن الفوضوية لاحقة بالفقراء دون غيرهم ، مع أنها مذهب من مذاهب الغلاة والمتطرفين في طلب المساواة من أبناء هذا الزمان . وهى كمذهب الإسماعيلية أو الفدوية أو الحشاشين[٣٨٣] في

(٣٧٩) أولك = أولئك .

(٣٨٠) ودخوا = ودخلوا .

(٣٨١) يقصد غدواته أى عودته .

(٣٨٢) الزعر = الذعر .

(٣٨٣) الإسماعيلية = أعضاء لجماعة من الشيعة يعتبرون (إسماعيل) الإمام السابع والأخير حتى عودة إبنه في نهاية الزمان . تكون هذا الحزب بعد موت الإمام الشيعي السادس جعفر بن محمد (٧٦٥) . قبل أغلب الشيعة إبنه الأصغر موسى الكاظم كخليفة له . أما الإسماعيلية فقد كانوا هم الذين ساندوا الإبن الأكبر المحروم من الوراثة (إسماعيل) . إكتسبت هذه الجماعة نفوذها الأعظم في ظل الفاطميين الذين أسسوا ملكهم في تونس (٩٠٨) وحكموا مصر من ٩٦٩ حتى ١١٧١ . في أواخر القرن الحادى عشر حدث إنقسام بين المستعليين الذين اعتبروا المستعلى (١٠٩٤ ــ ١١٠١) هو الخليفة الإمام ، وبين النزارية (نسبة إلى أخيه نزار) . ظل الأخيرين الذين سموا في الروايات الصليبية بالحشاشين ، ظلوا في السلطة حتى نهايات القرن الثالث عشر . تحركت فصيلة منهم تحت قيادة أغاخان إلى الهند عام ١٨٤٠ . في تفسيرهم للنصوص والأحكام والشرائع يؤثر الإسماعيلية مذهبهم الخاص في فهمها . فهم يعتقدون أن للعقيدة باطناً وظاهراً ولذلك سموا بالباطنية ــ ويعتقدون أن بوسع أى شخص الإفلات من العقاب إذا هو أدرك كنه الباطن . وهكذا فإنهم تمادوا في تأويل أحكام الشريعة وأعطوا لكل نوع من العبادات ظاهراً وباطناً ، فأنعزلوا عن جمهور المسلمين واتهموا بالكفر والإلحاد . ومع تسمية الناس لهم بالباطنية الملاحيد إتجهوا إلى التخفي والانعزال .

في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ــ ١٠٢٠) لعبت الباطنية دوراً هاماً في مصر ، وارتقى بعض رموزها ليصبحوا من كبار دعاة الحاكم بأمر الله كحمزة بن على الزوزوني ، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل الدرزى ــ وقد انضم إليهم فريق من غلاة التشيع ومتطرفي الجماعة . لكن أهل مصر رفضوا دعوة هؤلاء لتقديس الحاكم وتأليهه وقتلوا أبى حيدرة واضطر الدرزى إلى الفرار إلى الشام ، لكنه قتل عام ١٠١٩م . تطورت حركة الباطنية في (فارس) على يد عبد الملك بن عطلش والحسن بن الصباح ثم انتقلت إلى بلاد الشام في القرن =

عهد المماليك(٣٨٤) ،ولا يختلف عنه إلا فى الإشارات والرموز وغير ذلك قليل . فلما كان سابع عشر أكتوبر من السنة جاء الخبر من ولاية بيروت على وزارة الداخلية بأن عيون وجواسيس الدولة العثمانية المنتشرين فى بلاد فلسطين قد أمسكوا ثمانية من أولئك الفوضويين الإيطالين ، وأن أصحاب الشحنة في دار السلطنة قد قبضوا أيضا على خمسة وثلاثين منهم ، فأشغل القوم فى الإسكندرية والقاهرة حديث أولئك الفوضويين عن كل حديث سواه .

وبينما الحال على هذا إذ جاءت الأنباء الصادقة باستفحال خطب الأخذ والرد بين دولتى الإنجليز والفرنسيس على إحتلال مارشان الفرنسى لفشودة . وقام الخطباء من الجانبين ، هذا يقول وذاك يرد عليه ، وهذا يعيد (حيلة القبعة) التى تقدم بك بيانها ،وهذا يكابر تارة ويتلطف تارة أخرى .حتى لقد خطب السير(ميكل هيكس بتش) وكيل وزارة المال الإنجليزية فى هذه الأيام يقول أنه (يؤمل ويحب أن يعتقد أن الخلاف القائم بسبب فشوده سيحل حلا وديا ،ولكننا نحن الإنجليز قد أفرغنا مافى جرابنا من وسائل التساهل واللين ، فإذا تعكر صفو السلم واضطررنا إلى إصلاء نار الحرب بعد ثمانين عاما انقضت براحة

= الثانى عشر الميلادى وعرف أتباعها بالباطنية والحشيشية ، ولعبوا دوراً كبيراً فى الحروب الصليبية وأحداثها . وفى مصر مارس هؤلاء نشاطاً متبعثراً . إتبع الباطنية بعد ذلك أسلوب التخفى والتحصن فى القلاع فى بلاد فارس والشام ، وانحصر نشاطهم فى الإغتيال السياسى لبعض الشخصيات الإسلامية فى الشام والعراق ــ ولقى الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى مصرعه على أيديهم ، وتعرض صلاح الدين الأيوبى لمحاولتين للإغتيال على أيديهم خلال الفترة (١١٧٤ ــ ١١٧٦) . ظل نشاط الباطنية مبعثراً بعد ذلك فى الشام ومصر طوال عهد الدولة الأيوبية وشطراً من عصر المماليك ــ لكنهم ضعفوا فى آخر الأمر وفقدوا الكثير من أسباب قوتهم وجنحوا إلى السلم مع الصليبيين ورضوا بدفع الجزية لهم . وانتهى الأمر بتصفيتهم على يد الظاهر بيبرس (١٢٦٠ ــ ١٢٧٧) .

ــ مصلحة الإستعلامات (تاريخ وآثار مصر الإسلامية) مرجع سبق ذكره ــ ص ٧٨٢ ــ ٧٨٣ .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 11 - P.. 298 .

(٣٨٤) المماليك = الفاطميين ــ فالحشاشون كجماعة متعصبة من الإسماعيلية ظهروا فى الفترة ١٠٩٤ ــ ١٢٧٣ ــ وتم تدميرهم فى فارس على يد المغول عام ١٢٥٦ وفى سوريا على يد المماليك عام ١٢٧٣م .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 2 - P.. 264 .

وسلام ، كان ذلك خطبا عظيما ورزءا جسيما ، ولكننا لا نرجع عن شئ مما لنا ، ونحن على ثقة من أن الأمة الإنجليزية كلها تعضدنا ، وتشد أزرنا عند الحاجة) .فرد عليه صاحب السياسة الإفرنسية ردا جمع بين الخوف والرجاء والشدة واللين ، وقام أصحاب بعض صحفهم يشيعون أن استعدادات الفرنسيس فى طولون التى هى معسكرهم العام أقوم من ساق على قدم ، وأنهم جهزوا فيها بعض السفن الحربية بجميع مايلزمها من المؤن والذخيرة ، وأنهم شحنوا كثيرا من النقالات بمعدات النوم وأدوات الأسرة ، واستدعوا سائر الضباط المتغيبون بالرخصة . وأن عمال الترسانات يشتغلون ليل نهار ، وتجارب الآلات البخارية جارية بسرعة ماعليها من مزيد ، وغير ذلك كثير ، حتى خيل للناس أن الدماء ستجرى فى أرباض فشودة أنهارا ،وأن القوم الفرنسيس مالكوها رغم كل طعن وضرب .وعندى أنه مهما يتحرج[٣٨٥] موقف الدولتين ، واشتد صخب أصحاب سياسة الفرنسيس ، وأخذتهم هزة العظمة والكبرياء فهم تاركون فشودة ، مسترجعون(مارشان) فائزون من الغنيمة بالإياب .يقولون كان صاحب سياسة الفرنسيس يتوكأ فى كل أدوار بعثة مارشان على مساعفة قيصر الروس ، وقيامه لنصرتهم عند الاستضام[٣٨٦] .فلما بان موقفهم فى ذلك البلد البعيد محفوفا بالأخطار مهددا بالسيف والنار ، إستصرخوا القيصر فرسم إلى سفيره فى باريز بالوساطة بين الفريقين .قيل يعنى ضمن الحدود الكلامية الحائلة دون القتال ، وأنه أشار خصوصا بالإحتراس والتأنى فى الظروف الحالية ، يعنى أن الظروف الحالية لا يتأتى معها معاندة الإنجليز ، ولا يتوقع مساعفة الروس للفرنسيس فى اضطرام نار الحرب من أجل فشودة . فما هى إلا أن أخذت صاحب سياسة الفرنسيس صيحة أصحاب السياسة الإنجليزية من كل جانب ، فبرزت الأوامر إلى ديوان الحرب عندهم بتعبئة الجيوش ، وإعداد المعدات وشراء المئات من

(٣٨٥) يتحرج = تحرج .
(٣٨٦) الاستضام = الاصطدام .

المدافع الكبار ، وإلى ديوان البحر بتجهيز الدوارع والنقالات والمدمرات والرعادات ، وسائر أنواع المهلكات لبنى الإنسان من أجل فشودة . فصارت الحرب على الأبواب ، وحسب العاقلون لهولها ألف حساب . وأخذت الحماسة من القوم الإنجليز مأخذها ، حتى اتصلت بجنود الإحتلال فى القاهرة . إذ حدث أن نفرا منهم مروا بشارع كلوت بك وهم سكارى يتهادون ذات اليمين وذات الشمال ، وكانوا تارة ينشدون الأناشيد الحماسية برطانتهم ، وتارة يصيحون بالويل والثبور وعظائم الأمور على القوم الفرنسيس الذين سيسوقوهم إلى فشوده ، ويقولون إنا سنسحق أولئك الكلاب بأقدامنا ، وقالوا غير ذلك كثير . فاجتمعت حولهم السوقة وغلمان الشوارع والحارات وهم فى ضحك وإغراق . واتفق أن مر بهم أجنبى من أصحاب القبعات فظنوه إفرنسيا ، فهموا بضربه ، فحال بينهم وبينه جماعة من المارين ، فواسعهم[٣٨٧] الجند ماشاء الله من الكلمات الحلوة ، ثم انصرفوا وهم على تهاديهم والسوقة يصفقون خلفهم . وكثر اجتماع وزراء الإنجليز بكبيرهم لورد سلسبورى ، وسفير الفرنسيس يغدوا[٣٨٨] ويروح بين ديوانه ومقر الوزراء ، والأخبار كل ساعة فى شأن .وسير صاحب سياسة الفرنسيس كتبه إلى مارشان يقول له أن إنسب[٣٨٩]إلى أونبغى[٣٩٠] العليا ،وأن تخلى عن النقط الواقعة إلى شق[٣٩١] التخوم المحددة فى الوفاق الإنجليزى الألمانى[٣٩٢] . وعاد أصحاب صحفهم إلى المسايرة وترك

(٣٨٧) فواسعهم = فأوسعهم .

(٣٨٨) يغدوا = يغدو .

(٣٨٩) انسب = انسحب ـ قراءة ترجيحية .

(٣٩٠) أونبغى = أوبانجى upper ubanghi .

ـ راجع حاشية ٣٥١ من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٣٩١) شق = شرق ـ قراءة ترجيحية .

(٣٩٢) إتجهت ألمانيا إلى التوسع الاستعمارى فى الثمانينات كحل لأزمة الأجور والقضاء على الحركات والأفكار الإشتراكية . وكان الإتجاه الألمانى التوسعى هو فى شرق أفريقيا التى ذهب إليها كارل بيترز تحت غطاء محاولة إنقاذ (أمين باشا) حاكم مديرية خط الاستواء الذى حصر نتيجة الثورة المهدية فى الثمانينيات . لكن الغرض كان الإستيلاء لصالح ألمانيا على المنطقة الواقعة بين شمال ممباسا Mombasa وبحيرة فكتوريا . عقب مؤتمر برلين (١٨٨٣ ـ ١٨٨٥) أعلنت ألمانيا=

المخاشنة ، حتى قال بعضهم أن حماية بعض المصالح السامية ــ ولا ندرى ماهى ــ ستؤدى إلى الجلاء عن فشودة .وبعضها قال أن الإنتصارات السياسية تكلف ثمنا غاليا . وأرسل صاحب سياستهم إلى سفيرهم فى ديار الإنجليز يقول أن أطلب لنا منفذا من أعالى النيل إلى أملاكنا الإفريقية عوضا عن فشودة . ثن[٣٩٣] عاد يقول(وإننا نقبل هذا العوض فى المستقبل القريب) . فلما كان رابع نوفمبر من السنة ،تاسع عشر جمادى الثانى ،وصل مارشان إلى القاهرة فى الساعة السادسة مساء .وكان فى محطة بولاق الدكرور جمهور عظيم من الناس ، وبينهم جماعة من مكاتبى الصحف الإنجليزية والشركات التلغرافية . فلما نزل من القطار حياه الجمهور ، فركب مركبة وإلى شماله نائب غيبة قنصل جنرال الفرنسيس ، ومعهما ضابط ممن كانوا معه فى فشودة .وكان الناس قد إزدحموا أمام مدخل دار القنصلاتو .فلما وصل مارشان صاحوا جميعا فليحى مارشان ،فرد تحيتهم وصعد إلى الدار ولم يتكلم مع أحد .

وقد رأيناه فهو ربعة فى الرجال ،عصبى المزاج ، نحيف الجسم ، على أحسن مايكون من الصحة ،ولا تظهر عليه علامات الشبح[٣٩٤] .أقول وقد حادثت صاحبا لى من أهل المناصب بالمحاكم المختلطة فى أمر مارشان وبعثته ، ورجوعه بعد ذلك العناء الشديد ، فجعل يصف لى الخلل المستحوذ على هيئة حكومة الفرنسيس بسبب تعدد الأحزاب ، وتنزل بعض زماهم[٣٩٥]

= الحماية على شرق أفريقيا . ومن هنا بدأ خطر التهديد الألمانى لوادى النيل من الجنوب يتضح . فى ١٥ نوفمبر ١٨٩٣ وقعت إنجلترا إتفاقاً مع ألمانيا حددت بمقتضاه الحدود الغربية للكمرون Cameroon التى وضعتها ألمانيا تحت حمايتها عام ١٨٨٤ ــ فى هذا الإتفاق سمحت إنجلترا للمتلكات الألمانية بالامتداد حتى بحيرة تشاد ــ وفى أغسطس ١٨٩٨ إتفقت الدولتان على التوسع الألمانى فى أنجولا وموزمبيق

ـ Patricia Wright (Conflict on the Nile), Ibid., - PP., 47 - 50.

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٧٥ ، ٨٤ ، ٢١٣ .

ـ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 4 - PP., 59 - 61.

(٣٩٣) ثن = ثم ــ قراءة تصحيحية .
(٣٩٤) الشبح = الشبع ــ قراءة إجتهادية .
(٣٩٥) زماهم = زملائهم ــ قراءة ترجيحية .

إلى الدرك الأسفل بقليل من حطام الدنيا ، ببيع أوطانهم بيعا خاسرا ،وكيف أنه إذا أرادت دولة من خصيمات الفرنسيس أمرا من الأمور المزرية بكرامتهم ،إشترت زمنهم(٣٩٦) أولئك الخونة ، فيعملون على نوالها هذا الأمر ولو كان من ورائه جزع(٣٩٧) الأنوف وهلاك الألوف . فهم أبدا فى حرب مع الوزراء ،وخصام مع الكبراء ماظلت يد الإنجليز تحركهم بأموالها ذات اليمين وذات الشمال .قال والقوم على مابهم من تهوس وطيش ،فإنهم وضيعى الحسب ،من شر الخلق .ثم تأملنى قطعة من إحدى صحفهم وقال إقرأ ملغى(٣٩٨) هذه ترى كيف أن الرجل ولا كل الرجال ، وكيف أنه قاسى أمر الأهوال فى طريقه الى ذلك البلد ، كما فترى(٣٩٩) أن أولئك السفلة قد باعوه بيع السلعة الكاسدة إلى جماعة الإنجليز .

فتناقل(٤٠٠)تلك القطعة وقرأت مافيها ،فإذا فيها ماترجمته(إعلم أيها الصديق أنى الآن على أهبة السفر فى الأساطيل (تصغير أسطول) المؤلف من زوارق خشبية مصنوعة من جذوع الأشجار الضخمة ،أو من قشورها الملتصقة بعضها ببعض بواسطة ألياف لأن طلائع الحملة التى يقودها الآن القبطان بارتيه(٤٠١) قد احتلت(مشغره)أول أمس .وقد توقف الأسطول عن المسير فى الوقت الحاضر بسبب فيضان الماء فى نهر (السويج) . إذ قد كتب الله لنا أن

(٣٩٦) زمتهم = ذمة .
(٣٩٧) جزع = جدع .
(٣٩٨) ملغى = مافى .
(٣٩٩) فترى = ترى .
(٤٠٠) فتناقل = فتناولت ـ قراءة ترجيحية .
(٤٠١) بارتيه = باراتيير Baratier ـ كابتن ـ أحد أعضاء بعثة مارشان إلى أعالى النيل ـ تألفت هذه البعثة من الضباط برتبة كابتن Captain ـ مارشاند Marchand ـ چرمين Germain ـ وباراتيير Baratier ـ ومن الملازمين Lieutenants ـ مانجان Mangin ـ لارجو Largeau ـ سيمون Simon ـ الذى استبدل فيما بعد بفوك Fouques نظرا لمرضه) ـ ملازم بحرى Ensign (دى Dye) ـ مترجم interpreter (لاندريون Landerion) ـ طبيب (إميلى Emily) ـ صف ضباط Non - Commissioned oF Ficers (ديبلرت Depart ـ برنارد Bernard ـ ڤينيل Venail ـ دات Dat) ـ إلى جانب ١٥٠ سنغالى من حملة البنادق Riflemen .

_ Patricia wright (Conflict on the Nile) Ibid., - P., 127.

نعـانى كل وجب وتعب ، ولكنى لست بوجل ولا جـزع ،بل أنا عـالم بأننى سأكون أول من يدخل الى فشودة بالرغم عن قلة الوسائل التى منحونى إياها فى وقت الرحيل .وقد أصبحت المراكز الإفرنسية التى قامت الحملة بإنشائها ممتدت(٤٠٢)إلى ساعة تحرير هذا الكتاب فى جميع أرجاء بحر الغزال .ومع ذلك لا أخاف قط من البلجيكيين ولا من أعدائنا الإنجليز لأننا مقيمون فى سبعة أو ثمانية ملايين من قبائل الدوركاس(٤٠٣) الذين سيصبحون خلفاء لنا فى العاجل القريب .واعلم أيها الصديق أنى وطنت العزم على محالفة الشلوق(٤٠٤) . فإذا أفلح مسعاى انطوى تحت العلم الفرنساوى من إحدى عشر إلى إثنى عشر مليونا من النفوس الذين يكرهون العودة إلى الخضوع للحكومة المصرية ، وكل سياستى منصرفة فى هذه الآونة إلى ذلك الغرض الجليل) .

قال(وأما صحتى فجيدة من جميع الوجوه ، وقد توفرت لدينا كثيرا مواد الطعام والغذاء بعد أن كدنا نموت جوعا ، فأصبحنا ونحن نرتع فى محبوحة(٤٠٥) النعم والخيرات ،حتى لقد صرت قادرا الآن أن أطعم ألف رجل زاحفون من طريق النيل شمالا وجنوبا . نعم وأنه قد جاءت إلى البشائر بانقاذ(٤٠٦) النجدة إلى ولكنى لا أجسر على تصديق هذه البشرى ، لأنهم اهملونى بتاتا فى أيام محنتى وشقائى .فيجب على أن أسير فى طريقى وأتم عملى بالمائة وخمسين رجل الذين معى .وقد كلت قواهم وتطحنت عظامهم من المشاق والمتاعب التى حلت بهم فى خلال عشرين شهرا مضت ،وهم يالله النفر الذين وجب على أن أقطع معهم قارة أفريقيا عرضا ،وأحتل بحر الغزال والنيل قريبا بعد أن

(٤٠٢) ممتدت = ممتدة .

(٤٠٣) الدوركاس = الدنكا ــ راجع على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٩٠ .

(٤٠٤) الشلوق = شلك Shiluk ــ قبيلة من القبائل الأفريقية كانت تجاور فاشودة ــ المرجع السابق ــ نفس الصفحة .

ــ Patricia wright (Conflict on the Nile) op. cit., - PP., 162 - 163, 169 - 170 .

(٤٠٥) محبوحة = بحبوحة .

(٤٠٦) بانقاذ = بانفاذ .

أسكنت ثائر أصحاب الكونغو ،وجلبت سبعة آلاف جمل(٤٠٧) ،وأنشأت أسطولا من العدم ،وبعد ذلك لا أرتاب فى أنهم يكتبون إلى من باريز يقولون أننى إذا فشلت إستهدفت لأنواع الذل والإهانة والعار والشنار ، وتخبط إسمى فى الوحول والأقذار ،وأصبحت نظير لحم على وضم(٤٠٨) . إذن فأنا أنذرت قبل الفشل ، فعلى السعى وعلى إدراك المنى ولو قطعت نفسى . ولم يبق لى بعد هذه المهمة الكبرى وبعد عودتى إلى ديار أبائى إلا أن يصحبونى بأربعة من الجند ومن جاويش واحد ويأمرونى بان آخذ برلين عنوة هجوما بالحرب ،وأن آخذ قبلها فى طريقى متز(٤٠٩)وستراسبورغ(٤١٠) .وبعد هذا كله إذا هلكت وتطايرت أشلائى يقيمون لى حفلة عظيمة فى كنيسة المجدلية بعاصمة الفرنسيس)أ٠هـ .

(٤٠٧) جمل = حمال ــ قراءة ترجيحية .

(٤٠٨) لحم على وضم = (الوَضَمُ) كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو بارية يوقى به من الأرض ــ ووَضَمَ اللحم أى وضعه على الوَضَمَ . والمعنى أن الكاتب أصبح عرضة للمهانة والطعن والنقد دون القدرة على الرد أو المقاومة .
ــ مختار الصحاح ــ ص ٣٠٣ .

(٤٠٩) متز = Metz عاصمة إدارة موسيل Moselle فى الشمال الشرقى لفرنسا ، تقع فى نقطة إلتقاء Contlu-ence نهرى موسيل وسييل Seille وعلى بعد ٤٠ كيلو متراً من الحدود الألمانية . مركز مواصلات ونقل استراتيجى . تداولت السيطرة على المدينة بين أيد كثيرة من الفرنسيين والألمان . ومتز مدينة رئيسية فى منطقة اللورين Lorraine المشهورة بمناجم الحديد والصناعة فى شمال فرنسا . كانت المدينة مدينة حرة فى إطار الامبراطورية الرومانية المقدسة بدءاً من القرن الثانى عشر . إعتنقت البروتستنتية خلال عهد الإصلاح Reformation (القرن السادس عشر) ، وخوفاً من الإضطهاد فإن (متز) قبلت حماية التاج الفرنسى الذى ضمها عام ١٥٥٢ ــ وصمدت لحصار طويل من جانب الإمبراطور الرومانى المقدس شارل الخامس فى ذلك العام . وفرت معاهدة وستفاليا Westphalia (١٦٤٨) التخلى الرسمى عن متز ، تول Toul ، ڤردون Verdun إلى فرنسا . خلال الحرب السبعينية (١٨٧٠ ــ ١٨٧١) سقطت متز فى يد البروسيين بعد حصار دام شهرين . بعد نهاية الحرب تخلت فرنسا عنها لألمانيا . أعاد صلح ڤرساى Versailles بعد الحرب العظمى (متز) إلى فرنسا ، لكنها احتلت بواسطة الألمان خلال الحرب العالمية الثانية .
_ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 13 - P., 350.

(٤١٠) ستراسبورج = Strassbourg (بالألمانية Strassburg) ــ مدينة فى شمال شرقى فرنسا ، على بعد ٤٠٠ كيلو متر شرقاً من باريس وإلى الغرب من نهر الراين ــ العاصمة التقليدية لإقليم الألزاس Alsace . ظلت مدينة ألمانية لمدد ذات دلالة من تاريخها . فى القرن الثالث عشر أصبحت ستراسبورج مدينة حرة داخل الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فى عام ١٦٨١ استولى لويس الرابع عشر عليها . بعد الحرب السبعينية (١٨٧٠ ــ ١٨٧١) سلمت المدينة لألمانيا ــ أعيدت إلى فرنسا عام ١٩١٩ ، ثم خضعت لسيطرة ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية .
_ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 18 - P., 289 .

وأقام الرجل مع رفيقه (براتيه) وثالث معهما إسمه دات[٤١١] بالقاهرة أياما ،حتى يأتيه كتاب صاحب السياسة الإفرنسية . فأدب لهم جماعة من الفرنسيس مأدبة حافلة تبادلوا فيها حديث رحلته ،وما قاساه من الجوع والمشاق ، ومقارعة الأعداء ، وهتفوا له هتافا متواصلا . فلما كان مساء الثانى من نوفمبر سافر مع رفيعه[٤١٢] (براتيه) إلى الخرطوم .قالوا ومنها يسيران إلى فشوده لإخراج الحملة منها . وكانت إلى ذلك الحين لم تبرح البلد حتى يرجع مرشان . قالوا وربما يعود مرشان بعد إخلاء فشوده هو ومن معه عن طريق الخرطوم وبربر إلى سواكن ، فيبحر منها إلى ديار الفرنجة ، فلا يأتون عن طريق الكونغو ولا طريق الحبشة كما يظنون .

أقول وقد سمعت حديث رحلة الرجل إلى فشوده ،وما لاقاه فى طريقه ممن سمعه من فم مارشان ورفاقه .وذلك أن رحلتهم قد إبتدأ مسيرها من بلاد الكونغو ،وقد نيط بالضابط راتيه[٤١٣] إختيار الرجال للحملة . فاختارهم من الشغالين[٤١٤] ذوى البأس والحنكة .وكانوا فى بدء الحملة فى حاجة إلى زهاء أربعة آلاف حمال يحملون الأثقال والأمتعة ،فلم يتيسر لهم وجود هذا العدد . فاضطر (براتيه) أن يقاتل إحدى القبايل الكبيرة ، فلما انتصر عليها جعل شرط الصلح والكف عن العداء أن يعطى رجالا مأجورين لنقل أدوات الحملة . وكان عدد الذين جمعهم من رجال هذه القبيلة ألفا وخمسمائة ،فجعل يستعمل الحيلة ويزيل الصعاب ، حتى تحصل على ما أراد من الرجال .وسارت الحملة تجد فى السير وتواصله فى الليل والنهار .فلم تكن لتخلو أيامها من كر وفر وقتال مع بعض القبائل فى طريقها .

(٤١١) دات = Dat صف ضابط فرنسى من أعضاء حملة مارشان .
(٤١٢) رفيعه = رفيقه .
(٤١٣) راتيه = باراتييه Baratier .
(٤١٤) الشغالين = السنغاليين Senegalis .

قال ومن غريب ما يروى عن عوائد أولئك القوم أن بعض كبارهم كانوا يقبلون يد مرشان ،وبعضهم يقبلون فمه علامة على المحبة والولاء . وكان مرشان يهدى إليهم الهدايا الغريبة من مصنوعات الفرنسيس ، وحاصلات البلاد التى كان يجمعها فى طريقه ،وهى من بقايا ما تلقيه القوافل التى كانت اللصوص تقطع الطريق عليها ،أو يغزوها المتوحشون ، فيأخذون ما خف حمله وعظم ثمنه ويهملون ما عدا ذلك .وقد جرت للحملة وقائع عدة مع التماسيح والفيلة . فأما التماسيح فكانت تجتمع كالسحائب حول سفن الحملة ،ولا يظهر منها فوق الماء إلا رؤوسها . وكانت تهجم على السفن وتحاول تحطيمها ،وهى تتفتح[٤١٥] بأفكاكها وآنافها نفخا مخيفا مرعبا .فكان رجال الحملة يطلقون القزائف[٤١٦] عليها فى المقاتل .فإذا دمى بعضها أوقتل البعض فر جميعها واختفى إلى حين . أما الفيلة فكانت تهجم على رجال الحملة جماعات أيضا كثيرة ، وكانوا إذا رأوها مقبلة إنتظموا مربعات لمقاتلتها ،فإذا قتلوا منها ما شاء الله تبدد شمل من لم يقتل ،وتفرقوا أيدى سبأ .قالوا وقد أخذ مرشان من أسنان تلك الفيلة ماطوله مترا وعشرون سنتيمترا وقيل مترين وعشرين .وقبل أن تصل الحملة إلى فشودة بمسيرة ثلاثة أيام صادفها فى طريقها مستنقعات يكاد يستحيل المرور فيها .فذهب (باراتيه) مع عشرين من الرجال لاكتشاف طريق آخر ،وحملوا زاد خمسة عشر يوما ، فتاه فيها وقومه أربعين يوما . فكانوا فى اريام[٤١٧] الأخيرة من تيهتهم يقتاتون من نبات النيلوفر .وبعد خروج(باراتيه) من وحلة المستنقعات كان على مقربة من فشودة ، ولكنه لم يدخل ،وعاد إلى مرشان ومن معه مخافة أن يظنوه قد ضل أوقتل .فتيهوا فى تلك الأوحال أياما من الدهر . ولما وصل مرشان إلى فشوده ورفع الراية الفرنساوية على دار

(٤١٥) تتفتح = تنفخ ــ قراءة ترجيحية .
(٤١٦) القزائف = القذائف .
(٤١٧) أريام = الأيام .

الحكومة القديمة ،برز أمره بأن يشرب الجميع نخب دولة الفرنسيس فى مساء يوم دخولهم البلد ، وذلك بعد سير الحملة أربعة وثلاثين شهرا بلا إنقطاع . وكتب مرشان أربع عشرة معاهدة ،وأقام خمسة عشر مرصدا عسكريا من ضمنها فشوده .ولم يستقر بهم المقام حتى جاء الجواسيس بخبر قدوم جماعة أصحاب المهدوية لمحاربته ، وتواترت الأخبار بذلك .وكان أحد الجواسيس يقول أن عدد أصحاب المهدوية لا يقل عن العشرة آلاف مقاتل ، وآخر يقول بل هم عشرون ألفا والآخر ثلاثون .حتى إذا كان منتصف الليل أشار بأن لايؤتى إليه بخبر ، وأن ينام الجنود ، ليفيقوا بعد مضى ثلاث ساعات ، ويتأهبوا للقتال إذ أن الدراويش لابد وأن يهجموا عليهم فجرا .

وكان عند مرشان فى ذلك الوقت ثمانون جنديا ، والباقون كانوا مع(باراتيه) متغيبين فى بعثة . قالوا ومن عجيب ما جرى فى ذلك الليل إلهيم [٤١٨] ،أن ضابطا سنغاليا كان من العمالقة جسما وطولا ، كان مريضا طريحا على فراشه . فلما بلغه خبر تأهب القوم للقتال وأنهم سيقضون ليلتهم على قدم اليقظة والإلتفات ،نهض للحال من مرقده معما[٤١٩]هو عليه من شدة العلة ، وجعل يطوف بالحراس . فكان كلما مر بحارس وناداه ، فيسأله الحارس عن كلمة(سر الليل) وهو لم يسمعها ، فيقول للحارس تشجع ياولدى ،هذا طواف الضابط المريض . ولما أتم دورته عاد إلى مرقده وكأن لم يكن به مرض ونهض من عنده ، وأبلى بلاء الأسود .وروى عنه جماعة الضباط الفرنسيس ما يروى عن(عنترة العبسى) فى الخرافات . وقالوا أن أولئك القوم السنغاليين أظهروا من الشجاعة وحسن الطاعة وحفظ الأمانة ماأدهش مرشان وأصحابه ، حتى أنزلوهم منازل الأخوة الأشقاء . وكانوا إذا مروا بإحدى المستشفيات[٤٢٠] الرملية حملوا

(٤١٨) الهيم = البهيم .
(٤١٩) معما = مع ما .
(٤٢٠) المستشفيات = المستنقعات ــ قراءة ترجيحية .

أجزاء السفن المفككة على رؤوسهم ،وغاصوا فى تلك المستنقعات إلى صدورهم ،وهم كالأطواد الشامخة . فإذا وصلوا إلى الأنهر ربطوا تلك الأجزاء بعضها إلى بعض وأنزلوها إلى الأنهر بلا عناء ولا تعب .وكانت عمادة[٤٢١] مارشان فى هذه الحملة مؤلفة[٤٢٢] باخرة صغيرة وبضع زوارق ، وسفينة صغيرة من معدن الألومنيوم[٤٢٣] ، وثلاثة مدافع صغيرة من طراز ليبل[٤٢٤] الجديد ،بلا دخان وتنحرف خمسة جواميس على آخر مرماها .قالوا وهو أبعد بكثير من أبعد مسافة تصل إليها البنادق . فلما أصبحوا من ليلتهم التى ياتوا[٤٢٥] فيها على قدم الإستعداد للقاء الدراويش ، رأوا مراكب العدو من بعيد آتية على مهل ، وهى باخرة صغيرة تجر بعض الزوارق ، وهى مدججة بالمدافع والبنادق ، وعليها رجال يبلغون ألف وخمسمائة مقاتل . فللحال برز أمر مارشان إلى ستين من قومه بملازمة الإستحكامات للدفاع عنها ،فقد كان يتوقع أنهم يهجمون عليه من جانب البر . ثم قسم العشرين الباقيين أربعات ، ورسم لهم بأن يكمنوا فى ما وراء الأعشاب . وتقدم هو مع أربعة منهم إلى أول مكان من الشاطئ تقاربه سفن الأعداء ، ولبث رابطا حتى أمكنوه ،فأمر بإطلاق النار . وكان الدراويش لا

---

(٤٢١) عماده = عمارة .

(٤٢٢) مؤلفة = مؤلفة من .

(٤٢٣) تألفت وسائل النقل فى حملة مارشان من زورق بخارى Steam Launch اسمه فيدهرب Faidherbe كان مملوكاً لمستعمرة الكونجو ــ وعدة زوارق معدنية ضيقة مما تحمله السفن الحربية والتجارية Whalers ــ وعدد من الصنادل Lighters ــ ومركب من الألومنيوم ــ وبعض الزوارق الشجرية محلية الصنع Pirogues .

ــ Patricia Wright (Conflict on the Nile). Ibid., - P., 131.

(٤٢٤) ليبل = Lebel إسم أطلق على بندقية متكررة التعمير Fusil a repitition ــ أنتجت عام ١٨٨٦ ، وتم تعديلها عام ١٨٩٣ وحلت محل البندقية المعروفة باسم Fusil Gras بالجيش الفرنسى .

ــ Larousse Universal - vol. II - P., 35 .

ــ Op. cit., vol. 1. P., 955 .

ونعتقد أن ميخائيل شاروبيم قد أخطأ فى مسألة التسليح ــ فالليبل بندقية كما شرحنا فى السطور السابقة وليست مدفع ــ فإذا كان الأمر كذلك فلا يتصور أن يكون تسليح قوة كبيرة كالتى رافقت مارشان هو ثلاثة بنادق فقط .

(٤٢٥) ياتو = باتوا .

يشعرون إلا والقذائف تساقطت بينهم تباعا غير عالمين من أين أتت . ومع ذلك فإنهم لم يرجعوا وساروا فى طريقهم .فكان مرشان ومن معه يتبعهم من نقطة إلى أخرى وهم مختبئون كاللصوص يطلقون نيرانهم تباعا ،ويراسلون الرمى .حتى إذا وصلوا إلى الكمين الثانى شاركوهم فى الرمى على العدو ، وساروا معا من نقطة إلى أخرى وهلم جرا .وعلم مارشان بالمكان الذى سترسو به مراكب العدو من الشاطئ . فقصده مع رجاله العشرين وخبأهم فى مكمن وتصل[٤٢٦]منه نارهم إلى الأعداء ،ثم أمرهم بإصلاء الدراويش نار حامية ، فراسلوا عليهم الرمى ، واشتدوا عليهم شدة بالغة حتى خيل للدراويش أن البيض الكفرة يملأون الفضاء كله ،وأدهشهم مجئ النيران من حيث لا يعلمون ، فأحجموا عن الإقتراب من الشاطئ ،وقد كثرت بينهم القتلى والجرحى . فأداروا سفينتهم يريدون الرجوع على أعقابهم ،فأمن مرشان نزولهم إلى البر ، وأشار إلى أصحاب الإستحكامات بأن ينزلوا إليه سراعا ،وجعل الثمانين صفا مستطيلا وجعلوا يطقلون[٤٢٧]بنادقهم على الأعداء طلقا متشاميا[٤٢٨]حتى أغرقوا زورقا وقتلوا منهم زهاء السبعمائة . فأسرع الباقون بالهرب والفوز بالرجعة[٤٢٩] .

وسير مارشان كتبه إلى(باراتيه) بالعدوه[٤٣٠]عاجلا خوفا من رجوع العدو إلى مهاجمتهم . وبينما هو يستعد للقائه أن[٤٣١]جاءته الأنباء يوما بأن العدو

(٤٢٦) وتصل = تصل .

(٤٢٧) يطقلون = يطلقون .

(٤٢٨) متشامياً = متتابعاً .

(٤٢٩) هاجمت القوات المهدية القوة الفرنسية فى (فاشودة) فى ٢٥ أغسطس ١٨٩٨ بقوة مؤلفة من باخرتين (بردين) و(صافيه) و١٢٠٠ مقاتل بالمدافع . بدأت المعركة الساعه السادسة وأربعين دقيقة صباحاً واستمرت حتى الساعة الخامسة مساء ، وانتهت بهروب البواخر التى أنقذها التيار . وأصيبت أغلب المراكب Barges المصاحبة للقوة المهدية كما تعرضت الباخرة (بردين) لتلفيات كثيرة .

_ Patricia Wright (Conflict on the Nile), Op. cit. - P., 173 .

(٤٣٠) بالعدوه = بالعودة .

(٤٣١) أن = إذ .

راجع إليه ، والأمر على غير ما كانوا يظنون ، فإنه لم يبق فى تلك الأنحاء إلا قليل من جيوش التعايشى ، فقد فروا بعد إنكساره فى أم درمان .

وبعد أيام أخرى جاءه الجواسيس بنبأ قدوم مراكب كثيرة وجيش عظيم .فأكبر الأمر وأخذ أهبته للقتال .وكان السردار كتشنر باشا لما فتح أم درمان وأعد العدة لإحتلال فشوده ، ظن أن جماعة الفرنسيس الذين نزلوا بها هم ألوف مؤلفة لما جاءه من أخبار الرواد والمخبرين . فلما إقترب منها وقف بعيدا عنها ،وجاء فى زورق بخارى يستطلع طلع الأمر ، وقد رأى مارشان الزورق ، فأرسل إليه فى الحال الضابط السنغالى الذى تقدم الكلام عليه ليعلم ما هنالك ، فجامله السردار ورفع إليه رسالة إلى مارشان وسأله (هل أنتم كثيرون هنا) فاجابه مفتخرا (نهم[٤٣٢] نحن كثيرون) قال (وكم يبلغ عددهم[٤٣٣]) فقال نحن خمسون ومائة . فتبسم السردار . وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياما حتى تقرت[٤٣٤] القاعدة بينهما . وكان[٤٣٥] من قيام السردار عائدا إلى الخرطوم ، وما جرى بعد ذلك ما كان . ثم زار السردار مارشان ومر إلى معسكره من وسط حديقة لطيفة للغاية فيها أنواع الزهور والرياحين والبقل شيئا كثيرا ،فأعجب السردار[٤٣٦] إعجابا كثيرا ،فجمع أحد ضباط مارشان شيئا من تلك الزهرو[٤٣٧] وصنع منها باقة وقدمها إلى السردار ،فسر بها وقدم له مارشان أيضا شيئا من البقل والخضر . فلما عاد السردار إلى الخرطوم أرسل إلى مارشان صندوقا من نبيذ الشامبانى أ.هـ

---

(٤٣٢) نهم = نعم .
(٤٣٣) عددهم = عددكم .
(٤٣٤) تقرت = تقررت .
(٤٣٥) وكان = وكان ما كان ـ أضيفت الكلمات ليستقيم النص .
(٤٣٦) السردار = السردار بها ـ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٤٣٧) الزهرو = الزهور .

وكان إلى هذا الحين لم تهتد الجنود المصرية إلى المكان الذى إختبأ فيه الخليفة عبد الله التعايشى ، فتارة كانت الأنباء تأتى إلى(برسونز باشا)ـ الذى عهد إليه السردار أمر اللحاق بالخليفة ومن معه ،قبل إنحدار السردار إلى القاهرة وإبحاره إلى عاصمة الإنجليز ـ كانت تأتى بأنه نازلا[٤٣٨]فى بلاد الدارفور ، وأخرى فى ماوراء الدارفور ، (وبرسونز باشا)يتتبع خطواته ويجد فى طلب من بقى من الدراويش ،حتى لاقاهم مرة فى ثانى عشرى سبتمبر من السنة ومعهم (الأمير سعد الله) فقاتلهم قتالا شديدا ، وقتل منهم خمسمائة ، وجرح أربعمائة . وكانت قتلى عساكره خمسة وثلاثين قتيلا ،وجرحاه خمسين جريحا . ثم ظفر بهم فى ثامن عشرى الشهر المذكور ،وقد كان انضم إلى الأمير (سعد الله)ولمومه (أحمد ولد الفضيل) . فقاتلهم قتالا شديدا للغاية .فقتلوا من عساكره عشرين ،وجرحوا أربعمائة أو يزيد ،ولم يتمكنوا من معرفة عدد قتلى وجرحى الأعداء فى تلك الموقعة ، فقد كانت من أكبر الوقائع وأشدها طحنا . وكان العدو شديد الحرص على قتلاه فلم يتركهم فى ميدان الوغى كما كان يفعل . وعبر(أحمد ولد الفضيل) بعد هذه الموقعة الطاحنة النيل الأزرق .قالوا وتحصن وراء غابات ومستنقعات يعسر إجتيازها على العساكر .فشدد(برسونز باشا)على القبائل المصافية باللحاق به ،واقتفاء أثر الخليفة وعثمان دقنه . فقد تحقق أن دقنه لم يفارق الخليفة ،وإن كانت الأقوال عنه متناقضة .وجاء الخبر إلى وزارة الحرب وديوان الرئيس بأنحدار برسونز باشا يريد القاهرة لحمى أصابته ، وقيل لجراحة عظيمة . فاهتمت وزارة الحرب لمقدمه ، وترامت الظنون إلى أبعد المرامى ، حتى خيل لبعضهم أن الخليفة عاد بخيله ورجاله ، فأجلى الجنود المصرية عن(أم درمان)(والخرطوم) ، وأخذ منهم كل حصن ومعقل . وتفشت هذه الظنون وتحدث بها الناس كثيرا حتى تولى أهل الظباط[٤٣٩]

(٤٣٨) نازلاً = نازل .

(٤٣٩) الظباط = الضباط .

وذويهم الذعر ،وأخذ الرعب منهم مأخذه ،وتزاحموا على أبواب وزارة الحرب يتطلعون ما لديها من الأخبار ،ويرجون السلامه لبنيهم . وتزايد خلط الناس وخبطهم . إذ إتفق فى هذه الأثناء أن زار الأمير قلعة الجبل وتفرج على أبراجها وأسوارها ومخازنها ،وشاهد ما فيها من الأسلحة والكراع ، ومعه جماعة الإنجليز فى وزارة الحرب وبعض رجال ديوانه .وهرع بعضهم إلى(قراميدان)تحت القلعة ليرى ركب الأمير ، وتزاحموا وكثر ضجيجهم . وتبعهم الغلمان وهم فى صياح ونياح . وخرجت نساء(بوابة حجاج)ومدافن الإمام الشافعى ، وهن يزغرطن ويدعين للأمير دعاء العجايز .وجاءت الأنباء من القضارف بأن جماعة من الدراويش داهموا جماعة من الجنود المصريين وقتلت منهم وأسرت . فلم يبق ريب عند الناس فى رجوع أصحاب المهدوية إلى شأنهم القديم وسلطانهم القوى . فقام أصحاب بعض الصحف المحلية يديرون(٤٤٠)على أسماع الناس ذكر حديث إنتصار الجيوش المصرية ،وهروب الخليفة عبد الله ،واحتلالهم لأم درمان والخرطوم وغير ذلك من البلدان التى كات(٤٤١)يحتلها جماعة الدراويش .

---

(٤٤٠) يديرون = يرددون ــ قراءة ترجيحية .

(٤٤١) كات = كان ــ ووفقاً لخطة السردار فإن اللواء (هنتر) رصد زوارقه لمنع (أحمد الفضيل) من عبور النيل الأزرق . عند أبى حراز اعترضت زوارق هنتر طريق أحمد فضيل فى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨ ولم تمكنه من عبور النيل الأزرق إلى الجزيرة ــ ثم تقدمت الزوارق فى النهر واستولت على سنار والروصير فى ٢٨ سبتمبر ، وكان أحمد فضيل لما علم بسقوط القضارف فى ٢٢ سبتمبر ١٨٩٨ عاد إليها وهاجمها يوم ٢٨ سبتمبر لكنه هزم وارتد عنها وزحفت القوات واستولت على الرصيرص حتى يوم ٢٩ سبتمبر ١٨٩٨ .

بعد عودة السردار من فاشودة فى أعقاب لقائه (بمارشان) أرسل قوة بقيادة اللواء راندل للتعاون مع قوة القضارف للقضاء على تهديدات (الفضيل) . وعندما شعر أحمد الفضيل بذلك إنسحب من مواجهة القضارف إلى كردفان عابراً النيل الأزرق بالقرب من الرصير ــ لكن قوة من الأورطة العاشرة السودانية لحقت به فى ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ وقضت على أغلب جيشه ــ لكن أحمد الفضيل تمكن من العبور إلى داخل الجزيرة واتجه إلى الغرب نحو النيل الأبيض حيث انضم إلى الخليفة عبدالله فى (دار الجوامعة) بكردفان .

ــ الأورطة الرابعة المشاة ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٤١ .

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٧٧ ــ ١٧٨ .

وظلوا على هذا أياما حتى ثاب الناس إلى رشدهم ،وأقلعوا عن تلك الأوهام والظنون . وما هى إلا أيام حتى عاد السرادار من عاصمة الإنجليز .فلم يستقر به المقام بالقاهرة حتى جاءت الأنباء من دار السلطنة العثمانية بان قد برز أمر السلطان بعقد(مجلس الوكلاء)متواليا تحت رئاسته ،ويجرى بينهم البحث والمداولة على مدار خبر مرق كالسهم من عاصمة الإنجليز إلى دار السلطنة ، معناه أن صاحب السياسة الإنجليزية ينوى أن يعرض على أمير مصر مشروع إتفاق بينه وبين الأمير ، شبيه بالإتفاق المعقود بين حكومة جمهولا(٤٤٢) الفرنسيس وباى تونس .وأن ظهور هذا الخبر كان بغتة عقب إجتماع السردار كتشنر باشا بملكة الإنجليز وصاحب سياستهم ،وأنهم أرجعوه إلى مصر بعد ذلك الإجتماع بقليل ، ولولا ذلك لعرج على(فينا)عاصمة النمسا لمشاورة بعض أطباء العيون لعلة أصابت إبصاره منذ عهد قريب .

وتكلم أصحاب الصحف المحلية في ذلك كثيرا ، وجزموا بصحته . وعندى أن الخبر بعيد عن الصحة ، ولم أسمع بشئ منه من المصادر الموثوق بها .وقد سألت عنه كثيرا فلم أقف على أثر .على أنا إذا إعتبرنا هذا النبأ صادقا ، جزمنا أنه عسير على جماعة الإنجليز فى هذه الأيام عرض مثل هذا الاقتراح على الأمير ورجال حكومته لوجهين وجيهين ، أولهما أنه لا شبهة(٤٤٣)بين حالة مصر الآن ،وحالة تونس قبل إحتلال جماعة الفرنسيس لها .وذلك لأن مصر كما هو ثابت ومقرر جزء من المملكة العثمانية ،لا منازعة فى متابعتها(٤٤٤) لها ،ولأن أمير البلاد يستمد سلطته الشرعية من الفرامانات الشاهانية التى تحدد له حدوده ، وتعين له تخوم بلاده ،وتجيز له أمورا ،وتنهاه عن أخرى ،ولأن مصر قائمة بالجيزية(٤٤٥)للخزينة السلطانية .أما تونس فانه لما إستقل بها

(٤٤٢) جمهولاً = جمهورية .
(٤٤٣) شبهة = شبه .
(٤٤٤) متابعتها = تبعيتها .
(٤٤٥) بالجيزية = بالجزية .

(باياتها) أصبحت السيادة العثمانية عليها وهما ،وكانت لا تدفع جيزية[٤٤٦] ولا إتاوة ،ويتوارث باياتها بلا فرمان ولا عقد ولارهان .وثانى الوجهين هو أن أمير مصر لا يحق له عقد المعاهدات السياسية مع الدول على اختلافها . وغاية ما له أن يقبل الإتفاقات التجارية . كما لا يحق له أن يحل إية دولة من الدول الأجنبية فى محل شرعى يخولها التقدم على ما سواها . ولأنه إذا حق له يرث[٤٤٧]ويورث النيابة عن السلطان فى حكومة القطر المصرى ،فلا مسوغ له بأن يتصرف فى هذا القطر تصرف المالك فى ملكه[٤٤٨] .وإذا نظرنا إلى

(٤٤٦) جيزية = جزية .

(٤٤٧) يرث = أن يرث ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٤٤٨) فى مايو ١٨٨١ احتلت فرنسا تونس وفرضت على الباى هناك معاهدة الحماية (الباردو ١٢ مايو ١٨٨١) وفيها قبل الباى (م ٢) بأن تحتل القوات الفرنسية (المراكز التى تراها صالحة لاستتباب النظام والأمن بالحدود والسواحل) ــ كما تعهدت فرنسا (م ٣) (ببذل مساعدتها المستمرة لسمو الباى وحمايته من كل خطر يمكن أن يهدد ذاته وعائلته ، أو يعبث بأمن مملكته) ــ ونصت المادة الخامسة من المعاهدة على أن (يمثل فرنسا لدى سمو الباى وزير مقيم عام ، تكون وظيفته السهر على تنفيذ أحكام هذه المعاهدة ، ويكون هو الواسطة بين فرنسا والسلطات التونسية فى جميع القضايا التى تهم الجانبين) ، وحظرت المادة السادسة على الباى (أن يعقد أى عقد ذى صبغة دولية دون إعلام الدولة الفرنسية بذلك والحصول على موافقتها مقدماً) ــ وأخضعت المادة السابعة تونس (لنظام مالى من شأنه الوفاء بواجبات الدين العام وضمان حقوق دائنى المملكة) . إلى جانب مواد أخرى أقل أهمية . غير أنه فى أعقاب ثورة جرت ضد الوجود الفرنسى أجبرت فرنسا الباى الجديد (على باى الذى تولى السلطة بعد وفاة الباى السابق محمد الصادق سنة ١٨٨٢) على توقيع معاهدة (المرسى ٨ يونيو ١٨٨٣) وفيها قبل الباى (إدخال الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التى ترى فرنسا فائدة فيها) (ضمان الحكومة الفرنسية لقرض يعقده الباى لتحويل أو لدفع الدين الموحد والبالغ قدره ١٢٥ مليون فرنك ، والدين السائر (١٧,٥٥٠,٠٠٠) فرنك ، على أن تختار فرنسا الزمن والشروط الموافقة لذلك . وقد تعهد الباى بأن لا يعقد قرضاً فى المستقبل لحساب تونس دون إذن سابق من الحكومة الفرنسية) . وفى المادة الثالثة من المعاهدة حددت فرنسا مخصصات الباى ــ والمبالغ المخصصة للقيام بواجبات القرض والمبالغ المخصصة لمصاريف إدارة البلاد ودفع مصاريف الحماية .

وبمضى الوقت أصبح المقيم العام هو الحاكم الحقيقى لتونس بعد أن انتقلت إليه ــ بمقتضى مراسيم متعددة ــ الصلاحيات الخاصة بنظام الحكم ، والتشريع ، والإدارة .

ــ صلاح العقاد (المغرب العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر) ــ الطبعة السادسة ــ مكتبة الأنجلو المصرية ــ القاهرة ــ ١٩٩٣ ــ ص ١٨٩ ــ ١٩٦ .

مقتضيات المعاهدات وعلى الخصوص (معاهدة برلين(٤٤٩))وجدنا أن الدولة الإنجليزية التى طالما نادت بأنها لا تغير مركزها فى مصر دفعا لحرب عامة شرها مستطير لاتستطيع أن تقترح شيئا من مثل هذا الإقتراح فى هذه الآونة المحفوفة من كل جانب . ولذلك يكون إجتماع السلطان بمجلس وكلاء(٤٥٠)

(٤٤٩) معاهدة برلين = يقترن إسم برلين فى إتفاقيات القرن التاسع عشر بمؤتمرين ــ أولهما مؤتمر برلين (١٨٧٨) Congress of Berlin (١٣ يونيو ١٨٧٨) الذى عقد تحت رأسة المستشار الألمانى أوتو فون بسمارك Otto von Bismark للحفاظ على التوازن الدبلوماسى فى أعقاب الحرب الروسية ــ التركية (١٨٧٧ ــ ١٨٧٨) .

أما الثانى فهو مؤتمر برلين Congress of Berlin (١٨٨٤) والذى عقد لتحديد مناطق النفوذ وتوفير نوع من الضبط للدعاوى التنافسية فى أفريقيا . فى هذا المؤتمر تقرر إنشاء دولة الكونجو الحرة Congo Free State تحت السيادة الشخصية لليوبولد Leopold ملك البلچيكيين ــ كما سعى المؤتمر للحفاظ على حرية التجارة والملاحة فى نهر الكونجو Congo River .

وقد واكب ذلك (١٨٨٤ ــ ١٨٨٥) تملك ألمانيا لتوجولاند Togoland والكاميرون Cameroons ، وأمنت حاجزاً من الأرض الساحلية فى الجنوب أصبح يسمى أفريقيا الجنوبية الغربية الألمانية German Southwest Africa ، وأعلنت محمية شرق أفريقيا الألمانية German East Africa Protectorate .

Geoffry Brunn (A Survey of European Civilization) 4th edition - Part II - Houghton Mifflin Com- — pany - Boston - 1964 - P., 743 - 745

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 3 - P., 217.

(٤٥٠) مجلس وكلاء = مجلس الوكلاء ــ هو مجلس الوزراء فى ظل حركة التنظيم والتحديث والتطوير التى قادها السلطان محمود الثانى (١٨٠٨ ــ ١٨٣٩) فى السلطنة العثمانية ــ الإسم الصحيح باللغة العثمانية هو مجلسى ــ وكلاء Meclis - i Vukela ــ كما كان يسمى أحياناً مجلسى ــ خاص Meclis - I Hass . ضم مجلس الوكلاء كل الوزراء ، شيخ الاسلام ، سر عسكر ، قائد البحرية ، وفى بعض الأحيان وكلاء هؤلاء ــ مديرى (مشير) إدارات البوليس والترسانه (طوبخانه Tophane) فى استانبول ــ وكيل رئيس الوزراء عندما يكون مسئولاً عن وزارة الداخلية ، مديرو إدارات ضرائب الرسوم (رسومات إمينى Rusumat Emini) ، والايرادات (دفترى ــ حقانى Defter - i Hakani) ــ وكثيراً ما كان (وكيل) (كتخدا) والدة السلطان يحضر جلسات مجلس الوكلاء ممثلاً للقصر .
مارس مجلس الوكلاء العثمانى عدداً من المهام السياسية والقانونية الهامة . بعد عام ١٨٥٠ حلف أعضاؤه يمين الولاء للسلاطين الجدد عند توليهم العرش . كان المجلس يشير على رئيس الوزراء والسلطان فى الأمور الهامة إلى جانب الإقتراحات التشريعية ، كما كان يقر ميزانية الدولة كجزء من النشاط التشريعى . كانت قرارات المجلس تنقل فى شكل بروتوكولات نقاش (مذكرات ضابط ورقه سى Muzakerat zabit varakasi) تحوى ملخصات للموضوعات والمناقشات التى صوتت لصالح أو ضد قراراته . وبالإضافة إلى ذلك فإن المسائل التشريعية التى كان المجلس يناقشها كانت ترفق بها هذه (المذكرات) مع مذكرات مستقلة (مضابط mazbatas) تحوى النسخة النهائية للقانون أو اللائحة المختصة . وكان باستطاعة المجلس أن يقترح تغييراً فى القوانين التى يتلقاها من المجالس التشريعية . وكان السلطان هو الذى يقرر الشكل النهائى للأمور قبل أن يصادق بإرادته (إرادة Irade) إلى جانب التفسيرات المتصلة بموافقته أو رفضه للموضوع محل المناقشة .

- Stanford J. Shaw & Ezel Kural Shaw (History of the Ottoman Empire and Modern Turkey) vol. II. Ibid., - PP., 37, 38, 49, 73, 77 - 83, 93.

فى هذه الأيام إنما هو لأمر من الأمور الأخرى . وحقيقة الخبر أن سفير الإنجليز فى دار السلطنة ، كلم الصدر الأعظم فى أن يصدر أمر السلطان بتفويض صاحب السياسة الإنجليزية مهمة تنظيم السودان بعد فتحها ذلك الفتح المجيد ، ليكون مركز الإنجليز فيه شرعيا ممتازا حسب القوانين الدولية .فلما بلى(٤٥١) السلطان خبر هذا الطلب ، جعل يطاول ويحاول ، ويبدى للسفير بعض المطالب . قالوا فكان السفير يجيبه بغاية التحفظ والإلتفات . وطال الحال على هذا أياما ،حتى برز أمر السلطان إلى الصدر الأعظم بعدم جواز طلب السفير ،وتعذر قبوله على ما به من خرق للفرامانات .فأكبر صاحب سياسة الإنجليز الأمر وأعظمه ،وسير إلى لورد كرومر فى طلب ذلك من الأمير ورجال حكومته . فكلم الأمير فى ذلك ، وألح على الرئيس مصطفى فهمى باشا فلم يوافقهم الأمير ،وأجفل كذلك الوزير .وطير بعض أصحاب الصحف الأجنبية خبر ذلك إلى الآفاق ،فاهتم له أصحاب سياسات الدول لا سيما دولتى الروس والفرنسيس . وكان الصدر الأعظم قد كلم السفراء فى الأمر ، وخوفهم عاقبة فعل القوم الإنجليز بالسودان واستبدادهم به ، فظهرت الحركة .فانكمش صاحب سياسة الإنجليز ، وأظهر العدول عن طلبه حتى تتبدل الأحوال وتتفرق عزائم الرجال .

وسعى السردار سعيه فى إنشاء مدرسة كلية فى الخرطوم ، واستدر عطاء أهل البر ،فجامله أهل المناصب العالية وكبار القوم والأمراء ، ودفعوا إليه مالا له صورة ، وكذلك فعل الأمير ، وجاءت إليه الكتب من ديار الإنجليز بإقبال القوم على مشرعه(٤٥٢) .ففرح بذلك فرحا عظيما ، وكتب إلى أصحاب بعض صحفهم يقول أن آماله عظيمة فى القوم السود من جهة العلم والأدب والتهذيب ، ويعلم بأنه سيكون مطلق التصرف فى شؤون السودان إداريا وماليا وعسكريا . فهاج هذا القول فضول بعض أصحاب الصحف المحلية ، فلم يلتفت إليهم ولم يحفل

(٤٥١) بلى = بلغ .
(٤٥٢) مشرعه = مشروعه .

بجلبتهم . ثم سافر إلى الخرطوم وهو واثق من فلاحه فى مهمته هذه .وبينما الأحوال على ما هى إذ جاء الخبر من محافظ سواكن إلى وزارة الحرب وديوان الوزارة بظهور الحركة فى جيوش منليك جانوسى[٤٥٣]الحبشة .قالوا فقد هم بالزحف فى حملة من ثمانين ألف مقاتل ويزيد ، مدججة بالعدة الكاملة والمدافع الكثيرة ،ولم يعلم لأحد وجهتها .فلما شاع خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف المحلية وصحف الإنجليز ،تلقته دولة الإيطاليان بغاية الذعر والإضطراب ، واهتمت له صحفهم اهتماما عظيما ،ونادى بعضهم بالثرات رجالتنا[٤٥٤]وزهرة شبيبتنا .وأخذتهم الطيرة من كل جانب ، وقالت إحداهم : (إذا كان النجوسى قد إتفق مع جماعة الإنجليز على إمتلاك شق من الأراضى التى احتلها أصحاب المهدوية بمثابة هدية أو جزاء حياده فى معارك السودان ، وعدم إنتصاره للدراويش ، كان فى غنى عم[٤٥٥] حملة حائلة لتلك[٤٥٦] الحملة .لأن فتوح ذلك الشق من أراضى[٤٥٧]لهو من أيسر الأمور ،ولا يحتاج إلى حماة[٤٥٨] مثلها .وأما إذا كان يريد معاقبة الرأس منغشيا لخروجه عن طاعته كما يزعمون ، فجيوش هذا الرأس وعساكره التى يعتمد عليها قليلة العدد والعدة ، فلا حاجة إذن إلى مقابلتها بجيش عرمرم مكون من ثمانين ألف مقاتل . إذن فهو يحاول أن يسأنف[٤٥٩]الخطة التى جرى عليها فى سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية ،أى يقاتل الإيطاليان ويعاديهم من جديد) أ٠ هـ .

---

(٤٥٣) جانوسى = نجاشى .

(٤٥٤) بالثرات رجالتنا = يالثارات رجالنا ــ والمقصود بذلك (هزيمة عدوة ــ مارس ١٨٩٦) التى هُزمت فيها القوات الإيطالية على يد جيوش منليك الثانى ، والتى بلغت خسائر القوات الإيطالية فيها ستة آلاف قتيل و٤آلاف ما بين أسير وجريح .

(٤٥٥) عم = عن .

(٤٥٦) حائلة لتلك = هائلة كتلك ــ قراءة ترجيحية .

(٤٥٧) أراضى = الأراضى .

(٤٥٨) حماة = حملة ــ قراءة ترجيحية .

(٤٥٩) يسأنف = يستأنف .

وعندى أن العداء لإيطاليا من النجوسى بعيد ،وانما هو يريد أن يضرب الرأس منغيشا حقيقة ضربة واحدة ساحقة بذلك الجيش الضخم . وذلك لأنه صمم على خلع منغيشا من ولاية الثغرة(٤٦٠)وتنصيب الرأس ماكونين(٤٦١) بدله ، ولكن الإمبراطورة(طاطو)تشد(٤٦٢)أزر شقيقها الرأس ألوله(٤٦٣) ،وتلك مسألة متعلقة بالخلافة على العرش الحبشى .لأن الرأس الذى يتولى على ولاية التفره(٤٦٤)يخلف منليك بعد موته على عرش المملكة الحبشية .فلما تأدى إلى منغيشا خبر ذلك عصى مولاه الناجوسى ، وشق عصا طاعته .فجيش لخلفة(٤٦٥) وتأديبه ذلك الجيش العظيم . والإيطاليان يحسبون لكء(٤٦٦)حركة تبدو من الناجوسى ألف حساب بعد الذى قاسوه من جماعة الحبشان فى سنة خمس وتسعين فتأمل .وبلغ الضابط مارشان الفرنسى فشوده ،وأعد معدات رحيله بسائر رجاله عنها .وما زال حتى أتم أهبته ورحلوا عنها فى حادى عشر ديسمبر من السنة ،سابع عشرى رجب الفرد سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف هجرية ، وساروا

---

(٤٦٠) الثغرة = التيجرى Tigre أحد أقاليم أثيوبيا الشمالية ــ عاصمتها عدوه . كان الرأس منجشاً حاكم الإقليم هو أحد المنافسين الرئيسيين لمنليك على العرش الإمبراطورى خلال التسعينيات . فى ١٨٩٤ تحالف (منليك) إمبراطور أثيوبيا مع منافسه (منجشا) حاكم إقليم التيجرى ضد الإيطاليين ــ لكن هزيمة الإيطاليين فى (عدوه) وهى العدو المشترك (لمنجشا) و(منليك) ــ أعادت العداوة السابقة بين الغريمين ــ فى ١٨٩٨ نجح منليك فى إخضاع ثورة منجشاً فى تيجرى .

ــ راجع حاشية ٤٦٣ من حواشى عام ١٨٩٥ .

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ــ ص ١٨٢ .

(٤٦١) ماكونين = الرأس ماكونين حاكم إقليم هرر فى التسعينيات .

(٤٦٢) تشد = كانت تشد ــ إضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٤٦٣) الرأس الوله = شخصية قيادية من إقليم تيجرى ــ إقترن إسمه بالرأس منجشاً حاكم الإقليم باعتبارهما منافسين لمنليك الثانى على العرش الإمبراطورى ــ واضح من النص أنه شقيق للإمبراطورة طاطو زوجة منليك الثانى .

ــ على بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١١ .

(٤٦٤) التيفره = التيجرى .

(٤٦٥) لخلفه = لخلعه .

(٤٦٦) لك = لكل .

ليجتازوا المملكة الحبشية . فلحق بهم اليوزباشى(لارجو)(٤٦٧) الفرنسى الذى كان قائدا لحامية(مشرع الرق) ، وتخلف عنهم أحد الضباط برتبة قائمقام(٤٦٨) وجاويشا وثمانية من السنغاليين لأمراض أصابتهم ،وهم راجعون عن طريق النيل . فلما أخلوا فشوده إحتلتها العساكر المصرية ومعهم (مكسويل بك) الإنجليزى مقدمهم .وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب وقصر الإمارة وديوان الوزارة ،وتفشى بين الناس ونقله أصحاب الصحف على اختلافها .فما هو أن علم به مصطفى كامل داعية الحزب الوطنى حتى هب من سكونه وأعلن على رؤوس الملأ بأنه سيلقى خطبة فى القاهرة ،وهى الخطبة الأولى من نوعها التى سيلقيها فى عاصمة البلاد منذ جهر بمبادئه الحزبية ، وحض الناس على الإجتماع فى المكان المعروف بالنادى الإيطالى .فلما كان ثانى عشر ديسمبر من السنة ،ثامن شعبان ، إحتشد الجم الغفير فى ذلك المكان ، وتزاحموا على أبوابه . وكان تلامذة المدارس متكوفين حول مقام الخطيب .فلما وقف يتكلم هاج القوم وماجوا ،وصاح التلامذة بأعلى أصواتهم .(لتحيا يا مصطفى لتحيا يا كامل ـ لتحيى يا مصر) . واشتد صياحهم وضجيجهم لحظة ،ثم تكلم الخطيب فبدأ بوجوب اجتماع كلمة المصريين ونبذ الشقاق والإفتراق بينهم ، والتألب يدا واحدة على دفع المحن المحدقة بالبلاد ،والإقتداء بمن تقدمهم فى الذود عن حمى الوطن لعهد محمد على باشا الكبير ،والمجاهرة بأفكارهم وشعورهم طلبا للإستقلال والحرية .ثم قال(واقلعوا أيها القوم سليلة(٤٦٩)الأماجد الكرام عن الإستسلام واليأس ، لما فيها من الخيبة والفضيحة والشنار) .ثم استطرد إلى ذكر السودان وطموح جماعة الإنجليز إلى أخذه فدية عن غردون ،كأن دماء أبطال المصريين التى سفكت فى سبيل فتحه لا تعد عندهم شيئا مذكورا .

(٤٦٧) لارجو Largeau . أحد أفراد بعثة مارشان من الضباط ـ راجع حاشية ٤٠١ من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٤٦٨) لم تضم بعثة مارشان ضابطاً رتبته أعلى من رتبة كابتن (نقيب) . وكان يحملها كل من مارشان ، چرمين ، وباراتيير ـ راجع حاشية ٤٠١ من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٤٦٩) سليلة = سلالة .

ثم تكلم عن غرور وسوء منقلب الذين يضحون مصالح الوطن فى سبيل منافعهم الذاتية .وقال أن كل فرد من المصريين مطالب بخدمة وطنه والسعى إلى خلاصه دبقه[٤٧٠]الذل والتأخر .لأن الأمة فرد متكرر . قال(فلا الضعف إذن ،ولا الفقر ولا اليأس أعذار تبرئ من وصمة القعود عن العمل ، والجد فى سبيل إنقاذ الوطن .بل هى جنايات عليه) إلى أن قال(ولا معنى للحياة مع اليأس ولا معنى لليأس مع الحياة)وضرب مثلا أهل (بولونيا وأيرلنده)وقال (إن الحياة جهاد والعمر قصير .والجهاد فى خدمة الوطن فخار ومجد ، لا غرور ولا تهور كما يزعم أعداء الوطن ودساسين السوء والفساد) .وانتقل إلى ذكر الأمير وأطرى ميله رغما من حرج موقفه وقلة نصرائه .وأن الدين الإسلامى مطابق للمبادئ المدنية والمصالح الإنسانية .وختم كلامه بقوله(وإنكم إذا حافظتم أيها المصريون على مبادئكم الوطنية ،وطالبتم بحقوقكم المقدسة ، واتبعتم أوامر الشريعة المطهرة ،وزال من بينكم الشقاق والفراق ، ردت إليكم حريتكم وسعادتكم وبلغتم منتهى العز وذروة المجد .وإلا فإذا دمتم على هذا الحال ،بئس الحال وبئس الإستقبال .وحسبكم مشيرا وتنذيرا قول ربكم [إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم] . فما هو أن أتم خطابه حتى ارتفع صياح المجتمعين إلى عنان السماء ،واشتد تصفيق تلامذة المدارس شدة أصمت الآذان ،ونادوا بكليمات مختلفة لامعنى لها ،ولا هى من الأدب[٤٧١] فى

(٤٧٠) دبقة = من ربقة ـ قراءة ترجيحية .

(٤٧١) لاحظ الود المفقود بين ميخائيل شاروبيم وبين مصطفى كامل وأنصاره ـ فرغم أن الكلمة التى ألقاها كامل والتى لخصها شاروبيم كانت تحض على الاتحاد ونبذ الشقاق والأقتداء بالأجداد والآباء للذود عن حمى الوطن والبعد عن الإستسلام لليأس الخ ـ وكلها كلمات طيبة تصدر عن زعيم يبصر بنى وطنه بما ينبغى أن يسلكوه ـ إلا أن هذا لم يشفع عند شاروبيم الذى أصر على وصم مناصرى مصطفى كامل بأنهم ردوا عليه فى خطبته (بكليمات مختلفة لامعنى لها ولا هى من الأدب فى شىء) ـ ونحن وإن كنا لانعرف ما الذى قاله الحاضرون لخطبة مصطفى كامل فى ذلك اليوم ـ إلا أن المتصور أن يكون الأمر هتافاً بحياة مصطفى كامل وحياة الخديو وسقوط الإنجليز ومن والاهم ـ ولا أعتقد أن فى هذا ـ أن صح ما نقول ـ خروج عن الأدب أو كليمات لا معنى لها .

شئ . وخرج الخطيب وخرجوا خلفه وهم على شأنهم من الهرج والصياح . وكان صاحب الشرطة قد بعث أعوانه حول المكان وفى سائر شوارعه . فجعل التلامذة ينظرون إليهم نظرة الغاضب المحتدم وكأنهم يتوعدونهم شرا ،فلم يلتفتوا إليهم ولا تعرضوا لتفريق جمعهم ،حتى تفرقوا هم بأنفسهم .فأخذ جماعة الإنجليز على ذلك الداعية قوله أن الإنجليز يريدون أخذ السودان فدية عن غردون ، وقامت ضجة أصحاب صحفهم حول قصر الإمارة .وقالوا لا يحل لصاحب السياسة الإنجليزية أن يحمل هذا القول على المحمل الحسن ، إذ هو موعز به من صاحب القصر ، وكل كلمة منه لم يفه بها ذلك الداعية قبل أن توزن بمعيار التفكير والتدبير . كما لايحل إلى لورد كرومر أن يترك أولئك الصبية يلعبون بالنار فى هذه الآونة المحفوفة بأنواع المخاوف والأخطار ، وظلت على هذا حينا .

فلما كان سابع عشرى ديسمبر سافر لورد كرومر ومعه ولديه والمستر غورست المستشار المالى إلى الصعيد الأعلى قاصدين الخرطوم .قالوا وسيقومون[٤٧٢] أياما فى هذه الرحلة .فما هم أن بلغوا الخرطوم حتى شاع خبر عزم الحكومة أو هو السردار على تمديد الخط الحديدى إلى الخرطوم ومنها الى سويات[٤٧٣] ،وأن ستقوم الخزينة بجمع النفقة .أقول على أن(سوبات)هذه التى إحتلتها الجنود المصرية إنما هى من أملاك الحبشة بمقتضى المعاهدة المعقودة بين النجاشى منليك وصاحب سياسة الإنجليز على يد(السير رنل رود)فيما مضى من الأيام . وكان مقدرا إنفاق ماينيف على ثلثمائة ألف جنيه لإيصال ذلك الخط من (الأتيره)[٤٧٤]إلى الخرطوم .ولا أعلم كم سينفق على إطالته إلى (سوبات) والمسافة تزيد على ستمائة كيلو متر .فإن لم يكن إلا مثل ما تقدم أو ثلثاه ،بلغت جملة النفقة خمسمائة ألف جنيه . وإذا أضيف إلى هذا المال الذى تقرر صرفه لمد الخط إلى(الأتبره)بلغت النفقة صدا إلى[٤٧٥] ألف

(٤٧٢) وسيقومون = وسيقيمون .
(٤٧٣) سويات = سوبات ــ بلدة على نهر السوباط تحت فاشودة وغرب الناصر .
ــ راجع الخرائط فى الملاحق ١ ــ ٣ ــ ٥ .
(٤٧٤) الاثيره = العطبره .
(٤٧٥) صدا إلى = استبعدت الكلمتان ليستقيم المعنى .

ألف جنيه ذهبا . ولو أنقصت هذه النفقة الطائلة مائتى ألف جنيه لكانت قيمة أكلاف الخطوط السودانية تربو على القرض(٤٧٦)أو الهدية التى جاد بها صاحب السياسة الإنجليزية عند الشروع فى تسيير الحملة على خليفة المهدية .

وجاء الطلب من السردار عقب وصول لورد كرومر ومن فى ركابه إلى الخرطوم إلى ولدى الزبير باشا بالشخوص إلى الخرطوم على عجل . فسيرهما أبوهما على الفور فرحا مسرورا .قالوا وربما تقلدا منصبين من مناصب الدولة هناك . فتحدث الناس فى ذلك كثيرا وعدوه فاتحة لعمل كبير سيقع بعد وصول لورد كرومر إلى مقره .أقول وذكر لى بعض أصحاب الرأى والتفكير ما أزاعه(٤٧٧) السردار فى أحد الأيام فى صحفهم الإنجليزية من أنه سيكون للشبيبة السودانية فى القريب من الأيام شأنا فى مناصب وخطط الدولة ، بعد تسقيفهم(٤٧٨) وتعليمهم العلوم العصرية .وأن ستقفل أبواب تلك المناصب فى وجوه المصريين ،فلا يكون شأنهم فى تلك الديار التى استرجعوها بدمائهم وأموالهم إلا شأن النزيل الذى لا ناقة له فيها ولا جمل .



(٤٧٦) عندما تقرر إنفاذ حملة دنقلة سحبت الحكومة المصرية بناءاً على (نصيحة) إنجلترا مبلغ نصف مليون جنيه من الاحتياطى العام بعد أن كانت إنجلترا قد ضمنت موافقة مندوبى ألمانيا وإيطاليا والنمسا فى صندوق الدين ـ لكن فرنسا وروسيا رفضتا الموافقة على هذا العمل ورفعتا دعوى أمام المحاكم المختلطة ضد الحكومة المصرية على أساس ضرورة موافقة أعضاء صندوق الدين بالإجماع ـ فضلاً عن أن وجوه الصرف الإستثنائية من الإحتياطى العام يجب أن توجه للأشغال العمومية ذات الصفة الدائمة . فى ١٨ يونيو ١٨٩٦ أصدرت المحكمة المختلطة الإبتدائية حكمها برد الحكومة المصرية للمبلغ المسحوب ـ ثم تأيد الحكم استئنافياً فى ديسمبر ١٨٩٦ . ردت الحكومة المصرية المبلغ وقامت الحكومة البريطانية بإقراض مصر مبلغ ٨٠٠ ألف جنيه بفائدة قدرها ٢,٥٪ بعد موافقة البرلمان البريطانى ـ ثم تنازلت فيما بعد عنه لمصر لتقيم الدليل على مساهمتها مع الحكومة المصرية فى نفقات فتح السودان ـ ولتبرر بعد ذلك دعواها فى الحكم الثنائى فى السودان .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

(٤٧٧) أزاعه = أذاعه .

(٤٧٨) تسقيفهم = تثقيفهم .

الفصل الثامن

عام ١٨٩٩

زيارة اللورد كرومر للسودان(يناير١٨٩٩)

وفاة نوبار (١٨يناير١٨٩٩)

إتفاقية السودان(١٩ يناير١٨٩٩)

مولد الأمير محمد عبد المنعم(١٩فبراير١٨٩٩)

ترسيم الحدود بين مصر والسودان

ظهور أوراق النقدBanknote (أبريل١٨٩٩)

أزمة القضاء الشرعى (مايو١٨٩٩)

الإحتفل بإقامة تمثال دى ليسبس De Lesseps فى بور سعيد (١٧نوفمبر١٨٩٩)

معركة(منهل جديد) ومصرع الخليفة عبد الله التعايشى(٢٤ نوفمبر١٨٩٩)

تعيين ريجنالد وينجت Reginald Wingate حاكما عاما للسودان وسردارا للجيش المصرى (١٣ديسمبر١٨٩٩)

حوادث سنة ١٨٩٩ تسع وتسعين ميلادية

استهلت سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف ميلادية بيوم الأحد ثامن عشر شعبان سنة ستة عشر وثلثمائة وألف لهجرة صاحب الشريعة المحمدية ،وثالث عشر كيهك سنة خمس عشرة وستمائة وألف للشهداء ، والأخبار من التخوم متتابعة بزحف الجنود السودانية لمطاردة (التعايشى) (وأحمد الفضيل)أينما ساروا ،واهتمام الهيئة الحاكمة بجلب المؤن والميدة[1] إلى أم درمان ، لجدب الأرض وعجز القوم عن الزرع بسب الثورة وظلم الخليفة .وشدد السردار فى مطاردة الفارين .فما هى أن جاء الخبر بلحاق العساكر والأجناد المصرية بمؤخرة جيوش(أحمد الفضيل) فقاتلوهم قتالا شديدا جدا ومنعوهم من إجتياز النيل فى الشلالات قبلى (روسيريس) . وكان السواد الأعظم من عساكر (الفضيل) نازلا بجزيرة مجاورة ، فاشتدت العساكر المصرية فى قتالهم شدة بالغة وقتلوا منهم خمسمائة قتيل ، وأسروا ألف وخمسمائة ، وغنموا زهاء ثمنمائة بندقيه ، وأسروا نساءاً وأطفالا كثيرة .وعبر(أحمد الفضيل) النيل وقاتل العساكر قتالا عنيفا للغاية بثلثمائة مقاتل ، وأظهر من البسالة والإقدام ما لا يمكن إنكاره . فاشتد عليهم الجنود برمى المدافع الرشاشة حتى مزقوهم .وفر الفضيل إلى الجهة القبلية الغربية . وكانت جرحى العساكر المصرية ستة ضباط وآخر إنجليزى ،ومائة وثمانية عشر عسكريا ،وقتل عسكرى واحد على ما قاله المخبرون[2] .قالوا ولما إستقر بلورد كرومر ومن معه النوبى دعى[3] كبار القوم من أهل السودان ومشائخ القبائل وأهل المناصب وأصحاب الخطط إلى حفلة فى

---

(١) والميلة = والميرة .

(٢) عن معركة أحمد الفضيل فى ٢٦ ديسمبر ١٨٩٨ ــ راجع حاشية ٤٤١من حواشى عام ١٨٩٨ .

(٣) النوبى دعى = المقام ، دعا ــ قراء ترجيحية .

فناء دار الحكومة ، ووقف فى وسطهم خطيبا .فقال ما ملخصه .(إعلموا هداكم الله أن السردار كتشنر باشا هو حاكمكم المطلق الغير المقيد برأى أو إشارة ، لا من ديار الإنجليز ولا من قصر الإمارة بالقاهرة . وعلموا[٤] أن لا تعرض قط للأديان ، ولا دخل للهيئة الحاكمة فى شيء منها .وأن الشريعة التى يعمل بها إنما هى شريعة البلاد لا سواها .وأن هذا العهد الجديد سيكون عهد عدل وطمأنينة وسلام وسعة فى الرزق وسط[٥] فى العيش ، وستنشأ المحاكم وتخفف الضرائب . قال واعلموا أيضا أننى سأضع الحجر الأول فى أساس مدرسة مرحوم الذكر غردون باشا باسم جلالة ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند . وسيكون التعليم فى هذه المدرسة بالعربية ما أمكن ،ولا تعرض فيها للمذاهب والأديان ،ولا يتوهمن أحدكم بأن الغرض من تأسيس هذه المدرسة تكوين شعب سوادنى إنجليزى ،إنما الغرض تثقيف عقول جمهور من شبانكم ليخلفوا لتقلد المناصب وتولى الخطط ،كالهندسة والزراعة وغير ذلك .فهتف له جماعة الضباط وأهل المناصب هتافا عظيما وأنصرفوا .ثم أخذ الأهبة للإنحدار إلى القاهرة . فأعدوا له كل أسباب الراحة ،فانحدر فبلغ القاهرة فى ثانى عشر يناير من السنة بمن كان معه من علية الإنجليز .فاحتفل القوم بلقائه إحتفالا كبيرا .وماهى إلا عشية أو ضحاها حتى إجتمع بالأمير فى قصره . قالوا وطال إجتماعهما وتتابع أياما ، ولم يعلم الناس من أمر هذا الإجتماع شيئا . فأكبروه وحسبوا له حسابا كبيرا لا سيما بعد تفشى خبر الخطاب الذى ألقاه اللورد فى حفلة الخرطوم ، وقد تضمن من المغامز والإشارات البعيدة شيئا يمس بحقوق عرش الإمارة ،وشخص الأمير وسيادة متبوعه السلطان عبد الحميد . فلما كان ثامن عشر يناير من السنة وفيما الحال على هذا من التفكير فيما عساه أن يكون بعد ذلك الحادث الخطير ، إذ جاء الخبر من باريز عاصمة الفرنسيس بوفاة الوزير

---

(٤) وعلموا = واعلموا .

(٥)وسط = وبسطة .

الكبير والسياسى الشهير(نوبار)باشا .مات الرجل بعيدا عن بلده[٦] قد خدمه منذ أيام محمد على باشا الكبير ، متقلبا فى مناصبه ووظائفه فى عهد كل من إرتقى أريكة الإمارة إلى هذا العهد ، واعيا فى صدره تاريخ سبعة من الولاة من عهد محمد على باشا إلى عباس الثانى صاحب قصر الإمارة الآن .كان رحمه الله باهر الذكاء ، متقد الجنان ،طويل الباع ،بعيد النظر ، معدودا فى يار[٧] الفرنجة بين كبار السياسات وأقيال الرياسات ، وله بينهم قول مأثور ورأى مذكور ، وكان ندى الكسف[٨] ،سخى البنان .خدم البلد خدمة تشكر ،وكان أبا للفقير ، وواعظا للكبير ، ومربيا للصغير ، ومحبا للفلاح ، ومنشطا للصانع . فكان محبوبا مطاعا مهابا مسموع الكلمة متوبع[٩] الرأى .مات عن ثمانين سنة أو يزيد ، فحنطوا جثته وأتوا بها إلى القاهرة فدفنوها بتربته التى أعدها لنفسه . رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته .وقد إهتم جناعة[١٠] الوزراء بجنازته إهتماما كبيرا .فسار أمام نعشه طائفة من العساكر والأجناد ، وخلفه الوزراء والأمراء وأهل المناصب وأصحاب الخطط وثلة من أصحاب الشرطة . وما زالوا حتى واروه التراب[١١] .

فلما كان ثامن عشر يناير ظهر الخبر وبأن[١٢] سبب إجتماع لورد كرومر بالأمير فى قصره ، وبالوزير مصطفى فهمى باشا فى ديوانه ،والوزير بطرش[١٣]باشا غالى فى الإجتماعين .ذلك أنه لما عاد اللورد من الخرطوم جاءه الأمر من صاحب السياسة الإنجليزية بأن يبلغ الأمير وجماعة الوزراء الخطة إلى[١٤] رأى

---

(٦) بلده = بلد .
(٧) يار = ديار .
(٨) الكسف = الكف .
(٩) متوبع = متبوع .
(١٠) جناعة = جماعة .
(١١) عن الترجمة لنوبار ـ راجع حاشية ١٠٣من حواشى عام ١٨٩٢ .
(١٢) وبأن = بان .
(١٣) بطرش = بطرس
(١٤) إلى = التى .

أن يضعها قاعدة لنظام حكومة السودان ، ويطلب التعجيل بإقرارها ، والموافقة عليها ليحصل الشروع فى العمل بموجبها .قيل فلم تحسن فى عينى الأمير ،ولا لاقت منه صدرا رحبا ،وكلم الرئيس فى ذلك وعاب عليه إستكانته واستسلامه .فكثر حينئذ غدو لورد كرومر ورواحه بين مصر[١٥] الإمارة وديوان الوزارة . قالوا واستدعى[١٦] الرئيس فى الطلب وعاتبه .فأصبح وهو بين منتطح عنزين ، ولكنه عاد فرأى أن السلامة فى ما أشاربه صاحب السياسة الإنجليزية وإن القضاء نافذ لا محالة ،فجعل يسعى فى التوفيق بين القضيتين . ومازال هذا رأيه حتى تمت إشارت[١٧] صاحب السياسة الإنجليزية وتقررت قاعدة ذلك على النحو الذى رسمه وهو بنصه :

وفاق بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز وحكومة الجناب العالى خديوى مصر بشان إدارة السودان فى المستقبل .

حيث أن بعض أقاليم السودان التى خرجت عن طاعة الحضرة الفخيمة الخديوية قد صار إقناعها[١٨] بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالإتحاد حكومة جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديوى .

وحيث قد أصبح من الضرورى وضع نظام مخصوص لأجل إدارة الأقاليم المفتتحة المذكورة ، وسن القوانين اللازمة لها بمراعاة ما هو عليه الجانب العظيم من تلك الأقاليم من المناخر[١٩] وعدم الإستقرار على حال إلى الآن ، وما تستلزمه حالة كل جهة من الإحتياطات المتنوعة .

---

(١٥) مصر = قصر .
(١٦) واستدعى = واشتد على ـ عدلت الكلمة ليستقيم النص .
(١٧) أشارت = إشارة ـ قراءة ترجيحية .
(١٨) إقناعها = إفتتاحها
ـ راجع الخديو عباس حلمى الثانى (عهدى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٠٥ .
(١٩) المناخر = التأخر ـ قراءة ترجيحية .

وحيث أنه من المقتضى التصريح بمطالب حكومة جلالة الملكة المترتبة على ما لها من حق الفتح ، وذلك بأن تشترك فى وضع النظام الإدارى والقانونى الآنف ذكره ، وفى إجراء تنفيذ مفعوله وتوسيع نطاقه فى المستقبل .

وحيث انه تراءى من جملة وجوه أصوبية إلحاق وادى حلفا وسواكن إداريا بالأقاليم المفتتحة المجاورة لها .

فلذلك قد صار الإتفاق والإقرار فيما بين الموقعين على هذا بما لهما من التفويض اللازم بهذا الشأن على ما يأتى :ـ

المادة الأولى ــ تطلق لفظة السودان فى هذا الوفاق على جميع الأراضى الكائنة إلى جنوبى الدرجة الثانية والعشرين من خطوط العرض وهى أولا ــ الأراضى التى تحتلها[٢٠] قط الجنود المصريه منذ سنة ١٨٨٢ .أو[٢١] ثانيا الأراضى التى كانت تحت إدارة الحكومة المصرية قبل ثورة السودان الأخيرة وفقدت منها وقتيا ،ثم إفتتحاها الآن حكومة جلالة الملكة والحكومة المصرية بالإتحاد . أو[٢٢] ثالثا الأراضى التى قد إفتتحتها[٢٣] بالإتحاد الحكومتان[٢٤] من الآن فصاعدا .

المادة الثانية : يستعمل العلم البريطانى والعلم المصرى معا فى البحر[٢٥] والبحر بجميع أنحاء السودان ما عدا مدينة سواكن فلا يستعمل فيها إلا العلم المصرى فقط .

---

(٢٠) تحتلها = لم تخلها
ــ الخديو عباس حلمى الثانى (عهدى) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٠٥ .
ــ جورجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث) ج ٢ ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٤٠ .
(٢١) أو = ــ ــ المرجع السابق ص ٣٤٠ .
(٢٢) أو = ــ ــ المرجع السابق ص ٣٤٠ .
(٢٣) افتتحها = تفتتحها .
ــ المرجع السابق ــ ص ٣٤٠ .
(٢٤) الحكومتان = الحكومتان المذكورتان .
ــ المرجع السابق ــ ص ٣٤٠ .
(٢٥) البحر = البر ــ المرجع السابق ــ ص ٣٤٠ .

المادة الثالثة : تفويض الرئاسة العليا المعسكر والمدينة[٢٦] فى السوادن إلى موظف واحد يلقب(حاكم عموم السودان) ، ويكون تعيينه بأمر عال خديوى بناء على طلب حكومة جلالة الملكة ولا يفصل عن وظيفته إلا بأمر عال خديوى يصدر برضاء الحكومة البريطانية .

المادة الرابعة : ألقوانين وكافة الأوامر واللوائح التى يكون لها قوة القانون المعمول[٢٧] ،والتى من شأنها تحسين أدارة حكومة السودان ، تقرير[٢٨] حقوق الملكية فيه بجميع أنواعها وكيفية أيلولتها والتصرف فيها ، بجوز[٢٩] أو تحويرها[٣٠] أو نسخها من وقت إلى آخر بمنشور من الحاكم العام .وهذه القوانين والأوامر والوائح[٣١] يجوز ألا[٣٢] يسرى مفعولها على جميع أنحاء السودان أو على جزء معلوم منه .ويجوز أن يترتب عليها صراحة أوضمنا تحوير أو نسخ أى قانون أو أية لائحة من القوانين أو اللوايح الموجودة .وعلى الحاكم العام أن يبلغ على الفور جميع المنشورات التى يصدرها من هذا القبيل إلى وكيل قنصل[٣٣]جنرال الحكومة البريطانية بالقاهرة ،وإلى رئيس مجلس نظار الجناب العالى الخديوى .

المادة الخامسة : لا يسرى على السودان أو جزء منه شىء ما من القوانين أو الأوامر العالية أو القرارات الوزارية المصرية التى تصدر من الآن فصاعدا ، إلا مايصدر بإجرائه منها منشور من الحاكم العام بالكيفية السالفة[٣٤] بيانها .

---

(٢٦) المعسكر والمدينة = العسكرية والمدنية ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤٠ .
(٢٧) المعمول = المعمول به ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٢٨) تقرير = أو تقرير ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٢٩) بجوز = يجوز سنها ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٣٠) تحويرها = وردت فى جورجى زيدان (تحريرها) ، لكننى اعتقد أن شاروبيم أصوب .
ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٣١) والوائح = واللوائح ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٣٢) الا = أن ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .
(٣٣) قنصل = وقنصل ـ المرجع السابق ـ ص ٣٤١ .
(٣٤) السالفة = السالف ـ المرجع السابق ـ نفس الصفحة .

المادة السادسة : المنشور[٣٥] الذى يصدر[٣٦] من حاكم عموم السوادن ببيان الشروط التى بموجبها يصرح للأوربيين من أية جنسية كانت ، بحرية المتاجرة أو السكنى بالسودان ، أو تملك ملك كائن ضمن حدوده لا يشمل إمتيازات خصوصية لرعايا أية دولة أو دول .

المادة السابعة : لا تدفع رسوم الواردات على البضائع الآتية من الأراضى المصرية حين دخولها إلى السودان ، ولكنه يجوز مع ذلك تحصيل الرسوم المذكورة على البضائع القادمة من غير الإراضى المصرية .إلا أنه فى حالة ما إذا كانت تلك البضائع آتية إلى السودان عن طريق سواكن ، أو أية ميناء آخر من موانى ساحل البحر الأحمر لا يجوز أن تزيد الرسوم التى تحصل عليها عن القيمة الجارى تحصيلها حينئذ على مثلها من البضائع الواردة إلى البلاد المصرية من الخارج . ويجوز أن تقرر عوائد على البضائع التى تخرج من السودان بحسب ما يقدره الحاكم العام من وقت إلى آخر بالمنشورات التى يصدرها بهذا الشأن .

المادة الثامنة : فيما عدا مدينة سواكن لا تمتد سلطة المحاكم المختلطة على أية جهة من جهات السودان ولا يعترف بها فيه بوجه من الوجوه .

المادة التاسعة : يعتبر السودان بأجمعه ما عدا مدينة سواكن تحت الأحكام العرفية ويبقى كذلك إلى أن يتقرر خلاف ذلك بمنشور من الحاكم العام .

المادة العاشرة : لا يجوز تعيين قناصل أو وكلاء قناصل أو مأمورى قنصلات[٣٧] بالسودان ، ولا يصرح لهم بالإقامة به قبل المصادقة على ذلك من الحكومة البريطانية .

---

(٣٥) المنشور = أن المنشور ــ المرجع السابق ــ نفس الصفحة .
(٣٦) يصدر من = يصدره ــ المرجع السابق ــ نفس الصفحة .
(٣٧) قنصلات = قنصلاتات ــ المرجع السابق ــ نفس الصفحة .

المادة الحادية عشر : ممنوع منعا مطلقا إدخال الرقيق إلى السودان أو تصديره منه ، وسيصدر منشور بالإجراءات اللازم إتخاذها للتنفيذ بهذا الشأن .

المادة الثانية عشر : قد حصل الإتفاق بين الحكومتين على وجوب المحافظة منهما على تنفيذ معاهدة بروكسل المبرة[٣٨] بتاريخ ثانى يوليو سنة تسعين وثمنمائة وألف فيما يتعلق بإدخال الأسلحة النارية والذخائر الحربية والأشربة المقطرة أو الروحية وبيعها أو تشغيلها . تحريرا بالقاهرة فى تاسع عشر يناير سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف . التوقيع . كرومر . بطرس غالى[٣٩] .

---

(٣٨) المبرة = المبرمة .

(٣٩) لم تكن قضية مشاركة إنجلترا مصر فى حكم السودان وليدة يناير ١٨٩٩ ـ فقد سبقتها إلى ذلك بالطبع أفكار ومشاورات وترتيبات . خلال عمليات الإسترداد الأولى (١٨٩٦ ـ ١٨٩٧) كانت إنجلترا تدعى أن ذلك ليس إلا استعادة لحقوق مصر فى وادى النيل . ولقد ظل هذا الرأى قائماً حتى يونيو ١٨٩٨ ، عندما بدت الإشارات الأولى لرغبة إنجلترا فى مشاركة مصر فى السودان فى شكل مراسلة جرت بين سالسبورى Salisbury رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها ـ ولورد كرومر معتمد بريطانيا فى مصر ، وفيها نبه الأول إلى ضرورة الإعتراف بالحقوق البريطانية فى السودان والناتجة عن فتح المنطقة من ودلاى إلى وادى حلفا بقوات متحالفة من المصريين والإنجليز . وكان هذا يعنى أن إنجلترا لم تعد تعنى بالحقوق المصرية القديمة فى السودان وأن مصدر الحقوق الجديدة هو الفتح المشترك . وبدأت تظهر منذ ذلك الوقت إرهاصات المشاركة فى السودان برفع العلمين المصرى والبريطانى فوق الأجزاء المفتوحة من السودان . وفى ٢ أغسطس ١٨٩٨ أرسلت الحكومة الإنجليزية إلى المعتمد البريطانى فى مصر ما نصه .

«أنه بالنظر لما قدمته حكومة جلالة الملكة من تعاون مالى وعسكرى فقد قررت أن يرفع العلمان البريطانى والمصرى جنباً إلى جنب فى الخرطوم عند سقوطها المنتظر وأنه ليس لهذا القرار علاقة بالشكل الذى سوف تداربه الأراضى المفتوحة فى المستقبل وليس من الضرورى تحديد الوضع السياسى لهذه المناطق بالضبط ولكن ينظر فى ذلك مستقبلاً ، ولكن عليك أن توضح للخديو ونظاره أن بريطانيا سوف يكون لها صوت مسموع فى كل الأمور المتعلقة بالسودان ، وأنه يجب إتباع أية نصائح تقدمها الحكومة البريطانية فيما يختص بشئون السودان» .

ويلاحظ أن الرسالة التى أبلغت فى ٤ سبتمبر ١٨٩٨ (أى بعد يومين من سقوط أم درمان) إلى بطرس باشا غالى ناظر الخارجية ، بمعرفة السيد رينيل رود والتى استبعدت منها عبارة (ولكن عليك أن توضح للخديو ونظاره) كانت تحمل فى ظاهرها وباطنها نفس ما أحتوته برقية جرانڤيل الشهيرة إلى محمد شريف باشا رئيس النظار فى ٤ يناير ١٨٨٤ عندما اعترض على مطلب بريطانيا له بإخلاء السودان .

وعندما أبلغ عباس حلمى بتعليمات بريطانيا أمر بإبلاغها إلى الدولة صاحبة السيادة على مصر . وأرسل السلطان عبد الحميد إلى السفير البريطانى فى القسطنطينية يطلب منه أن تعيد بلاده النظر فى قرارها برفع العلم الإنجليزى إلى جانب العلم المصرى على الخرطوم .=

قلت وما تفشى خبر هذا الإتفاق حتى أخذت الوزير صيحة أصحاب الصحف من كل جانب ، وأنحنوا[٤٠] عليه باللائمة .وعلت أيضا ضجة جماعة الفرنسيس فى كل مجتمع ونادى .وشاع أن السلطان إحتج على ما جاء فى هذا

= فى نوفمبر ١٨٩٨ كان كرومر قد أنهى كل الترتيبات مع الحكومة المصرية فى شأن إدارة السودان . ولم تكن هناك مشكلة فى هذا سوى الوضع القانونى للسودان ، الذى كان لمصر عليه حقوق السيادة ــ التى وإن عطلتها الثورة المهدية إلا أن الحملة الاستردادية قد أعادتها ــ وأن الوضع السياسى لمصر كولاية تابعة للسلطان العثمانى لم يتغير رغم حقيقة وجود الإحتلال البريطانى ، وأن هذا يعنى سيادة تركيا على السودان إلى جانب السيادة على مصر ، وأن إستعادة مصر لحقوقها السيادية فى السودان مقتضاه استئثارها وحدها بكل مظاهر هذه السيادة ــ وأنه إذا كان لإنجلترا شىء فى هذا الأمر فهو لايخرج عن واجب الإعتراف بالجميل لمساعدتها مصر فى إخماد الثورة ــ أو دفع المبالغ التى تكبدتها الخزينة البريطانية أو تعويض بريطانيا عن خسائرها البشرية والمادية أثناء الفتح ــ ولكن ليس المشاركة فى السيادة على السودان .

لكن كرومر ومن خلفه بريطانيا راح يقدم التبريرات التى تعطى لبريطانيا حق مشاركة مصر . من هذه التبريرات أن قيام الثورة المهدية كان بسبب تجاوزات الحكم المصرى فى السودان وأن عودة الحكم المصرى وحده إلى السودان قد يرتب قيام الثورة مرة أخرى . لذلك فإن المشاركة البريطانية فى إدارة السودان سوف تكون ضماناً لإقامة الحكومة الصالحة . وأن عودة الحكم المصرى وحده إلى السودان سيؤدى إلى تطبيق نظام الإمتيازات فى السودان باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية العثمانية ــ مع ما هو معلوم من دور الامتيازات فى تعطيل تنفيذ برامج الاصلاح فى مصر ــ وعلى ذلك فقد كان من الضرورى عند كرومر استبعاد إعادة السودان إلى الدولة العثمانية أو حتى مشاركتها ثلاثياً فى إدارته . كان المطلوب حلاً للمشاكل القانونية واعتراض الدول الأوروبية لو فكرت بريطانيا فى ضم السودان إليها ــ كان المطلوب التوصل إلى حل وسط يحفظ لمصر حقوقاً شكلية فى السودان ــ ولايعترف به جزءاً من الدولة العثمانية ــ ويكفل لبريطانيا سيطرة حقيقية عليه ــ ويمنع إمتداد الامتيازات الأجنبية إلى أراضيه . فكان نظام الحكم الثنائى Condominiun . ولمواجهة دعوى الحقوق السيادية للدولة العثمانية على السودان إستند كرومر إلى أن الجيش المصرى ــ الذى هو جزء من الجيش العثمانى ــ قد عجز عن الإحتفاظ بالسودان ــ وأن إسترجاعه قد تم (بالوسائل الحربية والمالية التى بذلتها بالاتحاد حكومتا جلالة ملكة الإنجليز والجناب العالى الخديو) . وأن هذا الإسترجاع بهذه الوسائل يعطى لإنجلترا حقوقاً تكفل لها الإشتراك فى وضع النظام الإدارى والقانونى للسودان ــ ترتيباً على مالها من حق الفتح وفقاً لمبادئ القانون الدولى .

فى ١٧ يناير ١٨٩٩ قابل اللورد كرومر الخديو عباس وأبلغه أن سالزبورى قد بعث إليه بصورة إتفاق إنجليزى ــ مصرى بشأن السودان ، وأنه سلم نسخة منه لبطرس باشا غالى ناظر الخارجية . أقر مجلس النظار المصرى المشروع رغم اعتراض الخديو الذى كان يرى أن الإتفاق فيه إعتداء صارخ على السيادة العثمانية . لكن إعتراضاته ذهبت إدراج الرياح أمام خنوع مصطفى فهمى رئيس النظار وناظر خارجيته بطرس غالى اللذان سلما السودان لقمة سائغة لإنجلترا بثمانمائة ألف جنيه .

ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢١٧ ــ ٢٢٧

(٤٠) وانحنوا = وأنحوا .

الإتفاق ، وسير كتبه فى ذلك إلى سفيره بعاصمة الإنجليز ، ثم عادوا فكذبوا الخبـر . وما هى إلا أيام حتى برز الأمـر من قـصـر الامـارئة بانسناد[٤١] ولاية السودان العامة إلى السردار ، وعهد إلى المستربرونيت[٤٢] وكيل قسم قضايا الحقانية أن يسافر إلى السودان ، ويضع القوانين واللوائح التى يقضى بها السردار بعد أن تولى هذه الولاية العام[٤٣] وانطلقت كلمته فى أرجاء السودان . فسافر وأقام بها ما شاء الله ثم عاد .وقد أخبر بأن قد وصل إلى الخرطوم ألف من أتباع(أحمد الفضيل) أو يزيدون ، ووصل كثير من الخيل والجمال ، إن[٤٤] القوم قد إستأمنوا ودخلوا تحت طباعة[٤٥] الحكومة .وجاءت أيضا كتب قبائل الشلكه[٤٦] إلى السـردار بطلب وضع بلادهم تحت حماية حكومة السودان . فأرسل إليهم يطيب خواطرهم ويمنيهم بالأمانى الكثيرة .

وما هى أن هدأت الأحوال فى السودان وعادت الأمور إلى سابق مجارها[٤٧] حتى عاد من كانوا قد تركوها من أهل البلاد إلى الشخوص إليها فرحين . وساروا جموعا وفرادى فى البر والبحر ، بعضهم إلى دنقلة وبعضهم إلى الخرطوم وغيرها . فهب أهل الشقاوة من البقارة والعبابدة إلى مطاردة النازحين ، واختطاف أولادهم وبناتهم الصغار والكبار ، والشخوص بهم إلى سواحل البحر الأحمر ، وبيعهم لجماعة السيارة وأصحاب النخاسة . واشتدوا فى ذلك شدة

---

(٤١) الامارئه بانسناد = الامارة باسناد .

(٤٢) برونيت = ويليام برونيات William Brunyate ـ المستشار القضائى فى الفترة (١٩١٧ ـ ١٩١٩) خلف السير مالكولم مكلريث Malcolm McIlwraith (١٨٩٩ ـ ١٩١٦) ـ وحل محله شلدون آموس . Sheldon Amos

- Egypt No 1 (1920) - Reports on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan for the period (1914 - 1920).

(٤٣) العام = العامة .

(٤٤) أن = وأن .

(٤٥) طباعة = طاعة .

(٤٦) الشلكه = الشلك Shilluk .

(٤٧) مجارها = مجراها .

بالغة وبلغ صائحهم[٤٨] دنقلة . فاهتم له أصحاب الحل والعقد ، وسيروا فى طلب أولئك الأشقياء طائفة من الجند والمرتزقة فطاردوهم وأقتفوا أثرهم حتى قبضوا على نفر منهم ،وحكموا عليهم بضرب السياط والأشغال الشاقة أعواما ، وسهلوا لأولئك الدايدون[٤٩] أو أوطانهم سبل الرجوع ، وعانوهم[٥٠] فى سفرتهم . واسترجعوا على[٥١] من قدروا على إسترجاعه من السبايا . وكثر الإقبال على سكنى الخرطوم والشخوص إليها من كل صوب وحدب ، فبرز أمر السردار بالعناية فى جعل عماراتها كلها وشوارعها وحالاتها على أحدث نظام وأتقن بنيان . وسير كتبه إلى وزارة الداخلية فى طلب أشجار اللبخ وغيره لغرسها فى شوارع البلد وميادينها ، فأرسلوا إليه شىء كثير منها على ظهور السفن والنقالات الكبار ، وأنفذ أيضا أحد مقدمى العساكر من جماعة الإنجليز إلى سواكن ليرى فى أمر الوباء الذى تفشى فى ماشيتها وضرب أطنابه فى ضاحيتها حتى كاد يفنيها ،وأن يتخذ الحيطة لمنع إتصال هذا الداء إلى جنوب السودان ، فإن فى إنتقاله شر على البلاد وبيل . وقد كان هذا الوباء تفشى أيضا فى الصومال وبربر وزيلع .وأمر فانحدر فى خامس فبراير من السنة إلى القاهرة من كان بالسودان من مرضى الجنود وضباط الجنود ،وكانوا كثيرين ، فحملوهم على النقالات إلى إسبتالية قلعة الجبل واسبتالية الجبل الأحمر . وكان كثرة أولئك المرضى مترتبة على تعقبهم سير الخليفة عبد الله ومطاردتهم له فى فيافى الكردفان وقفارها ، وقد أتعبتهم مطاردته وأعياهم أمره . فبرز أمر السردار بالكف عن مطاردته ، ووصلت كتبه إلى الأميرالاى كتشنر[٥٢] بيك بذلك ،فتربص من معه

(٤٨) صائحهم = أمرهم ـ قراءة إجتهادية .
(٤٩) الديدون أو = العائدون إلى ـ قراءة ترجيحية .
(٥٠) وعانوهم = وعاونوهم .
(٥١) على من = ما ـ قراءة إجتهادية .
(٥٢) الكولونيل فودريك كتشنر Frederick Kitchner ـ أخ السردار كتشنر باشا ـ كلف فى ٢٢ يناير ١٨٩٩ بقيادة حملة صغيرة للقبض على الخليفة عبدالله التعايشى ـ لكن الخليفة فر إلى الجنوب .
كان الخليفة بعد هربه قد وصل إلى (أبى ركبة) غرب كوستى حيث دفن والده ليجمع إليه=

من العسـاكر والأجناد عند تخوم الكردفان .وقد ثبت أن الخليفة تحصن فى ضفة بحيرة(شركلة) الواقعة فى كردفان على مائة وثلاثة عشر ميلاً من النيل الأبيض بين النيل الأزرق والأبيض .وأصبح يوم الأحد ثانى عشر فبـراير من السنة ، وأول شوال سنة ستة عشر وثلثمائة وألف للهجرة وقد أطلقت المدافع من قلعة الجبل وميدان العباسية إيذانا بعيد الفطر .فركب الكبراء والأمراء والعظماء وأهل المناصب وأصحاب الخطط وهم فى بلابس[٥٣] الزينة والتشريف الكبرى ، فدخل[٥٤] على الأمير بقصره وهنأوه بالعيد على الرسم المعتاد . غربابينا[٥٥] باش الوجه طلق المحيا ،يظهر الإلتفات لبعض المهنئين ، ويلاطف بعضهم على عادته فى أوقات سروره .ووقف الشعراء على بابه وأتت إلى ديوانه رسائل التهانى من كل فج عميق . وكان الرئيس مصطفى فهمى باشا يومئذ

= أتباعه . ومن هناك اتصل بالختيم موسى قائده فى (الأبيض) الذى رحل إليه . وبعث إلى (أحمد فضيل) قائد منطقة القضارف يقول (فنعلمك أيها الحبيب إنا عنك سائلون ولك بالخير البركة داعون ومازلت ملحوظاً منا بعين الرضى ومزيد الإكرام لما أنت عليه من القيام بأمر الدين وبذل الهمة فيه فجزاك الله عن ذلك خيراً وهداك سيراً وشكر مسعاك وحفظك وتولاك . ثم نعلمك أيها الحبيب أننا بحمدالله تعالى فيمن معنا من الأنصار بخير وقد إنحزنا عن الأعداء بعد حصول الحرب بيننا وبينهم إلى جهة (دار الجوامعة) بنواحى المحل المسمى (بالغبشة) . فنحن الآن به فى أمن وأمان ومزيد إطمئنان . وليس القصد من حضورنا فى هذه الجهة المذكورة إلا التحيز عن الأعداء أخذاً بالحزم . وإلا فليس القصد إن شاء الله إلا إعادة الكرة على الأعداء المخذولين ومحاربتهم حتى ينتصر الدين إن شاء الله تعالى ويهلك الكافرون) . وفى أعقاب هذا الخطاب عبر أحمد الفضيل النيل الأزرق إلى داخل الجزيرة واتجه إلى الغرب نحو النيل الأبيض وانضم إلى الخليفة فى مكانه هذا .

فى أواخر ١٨٩٨ علم السردار بوجود الخليفة قرب (شركيله) فعهد إلى شقيقه (فردريك) بقيادة كتيبة من ١٢٠٠ مقاتل للقبض عليه ـ لكن (فردريك) خشى ماحدث لجيش هيكس (٢٢ نوفمبر ١٨٨٣) ، خاصة وأن جيش الخليفة كان قوامه ٩٠٠٠ مقاتل ـ ففضل فردريك كتشنر عدم الإشتباك . مع بدايات عام ١٨٩٩ كان الخليفة يتنقل فى جبال النوبة حتى وصل إلى (قدير) دار الهجرة الأولى للمهدى .

ـ الأورطة الرابعة بنادق مشاة ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤١ .

ـ مكى شبيكه (مختصر تاريخ السودان الحديث) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١١٨ ـ ١١٩ .

(٥٣) بلابس = ملابس .

(٥٤) فدخل = فدخلوا .

(٥٥) غربابينا = فكان ـ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .

مريض[٥٦] فلم يحضر إلى القصر مع جماعة الوزراء . وظل على مرضه أياما حتى تعافى وزالت علته .

وبدى[٥٧] لأصحاب الحل والعقد أن يبدلوا ساحل الغلال ورقعته بمصر القديمة إلى المكان المعروف بورض[٥٨]الفرج من ناحية شبرا البلد .فأخذوا لذلك الأهبة وأعدوا العدة ،وعينوا المهندسين لخطيط[٥٩] الأرض وتقسيمها أخاديد ومناطق .وبرز الأمر إلى محافظ المدينة بإعلان القوم أصحاب أماكن ساحل مصر القديمة بأخذ الأهبة للإنتقال إلى روض الفرج . فما برز الأمر حتى قامت ضجة القوم ، وأخذ المحافظ من كل جانب ، وتزاحموا على باب وزير المالية ووزارة الداخلية ، وصاحوا فى وجه الرئيس ، وشكوا ما يحل بهم وبتجارتهم وسفنهم من الضرر الوبيل ، واحتشدت الألوف المؤلفة من سكان مصر القديمة فى طريق الأمير عند مسجد عمرو بن العاص . فلما وصل ركبه صاحوا جميعا بصوت واحد(يحيا أفندينا أغثنا ياولى النعم ، إن عدل يوم خير من عبادة شهر) وتقدم منهم شيخ طاعن فى السن وبيده صحيفة فيها ظلامة المجتمعين . فأخذها الأمير منه ودخل للصلاة . فلما خرج وجد الجموع فى إنتظاره ، فصاحوا ثانية(أغثنا يا أمير إرفع عنا هذه المحنه التى ما أنزل الله بها من سلطان) . فانزعج الأمير وظهر على محاياه[٦٠] الأسف ، وبكى كثير ممن شاهد أولئك القوم على هذا الحال .وقد أطلعنى أحد الأصدقاء على صحيفة شكواهم فإذا هى بنصها :

مولانا المعظم ــ نتشرف بأن نرفع إلى مقامكم العالى هذه العريضة ، معربين فيها عما أصابنا نحن أهالى مدينة مصر القديمة بسبب القرار الذى أصرته[٦١]حكومة

---

(٥٦) مريض = مريضاً .
(٥٧) وبدى = وبدا .
(٥٨) بورض = بروض .
(٥٩) لخطيط = لتخطيط .
(٦٠) محاياه = محياه .
(٦١) أصرته = أصدرته .

سموكم بنقل الساحل من بلدتنا إلى المحل المسمى بروض الفرج ـ حاشية ـ وحق هذا المكان بجهنم الضيق[٦٢] فكانت نتيجة هذا النقل أن بطلت تجارتنا بالمرة ، وأصبح الخراب يسكن ديارنا بعد أن كانت ديار العمار ، وأمسى الفقر يهددنا بجيوشه الكثيفة بعد أن كانت الراحة عامة والسعادة تامة .

فيـاميـرنا[٦٣] المعظم وسـيـد أمـرائنا الكرام ، أترضى بأن يدون التـاريخ أن مدينة سكانها يبلغون مائة ألف نفس خربت ودمرت فى عهد سموكم ، ويرضى جنابكم العالى؟ وهل تقبل نفسكم الشريفة أن يقال فى البلاد القاصية والدانية أن جزءا عظيما من الشعب المصرى قضى عليه ظلما بأن يموت حيا ، والجالس على أريكة الخديويه هو الأمير الشهم ، الذى إشتهر بمحبة رعيته والإهتمام بمصالحها كل الإهتمام؟

لقـد مضت الأعـوام بل القرون الطويلة وسـاحل التجـارة بمـدينتنا (مـصر القديمة) وأهل بلدتنا أشد الناس إخلاصا للحكام العادلين . فأى جناية جنيناها حتى نلقى الآن من حكومة سـمـوكم ما جعلنا بلا عـمل ولا مـال ولا زاد أى أمواتا فى شكل أحياء؟ إللهم إن كانت حكومة سموكم قد عزمت نهائيا على عدم إنصافنا باعادة الساحل إلى بلدتنا فليسمح لنا مولانا المعظم بأن نسأله إصدار أمره العالى بإرسال مدافع هائلة تدمر مدينتنا ، وتخرب بيوتنا وتسلبنا نفوسنا ، وذلك خير لنا من أن نعيش مظلومين ، نقضى أيامنا بين عويل النساء وصريخ الأطفال ،وبكاء الشيوخ ، واستغاثة الجميع ، حيث لا ناصر ولا مغيث . وإن أملنا لا يزال عظيما فى همة سموكم ، وحنان فؤادكم ، وأن الله يساعدكم ويوفقكم إلى بلوغ آمالكم إذا أخذتم بناصرنا وأنصفتمونا .وإننا نتشرف بأن نكون خدامكم الصادقين ورعيتكم الأوفياء أ . هـ . . قلت ويلى العرض ألف ومائة

(٦٢) وحق هذا المكان بجهنم الضيق = استبعدت الجملة لتعارضها مع النص ــ وهى لن تؤثر فى فهم المعنى .
(٦٣) فياميرنا = فيا أميرنا .

توقيع أو تزيد . قالوا وكلم الأمير وزيره فى ذلك وناقشه وعاتبه وعاب عليه العمل على هذا النحو من إثارة الخواطر ، والخروج بالناس إلى الهرج . فراجع الوزير أصحاب وزارة الأشغال من جماعة الإنجليز وخوفهم عاقبة هذا الهرج المتطاير ، وكلم لورد كرومر فى ذلك أيضا ، فلم ينل من الفريقين منالا .وتم الأمر على ما يريدون ،وانقطع مجىء السفن بالغلال إلى ساحل مصر القديمة جملة ، وتحولت إلى ساحل روض الفرج ، فتبعها البياعون والكيالون والحمالون والاكافيه(٦٤) .ونزح مع هؤلاء أيضا باعة العيش واللحم والخضر وأدوات السفن والخردوات وكل حاجيات أصحاب السفن والنوتية .فما هى إلا أيام حتى صار ساحل مصر القديمة فارغ بلقع لا شىء فيه مما كان ، وظهرت الحركة بساحل روض الفرج .فتسابق جماعة البدالين وأصحاب المواخير من الروم إلى إنشاء الأماكن الفسيحة به ، والمخازن الكبيرة ومكامن تعاطى الخمور .ومدت اليه شركة الترام واى(٦٥) خطها الحديدى من ميدان العتبة الخضرة إلى ساحل النيل ، فأعان الناس وتجار الغلال والباعة على الغدو والرواح ، وقد كان شاقا ومتعبا للغاية . وراجت تجارة أولئك الروم فى ذلك الصقع البعيد ، بإقبال أهل الخلاعة ومحبى اللهو على مكامنهم ، ولا سيما فى أيام الآحاد والجمعة . وانسلوا إليها ليلا من كل حدب وصوب .وقام رجل من مثرى الروم فاشترى أرضا للوقاف(٦٦) هناك ولغير الأوقاف وعنى بتقسيمها قطعا ، فأقبل الناس على شرائها وأبتنوا فى(٦٧) بعض الدور الفاخرة والحدائق الجميلة والمساكن الأنيقة . واهتم أصحاب التنظيم من رجال الإنجليز بتنسيق شوارع تلك الخطة الجديدة ،

---

(٦٤) والأكافيه = صناع مهمات الحمير ـ إكاف الحمار وجمعها (أُكُف) ـ أكف الحمار أى شد عليه الإكاف .
ـ مختار الصحاح ـ ص ٨ .

(٦٥) الترام واى = الترامواى .

(٦٦) للوقاف = للأوقاف .

(٦٧) فى = فيها ـ قراءة ترجيحية .

ورصـها بالحصاء والرمل ، وتجميلها بالأشجار والأنوار ، وتعهدها بالنظافة . فصارت من أجمل أحياء شبرا البلد ،وأتمها تنظيما ونظافة . فقضى بذلك على كل أمل برجوع الغلال والرقع وما يتبعها إلى ساحل مصر القديمة ، وراحت على أصحابه .

وأصبح يوم الأحد تاسع عشر فبراير من السنة ، وثامن شوال سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، وقد أطلقوا ماية مدفع ومدفع من قلعة الجبل ومثلها من طوابى الإسكندرية بشرى بولادة أول مولود ذكر للأمير ، فهو ولى عهد الإمارة المصرية .وقد كان خوف بيت الإمارة كبير من إنتقال الوراثة من صلب الأمير إلى شقيقة الأمير محمد على باشا(٦٨) .فلما جاءت البشرى من قصر مصيف الإسكندرية الذى هو ولد فيه ولى العهد ، إجتمع مجلس الوزراء وقرروا تبليغ خبر ذلك إلى سائر قناصل الدول . ثم تقدموا جميعا برسائل التهانى التبريك إلى الأمير . وأرسال(٦٩) الغازى مختار باشا ووكلاء الدول وقناصلها والأمراء وجميع أهل البيت العلوى رسائلهم فى معنى ذلك إلى قصر الإمارة ، وكذلك أهل المناصب وأصحاب الخطط والأعيان والوجهاء ، ودعوا للأمير وولى العهد دعاء حسنا .وتفشى خبر ذلك بين الناس فزينوا الدور والحوانيت بالأعلام والرياحين وزعف النخل ، ورفعت دور القناصل أعلامها ، وكذلك فعلت سائر الفنادق الكبرى والأندية العامة . فكان يوما مشهودا أظهر الناس فيه سرورا وفرحا عظيما ، وطاف العامة يتغنون فى شوارع القاهرة وبولاق مصر بأغانيهم المألوفة عندهم فى مثل هذه الأفراح .وهكذا كان حال أهل الإسكندرية وقد ألفوا وفدا من كبارهم ووجهائهم وتجارهم .فسار هذا الوفد إلى قصر المنتزه ،

(٦٨) أنجب الخديو توفيق (١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) ولدان هما عباس (١٨٩٢ ـ ١٩١٤) ومحمد على توفيق الذى ظل ولياً لعهد أخيه حتى ولد له الأمير عبد المنعم عام ١٨٩٩ ـ وقد أنجب عباس ولداً آخر هو الأمير عبد القادر .
ـ المصور ٧ يوليو ١٩٣٧ ـ مرجع سبق ذكره .

(٦٩) وإرسال = وأرسل .

ورفعوا إلى الأمير مراسم التهانى والتبريك بولادة ولى العهد .قم[٧٠] أقام بعضهم الصلوات بالمساجد وتلوا آيات القرآن ،ورتل جماعة الصوفية أذكارهم .فلما كان اليوم الثانى رسم الأمير بتوزيع لحم ستين رأس من الغنم على فقراء الإسكندرية صدقة لوجه الله الكريم وفرحا بولادة ذلك المولود . فوزعت على مساجد الثغر حيث إجتمع فقراء كل صقع . وأولمت كذلك والدة الأمير وتصدقت وكست بعض تلامذة الكتاتيب . فلما كان اليوم السابع برز الأمر من القصر بأن قد تسمى ولى العهد باسم عبد المنعم ،فدقوا البشائر . وأرسل الرئيس مصطفى فهمى الكتب بذلك إلى سائر المديرين والمحافظين وجميع قناصل الدول ، فكان الفرح شاملا عاما ، حتى لقد أطلقوا إسم ولى العهد على إحدى حجرات متحف الإسكندرية تذكارا لولادته .وبينما الأفراح بولادة ولى العهد قائمة فى دور أهل البيت العلوى وقصر الإمارة ،إذ جاءت الأنباء إلى وزارة الحرب وديوان الرئيس مصطفى باشا بظهور عبد الله التعايشى ،وأنه جمع جموعا كثيرة من فلول الدراويش يبلغون زهاء خمسة عشر ألفاوغزا بهم بعض القبائل الكردفانية فهزمها ومزقها ،وأنه على عزم العودة إلى أعالى النيل يريد أن ينحدر إلى الخرطوم .فبرز الأمر إلى سائر المصريين والإنجليز الذين فى الأجازة بأن يعودوا مسرعين إلى السودان لأخذ الأهبة إلى لقائه وشاع خبر ذلك وتفشى بين الناس ، فأحدث بعض الريب فى بعض النفوس .وقال قائل إن عودة هذا التعايشى إلى ميدان القتال بعد أن أشيع عنه أنه شريد طريد لايكاد يملك نفسه بفراره أمر يحدث الريبة . لا محالة فى صدق الخبر ويدعو إلى العجب العجاب .وقد سمعت من كثير من جماعة الإنجليز يقولون أنه إن كان التعايشى حقيقة قد هبط من أعالى النيل إلى الخرطوم ، فذلك ناجم عن خطأ السردار حيث مكن الرجل من الفرار ولم يقطع عليه السبل ، فهو اليوم يجنى ثمرة ذلك الخطأ .وسمعت من آخرين منهم أن رجلا كالسردار لا يرتكب مثل هذا الخطأ

(٧٠) قم = ثم .

الذى يحل عنه عامة القواد ، ولكنه إنما فتح لعدوه سبيلا إلى الفرار بقصد أن يستبقيه على التخوم شبحا يشغل به الدول المنازعات للإنجليز تارة ومصر تارة أخرى . أقول أيضا ،وكيف أخلا السردار السبيل إلى عدوه على ما يزعمون . يقول مكاتل(٧١) جريدة الويستمنستر غازيت الإنجلزية وهو(٧٢) كبار الخبيرين بفنون الحروب . شهد كثيرا منها(٧٣) فصولا ناطقة بطول باعه فى معرفة أصولها وضروبها ،أن السردار كان يجب عليه فى آخر موقعة له مع أولئك الدراويش أن يجعل رجاله تحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم ، فيأخذهم أخذ النعاج ويكون عبد الله فى جنلة(٧٤) الأسرى . قال غير أن السردار أخطأ فأمر أن تحمل الفرسان على الأعداء تلك الحملة المنكرة المنافية لأوليات الفنون الحربية ، فلم ينجم عنها سوى قتل ما شاء الله من الدراويش وتعريض أرواح الكثير من الفرسان للفناء وإطلاق صراح(٧٥) الطاغية عبد الله ،فعاد اليوم يجدد لنفسه دولة وصولة ، وعاد إلى مناوشة أصحاب المراصد ، هذه ثمرة رأى السردار .فسواء كان الرأى لقصد سياسى أو لخطأ حربى فمصر تدر على السودان حر أموالها ،وتسقى كل خطوة من أرضه بدماء رجالها أ .هـ وعادوا فقالوا أن التعايشى نازل على مسيرة مائة وستين ميلا من الخرطوم فى جهات(جزيرة آبا) وأن إحدى المدفعيات النيلية بينما كانت تترفع إلى فشوده أطلق عليها جماعة الدراويش رصاص بنادقهم من كل صوب وحدب ،فلم يضرها شيء من ذلك ،وأن الجواسيس أخبروا بأن الرجل لا ينوى الهبوط إلى الخرطوم إلى ذلك العهد .فاطمأنت قلوب أهل السودان وسكنت نفوسهم ، وقد كانوا يتوقعون القتال فى كل لحظة من الزمان . وقد برز أمر السردار بقيام الأورطة السابعة عشر المصرية من الخرطوم

---

(٧١) مكاتل = مكاتب .
(٧٢) وهو = وهو من ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٧٣) منها = منها وكتب ــ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٧٤) جنلة = جملة .
(٧٥) صراح = سراح .

إلى سنار لتحل ديها[٧٦] رباطا دائما ، وتكون مددا عند الحاجة . وكانوا قد رتبوا بعض السفن والنقالات بين الشلالين الأول والثانى لنقل السياح الوافدون[٧٧] لمشاهدة السوادن ومواقع القتال . فلم يمض على ذلك أياما حتى برز الأمر بانقطاعها عن نقل السياح وجعلها على أهبة الترفع إلى التخوم الأمامية ، إستعدادا لنقل المقاتلة ومعدات الحروب . فعاد جماعة السياح إلى القاهرة وكانوا كثيرين . وتفشى خبر ذلك ، فعاد الناس إلى الخوف من تسيير الحملة لمقاتلة الخليفة عبد الله ومن معه .فلما كان تاسع مارس من السنة سادس عشرى شوال سنة ستة عشرة ،جاء القاهرة مكاتبو صحف التيمس[٧٨] والدالى تلغراف[٧٩] والدالى نيوز[٨٠] ، وهم من كبار الكتاب لشهرة صحفهم ، ولبثوا بالقاهرة حتى يأذن لهم السردار بالسير إلى السودان لمرافقة الحملة التى يشكلونها لمهاجمة عبد الله التعايشى . قالوا إن وزارة الحرب ترى لزوم التعجيل بتسيير تلك الحملة ، لأنها تخشى ورود المدد إلى التعايشى فى تلك الأيام ، ولا سيما من جانب النجوسى ، وأنهم يخافون من إشتباك

---

(٧٦) ديها = بها .

(٧٧) الوافدون = الوافدين .

(٧٨) التيمس = التايمز The Times . صحيفة تصدر فى لندن ــ تأسست ١٧٨٥ بمعرفة جون والتر John Walter باسم Daily Universal Register ثم تحولت إلى اسمها الحالى عام ١٧٨٨ . خلال القرن التاسع عشر أصبحت الجريدة الصوت غير الرسمى للحكومة بصرف النظر عن الحزب الذى فى السلطة . عندما آلت ملكيتها إلى لورد تومسون Thomson عام ١٩٦٦ وصل توزيع الجريدة إلى ٣٥٠,٠٠٠ عدد عام ١٩٧٨ ــ لكن النشر توقف لعام نتيجة النزاع حول إدخال نظام الجمع بالكمبيوتر الموفر للعمالة . إستؤنف الطبع عام ١٩٧٩ ، وفى ١٩٨٠ اشتريت التايمز بمعرفة الناشر روبرت مردوخ Rupert Murdoch .

ــ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 19 - P., 203.

(٧٩) الدالى تلغراف = الديلى تلجراف Daily Telegraph جريدة يومية لندنية ــ ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

ــ Larousse Universel - vol. 1 - P., 1246.

(٨٠) الدالى نيوز = الديلى نيوز Daily News ــ جريدة يومية إنجليزية ــ كانت تتبع الحزب الليبرالى ــ أسست عام ١٨٤٦ بمعرفة ديلك Sir Charles Dilke الناشر والسياسى الإنجليزى ــ وديكنس Dickens .

ــ Larousse Universe - vol. 1 - PP., 591, 652, 659.

النجـوسى فـى هـذه الآونة مـع الإنجليز بسبب القلايات[٨١] . وسار السردار من

---

(٨١) القلايات = القلابات .

لم تكن القوى الأوروبية (إنجلترا ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ بلجيكا ـ ألمانيا) فقط هى التى تتكالب من أجل المغانم أو الصراع فى أفريقيا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . بل إن أثيوبيا رغم ضعفها العسكرى وتخلفها التقنى راحت تبحث لها عن دور أيضاً ـ وخاصة فى عهد الإمبراطور الطموح منليك (١٨٨٩ ـ ١٩١٣) . وقد استخدمت أثيوبيا لتحقيق أطماعها فى تلك الفترة أساليب عديدة كان أهمها إنتهاز فرص التنافس أو الصراع الأوروبى على أفريقيا للفوز بأكبر نصيب من المغانم . ومعلوم أن الصراع الفرنسى ـ الإنجليزى كان قائماً فى أعالى النيل بهدف تحقيق المكاسب الإقليمية من ناحية ـ ومن ناحية أخرى فإن فرنسا كانت تنقم على إنجلترا إحتلالها لمصر ، وترغب فى إخراجها منها عن طريق الوصول إلى منابع النيل عند بحر الغزال والتحكم فى مياهه هناك وبالتالى إجبار إنجلترا على الإنسحاب من مصر أو على الأقل الوصول إلى تسوية ـ ولم تكن مواجهة فاشودة عام ١٨٩٨ سوى قمة الصراع بين البلدين الذى انتهى بتخاذل فرنسا وتراجعها وسحبها لحملة مارشان بعد أن رفعت العلم الفرنسى على المنطقة .

ترتب على معاهدة أوتشيالى فى مايو ١٨٨٩ بين إيطاليا ومنليك إختلاف فى تفسيرها ـ فبينما اعتبرتها إيطاليا إعترافا من منليك بالحماية الإيطالية على أثيوبيا كان منليك ينظر إليها على أنها نوع من الدعم السياسى له ومصدراً للحصول على السلاح . لذلك فإن منليك أصدر فى ابريل ١٨٩١ خطاباً دورياً للدول المعنية ضمنه تحديداً لحدود إمبراطوريته ـ وضم هذا التحديد مناطق كثيرة من شرق السودان وأريتريا والصومال الفرنسى والإيطالى والبريطانى وبلاد الجالا وأوجادين . فى الفترة الواقعة بين مارس ١٨٩١ ـ مايو ١٨٩٤ وقعت إنجلترا وإيطاليا برتوكولان فى روما لتحديد مجالى النفوذ بين محميتيهما ، اعترفت فى الأخير منهما (٥ مايو ١٨٩٤) بريطانيا بالنفوذ الإيطالى فى الحبشة وأريتريا والصومال الإيطالى وهرر وأوجادين ومناطق من النيل الأزرق . وكان هذا العمل مثار إعتراض فرنسا التى وجدت فيه محاولة بريطانية لإبعادها عن وادى النيل باستخدام إيطاليا التى كانت بريطانيا تسعى إلى توفير نفوذ قوى لها فى الحبشة وأوجادين والصومال خوفاً من أن تسبقها فرنسا إلى ذلك . كذلك فإن بريطانيا لكى تسد الطريق أمام مشروع فرنسا لاختراق أفريقيا بالعرض بين چيبوتى والسنغال ـ عقدت إتفاقاً مع ليوبولد ملك البلجيكيين فى مايو ١٨٩٤ أجرت له بمقتضاه (بحر الغزال) فى مقابل شريط من الأرض بين بحيرتى ألبرت إدوارد وتنجانيقا لتنفيذ مشروع الكاب ـ القاهرة .

وجاءت هزيمة عدوه عام ١٨٩٦ لتضيع آمال إيطاليا فى إقامة إمبراطوريتها فى شرق أفريقيا ـ ولتنعش التحالف الفرنسى ـ الحبشى وتجدد آمالهما ومطامعهما فى وادى النيل . فسعت فرنسا إلى التقرب من منليك بعد هذه المعركة بهدف الوصول إلى إتفاق معه للعمل المشترك فى أعالى النيل ـ وأرسلت ليون لاجارد Leon Lagard حاكم مستعمرة الصومال الفرنسى فى ديسمبر ١٨٩٦ لإغراء منليك على احتلال المناطق التى تؤول إلى أثيوبيا تاريخياً فى إتجاه النيل وإقامة علاقات صداقة تصلح للدخول فى المستقبل لتقرير مصير هذه المناطق ـ وكان من بين ما كلف به لاجارد العمل على توسيع النفوذ الفرنسى فى أثيوبيا سلمياً وكشف مناطق السوباط والضفة اليمنى للنيل الأعلى ـ والحصول على موافقة منليك على تسهيل مرور حملتين فرنسيتين عبر أراضيه لتلتقيا مع حملة مارشان التى كانت تقترب من (الأوبانجى) . فى ٢٠ مارس ١٨٩٧ نجح لاجارد فى عقد معاهدة مع منليك لتحديد الحدود بينه وبين الصومال الفرنسى ـ واتفق فيها أيضاً على منع أى دولة من التدخل فى منطقة النفوذ الأثيوبية ، وسلمت فرنسا أيضاً بحق أثوبيا=

(الدويبم)(٨٢) وأقام بها أياما قلايل ،ثم عاد إلى أم درمان وسير منها جماعة من الفرسان إلى ضفة النيل اليمنى ،لمنع تهريب معدات الحروب بين (شركله) حيث تحقق أن التعايشى قد نزل عليها بخيله ورجاله وهو يتأهب للزحف

= فى الحصول على الملح من بحيرة عسل ـ ووافق منليك على إعطاء تسهيلات تجارية لفرنسا فى بلاده ـ كما تم الإتفاق على إنشاء خط حديدى بين جيبوتى الفرنسية وأديس أبابا عبر الصومال الغربى . وقد أيد لاجارد الإمبراطور منليك فى إدعاءاته فى ملكية الضفة اليمنى للنيل الأبيض فيما بين خطى عرض ٥و١٤ شمالاً (من اللادو وحتى نقطة تبعد ١٥٠ ميلاً جنوبى الخرطوم) . كان كل هذا يجرى فى وقت ساد فيه الإعتقاد عند الأثيوبين بأن الإنجليز هم الذين شجعوا الإيطاليين على غزو بلادهم وأمدوهم بالسلاح ـ كما كانت هناك شائعات عن تقارب بين منليك والمهديين . وهكذا فإن بريطانيا سارعت فى ٢٨ أبريل ١٨٩٧ بإرسال رينيل رود Renell Rodd للتفاوض مع منليك واسترضائه وتقديم التنازلات المناسبة له لإفساد المساعى الفرنسية عنده . كان الهدف البريطانى من التفاوض مع منليك هو (مسألة الصراع مع فرنسا فى أعالى النيل) (الخوف من مساندة أثيوبيا للفرنسيين والتعاون فى ذلك مع المهديين فى السودان) ـ وكان المطلوب هو الحصول على تعهد من منليك بألا تكون أثيوبيا معبرا بين الصومال الفرنسى فى شرق أفريقيا والسودان الفرنسى فى غربها .

كان من الواضح أن أثيوبيا قد نجحت فى استثمار الموقف الدولى لصالحها ، وخلق أمر واقع يجعلها قادرة على إبتزاز الطرفين المتصارعين لأقصى درجة .

لكن أهم ما نجح فيه المفاوض الإنجليزى كان تأجيل بحث قضية الحدود بين أثيوبيا والسودان حتى مابعد إسترجاع الخرطوم وإعادة السيطرة المصرية إلى وادى النيل .

غير أن معاملاً جديداً ظهر على الساحة بعد ذلك ترتب عليه إختلال الموازين وزوال الخطر التوسعى الأثيوبى . أما الأول فكان التراجع الفرنسى فى فاشودة ونزولها على مطالب إنجلترا بالإنسحاب . وأما الثانى فكان تدعم وضع بريطانيا فى السودان بعد سقوط الدولة المهدية ـ وبذلك فقدت أثيوبيا ورقة هامة من أوراق المساومة التى كانت تستخدمها .

فى المفاوضات التى دارت فى ابريل ١٨٩٩ وبعد سقوط المهدية تمسكت بريطانيا بأن تكون الحمران والقلابات ودار سوماتى ودراجيبا ودراجا موسى وبنى شنقول داخل الحدود السودانية ـ وقد تمسك منليك ببنى شنقول بسبب ما تضمه من ثروة معدنية .

وأخيراً تم توقيع إتفاقية الحدود السودانية ـ الأثيوبية فى ١٥ مايو ١٩٠٢ ـ وفيها عينت الحدود بين السودان وأثيوبيا بحيث صارت تمتد من خور أم حجر على نهر ستيت ـ إلى القلابات فالنيل الأزرق ـ جنوب فامكه ـ وأنهار البارو Baro والبيبور Pibor والاكوبو Akobo ثم مليلى Melile ثم إلى نقطة إلتقاء خط عرض ٥٩ شمالاً مع خط طول ٥٣٥ شرق جرينتش ـ وتعهد منليك فى المعاهدة المذكورة بعدم بناء أى سد على النيل الأزرق أو بحيرة تانا أونهر السوباط مما يكون من شأنه تحويل فيضان المياه عن النيل إلا باتفاق بين حكومة بريطانيا وحكومة السودان .

ـ السيد فليفل (القوى الخارجية والإتجاهات الإقليمية فى السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٨٧ ـ ٩١ .

ـ راجع الخريطة فى الملحق رقم (٥) .

(٨٢) الدويبم = الدويم .

ـ راجع الخريطة فى الملحق رقم (٥) .

والقتـال ،حتى لقد إنحدر بعض قومه إلى شمال(الدوبيم)(٨٣) وغزوا أهلها ، واستفاقوا(٨٤) إبلهم وماشيتهم عنوة ، فخرج أهل الدويم خلفهم ، فلم يقدروا على رد السلب ، فاستصرخوا جيرانهم فلم يفلحوا فى نجدتهم ، ولا أغنوا عنهم شيئا .

وكان إلى هذا العهد قد تراكمت الأنباء من جدة ومكة وغيرهما ومن ناحية الصومال والهند الإنجليزية بتفشى الطاعون فيها واشتداد الموات فى ولاية الحجاز جملة ،فاهتم أهل الحل والعقد لذلك إهتماما عظيما ، وعقدوا العزم على إبطال الحج فى عامهم ذلك وأخذوا الأهبة لذلك .فلما تفشى هذا الخبر ظهرت الحركة بين جماعة العلماء وقاضى مصر وأكثروا من الإجتماع بمفتى الديار .فأشار بطرس باشا وزير الأمور الخارجية بمكالمة العلماء فى ذلك وضمهم إلى هيئة مجلس الوزراء لينظر فى الأمر حسب ما تقتضيه السنة والشريعة . فوافق الرئيس مصطفى فهمى باشا على ذلك واجتمع مجلسهم . فحضر(القاضى جمال الدين) والشيخ(حسونه النواوى) مفتى الديار وجماعة من العلماء ، وتناجوا فى الأمر طويلا وظلوا على هذا أياما حتى إتفقوا على خروج الحج على طريقته المعتادة ، وجعل دفع الطاعون عن البلاد موكلا إلى الحكام وأهل المناصب وأعلنوا فتواهم بذلك وهى :

(٨٣) الدوبيم = الدويم .
(٨٤) واستفاقوا = واستاقوا .

ألحمد لله وحده

لم يذكر أحد من الأئمة من شرايط وجوب أداء الحاج عدم وجود المرض العام فى البلاد الحجازية . فوجود شىء منه فيها لا يمنع وجوب أدائه على المستطيع . وعلى ذلك لا يجوز المنع لمن أراد الخروج للحج مع وجود هذا المرض متى كان مستطيعا .

وإنما النهى عن الإقدام على الأرض الموبوءة الوارد فى الحديث فمحمول على ما إذا لم يعارضه أقوى كأداء الفريضة ،كما يستفاد ذلك من كلام علمائنا . وأيضا فان النهى عن الدخول أو الخروج تابع لاعتقاد الشخص الذى يريد الدخول أو الخروج كما يفيده ما فى(تنوير الأبصار على متن الدر المختار) حيث قال(وإذا خرج من بلدة بها الطاعون وهو الوباء العام ، فإن علم أن كل شىء بقدرة الله تعالى فلا بأس بأن يخرج ويخل[٨٥] ، وإن كان عنده إنه لوخرج نجا ولو دخل إبتلى به ، كره له ذلك فلا يدخل ولا يخرج ، وأيده تارحة[٨٦] السندى والله أعلم) أ .هـ . .

قلت وما إنتشر خبر هذه الفتوى وتناقله الناس حتى إنقسموا فيه إلى قسمين .قسم أبدى إحترامه لهذا القول ، واعتبر أن جدال المتجادلين فيه تعرضا لما لا يدركونه كما يدركه أهله ،وأنه مع مثل هذه الفتوى لا يصح لأصحاب الحل والعقد أن يعارضون[٨٧] فيها بعمل ،فيتركون للحجاج التصرف فى حلهم وترحالهم ، ما ظلوا على إعتقاد أن كل شىء بقدر من الله تعالى .

وقسم كان يقول إن هذه الفتوى لا يصح معها لأهل الحل والعقد أن يتقاعسوا عما يجب أن يشتمروا له تشميرا .فإن البلاد كلها من مشرقها إلى

(٨٥) ويحل = ويدخل ــ قراءة ترجيحية .
(٨٦) تارحه = شارحه ــ قراءة ترجيحية .
(٨٧) يعارضون = يعارضوا .

مغربها خالية من الإحتياطات الصحية والأسباب الواقية من هذا الداء الوبيل ، فإن لم تعمل هى بحزم وعزم شديدين ، وتغلب[٨٨] على كل أمر دون سلامة الأرواح وسلامة الأعمال من العطلة التى قد تقضى[٨٩] إلى ما يشبه المجاعة من شدة الإعواز والفقر ، فالخطر محيق بالبلاد ، والطاعون نازل بها لا محالة . وعندى أن الدين يريد من الناس أن يبذلوا كل مرتخص وغال فى سبيل أداء فرايض الله سبحانه ، ولكن العلم مما أوحاه الله للناس ، وهو ذو وسائل وافية أيدها الإجتساد[٩٠] الدائم ،وأثبتتها المشاهدات المتتابعة فى كل صقع من أصقاع المعمور .ومع[٩١] ذلك فلا لوم ولا تثريب على أهل الحل والعقد إذ رسمت إلى عملها[٩٢] . وأهل[٩٣] المناصب أن يحضوا العامة على أن يؤجلوا فريضة الحج إلى سنة أخرى قادمة . ويتحتم على المتحدثين فى الناس أن ينصحوا للقوم مثل هذا النصح ، وأن لا يكتفون[٩٤] من ذلك بالمرة والمرتين .إذا هم فعلوا ذلك عدل الناس عن الحج جلهم أوكلهم وأمنت البلاد والعباد شر تلك الأيام الشداد بإذن الله تعالى .

كل هذا والأنباء متتابعة باشتداد الطاعون فى سائر جهات المشرف[٩٥] ،وفتكه فى بمباى الهندية التى يكثر توارد الحجاج منها إلى البيت القديم ، فقد بلغت الإصابات فيها إلى ذلك العهد فى الأسبوع الذى آخره ثالث عشر مارس من السنة ،ثلاثين شوال[٩٦] ثمان وخمسين ومايتين ألف إصابة ،

(٨٨) وتغلب = وتتغلب ــ قراءة إجتهادية .
(٨٩) تقضى = تفضى ــ قراءة إجتهادية .
(٩٠) الاجتساد = الاجتهاد ــ قراءة إجتهادية .
(٩١) ومع = وعلى ــ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٩٢) إذ رسمت إلى عملها = إذا رسموا بمنع الحج ــ عدلت الجملة لتتفق مع السياق العام .
(٩٣) وأهل = وعلى أهل ــ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٩٤) يكتفون = يكتفوا .
(٩٥) المشرف = المشرق .
(٩٦) شوال = شوال سنة ألف وثلاثمائة وستة عشر هجرية .

والوفيات واحد وثمانين ألف وفاة .فلم يعمل أصحاب الحل والعقد على خلال(٩٧)ما أفتى به جماعة العلماء ،وأباحوا إلى الناس الخروج مع ركب الحج إلا من كان ذا فاقة وعجز عن النفقة .وبرز الأمر بذلك إلى جميع المديرين والمحافظين وسائر عمد البلاد . وبرزت الأوامر مشددة باتخاذ كل حيطة مانعة لتسرب الوباء إلى جوف البلاد . وأنفذوا القوانين واللوائح ضد زرائب المعزى ومدابغ الجلود ، وأباحوا إلى جماعة الصحة دخول المنازل التى تحدث فيها إصابة من إصابات الوباء بلا دستور ولا حادور(٩٨) .وفرضو الغرامات على الجيران الذين يتكتمون خبر حدوث الإصابات بمنازل جيرانهم ولم يبلغوها إلى مشائح الحارات أو رجال الصحة ،وعنوا بنظافة أحياء العامة والعطوف ، وشددوا على مشايخ الحارات بالتطواف على البيوت وحض سكانها على تطهير مساكنهم فى الصباح والمساء . وبالغ مجلس المحاجر(٩٩) فى تفتيش السفن

---

(٩٧) خلال = خلاف ـ قراءة ترجيحية .

(٩٨) مثل عامى يطلق على من يدخل مكاناً بلا استئذان (لا دستور ولا حادور (أوحاظدور) (أوحاذور) .
دستور كلمة فارسية بفتح الدال أتت من الفهلوية داستوار Dastwar ، أى القاضى ، والحكم ـ الوزير . دخلت الكلمة فى اللغة التركية بلفظها ومعناها ـ لكن البعض يضم الدال لتكون Dustur . عندما عربت ضمت الدال أيضاً . تستعمل الكلمة فى الفارسية والتركية بمعنى الأساسيات فى العلوم والصناعة . يستعملها الأتراك والعرب بمعني الإستئذان عند دخول البيوت حتى تختفى النساء فيقول الداخل (دستور ـ يا أهل الله دستور ـ دستور يا أهل الله) ـ وفى المناسبات التى يذكر فيها الجن (دستور يا سيادى) .
أما حادور أو حاظدور أوحاذور فهى كلمة من شقين . حاضر بمعنى مستعد وتنطق حاظر Hazir ، ودور Dur بمعنى الأمر بالتوقف Stop من المصدر دورمق Durmak الوقوف Stop ـ فالكلمة مجتمعة هى حاضر دور Hazirdur وهى نداء عسكرى بمعنى (قف مستعداً) ـ ومثلها (حاضر أول) Hazir ol يعنى (كن مستعداً) المقابلة للنداء العسكرى (إنتباه) . حورت الكلمة (حاضر دور) فى العربية إلى حاظدور ، حازور ، حاظور ، حادور ـ لادستور ولاحادور ـ أى مقتحم للمكان دون استئذان .
ـ The Concise Oxford Dictionary - Oxford 1959 - PP., 86, 133.
ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص٩٦ .
ـ رد هاوس Red House ـ ص ٩١٩ .

(٩٩) المقصود هو مجلس الصحة البحرية والكورنتينات .
ـ راجع حاشية ٣٥٨ من حواشى عام ١٨٩٥ .

والبواخر القادمة من الشرق والحجر على ما يشتبه فى نظافتها ، وطهرها من جراسيم[١٠٠] الداء ، فاطمأنت القلوب وذهب عنها بعض ذلك الخوف والذعر الكبير .

وبينما أهل الحل والعقد فى حركة بسبب أنباء الطاعون المتتابعة ، ولاسيما فى جدة ومكة ، والعناية بخروج ركب الحج على الأسلوب المعتاد فى كل عام ، إذ جاء الخبر إلى وزارة الحرب ، وقصر الإمارة ، وديوان الرئيس مصطفى فهمى باشا بظهور الهرج بين جماعة الضباط المصريين فى السودان ، وتذمرهم مما يلاقونه من الغلظة وسوء معاملة جماعة الإنجليز .وأنهم إجتمعوا وطلبوا من السردار عدة طلبات .منها تعيين ضباط كبار من المصريين من رتبة القائمقام فما فوق فى كل مديرية من مديريات السودان ، ليكون لهم أسوة بالضباط الإنجليز .ويطلبون أيضا معاملة المصريين كالإنجليز فى الرتبة والراتب ، وإعادة يومية الميدان كما كانت عليه قبلا . قالوا فأكبر جماعة الإنجليز هذه الطلبات وأعظموها ، وكان قد حدث قبل ذلك أمورا أخرى نقموها على جماعة الإنجليز هناك ، منها أنه لما وصل الديوك كوت[١٠١] ثالث أنجال ملكة الإنجليز إلى الخرطوم منذ أيام للتفرج عليه بعد الفتح ، إصطفت الجيوش كلها لاستقباله ، وعزفت الموسيقى بنشيد الإمارة إجلالا .فحياه المصريون برفع الأيدى علامة على التعظيم ،ولكن الجنود الإنجليزية لم يرفع أحد منهم يده كما هو الواجب ، فتكدر المصريون من الإنجليز وحنقوا عليهم حنقا شديدا . ثم عزفت الموسيقى بالنشيد الملكى الإنجليزى ، فانتهز المصريون هذه الفرصة ولم يعظموه كما لم يعظم الإنجليز نشيد الإمارة . فاغتاظ السردار وتكدر جماعة

(١٠٠) جراسيم = جراثيم .

(١٠١) يقصد دوق كنت Duke of Kent ـ وقد شارك هذا الأمير فى الحرب ضد الجيش المصرى عام ١٨٨٢ والتى انتهت بالإحتلال البريطانى ـ ويسميه الرافعى فى كتاباته (الدوق أوف كنوت) .
ـ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤٤٦ .

الإنجليز كدرا ما عليه من مزيد ،وظهرت الوحشة بين الفريقين . فخشى السردار العاقبة ومال نحو المصريين يمنيهم بالأمانى الكثيرة . قيل وشدد على جماعة الإنجليز بملازمة السكينة والابتعاد عن كلما[١٠٢] من شأنه إغضاب المصريين واستفزازهم إلى الهرج . ثم برز أمره بأن يرفعوا إلى جماعة الوزارة أمر معاملة المصريين كالإنجليز فى الرتبة والراتب لتكون الهيئة الحاكمة نفسها مسئولة إلى الضباط المصريين إذا إمتنعت من أجابة طلبهم .قالوا فوعدهم الرئيس مصطفى فهمى باشا خيرا وبالغ فى إسترضائهم ،وسير إليهم الكتب فى معنى ذلك ،فطابت نفوسهم وعادوا إلى السكينة . وجاءت كتب صاحب السياسه الإنجليزية إلى قصر الإمارة وديوان الوزاره بفصل حدود مصر عن السودان فصلا تاما ليتم بذلك ما وقع الإتفاق عليه بين الحكومة المصرية والدولة الإنجليزية على ما مر بك بيانه .فجعل لورد كرومر يغدو ويروح فى كل يوم إلى ديوان الوزارة تارة ، وقصر الإمارة أخرى .وظل على هذا أياما حتى تقررت القاعدة بينهم على جعل الحد الفاصل بين الصقعين نهاية الكيلو متر مايتين شمالا من البرية الواقعه فى فرص[١٠٣] على ضفة النيل الغربية ، وناحية أرندان[١٠٤]على الضفة الشرقية .قلت فكان هذا الفصل داعيا إلى ضم بلاد إلى الحدود السودانية هى(سدة شرق) ومعها تسعة وتسعين فدانا أرضا زراعية ومائة خمسة وخمسين نخلة من زمام ناحية(أدندان)وناحية(فرص) ونواحى(جزيرة فرص) (ودبيره) (وسره غرب)(واشكيب)(وأرقين) (ودغنيم) (وعنقش)(ودبروسه) بزمامها وخرجها ودخلها ، وبمن فيها من العمال . ووضعوا على نهاية الحدود علامات من الخشب كتبوا على أحد وجهيها(مصر) وعلى الآخر (السودان) .وجعلت حكومة السودان بعد هذا التحديد بلدة(كروسكو)مركزا للحكومة بدلا من حلفا

---

(١٠٢) كلما = كل ما .

(١٠٣) فرص = سرس أو صرص ــ قراءة ترجيحية ــ راجع الخرائط ــ ملحق (٥) و(٦) .

(١٠٤) أرندان = أدندان ــ قراءة تصحيحية .

وسمته باسم البلد ، وألحقت به إثنين وعشرين بلدا .ونقلت مركز(الكنوز)إلى ناحية (أبى هور) ، وأتبعت به ثمانية عشر بلدا وسمى باسم(أبى هور) .وسميت المأمورية كلها بمديرية أسوان . وما تفشى خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف حتى هاج غضب أصحاب صحف الفرنسيس وتحرك ساكن غيظهم من فلاح الإنجليز فى السودان بعد تخلى مرشان وحملة فشوده . وفزعوا إلى الوقيعة بصاحب سياسة الإنجليز ، والحط من كرامة السردار ، ورموه بأفظع التهم وأحطها .حتى لقد قالوا أنه أباح أم درمان لجنده ثلاثة أيام ، فنهبها الجند وأفحشوا من النهب والقتل ،حتى قتلوا الشيوخ والنساء والأطفال ، وأجهز الجنود الإنجليز على الجرحى .وأنه رسم بنبش قبر المهدى ، وفعل غير ذلك مما تقشعر منه الأبدان وتشيب من هوله نواصى الرضعان .فأكبر صاحب سياسة الإنجليز هذا القول وأعظمه جدا ، واهتم بإبراء السردار من هذه الشوائن المخجلة المزرية برجال الحروب ،وأوعز إلى صحفهم فقام أصحابها يسفهون آراء الفرنسيس ويبرأون السردار من تهمة النهب والقتل ،والإجهاز على القتلى والمجرحين[١٠٥]من الدراويش ، ولكنهم لم يقدروا على إبرائه من تهمة نبش قبر المهدى . فلم يقنع صاحب جريدة الطان[١٠٦] الإفرنسية ،وهب يقول(لقد عجزوا والله عن أن يقيموا الدليل على براءته من ذبح العدد العديد من جرحى الدراويش بسيوف العساكر الإنجليزية فى ساحة القتال ،خلاف من لجأ منهم إلى أم درمان ، ولا من تهمة حضى[١٠٧] الجماهير الهاربين من أم درمان من النساء والأولاد والشيوخ والضعفاء بنيران المدافع الرشاشة ، ولا من تهمة إخراج جثة المهدى من قبرها والقاها[١٠٨] فى النيل بعد أن مثلوا بها تمثيلا

(١٠٥) المجرحين = المجروحين .

(١٠٦) Letemps جريدة فرنسية باريسية ظهرت فى عهد الجمهورية الثالثة وحرية الصحافة .

_ Larousse Universel - vol. I. P.. 1246 .

(١٠٧) حضى = حصد _ قراءة تصحيحية .

(١٠٨) وألقاها = والقائها _ قراءة تصحيحية .

فظيعا ، حتى لقد هشموا جمجمته ، ونقلوا بعض عظامه إلى لونده عاصمتهم ، وهى باقية عندهم إلى هذا العهد) .وقال غير ذلك كثير . فكان لإعادة ذكرى هذه الفعال المخزيه أثرام ولما(١٠٩)فى نفوس أصحاب الضمائر السمحاء .وقد كانت الأيام قد طوتها وتناستها أوكادت ، ولكن جماعة الفرنسيس وأصحاب سياستهم الذين فى كل أدوار هذه الخطوب لم يحسنوا القيام بسلطانهم ،ولم يتم لهم أمرا مع القوم الإنجليز ، ولا تغلبت لهم كلمة منذ بداية الإحتلال إلى هذا العهد ،كانوا كلما راجعوا أمورهم وبحثوا فيما مضى من عثراتهم وسقطاطهم(١١٠) فى سياستهم وأطالوا التفكير فيما تلجلج فى صدورهم مما ليس فى كتاب ولا سنة ، فزعوا إلى المشاكسة بالهراء وهتر الكلام ،وارتفع صياحهم وضجيجهم من كل صوب وناحية كما يفعل صبيان المكاتب ، وانحنوا(١١١)على رجال الإنجليز لوما وتقريعا وحطا وتسفيها ، وضرؤا(١١٢) عليهم ضراء الأسد على فريسته . فيتخيل للسامع أن الإنجليز مغلوبون ، وأن الوهن والفشل قد أدركهم فى سائر مناحيهم ، والإعتلال قد طرقهم . وهم كما يعلم الله والناس دائبون على عملهم فى السر والجهر ،نائلون من وراء الغاية من أقصى البلاد إلى أقصاها ،غير خائفين من إنبساط الأيدى بالقهر عليهم ، ولا أن تسطو بهم الغلبة ، لأنهم يعرفون من أنفسهم القوة ومن قوتهم البطش والغلبة ، ومن الغلبة بلوغ ما فى النفس الطامحة .وقد عرفت هؤلاء القوم الفرنسيس أنهم مع الإنجليز مغبونين وفى كل أدوار حياتهم خاسرين غير رابحين . إذ هم أبدا فى تنافس وخلاف فى الأهواء الباطلة فضلا عن الحق(١١٣) .

---

(١٠٩) م ولما = مؤلما ـ قراءة تصحيحية .

(١١٠) وسقطاطهم = وسقطاتهم ـ قراءة تصحيحية .

(١١١) وانحنوا = وأنحوا ـ قراءة تصحيحية .

(١١٢) من الضراوة كأن تقول وحش ضار ـ وحوش ضارية ـ مختار الصحاح ـ ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(١١٣) لاحظ لهجة الإطراء فى كتابة شاروبيم عن الإنجليز فى التسعينيات المتأخرة ـ على خلاف ما كانت عليه كتاباته عنهم فى بواكير التسعينيات .

وكـان لمـا تولى الـسـير بلمـر إدارة البنك الأهلى ، بعـد خلعـه من منصب إستشارة وزارة الخزينة ، جعل يعمل فى توسيع نطاق عمل ذلك البنك المالى ، ويسعى وراء تعظيمه فى نظر الناس وأصحاب الشركات المالية . فسعى مع أهل الحل والعقد بوساطة لورد كرومر فى إصدار أوراق مالية يتداولها الناس فى بيعهم وشرائهم مداولة النقود من الفضة والذهب ، ويدفعونها إلى الخزينة وصيارف البلاد فى ديونهم ، وما على أطيانهم من الخراج . ومازال يجد ويعمل أياما من الدهر حتى أجابه الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعه الوزراء ، ووافقهم الأمير على ذلك وبرز الأمر به . فلما كان ثانى أبريل من السنة ، حادى عشرى ذى القعدة سنة ستة عشرة وثلثمائة ،ظهرت تلك الأوراق وتداولها الناس فرحين ،وهى على أشكال متباينة من فئة خمسين قرشا صاغا إلى مائة جنيها مصريا ،أى أنها ست فئات ، الأولى منها بخمسين قرشا ،والثانية بمائة ،والثالثة بخمسمائة ، والرابعة بألف ، والخامسة بخمسة آلاف ، والسادسة بعشرة آلاف ،وراجت رواجا عظيما للغاية ،فكانت نعم العون على تسهيل المعاملات بين الناس .إذ الرجل يحمل منها فى وطابه[١١٤]أو جيبه عشرات الألوف بغير تكلف ولا تعب بكيسا[١١٥]يتعبه حمل خمسمائة جنيها ذهبا بل يؤزيه[١١٦] ويقلقه مخافة أن يسطو عليه النشالين والشرطيه[١١٧] الذين يسرقون ما فى وطابات المارة وأبناء السبيل . وكان بعض أهل التفكير يظنون إعراض العامة عنها والإمتناع من التعامل بها ، فخاب ظنهم إذ كثر الإقبال عليها والتعامل

(١١٤) المفروض أن تكون وطيئة وهى تعنى الغرارة (أخرج ثلاث أكل من وطيئة) أى ثلاث قُرَص من غرارة ــ أى كيس ــ ومع هذا فإن وطب ، أوطاب ، وطاب هى جلد الخراف الذى يستخدم لتلقى السوائل (قربة السقاء أو قربة خض اللبن) .
ــ مختار الصحاح ــ ص ٣٠٣ ــ ردهاوس Redhouse ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢١٤١ .

(١١٥) بكيسا = بكيس ــ قراءة تصحيحية

(١١٦) يؤزيه = يؤذيه .

(١١٧) أى النشالين ــ الذين يستخدمون المشرط فى شق الجيوب وسرقة ما بها ــ المشرط هو المبضع ــ شُرَطى أى نشال .
ــ مختار الصحاح ــ ص ١٤١ .

بها ،وراجت سوقها رواجا لم يكن للسير بالمر فى حسبان .وعندى أنها أحسن مما أحدث فى تلك الأيام ،وأدلها على تغيير أفكار العامة واستعدادها إلى قبول الإحداثات الراقية البعيدة عن العادات المألوفة عندهم . وأول ورقة برزت من تلك الأوراق سار بها السير بلمر إلى قصر الإمارة ،ورفعها إلى الأمير .قالوا فسر بها سرورا عظيما ،ثم نقلوا منها إلى ديوان الخزينة ما قيمته أربعة آلاف ذهبا فى يوم واحد .وتقدم السر بالمر إلى ولاة الأمر فى أن ترخص له بإقامة الدعوى ضد كل من يزور هذه الأوراق أمام المحاكم على إختلافها ،وهو يتعهد فى نظير ذلك بقبول ما يظهر من تلك الاوراق المزورة ، ودفع قيمتها لحاملها .وظل يعمل على هذا حتى أجابوه إلى ذلك فاستراح .

وكان لما إتسعت كلمة جماعة الإنجليز ،وانبسطت سلطتهم وتصرفوا فى سائر وظائف ومناصب الحكومة وبثوا فيها نظامهم على المألوف فى دواوينهم ، عمد مستشار وزارة الحقانية إلى قلب هيئة المحاكم الشرعية ، وتقنين القوانين الصارمة لها ، وتعديل نظاماتها الداخلية(١١٨) ، وحصر سلطة قاضى القضاة فى

---

(١١٨) تعددت المحاولات فى تاريخ مصر الحديثة لإخضاع القضاء الشرعى لسلطة الحكومة ـ ولم يتغير الأمر فى عهد ما قبل الإحتلال عنه بعد قيامه وسيطرة الإنجليز على مقدرات الأمور فى البلاد .
بدأ الأمر فى عصر محمد على عام ١٨١٦ عندما تمسك بقاضى معين عندما انتهت مدته وأصر على عدم تغييره رغم ما كان متعارفاً عليه من تعيين قاضى عسكر أو قاضى القضاة (بفرمان شاهانى) .
ـ فى عصر سعيد دفع مبلغاً من المال للدولة فى مقابل التصريح له بتعيين قضاة المديريات والمحافظات سالباً هذا الحق من قاضى القضاة التركى القادم من الآستانة .
فى عصر إسماعيل اتفق مع الدولة على دفع ٢٥٠ جنيه شهرياً لهامقابل أن يبقى القاضى التركى هناك ولا يأتى إلى مصر وأن يختار إسماعيل نائباً عنه يعين بفرمان عثمانى . وفى عام ١٨٧٤ تولى المنصب القاضى التركى عبد الرحمن نافذ . فلما انقضت مدة ولايته استبقاه إسماعيل فى منصبه .
فى عام ١٨٧٦ أصدر المجلس الخصوصى لائحة قرر فيها إلغاء الطريقة المتبعة فى تولية قاضى القضاة ـ ومد فترة توليته ، وتعديل مرتبات القضاة ـ وتقرر أن تكون مدة ولاية قاضى مصر خمس سنوات مع جواز تجديدها بشروط ـ وأن يكون له نائبان لهما نفس مدة ولايته ، وأن تشكل المحكمة من مجلسين شرعيين يتكون كل منهما من ثلاثة أعضاء من العلماء ، وينضم المجلسان تحت رأسة قاضى المحكمة عند النظر فى القضايا الهامة . وعند إختيار القاضى ونائبه وأعضاء المجلسين ورئاستيهما تعقد جمعية من العلماء بديوان نظارة الداخلية للإختيار على أن يعتمد (الخديو) ـ وهو إسماعيل باشا فى ذلك الوقت ـ هذا التعيين ، ثم يقوم القاضى بتعيين باقى أعضاء المحكمة .=

=ولما كانت إرادة إسماعيل هي تعيين (الشيخ عبد الرحمن نافذ) فقد انعقدت جمعية من العلماء ضمت الشيخ محمد العباسى مفتى الحنفية وشيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمد الإمبابى ، والشيخ الأشمونى ، والشيخ المرصفى ، والشيخ الصفتى ، والشيخ الجيزاوى ، والشيخ الرفاعى ـ ونظار الحقانية (العدل) والداخلية ، ورئيس مجلس حسبى مصر ، ورئيس مجلس شورى النواب ، وانتهوا إلى إختيار (الشيخ نافذ) لقضاء مصر ـ وفقاً لإرادة (إسماعيل) .

تولى الشيخ عبد الرحمن نافذ قضاء مصر لمدة ١٥ سنة متوالية ـ وعند وفاته طلب إسماعيل إلى الباب العالى تعيين إبنه قاضياً فوافق السلطان ببرقية ، لكن إسماعيل قام بتقليده المنصب بنفسه ـ بذلك أصبح خديو مصر هو الذى يعين قاضى مصر ـ ولم تعد الدولة تصدر الفرمان السنوى بالتعيين .

ـ نصت لائحة المحاكم الشرعية الصادرة فى ١٧ يونيو ١٨٨٠ على أن أعضاء المحاكم يعينون بأمر خديوى ـ أما (قاضى القضاة) فيكون تعيينه بعد الإتفاق مع الدولة العثمانية ، وأن يكون إختيار باقى أعضاء المحكمة عن طريق لجنة مشكلة من قاضى القضاة ، شيخ الجامع الأزهر ، مفتى السادة الحنفية ، وبحضور ناظر الحقانية ـ كما نص فى اللائحة على أن تكون الأحكام بأرجح الأقوال من مذهب (أبى حنيفة) وأن صدورها يكون من قاضى واحد فيما عدا مصر والإسكندرية فإنها تصدر من المجلس الشرعى المكون من قاضى وأثنين من العلماء ـ وأجازت اللائحة التظلم من الأحكام الصادرة من غير محكمتى مصر (أى القاهرة) والإسكندرية فيما يختص بالخطأ فى الأحكام الشرعية أمام المجلس الشرعى الذى يحيل الأمر إذا شك فيه على شيخ الجامع الأزهر ومفتى السادة الحنفية ـ إلى جانب مواد أخرى كثيرة . ولكن أهم ما يؤخذ على لائحة ١٨٨٠ هو عدم تحديد الشروط الواجب توافرها فى القضاة ـ فساءت أحوال المحاكم الشرعية إلى جانب مساوءها الأخرى ، وأصبحت الحاجة ملحة فعلاً إلى إصلاح هذه المحاكم .

لكن إتجاه الإصلاح لم يتخذ المسار المناسب فى الواقع ، فقد كان كل هم الحكومة هو دينونة هذا النوع من المحاكم بالولاء لها ـ لذلك فإن أغلب محاولات الإصلاح مست كما سنرى الهيئة القضائية فقط .

ـ فى ٣١ ديسمبر ١٨٨٨ صدر الأمر العالى بتشكيل مجلس تأديب للقضاة ونوابهم من ناظر الحقانية رئيساً ، وقاضى مصر ، والمفتى ، ووكيل نظارة الداخلية ، ورئيس محكمة الاستئناف الأهلية أعضاء .

ـ فى ١٠ ديسمبر ١٨٩١ صدر قرار نظارة الحقانية بشروط الإلتحاق بمناصب القضاء والإفتاء ، فتقرر أن يكون المرشح حنفى المذهب ، دارساً لعلوم النحو والصرف والتوحيد والتفسير والمنطق والحديث والفقه والمعانى والبيان والبديع والأصول ومبادئ الحساب ، ملماً بالتوثيقات ومراجعة الأحكام الشرعية ـ إلى جانب ضرورة أن يؤدى أمتحانا شفوياً فى تلك المعارف .

ـ فى أبريل ١٨٩٥ تم تشكيل محاكم شرعية بمحاكم المديريات والمحافظات لكل منها قاضى ونائب ومفتى أو قاضى ونائب فقط . والإجراء رغم فعاليته إلا أنه لم يتوجه إلى العيب الأساسى وهو طرق الأحكام ، وإنما كان محاولة من السلطة التنفيذية للسيطرة على هذه المحاكم ـ إذ أنه كان يعين فى حالة استئناف الدعوى أمام محكمتى مصر (القاهرة) و(الإسكندرية) إثنان إلى أربعة من الحنفية يعينون بأمر عال ـ وعند الاشتباه فى بعض القضايا فإن الأمر كان يرد إلى شيخ الجامع الأزهر ليبدى رأيه فيه .

ـ فى ٢٧ مايو ١٨٩٧ صدرت لائحة جديدة للمحاكم الشرعية ـ كان من أهم ما تضمنته إخضاع تعيين القضاة فيها لشرط الحصول على العالمية من الأزهر أو شهادة اللياقة للقضاء والإفتاء من دار العلوم ، إلى جانب نصوص أخرى كثيرة حسنت من أحوال المرافعات والأحكام الغيابية ومعارضتها ، والحجز على المرتبات والاستحقاقات ـ كما أقيمت بكل مركز محكمة جزئية من =

= قاضى واحد للفصل فى قضايا الأحوال الشخصية التى لاتزيد قيمة المتنازع عليه فيها عن ١٠٠ جنيه ـ إلى جانب محكمة فى المديرية لنظر القضايا التى يزيد فيها النصاب عن ذلك مؤلفة من قاضى وعضوين أحدهما مفتى الجهة وتستأنف أمامها أحكام محاكم المراكز ـ وتستأنف أحكامها أمام محكمتى مصر والإسكندرية . وأدخل على المحاكم الشرعية نظام التفتيش الإدارى والقضائى الذى يبحث فى الأخطاء القضائية دون المساس بالأحكام ولا بقوة الشيء المقضى به ـ لكن هذا النظام لم يسر على المحكمة الشرعية العليا .

هكذا خضعت المحاكم الشرعية للسلطة التنفيذية الخاصة لقوى الاحتلال البريطانى ـ مع ملاحظة أن صاحب اليد الطولى فى صدور هذه اللائحة كان الشيخ محمد عبده صاحب الفكر المستنير ورائد مدرسة الإصلاح فى مصر أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

حفز هذا التدخل فى شئون القضاء الشرعى فى مصر ـ ألوجود الإنجليزى على بسط يده قدر استطاعته على مقدرات هذا النظام عام ١٨٩٩ عندما وضع السير مالكولم ماكلريث Malcolm McIl-wraith المستشار القضائى البريطانى (١٨٩٩ ـ ١٩١٦) مشروعاً للمحاكم الشرعية يقضى بإدخال قاضيين مسلمين من قضاة محكمة الإستئناف الأهلية فى تشكيل محكمة مصر العليا الشرعية بحيث يصبح تشكيل المحكمة من قاضى مصر (قاضى القضاة التركى) ـ ثلاثة قضاة يعينون بأمر خديوى بناءاً على طلب ناظر الحقانية ـ قاضيين مسلمين من قضاة محكمة الإستئناف الأهلية ينتدبان بأمر خديوى بناءاً على طلب ناظر الحقانية ـ أما الأحكام فتصدر من هيئة مؤلفة من قاضى مصر بصفة رئيس وقاضيين من الثلاثة والقاضيين المنتدبين اللذين قضى المشروع بأن يستمرا عضوين فى محكمة الإستئناف يؤديان وظائفهما بها .

كان هذا قمة التدخل فى شئون المحاكم الشرعية وأقصى ما يمكن لرجال هذه المحكمة السكوت عليه .

ـ فى جلسة السادس من أبريل ١٨٩٩ بمجلس شورى القوانين رفض المشروع بصورة قاطعة وأعيد للنظارة ـ فعدله مجلس النظار وقدمه إلى المجلس فى العاشر من مايو ، وحضر المستشار القضائى الجلسة . ضم الاجتماع قاضى مصر ومفتى الديار المصرية . تبودلت التقارير المقدمة من رئيس النظار وناظر الخارجية والمستشار القضائى ، لكن المشروع قوبل أيضاً بالرفض من الجميع .

وكان سبب الرفض هو (عدم جواز تولية من لم يكن موصوفاً بالقدرة على معرفة القول الراجح والمرجوح والضعيف من الصحيح من مذهب أبو حنيفة . لأن من يتولى الأحكام الشرعية مأمور بالحكم والفتوى بالقول الصحيح من مذهب أبى حنيفة ويكون من الممارسين للمرافعات والأحكام الشرعية . وأن قاضى مصر منصب من لدى الخلافة ، فاشتراك أحد من قضاة محكمة الإستئناف معه فى الأحكام لايسوغ شرعاً ولايسعه الإذن له ، خاصة وأن الأحكام الشرعية مؤسسة على نصوص وقواعد الدين ، وأحكام المحاكم الأهلية مؤسسة على قوانين وصفية عقلية ، وأن وجود هيئة مختلطة فى نظر القضايا الشرعية مؤثرة على استقلال القضاة الشرعيين وموجبة للفساد فى الأحكام) .

ويكشف ميخائيل شاروبيم فى الصفحات ٥٦١ ـ ٥٧٩ عن دور المستشار القضائى الإنجليزى ، والحكومة فى محاولة السيطرة على النظام القضائى الشرعى فى مصر ـ ومحاولة عزل قاضى مصر التركى ـ وموقف مجلس شورى القوانين المشرف أزاء محاولة الإعتداء على المحاكم الشرعية ـ وحقوق السلطان العثمانى فى الولاية على القضاء الشرعى فى مصر ، وحقوق الخديو ـ والسوابق التى تؤيد هذا الحق أو تنكره .

ـ لطيفة محمد سالم (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ ـ ١٩١٤) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٠٤ .

دائرة محدودة .ورفع أمر ذلك إلى مجلس الوزراء ، فتناجوا فيه أياما كثيرة ، وأهل العلم وأصحاب خطط القضاة ولا سيما قاضى القضاة الحنفية ينظرون إلى هذا الحدث بعين القلى[119] ،ويوالون الإجتماع تارة فى دار قاضى القضاة ، وتارة فى الجامع الأزهر ، ويرسلون بعوثهم إلى الأمير آونة وديوان الوزارة آونة أخرى .فلما تقرر بينهم قاعدة العمل على مقتضى قوانين مستشار وزارة الحقانيه ، وبرز قرارهم بذلك ، فزع جماعة القضاة والعلماء إلى تسفيه رأى المستشار وتزييفه ، حتى لقد قالوا أن عمله مستحدث الصنعة غريب النزعة ،أدى إليه خلط السياسات بالشريعة . ورد قاضى القضاة على ذلك بإنكار جواز إشراف وزارة الحقانية أو مستشارها على أعمال وشؤون المحاكم الشرعية جملة .وأفتى مع شيخ الجامع الأزهر بعدم جواز ذلك بتاتا ،وأرسلوا فتواهما إلى ديوان الوزرة ، وأبلغوا بخبرها إلى قصر الإمارة ، فقام عند ذلك الرئيس وقعد .ورسم بالبحث والنظر فى سجلات الدواوين لعلهم يعثرون على ما يناقض فتواهما .وظلوا على هذا أياما حتى عثروا على عدة أمور ، أهمها أنه لما عزم الخديوى إسماعيل باشا على تقليل إمتيازات السلطنة العثمانية المقررة بالفرمات[120] فى ديار مصر من عهد السلف ، جعل يتخطف من المابين والباب العالى كلما[121] وصلت إليه قدرته من تلك الإمتيازات . فكان ما لذلك العهد أن أنشأ مجلسا علميا مؤلفا من بعض جلة[122] العلماء المصريين المسلمين ،وعهد إليهم فى إختيار قاضى .وكان إلى ذلك الحين قد إنقضت مدة قضاء الشيخ(عبد الرحمن نافذ)قاضى قضاة مصر ولا بد له من العوة إلى دار السلطنة ومجىء بدله من قبل دار المشيخة الإسلامية بالآستانة حسب الطريقة المقررة من القدم .وكان الخديو إسماعيل باشا محبا للشيخ(عبد الرحمن)لأمور بينهما لا محل لذكرها

(١١٩) القلى = البغض ـ مختار الصحاح ـ ص ٢٣٠ .
(١٢٠) بالفرمات = بالفرمانات ـ قراءة تصحيحية .
(١٢١) كلما = كل ما ـ قراءة تصحيحية .
(١٢٢) جلة = أجلة ـ قراءة تصحيحية .

هنا ، ميالا إلى إستبقائه فى منصب القضاء .وقد آنس جماعة العلماء منه ذلك فاختاروه لهذا المنصب وعملوا محضرا بذلك ورفعوه إلى قصر الإمارة ، وهو يومئذ المرجع الأعلى لسائر دواوين الحكومة . فبرز الأمر بولايته قضاء مصر وضواحيها بما للخديوى من الولاية العامة عن الخليفة السلطان (عبد العزيز) . وأذن له بإصدار الأحكام الشرعية والفصل فى الخصومات بمقتضى الشريعة والسنة ، واستتب له الأمر . قالوا فلما مات الشيخ (عبد الرحمن نافذ) على عهد الخديوى(توفيق) باشا أسند الخديوى منصبه إلى الشيخ(جمال الدين) الذى جاء من دار السلطنة بفرمان من باب المشيخة الإسلامية هناك . قالوا وفى هذا دليل على أن القضاء مستمد من أمير البلاد لا من الخليفة السلطان منذ عهد إسماعيل باشا ، وأنه لم يحدث إلى هذا العهد ما يعدل إختصاصات القاضى عما وضعه له إسماعيل باشا ، وأن قاضى القضاة إنما هو مولى قضاء مصر وضواحيها ، لا قضاء جميع ديار مصر كما جاء فى الفتوى ، وأنه لا جدال قط فى أنه معين بأمر الخديوى ، وان السلطة الشرعية صادرة إليه من أمير البلاد خلافا لما فى الفتوى .

وعندى أن إختيار جماعة العلماء للشيخ عبد الرحمن نافذ لعهد الخديوى إسماعيل ،وبروز الأمر من قصر الإمارة بتوليه منصب قضاء مصر وضواحيها لم يغير من الشكل المعمول به فى المابين وباب المشيخة فى دار السلطنة ، عند تقليد القضاء لكل قادم من السلطنة بعد إنقضاء مدة السلف .فقد جرت عادتهم فى ذلك إذا مات القاضى أو إنقضت مدته المقررة ، جاء الخلف ومعه فرمان الولاية من المابين وباب المشيخة ، وأبلغوا خبر ولايته إلى ديوان الوزارة وقصر الإمارة بعد أخذ ورد ، وربما أصر المابين على تولية أحدهم رغم ممانعة الإمارة كما وقع عند تولية الشيخ(جمال الدين) وغيره ،فتضطر الإمارة إلى قبوله وتعدل عن ممانعتها كارهة .وقد حدث أنه لما مات(الشيخ عبد الرحمن) على عهد الخديوى توفيق ، عمد الخديوى إلى أعطاء إبن الشيخ منصب أبيه المتوفى ،

وأرسل كتبه فى ذلك إلى المابين الهمايونى ، فجاءه الرد بأن الرجل لا يصلح لأن يتولى منصبا مهما كهذا ،وأنه قد برز أمر الخليفة السلطان بولاية الشيخ (جمال الدين) .فلم يسع الإمارة إلا الإزعان[١٢٣] .وبرز أمر الأمير بولايته ، وهكذا جرى مع من أتى ويأتى بعده ، حتى تجتمع كلمة القوم على غير ذلك ، والله سبحانه أعلم بما سيكون .

وأتفق أن كان عيد النحر الأكبر عاشر ذى الحجة من السنة ،أى سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف ،موافقا لعشرى أبريل سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ، فصلى الأمير صلاة العيد فجر اليوم فى مسجد المطرية ، ونزل إلى قصر الإمارة ــ فاستراح قليلا ، ثم أقبل عليه المهنئون وهم فى ملابس الزينة والتشريف الكبرى ، ودخلوا أفواجا حسب الترتيب المعتاد .فلما دخل عليه جماعة العلماء وقاضى القضاة والمفتى أجلسهم وأدنى القاضى فى[١٢٤] مجلسه . وكلمهم لحظة فيما يريده مستشار وزارة الحقانية ولاطفهم . ثم خرجوا من عنده وعلى وجه قاضى القضاة والمفتى دلايل الوحشة والإنقباض . وأصبحوا ثانى يوم العيد وقد شاع أن الكلام بين الصدر الأعظم وصاحب سياسة الإنجليز دائر على الخلاف القائم بين العلماء وقاضى قضاة مصر بشأن المحاكم الشرعية .وتفشى هذا الخبر بين الناس ، فكان حديث نهارهم وسهر ليلهم ، وأنزله جماعة العلماء منزلة القول الصحيح ، فطاف بعضهم على بعض مهنئين فرحين بما سمعوه ، وكأنهم قد نالوا ما وراء الغاية والأمر على ما يحبون . فقد جاء الأمر من صاحب سياسة الإنجليز إلى عميدهم بمصر بأن لا يتداخل فى مشكلة المحاكم الشرعية ولا يبدى فيها رأيا ،وأن يتحول عنها ما استطاع . فأزعن[١٢٥] وترك الأمر إلى مستشار وزارة الحقانية . فسعى جهده ، وجاءته

(١٢٣) الازعان = الإذعان .
(١٢٤) فى = من ــ قراءة تصحيحية .
(١٢٥) فأزعن = فأذعن .

المعونة من وراء الستار ، وجماعة العلماء وقاضى القضاة والمفتى على عزمهم وسعيهم المتواصل . حدثنى أحد هؤلاء السادة عن فتوى قاضى القضاة وشيخ الإسلام التى بعثنا بها إلى مجلس شورى القوانين قال(أكثر مستشار وزارة الحقانية من الجلبة والضوضاء ، وبالغ فى شكواه من فتوانا الحقة ،وتغافل عما جاء فى مقدمتها من القول الصراح الدال على أن للمحكمة الشرعيه الكبرى عملين ، عمل الإفتاء وعمل القضاء . فهى بمراجعتها للأحكام الصادرة من المحاكم الصغرى وحكمها بصحتها وعدم صحتها تفتى ،وبتولى أعادة النظر وإصدار الحكم فى القضايا غير المقبولة شكلا أو موضوعا تقضى . ولهذا كان من المحتم أن الذى يتولى القضاء الشرعى يكون متخرجا فى أساليب المرافعات ، متضلعا من معرفة الأقوال الراجحة والأقوال المرجحة والصحيحة والضعيفة .وهذا لا يتأتى معرفته لكل متعلم أو متخرج عن معاهد العلم ممن يختارهم مستشار وزارة الحقانية كما هو يزعم . وكذلك فإن الأمير لم يخول سلطة القضاء ، وكان حقا للقاضى أن يعتبر أن السلطة الممنوحة له إنما جاءته من قبل الخليفة لأنه هو الذى ولاه) قال(ولذلك فإن الخديوى توفيق باشا قال فيما قاله لوزارة الحقانية عن تولية القاضى جمال الدين ، وما أبلغه إلي وزارة الداخلية ما نصه(فى هذا اليوم تقابلنا مع سماحة جمال الدين أفندى الذى عين قاضيا لمصر) .قال محدثى(وليس هذا ما إصطلح على كتابته فى الأوامر العالية عند تنصيب أهل المناصب وأصحاب الخطط . وعلى هذا والذى[١٢٦] فعله الخديوى إسماعيل باشا عدله ولده الخديوى توفيق باشا وكلاهما لم يعمل إلا بما إتفقا عليه مع المابين الهمايونى وباب مشيخة الإسلام)أ .هـ أقول ولم تعدل الهيئة الحاكمة عن قصدها ، ولم تبدل فى رأيها فى ذلك جملة ،وطلبت من مجلس الشورى أن يبدى رأيه فى ما تراه هى ، غير ناظرين

(١٢٦) والذى = فالذى ــ قراءة ترجيحية

إلى فتوى قاضى القضاة وشيخ الإسلام ، وأن لابد من تغيير هيئة القضاء الشرعى بتنصيب قضاة محكمة الإستئناف الأهلى فى المحكمة الشرعية العليا .

فلما كان عاشر مايو من السنة ، ثلاثين ذى الحجة سنة ستة عشرة وثلثمائة وألف ، إجتمع مجلس الشورى وحضر إنعقاده جماعة الوزراء للمناقشة فى ذلك .فقام إبراهيم فؤاد باشا وزير الحقانية وتلا على هيئة المجلس ما نصه :ـ (بنى حضرات قاضى مصر ومفتى الديار المصرية رأيهما فى رفض مشروع إنتداب قاضيين مسلمين من قضاة محكمة الإستئناف الأهلية ليكونا عضوين بالمحكمة العليا الشرعية على سببين ـ السبب الأول عدم جواز تولية من لم يكن موصوفا بالقدر[١٢٧] على معرفة القول الراجح والمرجوح والضعيف من الصحيح من مذهب الإمام الأعظم ، لأن من يتولى الأحكام الشرعية مأمور بالحكم والفتوى بالقول الصحيح من مذهب أبى حنيفة ،ويكون من الممارسين للمرافعات والأحكام الشرعية ـ السبب الثانى أن سماحة قاضى مصر حيث كان منصوبا من لدن الخلافة العظمى ،فاشتراك أحدى[١٢٨]قضاة محكمة الإستئناف معه فى الأحكام لا يسوغ مسوغا[١٢٩] ،ولا يتبعه[١٣٠]الإذن له كما يستفاد ذلك من النصوص .

قمن[١٣١] السبب الأول نقول ولا شك أن القاضين اللذين سينتدبان للمحكمة العليا يكونان حائزين لما تستلزمه هذه الوظيفة من الدراية بالأحكام الشرعية . وإذن يكون إنتداب القاضيين المذكورين موافقا لما تقتضيه القواعد

---

(١٢٧) بالقدر = بالقدرة ـ قراءة تصحيحية .
(١٢٨) إحدى = أحد من ـ قراءة ترجيحية .
(١٢٩) مسوغاً = شرعاً ـ قراءة ترجيحية .
(١٣٠) يتبعه = يسعه ـ قراءة ترجيحية .
(١٣١) قمن = فعن ـ قراءة تصحيحية .

الشرعية ، فضلا عن أن رعاية تحقق هذه الأوصاف من الأمور الإدارية التى تختص بالحكومة دون سواها .

أما السبب الثانى وهو الأهم ، فإنا مع إحترامنا التام لرأى هذين القاضيين ، والإجلال كل الإجلال لأفكارهما ، وتسلما[١٣٢] بأن ما أفتيا به موافق للنصوص الشرعية إذا كان ما إنبنى عليه هو الواقع . نرى أن عدم وقوفهما على أساس المشروع والإستيضاح من ناظر الحقانية عنه هو الذى ألجأهما للقول بأنه مخالف لنص الشريعة الغراء ،مع أنه لم يقترح فيه التطبيق على الشريعة[١٣٣] غير الشريعة الإسلامية ، ولم يغير شيئا من النظام الحالى الذى قررته الحضرة الفخيمة الخديوية بأمرها الصادر فى خامس عشرى ذى الحجة سنة أربع عشر وثلثمائة وألف ، الموافق سابع عشرى مايو سنة سبع وتسعين وثمنمائة وألف ، وقبله حضرة القاضى وسار عليه ، ولم يزل يعمل بمقتضاه إلى الآن .بل غاية ما أشتمل عليه هو إستبدال عضوين بغيرهما .فأى مخالفة للشريعة الإسلامية تكون من وراء هذا الإستبدال متى كان القاضيان المراد إنتدابهما محرزين للعالميه[١٣٤] التى جعلها المشار إليهما شرطا للتولية .ولكن ما أشار[١٣٥] إليه من عدم تمام وقوف حضراتهما على أساس المشروع دعاهما إلى الدخول فى موضوع مسألة دقيقة ، تتعلق بحقوق جلالة السلطان والجناب الخديوى فى تعيين(قاضى مصر) . الأمر الذى ألجأنا بحكم الضرورة وعلى غير إختيار إلى البحث فيه .

وإذا كان لا مندوحة لنا عن ذلك البحث فنقول قد فصلت كتب الشريعة الإسلامية التى منها حواشى العلامة(إبن عابدين) على (الدر المختار)

---

(١٣٢) وتسلما = وتسليماً ــ قراءة تصحيحية .
(١٣٣) الشريعة = شريعة ــ قراءة تصحيحية .
(١٣٤) العالمية هى الشهادة التى كان يعطاها خريج الجامع الأزهر فى ذلك الوقت ــ راجع تقويم سنة ١٩٣٣ ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٤٢ ــ ١٤٣ .
(١٣٥) أشار = أشير ــ قراءة تصحيحية .

(والفتاوى الهنديه وتعيين الحكام)(وكتاب الأحكام السلطانية) أنواع الولاية ، وبينت حدودها ،وإنقسام ولاية الأمراء إلى(عامة)تنتظم تولية القضاة ، (وخاصة) على خلاف ذلك .ولا شك أن الخديوية المصرية ولاية عامة يندرج فيها ولاية القضاء الشرعى بالقطر المصرى . فحينئذ تكون ولاية القضاة الشرعيين للجناب العالى الخديوى وحقا من حقوقه الشرعية .

على أن الحقيقة فى ذلك تنكشف بشرح القضاء الشرعى بالقطر المصرى . فإليكم بيان الحالة والواقع .

إن حكومة مصر كانت تتولى بمعرفتها تعيين القضاة فى عموم المديريات والمحافظات إلا فى القاهرة فقط ،فإنه كان يرسل لها سنويا من الآستانة العلية قاض بموجب فرمان شاهانى . واستمر الحال على هذا المنوال إلى تولية المغفور له إسماعيل باشا الخديوى الأسبق . ففى عهده إنقطع إرسال ذلك القاضى ، وشكلت لجنة من أكابر العلماء الأفاضل ،كان من بينهم العلامة المرحوم(محمد العباسى المهدى)مفتى الديار المصرية وشيخ الجامع الأزهر ، وانتخبت هذه اللجنة قاضيا لمصر .وقد أصدر المغفور له الخديوى الأسبق مباشرة وبدون أدنى تداخل الباب[١٣٦] العالى أمره الكريم بتعيينه ،وأذنه بالفصل فى الأحكام الشريعة[١٣٧] بما له من الولاية العامة . ووقع هذا التعيين على القاضى السالف المرحوم(الشخ عبد الرحمن نافذ أفندى) الذى مكث فى وظيفته أكثر من خمس عشرة سنة ، أصدر هو ومن كان معه من أعضاء المحكمة فى خلالها أحكاما شتى ، إعتبرت صحيحة فى نظر المرحوم الشيخ (محمد العباسى المهدى) مفتى الديار المصريه وشيخ الجامع الازهر ، وحضرات العلماء بدليل ما اشتملت عليه الفتاوى الهندية من التصديق على

(١٣٦) الباب = من الباب ــ قراءة تصحيحية .
(١٣٧) الشريعة = الشرعية ــ قراءة تصحيحية .

كثير منها ،وذلك لم يكن إلا لاعتبارهم إياها صادرة من أهلها فى محلها . فلو كان ذلك التعيين من قبل الجناب الخديوى محلا لأدنى ريب ، لما وسع حضرات من ذكروا إعتبار تلك الأحكام والتصديق عليها .

كل هذا والباب العالى يعلم ذلك ، ولم يصدر منه أدنى ملاحظة عليه ، فضلا عن إقراره على تلك التولية بما تضمنه فرمان ترقية المرحوم المشار اليه لدرجة(قضاء مكة) .حيث أرسل له ذلك الفرمان .ولم يصدر له أمر تولية(قضاء مكة) لعلمه باشتغاله بوظيفة قاضى مصر التى نالها من قبل الخديوية المصرية .

غيرأن هذه الأحكام بأسرها التى صدرت فى كل هذه المدة الطويلة رغما عن إعتبارها صحيحة وموافقة لأحكام الشرع الشريف بمعرفة جهابذة العلماء الأعلام ، تكون حتما لاغية ومخالفة للنصوص الشرعية لو سلمنا بأن الجناب الخديوى لا يملك حق تعيين قاضى مصر .

وبعد وفاة المرحوم(الشيخ عبد الرحمن نافذ أفندى) نحت الحكومة نحو إسماعيل باشا فى إنتخاب بدله بمعرفتها .ولذلك طلب المغفور له توفيق باشا إرسال نجل(عبد الرحمن أفندى)الذى كان يشغل وقتئذ وظيفة بالأستانة العلية .فأرسلت الصدارة العظمى تلغرافا للخديوى السابق إقتصرت فيه على الإخبار بأن(سماحة جمال الدين أفندى) عين لمأمورية أمر مصر الشرعية ، وأنه سافر لمصر بدون أن تذكر شيئا عن قضاء مدينة مصر ، أو عن وفاة(عبد الرحمن أفندى) .كأنها أوجدت مأمورية جديدة وعينت لها(سماحة جمال الدين أفندى) .فما كان من الخديوى السابق إلا أنه أصدر أمرا بأن الأفندى المشار اليه تعين قاضيا لمصر بدلا من(عبد الرحمن أفندى) مخالفا فى ذلك نص التلغراف الوارد إليه .

قال . وهذه هى حادثة تعيين سماحته التاريخية .ولكن ما هو سند ولايته لقضاء مصر؟

لايجـوز أن يقـال أنه إخطار الصـدارة العظمى المـشـار إليـه ، لأن مـا يضمنه[١٣٨] يدل على أن اللفظ صدر[١٣٩] له ليس من الألفاظ الصريحة لتولى القضاء شرعا ، بل هو لفظ مبهم كتابه[١٤٠] ،خالية من القرينة ، فلا يفيد تعينا[١٤١] ، ولا تملك به ولاية .

وذلك أن الفاظ التعيين على ما نطقت به عامة كتب الفقه الشرعية التى منها ماسبقت تسمية[١٤٢] تقسيم[١٤٣] إلى(صريح) لا يحتاج إلى قرينة ، ومنه (وليتك القضاء) ، (عينتك قاضيا) ونحوهما . والى(كتابة)[١٤٤] ومنها ،(عهدت اليك) ونحوه ــ تحتاج إلى قرينة تعين المراد منها .

ومع كونه كتابة[١٤٥] ، قد أحتفت[١٤٦] به قرائن تصرفه عن إرادة تعيين ولايته القضائية ، نوردها لمزيد الإيضاح وهى .

أولا ــ سابقة تعيين المغفور له الخديوى الأسبق للشيخ(عبد الرحمن نافذ أفندى) بما له من الولاية الشرعية العامة ، واستمرار القاضى المذكور متولى الأحكام ، نافذها من غير تكسير ، ثم طلب نجله بعد وفاته بمعرفة المغفور له الخديوى السابق ، بقصد تعيينه بدلا من أبيه .

(١٣٨) يضمنه = يتضمنه ــ قراءة تصحيحية .
(١٣٩) صدر = الذى صدر ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٤٠) كتابة = كناية ــ قراءة ترجيحية .
(١٤١) تعينا = تعيينا ــ قراءة تصحيحية .
(١٤٢) تسمية = تسميته ــ قراءة ترجيحية .
(١٤٣) تقسيم = تنقسم ــ قراءة ترجيحية .
(١٤٤) كتابة = كناية ــ قراءة ترجيحية .
(١٤٥) كتابة = كناية ــ قراءة ترجيحية .
(١٤٦) قد احتفت = فقد حفت ــ عدلت الجملة ليستقيم المعنى .

ثانيا ــ نطن[١٤٧] الفرامانات الشهانية ، وبالأخص منها فرمان الجناب الخديوى الذى وضحت به هذه الولاية تمام الوضوح حيث إشتمل عليها ما نصه :

(وأن الخديوية المصرية ملزومة بإدارة أمور المملكة المالكة[١٤٨] والمالية والعدلية بشمول ولاية الخديويه للقضاء فضلا عن صراحة الفرامانات المشار إليها بتخويل الخديوية حتى[١٤٩] سن اللوائح والقوانين ــ إلخ) .

ثالثاً ــ عدول (الآستانة العلية) عن تقاليدها القديمة التى بموجبها كانت تصدر الفرامانات الشاهانية المتعلقة باعتماد قناصل الدول بمصر باسم الخديوى وقاضى مصر ، من سنة ثمان وثلثمائة[١٥٠] هجرية ، وهى السنة التى عين فيها سماحة جمال الدين أفندى بصفتة مأمورا كنص التلغراف .

رابعا ــ عدم صدور فرمان شاهانى بتولية القضاء على خلاف العادة التى كانت قبل تعيين عبد الرحمن أفندى من المغفور له إسماعيل باشا .

خامسا ـ نص المادة الرابعة من لائحة المحاكم الشرعية الصادرة فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وألف ،ألتى جرى تحضيرها بمعرفة المرحوم العلامة (الشيخ محمد العباسى) شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية ، وحضرة (عبد الرحمن أفندى نافذ) قاضى محكمة مصر وقت ذاك .حيث جعلت هذه المادة إنتخاب وتعيين قاضى العاصمة المحروسة منوطا بذات الحضرة الخديوية .

سادسا ــ قبول حضرة القاضى لتصرف الحكومة فى وظيفة القضاء الشرعى بالتخصيص والتعميم والتقييد والإطلاق .وقبوء[١٥١] عادة النظر فى الأحكام بما تضمنته لائحة سنه سبع وتسعين وثمنمائة وألف . إذ هذا التصرف لايصح العمل به إلا إذا كان صدوره ممن له تعيين القضاة فى مصر .

(١٤٧) صحتها نطق .
(١٤٨) المالكه = ألملكية ــ قراءة إجتهادية .
(١٤٩) حتى = حق .
(١٥٠) سنة ثمان وثلثمائة = سنة ثمان وثلثمائة وألف ــ تقابل عام ١٨٩٠م .
(١٥١) وقبوء عادة = وقبول إعادة .

سابعا ــ قبول سماحته مشاركة قضاة لم يستمدوا تعيينهم إلا من الجناب الخديوى فى سلطاته القضائية ، وفى الفصل فى الدعاوى بمقتضى نصوص لائحة ترتيب المحاكم الشرعية التى جاء بالمادة السادسة منها ما نصه :تتألف محكمة مصر من قاضى مصر ،وخمسة أعضاء ، وتصدر الأحكام من ثلاثة منهم .والمادة الثامنة منها المعدلة بالأمر العالى الصادر فى رابع عشرى رمضان سنة خمس عشرة وثلثمائة وألف ، الموافق خامس فبراير سنة ثمان وتسعين وثمنمائة وألف ، مانصه : تشكل بمحكمة مصر الشرعية محكمة عليا مؤلفة من خمسة وهم قاضى مصر بصفته رئيس ، ومفتى نظارة الحقانية ، وثلاثة أعضاء . وبالمادة سبعة وأربعين منها ما نصه : الأحكام التى تصدر يلزم أن تكون مشتملة على الوجه الشرعى الذى بنى عليه الحكم ، وصدورها من المجالس الشرعية يكون باتحاد الآراء أو بالأغلبية .إذ قد يجوز بمقتضى هذا النص الذى قد قبله سماحة القاضى وسار عليه أن يكون سماحته فى الفريق الذى لم تكن الأغلبية فى جانبه ، ومع ذلك يصدر الحكم بالأغلبية ، ولا يعوق إنفاذه مخالفته لرأى سماحته . وقول(١٥٢) سماحته لتلك المشاركة عملا بهذه اللائحة لاينطبق على القول بأن ولاية قضائه مصدرها الخليفة الأعظم .

ثامنًا ــ ما اشتملت عليه الفتاوى المهدية من أن لخديوى مصر ولاية التصرف فى القضاء على ما تضمنته أجوبته فى الحوادث التى تتعلق بنحو هذا الموضوع .

تاسعًا ــ إعتراف المرحوم عبد الحرمن(١٥٣) نافذ أفندى بمثل ذلك على ما تضمنته تلك الفتاوى ـ راجع فتاوى الشيخ المهدى جزء سادس صحيفة ٥٩٦ .

---

(١٥٢) قول = قبول ــ قراءة ترجيحية .

(١٥٣) الحرمن = الرحمن ــ قراءة تصحيحية .

قال إتضح بهذا عدم جواز أن يكون سند تعيين سماحته لقضاء مصر تلك الإشارة التلغرافيه التى تصلح لوظيفة لا وجود لها فى السابق كما قدمنا ، وتعين إذن أن يكون سند ولاية سماحة القاضى فى وظيفة قضاء مصر التى عين فيها ،واستمر على تأديتها للآن قاصرا على الأمر الكريم الصادر من الخديوية المصرية فى أول ابريل سنة سبع وتسعين وثمنمائة وألف ، السابق الإشارة إليه عن ولاية عامة مقتضاها تعيين عموم القضاة الشرعيين فى سائر ولايات القطر المصرى ، وهم لايقلون عن قاضى مصر فى السلطنة[١٥٤] والإختصاص ، وبمقتضاهما[١٥٥]أيضا سنت لوائح للمحاكم الشرعية ، وتعينت هيئة لمحكمة مصر للفصل فى القضايا بالإتحاد مع قاضيها ، بإقرار ورضى[١٥٦]حضرات العلماء وبدون أن تبدو منهم أى معارضة .

قال ـ كل هذا براهين تدل الدلالة الصريحة على أن كلا السببين اللذين انبنى عليهما رفض المشروع لايصح التمسك بهما فى رفضه . فضلا عن معارضة أساس الرفض لما جرى عليه القضاء الشرعى فى الأقطار المصرية من نحو نصف قرن . وأما إذن سماحة القاضى لمن يقتضى مشروع الحكومة إنتدابهما للمحكمة العليا .فحيث يكون إستمداد ولايتهما الشرعية من الجناب الخديوى الذى هو مصدر ولاية كل قاضى ، فذلك الإذن يكون بالطبع لامحل له .

على أن المشروع الذى نحن بصدده لم يحدث تغييرا فى نظام الأحكام الشرعية الذى تقرر بلائحة سنة سبع وتسعين ، وبمقتضاها صار سماحة قاضى مصر رئيسا للمحكمة العليا التى تفصل فى الأحكام المطعون فيها ، وخولته بذلك حقا زاد فى سلطته واختصاصة القضائى . حيث كان العمل قبل هذا النظام جاريا على عرض الأحكام التى تصدر منه ويطعن فيها ،على جمعية

---

(١٥٤) السلطنه = السلطة ـ قراءة ترجيحية .
(١٥٥) وبمقتضاهما = وبمقتضاها ـ قراءة ترجيحية .
(١٥٦) ورضى = ورضاء .

تشكلها نظارة الحقانية وتتولى إنتخاب أعضائها الذين منهم شيخ الجامع الأزهر ومفتى الديار المصرية .(راجع المادة الثالثة من لائحة المحاكم الشرعية الصادرة فى سنة ثمانين وثمانمائة وألف) قال . ولهذا فأملنا وطيد بعد هذا البيان ، واراد[١٥٧] الأدلة التى استنارت بها الحقيقة ، وبعد علنا[١٥٨] بأن حضرات القاضيين من خيرة من يتمسك بالحقائق ، ويقتدى بها فى تقريرها ، أنهما يوافقاننا فيما أنتجته تلك الأدلة . أ .هـ .

ثم قام مستشار وزارة الحقانية وتلا أيضا خطابا بالإفرنسية هذا ترجمته (قد سمعتم حضراتكم ما أورده صاحب السعادة ناظر الحقانية من الأنسانية[١٥٩] البالغة على المسألة الشرعية التى نحن بصددها ،فلا أقصد الآن من وقوفى بين أيدى حضراتكم أن ألخصها إليكم أو أن أزيد عليها شيئا من عندياتى ، وإنما أريد فقط أن أستوفى هذا الموضوع بإبداء ملحوظات عندى فأقول : لايسعنى إلا أن أؤكد لحضراتكم قبل كل شئ أن نظارة الحقانية لو كان قد خطر ببالها أن المشروع المعروض عليكم يخالف قواعد الشرع فى شئ ما ، أو أن فيه مساس بحقوق جلالة السلطان الشرعية لما كنا قد قدمناه ، بل إنا لما دققنا البحث فى المسألة ، وأطلنا فيها التمعن والتروى ، تبينا أن لا مساس له أصلا بالقواعد والحقوق المشار إليها . هذا وإن ما يرفع إلى نظارة الحقانية فى كل وقت من الشكاوى ذات البال من سير الأعمال فى هذه المحاكم ، يحتم علينا إدخال هذا الإصلاح ألذى أكرر القول عنه بأن ليس فيه أقل شائبة إعتداء ، وإننا جميعا مع مزيد احترامنا لما يقول به فى مسألة كهذه مثل هذين الحجين الجليلين صاحبى السماحة والفضيلة(الشيخ جمال الدين افندى) ،(والشيخ حسونة النواوى) ،لا يسعنا أن نعد فتواهما القول البات فى مسألة قد بلغ

---

(١٥٧) وأراد = وإيراد .

(١٥٨) علنا = علمنا .

(١٥٩) الإنسانية = الأسانيد ـ قراءة ترجيحية .

الخلاف فيها هذا المبلغ .إذ نرى غيرهما من كبار أئمة المسلمين يخالفونهما فى تلك المسألة ،ويرون فيها رأيا آخر يعزونه تقدير ما يعزران[١٦٠] رأيهما .ولو أنا نهجنا غير هذا الطريق لكنا على ما نعتقد مقصرين فيما علينا من الواجبات للأمة المصرية ، لأن ذلك يكون قبولا ضمنيا ورضاءا بطريقة من شأنها أن تسد علينا كل باب للإصلاح .

تلك أيها السادة هى الأسباب التى جعلتنا نرى من الواجب علينا أن نعيد إلى حضراتكم المشروع . وحتمت علينا أن نرجع اليوم إلى طلبنا الأول رغما عما قررتموه فيه من قبل .ونحن على يقين أيها السادة أنكم ما تأخرتم عن المصادقة عليه إلا لأن الإيضاحات التى كانت ضرورية للوقوف على حقائق المسألة لم تكن تقدمت إلى حضراتكم .فالآن وقد أصبح لكم الأمر ، بالبيانات التى وافاكم بها سعادة ناظر الحقانية ، فلنا وطيد الأمل أن نرى حضراتكم تشاركون الأمة فيما تطلبه وتتمناه من إصلاح هذه المحاكم ، وتصادقون على مشروع نعتقد ذمة ، وبالقلب ، أنه فيه نفعا كبيرا للمتقاضيين ، وخيرا للأمة الإسلامية عموما) أ .هـ .

فلما أتم المستشار مقالته قام بطرس باشا غالى وزير الحقانية ، وصاحب السياسة المصرية ، وشرح تاريخ القضاء الشرعى فى ديار مصر وما عنته الحكومة من ترتيبه وتنظيمه ،وذكر العلل والأسباب التى دعت ذلك .ثم قال ولا أخالك[١٦١] أيها السادة تجهلون ذلك ، ولا كيف كاء[١٦٢] القضاة يتعينون من دار السلطنة إلى عهد المغفور له إسماعيل باشا .ثم تولى هذا التعيين المغفور له المشار إليه ،وأصبح من حقوق الخديوية دون سواها .وبناء على هذا لما طلب المرحوم الخديوى السابق تعيين نجل المرحوم(عبد الرحمن أفندى نافذ)قاضيا

---

(١٦٠) يعزران = يعزان ــ قراءة ترجيحية .

(١٦١) أخالك = أخالكم ــ قراءة تصحيحية .

(١٦٢) كاء = كان .

للديار المصرية ورد إليه الرد بأن الرجل فى منصب لا يستغنى عنه ،وأنه قد عين سماحة(جمال الدين أفندى) مأمورا للأحوال الشرعية فى مصر .وعند ذلك أخرج الوزير من حقيبته صورة الرسالة البرقية التركية الواردة فى معنى ذلك وتلى ما فيها بالتركية ،ثم جعل يتلوها بالعربية ، فهاجت أعصاب الشيخ (جمال الدين) وجعل يقاطع الوزير فى كلامه كلما إشتدت حجته وبان ضعف سند الشيخ ، والوزير لا يلتفت اليه بل كان هادىء القلب باش الوجه طلق المحيا ، يذكر الأسباب والعلل على التعاقب . فضاق صدر الشيخ ، وجعل يعارض فى تعريب الرسالة ويخطِّئ معناها .فرد عليه الوزير ردا كله دليل وبرهان . فاشتد غضب الشيخ وصاح(لا حول ولا قوة ،إنكم إذن تجردوننى حتى من معرفة التركية ، ما هذا ياقوم) .فأعرض الوزير عنه وسار فى كلامه .فقال واعلموا وفقكم الله أن القضاء الأهلى والقضاء المختلط فى هذه الديار تابعان لأمير البلاد كما هو ثابت ومقرر .أفلا يكون من العجب أن لا يكون القضاء الشرعى كذلك؟ وكيف لا يكون أمير البلاد صاحب سلطة القضاء الشرعى ،وقد قيد بأوامره وما رسم به من اللوائح الكثيرة حرية ذلك القضاء وضيق دائرة اختصاصه . وليس ذلك فقط ، بل ورتب أحواله النظامية وأموره الداخلية وأعماله وسجلاته على نمط جديد وأسلوب مفيد ، وكلكم يعرف ذلك ولا ينكره ـ أجل .إذا إختلف أعضاء المحكمة الكبرى فى حكمهم أفلا يكون الحكم بالأغلبية اليوم؟ ولو لم يكن فيه سماحة القاضى . فهل هو يأذن بالحكم على غير ما يراه صوابا؟ أم هذا يفيد أن الإذن لغيره ، أى لأمير البلاد !!وظل الوزير يردف الحجة بالحجة ، والبرهان بالبرهان . والشيخ جمال الدين يقاطعه ،وقد أخذته الحدة ، فلم يتمالك نفسه ، ولم يضبط دفاعه ليكون مقبولا مسموعا . فلما أتم الوزير كلامه إقترح (محمود بك أبو حسين) أحد الأعضاء أن ينتدب المجلس لجنة من أكابر أئمة الشرع ليبحثوا فى المشروع ويبدوا رأيهم فيه . فأجاب الوزير ذلك لا يجوز قطعا ، وأنه يتعين على المجلس أن يبدى رأيه الخاص . فقال أحدهم ،ولكن سبق أن

الحكومة أفتت بمثل هذا . فاجاب (كان ذلك خطأ ضد التشريع ، فلا يصح الرجوع إلى الخطأ) . ثم جلس الوزير ، فتكلم بعده الرئيس مصطفى فهمى باشا قائلا .إن وزيرى الحقانية والأمور الخارجية قد قالا كلما(١٦٣) يقال فى المشروع من وجهيه الشرعى والسياسى ، ولا أزيد على ذلك سوى أن المحاكم الشرعية كثيرة الاختلال محانجة(١٦٤) إلى الإصلاح ، ثم سكت .

فتكلم شيخ الجامع الأزهر وقال إنى بصفتى عضوا فى مجلس شورى القوانين ومفتيا للديار المصرية قد أفتيت ،وأفتى وأصرح بأن هذا المشروع مخالف للشرع الشريف ، ولا يجوز العمل به . وإن انتداب قاضيين من الإستئناف الأهلى يحكمان بمقتضى القوانين الوضعية التى تخالف الشرع أحيانا من حيث أنها تجيز الربى(١٦٥) ومحظورات أخرى مثله ،لا يسوغ أن يتوليا القضاء الشرعى . ففزع القاضى وقال(وأنا أوافق على ذلك) ، فاعترضه وزير الحقانية قائلا (إنى استفتيت بعض العلماء ، فأفتوا بجواز ذلك) ، فامتعض الشيخ حسونه فأجابه(١٦٦) حانقا .(من هم العلماء الذين أفتوا بهذا ، وأى عالم له صفة أنه يدخل فى باب كهذا ،إنى أنا الذى عينت مفتيا للديار المصرية ، ومرجع الإفتاء إلى ، وهو حقى والذى أفتى به لا ينقضه أحد ، ويجب العمل به) . ثم جعل يتلو كثيرا من الآيات القرآنية ، وأخر ما قرأه .(لا إكراه فى الدين ،قد تبين الرشد من الغى ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) ثم انتفخت أدراجه(١٦٧) ، وظهرت عليه الحدة وأخذته رجفة ، وقام غاضبا يزيد(١٦٨) ويوقل(١٦٩) (وإنى عملا بأمر الدين أرفض هذا المشروع

(١٦٣) كلما = كل ما .
(١٦٤) محانجه = محتاجه ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٥) الربى = الربا ـ قراءة تصحيحية .
(١٦٦) فأجابه = وأجابه ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٧) أدراجه = أوداجه ـ قراءة تصحيحية .
(١٦٨) يزيد = يزبد ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٩) ويوقل = ويقول ـ قراءة تصحيحية .

رفضا باتا) فتبعه القاضى (جمال الدين) . فأشار رئيس المجلس إلى بعض الأعضاء بإرجاعهما . فتبعهما جماعة من الأعضاء وبالغوا فى استرضائهما ، (والشيخ حسونة) يرعد ويزيد[١٧٠] ويقسم الأيمان المغلظة كمن أصابه مس من الشر ، وما زالوا بهما حتى أعادوهما . وأعقبت هذه الحركة سكون تام كأن على رؤوس الحاضرين الطير من هيبة المقام ، ثم تكلم الوزير بطرس باشا فقال(لو أصلحنا المشروع بما يجعل تعيين عالمين آخرين غير المستشارين فى محكمة الإستئناف الأهلى ، فهل من ذلك مانع)؟ فقال القاضى (جمال الدين) لا . فقال الوزير وهل يجب لهما إذن القاضى فقال (الشيخ حسونة) يجب أن يكونا عالمين حاملين شهادة الأزهر الشريف ، متوفرة فيهما شروط اللياقة والإختبار والتخرج ، وأن يأذنهما سماحة القاضى . فعند ذلك ساد السكوت ثانية . وقام الرئيس فتبعه جماعة الوزراء وهم على أشد ما يكون من الغيظ والنكد .وبعد خروجهم من قاعدة[١٧١] المجلس طلب رئيس المجلس رأى الأعضاء فى المشروع . فامتنع العضوان المسيحيان عن إبداء رأيهمافى أمر لا شأن لهما فيه ،أما بقية الأعضاء فأقروا بالإجماع على رفضه سوى (شواربى باشا) (وإبراهيم باشا) قالوا بوجوب وضع مشروع آخر لإصلاح المحاكم دفعا لشكوى الناس من أعمالها التى لا حد لها ، ولا راحة للناس بدون إصلاح .

فلما كان يوم السبت أعاد مجلس الشورى أوراق هذا المشروع إلى مجلس الوزرء مشفوعا بقرار عدم الموافقة عليه .فانقسم أصحاب الصحف فى أمر ذلك إلى قسمين ،قسم كان يصوب رأى القاضى(جمال الديم)[١٧٢] (والشيخ حسونة النواوى) ،ويقول أن طلب الحكومة قلب هيئة القضاء الشرعى فيه حيف وافتيات لا ترضاهما الشريعة المحمدية ،ولا برهان عنده غير وجوب عدم الحياد

(١٧٠) ويزيد = ويزبد ـ قراءة ترجيحية .
(١٧١) قاعدة = قاعة ـ قراءة تصحيحية .
(١٧٢) الديم = الدين ـ قراءة تصحيحية .

عن العادات والتقاليد المعمول بها من زمان من الوجهتين الشرعية والسياسية ، وقسم يرى أن يصوب رأى المفكرين من أصحاب الحل والعقد الذين لم يتتبعوا لرأى أو نحلة فى هذا الأمر ، سوى رفع ظلامة المتقاضين من خلق الله أمام تلك المحاكم الشرعية ،التى أعياهم أمرها .فلم يقوا[١٧٣]معها على تعديل فى أحكامها الناطقة بها أو تجريح[١٧٤] ،وجعلوا يحضون جماعة الوزراء على تمحيص الأسباب والعلل حسب طبائع الإجتماع البشرى الذى هو العمران ، ويميزوا ما هو لاحق للناس من الضرر ، ويسنوا لهم السنن ، ويقننوا القوانين العصرية المناسبة لروح ذلك العمران . وعندى أنه وإن كان الكلام فى هذا الغرض غريب النزعة كثير العوارض عندالقاضى قال[١٧٥] ، وفيه مساس بحقوق الخلافة ومذونية[١٧٦] القضاء الشرعى فى هذه الديار . لا جرم أن ما هو صائر فى زوايا المحاكم لهذا العهد بعيد عن الإتصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من التجريح . حتى لقد بات عسير على أهل الحل والعقد تصفح أحوال أولئك القوم المتصرفين فيها ، والكشف عن سيرهم لاشتباه الأحوال على كل من يتولى القضاء من باب المشيخة الإسلامية واستبداده بالأمر ، ووقفوه[١٧٧] فى وجه الإصلاح حجر عثرة ،لا يلوى على أحد من الحاكمين .كان إذا هم أهل الحل والعقد بإزالة تلك العقبات ،أو أقاموا التعذير والتأديب فى حق من لم ينته عن إيذاء الناس ،وتعطيل مصالح الخلق من رجال تلك المحاكم ، الآخذين بالعادات القديمة المخالفة لروح الإجتماع الشرعى لهذا العهد ،فزع القاضى إلى التهديد والوعيد ،ورمى أصحاب هذا الرأى بالمروق عن سبل الشريعة ،والعبث بسنن صاحبها وصاح بملء فيه(إنكم إنما تنازعون الخليفة

(١٧٣) يقوا = يقووا ـ قراءة ترجيحية .

(١٧٤) تجريح = تجريحها ـ قراءة ترجيحية .

(١٧٥) لا أرى معنى لوضع الكلمة هنا ويبدو أن شاروبيم قد وضعها خطأ .

(١٧٦) ومزونية = ومأذونية ـ قراءة ترجيحية .

(١٧٧) ووقفوه = ووقوفه ـ قراءة ترجيحية .

فى حقه ،وتعاكسون متولى القضاء فى مأزونيته[١٧٨]) ، وقام حول ضجيجه نفر من أصحاب الصحف الإسلامية المتطرفة يصوبون قوله ، ويعظمون شأنه ، ويخلطون الشريعة بالسياسة ، بشئ من الهتر والهراء .وينسون أو هم جميعا يناسون[١٧٩] أن حكم الملك والسلطان والقاضى وكل ذى منصب ، إنما يجرى على ما تقتضيه طبيعة العمران .وأن القاضى لا يمنعه قضاء قضاه أمس فراجع اليوم فيه عقله ، ومد[١٨٠] فيه لرشده أن يرجع إلى ما تقتضيه طبيعة الإجتماع البشرى . وأنه لاتثريب عليه فى أخذه بالامسال[١٨١] والأشباه ، وفى قياس الأمور بنظائرها ، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمن ولاه القضاء فى خلافته . ولا أن يتمسك بالقديم من العادات ما[١٨٢] ليس فى كتاب ولا سنة ، ويحيد عن لوزام الحال بالمماحكة المغضبة[١٨٣] إلى المخاصمة والمجافاة .لأن أحوال العالم والأمم ، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ، ومنهاج مستقر ، إنما هو إختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال .. والسبب الشائع فى تبدل الأحوال والعوائد كما يقول جماعة الكتاب ، أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال فى الأمثال الحكمية .الناس على ديم[١٨٤] ملوكهم ، وأهل الملك والسلطان ملزمين بطبيعة العمران وإختلاط البشر وامتزاج بعضهم ببعض ، بالنزوع من حين إلى حين إلى سن السنن ، وتقنين القوانين المطابقة لروح هذا الإختلاط وضمها إلى ما يلايمها من عوائد جيلهم ،التى لا يصح إغفالها .وهذا حال مصر ومكانها اليوم . قام أصحاب الكلمة فيها فمزجوا من عوائدها القديمة ، بعض الشئ مع عوائد ذلك الخليط

(١٧٨) مأزونيته = مأذونيته .
(١٧٩) يناسون = يتناسون ــ قراءة تصحيحية .
(١٨٠) ومد = وثاب ــ قراءة إجتهادية .
(١٨١) بالامسال = بالأمثال .
(١٨٢) ما = مما ــ قراءة تصحيحية .
(١٨٣) المغضبة = المفضية ــ قراءة ترجيحية .
(١٨٤) ديم = دين ــ قراءة تصحيحية .

ومحصوه ، فبان لهم وافيا بالقصد ، مطابقا لروح هذا العصر .فهبوا إلى إخراجه إلى عالم الفعل .فقام فيِ وجوههم القاضى والمفتى ، وصداهم عنه بشئ من الجفاء والغلظة التى إخرجتهما مع الذهول والغفلة عن القصد كما مربك بيانه . أقول ، وإنى أستغفر الله من التعدى لما لست له بأهل ،ولكن الحق قديم . ومثال الكاتب مع القراء كالطباخ مع الأكلة ،له العناء ولهم الهناء وله الحار ولهم القاد .

قالوا وخرج المستشار القضائى مع جماعة الوزراء ، وهو واجد عليهم ، مغلظ لهم القول ، ولا سيما منهم الرئيس مصطفى فهمى باشا .فقد أشبعه عتبا ولوما ، ووقع على ما كان يحب أن يتفاداه .وكثر إرجاف أصحاب الصحف الإسلامية المتطرفة بأن قضاة الإستئناف الأهلى لا يقبلون إنتدابهم إلى الجلوس فى هيئة المحاكم الشرعية . لأن قبولهم بذلك يعد مخالفا للدين بحكم فتوى المفتى والقاضى(جمال الدين) .وظلوا على هذا أياما كثيرة ، حتى أقلقوا الخاصة والعامة ، وكره الناس نعيهم المتتابع . وجعل لورد كرومر الغدو[١٨٥] والرواح بين قصر الإمارة وديوان الوزارة ، وهو تارة مع الأمير ، وأخرى مع الوزير ، وحرب الكلام بينهم سجالا .فلما كان سادس المحرم إفتتاح سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ،إجتمع سائر الوزراء بالأمير فى قصر مصيفه بالإسكندرية . فتكلموا طويلا فى المشروع ،وطال بينهم الأخذ والرد حينا . ثم اتفقوا على تنفيذه برمته ، غير ناظرين إلى فتوى المفتى ، ولا غضب القاضى (جمال الدين) . وشاع خبر ذلك ،وطيره البرق إلى القاهرة وغيرها .فلما تأدى الخبر إلى المفتى والقاضى ، كادا يتجزا[١٨٦] غيظا ، وسافرا من القاهرة إلى الإسكندرية ، وقابلا الأمير وكلماه طويلا ،وأصبحوا وقد تفشى القول بعزم القاضى (جمال الدين) على ترك منصبه ،وأنه رفع الأمر[١٨٧]ذلك إلى باب

---

(١٨٥) الغدو = يكثر الغدو ــ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١٨٦) يتجزا = يتميزا ــ قراءة ترجيحية .

(١٨٧) الأمر = أمر ــ قراءة تصحيحية .

المشيخة بدار السلطنة العثمانية ،وأن مقام الإفتاء بـ‍ء(١٨٨)على جرف السقوط ، وتكلم الناس فى ذلك كثيرا . وعاد الوزراء إلى القاهرة فائزين ، وعاد كذلك المفتى والقاضى(جمال الدين) وهما ساخطان حانقان ، وقد برز الأمر بتنفيذ المشروع والعمل به عند إتخاذ الأهبة لذلك .وما هى إلا عشية أو ضحاها حتى أبلغ وزير الحقانية الأمر إلى القاضى .قيل فامتنع من قبوله جملة . وجاء الخبر بذلك إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا ،فاجتمع بجماعة الوزراء قرروا فيما بينهم ، خلع القاضى إذا إمتنع عن العمل بموجب الأمر . وطيروا الخبر ذلك(١٨٩) إرهابا وتهديدا .قالوا فصمم القاضى على الإمتناع ، وجعل يقول إلى المقربين من مجلسه إنى قد(١٩٠) ألجأتنى الهيئة الحاكمة إلى ترك مجلسى بدار المحكمة ،جعلت دارى محكمة ، ونظرت فى دعاوى الناس بما لى من حق الفصل فيها بإذن الخليفة أميرالمؤمنين ، إلى أن يأتينى الإعفاء من حيث أتانى التعيين . قالوا وكتب كتابا بذلك وأرسله إلى وزير الحقانية ، فلم يلتفت إليه . وجاء إلى القاضى جماعة من العلماء ينصحون إليه أن يعدل عن تصحيحه(١٩١) ، ويقلع عن مشاغبته التى ربما أغلق أبواب المحاكم الشرعية كلها فى يوم واحد ،فلم يعدل عن حزمه ، وصمم على الإمتناع . ثم أرسل إلى قصر الإمارة وديوان الرئيس كتابا فى معنى ذلك ، وبأنه لا يستطيع مخالفة الشريعة المحمدية بقبول أمر الأمير والعمل به .فجمع الرئيس جماعة الوزراء وعقدوا مجلسهم وتكلموا فى عزله من منصب القضاء ، فاتفقوا على ذلك وعرضوا منصب القضاء على الشيخ (عبد الرحمن النواوى) المفتى بوزارة الحقانية ، فأباه لاعتباره أنه مخالف للشرع .واتفقت الكلمة على إقامة الشيخ(أبو خطوة)مفتى الأوقاف فى منصب القضاء .وسافر(محمد زكى بك)كاتب سر

(١٨٨) بـ‍ء = بات ـ قراءة إجتهادية .
(١٨٩) ذلك = بذلك ـ قراءة ترجيحية .
(١٩٠) قد = وقد ـ قراءة ترجيحية .
(١٩١) تصحيحه = تصميمه ـ قراءة ترجيحية .

مجلس الوزراء الثانى إلي الإسكندرية ليرفع إلى ديوان الأمير الأمر بتعيين (عفيفى أحمد عفيفى بك) (ويوسف شوقى بك) المستشارين بمحكمة الإستئناف الأهلية عضوين بالمحكمة الشرعية ، قبل أن يتم تنصيب القاضى الجديد بدل القاضى (جمال الدين) . فأشار الأمير بالتأنى وعدم العجلة حتى يتولى منصب القضاء ممن(١٩٢) يتولاه . فكان من وراء إشادة(١٩٣) الأمير أن عاد بعض أصحاب الوجاهة إلى مكالمة القاضى وإرجاعه عن عزمه بقبول مستشارى الإستئناف معه فلم يفلحوا .حتى شاع القول بعزمة(١٩٤) أصحاب السلطة على نفى القاضى وتبعيده عن مصر . وقد علم المابين الهمايونى ، وباب مشيخة الإسلام بما أصبح فيه منصب القضاء الشرعى بمصر من الخطر . وثبت أن القاضى جعل يستصرخ الباب العالى أياما ، فلم يلب ندائه ، ولم يرد إلى ديوان الإمارة شيئا فى معنى ذلك البتة . فأكبر الناس إغضاء الباب وأعظموه . واجتمع جماعة من الروم(١٩٥) وآخرون من المسلمين الوطنيين ، ومعهم جماعة من علماء الأزهر وتناجوا فى ذلك طويلا ، ثم أرسلوا على جناح البرق إلتماسا إلى المابين يسألونه الأخذ بناصر القاضى جمال الدين ،ومنع هذا الحيف الضار بحقوق الخلافة المودى بكرامتها فى أعين المصريين . وشاع خبر ذلك وتناقله الناس ، فأكبره لورد كرومر وأعظمه ،وسير إلى الرئيس يقول (أن عجل بخلع القاضى جمال الدين وتولية بدله من علماء المصريين ،إذ لا يمكن الصبر على هذا العناد الكبير) .فجمع الرئيس من ساعته جماعة الوزراء وتناجوا فى الأمر طويلا ، ثم حرروا محضرا بولاية الشيخ(عبد الرحمن النواوى) ، وسيروا به إلى الامير .فأرسل يطلب الرئيس والوزراء إلى الإسكندرية ، فسافروا على عجل ،

(١٩٢) ممن = من ــ قراءة ترجيحية .
(١٩٣) إشادة = إشارة ــ قراءة ترجيحية .
(١٩٤) بعزمة = بعزم ــ قراءة ترجيحية .
(١٩٥) يقصد الأتراك ــ فالروم إسم أطلق على الأتراك منذ زمن ليس بقريب ــ راجع ردهاوس Redhouse ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٩٩٤ .

فكلمهم فى الأمر ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل .فباتوا وأصبحوا وقد اجتـمع جـمـاعـة من العلمـاء ومـشـايخ التـدريس بالجـامع الأزهر فى بيت الشيخ(عـبـد القـادر الرافعى)شـيخ رواق الشـوام[١٩٦] ، وتكلموا فى ما هو صـائر ساعة .ثم أرسلوا إلى ديوان الأمير ملتمسا يقولون فيه (عماء[١٩٧] الإسلام بمصر يرفعون لمقام مولاهم الخديوى العزيز أنهم يلجأون إليه لاتقاء ما يمس الشرع الشريف من مشروع القضاء الشرعى المخالف للشرع القديم ، إذ لو تم لكان على الرعية بلية عظمى فى دينهم ، لبطلان القضاء الشرعى حينئذ .فنتضرع إلى الله تعـالى ونطلب من جنابكم العـالى أن تحـافظوا على صـيـانة القـضـاء الشـرعى وحفظ ناموسه وعدم مسه بسوء . وأملنا وجميع الرعايا المسلمين وطيد فى أن سموكم يؤيد أركان الدين ونبتهل إلي الله سبحانه وتعالى أن يفوقكم[١٩٨] لتأييد دينه القويم) أ . هـ وأرسل الغازى مختار باشا مندوب الباب العالى كتابا إلى قصر الإمارة فيه[١٩٩] (أن قد جاءنى الأمر من جانب المابين الهمايونى بأن أبلغ

---

(١٩٦) (الروق) و(الرواق) سقف فى مقدم البيت ـ وهو الخيمة (يقال ضرب فلان روقه بموضع كذا إذا نزل وضرب خيمته . والرواق أيضاً (ستر) يمد دون السقف .

فى سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨م) أشار الوزير يعقوب بن كلس على الخليفة العزيز بتحويل الأزهر إلى جامعة تدرس فيها العلوم الدينية وفق المذهب الشيعى إلى جانب العلوم العقلية . وبالفعل فان العزيز بنى بجوار الجامع دارا لجماعة من الفقهاء عددهم ٣٥ كانوا يجتمعون عقب صلاة الجمعة لقراءة القرآن حتى صلاة العصر . وسعي خلفاء الدولة الفاطمية إلى إجتذاب طلاب العلم من كافة الإنحاء موفرين لهم المأكل والمشرب والمسكن ومصاريف الحياة . وفى عصر سلاطين المماليك كان الجامع قد تحول إلى جامعة إسلامية كبرى تضم طلاب علم (مجاورين) وافدين من مختلف أنحاء العالم الإسلامى الأمر الذى استلزم تخصيص أماكن لكل فئة . فكان إن أقيمت الأروقة(مفردها رواق) واختص طلبة كل بلد برواق لهم . فأصبح هناك رواق العجم ـ رواق الزيالعة ـ رواق الجبرتية ـ رواق المغاربة ـ رواق الشوام وهكذا . بل إن الطلبة المصريون إختصوا بأروقة سميت بأسماء المناطق التى وفدوا منها (رواق الصعايدة)(رواق البحاروة) . ومع ترسخ قاعدة التخصيص ـ أصبح لكل رواق شيخ يدير شئونه ويقبل المنتسبين إليه ويكون السلطة الوسيطة بين أهل الرواق ومشيخة الأزهر .

ـ الهيئة العامة للإستعلامات (تاريخ وآثار مصر الإسلامية)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧٢٩ ـ ٧٣٠

ـ مختار الصحاح ـ ص ١١١ .

(١٩٧) عماء = علماء قراءة تصحيحية .

(١٩٨) بفوقكم = يوفقكم قراءة ترجيحية

(١٩٩) فية = جاء فيه اضيفت الكلمة ليستقيم النص

سمو الأمير ما نصه : لما كان خديوى مصر منصبا من قبل الخلافة الإسلامية الكبرى ، فحق القضاء مختص بمقام الخ لافة(٢٠٠) فقط) .وجاء الأمر من باب المشيخة الإسلامية بدار السلطنة إلى القاضى(جمال الدين) بالبقاء فى منصبه بناء على ما صدر به الأمر الشاهانى . واحتج أعضاء الشورى على ظهور مشروع إنتداب القاضيين الجديدين للمحكمة الشرعية قبل عرضه عليهم . وعلم لورد كرومر بكل هذه الإرهاصات المغضبة(٢٠١) إلى إذهاب المشروع أدراج الرياح ، فسار من يومه إلى الاسكندرية واجتمع بالأمير وكلمه فى ذلك طويلا . فلما كان ظهر ذلك اليوم إجتمع الأمير بجماعة الوزراء ، وظلوا مجتمعين حتى برز الأمر ببقاء القديم على قدمه وترك المشرع إلى حين . ففرح جماعة العلماء بهذا النصر العظيم ، وطاف بعضهم على بعض مهنئين ، وزاروا القاضى(جمال الدين)والمفتى وبالغوا فى تعظيمهما . وقرأوا الفاتحة للأمير ، ودعوا له دعاءا حسنا . قيل وعرض القاضى(جمال الدين)يومئذ بذكر الرئيس ،وما فعله فى أدوار هذه المحنة ، وعاب عليه ضعفه واستكانته وطاعته للورد كرومر ، ومروقه على(٢٠٢) جادة الحق وسبل الإرشاد(٢٠٣) .فأمن جماعة العلماء على أقواله وانصرفوا . وانقضت هذه الفتنة بأدوارها وما تخللها من العبر البالغة(٢٠٤) .

---

(٢٠٠)الخ لافة = الخلافة قراءة تصحيحية
(٢٠١) المغضبة = المفضية قراءة ترجيحية
(٢٠٢) على = عن قراءة ترجيحية
(٢٠٣) وسبل الإرشاد = وسبيل الرشاد قراءة ترجيحية
(٢٠٤) برغم كآبة الخنوع وذلة الخضوع التى أظهرها العديد من رجال النظام الحاكم خلال الإحتلال البريطانى لمصر ــ فان مصر لم تعدم رجالا إستطاعوا أن يرفضوا الإحتلال وتعسفه ونجحوا فى أن يسجلوا إسماءهم فى التاريخ كوطنيين قالوا كلمة الحق فى وجه سلطان جائر .
ــ فى يناير ١٨٨٤ رفض محمد شريف باشا رئيس النظار(٢١ اغسطس ١٨٨٢ ــ ١٠ يناير ١٨٨٤) إخلاء السودان عندما إقترحته بريطانيا ورفض تبليغ جرانفيل فى ٤ يناير ١٨٨٤ وإستقال من رآسة النظارة إحتجاجا .
ــ فى ٥ مارس١٨٨٤ رفض (محمد ثابت باشا) ناظر الداخلية فى نظارة نوبار(١٠ يناير ١٨٨٤ ــ ٩ يونيو ١٨٨٨) أن يكون مجرد شكل أمام وكيل الداخلية كليفورد لويد clifford lloyd الذى استولى على كل سلطاته وقدم إستقالته إلى نوبار قائلا(إنى قبلت الإنتظام في هيئة الحكومة على أمل أن أقوم بخدمة وطنى العزيز الذى نشأت فية وربيت ولكنى رأيت أن آمالى حبطت وأنه ليس فى =

= الإمكان تحقيـقـهـا لا في الحـال ولا في الإسـتـقـبـال . وفضـلا عن ذلك فـقـد علمت من قرائن الأحوال إنه ليس في وسعى المحافظة على شرف المصلحة فيما بعد) . ورغم أن القانون الأساسى الصـادر في اول مـايو ١٨٨٣ قـد خلق مـجلسـا لشورى القـوانين مـسلوب السلطة ولا تلزم قراراته الحكومة التى كان عليها فقط أن توافية بأسباب رفضها لتلك القرارات فإن هذا المجلس إعترض في ديسمبر ١٨٩٣ علي ميزانية الحكومة وطالب بإلغاء مجلس بلدية الإسكندرية لتسلط الإجانب عليه ، وتعميم التعليم في جميع أنحاء القطر ، وتخفيض مرتبات الجيش والبوليس لاستيلاء كبار المستخدمين الإنجليز على ميزانيتها في شكل مرتبات ، تخفيض المرتبات الكبيرة (ويقصد بها مرتبات كبار الموظفين الإنجليز) . إلغاء مصلحة السجون(التى كان يشرف عليها الإنجليز) وإضافة أعمالها على المديريات والمحافظات . إلغاء مصلحة الغاء الرقيق(التي كان يرأسها الكولونيل شيفر Schaefer النمساوى) وإحالة أشغالها على مصلحة خفر السواحل . ولم تغب عن فطنة عميد الإحتلال (كرومر) رسالة مجلس شورى القوانين التى تعنى مناوئة المستعمر فتربص برئيسه (على باشا شريف) في أغسطس ١٨٩٤ ودبرله وبعض الشخصيات المصرية واقعة شراء الرقيق وزج بهم في السجون حتى إضطر(على باشا شريف) أن يتنازل عن كرامته الشخصية ويطلب العفو والسماح من لدن ولى الأمر الذى لم يكون سوى(سعادة السردار) ثم إضطر الرجل إلى الإستقالة بعد ذلك من منصبه .

ـــ ثم ياتى مشروع (مالكولم مكلريث) المستشار القضائى في عام ١٨٩٩ وفيه يحاول إخضاع القضاء الشرعى في مصر في إطار التوجيهات الإنجليزية التى كثيرا ما عملت على أن تقرن مصر بالهند وخاصة في مجال القضاء ، حيث تمكنت هناك من إلغاء المحاكم الشرعية وجعلت قضاء الأحوال الشخصية مجرد دائرة في القضاء الإهلى . لكن تطورات الواقعة كما وردت في(الكافى) كشفت أن المصرين كانوا في عنفوان نفوذ(كرومر) وأعوانه يرفضون قراراته ويعترضون ويقفون من الإحتلال موقفا غير متخاذل . فهذا مجلس شورى القوانين المجردمن أى صلاحيات يرفض مشروع المستشار القضائى . وهذا القاضى (سماحة جمال الدين افندى) يرفض رغم التهديد بعزله ونفيه . ثم يأتى الشيخ حسونه النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار ليتضامن مع زميله قاضى مصر ويرفضان معا في كل مراحل القضية أى مساس بالقضاء الشرعى . وهؤلاء علماء ومشايخ الأزهر يجتمعون عند شيخ رواق الشام ويطلبون صيانة القضاء الشرعى ويصر جمال الدين أفندى على رفض إرهاب الحكومة إلى حد إتخاذ قرارا بإقامة القضاء بين الناس في بيته إذا الزم الأمر .

ـــ ويفقد الشيخ حسونه النواوى منصبه كشيخ للإسلام ومفتى البلاد نكاية فيه لموقفه المضاد للإحتلال البريطانى .

في هذه الواقعة وقف أهل الشرع وشورى القوانين سدا منيعا أمام تحقيق السياسة البريطانية . ولسنا في حاجة إلى تكرار الحديث عن مصطفى فهمى ونظاره الذين أبدوا في كل مواقف الإحتلال البريطانى إزاء السيادة المصرية موقف التخاذل والخنوع .

على أن ما يحتاج إلى وقفة هو نظرة ميخائيل شاروبيم للقضية . ففى بداية عرضه لها في ص٥٦١ يؤكد أن العمل(قلب هيئة المحاكم الشرعية وتقنين القوانين الصادمة لها وتعديل نظاماتها الداخلية) بعد أن (أتسعت كلمة جماعة الإنجليز وإنبسطت سلطتهم وتصرفوا في سائر وظائف ومناصب الحكومة وبشوافيها نظامهم على المألوف في دواوينهم) ــ أى أنه يقر أن مشروع المستشار القضائى عام ١٨٩٩ هو نوع من فرض النفوذ البريطانى على القضاء الشرعى وغير الشرعى ــ إلى جانب الإدارة المصرية بأكملها .

لكنه يناقض نفسه في ص ٥٧٤ ويقول أن المشروع كان محاولة من جانب(أهل الحل والعقد) لإصلاح أحوال المحاكم الشرعية ــ وأن رجال القضاء الشرعى قاوموا ذلك برمى مخالفيهم(بالمزوق عن سبل الشريعة والعبث بسنن صاحبها) .=

ولكن لم يهدأ لمستشار وزارة الحقانية بال ، ولم يقلع عن هواه ولا النكوس(٢٠٥) عن عزمه ، فلما كان ثالث يونية من السنة ، رابع عشرى المحرم سنة سبع عشرة ، برز الأمر بخلع الشيخ (حسونة النواوى) من منصب الإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر ،وتوجيه منصب الإفتاء إلى(الشيخ محمد عبده)(٢٠٦) أحد

= ويفهم من كتابة ميخائيل شاروبيم أنه كان غير راض عن موقف القاضى جمال الدين أفندى والشيخ حسونة النواوى وأنه كان يتفق مع مسلك الحكومة الموالى لمشروع(مكلريث) الذى كان حلقة من سلسلة السياسة البريطانية فى السيطرة على مصر وحرمان دولة السيادة من أى حقوق لها حتى ولو كانت الولاية القضائية على المحاكم الشرعية

ـ راجع حاشية ٣٥١ من حواشى عام ١٨٩٣ ـ ٥٣١ من حواشى عام ١٨٩٤

ـ عبد الوهاب بكر(البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٤٦ ،

ـ مذكرات محمد فريد(تاريخ مصر من إبتداء سنه ١٨٩١ مسيحية) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣ ـ ٢٤ .

ـ لطيفة محمد سالم(النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ ـ ١٩١٤) ـ مرجع سبق ذكرة ـ ص ٢١٤

(٢٠٥) النكوس = النكوص قراءة تصحيحية

(٢٠٦) محمد عبده = (١٨٤٩ ص١٩٠٥) ـ زعيم من زعماء الإصلاح فى مصر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ـ ولد فى محلة نصر من أعمال مركز شبراخيت بمحافظة البحيرة ـ أدخل كتاب القرية وحفظ فية القران ثم التحق بالجامع الأحمدى فى طنطا عام(١٨٦٣) للدراسة وقضى به ثلاثة سنوات ثم انتقل إلى الجامع الأزهر وقضى به عامان ـ فى عام ١٨٧٠ علم المترجم بقدوم السيد جمال الدين الأفغانى عن طريق أحد المجاورين فى رواق الشوام . إنضم المترجم إلى دروس الشيخ الإفغانى فى المنطق والفلسفة ، وأخذ عنه(علم الكلام)و (التصوف) و (الأصول) و (الفلسفة) و(علوم الرياضة) و(الأخلاق) و (السياسة) ـ إتصل بالصحافة عام ١٨٧٦ وظهرت له مقالات فى المنطق والفلسفة والتربية والإجتماع والأدب فى جرائد (الأهرام) (مصر) و (التجارة) . فى عام ١٨٧٧ نال(العالمية) من الأزهر وشرع فى نفس العام يتعلم الفرنسية للتزود بعلوم الغرب ـ وكان وقتئذ يلقى دروس التوحيد والمنطق والأخلاق فى الأزهر الشريف .

فى عام ١٨٧٨ عين مدرسا للتاريخ فى مدرسة دار العلوم ، وللغة العربية فى مدرسة الألسن إلى جانب التدريس فى الأزهر ـ فى عهد نظارة مصطفى رياض باشا الأولى(٢١ سبتمبر ١٨٧٩ ـ ١٠ سبتمبر ١٨٨١) عين محررا بالوقائع المصرية ثم رئيسا لتحريرها ـ لم يشارك فى الثورة العرابية فى بداية قيامها لكنه انضم إليها بعد تولى البارودى النظارة(٤فبراير ـ ٢٦ مايو ١٨٨٢) وأصبح من زعمائها البارزين ـ ومع فشل الثورة فى ١٨٨٢ حوكم من بين من حوكموا وتلقى حكما بالنفى ثلاث سنوات خارج القطر فاختار سوريا للإقامة فيها ـ خلال وجوده فى سوريا دعاه السيد جمال الدين الأفغانى إلى باريس حيث أنشأ معا جريدة (العروة الوثقى) . في عام ١٨٨٨ إنقطع عن الكفاح السياسى وتحول إلى الإصلاح الإجتماعى وهو مأدى إلى التصالح مع السلطة البريطانية فى مصر ثم السماح له بالعودة إليها(١٨٨٩) مختلفا مع أستاذه (الأفغانى) . عين قاضيا بالمحاكم الأهلية فمستشارا ـ فى ١٨٩٤ عين عضوا فى مجلس إدارة الأزهر . بذل جهودا كبيرة لإصلاح حالة التعليم فيه وترقية برامجه وشئونه العلمية والأخلاقية والصحية والمادية .

مع تنحية الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر والمفتى فى أعقاب أزمة مشروع مكلريث لإصلاح المحاكم الشرعية عام ١٨٩٩ عين المترجم (١٨٩٩) مفتيا للديار المصرية بدلامنه ، فبذل جهدا=

مستشارى محكمة الإستئناف الأهلية ، ومشيخة الجامع إلى (الشيخ عبد الرحمن قطب النواوى) . وتفشى خبر ذلك بين الناس وتحدثوا فيه .وقالوا أن أصحاب الإحتلال كافأوا الشيخ (محمد عبده) على سعايته ووشايته ، فولوه منصب الإفتاء ليكون عونهم عند إعادة الكرة على هدم نظام المحاكم الشرعية وترتيب أعمالها على ما يشاؤون . وأرسل إليه بعضهم رسايلا فى معنى ذلك بغير أسماء كاتبيها ، حتى لقد سبوه ورموه بالزندقة والإلحاد ، وشخصوه فى بعض الصحف الهزليه واقفا بيت سيدتين إنجليزيتين كأنه يداعبهما أو هو إمام فى دينهما . وتغنى[٢٠٧] ببعض أبيات نظمها أهل المجون والسخرية قدحا فيه وتعريضا بزندقته وكفره . وبلغ الحط فى كرامته مبلغا عظيما جدا ،فكان حديث الخصوم فى نهارهم وسهر ليلهم .وعندى أن الرجل له خلق الخير والزكاء[٢٠٨]

= كبيرا فى إصلاح نظم التعليم فى الأزهر وتولى بحكم منصبه عدة وظائف أخرى كعضوية مجلس الأوقاف الأعلى ـ ومجلس شورى القوانين . أسس المترجم جمعيات عديدة تعنى بالعلوم واللغة والتراث ونشر التعليم ، وأصلح المحاكم الشرعية وكان صاحب فكرة إنشاء مدرسة القضاء الشرعى ـ نال عن هذا كله شهرة كبيرة كمصلح دينى ومستنير وأصبح لقبه الذى يعرف به الأوساط الإجتماعية (الإستاذ الأمام) . ولكن يؤخذ على المترجم أمرين ـ أولهما نبذه للكفاح السياسى فى وقت كانت البلاد تنشد زعامة مستنيرة صالحة بعد غياب الزعامة السياسية وانكسار الزعامة الشعبية والعسكرية ، وتخاذله إمام شدة وطأة المحتل ثم التهادن معه الأمر الذى عاد عليه بالمناصب والنفوذ الذى أوصله إلى ما وصل إليه بفضل صداقته للورد(كرومر) . أما الأمر الثانى فكان تنكره لأستاذه السيد جمال الدين الإفغانى فى نهايات ثمانينيات القرن وإنقطاعه عنه وتركه يعانى آلام الكفاح السياسى ومتاعبه ومرارته وحده ـ بل إنه قطع كل علاقة شخصية به حتى وفاته عام ١٨٩٧ ، ولم يكلف نفسة مجرد رثائه وقد كان أستاذه الروحى والفلسفى وزميل جهاده منذ سنوات غير قليلة .

على الجانب العلمى كان للمترجم أعمال رائعة أهمها(رسالة التوحيد)و(الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) إلى جانب رده على هانوتو Hanotaux . وتفنيد مطاعنه على الاسلام(فى مصدر آخر أنه رد على مطاعن رينان Renan) .

ـ عبد الرحمن الرافعى(الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) مرجع سبق ذكره ص ٥٨٠ ـ ٥٨٦

ـ لطيفة محمد سالم (القوى الإجتماعية فى الثورة العرابية) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨١ـ ص ٣٦٨ ـ ٣٧٦ .

ـ سعيد مراد(الإمام محمد عبده) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٨٩ ـ ص ١١١

ـ ويلفريد سكاون بلنت BLunt, wilfrid scawn (الأفغانى ومحمد عبده) (ترجمة على شلش ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٢١ ـ القاهرة ـ يناير ١٩٨٦ ـ مواضع متفرقة .

(٢٠٧) وتغنى = وتغنى البعض أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٢٠٨) الزكاء = الذكاء

والوثوق من نفسه ، والميل الشديد إلى الأمور العصرية ، ونبذ العادات العجائزية ، وكل متفيه[٢٠٩] ليس كبير الحجة قويها ،إذا تكلم مال إليه السامع بقلبه وأذنه ، فهو لذلك كثير الأعداء والمبغضين .تلقى بعض العلوم العصرية عن الفليسوف(جمال الدين الأفغانى) . ولما كان (جمال الدين) هذا معرفوا[٢١٠] عند علماء الأزهر بالزندقة والإلحاد ، إتهموا تلميذه بشئ من ذلك ، وهو براء مما يتهمونه .

وكان لما تولى المستر (متشل[٢١١]) إستشارة وزارة الداخلية بدلا من السير غورست الذى تولى منصب إستشارة وزارة المالية على ما مر بك بيان ذلك فى حينه ، عمد إلى قلب هيئة غفر البلاد ، فجعل يقنن له[٢١٢] القوانين ، ويقرر اللوائح وينشر المنشورات لعله يجد طريقة حاسمة للفوضة الضارة[٢١٣] فى مشرق البلاد ومغربها ، وسبيلا إلى إعادة الأمن إلى ربوعه ، فكان له فى كل يوم

(٢٠٩) أى من التفوه
ـ مختار الصحاح ـ ص ٢١٦
(٢١٠) معرفوا = معروفا قراءة ترجيحية
(٢١١) متشل = صحتها ماشل Machell ـ برسى ، و ماشل Percy W MacheLL ـ ضابط إنجليزى من جيش الإحتلال ـ خدم بالجيش المصرى ـ أنشأ الأورط التاسعة والثانية عشرة السودانية وشارك فى معارك السودان الأولى . عين مفتشا لعموم مصلحة خفر السواحل حتي نهايات ١٨٩٨ ـ فى سبتمبر من نفس العام عين مستشارا لنظارة الداخلية خلفا لمستر إلدون جورست Eldon Gorst (المعتمد البريطانى فيما بعد) الذى عين مستشارا ماليا فى ذلك الوقت ـ منح فى ١٩٠٣ النيشان المجيدى الأول ـ ترك نظارة الداخلية في ديسمبر ١٩٠٨ ليخلفه المستر(آرثرشيتى بكArrthur chitty المدير العام بنظارة المالية
ـ الوقائع المصرية ٢٢ اكتوبر ١٨٩٨ ، ١٩ يناير ١٩٠٣ ، ٩ ديسمبر ١٩٠٨
– Egypt No 3 (1899) – Report by Her Majesty's Agent and Consul – General on the Finances. Administration. And Condition of Egypt and the Soudan in 1898.
– Russell Pasha(Egyptian Service – 1902 – 1946 – Ibid. – pp..11 .13 .20 .21 .46 .68 .163 .
(٢١٢) له = لها قراءة تصحيحية
(٢١٣) للفوضة الضارة = للفوضى الضاربة أطنابها عدلت الكلمتان الأوليان كقراءة ترجيحية ـ وأضيفت الكلمة الثالثة لينسجم المعنى .

شأن ، وحركة(٢١٤) الأمن فى القرى والبلاد لا تتحول عن مجراها المخيف ،

---

(٢١٤) وحركة = وحالة قراءة ترجيحية

يكاد يجمع المعنيون بدراسة الجريمة على أن الإحصائيات لا يمكن التعويل عليها بصورة قاطعة للقول بارتفاع او إنخفاض حجم الجريمة فى مكان ما . فهناك على سبيل المثال جرائم لا يبلغ عنها ـ كجرائم العرض والشرف ـ قتل الأطفال غير الشرعيين ـ جرائم هتك العرض ـ جرائم الثأر ـ فضلا عن أن المجنى عليهم يفضلون فى بعض الأحيان السكوت عن الإبلاغ عن الجرائم الواقعة عليهم رهبة من بطش الجناة أو ضيقا بإجراءات أجهزة الأمن ـ أو خشية الفضيحة والتشهير .

وفى عهد الإحتلال البريطانى تعرض الإمن العام فى مصر لاهتزازات كثيرة وخطيرة فى مجال الجريمة ـ وخاصة الخطيرة منها(يقصد بالجرائم الخطيرة تلك الجرائم التى تؤخذ كمعيار على إهتزاز حالة الأمن العام كالقتل والسرقة بالإكراه (Robbery With Violence ـ وكان هذا راجع فى الحقيقة إلى كثرة التعديلات والتغيرات التى أصابت جهاز الأمن على مدى العقدين الأولين من عمر الإحتلال البريطانى ، عندما تصارعت سلطاته مع نوبار ورياض أكثر من مرة حول مركزية ولامركزية إدارة الجهاز ، وتبعية رجال البوليس للقيادة المركزية الإنجليزية أو للمديرين فى مديرياتهم ، ثم وصولا إلى نظام المستشارية الذى أخضع الإشراف على الأمن لمفتشى الداخلية خريجى أو كسفوردوكامبردج الذين كانوا يكتبون عن رجال الأمن بدءأمن مدير المديرية إلى خفير القرية ، ويعرضون تقاريرهم على مستشار الداخلية الإنجليزى القابع فى الوزارة والذى يرفع تقاريره إلى المعتمد البريطانى . تعثرت فى ظل هذه الصراعات قدرات جهاز الإمن على السيطرة على ظاهرة الجريمة ـ إلى جانب ضعف وبدائية تنظيماته العاملة فى مجال مكافحة الجريمة كنظام الخفر على سبيل المثال .

ويبدو أن ظاهرة تفشى الجريمه فى عهد (كرومر) كانت تدفعه إلى إخفاء إرقام الجرائم الحقيقية فى تقاريره بالاضافة إلى الإكتفاء بذكر الجرائم الخطيرة فقط(القتل والسرقة بالإكراه) ، رغم ما تشتمل عليه الجريمة كظاهرة من انواع متعددة تستحق التسجيل فى الإحصائيات .

ومع هذا فإننا إذا أخذنا بإحصائيات كرومر فى تقاريره السنوية عن المالية والإدارة والأحوال فى مصر ـ مع التحفظ الشديد بشأنها وفق ما عرضنا فى مقدمة هذه الحاشية ، فإننا نجد أن عدد الجرائم بلغ فى السنوات الأربع السابقة على بداية القرن العشرين كالآتى :

السنة	جرائم القتل	جرائم السرقة بالاكراه	جرائم السرقة بصفه عامة
١٨٩٦	٤٩٤	٢٦٠	١٨٦٦
١٨٩٧	٤٣٠	٣٧٨	١٤٢٤
١٨٩٨	٤١٤	٣٤٤	١٣٤٢
١٨٩٩	٣٧٣	٢٦٠	١٢٥٣

ـ ونظرة إلى الجدول تبين أن الجرائم بأنواعها قد انخفضت فى العام الأخير من القرن التاسع عشر ـ رغم ما ذكره ميخائيل شاروبيم فى ص ٥٧٩ من اختلال الأمن العام وشكوى الأهالى من التزايد المخيف لمعدلات الجريمة .

ولا يمكن لمنصف أن يغفل شهادة شاروبيم فى هذا المقام ـ إذا وضعنا فى الإعتبار ضعف دلالات الإحصائيات . ومع هذا فقد ارتفعت أرقام الجريمة فى العام التالى(١٩٠٠) وفقا لتقرير كرومر =

وأهل البلاد يصيحون المدد ، حتى كاد يسقط فى يده . ثم رأى أن يمرن جماعة غفراء البلاد كافة على الحركات العسكريه ،إرهابا لأهل الشقاوة وأصحاب

= فبلغت حوادث القتل ٤١٩ بالمقابلة ب ٣٧٣ فى العام السابق ـ وبلغت حوادث السرقة بالإكراه ٢٩٢ ـ مقابل ٢٦٠ في عام ١٨٩٩ ـ وبلغ المجموع الكلى للجرائم بصفة عامة ١٢٨٩ بالمقابلة ل١٢٥٣ عام ١٨٩٩ .

ومع هذا فإن كرومر لم يجد مبررا مقنعا لهذة الزيادة فى عام ١٩٠٠ فى تقريره ـ ولنقرأ بعض ما ساقه فى هذا المقام .

(سوف يرى أنه رغم أنه كان هناك إنخفاض مستمر فى الجرائم الخطيرة فى السنوات الثلاث ١٨٩٧ ، ٩٩.٩٨ فإن المجموع الكلى للجريمة عام ١٩٠٠ ـ رغم أنه أقل من مثيله عام ١٨٩٧و١٨٩٨ ـ كان أكبر من مثيله عام ١٨٩٩ . وكانت الزيادة جديرة بالملاحظة فيما يتعلق بجريمتى القتل والسرقة بالإكراه ـ وباستثناء هذه الجرائم فإن عدد (الجرائم الإخرى) كان أقل من أى سنة سابقة .

وفى التعامل مع هذه الأرقام يجب ملاحظة أنه لبعض الأسباب التى يصعب شرحها ، فإن كمية الجرائم عام ١٨٩٩ تبدو كما لو كانت منخفضة بشكل غير طبيعى . وفى بدايات عام ١٩٠٠ كان من الصعب الإعتقاد باحتمال المحافظة على هذا السجل المرضى تحت أى ظروف مواتية

مرة أخرى فإنه قد يكون إستنتاجا خطيرا إن تعزى الزيادة فى عدد جرائم القتل إلى أى سبب عام . أن تكون جرائم القتل ذات مظهر عام للغاية فى مصر عنها فى بلاد تقع فى شمال أوربا هو لسوء الحظ حقيقى ، لكننى أبلغت إن النسبة للفرد Proprotion perhead مقابل المجموع هى ٤ × ١٠٠,٠٠٠ ـ وهى نسبة أقل من إيطاليا حيث هى ٦ × ١٠٠,٠٠٠ .

إن القتل فى مصر يرجع إلى الإنتقام ، الكره الشخصى ، أو الرغبة فى الدفاع عن شرف العائلة . البدو وسكان مصر العليا يعتقدون بصفة عامة أنه من الملزم بالنسة للأب او الأخ أو الزوج أن ينفذ القانون بيده عندما يتعلق الأمر بشرف المرأة في العائلة . لذلك فإننى لا أعتقد أن عدد جرائم القتل يمثل أى شىء أكثر من أى مظهر عادى فى الإحصائيات الجنائية ، الراجعة إلى إسباب عرضية .

أما العدد الكبير نسبيا لجرائم السرقة بإكراه الذى ظهر عام ١٩٠٠ فهو خطير بعض الشىء ، ويبدو من اللازم إحتمال الإشارة إلى وجود بعض الأسباب العامة التى تدفع إلى زيادة الجريمة . على الجانب الآخر فإن منْ المرضى ملاحظة أن التناقص المضطرد فى حالات السرقة بإكراه من جانب عصابات مسلحة وهو شكل من الجريمة كان متفشيا فى السابق فى مصر ـ ظل محافظا عليه عام ١٩٠٠) .

ويمكن لأى مراقب محايد أن يكتشف بيسر أن ما قدمه كرومر فى تبريراته لا يكفى على الإطلاق لإقناع أى مبتدئ فى دراسة الجريمة المقارنة . من الواضح أن كرومر لم يجد مبررا لزيادة الجريمة سوى الإحالة(لبعض الإسباب التى يصعب شرحها) أو(وجود بعض الأسباب العامة التى تدفع إلى زيادة الجريمة) . ودون الإشارة إلى هذه الإسباب ، فإن كلام كرومر يصبح فى عداد القول المرسل الذى لا يمكن قبوله او الإعتداد به ـ

- Egypt No 1(1901)

- Reports by His Magesty.s Agent and Consul - General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan in 1900

- Ibid., 1899

ـ عبدالوهاب بكر (البوليس المصرى) مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .

اللصوصية المنبثين فى البلاد .فبرز إلى الحكام والمديرين الأمر بذلك . وسر[٢١٥] إلى كل مركز ومديرية نفرا من صغار ضباط الجند لتمرين أولئك الفقراء[٢١٦] . فقاموا بالأمر ،وكانوا يستجمعون القوم لذلك فى مراكزهم أياما معدودة فى كل شهر . واتفق يوما أنى مررت فى الشارع المفضى إلى جنينة الحيوانات ، فرأيت جماعة من أولئك الفقراء[٢١٧]وقوفا على ضفة النيل الغربية شمال حديقة طلمبة مياه حدائق الجيزة ، وبيد كل منهم هراوة طويلة ، وأمامهم نفر من أصحاب الشرطة يعلمونهم الحركات العسكرية المطلوبة .فوقفت لأرى ماسيكون من أمرهم . وإذا بأحد أصحاب الشرطة جعل يتبخطر أمام صف الغفر معجبا بنفسه وبيده هراوة صغيره ، ثم وقف لحظة شاخصا إلى أولئك النفر ثم صاح بهم صيحة عاليه صوله . . . . . دن[٢١٨] .فعند ذلك تحرك القوم حركة

---

(٢١٥) وسر = وسير قراءه تصحيحية

(٢١٦) الفقراء = الخفراء قراءه تصحيحية

(٢١٧) الفقراء = الخفراء قراءه تصحيحية

(٢١٨) صوله دن = نداء عسكرى تركى soladan يعنى(من اليسار) ـ صول تعنى يسار ـ دن تعنى (من) . أما صاغ فتعنى فى التركية (يمين) والنداء العسكرى صاغه دن Sagadan يعنى(من اليمين) . ولقد كانت رتبة الرائد فى مصر حتى عام ١٩٥٨ تسمى (صاغ) ، واسم الرتبة كاملا (صاغ قول أغاسى) ـ أى قائد الميمنة ـ فصاغ تعنى يمين ـ وقول تعنى طابور ـ وأغا تعنى قائد أوسيد ـ أماسى فهي علامه الإضافة في التركية SagkoL agace ـ وقد اختصرت التسمية بمضى الوقت إلى (صاغ)ـ كذلك فان رتبة (مساعد) كانت حتى ١٩٥٨ تسمى(صول) ـ أما الرتبة كاملة فكانت صول قول أغاسى ـ أى قائد الطابور من اليسار ، ثم إختصرت إلى(صول) تسهيلا للنطق .

وترجع المصطلحات العسكرية التركية فى مصر إلى بداية إنشاء الجيش المصرى الحديث فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر ـ واستمرت جنسية الجيش مصرية ومصطلحاته كلها تركية ـ وكان هذا ههو حال البوليس أيضا . بل إن الإحتلال البريطانى عندما سيطر على الجيش والبوليس لم ير غضاضة فى تعليم رجاله المصطلحات العسكرية المستخدمة فى الجيش والبوليس المصرى باستخدام الحروف اللاتينية . وفى(برنامج تعليم أنفار البوليس الأوروباوى) كان شيئا طبيعيا أن تجد المصطلح العسكرى التركى مكتوبا بالحروف اللاتيينية وأمامه ما يقابله بالتركية كالآتى .

أتش تعليم = Firing Exercise = ates talim

وبالعربية (تدريبات إطلاق النار)

طابور أتش = Fire a volley = tabur ates

وبالعربية (إطلق النار)

سلاح ضولدر = Ready= silah doldur

وبالعربية (إستعد لإطلاق النار) =

مضحكة ، هذا يمينا وهذا شمالا ، وهذا شرقا وهذا غربا ، وبعضهم يتقابلون وبعضهم يتدابرون .فصاح بهم صاحب الشرطة(ويلكم لعنة الله عليكم ، وعى[٢١٩] بلادكم يابهايم ،أهذا ما أريتكم إياه؟) فأدرك القوم أنهم أخطأوا ،فجعل كل منهم ينبه رفيقه ويرشده وقد علت ضوضاؤهم وارتفعت أصواتهم ،واحدهم يقول (شمالك يا أحمد) والثانى يقول(يمينك يا إبراهيم) وهذا يقول(بحرى الجاويش يا إسماعيل)وذاك يقول(قبلى قبلى يا أبو غانم)وصاحب الشرطة يرعد ويزيد[٢٢٠]ويصيح(مش كدا يابهائم) . فأخذ منى القول مأخذه ودنوت من ذلك الشاويش[٢٢١] وقلت(بحقك ما فائدة هذه الحركة التى لا بركة فيها ،وجيشك هذا الباسل كله شيوخ لم يتعودوا سماع صاغه . . دن[٢٢٢] ، وصوله . . . دن ، ولم تطاوعهم أعضائهم على هذه الحركة ، بعد أن شئمت شراينهم[٢٢٣]

= وهكذا فإن اللغة التركية كانت سائدة فى كل انواع التعاملات فى الجيش والبوليس فى مصر . ولعهد قريب كانت الكلمات التركية لا تزال موجودة فى الجهازين ـ كالطوبجية(أى المدفعية) ـ بياده Piyada (أى المشاة) ـ أورطهorta كتيبة ـ يارم (نصف) ـ يارم صاغه(النصف الأيمن) ـ اون باشى(عريف) ـ يوزباشى (نقيب) ـ صاغ قول إغاسى (رائد) ـ بكباشى (مقدم) binbasi إلخ .

ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) ـ مرجع سبق ذكره ، ص ٨٩٩ - ٩٠٠ .

ـ عبد الوهاب بكر (نظام جهاز الأمن والإدارة فى مصر خلال العصرالعثمانى الثانى ١٠٨٥ ـ ١٩١٤) المجلة التاريخية المغربية ـ العدد ٥٤ ـ تونس ـ ١٩٩١ ـ ص ٥٣ - ٧١ .

-Fahir Iz (The Concise Oxford Dictionary) Oxford - Clarendon prees - 1955 -pp . 283 ,303.

ـ رد هاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ مواضع متفرقة .

(٢١٩) وعى = وعلى قراءة تصحيحية .

(٢٢٠) ويزيد = ويزبد قراءة ترجيحية .

(٢٢١) شاويش = تحريف عربى للكلمة التركية چاووش Cauus وتنطق Chaush موضوعا فى الإعتبار أن حرف U سينطق شاءا ـ الجيم مشربة والواو مضمومة ـ مشتقة من المقطع التركى Cav يعنى الصياح والنداء ـ واللقب لمنصب عسكرى يقابل(رقيب)أو Sergent ـ وقد زال من المسميات العسكرية المصرية عام ١٩٥٨ لكن الناس لا يزالون يستخدمونه فى الحياة العامة حتى الآن .

ـ ردهاوس Redhouse ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٧١١

ـ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٩ ـ ٦٣

(٢٢٢) راجع حاشية ٢١٨ من حواشى عام ١٨٩٩ .

(٢٢٣) شئمت شراينهم = شاخت شرايينهم قراءة ترجيحية

وتغلظت) . فـقـال (والله إنهـا لهـزء[٢٢٤]وسـخـرية وبدعـة مـا أنزل[٢٢٥] بهـا من سلطان . ولكن قل لى ما ذنبى مع هؤلاء القوم ، وصاحب هذه البدعة مسـموع الكلمة متبوع الرأى ، إذا قال فعل ، وإذا فعل أرهب) فقلت . (صدقت ولله فى ذلك إرداة) .وتركته يناديهم صاغة . . . دن وصوله . . دن .ومع ذلك فقد عادوا فأغفلوا هذه الحركة المباركة ،وكان من ورائها أن تسلح أولئك الغفراء ببنادق الجند فى سـائر القـرى والبلدان . فكانوا إذا إسـتـعـملوها فى الحـراسـة ودفع أصحاب اللصوصية وأهل الشقاوة يوما ،إستعملوها فى مشاركة اللصوص والسطو على أهل البلاد يوما آخر ،حتى كثرت الجرائم فى طول البلاد وعرضها ، وعمت اللصوصية ، واستغاث الناس ولا مغيث .

وأنتـقل حـديث الناس إلى عزم أهل الحل والعـقـد على إعطاء مـلاحـات دمـيـاط ورشـيـد ومكس الإسكندرية واسـتـخـراج ملحـهـا إلتـزامـا إلى شـركـة إنجليزية .وتكلم بذلك أيضا أصحاب الصحف على إختلافها . فلما كان رابع عشر يونية من السنة ، سابع صفر الخير سنة سبع عشرة ، برز الأمر بذلك ، وتم الإتفاق مع تلك الشركة التى لقبت نفسها(بالشركة المصرية)على إستخراج الملح من سائر أنحائه ،أو من الأنحاء التى ترى الشركة صلاحيتها ،ويبيعونه للناس ،على أن تدفع الشـركـة لخـزينة الحكومـة عن كل طن (الطن وزنه إثنين وعشرين قنطارا مصريا ونصفا)رسـمـا يوازى مجموعه قيـمـة ما كانت الخزينة تشـغله من مـصلحـة الملح الملغاة .وطيروا الخبـر بذلك إلى الآفـاق ، وأبلغـوه لأصحاب المـلاحـات الخصوصية بدمياط ورشيد . وحفظت الحكومة لنفسها حق إلغـاء إحتكاره حين تشـاء . فإذا فعلت لم يحق للشركـة الملتزمـة أن تزيد ثمن الملح عـمـا هو عليـه الآن . وعندى أن هذا الإحـتـراز حـسـن ، لأن ضـريبـة الملح من أثقل الضرائب وأبغضها عند أهل البلاد ،وهم أميل إلى الملح الجبلى

---

(٢٢٤) لهزء = لهزؤ قراءة تصحيحية

(٢٢٥) أنزل = أنزل الله اضيفت الكلمة ليستقيم المعنى

المعروف بالملح البرانى رغما عن مصادرته ومعاقبة مستعمليه بالعقوبات المتنوعة .فقام جماعة من أصحاب الملاحات ورفعوا أصواتهم بالشكوى إلى وزارة المسلالية[٢٢٦] تارة ، ووزارة الداخلية تارة أخرى ،وإلى قصر الإمارة .وبالغوا فى الشكوى وعظموا البلوى وقالوا .كيف أن حكومة هذه البلاد تطرح موارد خيرها ودرها ،مطارح العبث والبذل بالدنئ النجس .حدثنى وجيه من صاحب[٢٢٧] تلك الملاحات قال .أسمعنا أهل الحل والعقد نعيقهم بأنهم لم يفكروا قط فى إعطاء الملاحات التزاما لتلك الشركة ، ولا هم على قصد من ذلك الحال . قضى الأ مر ولم يبق للإنكار من سبيل . فكأنهم بهذا التمويه والإنكار يعتقدون أنهم إنما يرتكبون فى مثل هذه الأعمال منكرا ويأتون أمرا إذا[٢٢٨] .ولقد عهد الناس بالحكومات الصالحة الرشيدة هى التى تقول فيؤمن على قولها ، وتفعل فيستحسن فعلها .ولكن حكومتنا أيدها الله قد لا تقول إلا ما نخظئ[٢٢٩] به ،ولا مانفعل[٢٣٠]إلا ما ينكر عليها . لا إنكار من يغالى بعدوائها[٢٣١] ، بل إنكار من يريد لها السلامة من كل شر ، والبراءة من كل عيب . إنظر كيف أنها سلمت الملاحات إلى شركة أجنبية تعهدت بأن تدفع لخزانتها ثلثمائة وأربعين قرشا صاغا عن كل طن يباع فى داخلية البلاد ، وذلك حتى خمسة وأربعين ألف طن ، فما زاد يدفع عن الطن ثلثمائة وثلاثين قرشا ، وتدفع الشركة أيضا مثل هذا الرسم إلى الحكومة عن كل طن من الملح الذى تأتى به الشركة من ديار الفرنجة لتبيعه فى هذا القطر ، ما عدا رسم الجمرك .وما ترسله الشركة من الملح المصرى إلى ديار الفرنجة تدفع عليه رسما قدره أربعة قروش عن كل طم[٢٣٢] ، وذلك ماعدا رسم الجمرك .ومدة

(٢٢٦) المسلاليه = المالية قراءة ترجيحية
(٢٢٧) صاحب = أصحاب
(٢٢٨) اذا = إداً
(٢٢٩) نخظئ = تخطئ قراءة ترجيحية
(٢٣٠) نفعل = تفعل قراءة ترجيحية
(٢٣١) بعدوائها = بعدائها قراءة ترجيحية
(٢٣٢) طم = طن قراءة تصحيحية

الإلتزام أربع وأربعين سنة . قال فإنكارا[٢٣٣] على الحكومة عملها هو لأن الملح صنف لا يستهلك منه فى داخلية البلاد إلا قدر معلوم مقرر ، فإذا زاد فشئ يسير ،وإذا قل فيسير أيضا .فإذا كانت قلة مورده هى التى دفعت بأولى الأمر إلى أن تسمح[٢٣٤] لشركة أجنبية باحتكاره ، فهذه القلة لا يكون منشؤها إلا إختلال الإدارة . وهذا الإختلال لا يكون سببا يحسن معه عمل الهيئة الحاكمة . والشركة كما لا يخفى لا تقدم ولن تقدم على الإحتكار إلا وهى واثقة من الربح ، فكان أولى بأصحاب الكلمة أن يبقوا هذا الربح بخزانة الحكومة ، بل للبلاد ، لأن ما تربحه الحكومة يتسرب إلى خزانتها ،وما تربحه الشركة يتسرب إلى ديار الإنجليز .نعم إن أهل الحل والعقد قد حددوا للملح ثمنا لايجوز للشركة أن تتعداه .ولكن ذلك أوجب الثناء عليهم ،بنفسه[٢٣٥] لايدفع اللائمة بالإحتكار بجملته ، ولو كانوا فى موقف سياسى حرج لقلنا أنهم عاجزون عن المقاومة ومغلوبين على أمرهم .قال وقد فتحت مصر السوادان لتجعله موردا لتجارتها وصناعتها ، فتستعيض بذلك يسيرا عما فقدته من المال والرجال على ما هو مشهور .فإذا لم يبق لها فى السوادان لا النفوذ السياسى الذى بات من حقوق الدولة الإنجليزية ،ولا الفائدة التى قد أضاعتها اليوم بإعطاء مثل هذا الإحتكار ، كانت الخسارة من كل وجه ووجهة طامة عامة ، فلا حول ولا قوة أ . هـ .

وعاد الناس إلى حديث عبد الله التعايشى وما جاء عنه إلى وزارة الحرب ووزارة الداخلية من الأنباء .فقد تحقق أنه قام من(شركيله) بجميع رجاله ومعداته لنفاذ المؤن وحصول المجاعة بينهم ، وسار إلى جبال(تجلا) وغزا إحدى قبائلها ،وغنم ما عندها من المؤن والماشية ، وسار إلى(بلوله) وشن الغارة عليها .فتضافرت القبائل كلها على قتاله ،فهزمته شر هزيمة ، وأسرت من رجاله خمسمائة ،وقتلت وغنمت منه شيئا كثيرا من البنادق ومعدات الحروب ،

(٢٣٣) فانكارا = فإنكارنا قراءة ترجيحية
(٢٣٤) تسمح = يسمحوا قراءة تصحيحية
(٢٣٥) بنفسه = لكنه قراءة اجتهادية

وأخذت المدفع الوحيد الذى بقى معه ، ثم أعادت الكرة عليه ثانية وثالثة حتى أنفشلت جموعه . ففر جماعة الدراويش وهرب غيرهم كثير ومعهم بعض المشايخ ورؤوس القبائل . وأقام التعايشى (بشركيله) (موسى) أمير (ألكوردوفان) حاكما عليها ،فلم يغن عنه شيئا . قالوا وقام أهل(تجلا)وما والاها قومة رجل واحد ، فأخذوا على التعايشى ومن بقى معه الطرق والمسالك ،وضيقوا عليه فى مضيق بين روابى (تجلا) . وكثر توارد الفارين إلى أم درمان .فكانوا عالة على من بها . فرسمت الهيئة الحاكمة ، أو هو السردار صاحب الكلمة العليا بإرسال جماعة الأمراء من الهاربين إلى (السنار)وأعالى النيل الأبيض ليزرعوا ويعيشوا من الحرث ، وأمدوهم بقليل من المال والمؤونة ،وخيروا غيرهم من العامة الذين نزلوا على أم درمان بين أن يشتغلوا فى الأعمال الأخرى وينقدوا أجرتهم ، وبين السفر إلى الجهات البعيدة فى السودان للزراعة ،فاختاروا البقاء فى أم درمان والعمل فيها . وظهرت الحركة بين أصحاب المراصد فى(سنار) (وأبى حراز) ، وأنزلوا بعض المدفعيات فى أول يوليو من السنة ،ثالث عشرى صفر سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف إلى النيل ،وكانت قد تعطلت حينا .وقد تحقق أن(عثمان دقنه) لم يصحب التعايشى فى قيامه من (شركيله) ،بل إنه ظل يحرس النساء والعجزة ، وليس عنده من القوة سوى مائة رجل أو أقل ،وأن اللاجئين إلى أم درمان من قبيلة(الحبانية)يقولون أن رجال (دقنه) لا يتجاوز عددهم الخمسين . فلما استوثق مقدم العساكر من ذلك برز أمره بتوزيع السلاح على عربان (الجريف) ، وأخذ عليهم العهد بمطاردة التعايشى حيثما سار .وأقسم شيخهم الأيمان المغلظة بأنه يأتى برأس التعايشى ، وسلم إلى مقدم الجند عصاه دليلا على صدق عهده وبرهانا على وفائه بوعده ،فما هى عشية أو ضحاها حتى جاءهم الخبر بخروج التعايشى من(تجلا) إلى(أم طلخا) . فجد القوم فى طلبه ، وخرجت كتائبهم تباعا .فلما أحس بهم فر إلى(جبل القرون)الواقع على البحر الأبيض ،شرق(جبل الغدير)على مسافة خمس مراحل من(مشرع الظريف) . وبينما الحال على هذا إذ جاء الطلب من صاحب السياسة الإنجليزية إلى لورد

كرومر بضم سواكن وملحقاتها إلى السوادان القبلى ،وجعلها تابعة له فى جبايتها ورجالاتها وقلاعها وحصونهاوكلما[٢٣٦] يتعلق بها .فاهتم لورد كرومر بالأمر إهتماما عظيما ،وجعل يغدو ويروح بين قصر الإمارة وديوان الرئيس أياما حتى برح الخفاء .وبرز أمر الأمير بالتصديق على ذلك فى تاسع يوليو من السنة ،أى سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف ، ثانى ربيع أول سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف .وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق ،واستقدموا من كان بها من أصحاب المناصب الديوانية .فحضروا إلى القاهرة ولبثوا بها أياما ، ثم إستبدلوا بعضهم وأعادوا بعضهم . وكان ممن حضر معهم نفر من صغار الضباط .فاتفق أن أحدهم خاصمته زوجته وعنفته على تركها مع أولادها منه يتضورون جوعا ،وهو مقيم فى بلاده وهوى نفسه ،يطلق ، ويتزوج ويطلق ما شاء من نساء سواكن .فلم يعجبه ذلك وأكبر أمره ،فقام عليها وجعل يضربها بيديه ورجليه حتى أدماها .وجاءها الجيران مغيثين وحملوها إلى بيت الشحنة[٢٣٧] ، فالمحكمة . فنال الرجل جزاءه . وأشاعت المرأة خبر ما حل بزوجها بين صويحباتها ،وطالبته بالطلاق أو النفقة أمام قاضى الشريعة ، فحكم لها .وعلم نساء صغار الضباط والجند الذين بالقاهرة خبر ذلك ، وكن فى عوز وشدة لترك الأزواج لهن ،فاجتمعوا جماعة كثيرة ورفعوا إلى وزارة الحرب شكواهن من أولئك الأزواج ، لأنهم تزوجوا بالسودان وتركوهن بلا نفقة ولا طلاق .وتزاحموا على باب ديوان الرئيس وقصر الإمارة فى صياح وضجيج ، والناس حولهم يتوجعون مما هم فيه ،فبرز الأمر بالتحقيق ، ولكنه تحقيق على ما رأيناه لا يطعم أطفالا ولا يعول نساءاً ذهبت الرحمة عليهن وعلى أولادهن من قلوب أزواجهن .وعندى أنه جدير بوزارة الحرب أن تمنع جندها من التزوج قبل طلاق نسائهن ،أو النفقة عليهم[٢٣٨] ، حتى يتأذن الله بالفراق .

(٢٣٦) وكلما = وكل ما
(٢٣٧) اى قسم البوليس
(٢٣٨) عليهم = عليهن

وأصبحوا يوم الأحد خامس عشر يوليو ، سابع ربيع أول من السنة ، أى سنة سبع عشرة وثلثمائة ، وقد أطلقت المدافع من قلعة وميدان محطة القاهرة إيذانا بوصول ركب المحمل ، وخروجه إلى المصطبة تحت القلعة . فتسابق الناس إلى الميدان .واصطف الجند ذات اليمين وذات اليسار ، وصدحت الموسيقى العسكرية ، وأقبل الرئيس مصطفى فهمى نائب الغيبة عن الأمير فى موكب حافل ،ومعه جماعة الوزراء .فلما بلغ الجمل تحت قلعة الجبل ، أطلقت المدافع ثانية ،وصدحت الموسيقى بنشيد الفرح .فدار الجمل دورته المقررة أمام المصطبة ، ومر بالرئيس فأخذ بخطامه ،وقبله وناوله إلى جماعة الوزراء ، فقبلوه وقبله القاضى (جمال الدين) والمفتى الشيخ (محمد عبده) (والشيخ الشربينى)(٢٣٩) شيخ الجامع الأزهر ، الذى تقلد المشيخة بعد خلع الشيخ (حسونة النواوى) على ما مر بيانه فى حينه .ثم عاد الجمل بمحمله إلى حيث وزارة المالية على الطريقة المعتادة فى كل عام .وأخبر الحجاج الذين رافقوا المحمل أن العربان بين مكة والمدينة فتكوا بالكثير منهم قتلا وسلبا نهبا ، وأنهم وقفوا لهم فى كل صوب وحدب ، فأذاقوهم مر العذاب .وكانوا إذا تعذر عليهم السطو ليلا ليقظة الحجاج وتألبهم على الندب عن دمارهم(٢٤٠) ، تخطفوا مؤخرتهم نهارا .وذلك لقلة عدد الجند الذين ساروا لخفارة المحمل فى ذلك العام ، ونزوع العرب إلى الإنتقام من الموكب بسبب عدم إعطائهم (الإتاوة)المقررة لكل قبيلة فى كل عام ،بحكم إتفاق مشائخهم مع محمد على باشا الكبير ، بعد حروبه مع جماعة الوهابيين المشهورة فى ذلك العهد .

(٢٣٩) كان شيخ الأزهر فى ١٨٩٩ هو الشيخ عبدالرحمن قطب النواوى الذى عين فى الثالث من يونيو من ذلك العام بدلا من الشيخ حسونة النواوى الذى كان مفتيا للديار المصرية وشيخا للجامع الأزهر ـ فتولى الشيخ محمد عبده منصب الإفتاء وتولى الشيخ قطب مشيخة الجامع الأزهر . أما الشيخ الشربينى فقد عين شيخا للأزهر عام ١٩٠٥ .
ـــ عبد العزيز رفاعى(احمد شفيق المؤرخ ـ حياته وآثاره) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٧

(٢٤٠) الندب عن دمارهم = الذب عن زمارهم قراءة ترجيحية
والذب هو المنع أو الدفع ـ والزمار من الزمرة بالضم أى الجماعة
ـ مختار الصاح ـ ص ٩٢ ، ١١٦

وكـان إلى هذا الحين لم يتم الإتفـاق بين أصحـاب الإحتـلال ومنليك ناجوسى الحبشة على تحديد التخوم[٢٤١] بين المملكة الحبشيـة والبلاد السودانية . وكان فى كل قليل من الزمان ترد كتب الناجوسى إلى السردار تارة وإلى صاحب السياسة الإنجليزية تارة أخرى .وهم يطاولون ويحاولون ولايقفون عند حد . فأرسل يوما الرأس(منغيسيا)[٢٤٢]إلى(مكسويل بك) نائب الغيبة عن السـردار أن عجلوا بفصل التخوم بيننا وبينكم ، وإلا كان لنا وإياكم يومـا[٢٤٣] عصيب . فرد عليه(مكسويل بك)ردا جميلا وقال إن فصل التخوم أمر يختص بالسردار دون غيره ،ولا طاقة لى على شئ معكم ، فراجعه(منغيسيا)فلم يرد عليه . قيل وخاشن رسوله .فلما عاد الرسول وأخبر بما وقع ،فلم تمض أيام حتى جاءت الأنبـاء إلى نائب غيبـة السردار ووزارة الحرب بالقـاهرة بأن طائفـة من الأحبـاش وصلوا إلى (فيـزوغلى)[٢٤٤] وأوعزوا إلى(حسين أفندى توفيق)مقدم المـرابطين بذلك البلد بالارتحـال عن[٢٤٥]بجنوده .فـأرسل من دوره إلى نائب الغيبة بخبر ذلك ،فرد عليه أن ازعن[٢٤٦]وارتحل ،ولا تتعرض للأحباش بشر .وما هى عشية أو ضحاها حتى أخبر الجواسيس أن حملة حبشية سارت أيضا من جهـات(الغـلابات)[٢٤٧] إلى حـدود(أسـمرة)لاحـتـلالهـا .فلم يعارض جمـاعة الإنجليز أصحاب التخوم فى ذلك ،ولا حركوا فيه ساكنا لبعد الشقة وقلة عدد الجنود المرابطين وراء تخوم الحبشة .وشاع الخبر وتناقله أصحاب صحف الإنجليز ،فأكبروه جدا ولكنهم لم يفزعوا إلى تحريض حكومتهم على مقاتلة

---

(٢٤١) راجع حاشية ٨١ من حواشى عام ١٨٩٩ وقد دارت المفاوضات فى إبريل ١٨٩٩ وتم التوقيع على الإتفاقية فى ١٥ مايو ١٩٠٢

(٢٤٢)منغيسيا = منجشا .

(٢٤٣) يوما = يوم

(٢٤٤) راجع الخريطة ملحق رقم(٥) ورقم (٨)

(٢٤٥) عن = عنها قراءة تصحيحية

(٢٤٦) ازعن = إذعن

(٢٤٧) الغلابات = القلابات

ـ انظر الخريطة ملحق رقم (٥)

الحبشان ،أودفعهم عن التخوم على عادتهم المألوفة عندهم عند اشتداد الحركة فى معسكر الحبشان ، فقد كان نائب الغيبة ومن معه من مقدمى الإنجليز فى شاغل من حركة[٢٤٨] التعايشى وإقتتاله مع مشائخ القبائل ولا سيما شيخ(جبل قدارو)[٢٤٩] . إذ دحر هذا الشيخ جماعة الدروايش وأبلى فى قتالهم حتى أجلاهم عن(جبل القرون) ، وتتبعهم حتى مزق مؤخرتهم شر ممزق .قالوا ولم يقو التعايشى مع هذا على أخذ المسالك والدورب على الدارفور كما ينبغى . فقد ثبت خبر وصول جماعة من السيادة[٢٥٠] إليها قادمين من السودان الفرنسوى يحملون كثيرا من ريش النعام والعاج ،وغير ذلك من حاصلات تلك البلاد . واتفق فى هذه الأثناء أن كثرت شكوى الضباط المصريين المعسكرين بالسودان من قلة جماكيهم[٢٥١] ،وعدم مساواتهم بالضباط الإنجليز هناك ، وأزاعوا[٢٥٢] شكواهم فى الصحف المحلية . وهب جماعة من المتقاعدين منهم بالقاهرة إلى نصرتهم ، فجعلوا ينشرون المقالات الطويلة والأقوال المهيجة ضد أصحاب الحل والعقد حتى احرجوهم ومنوهم[٢٥٣]بالخبال .وعملوا لجماكى جميع الضباط قاعدة دونوها على ماشاء مستشار وزارة المالية والسردار . وسيروا بها إلى (مكسويل بك)نائب غيبة السردار ،وسرحوه[٢٥٤] فى أمرها . فلم يقبلها جماعة الضباط وقالوا أنها لا تلائم أحوال الزمان والمكان ، ولا هى من النصفة فى شئ . فعاودهم نائب الغيبة ،فلم يعدلوا عن رأئهم[٢٥٥] . قالوا فجعل يتنقل

---

(٢٤٨) من حركة = بحركة قراءة ترجيحية
(٢٤٩) قدارو = قدير
راجع حاشية من حواشى عام ١٨٩٩
(٢٥٠) السيادة = السيارة قراءة إجتهادية
(٢٥١) راجع حاشية ١ من حواشى عام ١٨٩٧ .
(٢٥٢) وأزاعوا = واذاعوا قراءة تصحيحية
(٢٥٣) ومنوهم = ونعتوهم قراءة ترجيحية
(٢٥٤) وسرحوه = وفوضوه قراءة ترجيحية
(٢٥٥) رائهم = رأيهم قراءة ترجيحية

بنفسه إلى مراكز الجيش ويهدد أولئك الضباط بسوء العاقبة إن هم اسروا[٢٥٦] على رفض تلك القاعدة ،حتى لقد قال لهم إن هذا الرفض يعد خروجا وعصيانا يحاكمون عليه ،وأنه إذا كانت لهم مطالب بعد قبول تلك القاعدة أو هناك إجحاف بحقوقهم المزعومة فيرفعوا ظلامتهم إلى كبارهم ومقدمى صفوفهم ، وضرب لهم أجلا . قالوا فلم ير القوم بدا من الطاعة والقبول حتى لا تنعكس الآية ،فيعدونهم عصاة متمردون على كبارهم ، وأميرهم وحكومتهم .وظل نائب الغيبة على هذا حتى استكتبهم جميعا بالقبول . وانتشر خبر ذلك بين الناس وتحدثوا فيه كثيرا . يقال كان فى القاهرة من الضباط المستودعين[٢٥٧]ـ يعنى الذين بلا خدمة ولكنهم تحت الطلب إليها ـ عددا ليس بقليل ، وكانوا كثيرى العداء للضباط الإنجليز الذين فى خدمة الجيش ،لأنهم دون المصريين فى المعرفة والكفاءة الإدارية ،وأكبر منهم فى الجماكى والمعلومات[٢٥٨] والمرتبات العسكرية .فكانوا إذا علموا بخبر حادث وقع خوانهم[٢٥٩] عند التخوم جسموه ولو كان بسيطا ، وبالغوا فيه ولو كان تافها ضئيلا ، وإذا أخرج أحدهم من خدمة

(٢٥٦) اسروا = أصروا قراءة تصحيحية

(٢٥٧) الإستيداع هو الحالة التى تنتهى فيها خدمة الضباط بصورة مؤقتة يصرف لهم فيها جزء من المرتب الأساسى ـ وتحتسب من مدة الخدمة ويستقطع عنها أقساط المعاش . خلال مدة الإستيداع يحرم الضباط من حمل السلاح أوارتداء الملابس العسكرية أو ممارسة أى مهمة من مهام الوظيفة أو الإنتظام فى محل ممارستها . يحدث الإستيداع لأسباب تتعلق بتخفيض أعداد الجنود فيستلزم الأمر تخفيض أعداد الضباط اللازمين للجيش ـ أو ضغط الميزانيات ـ أو مجازاة الضباط المرتكبين(لجنايات عسكرية) . إذا أعيد الضباط إلى الخدمة قبل مضى سنة من تاريخ الإستيداع وضعوا فى أقدميتهم seniority التى كانوا عليها قبل إستيداعهم ، أما إذا تجاوزت مدة الإستيداع سنة فإنهم عندما يعادون يوضع أمامهم في الأقدمية عدد من الضباط مساو للعدد الذى يتقدمونه . يخضع الضباط المستودعون للقوانين العسكرية ولا يسمح لهم بممارسة أى وظائف طوال مدة الإستيداع .

ـ قانون المعاشات العسكرية الصادر فى ٢٦يوليو سنة ١٨٨٨

(٢٥٨) المعلومات = العلوفات قراءة ترجيحية ـ والكلمة عربية وتعنى المواد الغذائية اللازمة للإنسان والحيوان ، والراتب للعسكريين والمدنيين فى الإدارة العثمانية .

ـ احمد السعيد سليمان(تأصيل ماورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٥٢ .

(٢٥٩) خوانهم = لإخوانهم قراءة تصحيحية

الجيش إلى ذلك الإستيداع قامت صيحتهم . وأخذت صيحتهم وزارة الحرب من كل جانب ،وعدوا الأمر اقتيانا[٢٦٠] من جماعة الإنجليز وعملامهينا بالمصريين لا طاقة لهم على الصبر عليه ،حتى لقد بثوا فى صدور بعض الشبيبة الذين كانوا يريدون اللحاق بالمدرسة الحربية بغض الجندية ،واعتبار من يقلدها دغد[٢٦١] مرزول[٢٦٢] عند جماعة الإنجليز . فامتنع الشبان من دموج تلك المدرسة ،وكرهوا إسم الجندية حتى كادت تقفل أبواب تلك المدرسة ، ولم يقبل عليها فى عامهم ذلك إلا نفر من أبناء السود الذين أتى بهم جماعة الإنجليز من وراء التخوم لهذه الغاية . وقد تبعهم جماعة من أهل التخوم فنزلوا فى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من البلاد ،ولا صنعة لهم سوى الشحاذة واستعطاء أبناء السبيل بمرأى ومسمع من أصحاب الشرطة .فما هم على هذه الحال حتى كثر خطف الصبيان من الأزقة والحارات فى الليل والنهار ،وعمت هذه الكارثة القاهرة والإسكندرية وضواحيهما ،وتزاحم آباء وأمهات أولئك الصبيان على باب محافظ المدينة وصاحب الشرطة وديوان الرئيس وهم فى بكاء ونحيب ، وطاف المنادون ينادون (بيا ولاد الحلال ولد تائه) . فاهتم محافظ المدينة لذلك إهتماما عظيما وأحصى من اختطف فكانوا مائة وتسعين بين الرابعة والثالثة عشرة .ورفع صاحب الشرطة إلى وزارة الداخلية تقريرا بذلك وقال أن الدافع لأولئك الصبية على الإختفاء هو سوء تربيتهم وعدم عناية والديهم بهم ، وأنهم غير مختطفون ولكنهم متشردون ، وأيد قوله هذا بالبرهان . والناس على سعيهم وبحثهم ،والمنادون ينادون فى الطرق والحارات فى الليل والنهار ، حتى عظمت الفتنة واشتد بغض الناس لأصحاب الشرطة ، ورموه[٢٦٣] بالغش ومشاركة الخطافين فى مهنتهم . وتكلم أصحاب الصحف فى ذلك

---

(٢٦٠) اقتيانا = افتياتا قراءة ترجيحية
(٢٦١) دغد = وغد قراءة ترجيحية
(٢٦٢) مرزول = مرذول قراءة ترجيحية
(٢٦٣) ورموه = ورموهم قراءة تصحيحية

كثيرا . فلما كان رابع أغسطس من السنة ، سابع عشرى ربيع الأول سنة سبع عشرة وثلثمائة ،ضبط أصحاب الشرطة فى رمل الإسكندرية رجلا أسود وامرأة من خاطفى الأولاد ،وقد وجدوا مع ذلك الأسود ثلاثة أولاد صغار ،كان يحملهم على ظهره في كيس كأنهم رؤوس بطيخ . وكانت السوداء التى كانت معه تداعب غلاما فى الرابعة أمام باب داره وتقربه منها بشئ من الحلوى ،فقبضوا عليها قبل أن تتمكن من الغلام ،وساقوهما إلى بيت الشرطة والناس من حولهم كالبحر الزاخر من شدة الزحام . وكانت تلك السوداء تنظر إلى الجمع الذى حولها نظرة الدبة الغاضبة ، وتسبهم برطانتها ، والصبيان يصيحون خلفها (إقتلوهما إقتلوهما) . وأقبل بعض الأمهات اللواتى فجعن بخطف أولادهن يصرخن ويولولن كأنهم فى جنازة ،فكان المنظر محزنا جدا .وظهرت الحركة فى المدينة ، وطاف مشائخ الحارات ينادون أن من كان له ولدا يتحفظ به ويسهر عليه ،إذ وجدوا جماعة ممن يخطفون الأولاد . فهلف[٢٦٤] لذلك قلوب الناس ، واستولى الخوف على الآباء والأمهات . وبرز الأمر بالتشديد فى تعقب تلك الطغمة والقبض عليها حيثما صارت ،فلم يبق لقول أصحاب الشرطة فى أمر إختفاء الأولاد معنى بعد القبض على ذلك الأسود وزميلته .وعندى أن القبض على الأسودين يدل على أن سوء التربية وترك الأولاد فى الأزقة والحارات ليس وحيدة[٢٦٥] علة ضياع الأولاد ، وأن هناك طغمة جعلت ريدتها خطف الأولاد الصغار لغرض من الأغراض . فقد أخبرنى من رأى الثلاثة الذين كان الأسود يحملهم فى زنبيله ،أنهم كانوا مخضرى[٢٦٦] الأعصاب كأنهم أطعموا شيئا من الحشيشة ،والنوم آخذ منهم مأخذه . فالأمر إذن ليس بهين ،ولا هو قليل الفظاعة أو[٢٦٧] تعقله المنصفون .وكبر خوف العامة وتطيرهم ونفورهم من كل أسود

(٢٦٤) فهلف = فلهفت قراءة ترجيحية
(٢٦٥) وحيدة = وحده قراءة ترجيحية
(٢٦٦) مخضرى = مخدرى قراءة ترجيحية
(٢٦٧) او = لو قراءة ترجيحية

والإيقاع به ، ولا سيما إذا عثروا عليه فى الأزقة والعطوف ،بلا خوف ولا مبالاة بأصحاب الشحنة . وسافر الرئيس مصطفى فهمى باشا إلى الإسكندرية ، وأرسل على أثر وصوله إليها فى طلب محافظ المدينة ، وكان يومئذ مريضا فجاءه متثاقل[٢٦٨] . قيل فكلمه فى هذا الحادث كثيرا ، وأغلظ معه القول ،وشدد على صاحب الشرطة بمطاردة أولئك الخطافون وقطع شأفتهم .وكان بعض قناصل الدول قد كلم الرئيس فى ذلك ،وعابوا على أصحاب الشرطة عجزهم عن إكتشاف مكامن تلك الفئة ،وأخذ المسالك عليهم .ومن العجب سرعة إنتقال بعض العامة إلى جماعة السود والإيقاع بهم وخزا وضربا ولكما أينما وجدوهم ،إلى بعض مهاجرى الأرمن الذين هاجروا فى هذه الأيام ديارهم من بلاد السلطنة العثمانية إلى الإسكندرية والقاهرة فرارا من إيذاء مواطنيهم المسلمين وعسفهم ،وانتصار أهل الحل والعقد لأهل العسف ، تنكيلا بأولئك الأرمن ،لا لذنب سوى طلب الحرية الطبيعية والمساواة بمواطنيهم . فكان العامة والسوقة إذا رأوا الرجل من أولئك القوم مارا فى طريقة قاموا عليه بالسب واللكم وربما مزقوا ثيابه ، وترامح الصبيان خلفه وهم يصيحون (حرامى حرامى) .فيعدو الرجل وهو لا يرى للخلاص سبيلا . فإذا قيض الله له من يدفع عنه أولئك الصبية نجى[٢٦٩] منهم ،وإلا فهو مطارد حتى يرى بابا للخلاص . وظل الحال على ذلك أياما حتى إهتم أصحاب الشرطة بالأمر ، وهددوا العامة وأهل الشقاوة بالحبس والتشغيل فى الأعمال السافلة ككنس السجون ونقل القذورات[٢٧٠] وغير ذلك .حتى ملأ قلوبهم الخوف وانكفوا عن إيذاء أولئك الخلق .وجعلوا يكذبون الرواية بتاتاعلى لسان كل الصحف ،وما زالوا حتى هدأت الخواطر وأطمأنت القلوب ،وسرى عن الناس ما كانوا يخشونه .

---

(٢٦٨) متثاقل = متثاقلا قراءة تصحيحية

(٢٦٩) نجى = نجا قراءة تصحيحية

(٢٧٠) القذورات = القاذورات قراءة تصحيحية

وفيما الحال على هذا إذ عاد السردار من ديالا[٢٧١]الإنجليز إلى القاهرة بعد غيبة نزل فيها ضيفا فى سراى ملكة الإنجليز أياما ،وفى قصور بعض الأمراء أياما أخرى ،وفى حدائق بعض الأغنياء وكبار القوم من الإنجليز . فاستقبلوه فى محطة سكة حديد القاهرة إستقبالا باهرا ،حضره كل وزير كبير . فما هى إلا عشية أو ضحاها حتى ظهرت الحركة فى وزارة الحرب ،وبرزت الأوامر تباعا بإرجاع سائر الضباط والصف ضباط من الإنجليز والمصريين إلى مراكزهم بالتخوم ، واستبدال بعضهم بآخرين . وتابعوا إرسال المؤن والمهمات للسكة الحديدية ،وبناء القناطر الخيرية[٢٧٢]وإصلاح ما تخرب من الجسور ،وما تقطع من أسلاك التلغراف ، وتنفيذ القوانين ولوائح الأطباء والصيادلة وضبط الوقائع ، واستنطاق أصحاب الجرائم ،وتحرير عقود الانكسحة[٢٧٣] وما شابه ذلك على الأسلوب المتبع فى مصر ،لا كما كان جماعة الإنجليز يريدون من القلب والإبدال . ولكنهم قد تصرفوا فى غير ذلك من الضرائب والأتاوات ، ففرضوا على كل فدان يروى من ماء المطر ضريبة قدرها عشرة قروش ، وعشرين قرشا على كل فدان يروى من نهر العطبرة ،وقننوا قانونا للدلالين والباعة المتنقلين ،بأن لا يباشروا مهنتهم إلا برخصة سنوية تعطى لكل واحد من حاكم السوادن .فمن كان منهم متوطنا فى(الخرطوم)(وسواكن) (وبربر) (والتوفيقية) ، أعطى الخزينة عن رخصته مايتين قرشا صاغا ، ومائة قرشا للجهات الأخرى ، وخمسة وعشرين قرشا فى السنة لكل رخصة للباعة المتنقلين .ويعاقب الدلال إذا باشر عمله بدون رخصة بغرامة قدرها خمسين قرشا عن كل مرة ، والبايع بغرامة خمسين قرشا عن كل أسبوع أو بعض الأسبوع .وفرضوا على السفن والنقالات

(٢٧١) ديالا = دبار قراءة ترجيحية

(٢٧٢) اعتقد أنه لامجال لكلمة(الخيرية) هنا ـ وأن الصحيح هو كلمة القناطر فقط ـ وربما تكون كلمة الخيرية قد وردت سهوا كنوع من التداعي اللفظي Association of words

- Lexicon Universal Enceyopedia – Vol . 2 – p.. 265 – 266

(٢٧٣) الأنكسحة = الأنكحة

عشرين قرشا عن كل أردب ، بحساب مجموع محمول كل سفينة ، ودفع هذا القدر يكون على قسطين متساويين ، الأول فى شهر يناير ، والثانى فى شهر يوليو . ويعفى من هذه الأتاوة المعادى[٢٧٤] التى مع أصحابها رخصة ،والمعادى التى يقيم أصحابها فى القطر المصرى ،ولا تسافر جنوبى شلال وادى حلفا . وشددوا على التجار الذين يفدون إلى مصر بعدم نقل سن الفيل إذا لم يرخص لهم بذلك جماعة الحكام ،أو إذا لم يذكر فى جواز سفرهم أنهم أعطوا الإتاوة المقررة .

وبرز أمر السردار إلى التخوم باستخلاص الباخرتين اللتين جنحتا عند (الطيب)[٢٧٥] .فانحدر أحد الضباط المصريين فى طايفة من الجند من أم درمان لاستخراجها ،وكان النيل قد هبط ولم يبلغ زيادته المعتادة فى عام[٢٧٦]هذا ، فتمكنوا من إخراجها .وجاء الخبر بذلك إلى السردار ،وبأن النيل لم يبلغ إلى ذلك الحين إلا إثنى عشر ذراعا ، وهذا القدر من الإرتفاع لايكفى لبلوغ الغاية التى يرجونها من كثرة الماء عند الشلالات . فسأل السردار أصحاب الرى من جماعة الإنجليز بوزارة الأشغال العمومية . فقالوا أن فيضان النيل وبلوغه إثنى عشر ذراعا وقيراطا فى(اصوان) فى هذا العهد يعد أوطأ فيضان سبقه ،قياسا على أن فيضان سنة سبع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد كان أوطأ فيضان عرف لأصحاب الرى ، ولأن قياسات النيل لم توضع إلى[٢٧٧]فى سنة إحدى وسبعين ،وقد كان فيضان سنة ثمان وثمانين واطيا ،إلا أنه كان أقل إنخفاضا من فيضان سنة سبع وسبعين . وبلغ قياس أسوان فى ٢٠ اغسطس سنة سبعة

(٢٧٤) المعادى = مصطلح دارج لنقاط العبور على النيل من أحد شاطئيه إلى الشاطئ الآخر
- Daniel Crecelius & Abd aL - wahhab Bakr (aL Damurdashi's Chronicle of Egypt – aL – Durra aL – Musasna fi Akhbar al-Kinana) Ibid., p..314

(٢٧٥) مدينة جنوب سواكن وغرب طوكر
ـ راجع الخريطة ملحق رقم(٥)

(٢٧٦) عام = عامه قراءة ترجيحية

(٢٧٧) إلى = إلا قراءة تصحيحية

وسبعين ، يعنى فى مثل يومنا وسنتنا التى نحن فيها نؤرخ ،ثلاث عشرة ذراعا وقيراطا ،ثم وصل معظم الزيادة فى أربعة وعشرين أغسطس إلى أربع عشرة ذراعا وستة عشر قيراطا .قالوا وقد جاءت الأخبار من(سنار)[٢٧٨]عن[٢٧٩] النيل الازرق ، بأن المياه زادت بين إحدى عشر ،وثمانية عشر أغسطس مترا واثنين وستين سنتيمترا ، وتوالت الأمطار فى الخرطوم ،حتى زادت المياه سبعة وخمسين سنتيمترا ، وقد ابتدأ الإرتفاع فبلغ تسعين سنتيمترا لغاية عشرين أغسطس . ويستمر النيل على هذا الإرتفاع جملة أيام ، ويحتمل أن تصل هذه الزيادة إلى أسوان فى ثانى عشرى أغسطس ، والقاهرة فى حوالى ثلاثين ،ويرتفع على أثرها منسوب أسوان آخر الشهر إلى خمسة عشر ذراعا ، ومنسوب جزيرة الروضة فى سادس سبتمبر من السنة إلى ثمان عشرة ذراعا ،أو تسعة عشر . وبناء عليه فإن الخوف من الشرق[٢٨٠]يخف عما كان مرجحا من قبل . ويدل ظاهر الفيضان الآن على أنه سيكون أوفى من فيضان سنة ثمان وثمانين .غير أن النيل الأزرق عاد فانخفض فى (سنار) فى يومنا هذا .ولذا فلابد أن تبقى أراضى كبيرة بغير رى أ . هـ . فكان لقول أصحاب الرى هذا أثرا شديدا فى النفوس ، وخاف الناس من شر الشرق عامهم هذا ، وحسبوا له حسابا كبيرا ، وأهتم له السردار أيضا أهتماما عظيما .فسافر من يومه إلى السودان ،أى فى مساء حادى عشرى أغسطس من السنة لا يلوى على شئ .وسافر معه جماعة من الضباط الإنجليز ، وعدد من اصحاب الوظائف الديوانية .

(٢٧٨) سنار = انظر الخريطة ملحق رقم (٥)

(٢٧٩) عن = على قراءة ترجيحية

(٢٨٠) الشرق = الشرف بمعنى القلة او النقص ـ تشريق اللحم يعنى تقديده ـ وهى الشجا أو الغصة ـ وفى الحديث (يؤخرون الصلاة إلى شرق الموتى ـ أى إلى أن يبقى من الشمس مقدار مايبقى من حياة من شرق بريقه عند الموت ومنها جاءت كلمة(شراقى) أى أرض عطشى .
ـ مختار الصحاح ـ ص ١٤١

فلما كان ظهر ثالث عشرى أغسطس من السنة ،وسادس عشر ربيع الثانى سنة سبع عشرة وثلثمائة[٢٨١] ، وثامن عشر مسرى سنة خمس عشرة وستمائة وألف للشهداء ،طاف مبشرو[٢٨٢] النيل بطبولهم وزمورهم فى الشوارع والطرق ، ينادون بوفاء النيل أذرعه المعتادة ،ويبشرون الناس بالوفاء .وعمل المهرجان المعتاد فى كل عام فى ليلتهم تلك .فهرع الناس إلى فم الخليج ،وتكوفوا حول مسطبة المهرجان ،وأقبل الليل فأطلقت المدافع من العقبة ، وترسانة بولاق مصر ، واجتمع الأمراء والوزراء بسرادق المسطبة .وجاء الرئيس مصطفى فهمى باشا فى موكبه مع جماعة الوزراء ، وهو يومئذ نائب الغيبة . وجلس بالسرادق الكبير لحظة لطيفة مع قاضى القضاة والمفتى وجماعة العلماء .فأطلوا[٢٨٣] الألعاب النارية ،وصدحت الموسيقى ساعة ،ثم انصرف الرئيس وجماعة المدعوين . وأصبحوا يوم الخميس وقد جاء الرئيس فى موكبه وخلفه بعض الوزراء ، فاستقبله محافظ المدينة وجماعة العلماء ،فلبث معهم لحظة .ثم برز الأمر بإطلاق المدافع إيذانا بانفضاض الجمع ، فانصرف الناس .وعاد الرئيس ومن معه إلى داره . فلم يكن لذلك اليوم من الرونق والبهجة ما كان له أيام السد وكسره وجريان الماء من النيل إلى الخليج ،وبذر الفلوس الفضة على رؤوس الناس عند جسر السد .وقد حرر قاضى القضاة الحجة الشرعية بوفاء النيل طبقا للعادة المتبعة فى ذلك .ومن العجب أن هذه العادة لم تتبدل من عهد الخلفاء الراشدين إلى يومنا الذى نحن فيه ، والأعجب أنها تنبئ عن بلوغ النيل ستة عشر زراعا ، فهى لا تتغير ولا تتبدل ، وهى فى كل سنة واحدة ، سواء كان النيل زائدا عن ستة عشر زراع أو أقل ، وهو لم يبلغها فى هذا العام كما تقدم القول ،ولم يتم وفاءه إلى ذلك اليوم ،وأصحاب الرى من جماعة الانجليز يعزون

---

(٢٨١) وثلثمائة = وثلثمائة وألف أضيفت الكلمة لتصحيح التاريخ الهجرى(١٣١٧هـ)
(٢٨٢) مبشروا = مبشرو قراءة تصحيحية
(٢٨٣) فاطلوا = فاطلقوا قراءة ترجيحية

التأخير إلى أسباب وعلل متضاربه ، ويمنون الناس بالزيادة العاجلة القريبة ، وأصحاب الزراعات في ريب مما يقولون .فلما كان خامس عشرى أغسطس جاء الخبر من الخرطوم بارتفاع النيل تسعة سنتيمترات .فعد رجال الرى هذا الخبر سارا ،واطمأنت قلوبهم على الأرض الشراقى وبرز الأمر إلى أصحاب تلك الأراضى على يدى المديرين والمحافظين وسائر الحكام ،بالإهتمام والجد فى رى تلك الأراضى جهد الإستطاعة ،عند إنحدار تلك الزيادة من أعالى الشلالات ، ففعلوا واهتموا لذلك كثيرا . فأفلحوا وأمنوا الخسارة وحرمان الغلة ولا سيما الذرة التى يعتمد عليها الفلاح فى نفقة سنة[٢٨٤]وطعام عياله . إذ ليس له أن يربح من القطن والحنطة أو الفول ،بل هى الذرة تبقى له ولأولاده طعاما وكساءاً وغير ذلك .ولذا فهى أحب إليه من كل غلة وجنى .

وكان إلى هذا الحين قد أ تموا بناء الكوبرى الخدسوى[٢٨٥]الذى أقاموه على(نهر العطبرة) لمرور القطارات الحديدية عليه ، فسافر السردار من أم درمان فى رهط من مقدمى الجند وأهل المناصب وأصحاب الخطط لافتتاحه ، لأن إفتتاحه لم يكن عندهم بالحادث البسيط .فلما كان صبح سادس عشرى أغسطس فى نحو الساعة العاشرة وصل السردار وأركان حربه وجميع من كانوا فى ركابه ، وكانت المحطة مزدانة أحسن زينة ، وتخفق فوق ذلك الكوبرى الرايات والأعلام ،فقابله رجال الحكومة وأصحاب الوظائف ،فسار توا إلى الكوبرى وكانوا قد أعدوا قطارات لركوبه ،فركبه .وما أذن القطار بالمسير مجتازا الكوبرى حتى أطلقت المدافع تحية .وبعد الإفتتاح نزل السردار إلى السرداق المعد له وحوله أركان حربه والعمد والأعيان وأصحاب شركة بناء الكوبرى ، فوقف وقال (أيها السادة ، يسرنى أن أفتتح كوبرى(العطبرة)الذى قد تم بناؤه ، فأهنئكم جميعكم بالعمل العظيم الذى قمنا به إلى أن تمكنا من إنشاء هذا

---

(٢٨٤) سنة = سنته قراءة ترجيحية

(٢٨٥) الخدسوى = الخديوى قراءة ترجيحية

الكوبرى بعد أعمال أخرى عظيمة ، وفائدة هذا الكوبرى تعود على السكة الحديدية السودانية التى لم نشرع فى مدها إلا فى شهر مايو سنة ستة وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد ،أى نعم وقد أتممنا من الخط الواقع شمالى هذا الكوبرى خمسمائة سبعة وثمانين ميلا . ومن الخط الواقع جنوبيه مائة إثنين وعشرين ميلا ،فلم يبق بين آخر ميل من الخطوط الجنوبية وعاصمتنا الخرطوم سوى خمسة وسبعين ميلا ، كل هذا فعلناه بالرغم من المصاعب التى لاقاها رجالنا والعقبات الحائلة دون هذا العمل العظيم . وإنى لأذكر الصعاب التى كانت أمامنا عند ما كنا مضطرين لمد الخط الحديدى فى سحراء[٢٨٦] أبى حمد ،لأن تلك الصحراء كانت وقتئذ فى قبضة أصحاب المهدوية ،ولكننى أشكر الله على توفيقنا ،فإن ما فعلناه وقتئذ على عجل لا يحتاج الآن ــ على ما أرى ــ إلى أقل تغيير أو تبديل . وكل ما أصلحنا من الخلل من خطوط سكتنا هذه كان ناتجا عن شدة هبوب العواصف .ففى سنة ستة وتسعين أقتلعت الرياح فى يوم واحد سبعة عشر ميلا اصلحناها ،وفى هذا العام عطلت الرياح عشرة أميال .ومما يكدرنى أن الخط الممتد جنوبى(العطبرة)ليس فى مأمن من أن تضربه المياه) .وقال(والعواصف قد أضرت بالمئة والعشرين ميلا ضررا بينا ،وهذا ما أوقف عملنا بين شهر ونصف أو شهرين ،ولو أمكن تلافى ذلك بالوسائل لتلافيناه ،ولكن البلاد التى تكثر فيها العواصف فى بعض الفصول لا يمكن فيها مقاومة التغييرات الجوية . على أنى أسر من رؤيتى روح النشاط والجد منبثة فى صدور ضباطنا ورجالنا ، فهى التى تذلل الصعاب وتزيل العقبات التى تحول دون إتمام مشروعنا العظيم) . قال (والدليل على هذه الروح الشريفة ،الحالة التى وصلنا معها إلى إنشاء هذا الكوبرى .وإذا شكونا فإن شكوانا حقة ،لأن النقود التى طلبناها لإنشاء خط الخرطوم لم يعتمد تخصيصها إلا فى شهر أكتوبر الماضى .أما مركز الكوبرى فقد اقتضى حفرا عميقا إلى أن

(٢٨٦) سحراء = صحراء قراءة ترجيحية

وصلنا للصخر الذى أقيمت عليه الدعائم ،وزد على ذلك فإن الفيضان تقدم فى هذه السنة خمسة وعشرين يوما عن ميعاده ،وذلك لم يكن فى الحسبان .على أنه لم يثبط عزيمتنا عن مواصلة العمل ،حتى إذا جاء الفيضان بقوة مائه لم يلحق بالعمل إلا ضررا طفيفا .أى نعم ولقد أحدث الفيضان صعوبة تغلبنا عليها حتى أقمنا الخط الجنوبى) .قال(وفى شهرى نوفمبر وديسمبر الماضيين إقترحنا على المعامل الإنجليزية تقديم المعدات والأدوات اللازمة لهذا الكوبرى ، فلم ير واحد منها نفسه قادرا على ذلك فى الوقت الذى عيناه لذلك ، فكدرنى هذا الأمر شخصيا كدرا شديدا .وأرى أن مابين رال(٢٨٧)المال والمعامل فى بلادنا لا يسهل على أصحاب المعامل المبادرة والإسراع إلى إتيان مثل هذا العمل فى حينه . وإذا كانت خيبة ظنى بالإنجليز قد كدرتنى فإن تقدم أبناء عمنا سكان البلاد الواقعة وراء الأطلنطيقى – يريد الامريكان – للقيام بهذا العمل قد ملأ قلبى مسرة ،فنحن إذن مديونون لهم بالهمة والنشاط ، والإقدام على إنشاء هذا الكوبرى ، وبالقدرة التى أظهروها على القيام بالعمل الذى لم يقدم عليه سواهم . فأنا إذن أحنئ(٢٨٨)الأمريكان الذين يرقبون(٢٨٩)إعداد الأدوات اللازمة وتركيبها ، كما أهنئ كبار العملة كلهم ،لأن أعمالهم قد تكللت بالنجاح قيس(٢٩٠) أواسط أفريقيا النائية عن بلادهم ،وذلك فى أصعب الأوقات أى فى الأشهر التى يشتد فيها الحر ، وهم لا يعتمدون فى إتمام عملهم إلا على إناس لا تجمعهم وإياهم جامعة اللغة ، فهم إذن قد أستحقوا بعملهم كل مدح وثناء لما أظهروه من المقدرة والنشاط) قال .ولابد لى من الثناء على الخواجات (توماس) وشركائهم ، الذين أنشأوا أرصفة الكوبرى .ومع شكرى هذا ثقوا أيها السادة بأنه لم يكن ممكنا لى مد هذه السكة الحديدية لو عدمت الرجال الذين ذللوا

(٢٨٧) رال = رأس قراءة ترجيحية
(٢٨٨) احنئ = اهنئ قراءة ترجيحية
(٢٨٩) يرقبون = يرتبون قراءة ترجيحية
(٢٩٠) قس = فى قراءة ترجيحية

الصعاب جميعها بما فى صدورهم من الهمة والنشاط ،فضلا عن أنهم تحملوا تبعة العمل بمساعدة ضباط وصف ضباط ورجال الجيش المصرى . وأنى لأسر بالثناء العاطر بالأصالة عن نفسى والنيابة عن الضباط وصف ضابط[٢٩١] ورجال الجيش المصرى وأهالى السودان على حضرة[٢٩٢] الضباط (مرلوكى) (وستيفنسن) (وكلم) (ومدونتر) (ونيوكولم)(ومحمد بك رفعت) والخواجات (سندرسن) (وادامس) ،ومن ساعدوا فى إنشاء هذا الخط . ولنا الأمل جميعا أن من ذكرتهم يواصلون الهمة ويتغلبون على مابقى أمامهم من الصعاب ، حتى يتسنى لى إنشاء المحطة الكبرى فى عاصمة الخرطوم .وحينئذ نجنى جميعا بكل إرتياح ومسرة ثمرة أتعابنا) . أ . هـ

قلت ومن هذا الخطاب يعلم القارئ تاريخ بشارة[٢٩٣] تلك الخطوط الحديدية فى بلاد السودان ، وأطوال كل فرع منها ، والصعوبات التى لاقاها رجال الجيش المصرى فى ردف جسورها وبناء أرصفتها وقطع أحجارها ،وغير ذلك من الصعاب التى ذللتها تلك الأيادى العاملة والقلوب الراسخة القوية . فحيا الله أولئك الأشداء . ولما تشفى[٢٩٤] خبر إمتداد السكة الحديدية ، وأنها صارت على أبواب الخرطوم كثرت مطالب المرسلسن[٢٩٥] من الكاثوليك والبروتستانت وغيرهم إلى السردار بأن يبيح لهم الشخوص إلى السودان ،ويسمح لهم بإنشاء المدارس والرسالات فى إنحائه كما كانت قبل الثورة المهدوية .فلم يجبهم على ذلك ، ولكنه أباح لجمعية الرسالات الإنجليزية بأن تنشئ لها مستشفى فى الخرطوم ، وتظل على هذا فقط حتى تفتح أبواب السودان

---

(٢٩١) ضابط = ضباط قراءة ترجيحية
(٢٩٢) حضرة = حضرات قراءة ترجيحية
(٢٩٣) بشارة = إنشاء قراءة ترجيحية
(٢٩٤) تشفى = انتشر قراءة اجتهادية
(٢٩٥) المرسلسن = المرسلين قراءة اجتهادية

كلها ،ويسمع للمرسلسن[٢٩٦] بإنشاء المدراس وما يريدونه من معاهد العلم وبيوت التربية والمستشفيات . فظل القوم على قدم الإنتظار أياما وهم يغدون ويروحون إلى دار عميد الإحتلال ووزارة الحرب ،والسردار لا يلوى على أحد[٢٩٧]بعد الذى قاله . وبرز الأمر على أثر ذلك إلى ديوان الأوقاف بأن يأخذ

---

(٢٩٦) ويسمع للمرسلن = ويسمح للمرسلين قراءة تصحيحية
(٢٩٧) أحد = شيء قراءة ترجيحية

باشر المرسلون Missionaries الأمريكيون والإنجليز نشاطهم فى السودان عام ١٨٩٩ ـ فاتخذت إرسالية امريكية مقرا لها فى الخرطوم وأم درمان ـ وباشرت إرسالية إنجليزية نشاطا مماثلالها فى الخرطوم أيضا ـ ثم مدت الإرسالية الأمريكية نشاطها إلى العطبرة . مارست الإرساليات الأمريكية خدمات تعليمية وطبية فى الخرطوم والخرطوم بحرى وأم درمان ووادى حلفا وإنشئت مدارس لها هناك .

وقد إتخذت الحكومة البريطانية سياسة تسامحية إزاء النشاط التبشيرى فى السودان ـ ففى تقريره عن عام ١٩٠٦ قال كرومر(أتيح للمرسلين أن ينشئوا مدارس لهم فى الخرطوم ، ولمديرى هذه المدارس أن يعلموا فيها ما يشاءون من أنواع التعليم الدينى ، ولكن الحكومة توجب عليهم أن يخبروا آباء التلاميذ المسلمين وآباء التلاميذ المسيحيين الذين ليسوا من طوائفهم بالعلوم التى تعلم فى مدارسهم قبل أن يرسلوا أبنائهم اليها) .كذلك فقد جاء فى التقرير السنوى لعام ١٩٠٤ ما نصه (لابد للمسليمن فى مصر والسودان أن يعلموا خطة الحكومة البريطانية فى هذا الموضوع ، فليعلموا حق العلم أن الحكومة تطلق الحرية الدينية التامة للجميع على حد سواء وتعامل الجميع بالإنصاف التام فى كل المسائل الدينية ، فليس من أغراض الحكومة البريطانية أن تدعو الناس للإنتقال من مذهب آخر لا فى ممالكها ولا فى الممالك التى لها فيها شئ من السلطة) .

ويحث كرومر عام ١٩٠٤ المبشرين على القيام بمهمتهم التبشيرية فيقول (إن أعمال المبشرين الأمريكيين تسير سيرا حسنا ومستمرا ويقصد بأعمالهم تمدين الأهالى وتهذيبهم أكثر مما يقصد بها إدخال الديانة المسيحية بين القبائل الوثنية ، وعندى أنهم مصيبون في اتباع هذه الخطة) .

ومن المسلم به أن الخط الأساسى عند الإرساليات للتبشير بالديانة المسيحية هو تقديم الخدمات الطبية والتعليمية والإجتماعية لأهل البلاد التى يمارسون خدماتهم فيها . فعلى سبيل المثال مارست الإرسالية الأمريكية نشاطا طبيا فى السودان ـ وفي الجنوب على نهر السوباط علموا الأهالى ودربوهم على الصناعات وقاموا بمداواتهم ـ وكان يساعد الأطباء مساعدين من رجال الدين الأمريكيين من الرجال والنساء .

ولقد كانت الإرسالية الأمريكية من أنشط الإرساليات الأجنبية فى جنوب السودان وشاركتها فى ذلك الإرسالية النمسوية . وحتى عام ١٩٠٤ لم يكن للإرساليات الإنجليزية أى نشاط يذكر في المناطق الجنوبية من السودان وهو ما كان اللورد كرومر يأسف له فى تقاريره

وقد وضعت حكومةالسودان منذ بداية ممارسة سلطاتها بعد توقيع إتفاقية الحكم الثنائى فى اوائل عام ١٨٩٩ قانونا ينظم نشاط الإرساليات ، كان يقضى بالاتى :ـ

١ـ على رئيس كل مدرسة من مدارس الإرساليات قبل إن يقبل تليمذا مسلما فى مدرسته أن يوضح لوالده أو ولى أمره أن المدرسة مسيحية .=

الأهبة للقيام بنفقة بناء جامع ومدارس لأبناء السودان .وفرضوا عليه عشرة آلاف جنيه ذهبا ،وعشرة آلاف أخرى للمعدات والأدوات ففعل .وأودع المال فى خزانته لحين الحاجة إليه .

وكان إلى هذا العهد يترقب السردار وصول الأنباء عن الشيخ(عبد الصمد)الذى سار برجاله إلى جبال(الغدير)[٢٩٨]لمقاتلة التعايشى والإتيان برأسه كما وعد(مكسويل بك)الذى كانت له يومئذ نيابة الغيبة عن السردار على ما تقدم بيان ذلك فى محله ،وتنسم الأخبار عن(عربى دفع الله)الذى طرده البلجيكيون من جبل(رجاف) .فقد شاع أنه بلغ(كلكته) وشاد بها حصنا منيعا .فلما كان سابع عشرى أغسطس من السنة ،عشرى ربيع الثانى سنة سبع عشرة وثلثمائة[٢٩٩] عاد الشيخ(عبد الصمد)فى من بقى من أصحاب ،وأخبر أنه لما بلغ بقومه ناحية (سرايب) التى تقرب من معسكر عبد الله التعايشى ، وجد أن المعسكر عزيزا منيعا حوله خمسمائة فارس وثلاثة آلاف راجل مسلحون بالبنادق ، فلم يقو على الدنو منه وارتد على أعقابه ، وأخبر أن أصحاب عبد الله قد أخذوا بالحرث والزراعة ،وأنهم جميعا فى أرغد العيش لا كما الناس ينقلون عنه .وعلم السردار أن(عربى دفع الله)يقود ستة آلاف مقاتل ،وأنه قد إنضم إليه عدد كبير من أصحاب التعايشى .فقاتل بهم(على إبن دينار)صاحب الدارفور ،

= ٢ـ على رئيس المدرسة أن يحصل على الرضا التام من والد لتلميذ مهما كانت جنسيته وديانته قبل تعليمه علوم الدين .

٣ـ لا يحضر الدروس الدينية إلا التلاميذ الذين وافق آباؤهم على الشرط السابق

٤ـ للحاكم العام أو من ينوب عنه حق تفتيش المدرسة ، فى أي وقت شاء للتحقق من تنفيذ الشروط السابقة ، ومسئولية مدير المدرسة مباشرة فى المحافظة على تنفيذها .

وهكذا فإن الإنجليز استخدموا النفوذ الذى حازوه فى السودان بمقتضى(حق الفتح) فى تسهيل التبشير بالمسيحية فى السودان .

ـ نبيل عبدالحميد سيد أحمد(النشاط التبشيرى الأمريكى فى البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣) ـ المجلة التاريخية المصرية ـ العدد ـ ١٩٨ ـ ص ٢٧٣ ـ ٢٧٦

(٢٩٨) الغدير = قدير

(٢٩٩) وثلثمائة = وثلثمائة وألف

لأنه لم يأذن له باجتياز الدارفور واللحاق بالتعايشى . واقتتلوا قتالا شديدا جدا فقتل من أصحاب(على ابن دينار)خلقا كثيرا ، وأسرفهم[٣٠٠] زهاء ستمائة .ثم لحق (دفع الله) بخليفته .فلما تأدى إليه خبر ذلك كله برز أمره إلى أصحاب المرابط وأهل المراصد بأم درمان وسوارها بالتأهب والإستعداد لحملة غير مسماة .

وبينما السردار يأخذ الأهبة لحملته على الدارفور كما جاءت الأخبار ، كان جماعة الضباط من الإنجليز بالقاهرة يأخذون الأهبة للأفراح بذكرى يوم أول سبتمبر سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف الذى كانت فيه وقعة أم درمان ، ويعدون المآدب بعضهم لبعض .فإنه ما حل ذلك اليوم وأشرق نوره حتى إجتمع سائر الضباط الذين إشتركوا مع الجند المصرى فى فتح أم درمان وأعدوا زينة باهرة فى(فندق سافوى)بالقاهرة ،وطعاما وشرابا وأزهارا ورياحينا وأعلاما مصرية وإنجليزية . وظلوا على هذا حتى أقبل الليل ،فاجتمعوا وهم سبعة وثلاثين ضابطا ، ودخلوا الفندق بين عزف الموسيقى والمزمار وبينهم الجنرال(لين)قائد جيش الإحتلال .وجلسوا ساعة يتحدثون فى ما لم تصل إلينا معرفته ،حتى قاموا إلى المائدة فأكلوا وشربوا .ثم وقف الكولونيل (سلوجيت) وشرب نخب ملكة الإنجليز ،فصدحت الموسيقى بنشيدها .ثم فاه(الكولونيل كرول وندهام) ببعض عبارات تشير إلى إتحاد القوتين المصرية والإنجليزية ونجاحهما ،وختم كلامه بشرب نخب الأمير عباس باشا ،ثم شرب الكولونيل (كاميل) نخب السردار وضباط الجيش المصرى ، وشرب سواه نخب(الجنرال لين)وهكذا يتداولوا[٣٠١] شرب الأنخاب وتجاذب الحديث .قلت ولقد كنت أود الوقوف على نص أقوال القوم ، لأنها لا تخلو عن فائدة لمحبى التاريخ ، فلم أتمكن من ذلك . فقلت فى نفسى(مالا يدرك جله لا يترك كله) .ومن العجب أنه لم

(٣٠٠) واسرفهم = وأسرمنهم
(٣٠١) يتداولوا = ظلوا يتداولون عدلت الجملة ليستقيم المعنى

تغلب[٣٠٢] أقمار تلك الليلة الزاهرة ويصبح صباحها حتى جاء الخبر إلى وزارة الحـــرب من (بربر) بأن قـــاطرا من قطرها الحـــديدية ســـقط فى خـــوربين (الشريف) (والعبيدية) ،وقد تدهورت جميع عرباته فقتل أربعة وعشرين راكبا . وجرح ثلاثين أو يزيد .قالوا وسبب هذا السقوط إنهدام القنطرة التى كان يمر عليها القطار .قالوا والقتلى وجميع الجرحى كانوا قادمين إلى القاهرة ، وأكثرهم من الجنود ففاجأتهم منيتهم .فلما تفشى الخبر وتناقله الناس كثر الهرج فى البلاد بين أهل الجنود وذويهم ،وجاء جماعة منهم إلى القاهرة ووقفوا على باب وزارة الحرب يسألون عما حل بأولادهم .فلم يعرفوا من أمرهم شيئا ، ولم يغن عنهم عويلهم وصياحهم . وما هى إلا أيام حتى وصل الجرحاء إلى القاهرة ، فنقلوهم إلى بيوت المرضى بالعباسية ، وأخذوا فى تطبيبهم .فانقطع عن الناس خبرهم أياما ،ثم عاد إلى الظهور بأن قد تحسنت حالهم ، وشفى بعضهم شفاءً تامًا .

وكان لما سلم (الخليفة الشريف) إلى الحكومة ، وقدم الطاعة مع ولدى المهدى (بشرى) (والفضل) فى عام ثمانية وتسعين وثمنمائة وألف ، أذن لهم السردار بالسكنى فى ناحية (شكابة) التى تبعد بعض فراسخ من (واد مدنى) . فأقاموا بها مظهرين الطاعة والخضوع لأولى الأمر . وهم فى الخفاء يدعون الناس إلى المهدوية ، ويحضونهم على شق عصا الطاعة . وظلوا على هذا حينا .فلما كان شهر سبتمبر من السنة أى سنة تسعة وتسعين وثمنمائة وألف ،وأخريات ربيع الثانى سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف أتضح أمرهم وظهر سرهم .وبان أنهم يجمعون المقاتلة سرا من (عرب كنانة) وغيرهم ، وأنهم على قدم السير بهم إلى (قوز رجب) (وقوز جمعة) ،حيث يجتازوا ليلحقوا بالتعايشى .فبرز الأمر إلى بعض مقدمى الجنود بالقبض عليه مع ولدى المهدى .فخرجت العساكر فى عدتها وآلات حربها ، وأحاطت بالبلد من كل ناحية وحدب ، وكانت البلد

(٣٠٢) تغلب = تغب .

غـاصـة بالمقـاتلين مـمن أجـاب الدعـوة ، فلم تمـهلهم العـسـاكـر ، وكـبـسـوا على(الشريف وبشرى والفضيل) ، وقبضوا عليهم .فخرج الناس لأخذهم من أيدى العساكر ، وقاتلوا دونهم قتالا عنيفا وترس(٣٠٣)جماعة منهم خلف البيوت وفوق الأسطحة ،وجعلوا يطلقون بنادقهم على العساكر ،ويصلونهم نارا حامية . فأعملت العساكر فيهم القتل ومزقت جمعهم وأسرت منهم خلقا .وفتشوا البلد فوجدوا فيها شيئا كثيرا من الذخيرة والأسلحة ومعدات الحروب ، وخيلا وجمالا وبعض الماشية من الضان والبقر ،فاستاقوها كلها . وحملوا (الخليفة الشريف وبشرى والفضل)إلى المحاكمة . فحكموا عليهم بالموت رميا بالرصاص فقتلوا جهادا(٣٠٤) . وتساءل(٣٠٥)الناس عن حوادث التخوم وما ورايه(٣٠٦) من الفتنة ، بخبر إنحطاط النيل فى عامهم هذا ، وعدم بلوغه حد الزيادة المعتادة ،وأهتم له أصحاب الرى من جماعة الإنجليز إهتماما زائدا .فسيروا أحدهم وهو(الماجود براون)(٣٠٧) إلى حيث مقاييس النيل ليوافيهم بأخبارها . فغاب أياما وعاد فرفع تقريرا قال فيه(ظهر لنا اليوم أن فيضان هذا العام أكثر انحطاطاوانخفاضا مما ذكرته فى كتابى المرفوع إلى مقام الرئاسة يوم حادى ثلاثين أغسطس الماضى ،فأعلى ما بلغه النيل فى مقاس أصوان ثلاثة عشر ذراعا واثنين وعشرين قيراطا ،وذلك فى يوم رابع سبتمبر ،وفى مقياس الروضة بلغ ستة عشر ذراعا وعشرين قيراطا ،فى تاسعه ،وعاشره .ولا تنتظر الزيادة بعد الآن . وعليه فسيكون الشراقى الذى قدرناه يومئذ بمائة الف فدان

(٣٠٣) وترس = وتترس قراءة ترجيحية

(٣٠٤) كان محمد شريف قد استسلم للحكومة فى نوفمبر ١٨٩٨ قرب جزيرة(آبا) مع أبناء المهدى ثم أفرج عنه ـ لكنه إتهم بعد ذلك بالعصيان فقبض عليه هو وولدى المهدى وحوكموا جهاديا (أى عسكريا) وأعدموا رميا بالرصاص .
ـ على محمد بركات(السياسة البريطانية واسترداد السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٧٩

(٣٠٥) وتساءل = وإنشغل عدلت الكلمة ليستقيم النص .

(٣٠٦) ورايه = ورائها

(٣٠٧) الماجود = الماجور قراءة تصحيحية ـ وعن براون هذا ومهندسى الرى الإنجليز فى مصر ـ راجع الحاشية ٢٢٨ من حواشى عام ١٨٩٢ .

أكثر من ذلك كثيرا .وقد إستمر الإنخفاض بمقياس الخرطوم من ثلاثين أغسطس إلى سابع سبتمبر ،حتى بلغ سبعة وستين سنتيمترا . ولذا فإنى أرى أن أصحاب المزارع فى الأقاليم القبلية شاعرون بضرر هذا النقصان ،وما ينجم عنه من الكوارث .ثم أن الزيادة عادت مطردة فى مقياس الخرطوم مدة يومين إثنين ،من ثامن سبتمبر إلى عاشره . فبلغت إثنى عشر سنتيمترا نتجت عن زيادة النيل الأزرق فى(سنار) .ولكن هذه الزيادة لا ينتظر أن تكون مطردة ،وهى لا تعد زيادة كافية يكون من ورائها تغيير الحالة الحاضرة ، لأن الأخبار التى وردت من سنار تدل على أخذ النيل فى الإنخفاض .فمما تقدم يظهر أن فيضان هذا العام أقل من فيضان عام سبعة وسبعين وثمنمائة وألف .فإن ما بلغته المياه فى مقياس الروضة لم يعرف له مثيل إلا سنة ١٨٧٧ ، وذلك لاتساع الترع فى الإقليم القبلى ،حتى أصبح الحياض يأخذ فى هذه الأيام من المياه أكثر مما كان يأخذه قبلا ،فأفضى الأمر إلى إنحطاط المياه فى الروضة على ماذكرنا . وهذا دليل على أن تلك الترع تفيد فائدة كبيرة فى تلك الأنحاء .

ولما كان يوم السبت سادس عشر سبتمبر من السنة ، وعاشر جمادى الأول سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ،وصل إلى القاهرة جماعة من عظماء الحبشة موفدين من قبل الناجوسى منليك إلى دار بطريركية الأقباط الارثوذكس فى طلب رسامة أسقفين من قساوسة الطائفة القبطية لكرسى (مملكة تكاه مانوت)(ومملكة فوجام) الحبشيتين . فقابلهم وفد من الدار البطريركية ،وأنزلوهم بها على الرحب والسعة .فباتوا وأصبحوا وقد ساروا إلى مقر وزارة الداخلية ، ورفعوا إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا نائب الغيبة خطابا من الناجوسى إلى الأمير كله تودر فحامله[٣٠٨] ، ويخبره فيه بطلب رسامة الأسقفين المطلوبين . فأكرم الرئيس لقاءهم وشيعهم مع التجلة والتكريم . ثم ساروا إلى مقر

(٣٠٨) تودر فحامله = تودد ومجاملة عدلت الجملة ليستقيم المعنى

الوكالة البريطانية ، ورفعوا إلى نائب الغيبة عن لورد كرومر خطابا من الناجوسى أيضا بالمعنى التى جاءت فى الخطاب المرسل إلى قصر الإمارة .وأقاموا بالدار البطريركية أياما حتى تم لهم ما أرادوا . وأختاروا لكرسى(فوجام) فقط(الأ نباء يونس)أحد رهبان دير البراموس ،وهو من الشبان الأزكياء[٣٠٩] الأتقياء العارفين بالقبطية والحبشية ، والفرنسية ،ومجودا للعربية ، فضلا عن كفاءته الدينية ،وتبحره في القوانين الكنائسية .وسافروا معه إلى الحبشه فرحين به ومعهم جوابى الأمير ولورد كرومر على خطابى الناجوسى . وقامت خزينة المحكمة[٣١٠] بنفقة السفر على الطريقة المعتادة فى هذه الأحوال . وكان الوفد قد استحضر معه لأسقف(فوجام)عكازا مموها بالذهب ،وثوبا حبريا ،وألفى ريال نقرة هدية من الناجوسى .وما هى إلا أيام حتى عاد الناس إلى الخوف من سرعة هبوط النيل ، وتفاقم الشر . وكثر مرور أصحاب الرأى[٣١١]من جماعة الإنجليز بين القاهرة والصعيد الأعلى صعدا وهبوطا ،وهم فى حيرة وخبال لا يدرون حقيقة العاقبة ،ولا يرون للتدبير سبيلا وقد قامت حولهم ضجة أصحاب الصحف المحلية والأجنبية ،وجعلت تسفه أحلامهم ، وتخطىء حسبانهم وتعيب عليهم كل عمل أو تدبير .فكان هذا وأشباهه داعيا لتضاعف الخوف وتزايد الإرتباك ، حتى لقد أرسل شيخ الجامع الأزهر إلى سائر المدن والبلدان يدعو الناس إلى القيام بصلاة الإستسقاء فى كل ناحية ، وإلى العلماء ومشايخ الطرق إلى الضراعة والإبتهال إلى الله تعالى أن يلطف بمصر ويفيض عليها بركات نيلها ففعلوا ،فاستعادهم ثانية ففعلوا . وكثر ضجيج الناس وعم عجيجهم .ورسم أصحاب الرى من جماعة الإنجليز بمنع رى الشراقى فى سائر

(٣٠٩) الأزكياء = الأذكياء قراءة تصحيحية
(٣١٠) المحكمة = الكنيسة قراءة ترجيحية
عن علاقة تبعية الكنيسة الأثيوبية للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ـ راجع حاشية ٣٧٨ من حواشى عام ١٨٩٥ .
(٣١١) الرأى = الرى قراءة تصحيحية

البلاد شرقا وغربا وشمالا ويمينا ،وأن يتركوه إلى حين .وشددوا على ولاة الأمور فى ذلك فازعنوا[٣١٢]وصدعوا بالأمر . فكان هذا المنع ضربة على الفلاح فى نفسه وولده وماشيته . ذلك لأن رى الشراقى هذا إنما هو رى الارض المعدة لزراعتى الأذرة والبرسيم بين شهرى أبيب ومسرى من السنة ،ولا خفى أن زراعة الأذرة إنما هى حياة الفلاح وأهله وولده ،ومعينته على قضاء جميع حاجياته ، فمنها خبزه ، ومنها إيدامه ،ومنها كسائه ،وكساء أم أولاده ،ومنها ختان الولد ،وما يتبع ذلك من الحاجيات الأخرى التى لاتخفى على صغار أهل البلاد .وأما زراعة البرسيم فهى حياة بقرته أو جاموسته أو ثوره أن كان صاحب حرث قليل ،ومنها خراج الخزينة ، والمتأخر ، والبقايا وإيجار الأرض إن كان مستأجرا ،والخلاص من طوارق الحدثان ،ونوائب الزمان .فمنع رى الشراقى كما ترى رزح ثقيل على كاهل الفلاح لا يعادله رزح ،وأمر عسير جدا لا يطيق الصبر عليه . فما إنتشر هذا الأمر حتى وقع الهرج بين أهل البلاد كافة .وجاء[٣١٣]كتب الشكوى تتربى[٣١٤]إلى قصر الإمارة وديوان الوزير ،وإلى أصحاب الرى من جماعة الإنجليز . ووقف بعض أهل البلاد القبلية لأصحاب الرى على خطوط النيل يرجمون بواخرهم الماخرة صعدا وهبوطا ،وينادون عليهم بالويل والثبور وعظائم الأمور .وجاء كثير من عمد البلاد وأعيانها إلى القاهرة ،ووقفوا على باب الوزير ، وهو يلاطفهم ويهون عليهم ،حتى لقد أرسل جماعة منهم رسائل الشكوى على جناح البرق إلى الأمير بمصيفه فى بلاد النمسا . واستحث الوزير أصحاب الرى على عمل حساب مضبوط عما سيتركه النيل بغير رى من أراضى القطر . فحسبوا ودققوا وقالوا يبلغ الشراقى فى سنتهم تلك مايتين ألف فدان أو يزيد ،وأن ضبط ذلك يتوقف على كيفية عمل صرف الحياض وتدبيرات الصرف .قالوا لأن متوسطات منسوب الفيضان فى عامهم هذا كمتوسط منسوب

(٣١٢) فأزعنوا = فأذعنوا قراءة تصحيحية
(٣١٣) وجاء = وجاءت قراءة تصحيحية
(٣١٤) تتربى = تترى قراءة ترجيحية

عام سبعة وسبعين وثمنمائة وألف ، الذى كانت مساحة الشراقى فيه أكثر من تسعمائة ألف فدان . قالوا والشئ الوحيد الذى يفضل به فيضان النيل فى هذا العام فيضان سبعة وسبعين هو أن معظم منسوبه فى أصوان قد تجاوز معظم منسوب عام سبعة وسبعين بنحو إثنى عشر قيراطا .قالوا ولكن قد بلغ معظم المنسوب فى الروضة هذا العام ستة عشر ذراعا وعشرين قيراطا ، وهو أردأ منسوب عرف للآن ، فإن معظم منسوب عام سبعة وسبعين كان سبعة عشر ذراعا وثلاثة قراريط .ولهذا كله لا يمكن الجزم بصحة مقدار ما يتركه النيل من الشراقى فى هذا العام . وانتشر خبر ذلك ، وتحدث فيه الناس كثيرا ، فهب أصحاب الزراعات وصغار الفلاحين إلى إرواء أرضهم قسرا ،وانتشروا فى عرض المزارع ينقلون كل ما يصل إلى المساقى والترع من الماء بالآلات الرافعة كالشادوف والتابوت والنطالة والصندوق والسقاية ، وكل وسائل الرى إلى زروعاتهم ، وضربوا بنواحى[٣١٥] الحكام وأوامر أصحاب الرى عرض الحائط . وافحشوا فى تخريب بعض الجسور وتشعيث بعض القنطار[٣١٦] إستردادا للماء . فصاح أصحاب الرى المدد ، وأنحوا على المديرين والمحافظين باللائمة ، وعابوا عليهم تهاونهم وإغفالهم حراسة الترع والمساقى ، وقننوا على الأثر قانونا يعاقب كل متعدى على الترع والجسور ،وكل آخذ من مائها بغير إذن ولو مات زرعه عطشا .وحددوا للزراع قدرا من الأرض لزراعة القطن والقصب وماهو معروف بالزراعة الصيفية . وأرسلوا بهذا القانون إلى أعضاء مجلس شورى البلاد ليصادقوا عليه ، فأهملوه أياما ثم أقروه ،فأصبح معمولا به .فلم يرعو صغار الفلاحين ، ولم يلتفتوا إليه ، وانبث رجال الرى والمشايخ والعمد فى عرض البلاد ، يسجلون على المخالفين لذلك القانون عملهم ، ويستشهدون عليهم بالبينة وشهور[٣١٧] الحال ،ويرسلون بهم إلى مراكز الحكام ، فيحكمون عليهم

(٣١٥) بنواحى = بنواهى قراءة ترجيحية
(٣١٦) القنطار = القناطر قراءة ترجيحية
(٣١٧) وشهور =وشهود قراءة ترجيحية .

بالحبس والغرامة المالية .وهما أقصى عقوبات ذلك القانون .فلم يكن هذا كله ليغنى فتيلا ولا يشفى غليلا . وظل الحال على هذا حتى تمت زراعة الأذرة أو كادت .وانفرجت الأزمة قليلا بانطلاق المياه فى سائر الترع والمساقى فى أخريات توت ، إفتتاح سنة ستة عشرة وستمائة وألف للشهداء . فبزروا[٣١٨] البرسيم متأخرا عن أوانه .

ولما كانت ليلة رابع أكتوبر من السنة ، ثامن عشرى جمادى الأولى سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف هجرية ، تلبد وجه السماء بغيوم كثيفة جدا ، واشتد الظلام ثم سمع هزيم الرعود ،وما هى إلا لحظة بعد ذلك حتى إشتدت الرعود وكثر وميض البروق ، وانفتحت ميازيب السماء ، فسقط المطر مدرارا ثم سيولا . وهبت الرياح ثقيلة للغاية ،فاكتسحت كثيرا من البيوت الصغيرة فى المطرية ، وعين شمس . واندفع السيل على ناحية الزيتون من الشرق فهدم بعض المساكن ، واكتسح بعض البساتين ، ومرابط الخيل بها ، واقتلع خط السكة الحديد ، وسلك التلغراف . وبات كثيرين من سكان تلك النواحى ليلتهم تحت السماء يتخطفون متاعهم ، وأثاث بيوتهم ، وطيورهم وخيلهم وحميرهم من تيار الماء المنحدر من كل صوب وحدب . وتهدمت أيضا بيوت كثيرة فى قسم الوايلى بالعباسية ،وسقطت صاعقة على دار الرئيس مصطفى فهمى باشا ، فدكت جانبا منه . وأصبحوا وقد جاءت الأخبار إلى ديوان الوزارة من أقاليم الغربية والمنوفية والدقهلية والقليوبية والشرقية بسقوط المطر شديدا فيها ، وإتلافه زراعة القطن وتخريبه كثير من البيوت والحوانيت والمخازن وبعض الوكائل . فاهتم أهل الحل والعقد لذلك إهتماما كبيرا ،وسيروا الكتب إلى المديرين والمحافظين بالعناية وتدارك الخطب .وبعثوا بعض المأمورين يحصون ما حل بالناس من الضرر . فكان المصاب عظيما والخطب أليما ، وكان الناظر إلى شوارع مصر والقاهرة يظن أن المساكن قد بنيت على سطح بحر عجاج ،

---

(٣١٨) فبزروا = فبذروا قراءة تصحيحية

فقد كانت المياه بعرض الشارع من الجانب إلى الجانب الآخر ، وقد تجاوزت أعتاب المنازل وملأت فضاء المنخفض منها ، أو إرتفعت فوق كثير من درج المرتفع منها .وطاف مهندسى الأقسام فى الشوارع والحارات ، فشاهدوا أن أكثر سقوف الدور غرقت ، والجدران الضعيفة تشققت . وتداعت الأبنية الركيكة ، وقد نال الهلع من سائر سكان البلد كل منال . أقول أنى وصديق لى كنا مارين بقرب(قهوة استانبول)قبل سقوط المطر بلحظة صغيرة ، فدهمنا المطر . فلجأنا إلى تلك القهوة ، وقلنا سحابة ثم تنقشع . فما هى إلا لحظة حتى علا الماء فى الشوارع مع إنحدار حتى حازى الرصيف ، إلى أن ساوى عتبة المكان فنفذ إلى داخله ، وكان الماء يموج إلى الخارج تحت الرعود القاصفة والبروق الخاطفة . واستمر المطر ساعة ثم إنقطع ، فهرولت أنا صديقى إلى إحدى العربات فركبناها وخلصنا إلى بيوتنا .ولم(٣١٩) نبلغها حتى عاد المطر على أشده ، وقصفت الرعود ، ولمعت البروق ، وهبت الرياح الشديدة للغاية . وظل الحال على هذا حتى أقبل الليل .ومما يضحك أن عامودا من عمد خط الترامواى تشبع بالكهرباء ،وصار إن مس(٣٢٠)أحدا مات لساعته صعقا ، فأقاموا فى جواره خفيرا من خفر الشوارع يمنع المارة من الدنو منه ، فكان إذا رأى أحدا مقبلا نحو العمود صاح عليه ــ(إرجع يا هذا ،إبعد ،تعالى من شمالك ، إوعى العمود) فينزعر الماضى(٣٢١)ويضطرب فى أمره ،إذ هو لا يدرى ما معنى كل هذا النداء ولا هذا التحذير ، فيقف وهو باهت والمطر ينصب على رأسه كأنه من أفواه القرب ، ويظل واقفا حتى يدرك معنى ذلك النداء ، فيتحول عن طريقه ،قد صارت ملابسه كالزق المنفوخ من كثرة ما دخلها من ماء المطر . وقد أحصوا ما تهدم من الدور وغيرها فكانت نحو تسعين بيتا ، وثلاثين معلقا ، وكثير من العشش والحوانيت الصغيرة . قالوا وقتل غلام عمره إثنى عشرة سنة من قرافة

(٣١٩) ولم = ولم نكد أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٣٢٠) مس = مسه قراءة تصحيحية
(٣٢١) فينزعر الماض = فيندعر المار قراءة ترجيحية

على هذا أياما حتى جاءت صحف الفرنسيس ،وفيها أنه لما شاعت هذه النبوءة السيئة فى العالم المتدمن[٣٢٥] ونقلتها الألسنة ،تصدى لتكذيبها العلامة الفلكى الكبير (فلا ماريون)[٣٢٦] الفرنسوى ،وقال أن كل ما سيحدث فى ذلك اليوم بل ليل ذلك اليوم هو ما سيشاهد من تساقط الشهب مكبرة زائدة ،حتى يتخيل معها للنظار أن السماء تمطر نجوما وكواكب ،وينقضى الحادث دون حريق ولاصواعق كما يقول ذلك النبى الكاذب ،وأنه قد حدث مثل هذا الحادث لآخر مرة فى عام ستة وستين وثمنمائة وألف للميلاد ،ولا يزال العالم كله بألف خير . فتأملت قوله الصحف المحلية وأكثرت من تطمين الناس والتخفيف عنه[٣٢٧] .وفيما الحال على هذا إذ غامت السماء يوم ثامن نوفمبر من السنة ،رابع رجب الفرد سنة سبع عشرة[٣٢٨]غياما كصيفا[٣٢٩] جدا فى نحو الساعة الرابعة بعد الظهر ،حتى كاد النهار يكون ليلا حالكا . وظل الظلام يشتد حتى الرابعة ونصف ،ثم إهتزت الأرض فجأة من صوت الرعود ،فهطلت الأمطار شديدة كأنها من أفواه القرب ،فسالت بها الشوارع وغرقت بها الأزقة والحارات الوطنية . وتوالت الصواعق الخاطفة القاصفة ، فارتجت لها أسلاك البرق فى أنحاء المدينة كلها ، فتطاير منها الشرر كالزناد المصكوكة .فخرج أهل الأحياء الوطنية على وجوههم هايمين ، يريدون الخلاص ظانين أنه يوم الخراب الموعود

---

(٣٢٥) المتدمن = المتمدين قراءة ترجيحية

(٣٢٦) فلاماريون = فلاماريون ، كاميل Flammarion , Camille فلكى فرنسى(٢٦ فبراير ١٨٤٢ ـ ٣ يونيو ١٩٢٥) ـ كان غزير الإنتاج وصاحب جمهور كبير من القراء لأعماله الفلكية المبسطة ـ تراوحت إهتماماته بين الحياة خارج أجواء الأرض extraterresrial(ناقشها فى عمله Laplurlites des mondes habites ـــ (١٨٦٢) والتخاطر فى علم النفس parapsychology الذى قام بدراسات تمهيدية عنه فى عمله Les problemes psychiques) ـ ١٩٠٠) . طار بالبالون فى رحلات كثيرة لدراسة الظواهر الجوية Atmospheric phenomena ، وفى ١٨٧٦ لاحظ بالتلسكوب التغيرات الموسمية للنقط الداكنة فى كوكب المريخ Mars .من أشهر أعماله (Astronomie populaire ـ ١٨٨٠) الذى ترجم إلى لغات عديدة
– Lexicn universal Encyclopedia – vol.8 – p.. 151

(٣٢٧) عنه = عنهم قراءة تصحيحية

(٣٢٨) سبع عشرة = سبع عشرة وثلثمائة وألف

(٣٢٩) كصيفا = كثيفا قراءة ترجيحية

قد حل . فكان بعضهم يطمن البعض الآخر ،وكلهم فى خوف ما عليه من مزيد ، والصواعق القاصفة متتابعة . فهدمت بعض الدور المتداعية فى خطة الخليفة ،وخطة باب الشعرية ، وسقط إفريز سقف أحد الأبنية الشاهقة فى (شارع وجه البركة) على زاوية ميدان الشارع ،فهبط على شرفة الطبقة الثانية ،فدمرها ومال بشرفة الطبقة الأولى ،وسقطت مجاريه على مركبة كانت واقفة تحته فحطمتها ،وقتلت واحدا من جواريها[٣٣٠] . وظل الحال على هذا ساعة أو يزيد ،فكان الخوف شديدا والقلق عاما لا فرق فيه بين سائر سكان القاهرة ومصر القديمة . وما أذنت المغرب حتى إنقطع المطر ،وسكتت الرياح ، وبطل البرق والرعد ،وانكشف وجه السماء قليلا .فعادت الكمانينة[٣٣١] إلى قلوب الناس وزال عنهم ما كانوا يخشونه ،ولكنهم مع ذلك كانوا كثيرى التسأل[٣٣٢] عن حادث يوم ثالث عشر نوفمبر الذى ستحترق فيه الأرض بذلك المذنب العظيم . فلما كان اليوم الموعود أصبحوا وقد جاءت الأنباء تترى على جناح البرق من الديالا[٣٣٣] الأوروبية بأنه رؤى فى مراصدها الفلكية مرور ذلك النجم المذنب الكبير فى الساعة الأولى من منتصف ليلته ،فلم يمس الكرة الارضية بسوء ،ولم يغير شيئا من سيرها الطبيعى ، فامتنع ذلك النبأ القائل بسقوط الشهب وعراك النيازك ،وتسابق الناس إلى مصادر الأخبار فنقلوها فرحين ، وزال خوف الخائفين على أنفسهم والمشفقين على دنياهم ، وهدأ الروع ، وسكنت الأفكار ،وكذب المنجمون ولو صدقوا .

ولم يبلل[٣٣٤]حديث الناس بما وراء خبر إحتراق الأرض ونهاية العالم ، إلا فرح أهل التجارات وأصحاب المعاملات مع تجار السودان بما فعله أهل الحل

(٣٣٠) جواريها = جواديها — قراءة ترجيحية
(٣٣١) الكمانينة = الطمأنينة — قراءة تصحيحية
(٣٣٢) التسأل = التساؤل — قراءة تصيحية
(٣٣٣) الديالا = الديار — قراءة تصحيحية
(٣٣٤) يبلل =يبدل — قراءة تصحيحية

وكان هذا الشهر من السنة شهر الحوادث الإقتصادية والإجتماعية . فقد رسم الأمير أيضا فى ثالث عشر نوفمبر من السنة ، تاسع رجب بناء على ماطلبه مجلس الوزراء على أن يبت صندوق الدين حكمه بأغلبية آراء أعضائه المطلقه فى سائر الأحوال التى تقتضى الإتفاقيات الدولية بتداخله فيها ، سواء كانت بصفة إصدار قرار أو بصفة إبداء رأى . قال ذلك بناء على موافقة الدول الموقعات على إتفاق (لوندرة) الواقع فى سابع عشر مارس سنة خمس وثمانين وثمنمائة وألف ، وبدون إخلال بالمادة الثامنة والثلاثين من قانون التصفية .قالوا وأما إبداء رأيه مقدما كما هو منصوص عليه فى الفقرة الثالثة من المادة الثالثة من الأمر العالى ، يعنى مرسوم الإمارة المؤرخ فى ثانى عشر يوليو سنة ثمان وثمانين وثمنمائة وألف ، فينبغى أن يكون إستئنافيا بإجماع الآراء كلما دعت الحالة لطلب نفقات عسكرية فوق العادة .ولا يجوز لصندوق الدين ــ يعنى لرجال الصندوق ــ التصديق فى أى حال من الأحوال على صرف أيه نفقة غير عادية مهما كان نوعها من النقود الإحتياطية ،إلا إذاكان الباقى بعد خصم هذه النفقة وما يكون مخصصا لصرفه فى شئون أخرى من تلك النقود الإحتياطية يزيد عن ثلثمائة ألف جنيه مصرى .قلت ولم يلجأ أهل الحل والعقد إلى هذا

= – BLunt , wilfrid Scawn (secret History of the English occupation of Egypt
–Bowman . Humphry(Middle East window)
–Boyle, Clarra (Aservant of the Empire: Amemoir of Harry Boyle)
–Coles pasha, C.E (Recollections and Reflecions)
–Colvin , Auckland (the Making of Modern Egypt)
–Cromer, (Abbas II)
–Cromer,(Modern Egypt) 2 vols.
–Marshall, J.E (The Egyptian Enigma)
–Milner, Alfred(England in Egypt)
–Rodd, Rennell(Social and Diplomatic Memories– 1884 – 1893)
–Russell, thomas (Egyptian Service)
– Storrs, Ronald (Orientations)
– Willcocks,willam (sixty years in the East)
–Hollings, Mary A..(thelife of sir Colin C. Scott - Moncrief)
– Robinson, Roland and Gallagher, John (Africa and the Victorians).

النحو من التقنين إلا بعد أن قام نواب الألمان والنمساويين والفرنسيس من رجال الصندوق فى وجه النائب عن الإنجليز ، ووجه لورد كرومر ،ومنعوا من إعطاء شئ من أموال الصندوق للنفقة على السودان وحملاته .وكان قد وقع بسبب ذلك بين هؤلاء النواب وحكوماتهم ، وصاحب سياسة الانجليز من الأخذ والرد والمشاغبة ما لا يسعنا إيراده هنا .وظلوا على هذا حينا والهيئة الحاكمة فى مصر لا تقوى على الخلاص من هذا المأزق ، حتى تم الإتفاق بين أولئك المشاغبين . وجاء مرسوم صاحب السياسة الإنجليزية بالجرى على[٣٣٨] النحو من السياسة ، فرسم الأمير بالعمل به على ما تقدم بيانه[٣٣٩] . وكان من نتائج هذا الإتفاق أن وافق أعضاء الصندوق على منح وزارة الأشغال العمومية العشرين ألف جنيه التى أنفقتها على الحوشات وأعمال الرى التى أحدثتها لدفع غائلة الشراقى .

وكان أهل العلم واصحاب النيل[٣٤٠] من جماعة الفرنسيس قد خطر لهم أن يقموا[٣٤١] تمثالا لدى لبس[٣٤٢] فاتح قناة السويس تخليدا لذكره واعترافا

---

(٣٣٨) على = على هذا أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٣٣٩) عن صندوق الدين ووظائفه ونظامه ومنازعاته مع الحكومة المصرية راجع . ـ حاشية ٣١٢ من حواشى عام ١٨٩٣ ، ٦١ ، ٦٤ من حوشى عام ١٨٩٧

(٣٤٠) النيل = النبل قراءة ترجيحية

(٣٤١) يقموا = يقيموا قراءة تصحيحية

(٣٤٢) لدى لبس = لدى ليسبس ـ ليسبس ، فرديناند مارى ـــ فيكونت دى ليسبس Lesseps, ferdinand Marie vicomte de (١٩ نوفمبر ١٨٠٥ ـــ ٧ ديسمبر ١٨٩٤) ـ صاحب مشروع قناة السويس ـ بدء عام ١٨٢٥ بالعمل كدبلوماسى فى الخدمة الفرنسية فيما وراء البحار ، بما فى ذلك الإسكندرية ، القاهرة ، وروما لمدة ٢٤ عام .إرتقى إلى منصب قنصل جنرال consul - General ووزير فى السلك الدبلوماسى ،لكنه استدعى إلى باريس(١٨٤٩) فى أعقاب فشل المباحثات الصعبة فى روما بين البابوية والجمهورية الرومانية التى نادى بها حديثا جيوزيبى مازينى Giuseppe Massini . إنتهى عمله الدبلوماسى فجأة عندما استقال بعد تلقيه نقدا عاما من مجلس الدولة . ومع هذا فان صداقته مع محمد سعيد(١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) والى مصر والتى كونها أثناء خدمته كدبلوماسى ساعدته على إبرام إتفاق لإنشاء قناة السويس . فى عام ١٨٥٨ أنشئت شركة قناة السويس العالمية للقيام بهذا المشروع الضخم . فى عام ١٨٥٩ بدء العمل وانتهى منه عام ١٨٦٩ . ونودى بدى ليسبس كبطل وطنى فى بلاده . فى عام ١٨٧٥ نجح بنيامين دزرائيلى Bengamin Disraeli رئيس الوزراء البريطانى بمساعدة دى ليسيبس فى شراء ١٦/٧ من أسهم القناة من إسماعيل وانتقلت=

بفضله على العالم المتدن(٣٤٣) بأسره لمفتحه قناة السويس ، والجمع بين الشرق والغرب فى أقرب الطرق .فأعدوا لذلك مظاهر الأفراح وأسباب الزينة من مدينة بورسعيد ،إلى مدينة الإسماعلية ،إلى مدينة الإسكندرية ، فى البر والبحر وأوفدوا وفدا إلى قصر الإمارة يرجو حضور الأمير إلى تلك الأفراح والولائم . فأجابهم إلى ذلك ورسم هو كذلك بإعداد مأدبة عظيمة لمن حضر من ديار الفرنسيس من النبلاء والكبراء وعظماء الجمعيات العالمية .فلما كان سابع عشر نوفمبر من السنة ،وثالث عشر رجب سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف ،سافر الأمير إلى مدينة بورسعيد ، فبلغها قبيل الغروب بقليل .فقوبل بمظاهر الزينة والإحتفال العظيم ، وهتفوا له القوم هتافا كثيرا ،ودخل عليه أسرة دي لبس(٣٤٤) ومديرى شركة القناة وأصحاب الوظائف فيها . فسلموا ولبثوا بحضرته لحظة لطيفة ، ثم قاموا إلى المائدة التى كانت قد أعدت لهم فأكلوا وشربوا .وكانت شركة القناة قد أولمت فى تلك الليلة أيضا لمائتين وخمسين مدعوا .وبعد تناول الطعام دخلوا جميعا قاعة أعدوها للرقص على عادة جماعة الفرنجة فى مثل هذه الولائم والأفراح .وأقبل الأمير فى موكبه ،فقابلوه بأصوات الدعاء والتهليل ، وأصبحوا وقد ابتدأ الإحتفال حيث كانت الساعة التاسعة . فأقبل الأمير فى موكبه وأطلقت المدافع ، وعلت الأصوات بالدعاء .فافتتح الأمير

= السيطرة على المجرى المائى إلى الأيدى البريطانية . وبسبب دوره فى هذه الصفقة عانى دى ليسيبس من خسارة عظيمة مؤقتة لشعبيته فى فرنسا . فى عام ١٨٧٩ بدء دى ليسيبس وهو فى سنه الرابعة والسبعين محاولة فى المؤتمر الدولى للعلوم الجغرافية بباريس The International Congress of Geagraphical sciences للقيام بحفر قناة عظمى عبر برزخ بناما panama لكن حلفا قويا من التقدم فى السن ، التوتر العصبى ، والصعوبات العضوية أدت إلى فشل المقاولة وتصفية الشركة المشكلة للمشروع ، وظهرت فضيحة سياسية ومالية تركزت حول ديليسيبس وابنه شارلز charles وشملت الكثيرين من الشخصيات البارزة . فى عام ١٨٨٤ نال عضوية الأكاديمية الفرنسية L,academie Francaise

-Lexicon universal Encyclopedia - V0l . 12 - p.,298

-Larousse universel. vol.II -p.,47

(٣٤٣) المتدن = المتمدن قراءة تصحيحية

(٣٤٤) دى لبس = دى ليسيبس

الإجتماع بخطاب ذكر فيه أن دى لبس[٣٤٥] بعمله ذلك العظيم قد حقق أمنية كانت أشبه بالأحلام ،وأنه إستحق به أن تحمده الإنسانية وتجل قدره المدنية . ثم شكر للشركة إقامتها التمثال ، كما شكر لها دعوتها له لحضور هذا الإحتفال الذى مكنه من إظهار ما يكنه فؤاده من المنزلة الرفيعة لذلك الرجل العظيم .فلما أتم الأمير خطابه كشف الستار بيده عن التمثال ،فوقف (البرنس دارنبرج) وأثنى أطيب الثناء على الأمير وأجداده . وقال إن القناة دولية عامة تحافظ عليها دول أوروبا أجمع .وذكر تاريخ المشروع من شأنه إلى الساعة التى يتكلم هو فيها . ثم قام المسيو(دى فوجيه) أحد أعضاء المجمع العلمى الفرنسوى فتكلم على فضل دى ليسبس وعظم قدره على اعتباره مهندسا وعالما وجغرافيا واسع الإطلاع . ثم خطب إبن دى لسبس ، فأطنب فى مدح الأمير ، وذكر مآثر البيت العلوى على ديار مصر ، وشكر للشركة إكرامها أبيه ، وانفضت الحفلة على ذلك ، فانصرف القوم . يقال كان عددهم نيفا وخمسة آلاف نسمة . وعاد الأمير فى ركبه إلى العاصمة عقب انفضاض الإحتفال . فبات وأصبح وقد ازدحم القصر بوفود المهنئين من الأمراء والوزراء والكبراء ، ثم انصرفوا .

وفيما الناس يتحدثون بخبر تلك الوليمة وما قوبل به الأمير من جماعة الفرنسيس فى مدينة بورسعيد إذ جاء الخبر إلى قصر الإمارة وديوان الرئيس مصطفى فهمى باشا بفوز الجنود المصرية ونصرتهم على التعايشى وأصحابة ،وقته[٣٤٦] وتحرير الخبر أنه لما هرب التعايشى ومن كان معه من كبار المهدوية ودعاتها بعد فتح أم درمان ،وعاد الذين أرسلهم السردار فى أسر[٣٤٧] الفارين ، لم يعجب الناس يومئذ ولا أهل الحروب وقواد العسكر ما فعله

(٣٤٥) دى لبس = دى ليسيبس
(٣٤٦) وقته = إستبعدت الكلمة ليستقيم المعنى
(٣٤٧) فى اسر = فى أثر قراءة ترجيحية

السردار من إخلاء الطريق لأولئك الفارين ، وعدم اللحاق بهم ،حتى أحس السردار يومئذ بخطأه . فكان لا يكف عن إرسال الكتائب والحملات كل[٣٤٨]ما جاءه الخبر بنزول التعايشى ومن معه على بلد ،أو على حى من أحياء العربان ، أو على شيخ من مشايخ القبائل . فكانوا إذا لحقوا بذلك البلد أو ذلك الحى وعلموا بصحة نزوله عليه وفراره منه ،أحرقوه ودكوا معالمه ،ومحوا آثاره ،ومزقوا شمل أهله تشفيا وانتقاما . وظل على هذا حينا . فلما أتت القيادة(للسير ونجت باشا) ،وتولى نيابة الغيبة عن السردار(كتشنر باشا) ،جعل يراقب أنباء تنقل التعايشى وأصحابه ، فبث العيون وأجزل العطاء لنقلة الأخبار . فجاؤه[٣٤٩] بنبأ نزول التعايشى على(أم ديريكات) وأنه آمن مطمئن ، فأخذ(السر ونجت) الأهبة سرا ،وأعد المقاتلة وآلات القتال ،وسار من فوره مسرعا ،حتى أحاط بالبلد فجرا ، وسد على من بها المسالك . وما هو أن بان الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، حتى دوت أصوات المدافع من كل صوب وناحية . فهب التعايشى ومن معه وخرجوا للقاء الجند . فاقتتلوا قتالا شديدا جدا ،ففعلت فيهم نيران الجنود فعلا رديئا جدا وحصدتهم القنابل حصدا ، فانكسروا شر كثرة[٣٥٠] ، وفر من بقى يريد النجاة .وظل الجند يرمون مواقع العدو بالقنابل ساعات كثيرة ، وضباطهم لا يعلمون ما حل بالعدو ،حتى يكتت[٣٥١]بنادقه وإنكشف مواقفهم[٣٥٢] . فنفخوا فى البوق ، فبطل الرمى وتقدمت العساكر إلى مواقف الدراويش ، فلم تر سوى الجثث المتكدسة بعضها فوق بعض ، والمسامى[٣٥٣]والأشلاء المتطايرة هنا وهناك . فكان المنظر مريعا للغاية . فجعلوا يفتشون عن التعايشى ،وكان القواد لا يعلمون ماحل به . وفيما هم على هذا إذ

---

(٣٤٨) كل ما = كلما قراءة تصحيحية
(٣٤٩) فجاؤه = فجاءوه قراءة تصحيحة
(٣٥٠) كثرة = كسرة قراءة تصحيحية
(٣٥١) يكتت = سكتت قراءة ترجيحية
(٣٥٢) وانكشف مواقفهم = وانكشفت مواقعهم قراءة ترجيحية
(٣٥٣) والمسامى = والأجساد قراءة إجتهادية

جاء غلام أسود إلى الميرالاى(ستن بك)أحد مقدمى الحملة ، وأشار إليه أن إتبعنى ، فتبعه .حتى إذا وصل إلى منتصف الميدان بين الجيف والأشلاء ،أشار الغلام إلى جثة ملقاة على فروة بين بعض الجثث وقال له : هذا أبى(عبد الله التعايشى)خليفة المهدية .فاندهش الميرالاى من جراءة الغلام ، وأمر فأخذوا الغلام وجثة أبيه إلى المعسكر بعد أن تحقق القوم صحة ما أخبر به الغلام . ومن غرائب ما شوهد من جماعة الدراويش فى تلك الواقعة التى قضت على دولة المـهـدية ،أن إثنين من الدراويش تقـدمـا وقت الهـجـوم حـتى صـارا على(٣٥٤)ستين ذراعا من المدافع ،ثم سقطا مجندلين . فلما نظرا بعد الموقعة وجدا مرتبطين معا بحبل من القنب رباطا متينا ،وعلم من خبرهما أن ذلك الحبل كان حبل الوداد بينهما إرتبطا به على أن يعيشا معا ،ويموتا معا فى سبيل الوطن ،فيالها من عزيمة صادقة(٣٥٥) .وكان عثمان دقنة لما أحس بالهزيمة ، وأن

(٣٥٤) على = على مسافة أضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٣٥٥) علم (ونجت) نائب السردار بعد انتهاء موسم الأمطار فى نوفمبر ١٨٩٩ أن الخليفة عبد الله يرتب للزحف شمالا نحو (جزيرة آبا) فى الطريق إلى(أم درمان) ، فرتب(ونجت) خطته على أساس أن يلاقى الخليفة فى منتصف الطريق . علم ونجت بعد ذلك أن الخليفة قد وصل إلى(منهل جديد) بالقرب من (كوستى) فى جيش قوامه خمسة آلاف من الأنصار . فى (ام ديكرات) بالقرب من(منهل جديد) دارت الموقعة فجر ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ ــ ولم يستطع المهديون فى وقفتهم الأخيرة أن يصمدوا امام نيران مدافع المـاكينة مـاكسيم . وقد حاول التعايشى الإلتفاف حول ميسرة(ونجت) ،لكن الأخير كان متنبها له وفشلت المحاولة . ويصف(مكى شبيكه) وقفة الخليفة عبد الله الأخيرة وصفا مؤثرا للغاية فيقول(وعندما أيقن الخليفة بالنهاية المحتومه لم يشأ أن يقع أسيرا ويعانى مذلة الأسر ، فافترش فروته وجلس عليها وحوله كبار المخلصين الذين ظلوا على ولائهم إلى آخر لحظة فى حياتهم ينتظرون قضاء الله وقدره مستسلمين للقوة الإلهية بعد أن جاهدوا وصبروا وصابروا فكانت أروع خاتمة) .

قتل الخليفة فى معركة(منهل جديد) ، وقتل معه من قواده(على ودحلو) و(أحمد فضيل) ــ ووقع فى الأسر(يونس الدكيم)و(عثمان شيخ الدين) و(الختيم موسى) ــ بينما نجح(عثمان دقنه) فى عبور النيل إلى الشرق حيث وصل إلى جبال البحر الأحمر .

وفى مقبرة لا تبعد كثيرا عن(جزيرة آبا) مركز الدعوة المهدية ــ دفن الخليفة ورجاله .

ــ مكى شبيكه(مختصر تاريخ السودان الحديث) ـ مرجع سبق ذكره ـ ١١٨ ــ ١٢٠

ــ (اورطة البنادق الرابعة المشاة) ــ مرجع سبق ذكره ـ ص ٤١

ــ (على محمد بركات(السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٧٨ ـ ١٨٠

التعايشى مأخوذ لا محالة ،فر هاربا إلى بعض الجبال . وعاد الجند بالإستيلاء والغنائم إلى المعكسر ،وقد دقت البشائر .وطير السير ونجت باشا الخبر بهذا النصر المبين إلى الآفاق ،فجاءته رسائل التهانى تترى من كل صوب وناحية على جناح البرق ،حتى من مملكة(٣٥٦) الإنجليز .وأرسل الأمير وجماعة الوزراء يثنون عليه الثناء الجميل ،وجعل أصحاب الصحف المحلية يطرونه ويجلون عمله . وكان السردار يومئذ بديار الإنجليز كما تقدم القول . فما هو(٣٥٧) بلغه خبر قتل التعايشى والقضاء على المهدوية حتى أقبل مسرعا إلى القاهرة ، وسار منها إلى التخوم ،فمكان الموقعة . وغاب أياما إنحدر فيها السير ونجت إلى القاهرة ،وقابل الأمراء والوزراء والكبراء .وقد قابلوه فى محطة السكة الحديد مقابلة الجندى الفاتح والبطل المجاهد .واجتمع حوله كثير من سيدات الانجليز واونسهن(٣٥٨) يحملن الأزهار وأغصان الزيتون .وحيته شلة(٣٥٩) من الجنود المصرية والإنجليزية ، وصدحت الموسيقى نشيد الفرح ،وأناشيد النصر . فكانت ساعة وصوله من أسر الساعات على جماعة الإنجليز .يقال كان بين السردار كتشنر باشا وبين لورد كرومر عميد الإحتلال مغاضبة بسبب الرئاسة ،فكان كلما أشار بمهاجمة التعايشى وقد عرف مخبأه ، والتعجيل بقطع شأفة المهدوية ، مانعه السردار وعارضه وطاول فى مقاتلة التعايشى ، والقبض عليه لسر لا يعلمه أخد . فكان اللورد كثير التأفف من فعاله ، شديد الكره له ، مع عجزه عن مقاومته ، وظلا على هذا حينا .فلما سار السردار إلى ديالا(٣٦٠) الإنجليز تبديلا للهواء إبان الصيف وتسلم نيابة الغيبة إلى(٣٦١) السير ونجت

---

(٣٥٦) مملكة = ملكة قراءة ترجيحية
(٣٥٧) هو = هو أن أضيفت الكلمة ليستقيم النص
(٣٥٨) واونسهن = وأوانسهن قراءة ترجيحية
(٣٥٩) شلة = ثلة قراءة تصحيحية
(٣٦٠) ديالا = ديار قراءة تصحيحية
(٣٦١) إلى = إستبعدت الكلمة لعدم لزومها

باشا ، وكان التعايشى ومن معه نازلين من (ديريكات)[٣٦٢] وليس بينهم وبين المعسكر إلا أياما قلائل ،سير اللورد كتبه إلى السير ونجت باشا فى سرعة القبض على التعايشى ،أو القضاء عليه ومنع السردار من بلوغ هذه الغاية .ففعل (السير ونجت) وطير الخبر بذلك إلى الآفاق ، فأقبل السرذار مسرعا كما تقدم ، ولكن كان الملسوع[٣٦٣] قد مات .وقد إنحدر السير ونجت باشا إلى القاهرة ، فأولموا له ، وأدبوا ،وبالغوا فى تكريمه كأكبر الفاتحين ، وأعظم القواد البارعين .

وانحدر إلي القاهرة من كان باقيا من الأسرى فى السودان وهم فى أسوء حال ، ورفعوا ظلامتهم إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة طالبين معاملتهم كما عملوا[٣٦٤]أمثالهم من قبل ،وعدم حرمانه[٣٦٥]مما يستحقونه من المعاش ، وإبطال القرار الصادر بعدم الإلتفات إلى طلبات أسرى السودان بعد الأجل الذى كانوا قد ضربوه لذلك . ووقفوا فى طريق الوزير يلفتونه إلى ما هم عليه من المرض والضنك الشديد . فكان إذا بلغ الديوان تكوفوا حوله ،وأمسكوا بثيابه مستغيثين ، وهو يهون عليهم ، حتى تم لهم ما أرادوه . وقد إستدعى الأمير (السير ونجت باشا)إلى قصر الإمارة فى ثالث عشر ديسمبر من السنة ،فلما تمثل بين يديه بالغ فى تكريمه ،وقلده بيده النيشان العثمانى الثانى وحادثه طويلا فى أمر أولئك الأسرى وما جرى لهم .

وجعل السرادر من ذلك اليوم يعد كل أسباب الراحة للقادمين إلى السودان من السياح والتجار . فرتب لذلك عدة بواخر ذات لوالب لنقل المسافرين من أصوان إلى وادى حلفا ، ومنها يركبون السكة الحديد ، فتكون آخر محطة ينزلون

---

(٣٦٢) ديريكات = ام دويكرات
راجع حاشية ٣٥٥ من حواشى عام ١٨٩٩
(٣٦٣) الملسوع = الخليفة عدلت الكلمة ليستقيم النص
(٣٦٤) عملوا = عومل
(٣٦٥) حرمانه = حرمانهم قراءة تصحيحية ــ والمقصود بهولاء الأسرى المصريين الذين كانوا فى أسر المهدوية

فيها(وادى الرملة) ، إلى أن يتم إعداد الخط إلى الخرطوم .وبلغ[٣٦٦]فى الحيطة والعناية براحة المسافرين ،وسير على الأثر حملة إلى(كردفان ودارفور) لاحتلالهما ، فدخلوهما بعد مناوشات[٣٦٧] . وجاءت كتبه إلى قصر الإمارة ، وديوان الأوقاف العمومية فى طلب إنشاء بعض المساجد بالسودان لإقامة الشعائر الدينية ، فاجابه الأمير إلى ذلك ورسم بإبيداع[٣٦٨]قدر من المال بخرينة الأوقاف تحت تصرفه ، للنفقة على إنشاء تلك المساجد .واشتدت عزيمته فى سن القوانين ،وتنظيم اللوائح ، وربط الضرائب والمكوس .من ذلك قانون عوائد القطعان ، وهى مكس قدره ثلاثة فى المائة على كل قطيع من الجمال والمواشى ، وثمانية فى المائة على[٣٦٩] الضأن والماعز وجملان[٣٧٠] وإثنى عشر رأس من الماعز . وبغير[٣٧١]ربط هذه الرسوم بعد التعداد الذى لابد منه من[٣٧٢] بدء كل سنة . ومن اللوائح لائحة منع إهلاك الحيونات النافعة كالفيل والنعام ومايماثلها . وتقضى[٣٧٣]خبر ذلك بين الناس ، يعجبهم[٣٧٤]كثيرا وتطيروا منه ، وحسبوا مستقبل حياة السودان الإجتماعية والإقتصادية حسابا كبيرا . فما هى إلا أيام بعد ذلك حتى تفشى الخبر بعزم السردار على التخلى عن منصبه ،

---

(٣٦٦) وبلغ = وبالغ قراءة ترجيحية

(٣٦٧) في أعقاب مصرع الخليفة عبد الله تقرر احتلال مديرية كردفان ــ فارسلت قوة من الهجانة إلى الأبيض فى السابع والعشرين من ديسمبر ١٨٩٩ ــ وهناك دعت السلطات الإهالى إلى العودة إلى بلادهم وتعميرها ــ وفى مديرية دارفور فإن (على دينار) حفيد سلطانها(محمد الفضلى) إنقلب على المهديين بعد سقوط أم درمان وتوجه إلى (الفاشر) وطرد ممثل المهديين هناك ــ وبعد فترة من الصراع على السلطة فى المديرية واستقرار الأمرله طلب الدخول فى طاعة الحكومة فقبل طلبه .
ــ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ١٨٠
ــ اورطة البنادق الثامنة المشاة ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٤٢

(٣٦٨) بابيداع = بايداع قراءة ترجيحية

(٣٦٩) على = على القطيع من عدلت الجملة على هذا الشكل ليستقيم المعنى

(٣٧٠) وجملان = المكون من جملين عدلت الكلمة ليستقيم المعنى

(٣٧١) وبغير = ويتغير قراءة ترجيحية

(٣٧٢) من = مع قراءة ترجيحية

(٣٧٣) وتفضى = وتفشى قراءة ترجيحية

(٣٧٤) يعجبهم = فلم يعجبهم أضيفت الكلمة لتصحيح النص قراءة إجتهادية

وتركـه إلى الـسـيـر ونجت باشـا .فـقـال الناس بلغ اللورد كـرومـر مـأربه ونال من السـردار مناله . فلمـا كـان مـسـاء يوم حـادى عـشـرى ديسـمـبـر من السنة وصل السـردار القـاهرة فى قطار خـاص ،وكـان فى إنتظاره فى المـحطة جـمـاعـة الوزراء والأمـراء ،و بعض قناصل الدول ،ولفـيف من مـقـدمى العـسـاكـر الإنجليـزية ، والعساكر المصرية .وكان لورد كرومر قد سافر إلى لقائه فى أقرب محطة يلتقى فيها بقطاره .فظلا يتحدثان حتى بلغا محطة القاهرة ،فنزل من القطار وتقدم إلى القوم يصافحهم ،وعلامات القهر والكمد بادية على وجهه .وما سلم حتى ودع وقـام به القطار إلى الإسكندرية ،ومعـه السـيـر ونجت باشـا وبعض الإتبـاع يريد ديالا[٣٧٥] الإنجليـز كـمـا جـاءه الطلب من ديوان حـربهم . يقـال إجـتـاز السـردار المسافة من الخرطوم إلى القاهرة فى أربع وستين ساعة لا غير .قلت وهو منتهى السرعة ، وقد كانت المسافة على عهد الخديوى اسماعيل وما بعده خمسة أهلة[٣٧٦] أو تزيد . فـانظر كيـف فـعل الـقـوم فى تلك العـقـبـات . وقـد[٣٧٧] ينتظر وصول إحدى سفن الحرب الإنجليزية . فلما بلغ (القبارى) نزل توا من المحطة إلى تلك الـسـفـينة ، فأقلعت به إلى مالطة فى نحو نصف الليل .وأصبحـوا وقد شاع الخبر بأنه سيسافر من مالطة إلى باريز فى المحيط الأطلنتيكى[٣٧٨] على إحدى الطرادات الحربية ، فيصل إليها فى تاسع عشرى ديسمبر إلى حيث أراد صاحب ديوان الحرب الإنجليزى . قلت ايضا فإذا حسبنا المسافة من الخرطوم إلى مالطة ، كانت مائة ثمانية وعشرين ساعة ،أو هى خمسة أيام وثمان ساعات لا غير ، فتأمل . وعاد(السير ونجت باشا) إلى القاهرة ، فأقام بها أياما بين مظاهر

(٣٧٥) ديالا = ديار قراءة ترجيحية

(٣٧٦) بمعنى أن الهلال يظهر خمسة مرات خلال الرحلة

(٣٧٧) وقد = وبقى قراءة إجتهادية

(٣٧٨) ربما كان قصد شاروبيم فرنسا بصفة عامة ـ فهى التى يحدها القنال الإنجليزى فى الشمال الغربى ، المحيط الأطلنطى وخليج بسكاى Biscay فى الغرب ، والبحر المتوسط فى الجنوب الشرقى . أما باريس فتقع فى شمالى فرنسا على ضفتى نهر السين seine وعلى بعد ١٤٥ كيلو مترا من فم النهر على القنال الإنجليزى

-Lexicon universal Encyclopedia - vols. 8- p., 259 -; 15 - P., 84

الحفاوة والتكريم . فلما كان ثالث عشرى جاءه مرسوم الأمير بولاية السودان ، وسردارية العساكر المصرية . فقام من ساعته ، وقابل لورد كرومر ،ثم ذهب إلى قصر الإمارة ،وديوان الوزارة ، ورفع مراسيم الشكر . فزاره الأمراء والكبراء والوزراء ، وكل ذى مقام وحيثية .وجاءته رسائل التهانى من كل فج عميق ،ولا سيما من ديار الإنجليز .وكان أول ما إهتم به ونجت باشا بعد إرتقائه هذا المنصب الخطير أن سير إلى بحر الزراف أربع مدفعيات صغيرة نيلية ،وعددا من السفن الصغيرة والكبيره ، وألفا عامل من جماعة من المهندسين وعلماء طبقات الأرض ليفتحوا ممرا عرضه عشرون مترا وسط الأعشاب المتكدسة فى البحيرات إلى[٣٧٩] فى طريق منابع النيل . وقد كانوا سيروا لاستكشاف ذلك جماعة من العلماء والمهندسين . فعادوا وقرروا لزوم فتح ذلك الممر بواسطة الألغام وقنابل المدافع ،لتتمكن المدفعيات وغيرها من شوانى النقل من الترفع إلى منابع النيل .فجعل السردار من ذلك الحين يوالى الطلب على وزارة الحرب بإرسال المال اللازم للنفقة على هذا العمل الجسيم ،فلم يمكنه لورد كرومر من ذلك ولم يبلغه فخر هذا العمل لحقده عليه .

وسير الأمير إلى ونجت باشا فى طلب محضر يشمل واقعة الحال فى السودان بعد هلاك الخليفة عبد الله التعايشى . فرفع إليه محضرا يتضمن أنه وإن كانت العساكر قد قاست فى مقاتلة التعايشى ولمومه الأهوال الشداد ، بسبب تحصن القوم وأمتناعهم ،إلا أنه لم يمت منهم إلا القليل ، ولكن جرحاهم كانوا كثيرين .وأن بالخرطوم من جرحاء الدراويش ممن نقلوهم من ميدان الحرب ما يربو على الأربعمائة جريح ،وهم يعالجون مع العناية بعلاجهم وطعامهم رغما عن جسامه جراحاتهم .وأن الموتى منهم كانوا كثيرين جدا .وأن(ماهون بك)[٣٨٠] قد بلغ بجنوده الأبيض ،فوجد البلد خاوية خالية ،وقد

---

(٣٧٩) إلى فى = فى قراءة ترجيحية

(٣٨٠) ماهون بك = الكولونيل ماهون Mahon قائد الحملة الموجهة لاحتلال كردفان فى ديسمبر ١٨٩٩ ـ راجع حاشية ٣٦٧ من حواشى عام ١٨٩٩ .

تخربت كلها ، وتداعى بنيانها ،فاحتلها وأقام فيها المراصد وبيوت العساكر ، إلا أن بعضهم مصاب بالدودة المعروفة هناك (بدودة غنيا)التى هى كثيرة التفشى فى الكردفان . وأن مرض السلسلة الفقرية الذى كان يفتك فتكا ذريعا بالجنود وأهالى أم درمان قد تناقص جدا ،حيث إهتمت الهيئة الحاكمة بتنظيف المدينة ،وردم الآبار الكثيرة ، وهدم العشش .قال وكان الموات بهذا المرض الوبيل كثيرا جدا ،ومتفشيا بين العساكر والأهالى على السواء ،فزالت وطأته أو كادت .وطلب الترخيص لمن أتى من السودان مهاجرا بالرجوع إلى أوطانه على نفقة الخزينة ، فأجابوه إلى ذلك .وجعلت وزارة الحرب من يومها تجمع من جاء مهاجرا وترسل بهم جماعات نساء ورجالا وأطفالا على ظهور السفن وشوانى النقل .وظل الحال على ذلك أياما كثيرة ، فبلغت عدتهم يومئذ نيفا وخمسة آلاف مهاجر .فلما كان تاسع عشرى ديسمبر من السنة ،سادس عشرى شعبان سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف ، وصل إلى القاهرة أسراء الدراويش فى المواقع الأخيرة ،وعددهم مائة وخمسين أسيرا ،وجلهم من كبار القوم ومشايخ القبائل ورؤساؤها . وبينهم الأمير (شيخ الدين إبن التعايشى) (والأمير محمود) (والأمير يونس الدكمن)[٣٨١] (والأمير محمد الزين)(والأمير على ولد الحلو) و(الأمير على فرار)وجماعة كثيرة من صغارهم .فساروا بهم من القاهرة إلى رشيد فى حراسه طائفة من الجند . فأنزلوهم فى بعض منازل الجند بها وأقاموا على أبوابهم الحراس والعيون خوفا من فرارهم . أخبرنى من رأى هؤلاء الأسرى بأم درمان رؤيا العين قال(وكان هؤلاء المساكين بأم درمان بعد أسرهم يعيشون من فضلات موائد الناس وحسنات أهل الخير . وكانت نساؤهم وعيالهم يتسولون ويطوفون البيوت طلبا للصدقة ، فيأتون أهلهم عند الظهر بما ظفروا به من صدقة أهل البر ، وظلوا على هذا حتى إنحدروا بهم إلى القاهرة) . قلت وأما فى رشيد

---

(٣٨١) الدكمن = الدكيم

ـــ راجع حاشية ٣٥٥ من حواشى عام ١٨٩٩ .

فقد جعلوا كل واحد منهم فى سجن ،منفردا مبعدا عن زوجته وولده .فإذا أذن الظهر جاءته بطعامه فتأكل هى وولده معه بغير مراقبة الحراس ،فإذا فرغوا من طعامهم ، تركته زوجته وانصرفت مع ولدها أو أولادها . وهكذا كان حال القوم فى سجونهم ،وهم لا يظهرون تأففا ولا ملل[٣٨٢] ، وبعضهم يظهر التجهد[٣٨٣] ، والإكثار من السجود ، والركوع ، والتمتمة فى الليل والنهار ، والدهر بالإنسان دوار .



(٣٨٢) ملل = مللا قراءة تصحيحية

(٣٨٣) التجهد = التهجد قراءة تصحيحية

الفصل التاسع

عام ١٩٠٠

نشاط مصطفىٍ كامل السياسى

وقوع عثمان دقنه آخر القواد المهديين فى الأسر (١٧ يناير ١٩٠٠)

تمرد الأورطة الرابعة عشرة السودانية (يناير ـ فبراير ـ ١٩٠٠)

سلطنة دارفور والحكم الجديد فى السودان

ظهور المنشورات السياسية ضد السلطان عبد الحميد فى مصر

إرتفاع معدلات الجريمة فى مصر

زيارة اللورد كرومر الثانية للسودان (ديسمبر ١٩٠٠) .

عام سنة ١٩٠٠ للميلاد

أفتتح عام تسعمائة والف للميلاد بيوم الأحد آخر شعبان سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف للهجرة ، ورابع عشرى كيهك سنة ستة عشر وستمائة للشهداء .وهو رأس القرن العشرين(١) بعد الميلاد المسيحى ،واحتفل طوائف(٢) المسيحية بعيد رأس السنة الجديدة على العادة المألوفة . وفى عصر اليوم طافت مواكب الرؤيا(٣) لإثبات رؤية شهر رمضان على الأسلوب المعتاد فى كل عام .فلما كانت العشاء الأولى ثبت لدى قاضى القضاة رؤية هلال رمضان فأطلقوا المدافع إيذانا بالصوم ، فأصبحوا يوم الاثنين وهم صائمون .

وكان إلى هذا الحين قد بلغت شهرة مصطفى كامل متقدم(٤) الحزب الوطنى بين الزفاق(٥) ،وأهالى القاهرة وبعض المدن مبلغها ،وقد تكوف حوله

---

(١) ليس صحيحا أن عام ١٩٠٠ هو راس القرن العشرين كما يذهب ميخائيل شاروبيم ـ فهو المكمل للقرن التاسع عشر ـ وإنما يبدأ القرن العشرين بالأول من يناير ١٩٠١

(٢) واحتفل طوائف = واحتفلت الطوائف قراءة تصحيحية

(٣) الرؤيا = الرؤية . وتسمى الليلة التي يتوقع أن يبدأ شهر رمضان فى فجرها(ليلة الرؤية) . ففى مساء ذلك اليوم كان المحتسب (إستبدل بعد الغاء وظيفته بقائد البوليس) ، ومشايخ طوائف الحرف (إندثرت فى القرن التاسع عشر) ، وبعض أعضائها ، وبعض الفرق الموسيقية ، وبعض الفقراء يسيرون فى شكل موكب تتخلله جماعات من رجال البوليس من القلعة إلى بيت القاضى . وهناك ينتظرون عودة أحد الأشخاص الذين أرسلوا ليستطلعوا الهلال ،أو شهادة أى مسلم رأى الهلال الجديد . وكان النظارة يقفون على جانبى طريق الموكب . وكان يشارك فى الموكب بعض الفرسان على خيول مطهمة . وكان حملة المشاعل يتقدمون كل جماعة من الجنود ويتبعونها ليوقدوا هذه المشاعل عند العودة . وفى النهاية كان قائد البوليس والمشايخ يتبعون الموكب . وعندما تصل المعلومات إلى بيت القاضى برؤية الهلال ، يتفرق الجنود وبعض المتجمعين إلى جماعات عديدة تعود واحدة منها إلى القلعة بينما تطوف الجماعات الأخرى أحياء عديدة من المدينة صائحة(يا أمة خير الأنام .. صيام صيام) . وقد طرأ على هذا الإحتفال بعض التغيرات خلال القرن التاسع عشر باستبدال المحتسب بقائد البوليس كماذكرنا . وفى العقد الثانى من القرن العشرين كان محافظ العاصمة هو الذى يقود الإحتفال ، ولما كانت طوائف الحرف قد اندثرت فإن بعض التجار وأعضاء حرف مختلفة كانوا يشاركون فى الإحتفال بدلا من هذه الطوائف برأسة (ريس التجار)

- Gabriel Baer (Egyptian Guilds in Modern Times) Ibid.,- pp., 120 - 121

(٤) متقدم الحزب الوطنى ـ يقصد زعيم الحزب الوطنى . عن مصطلح(الحزب الوطنى) الذى استخدمه ميخائيل شاروبيم مبكرا راجع الحاشية ٢٨٤ من حواشى عام ١٨٩٧

(٥) الزفاق = الرفاق قراءة ترجيحية

بعض أهل الوجاهة وأصحاب الحيثيات من عمد وأعيان البلاد ،وقد مدوا له يد المساعدة وأمدوه بالأموال عن سعة ليجاهر رارائه[٦] ومبدأ حزبه ،ويعلنه على رؤوس الملأ ،كما يفعل القوم أصحاب المذاهب السياسة فى ديار الفرنجة .فكثر من هذا الحين إجتماع أعضاء الحزب فى منتدياته ، وأكثر مصطفى كامل من خطاباته ومعمياته وتصريحاته .فكان يخطب ويتكلم ويقول أينما سار ،وحيثما صار ،ويحض الناس على الإجتماع حول لواء الحزب المصون .فلما كان اليوم الأول من يناير من السنة ،أى سنة تسعمائة وألف ، أخرج للناس جريدة يومية سياسية باسم(اللواء) .صدرها بحمد الله بمقدمة أبان فيها منهج الجريدة ، وقصده منها ،وهو القيام بخدمة الوطن ،والزود عن حياضه ،ودفع شر الاعداء عنه . فما هو أن برز العدد الأول منها حتى أقبل الناس عليه إقبال الجياع على الطهام[٧] ، وتلقفوه من أيدى الباعة .فلم تمض أيام حتى راجت تلك الجريدة وانتشرت المقالات العلمية والإقتصادية والسياسية فيها ،وملأها مصطفى كامل بك بالآراء الحرة المنقولة عن متطرفى الأحرار فى ديار الفرنجة . وروجها بين تلامذة المدارس وصفوف المتعلمين على إختلافهم ،فكانت مقالاته وكتاباته المتطرفة فى الحرية المبالغة فى طلب الإستقلال وبغض الإحتلال ــ يعنى إحتلال جماعة الإنجليز للبلاد ــ سببا فى إنقلاب أولئك التلامذة من طور إلى طور ، واكتسابهم خلقا غريبا لم يعرفه الناس من قبل ، وإقدامهم على الكباير بلا حياء ولا خوف .وكانت كلما كثرت خطابات الرجل وتفشت آراؤه بين الناس ، أظهروا البغض للمحتلين وللنزالة المسحيين .وزادوا فى تكريمه وإدراره بالأموال الكثيرة ،حتى لقد كان الزجل منهم إذا طلب منه قرشا أو قرشين مددا ،أمده بخمسمائة أو بستمائة .فإذا لم يوجد لديه شيئا منها باع ماشيته ،أو أرضه ومنبت رزقه ،ورزق عياله بأبخس الأثمان ،وسلم ثمنها إلى الموكلين بذلك

---

(٦) رارائه = بآرائه قراءة ترجيحية
(٧) الطهام = الطعام قراءة تصحيحية

العمل . وقد كبر تهوس العامة فى حب ذلك الحزب ورئيسه بما بثوه بينهم من الأقاصيص والأكاذيب والمفتريات على جماعة الإنجليز المتوليين أمور البلاد ، وشكلوا لجانا سموها اللجان الفرعية للحزب فى أقسام القاهرة كلها ومصر القديمة ،فاهتم أعضاء هذه اللجان باستمالة عامة وسوقة وأهل الحرف وأصحاب الكارات على اختلافها[٨] تلك الأقسام إلى الدخول فى عداد أهل الحزب ، ويلقنونهم كلمات قالوا لهم أنها مبادئ الحزب ،وسيفه القاطع الذى يقتلون به الإحتلال ،وجماعة المحتلين هى(الجلاء والدستور والحرية) .فكنت لا تسمع من النجار والسمكرى والحداد والإسكافى وبائع البقول والزيات والقصاب وأمثالهم فى مجتمعاتهم التى هى مقاعد القهاوى وحوانيت الحلاقين ،إلا تريد[٩] هذه الأسماء وشرح معانيها مخلوطة بالهتر وفحش القول والأيمان المغلظة بأنهم غالبون فائزون على جماعة الإنجليز ،طاردين لهم من البلاد على أيسر ما يكون بقوة(مصطفى كامل)ورجال الحزب أولى العزم .فلما تحقق مصطفى كامل والعاملين معه من نمو هذه الروح فى أجسام أولئك البسطاء ، وأن[١٠]قد تخمرت عقولهم بتلك الخميرة الفاسدة ،فرضوا عليهم فريضة فى كل شهر تتفاوت ما بين ثلاثة قروش وخمسة ،يدفعونها إلى صندوق اللجنة فى آخر كل شهر ،وعينوا لجمع هذه الفريضة عمالا فى كل خط ،ويطوفون على أولئك البسطاء ، فيجمعونها ويعطون بها وصلا مطبوعة ،كأنها عملا صحيحا من أعمال الحكومة ، وهم من مأموريها .وكان إذا أخذ من أى من الناس ثلاثة قروش وأعطوه بها وصولا عد من أعضاء الحزب من يومه رغم أنفه ،وأصبح هذا القدر فرضا يؤدى فى كل شهر رضى أو لم يرض .وكان هؤلاء الجباة يغررون بالناس فيقولون لهم أن الأمير هو رأس هذا الحزب المبارك ومدبر أموره ،فكل إحجام من

(٨) إختلافها = إختلاف قراءة تصحيحية
(٩) تريد = ترديد قراءة تصحيحية
(١٠) وأن = وانه قراءة ترجيحية

الرعية يعد جرما عظيما عند الأمير ،وكل إقدام يحسب عنده ولاءاً وتعلقا بعرش الإمارة وشخص الأمير .فلم تكن العامة لترتاب فى صحة أقوالهم ولا سيما منهم أهل بولاق مصر وأهل خط السيدة زينب وخط الخليفة .وأفلحت تلك اللجان ، وظهرت للعالمين نتائج فعالها ،وبان للناس تحمس العامة والسوقة وحبهم للحزب الوطنى ،وهم لا يعرفون ولا يدرون من عمله شيئا .ورأى مصطفى كامل والعاملين معه أن هذا النحو من الإغراء والتغرير لا يكفى لبلوغهم الغاية . فانشأوا فى كل خط من أخطاط المدينة مدرسة ليلية سموها(مدارس الشعب) وأستفزوا(١١)عامة وسوقة كل خط إلى الإنتظام فى سلك تلامذتها ، ورتبوا لها الفقهاء والمدرسين من شر الناس وأكثرهم إلتصاقا بالحزب وأكبرهم تطرفا فى تعاليمه .فجعلوا يزينون إلى أولئك البسطاء بغض الإحتلال وجماعة المحتلين ، وبغض كل مسيحى تحت سماء البلاد ،ويتطوحون بهم إلى مناوأة كل من يخالف هذه التعاليم ،وعلموهم أشياء أخرى كلها إضرار بالهيئة الإجتماعية ومحن مخربة للبلاد ،حتى لقد قالوا أنهم كانوا يعلمون بعضهم إستعمال السلاح وإطلاق البنادق والمسدسات .وانتشر خبر تلك المكامن الليلية بين زعانف الناس وأهل البطالة ،فأتوها من كل فج عميق والتصقوا بها . فكان(١٢) اللواء ـ جريدة الحزب ـ تكتب الفصول الطوال فى مدح تلك المكامن وتحبيذ عملها ، والنفع المتوقع منها للعامة فى كل ناحية وصوب . واشتد محررو تلك الجريدة فى لهجة التحريض على بغض الإحتلال ، وتعييب فعال أهل الوظائف وأصحاب الخطط من جماعة الإنجليز ، وتوعدت بالخلاص الغريب(١٣) ،واستوثقت من بعض كتاب الفرنسيس المتطرفين ، فجعلت تنقل عنهم المقالات الجارحة ،والأقوال المهينة لأصحاب الإحتلال وظلت على هذا حينا .

(١١) واستفزوا = وإستنفروا قراءة ترجيحية
(١٢) فكان = فكانت .
(١٣) الغريب = القريب قراءة ترجيحية

وكان لورد كرومر لم يغب عنه علم هذا كله ،ولا هو بغافل عما يفعلون . إذا[١٤] كانت عيونه تحيط بالقوم من كل جانب ،حتى وفى داخل مكامنهم الليلية .وكانت أخبارهم أقرب إلى مقره من مقر مصطفى كامل ،وحوادثهم اليومية تأتيه من كل صوب وناحية ،ومقالات جريدتهم تترجم إلى لغته بكل عناية ودقة .فكان لذلك[١٥]تعجب الناس من انكماشه وسكوته كبيرا ، وكانوا كثيرى التساءل عما سيكون من وراء هذا السكوت .حتى جاءت صحف الإنجليز يوما تقول أن تطرف الحزب الوطنى إلى هذا الحد المعيب علة لا يأمن معها الحزب من الضعف ثم الإنحلال والفناء . فإنه وإن كان الإنجليز يكرهون التضييق على حرية الصحف وكتاب الأخبار ،ولايرون فى مقالات اللواء عيبا كبيرا ، إلا أن التمادى على التغرير ببسطاء العقول ، والحض على الإجرام بقصد أو بغير قصد أمر لا تحمد عاقبته ،وأن سكوت عميد الإحتلال المتناهى ضرب من الحكمة التى لايعرف سرها غيره .فلما تفشى خبر ذلك هاج رجال الحزب وماجوا ،وأكثر مصطفى كامل من إرتقاء منابر الخطابة فى مصر والإسكندرية وطنطا وغيرها ،بين الناس[١٦]عدم مشروعية الإحتلال والحيف الواقع على البلاد وأهلها بسببه ،وينادى (ياقوم ما قامت أمة فى طلب الحق وغلبها الباطل ،فاطلبوا حقكم من أصحاب الإحتلال بكل الوسائل المشروعة) . فهاجت أهل البلاد بحديث الحزب الوطنى ،وتطاولت الأعناق إلى معرفة ما سيكون من وراء هذه النهضة المباركة عندهم ، وأقبل عمد البلاد وأعيانها على الدخول فى عضوية الحزب ، فأشار جماعة من العاملين مع مصطفى كامل بإنشاء لجان فرعية للجنة الحزب الإدارية بالمدن والبنادر الكبرى ، فأنشاوا عدة لجان فرعية فى أكثر المدن ، وأقاموا فيها الدعاة والكتاب ومحصلى التبرعات وجباة الفرض المفروضة ، والمعلمين والمحدثين ونقلة الأخبار .فكان إذا نزل مصطفى كامل

(١٤) إذا = إذ قراءة ترجيحية
(١٥) لنلك = استبعدت الكلمة ليستقيم النص
(١٦) بين الناس = يبين للناس قراءة إجتهادية

على بلد من مراكز تلك اللجان ، تكوف الناس حوله ، وأتى لزيارته أهل البلاد البعيدة ، واجتمعوا حول منبر خطابته ، يهللون ويكبرون ويكثرون من الجلبة والصياح بياعيش[١٧] ، ويحيا ، وبأحسنت ، وصدقت ، وحياك الله وعافاك الله ، وغير ذلك من كليمات التجلة والتكريم والتحية والتعظيم . لقنوها لهم وهم لا يعرفون معناها ولا الحامل إليها . وكان إذا أدب له أحد أصحابه مأدبة تسابق غيره إلى عمل وليمة ودعاه إليها ،وقد نصب له السرداق العظيمة وأوقد الأنوار الكثيرة ، وربما أتى بالمغنيين والمغنيات .فكانت ولائمه ومأدبه فرضا على أولئك المخدوعين مفروضا .وكبر تغرير الباعة وأهل الصناعات بأولئك الناس إلى حد اتعبهم وأضاع ما فى أيديهم من حطام فى هذه الحياة .فكان إذا كتب الحلاق على أسكفة[١٨] حانوته (صالة الحزب الوطنى)لزم على ذلك العضو الكريم أن يهندم لحيته عنده .وإذا كتب بائع الأحذية على باب حانوته ــ جزم الحزب الوطنى ــ لزم على ذلك العضو الكريم أن يشترى منه لنفسه وولده وأهل بيته .وإذا كتب بائع العيونات ــ أعنى زجاجات العيون ــ نظارات لرجال الحزب الوطنى ــ لزم على ذلك العضو الكريم أن يضع تلك الزجاجات على عينه ، وهو مع ذلك معافى من كل رمد أو ضعف فى الإبصار ،إنما حب الشئ يعمى ويصم ،حتى لقد صار وضع النظارات على الأعين محلاة بالذهب من إشارات الحزب الوطنى أو هو من لوازم الحال . وكذلك كان الحال فى لبس القفاطين الحريرية ،والعمائم الكعكعية ، والزنانير البيروتية ، والجبب الصنحورية[١٩] .وقلد

(١٧) بياعيش = بيعيش

(١٨) اسكفة = اسكفّة الباب عتبته

ــ مختار الصحاح ــ ص ١٢٩

(١٩) يبدو أن شاوربيم أراد استخدام كلمات مقفاة على وزن واحد على سبيل السخرية ــ فأشار إلى القفاطين الحريرية والعمائم الكعكية والزنانير البيروتيه والجبب الصنحورية ـ إذ ليس هناك من انواع العمائم فى مصر فى ذلك الزمان ما كان يعرف بالعمائم الكعكية ــ اما الزنانير فهى أحزمة النصارى ــ ولم يكن لبيروت شهرة بصناعتها ــ واستكمالا اللوزن فإنه أضاف كلمة الصنحورية إلى الجبب ، ولم تكن العباءات (الجبب) توصف بالصنحورية .

ــ مختار الصحاح ــ ص ١١٦

الناس بعضهم بعضا وأسرفوا ، وأوغلوا ، وباعوا الغالى بالرخيص ،والعاجل بالآجل ،والصحيح بالقليل ، حتى نفذ ما فى أيدى الكثير منهم ،وأستدانوا وثقلت عليهم أيدى أصحاب الديون ، وهم فى غيهم لا يفقهون ولا يلوون على شئ .

إتفق أنى كنت يوم أشكو إلما فى عينى ، فأشار طبيبى بأن أضع زجاجات سوداء على عينى إذا خرجت إلى الطريق ففعلت ، وبينما أنا فى طريقى إذ لقينى صاحب لى من رفقاء مدرستى . فسلم وأمسك بيدى وقال وهو ضاحك (أكمالى أنت؟)فقلت وما معنى ذلك الماجر(٢٠) . قال أريد أن أسألك(هل أنت من أتراب مصطفى كامل ،ومن أعوان الحزب الوطنى)قلت لا هذا ولا هذا . قال (أراك تضع إشارة الحزب ، وأنت لاتدرى)فقلت ويحك وما هى إشارة ذلك الحزب المبارك قال(هى الزجاجات السوداء ،فلا ينقصك الآن عن السادة العاملين فى لجانه ، إلا لبس الأطالس(٢١) والتوكؤ على العصاة الذهبية ، والجلوس فى الحانات ، ومكامن الريب ، وضرورة حديثك كلمة الدستور ، والحرية والوطن والإحتلال ، وأشباه ذلك مما يتبجح به ذلك القوم ، وهم لا يعرفون لا معنى ولا مبغى . فقلت ويحك ،وهل يستطعون خلع الطول(٢٢) بالإبر؟ والله لئن طال الحال على مايقولون لتفرقت الأمة وكبرت النقمة ، والأمر يومئذ حينئذ لله .فقال أنبى أنت ياصاحبى؟ قلت لا وعافاك الله ،وهل يكتم فى الظلام مشاغل؟ إنى أقول الحق أنى رجل لا يحب المداجاة ،وعندى أن كل شئ مستطاع نقله إلا الطباع ، وكل شئ يتهيأ فيه إلا القضاء .فهل القوم على أهبه لما يفعلون؟أو هم فى مأمن مما يتوقعون؟ وقد سبق المثل(ليس بهالك من ترك مثل هالك)كما أنه قبيح إذا ركبنا الخيل أن تجرى بنا حيث أرادات دون أن

---

(٢٠) الماجر = الماجن قراءة إجتهادية
(٢١) الأطالس = الملابس ناعمة الملمس ـ اى الفاخرة
مختار الصحاح ـ ص ٧٨ ، ١٦٦
(٢٢) الطول = الطوب قراءة ترجيحية

نديرها كيف ما أردنا . ومن ذا الذى لا يقول أن هذا النحو من الشنشنة والتمادى على هذه الطنطنة يكونان كالحجر المغصب فى البنيان فلا يلبث طويلا حتى يفضى به إلى السقوط والخراب ،وربما شرق شارب المياه قبل ريه .فالإسترسال فى هذه الأمانى والآمال البعيدة على غير أهبة ولا استعداد ،ضرب من الفضول والحمق ،وأنت تعلم أن خير المقال ما صدقه الفعال ،والعناء فى غير منفعة خسارة حاضرة .فقال صدقت والله وأحسنت ،وكثر الصياح من الفشل(٢٣) .

(٢٣) يحمل ميخائيل شاروبيم على مصطفى كامل وأنصاره حملة قاسية ، فيتهمه فى خمس صفحات كاملة من النص بإفساد أخلاق الطلبة ودفعهم إلى الإقدام على الكبائر بمقالاته وكتاباته المتطرفة فى (الحرية) والمبالغة فى طلب (الإستقلال) ، وينسب إلى أنصاره أنهم من (السوقة العامة وأهل الحرف وأصحاب الكارات) . ويتهم الرجل وحزبه فى موقفهم من الإحتلال والقوى المؤيدة له(ببغض المحتلين والنزالة المسيحيين) ــ ويصف أفكار مصطفى كامل ودعوته (بالخميرة الفاسدة) ــ وأتباعه (بالمخدوعين) .

وتمادى شاروبيم فى هجومه على مصطفى كامل فوصف هجومه على الإحتلال بأنه(الأقاصيص والأكاذيب والمفتريات على جماعة الإنجليز المتوليين أمور البلاد) ــ واتهم(مدارس الشعب) التى أنشأها مصطفى كامل فى أحياء القاهرة بأنها تعلم تلاميذها(بغض كل مسيحى تحت سماء البلاد) ــ وتعليمهم استعمال السلاح .

بل أن شاروبيم لم يجد غضاضة فى السخرية من ملبس وشارات أنصار مصطفى كامل التى حددها فى لبس النظارات السوداء ــ والملابس الفاخرة ــ والتوكؤ على العصى المذهبة ــ والجلوس فى الحانات ومكامن الريب .

وسخر شاروبيم من حديث أنصار مصطفى كامل عن (الدستور)و (الحرية)و(الوطن)و(الإحتلال) .
والحق أن رمى مصطفى كامل بتهمة التعصب الدينى كان لا يقوم على أساس . فقد قال فى خطبته بالإسكندرية فى ٨ يونيو ١٨٩٧(إن المسلمين والأقباط شعب واحد ، مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش ، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد) ــ وفى عام ١٩٠٠ قال(كيف يستطيع رجل أن يدعو للشقاق والبغضاء؟ هذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة ، فالأقباط إخوة لنا فى الوطن ، تجمعنا بهم أشرف رابطة ، وقد عشنامعهم القرون الطوال ، على أتم وفاق ، وأكمل إتفاق)

بل أن جريدة(الوطن) التى كان يصدرها ميخائيل عبد السيد والتى كانت معنية بشئون الأقباط عناية كبيرة ، قالت فى خطبته تلك التى ألقاها فى ٨ يونيو ١٨٩٨ ما نصه(فقد انشرح كل من سمع حضرة الوطنى الماهر مصطفى كامل ، لأنه ظهر فى المصريين من هو مقتدر على الإعراب عن نوايا الأمة المصرية بالاعتدال والرزانة والحض على مكارم الأخلاق والحث على المحبة والمسالمة .

وأنصف مصطفى كامل من تهمة التعصب أحد عظماء الأقباط ، وهو مرقس حنا باشا(نقيب المحامين) ووزير الأشغال ، وزميل مصطفى كامل فى العمل الوطنى) عندما قال فى حفل تأبينه(ليس الأبطال قائدى الجيوش ، والقابضين على دفة الأساطيل ، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدء القويم واهدافه الدائبون على السير فى سبيله ، حتى ارتفعوا إلى أوج الرقى والعلا . سار الفقيد فى سبيله هذا ثابت الجأش شديد المراس ، لا يلوى على أحد ، ولايقف به أمر ، حتى فاز كما نرى ،=

= وأراد أن تكون الوحدة الوطنية وأرانا طريق الأخاء والحرية ، وهدانا إلى السعادة الحقيقية ، ورسم لنا طريق الوفاء والتآلف . . . هذا بناء مصطفى كامل ، هذا عمل مصطفى كامل ، وقد بدأنا نجنى ثمره من الآن ، لأن الإتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والإستقلال) .

والحق أن(دولية) النزاع المصرى البريطانى التى دعالها مصطفى كامل كانت تقتضيه أن يتعامل مع ساسة وكتاب ونواب وشيوخ ووزراء وأصحاب رأى أوروبيين مسيحيون وغارقين حتى آذانهم فى مشاكل تهم المسيحية والمسيحيين ــ ولم يكن ليغيب عن فطنة أى من هؤلاء أى بادرة عن تعصب دينى عند الرجل

ــ أما عن التعليم ، فقد ظلم شاروبيم مصطفى كامل عندما وصف مدارسة بما وصفه . لقد كان المثل الأعلى الذى أصر عليه مصطفى كامل هو نشر التعليم بين أفراد الشعب المصرى . وكان متمسكا بهذا التعليم الإلزامى الذى عرفت قيمته الأمم المتقدمة ، فأنشأ المدارس وشجع الثقافة ، وتبنى إنشاء الجامعة المصرية .على أن أسوء ما فى صفحات ميخائيل شاروبيم هذه ، تلك اللهجة المخففة فى الحديث عن الإحتلال والمحتلين ــ وهى لهجة بدت نبراتها فى عام ١٨٩٧ عندما اتهم مصطفى كامل باتخاذ الدين سلاحا يقاتل به الإحتلال والإجانب ، وتأثير هذا المسلك على الوحدة الوطنية ــ وعندما طالب فى ذلك الوقت (شاروبيم) بالرضوخ لمشيئة الأجانب وعدم إظهار مشاعرهم العدائية نحوهم ـ وعندما حذر من هذا المسلك الذى أدى(فى تصوره) إلى التدخل الإجنبى كما حدث عام ١٨٨٢ .

وفى عام ١٩٠٠ أيضا تبدو الروح الإنهزامية عند شاروبيم عندما يتعرض لكفاح مصطفى كامل ضد الإنجليز وشرحه عدم مشروعية الإحتلال فى ندائه للشعب(يا قوم ماقامت أمة فى طلب الحق وغلبها الباطل ــ فاطلبوا حقكم من أصحاب الإحتلال بكل الوسائل المشروعة) ، إذ يقول(وهل يستطيعون خلع الطوب بالإبر) .

ــ وتبدو مسالة مهادنة شاروبيم للوجود البريطانى فى نهايات القرن التاسع عشر محيرة بعض الشئ . فكتاباته قبل ذلك فى أوائل التسعينات من القرن تكشف عن عداء واضح لهذا الوجود . في يناير ١٨٩٢ يقول شاروبيم عن كرومر(إن التصرف والإستبداد بالأمر قد بلغ يومئذ ماوراء الغاية . فقد بات طوع أمره جباية الأموال ، وتقدير الخراج ، وفرض الفرض وإنشاء الترع والجسور ، وحماية الثغور ، وإرهاب الحكام والتصرف فى سائر الأحكام ، وقلب كل دستور لا يد فوق يده ، ولا كلمة تعلو كلمته . وهذا هو معنى الغلبة والتسلط وحقيقتها على المشهور عند أصحاب الكلام إذا لم نقل الملك وحقيقته ، والملك لله الواحد القهار)

وفى(الرقيب) الذى أصدره قبل ذلك عن الفترة(١٨٧٨ ــ ١٨٨٢) يصف دولة الإحتلال بقوله(هى المطاعة فى كل ما أشارت ، وصاحبة الفوز أينما سارت ، والغار أينما غارت ، ولله دينارها الذى طالما دق الأعناق ، ولق العيون ، ونسف الحصون ، وكم به سيوف ومضت ، ورماح شرعت ، وأحزاب تجمعت ، وأملاك سلبت ، وممالك خربت ، وملوك عزلت . فهى أحرص الحكومات على ما فيه مصلحتها ، وأشدها تيقظا لما فيه توطيد دعائم عزتها . . . وهكذا مابرحت تختلس الشهرة إختلاسا ، وتقتبس الصيت اقتباسا وتستزيد ذاتها بنقص الغير ، وتنسج خيرها بنقص الخير)

اما فى نهاية القرن فان شاروبيم يصف دعوة مصطفى كامل بانها (الأقاصيص والأكاذيب والمفتريات على جماعة الإنجليز المتوليين أمور البلاد) . فهل غيرت الأيام روح الرجل ؟ ام أنه سئم النضال وفضل حياة الهدوء والاستقرار على الكفاح ومخاطره؟

ــ فتحى رضوان(مصطفى كامل) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٥٤ ــ ٢٦١

ــ ميخائيل شاروبيم (رقيب على أحداث مصر ــ حوليات مصر السياسية ١٨٧٨ ــ ١٨٨٢) تحقيق ودراسة يونان لبيب رزق ــ دار المعارف ـ القاهرة ــ ١٩٩٢ ـ ص ١٥ ــ ١٦

ــ راجع الصفحات ٤٣٤،١ ، ٤٣٩ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، من النص

واهتم أصحاب الحل والعقد من جماعة الإنجليز بالبحث عن أموال التعايشى ومقتنياته ، وقد كانت كثيرة جدا كما يقولون .وشددوا فى سؤال الأسرى من كبار الدراويش ونساهم عنها ،فلم يقفوا منهم على خبر ،ولا وصلوا إلى معرفة مكانها ،ولا مخبأها ،وغاية ما وصلوا إلى معرفته أن التعايشى كان يودع أمواله ونفائسه وتعايبه[٢٤]عند أخيه الأمير يعقوب ، ولم يكن يعقوب ليعلم بها أحدا من المقربين إلى التعايشى ، حتى ولا أقرب المقربين إليه سوى(عبد القيوم)كبير خصيان الخليفة . وقد مات(يعقوب) مع من ماتوا فى موقعة(أم ديريكات)[٢٥] . وفر عبد اليقوم[٢٦]هاربا إلى جبال(شريكلة)[٢٧] . فبثوا حوله العيون ، وأخذوا عليه المسالك ،وسيروا جماعة من العربان الموالين فى طلبه ، فتتبعوا آثاره ومازالوا حتى قبضوا عليه ،وأتوا به فى الغلال[٢٨]والقيود .فبرز الأمر بسجنه فى(الدويم) ، ووكلوا به من يسأله عن خزائن الخليفة .قيل فلم يدل على شئ منها ، وقيل بل دلهم عليها ،فحملوا منها شيئا كثيرا لا يحصى من الذهب والفضة وسن الفيل والريش والأطبان[٢٩] ، وغير ذلك كثير لا يدخل تحت الحصر ،وسيروا بها إلى ديار الإنجليز خفية ومما أهدى إلى ملكة الإنجليز من آثار المهدوية بعد الفتح مصحف(محمد أحمد المهدى) ، ورسالة بخط غردون إلى المهدى ردا على كتاب بعث به إليه يسأله فيه التسليم وترك القتال ، وكتاب الثورة الذى كان يحمله غردون أيام محاربته للصين . يقال أن الملكة كانت كثيرة التأمل والنظر إلى تلك الآثار ، كما كانت تكثر من ذكرى غردون ،وماأصابه بسبب سياسة التردد وعدم الحزم .

(٢٤) وتعايبه = وتعابيه قراءة إجتهادية ـ من التعبئة ـ مختار الصحاح ـ ص ١٧٢ .
(٢٥) مات يعقوب أخ الخليفة عبد الله فى معركة(أم درمان) فى ٢سبتمبر ١٨٩٨ـ أما صحه الإسم الذى ورد فى النص فهو ام دويكرات .
ـ راجع حاشية ٢٦٩ من حواشى عام ١٨٩٨ ، ٣٥٥ من حواشى عام ١٨٩٩ .
(٢٦) اليقوم = القيوم قراءة تصحيحية
(٢٧)شريكلة = شركيله
ـ راجع حاشية ٥٢ من حواشى عام ١٨٩٩ .
(٢٨) الغلال = الأغلال قراءة تصحيحية
(٢٩) والإطبان = والأطباق قراءة إجتهادية

وكان جماعة الإنجليز بالخرطوم قد أزكوا العيون حول عثمان دقنة ، وجعلوا لمن يقبض عليه ويأتى به إلى الخرطوم قدرا من المال .فتتبعوه أينما سار ،وضيقوا عليه المسالك .وما زالوا حتى قبضوا عليه[٣٠] .فبرز الأمر بحضوره إلى القاهرة مخفورا .مساء[٣١]السبت سابع عشرى يناير من السنة وصل القاهرة فى عربة خصوصية يخفره جنديان .فقابله فى المحطة مندوبان من وزارة الحرب ، وكانت المحطة غاصة بجماهير الناس ،وكلهم متشوق لرؤيه ذلك الشيخ الذى أتعب الجنود وفشل صفوفهم ، وقتل وغنم . وتزاحموا حوله ،فجعل الجند يدفعونهم عنه بالآكف ، وأما هو فكان هادئ اللب ساكن القلب لا يتكلم . وكان ينظر إلى الجمع المحتشد نظرة الكئيب البائس .فما هى إلا ساعة حتى أقبل القطار الذى سيقله إلى(وشيد)حيث جميع أسرى السودان ،وأدخلوه فى عربة ودخل معه الجند الموكلين بحراسته ، فسار به القطار إلى سجنه .وقد تمكنت من رؤية الرجل عند وصوله فإذا هو طويل القامة عريض الوجه مستديره طويل اللحية أبيضها ، واسع العيين ، عريض الأكتاف ،رقيق الخصر ، ملتف بملاءة تسمى عندهم (مرقعة) كثيرة الألوان ، وعلى رأسه عمامة مكورة ، حافى الأقدام ، ويقال أن لغته العربية قريبة من الفصحى .

ولما كان اليوم التالى سار السردار (ونجت باشا) إلى التخوم فى قلة من أتباعه ،فلما بلغ الخرطوم إنحدر نائب الغيبة يريد ديار الانجليز .وبرز أمر السردار يحزر لمن إنضم من[٣٢] العبيد الذين خرجوا عن طاعة مواليهم ،يوم أعلن كتشنر

(٣٠) بعد معركة(منهل جديد) التى قتل فيها الخليفة عبدالله وقواده فى ٢٤ نوفمبر ١٨٩٩ – تمكن(عثمان دقنه) آخر القواد المهديين من الهرب ، وعبر النيل إلى الشرق حيث وصل إلى جبال البحر الأحمر . وهناك قبض عليه فى ١٨ يناير عام ١٩٠٠ وأرسل إلى رشيد . وفى عام ١٩٠٨ أرسل إلى وادى حلفا .
- اورطة البنادق الرابعة المشاة - مرجع سبق ذكره - ص٤٢
- على محمد بركات(السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره - ص ١٨٠
وعن سيرة عثمان دقنه ومعاركه فى السودان الشرقى راجع
- حاشية ٢٤١ من حواشى عام ١٨٩٢ ، ١٧١ من حواشى عام ١٨٩٣ .

(٣١) مساء = وفى مساء اضيفت الكلمة ليستقيم النص

(٣٢) يحزر لمن إنضم من = يحذر عدلت الجملة ليستقيم المعنى

باشا إلغاء النخاسة بيعا وشراء ، ويأمرهم بالرجوع إلى مواليهم ، ويظلوا عندهم بحيث يحسن أولئك الموالى معاملتهم ،ولا يسيئون إليهم ، وأن من أساء إلى عبده يؤخذ منه . فرجع بعض أولئك العبيد إلى مواليهم وبقى البعض الآخر . وظن السودانيون أن قد عادت النخاسة واستخدام العبيد فى الحرث والزرع كما كان الحال قبل ظهور الثورة . فخاب ظنهم وبرز أمر السردار بما تقدم .وأعقب هذا بعد قليل أن أنزلوا من أم درمان إلى القاهرة ومنها إلى رأس الرجا الصالح ،بعض المدافع الرشاشة والجبلية يريدون إرسالها إلى جنوبى أفريقيا لحرب البوير[٣٣] .فلم يعجب ذلك جماعة الجند وضباط الجند المرابطين فى

(٣٣) حرب البوير(١٨٩٩ ـ ١٩٠٢) ، وقعت نتيجة لنزاع بين بريطانيا العظمى وحكومتى الأفريكانرز Af-rikaner (البوير) الترنسڤال Transvaal المعروفة باسم جمهورية جنوب افريقيا The South Africn-republic ودولة الأورانج الحرة Orange free Stafe . كان المستوطنون الأوروبيون فى كل من المنطقتين من أصول هولندية أساسا ويعرفون باسم البوير Boers او أفريكانرز Afrikaners . إستجابة لضغوط البوير منحت بريطانيا دولة أورانج الحرة إستقلالا عام ١٨٥٤ . وفى ثورة قصيرة عام ١٨٨١ (احيانا تسمى بحرب جنوب أفريقية الأولى)استعادت الترنسڤال استقلالها الذى كانت قد فقدته لصالح بريطانيا عام ١٨٧٧ . ومع هذا فان كلا من الجمهوريتين ظلتا تحت السيادة البريطانية .
جذب إكتشاف الذهب فى ويت ووترس راند Witwaters rand فى الترنسڤال عام ١٨٨٦ ، جذب أعدادا كبيرة من المهاجرين الأوروبيين ـ البريطانيون أساسا ـ الذين أقاموا صناعة التعدين فى البلاد وأتوا للسيطرة علي الجزء الأساسى من ثروتها . رحب الرئيس بول كروجر paul kruger بالمشروعات الإقتصادية لهؤلاء الأجانب Uitlanders لكنه خشى فى نفس الوقت التهديد الذى شكلوه لأسلوب حياة البوير الزراعى والغير تجارى ، فرفض أن يمنحهم أى تنازلات أو إمتيازات سياسية كبرى . تزايدت الجفوة فى العلاقات البريطانية البويرية بسبب النزاعات حول الإمتيازات Franchiseوعدد من المسائل الإقتصادية وخاصة بعد غارة غير شرعية وفاشلة قام بها السير لياندر ستار جيمسون Leander starr Gameson المصفى المنتدب Administrator البريطانى ، ضد (الترنسڤال) لتأييد الأجانب Uitlanders . عززت الترنسڤال قواتها المسلحة ، وأبرمت تحالفا مع دولة أورانج الحرة ، ووجهت إلى البريطانيين إنذارا تحتج فيه على تعزيز الحامية البريطانية فى جنوب إفريقيا ، سمى الأفريكانرز الحرب الناتجة عن هذا النزاع حرب الحرية الثانية second war of freedom . خلال المرحلة الأولى من الحرب (١٨٩٩ ـ ١٩٠٠) كسبت قوات البوير بعض الإنتصارات السريعة . وأقاموا حصارا على مافكنج Mafeking ، كمبرلى Kimberley ، وليدى سميث Ladysmith ، لكن كل هذا تم إزالته فى النهاية بواسطة القوات البريطانية بقيادة اللورد كتشنر وفردريك سليه روبرتس Frederick Sleigh Roberts . فى المرحلة الثانية من الحرب(١٩٠٠) هزم البريطانيون جيوش البوير الرئيسية واحتلوا بريتوريا Pretoria عاصمة الترنسڤال . فى المرحلة الأخيرة من الحرب(١٩٠٠ ـ١٩٠٢) إتخذ البوير أسلوب حرب العصابات guerrilla warfare ،ورد البريطانيون بتعريض الشعب البويرى لمعاملة خشنة ، بما فى ذلك الإحتجاز فى معسكرات الإعتقال detention in concentration camps . فى النهاية أجبر البوير على الدخول فى السلم فى=

الخرطوم ، ودبت روح الإستياء فى صدورهم جميعا حتى ظهرت على وجوههم علاماتها ، وتكلموا فى ذلك بلا خوفا[٣٤]ولا مبالاة .فخاف جماعة الإنجليز من خروج الجند وشقهم عصا الطاعة ،وهم على استعداد لكل طارئ . الأمر[٣٥] بجمع ماهو عندهم من الدخيرة ، فنادوا فيهم بالبوق فلم يزعنوا(٣٦) ،فكرروا النداء بذلك أياما والجند السودانى لا يزعن[٣٧]ولا يقبل تسليم ما معه من تلك الخيرة[٣٨] . فجعل الضباط يهونون على الجند الأمر ويخففون عنهم ويطيبون خواطرهم حتى عادوا إلى الطاعة وسلموا ما كان معهم . فأودعوه فى المخازن ووكلوا بحراسته طائفة من العساكر المصرية .وبثوا بين صفوف الجند من يستميلهم إلى الخلود إلى السكينة والإمتناع عن الهرج المتتابع .وظل الحال على هذا حتى وصل السردار(ونجت باشا)إلى الخرطوم .قيل فأزال ما علق فى الازهان[٣٩] الجند وضباطهم من سوء الفهم ، ثم غير وبدل فى مراكزهم ومواقفهم العسكرية حتى سكنت الأحوال وزال البلبال . ومع ذلك فإن تحدث الناس وأصحاب صحف الأخبار بهذا الحادث كان كثيرا مبالغ فيه مجسم للغاية ،حتى لقد وصفوه بأنه مؤامرة وعصيان وخروج على جماعة الإنجليز

= فيرينحيج Vereeniging (١٩٠٢) . أصبحت الجمهوريتان البويريتان مجرد مستعمرتين بريطانتيين ، لكنها كانت قادرتان على ممارسة بعض الإمتيازات الهامه من البريطانيين .

كانت حرب البوير هى أكبر نزاع عسكرى فى شبه الصحراء الأفريقية sub - sahara Africa .حرك البريطانيون حوالى ٤٥٠,٠٠٠ جندى بالمقابلة لحوالى ٨٠,٠٠٠ بويرى . كان النزاع حربا للسيادة الإمبريالية وحربا أهلية بين البيض . ذلك أن حوالى٥٣,٠٠٠ أبيض أساسا من المتكلمين بالإنجليزية ، من الجنوب أفريقيين حاربوا فى صفوف القوات البريطانية . وقف الأفريقيون السود معزولين . إيقظ الإفراط فى الحرب أول تدفق ذو دلالة للعواطف المضادة للأمبريالية فى بريطانيا . اما فى جنوب إفريقيا فقد أدت الحرب إلى عودة ميلاد الوطنية الأفريكانرية Afrikaner nationalism وإلى إتحاد جنوب إفريقيا من خلال تأليف(إتحاد جنوب إفريقيا union of southafrica عام(١٩١٠) ، الذى فاز فيه الأفريكانرز فى النهاية بالسيادة السياسية .

_ Lexicon Universal Encylopedia - vol. -18 - p., 84 .

(٣٤) خوفا = خوف

(٣٥) الأمر = وبرز الأمر أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى

(٣٦) يزعنوا = يذعنوا قراءة تصحيحية

(٣٧) يزعن = يذعن قراءة تصحيحية

(٣٨) الخيرة = الذخيرة قراءة ترجيحية

(٣٩) الأزهان = أذهان قراءة ترجيحية

أصحاب الحل والعقد وراء التخوم . وعندى أنها ليست من الهرج والخروج فى شئ . فـقـد فـتح أولئك الضـبـاط والجنود السـودان ، وأبلوا فى حـروبه البـلاء الحسن ،مع ذلك لم يأخذوا رتبة ولا ازدادوا راتبا ،فساءهم أن يكون هذا التفريق من عمل جماعة الإنجليز ، فى حين أنهم قائمون بواجب الخدمة حق القيام ، وفى حين ضباطهم ـ يعنى المصريين ـ يقومون بحقير الأعمال ،كالخدمة أو العبيد ، وهم مع ذلك يجردون من سلاحهم وزخيرتهم(٤٠) ،ويتخوفون منهم كأنهم أعداء الدولة ، وخصوم الوطن الذى شبوا فيه . فلم يعجبهم هذا التفريق الشائن ولم يرضهم تسلط أصحاب الكلمة عليهم بالقهر والغلبة عندما قاموا يطالبونهم بإقامة العدل بينهم ، وإعطاء كل ذى حق حقه . فلجأوا إذ ذاك إلى التشديد ، وأكثروا من الأخذ والرد ،وأصحاب الكلمة لا يلتفتون إليهم . حدثنى صديق كان فى السودان يومئذ قال (شاهدت هذه الحركة بعينى وسمعت حديث أصحابها بأذنى فلم أر فيها شيئا مما كان أصحاب الحل والعقد من الإنجليز يتوهمون . ذلك أن ضباط الألاى الخامس المتولى قيادته عبد الجواد بك(٤١)رفعوا إلى السردار عريضة يطلبون فيها مساواتهم فى الترقية بأمثالهم من

(٤٠) وزخيرتهم = وذخيرتهم قراءة تصحيحية

(٤١) عبد الجواد بك = هو القائمقام(العقيد) عبد الجواد بك برهان قومندان الأورطة الخامسة بنادق مشاة من ١٩ أكتوبر ١٨٩٣ ـ٢٨ يناير ١٩٠٢ ـ رقى لرتبة الأميـر الاى فى هذا التاريخ وأحيل إلى المعاش .خدمت أورطته فى سواكن (١٥ مارس ١٨٩٣ ـ ٢٢ إبريل ١٨٩٥) ـ القاهرة(باقى ١٨٩٥ ـ ٢٢ مارس ١٨٩٦) ـ سواكن ، سرض ، دنقلة ، فريج ، بربر ، عطبرة(١٨٩٦ ـ ١٨٩٨) ـ فى اغسطس ١٨٩٨ تم تشكيل الجيش فى السودان إلى ألوية ، وكانت الأورطة الخامسة ضمن تشكيل وحدات اللواء الرابع تحت قيادة الأميرالاى لويس بك lewis ، وشاركت فى معركة أم درمان (٢ ستمبر ١٨٩٨) ، وعسكرت بعد إنتهاء المعركة فى الجهة البحرية من ام درمان حتى ٢٢ نوفمبر ١٨٩٨ . فى يناير ١٨٩٩ إشتغلت الإورطة الخامسة بتنظيم مدينة الخرطوم وظلت حتى مايو ١٨٩٩ . فى يونيو ١٨٩٩ تحركت الأورطة الخامسة إلى أم درمان وانضمت إلى حاميتها ثم سافرت إلى كردفان فى ستمبر ١٨٩٩ . فى فبراير ١٩٠٠ عادت الأورطة إلى ام درمان ومنها إلى الخرطوم ، ثم عادت إلى ام درمان فى يونيو ١٩٠٠ . فى ١٥ ديسمبر ١٩٠٠ سافرت الأورطة إلى القاهرة واستمرت تخدم بمصر حتى نهاية ١٩٠٢ .

من هذا العرض يفهم إن الألاى الخامس الذى ذكره ميخائيل شاروبيم يقصد به الأورطة الخامسة بنادق مشاة

ـ أورطة البنادق الخامسة المشاة ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٩٣٨ ـ ص ١٩ ـ ٢١ ، ٣٨ .

أصحاب الرتب الوظائف .فلما وصلت عريضتهم هذه ليد السردار ، سير من يطلب مقدم أولئك الضباط .فلما مثل بين يديه قال له أو لم تعلم من[٤٢] طلبك هذا يخالف ما رسم به أمير البلاد .؟ فقال إننا لا نطلب إلى[٤٣] المساواة والعدالة وإقامة القسط بيننا . فقال إذا لم تبادر بالعدول عن هذا الطلب أنت ومن معك من جماعة الضباط كنتم من الخوارج العاصيين .فقال معاذ الله أن نكون كذلك ،ومد يده وتناول العريضة وخرج من حضرة السردار .فلما تفشى خبر ذلك فى المعسكر جميعه ،إختلط الحال على جميع الضباط والجنود ، وظلوا على إستيائهم صابرين حتى بدى[٤٤] لجماعة الإنجليز أن يسترجعوا ما بيد الجنود من الذخيرة ومعدات القتال ،وإرسالها إلى قلعة الجبل بالقاهرة ، وأن مايبقى فيها بالسودان لا يزيد عن حاجة الجنود مدى شهرين فقط . فأخذت منهم جميعا بعد أخذ ورد ، وأودعت فى المخازن تحت حراسة طائفة من الجنود الإنجليزية . وداخلت الظنون أدمغة الضباط والعساكر المصريين ، وعدوا هذا العمل إهانة وتحقيرا ، وحسبوا أنفسهم خونة لبلادهم وأهلهم بعد أن كلفوا الحروب فحاربوا ،وأبلوا بلاءهم المشهود ، وأنشأوا السكك الحديدية ، ومقر الحكومة ، وقصر الإمارة ، وغير ذلك من الأبنية الأخرى التى شيدوها لراحة جماعة الإنجليز وتسلية ضباطهم . ولما جاء وقت المكافأة كوفئ غيرهم وتركوا هم .

قال . وكان فى خلال هذا كله أن برز أمر صاحب سياسة الإنجليز بإرسال ثمانية من المدافع الرشاشة من أم درمان إلى رأس الرجاء الصالح عن طريق القاهرة ، مع ثلثمائة سرج من أحسن سروج الخيل . وبادأوا[٤٥] بأخذ الذخيرة من العساكر السود ، فعز عليهم الأمر وامتنعوا عن تسليمها إلى الموكلين . قال ، وقالوا إذا كنا جنودا وجب أن تكون الثقة بيننا حسنة والشكوك بعيدة ، ثم أتوا

(٤٢) من = أن قراءة تصحيحية
(٤٣) إلى = الا قراءة تصحيحية
(٤٤) بدى = بدا قراءة ترجيحية
(٤٥) وبادأوا = وبدأوا قراءة تصحيحية

إلى المخازن فكسروا أبوابها ،واستعادوا ما أخذ منهم من الذخيرة ، وعادوا إلى منازلهم وهم على أحسن ما يكون من النظام .قال وكان(السردار ونجت باشا) يومئذ بالقاهرة ، فجاءه الخبر على جناح البرق ،فقام من يومه ودخل على الأمير بقصره وحدثه بخبر ما جرى ، قيل فأكبر الأمير الأمر وأعظمه جدا وخاف عاقبته والسودان فى إبان حركته ، وسير فى الحال كتبه إلى كبار الضباط بالتخوم يأمرهم فيها بالخلود إلى السكينة والإبتعاد عن كل هرج .وسافر السردار من يومه إلى التخوم فبلغها .وقد كانوا قبضوا على ستة من صغار الضباط وسجنوهم ، فجمع السردار سائر الضباط وخطب فيهم خطبة طويلة وكلمهم بالحسنى وزيادة .فلم ير منهم إلا الجفاء والإستياء الزائد ، فخاف شر العاقبة . واتفق أن صاحب السياسة الإنجليزية أرسل فى هذه الآونة جماعة من الضباط الإنجليز القايمين بخدمة الجيش المصرى فى السودان ، فامتنع السردار من إرسالهم ، وسير إلى صاحب[٤٦] يخبر على جناح البرق بخبر الحركة البادية بين العساكر السودانية والمصرية ، ويسأله بقاء أولئك الضباط تلافيا لما عساه أن يحدث من وراء تلك الحركة . واهتم لذلك أيضا لورد كرومر ، فكان يقضى الساعات الكثيرة بين قصر الإمارة ، وديوان الوزارة ورسائله مرادفه[٤٧] على جناح البرق بين السودان وعاصمة الإنجليز ، حتى غلب على الظن أن الفتنه لم تخمد نارها . وجاءت الكتب الخصوصية إلى بعض أصحاب المصالح فى السودان بامتناع العساكر السود من تسليم ماعندهم من الذخيرة وأنهم مصرون على الإمتناع مهما كلفهم ذلك من الضحايا . وكان الأمير قد تأهب إلى السفر إلى واحة سيوى وصحراء ليبيا لغرض فى نفسه .فلم يتم له ذلك خوفا من حدوث حدث فى السودان ،أو كما شاع يومئذ لم يوافقه لورد كرومر على ما اراد دعوته[٤٨] .فلما

---

(٤٦) صاحب = صاحب السياسة الإنجليزية أضيفت الكلمات ليستقيم المعنى

(٤٧) مرادفة = مترادفة قراءة ترجيحية

(٤٨) دعوته = إستبعدت الكلمة

كان عاشر فبراير من السنة ،عاشر شوال سنة سبع عشرة وثلثمائة وألف ذهب لورد كرومر إلى ديوان الوزارة ،وكلم الوزير مصطفى فهمى طويلا فيما لم تصل الينا معرفته . فما هى إلا ساعة بعد ذلك حتى إستدعى مصطفى باشا جماعة الوزاء وعقد مجلسهم وطال إنعقاده ،ورسل لورد كرومر تغدو وتروح بين دار العميد ومقر الوزارة ،وأصحاب الصحف وقوف على باب الرئيس يسألون عما سيكون من وراء ذلك ،ثم إنفض مجلسهم وأصبحوا وقد برز أمر الأمير إلى سائر الضباط وجميع الجنود بالسودان مشددا بالرجوع إلى الطاعة وترك العناد ، وأن لا يحدثوا حدثا يرمون به إلى مخالفة أميرهم ومليكهم . فما هو أن تلى عليهم حتى صاحوا نحن لانتمرد ولا نعصى ولانطلب أن نعامل خلافا لأمر مولانا الأمير صاحب السلطة علينا ، ولكننا نطلب شيئا قانونيا هو كذا وكذا .فأبلغ السردار مقالهم إلى لورد كرومر وسأله أن يستصدر أمر الأمير بعصاوتهم وخروجهم عن الطاعة . قيل فلم يرض الأمير بذلك ، وخالف لورد كرومر فيما ذهب إليه من جسامة هذا الخطر الداهم .وظل الحال على هذا أياما ،حتى إنفرجت الأزمة وزال الشك ، امتنع الخوف من شر كانوا يتوقعونه . وحكم المجلس العسكرى بطرد أربعة من صغار الضباط من الخدمة لاتضاح إجرامهم وعصاوتهم ، وتعضيدهم الجند على شق عصا الطاعة(٤٩) .وجاء الخبر إلى وزارة الحرب بأن

---

(٤٩) تعود قضية تمرد بعض وحدات الجيش المصرى فى السودان إلى أيام عقد إتفاقية الحكم الثنائى (١٩ يناير ١٨٩٩) واتضاح نية بريطانيا فى مشاركة مصر فى السيادة على السودان . فقد أثار هذا المسلك أبناء مصر جميعا ، وعبر عن ذلك مصطفى كامل فى مقالاته فى(اللواء) فى يناير ١٩٠٠ والتى وصف فيها السودان بأنه أصبح مستعمرة إنجليزية . وفى السودان ساء الضباط المصريين رفع العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى على ام درمان بعد إستردادها ـ لكن الأمل فى أن تفسد مسألة(فاشودة) ترتيبات الإنجليز فى مصر والسودان كان عاملا مهدءاً ومؤجلا لانفجار المشاعر المصرية تجاه نيات الإنجليز فى السودان . الا أن هذا الأمل سرعان ما تبدد بعد التراجع الفرنسى المشين عن مواجهة إنجلترا ، وازدادت دهشة الضباط والمصريين فى السودان عندما خطب(كرومر) فى أم درمان فى الثالث من يناير ١٨٩٩ وكشف عن نيات الإنجليز بلا مواربة نحو السودان ونوع الحكم الذى كان مقدمته رفع العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى هناك .

وفى الأيام التالية بعث بعض ضباط الجيش برسائل إلى الخديو يعبرون فيها عن سخطهم من جراء ما ذكره كرومر فى أم درمان . وهكذا كانت نذر السخط على اغتصاب إنجلترا للسودان ورضوخ=

سينحدر إلى القاهرة من أعالى السودان حملتين إحداهما فرنسية كانت لاحقة بحملة مرشان التى أحتلت فشودة ثم تركتها على ما تقدم بك بيانه ، والثانية إنجليزية أتية عن طريق الكونغو . فسيرت وزارة الحرب خبر ذلك إلى قنصل جنرال دولة الفرنسيس . فاهتم القنصل لذلك إهتماما عظيما وسير نائبه إلى حيث يلتقى بالقطار المقل لتلك البعثة . فلما كان سادس عشر فبراير من السنة ، سادس عشر شوال وصلت البعثتين فى قطار خاص . فكانت الفرنساوية منها مؤلفة من ضابط كبير وصف ضابط واحد وثمانية وثلاثين جنديا سنغاليا .

= الحكومة الفهمية لطلبات إنجلترا تتزايد كل يوم . وإذا كانت عناصر مصرية كثيرة قد أبدت رفضها لاتفاقية السودان وجاهرت ببطلانها قانونا فإن الضباط المصريين فى السودان لم يتخلفوا عن التعبير عن رأيهم فى هذا الأمر خاصة وأن سخطهم كان قائما منذ خطبة كرومر فى أم درمان .

اتفق فى ذلك الوقت (أوائل ١٩٠٠) أن قررت السلطات البريطانية سحب بعض المدافع المكسيم السريعة الطلقات التى يمتلكها الجيش المصرى فى السودان لإرسالها إلى جنوب إفريقيا بسبب(حرب البوير) ، كما راجت فى نفس الوقت شائعة مؤداها أن بعض وحدات الجيش المصرى السودانية سوف ترسل إلى جنوب إفريقيا للمشاركة فى القتال الدائر هناك . وعندما بدأت السلطات الإنجليزية فى جمع الذخيرة من الجنود ، وجدها الضباط الساخطون على الإتفاقية فرصة لتحريض جنودهم على العصيان والإمتناع عن تسليم الذخيرة . وترتيبا على ذلك فقد هاجم الجنود مخازن الذخيرة وإستردوا ما كانوا قد سلموه منها ، وامتنعت الأورطة الرابعة عشرة السودانية عن الرضوخ للأوامر . وكانت معظم القوات الإنجليزية قد سحبت بسبب القتال الدائر فى جنوب أفريقيا وهو ما جعل الحالة فى ام درمان تبعث على القلق وتهدد نظام الحكم الثنائى الذى كان فى أيامه الأولى . غير أنه بعد وساطة بعض كبار الضباط رضخ الجنود للأوامر وسلموا ذخيرتهم . تألفت فى أعقاب ذلك لجنة تحقيق عسكرية (مجلس عسكرى) حاكمت بعض الضباط المتهمين وحكمت على من ثبتت إدانتهم بالتحريض على العصيان منهم بالرفت من الخدمة ـ وعلى البعض بالتكدير(عقوبة عسكرية) . هذا هو ما يعرف بتمرد(أون دورتنجى اورطة بيادة سودانية) أو تمرد الأورطة ١٤جى بيادة سودانية(يناير ـ فبراير ١٩٠٠)

كانت الأحكام الصادرة من المجلس العسكرى المشكل لهذا الغرض كالاتى :-

ـ الطرد من خدمة الجيش :- اليوزباشى محمود أفندى مختار ـ اليوزباشى حسن أفندى لبيب ـ الملازم أول مصطفى أفندى لطفى ـ الملازم أول صالح أفندى زكى ـ الملازم أول محمد أفندى توفيق يوسف ـ الملازم ثان عبد الحميد أفندى شكرى ـ الملازم ثان إدريس أفندى عبد الله

ـ الإحالة إلى الإستيداع : اليوزباشى محمود أفندى حلمى ـ الملازم ثان أحمد أفندى شاكر

ـ التوبيخ : الملازم ثان عثمان أفندى عارف ـ الملازم ثان مصطفى أفندى محمود الشامى

ـ مكى شبيكه(مختصر تاريخ السودان الحديث) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٢٤ ـ ١٢٥

ـ على محمد بركات(السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٣٦ـ ٢٣٧

ـ عبد العظيم محمد رمضان (الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ ـ ص ٧٧ ـ ٧٨

وكنت ساعتئذ بمحطة السكة الحديد أودع صديقا راحلا إلى ديار الفرنجة ، فشاهدت القوم وقد أقبل قنصل جنرال الفرنسيس على ذلك الضابط الشاب يحييه ، فتقدم إليه وحياه التحية العسكرية باسما . ثم أقبل الضابط الصغير فحيا ووقف خلفه(٥٠) رئيسه ،ثم أقبل السنغاليون ، وإذا هم رجال طوال القامة طوال الأعناق دقاق العضلات قليلو شعر اللحى سود الألوان ، منهم فى ألوان العبيد وسحن التونسيين وأجسام الأحباش . يلبسون الطرابيش المغربى والسراويلات البيضاء الواسعة ، ومع كل منهم بندقية وحقيبتين جلد ، حفاة الأقدام ،قيل أن احذيتهم تقطعت فألقوها ومعهم أمرأة ترجمانهم . وهى سوداء طافت معهم مجاهل افريقية ، فهى تتبعهم حاملة حقيبتها وملتفة بإزارها . وكانوا قد أعدوا لهم بإحدى غرف المحطة مائدة مشحونه بالمأكل والمشرب . فجلسوا كلهم يأكلون ، فتقدم أحد أصدقائى من أحد أولئك السنغاليين وسألوا(٥١) بالإفرنسية عن دينه . فإجاب ، مسلم ولله الحمد ، وعن الخمر التى هى أمامه على المائدة فقال حرمت علينا ، وعن صحته فقال ، بعناية قائدنا نحن مسروررون ، وعن وجهتهم ، فقال إلى ديار الفرنسيس .فأعجبتنا لهجته وحريته . وقد كان المظنون أن هذه الحملة قسم من حملة مرشان ، ولكن رجالها يقولون أنهم من حملة (رولة) التى سارت وراء حملة مرشان بعد شهر من سفرها لتحتل المواقع سيتركها(٥٢) مارشان فى أثناء مسيره ، لأنه لم يكن معه من الرجال من يقوم بكل تلك الأعمال .وقد مضى على أولئك القوم في مجاهل أفريقية عشرين شهرا أو يزيد ،وأقاموا فى المكان الذى احتلوه واسمه(عويس شعيبه) سبعة شهور ، وعلموا بخبر رحيل مارشان عن فشوده فى سادس عشرى مارس سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف عن طريق الكونغو .قالوا

(٥٠) خلفه = خلف قراءة تصحيحية
(٥١) وسألوا = وسأله قراءة تصحيحية
(٥٢) سيتركها = التى سيتركها أضيفت الكلمة ليستقيم النص

وكنا نتواصل مع مرشان عن طريق(مشرع الرق)حيث أقام فيها محطة ثم إنقطعت عنا أخباره منذ سته شهور ،فعلمنا أن من بهذه المحطة عادوا إلى الكونغو . قالوا وبعد ذلك بقليل برز الأمر بعودتنا عن طريق النيل ،فقمنا إلى الخرطوم وأبلغنا حاكم السودان بأننا حملة بسيطة لا دخل لها فى السياسة . ولما وصلنا إلى جهات النيل الأبيض أخبرهم الأهالى أن فى تلك الأنحاء أناسا من البيض .قالوا فأخذنا نبحث عنهم حتى عثرنا على الكبتن هنرى البلجيكى ، والكبتن كاج الإنجليزى ،وكانوا فى أشد حالة الضنك والضيق .إذ قضت الحملة الإنجليزية عامين كاملين فى تلك الأرجاء وهى عاجزة عن المسير ،وحملة هنرى البلجيكية نفد زادها وقت[٥٣]ذخيرتها ، فوهت[٥٤]عزائم رجالها وأبوا المسير معه ، فلما قابلناهم مديناهم[٥٥]بما عندنا من الزاد والذخيرة وشددنا عزيمتهم ، وهكذا سرنا نقطع الفيافى والقفار حتى التقينا بالقائد (بيك بك) يقطلا[٥٦] سدود النيل الابيض ، فقابلنا أحسن مقابلة وساعدنا بما قدر عليه من المساعدة .ولما وصلنا أم درمان لقينا من الضباط المصريين والإنجليز كل حفاوة .فنحن نثنى عليهم أطيب الثناء ١٠أ .هـ .

فلما أكلوا طعامهم قاموا فودعوا المدعوين ، وركبوا قطار السكة الحديد إلى الإسكندرية ، وقد أعطوا كل واحد غطاء من الصوف . وأما حملة (كاج) الإنجليزية فكانت ستة من السود يحملون البنادق ومعهم إبنة سوداء . فسيروا بهم إلى منازل الجند بالعباسية ولم يعلم من أخبارهم شيئا ، فقد كتمه عن الناس أصحاب وزارة الحرب من جماعة الإنجليز ، ولكنه قد شاع بعد ذلك . وتحقق الخبر أن حكومة السودان قد سنت فى هذه الآونة قانونا لمنع صيد الحيوانات والطيور البرية فى السودان وقاية لها من ألفناء ، قالوا وأن هذا القانون

(٥٣) دفت = وقلت قراءة ترجيحية
(٥٤) فوهت = فوهنت قراءة ترجيحية
(٥٥) مديناهم = امددناهم قراءة تصحيحية
(٥٦) يقطلا = يقطع قراءة ترجيحية

بجملته يكون نافذا على جميع الأجانب فى أى وقت كان بجميع أجزائه ، ولا ينفذ على الأهالى إلا ما يعلن إليهم بين حين وآخر .قالوا وأن الذى أعلن من ذلك لسنة تسعمائة وألف هو أن للحائز من السودانيين رخصة الإصطياد فى هذا العام أن يصطاد الجاموس والفيلة والزرافة وفرس البحر بعدد معين لا يسوغ له أن يتجاوزه ،وأن على صاحب كل رخصة أن يدرج فى قائمة أسماء الصيد ونوعه وعدده ، ويطلب من حائز الرخصة من الأجانب ضمانة مالية قدرها مائة جنية ، وأن كل ناب فيل يقل وزنه عن عشرة رطال يسوغ للحكومة ضبطه ولصاحبه أن يقيم دعواه أمام الجهة المختصة إن شاء ، ومن خالف شئ من أحكام ذلك القانون عوقب بغرامة مالية لا تزيد عن مائة جنيه وبالسجن مدة لاتتجاوز الثلاثة شهور ،وإذا خالف ثانية عوقب بغرامه لاتزيد على مائتى جنيه وبالحبس حتى ستة شهور .قالوا وأما الأحكام التى لم يعين عقاب لمخالفتها فإن الغرامة فيها تكون حتى خمسه وعشرين جنيها ، وبالسجن ستة أسابيع .وتفشى خبر ذلك وتناقله أصحاب الصحف الأجنبية وعلقوا عليه كثيرا دفاعا عن حرية الصيد فى أرض السود والمتصيدين من أبناء جلدتهم ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا .وبرز الأمر فصار العمل به أمرا مقضيا .

وكان إلى هذا الحين قد ظهرت كلمة رباح(٥٧) مولى(الزبير باشا رحمت) نزيل القاهرة ، وانفسحت شهرته ،ووقف فى طريق الفرنسيس ومستعمرتهم فى

(٥٧) رابح فضل الله ـ وليس (رباح)ـ(١٨٤٦ ـ ١٩٠٠) أحد قواد الزبير باشا رحمت الذى كان من الشخصيات الهامة فى منطقة النيل الأبيض فى بحر الغزال فى ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر . إستمر فى خدمة (سليمان) إبن الزبير بعد اعتقال أبيه فى القاهرة عام ١٨٧٥ وشاركه فى تحدى سلطات الجنرال جوردون حاكم السودان فى السبعينيات ، وذلك فى منطقة بحر الغزال التى كان يحكمها سليمان بعد ابيه . عندما إستسلم(سليمان الزبير) إلى جيش جوردون الذى كان يقوده الإيطالى رومولوجيسى Romolo Gessi فى ١٤ يوليو ١٨٧٩ ، رفض (رابح) الإستسلام واتجه بقواته غربا حيث احتل عدة مقاطعات من دارفور ـ ثم اتجه نحو باجورمى Baguirmi فى برنو . ومن هناك إلى شواطئ بحيرة تشاد حيث دخل فى معارك مع القوات الفرنسية هناك . قتل crampel الضابط الفرنسى هناك ، وهزم الملازم بريتونيه Bretonnet فى معركة Niellin ـ واعتقل المستكشف=

جهات (باغومى)(٥٨) .فجعل يقطع على قوافلهم الطريق ويوالى الهجمات على مراصدهم من حين إلى حين ، وهم يسيرون الحملات المتتابعة لقتاله وأخذ الدروب والمسالك عليه حتى أتعبهم وأعياهم أمره . وظل على هذا حينا ، فلما كادوا يفشلون وقد كثرت لمومه وتزايدت عدته من المدافع والبنادق ودخل فى خدمة(٥٩) جماعة ممن كان(٦٠)فى جيوش المهدوية من الضباط السود والمصريين ، صمم الفرنساويين على الخلاص منه وقطع شأفته جملة .فأعدت له حملة قوية وعقدت لوائها للقبطان (ربيليو) ،فسار هذا القائد إلى بلدة (قونه)حيث معسكر رابح ، فقاتله فيها قتالا شديدا جدا زهاء تسع ساعات حتى إستولى على أسوار البلد ثم دخلها عنوة . قالوا وكان معسكر(قونه)هذا يحميه إثنى عشر ألف مقاتل ، منهم ألفين وخمسمائة مسلحون بالبنادق وثلاثة مدافع ، فلما إشتد القتال وحمى الوطيس بين الفريقين كانت نيران الفرنسيس تحصد لموم(رابح) حصدا ، وسقطت قنبلة من مدافع الفرنسيس فى وسط المقاتلين ، فانفجرت وحطمت مدفعين من مدافع رابح وأتفق أن رابحا كان بين المدافع

= الفرنسى DeBehagle . فى عام ١٩٠٠ إتحدت القوات الفرنسية ضده بقيادة Gentil وامكن قتله فى معركة Koussouri قرب بحيرة تشاد حيث كان قد أسس ملكته فى(برنو) وجعل عاصمتها (دكوة) جنوبى بحيرة تشاد . أما جيسى (١٨٣١ ـ ١٨٨١) فقد كان رحالة إيطاليا ، ولد فى راڤينه Ravenne ومات فى السويس ـ عين حاكما لمديرية بحر الغزال فى عهد حكمدارية جوردون للسودان (١٨٧٧ ـ ١٨٧٩) ـ قاد حملة جوردون(يوليو ١٨٧٩) لإنهاء تمرد سليمان الزبير وقائده(رابح) والتى انتهت بمقتل(سليمان) فى ١٤ يوليو ١٨٧٩ ـ وباجورمى دولة إسلامية فيما كان يعرف بالسودان الشرقى جنوب بحيرة تشاد فى وادى شارى .

-Richard hill (Egypt in the Sudan, 1820 - 1881) Oxford University press(1959) p., 135

ـ القائمقام سعد الدين الزبير(الزبير باشا رجل السودان)ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ١٤٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٢

- Larousse universel - pp., 996,185

ـ عبد الرحمن الرافعى(عصر إسماعيل) ـ ج١ ـ مرجع سبق ذكره ص١٥٢ ـ ١٥٥

ـ إنظر كذلك الخريطة ملحق(١٢)

(٥٨) باغومى = باجورمى Baguirmi ـ ويكتب Baghirmi فى مصادر أخرى ـ راجع حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .

-- Larousse univerel - vol .I p., 185

(٥٩) خدمة = خدمته قراءة تصحيحية

(٦٠) كان = كانوا قراءة ترجيحية

يحض أصحابها على الرمى ،فأصابته شظية من شظايا تلك القنبلة فجرحته جراحة بليغة ،فخرج هاربا من معسكره وحده ،قبل أن تنجلى هوجاء القتال وتخمد نار الحرب ببضع ساعات .فأصبح شريدا طريدا فى القفار يقصد شمال البلاد ، وكان سلطان (باغومى)[٦١] قد تمكن من الفرار من وجه رابح ، فلما تأدى إليه خبر هزيمة (رابح) وخروجه على وجهه هائما ، فرح فرحا عظيما وانضم إلى الحملة الفرنساوية ومعه جماعة من لمومه . فقاتلوا مع الحملة وأبلوا بلاءاً حسنا للغاية ، وقد كانوا قبل ذلك مختفين فى(لاى) يتوقعون هجوم رابح وجنوده عليهم من حين إلى حين . ولم يكن إنهزام (رابح) مولى الزبير وتشريده فى الآفاق ليريح بال جماعة الإنجليز فى السودان ، ولا ليسكن بلبالهم بعد زوال دولة المهدى . فقد قام الخلاف بعدها مع الدولة البلجيكية على بحر الغزال . وأعلم صاحب سياسة الإنجليز ملك البلجيك أن هذه البقعة أصبحت بعد سقوط دولة المهدوية حقا للسودان وشقا منه محرم على غيره . فلم يقبل ملك البلجيك هذا القول وبرز أمره فى الحال إلى القبطان(هنرى)وزميله القبطان(شالتين) وهما من مقدمى الجنود الذين قد سيرهم إلي تلك الأرجاء عينا على الإنجليز بعد مقتل الخليفة التعايشى ، باحتلال ذلك الصقع بحكم معاهدة سنه أربع وتسعين وثمنمائه وألف[٦٢] . فأنكر الإنجليز عليه ذلك الحق بحكم الإتفاق المبرم مع دولة الفرنسيس بعد فشل الفرنسيس فى فشوده[٦٣]

---

(٦١) باغومى = باجورمى - راجع حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .

(٦٢) فى ١٢ مايو ١٨٩٤ وقعت معاهدة تحديد الحدود بين الكونغو البلجيكى وبريطانيا ، أجرت الأخيرة فيها حاجز لادو إلى الكونغو الحرة المملوكة لليوبولد ملك البلجيكين ، وضم بحر الغزال إلى هذه المستعمرة أيضا .

ـ عن العلاقات البريطانية ـ البلجيكية فى افريقيا راجع الحواشى ٣٦٨ ، ٤٦٣ ، ٤٩٩ ، ٥٤١ من حواشى ١٨٩٤

(٦٣) فى ٢١ مارس ١٨٩٩ تم تسوية الخلاف البريطانى - الفرنسى بعد الجلاء عن فاشودة فى ١١ ديسمبر ١٨٩٨ ، بإصدار تصريح وقعه السفير الفرنسى فى لندن نيابة عن حكومته وقضى بخروج حوض بحر الغزال وبحر العرب بأجمعه من دائرة النفوذ الفرنسى بما ذلك دارفور

على محمد بركات(السياسة البريطانية واسترداد السودان) مرجع سبق ذكره - ص٢٠٨

على ماتقدم الكلام عليه ، ولم يعترفوا إلا بالإحتلال حتى لاده(٦٤) فقط . وطال الأخذ والرد بين الفريقين حينا . واتفق أن سافر (الزبير باشا) إلى (أم درمان) بإجازة من لورد كرومر لقضاء ثلاثة شهور فيها ، فأول الناس يفره(٦٥) بتلك الإجازة تأويلات كثيرة ، وترامت ظنونهم فيها إلى أبعد المرامى ،حتى لقد قالوا أنه إنما سار إلى (أم درمان) فى هذا الحين ليولوه الولاية العامة على شق بحر الغزال ، ويصرفونه فى أموره تصرفا يعينهم على قهر سياسة البلجيك واستخلاص ذلك الشق العظيم من سيطرتهم(٦٦) . وظل الحال على هذا حتى إتفق الفريقان على تعيين تخوم جديد بين السلطتين ، وتم لهما ما أرادوا . وعظمت من هذا الحين عناية الإنجليز بالسودان ، وسعيهم إلى تسهيل كل عقبة فى أنحائه وتوسيع حدودها(٦٧) ما استطاعوا ،وتخليد فخر فتحه واستخلاصه من أصحاب المهدوية على مدى السنين والأعوام .واتفق أن إكتشفوا عمودا من آثار البطالسة فى مدينة الإسكندرية ، وعلم بخبره لورد كرومر ففرح بذلك ، وأوصى بأن يصنع له فى عاصمة ديارهم قاعدة لطيفة ينقش عليها(تذكار البطالسة ورجوع السودان إلى مصر ،فى سنة تسع وتسعين وثمنمائة وألف للميلاد) ،ورسم بأن ينصب هذا العامود بقاعدته فى قصر الحكومة بالخرطوم ، ففعلوا وشادوا غيره من التحف والنقوش وفاخر البناء بذلك القصر ، وزينوا قسما منه بالفرش والبسط والطنافيس الغالية للقادمين من كبارهم وأهل المناصب العالية فى ديارهم . وأعدوا المكان الذى قتل فيه غردون باشا لإقامة تمثال له فيه من النحاس الأحمر .وقد كان إكتتب جماعة من كبارهم بمال لعمل هذا التمثال الكبير .

(٦٤) لاده = لادو
راجع حاشية ٦٢ من حواشى ١٩٠٠ .
(٦٥) يفره = سفره قراءة ترجيحية
(٦٦) يقصد البلجيك
(٦٧) حدودها = حدوده قراءة تصحيحية

وكثر خروج الناس فى هذا العام للحج كثرة لم يسبق لها مثيل ، فلم يوفقوا فى طريقهم لا فى البحر ولا فى البر . إذ جنحت بهم بعض السفن ، وضل الطريق البعض الآخر ، وتاهت سفينة بما عليها من المسافرين والحجاج ، فلم يعثروا لها على أثر أياما . وقد خرج للبحث عنها دارعة حربية من السفن الإنجليزية الراسية فى ميناء السويس ،وباخرة من بواخر الشركة الخديوية(٦٨) ، وظلا يفتشان عنها فى عرض البحر حتى عثروا عليها فى مكان يقال له (شراخيت) . فسيروا إلى ذلك المكان باخرة أخرى تحمل شيئا من الزاد وأخرى تحمل الماء الكافى للحجاج الذين على ظهر تلك الباخرة . وأرسل طبيب محتجر الطور أيضا بعض الزاد والماء برا إلى ذلك المكان . وجاء الخبر

---

(٦٨) لم تكن فى مصر فى ذلك الوقت شركة بحرية باسم الشركة الخديوية ـ إذ كان ذلك قد إنتهى بنهاية إسماعيل . وقد قامت أول شركة بحرية تجارية مصرية فى عهد سعيد(١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) باسم الشركة المجيدية (١٨٥٧ ـ ١٨٦١) ، ثم صفيت الشركة وآلت إلى(الميرى) عام ١٨٦١ باسم مصلحة الوابورات الميرية (١٨٦١ ـ ١٨٦٣) . فى عهد إسماعيل آلت ممتلكات هذه المصلحة إلى شركة بحرية جديدة باسم الشركة العزيزية المصرية(١٨٦٤ـ ١٨٧٠) . فى عام ١٨٧٠ صفيت(العزيزية) وآلت موجوداتها إلى الحكومة مقابل تعهد الحكومة بسداد كامل المطلوبات ورأس المال المدفوع وفوائده ، وسميت(مصلحة البوستة الخديوية) أو(مصلحة وابورات البوسنة الخديوية)ـ آلت إلى المصلحة الجديدة سفن العزيزية(الرحمانية ـ التاكا ـ الفيوم ـ البحيرة ـ الشرقية ـ الدقهلية ـ شندى ـ طنطا ـ شبين ـ دمنهور ـ الزقازيق ـ الحجاز ـ الحديدة ـ ينبع ـ سواكن ـ مصوع ـ قصير ـ دسوق ـ كوفيت ـ سمنود ـ المنيا ـ الجعفرية ـ مسير ـ المنصورة ـ المحلة ـ النجيلة .

فى السنوات التالية لسقوط إسماعيل(يونيو ١٨٧٩) دخلت المصلحة فى دور التصفية . فأقيل الكثير من ضباطها ، وتعطلت بسبب ذلك عدة بواخر . في عام ١٨٨٤ وفى عهد مدير المصلحة النمساوى(فريدريكو باشا Fredrico) رفعت آلات ترسانة الإسكندرية ، وفى عام ١٨٨٥ بيعت مخازن وورش الترسانة ، وعطل الحوض الجاف بالإسكندرية .

فى عام ١٨٩٤ رؤى توفير بعض الخطوط الملاحية لمصلحة الوابورات ، فخصصت السفن(توفيق ربانى ـ القاهرة ـ البرنس عباس) لخط الإسكندرية ـ الآستانة)و(الشرقية ـ الدقهلية ـ الفيوم) (لخط سوريا)ـ و(الرحمانية ـ المحلة ـ مسير ـ شبين ـ النجيلة) لخط البحر الأحمر .

فى ١٩ يناير ١٨٩٨ إضطرت الحكومة إلى بيع مصلحة وابورات البوستة الخديوية إلى شركة (ألن وألدرسن وفرانكو) الإنجليزية Allen.Alderson & franco ـ وتولت هذه الشركة تسيير السفن بين السواحل المصرية والخارج

ـ خلف عبد العظيم الميرى(تاريخ البحرية المصرية ١٨٧٤ ـ ١٨٧٩) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٩٢ ـ ص ١٣١ ـ ٢٠٠

بذلك إلى القاهرة ، فكثر تساؤل أهل الحجاج وتزاحمهم على أبواب وزارة الداخلية وموارد الأخبار ، وسافر بعضهم إلى السويس يستطلعون طلع الأخبار . وفيما هم على هذا إذ جاء الخبر أيضا على ديوان الوزارة بقيام العرب على ركب الحجاج الذين قاموا من (الينبع)[٦٩] إلى (المدينة) . فغنموا جمال تلك القافلة وبضاعتها وما كان مع الحجاج من زاد ومتاع ،وقتلوا كثيرا منهم على بعد ثلاثة أيام من(باب ينبع) ، وأسروا كثيرين ، فتفرق من بقى سالما أيدى سبأ . فمنهم من سار فى الجبال ، ومنهم من رجع إلى (ينبع) ومنهم من تاه فى الطريق ، ومنهم من دخل المدينة وهم عراة جائعون .وعلم (شريف مكة)[٧٠] بذلك ، فسير إلى الدولة يخبرهم . فجاء الأمر من الباب العالى إلى (والى مكة) باسترجاع الأسرى ، واسترداد المال المنهوب إلى أصحابه ، وأن يوصل من بقى من الحجاج على الطريق إلى مكة . وسير الرئيس مصطفى باشا كتبه فى ذلك أيضا إلى أمير الحج المصرى ،واستحثه فلم يغنى ذلك شيئا لتفرق العربان فى الجبال واختفائهم بما سلبوه ، وعدم مساعدة مشائخ القبائل لرجال الدولة على معرفة الجانيين ،

وكبر خوف أهل الحجاج وذويهم ، وتزاحموا على أبواب ديوان الوزارة يسألون عما حل بذويهم ، وأصحاب الحل والعقد لا يعرفون من أنباء هذا الحادث إلا ما جاءهم من (ينبع)(وجده) مبتورا قليل الفائدة . قالوا وقد فقدت وزارة الحرب بسبب جنوح تلك الباخرة(شبين)[٧١] ثمنمائة طرد كبيرة ، وجميع أمتعة الحجاج .واهتم أهل الحل والعقد بعودة الحجاج . وقد ظهر الطاعون بمكة

(٦٩) ميناء على الساحل العربى للبحر الأحمر شمال ميناء جدة ـ إرتبطت أهميته كميناء بحرى بموسم الحج حيث توجد بالقرب منه المدينة المنورة ـ برزت أهمية ينبع للملاحة المصرية منذ تحول موكب (المحمل) إلى الطريق البحرى بدءاً من عام ١٨٦٠.
ـــ المرجع السابق ـ ص ٥٠٦ ـ ٥٠٧
(٧٠) ـ راجع حاشية ٤٨٦ من حواشى عام ١٨٩٤
(٧١) ـ راجع حاشية ٦٨ من حواشى عام ١٩٠٠

فضلا عن الأمراض الآخرى ، فبالغوا فى ترتيب محجر الطور وتنسيقه على أكمل نسق . فأخذوا فى يومهم فى إرسال المأمورين والكتاب ، وقسموا المحجر إلى أحد عشر قسما يكفى لركاب إحدى عشرة باخرة ، وعينوا لكل قسم منها مأمورا ، ونصبوا ألفى خيمة للحجاج ، وسيروا إليه ثلثمائة من الجنود المنظمة ، وخمسمائة لبس ، وخمسمائة قميص للحجاج يلبسونها عند تطهيرهم ، وتطهير أمتعتهم ، وبالغوا فى تحسين طعامهم وشرابهم وفراشهم . وبرز الأمر إلى جند خفر السواحل بمراقبة الحاج ، ومنع خروجهم من المحتجر ، وإزكاء العيون عليهم أيام الحجر . فشددوا فى ذلك ، وجعلت طوايفهم تطوف من ساحل (القلزم) إلى مدينة (بورسعيد) إلى (بحيرة المنزلة) فى الليل والنهار ، ومنع كل سفينة من سفن النقل الصغار من الدنو من الشاطئ الأسيوى . وظل الحال على هذا حتى بدأ الحجاج يفدون على ظهور السفن . فجعلوا ينزلوهم بالمحتجر فى الطور بعد تطهير متاعهم وتطهير أجسامهم وتبخير سفنهم . وكان المحتجر على أحسن ما يكون من النظام والترتيب لمتوفر كل أسباب الراحة فيه ، وتعدد الأطباء والممرضين والممرضات ، وأصحاب العقاقير ، والطهاة والغسالين ، فضلا عن الخدم ،وأهل الصنائع والجند والضباط والكتاب وغير ذلك مما جعله كالمدينة الآهلة العامرة .وكانت أخبار ركب الحج الشامى التى جاءت إلى مصر مزعجة مخيفة .ذلك أنه لما وصل ركب محملهم إلى المدينة ،أقام بها خمسة أيام ، ثم تأهب للسفر إلى مكة .فما هى أن شاع خبر تركه حتى وجدوا إمرأة من نساء الحجاج مذبوحة ذبح الشاة فى المكان المعروف (بالمناخ) ، فدفنت دون جلبة ولا بحث عن القاتل . وسار المحمل الشامى إلى(ابادعلى)[٧٢] .فلما بلغها قام جماعة من العربان على نفر من الحجاج فاشتجروا ،فجرحوا من الحجاج

---

(٧٢) آبار على ــ موقع ميقات الإحرام للقادم من المدينة للحج ــ تبعد عن المدينة المنورة سبعة أميال فى الإتجاه إلى(جده)

ــ شهاب الدين أبى عبدالله محمد بن ياقوت الحموى(معجم البلدان) ــ دار صادر بيروت ــ بدون تاريخ ــ ج٢ ــ ص ٢٩٥ ــ ٢٩٦

أربعة عشر وقتل حاج مصرى .قالوا فظلت القافلة سائرة وعدد ركبها ثلاثين ألفا مـن مصـرى وتركى حتى إجتـازت (مـحلة قـريش) .ومـا هى أن توسطت فى الجبال حتى أغار عليها نحو ثلثمائة عربى ، فتأهبت الجماعة لقتالهم ، وكان قد بلغ الصـايح(عـرب الحـوازم) ، فـأقـبلوا مـسـرعـين وخلصـوا القـافلة من أولئك النهـابون .ولمـا نزلـت القـافلة فى(رابع)(٧٣) للإحـرام ضـرب أحـد العـرب تركـيا وحاول أخـذ دراهمه ، فإنهال عليـه الترك وأمسكوا به ، فجاء بعض العسـاكـر الشامية وخلصوه قـوة واقتـدارا لأنهم يشاركونه فى الغنيمة .فلما وصلت القافلة إلى(عسفان)(٧٤) تألب العـرب علـى الحجـاج ، وجعـلوا ينهبون كلما(٧٥) وصلت إليه أيديهم ، ويجرحون كل من عارضهم . فكـان الجرحـى كثيرين والمنهـوبات

(٧٣) رابغ ـ منطقة على طريق الحج إلى مكة . كان طريق الحج الذى يسلكه ركب الحج المصرى برا يبدأ من القاهرة حيث يتجمع الحجاج من جميع بلاد شمال القارة الإفريقية ـ ومن القاهرة يتحرك الركب إلى(بركة الحج) ومنها إلىَ(السويس) فنخل ـ وبعد ذلك يرحل الركب إلى(العقبة) حيث يقيم الحجيج يومان يتجه بعدهما إلى (حقل) ثم (مدين) ـ بعد الإقامة فى(مدين) والتزود بالمؤن والمـيـاه يرحل الحـجـاج إلى(عـيـون القـصـب) . ومن هنـاك يرحلون إلى (المـويلحـة) ثم (الأزلم) ثم(الوجه) ـ ثم يتجهون إلى(اكرى) ونها إلى(الحوراء) على ساحل البحر الأحمر ثم يرحلون إلى (نبطة) ـ ثم يذهبـون إلى (ينبع) حيث يقيـمـون هناك يومـان . ومن (ينبع) يتجه ركب الحج إلى (بدر) حيث يلتقى ركب الحج المـصرى وركب الحج الشـامى ـ وبعد التجمع فى(بدر) ترحل القافلتان إلى (رابغ) حيث يحرمون ، ويخرجون مهللين مكبرين متجهين إلى (خليص) (فعسفان) ثم إلى(بطن مـر) ـ وفـيـهـا يسـتـعـدون لدخـول(مكة المكرمـة) التى يدخلونهـا من مكان يسـمـى (الشـبـيكة) . أمـا ركب الحج الشـامى فكان يبـدأ من مـدينة دمـشق مكان التـجـمع ثم يتـجـه إلى(الكسوة)ثم(الصنين) التى تقع قـرب(حوران) . بعـد ذلك يصل الركب إلى(درعـا) ـ ومنهـا إلى(بصـرى) حيث يقيم الحجـاج ثلاثة إيام ـ يرحل الركب بعد ذلك إلى (الزرقـاء) ثم (زيزا) حيث يقيم الركب ثلاثة إيام ـ بعد ذلك يرتحل الركب إلى (الكرك) ومنها إلى(الحسا) الواقعه بين (الكرك) و(مـعـان) ـ وبعـد ذلك يذهب إلى(مـعـان) ثم إلى (العـقـبـة) ، و(ذات حج)و(تبـوك)(فالعـلا) حيث يقـيم الركب يومـان ـ يلى ذلك الوصول إلى(هدية اشـمـه سى) ثم (عيون حمزة) حيث يستعد الحجاج لدخول(المدينة المنورة) وبها يقيمون عشرة أيام ـ ويخرجون بعدها إلى(ذى الحليفة) وتسمى (آبار على) الآن ثم وادى الصفراء ، وأخيرا إلى(بدر) حيث يلتقى الركب مع قافلة الحج المصرية وهناك يحتجه الركبان إلى مكة وفق خط السير الذى جاء ذكره فيما يتعلق بركب الحج المصرى فى السطور السابقة

ـ دانيال كريسيلوس (جذور مصر الحديثة) ـ ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦

(٧٤) راجع الحاشية ٧٣ من حواشى عام ١٩٠٠ .

(٧٥) كلما = كل ما قراءة تصحيحية .

كثيرة للغاية . قالوا وقد بلغ عدد الحجاج من هذه السنة مائة ألف أو يزيد ، فارتفعت جميع أثمان المأكول والمشروب ، وبلغ ثمن الرغيف قرش ، وأجرة الجمل من مكة إلى المدينة أربعة وخمسين ريالا نقرة . فكان البلاء عاما والشدة بالغة منتهاها ، القتل والنهب صار فى كل مكان بلا خوف من الله ولا حياء من الناس . وجاء الخبر إلى مجلس الصحة بحدوث أربع إصابات بالطاعون فى(ينبع) . فشدد أصحاب خفر السواحل فى الرقابة ومطاردة القادمين من ناحية الشق الشامى .واتفق أن قامت باخرة إيطالية من بمباى إلى السويس ،فما هى أن توسطت اليم حتى أصيب فيها وقاد هندى يبلغ الثلاثين من العمر وظهرت عليه أعراض الوباء فى اليوم الثالث بعد قيام الباخرة ، فعزله طبيب الباخرة فى حجرة مخصوصة .فلما بلغت الباخرة مدينة السويس وتفشى خبر إصابة وقادها هاجت خواطر الناس فى السويس والقاهرة والإسكندرية ، وجعلت أصحاب الصحف تنادى بالويل والثبور وعظائم الأمور . فاهتم لذلك أصحاب الصحة ، وقام الدكتور(روفر) مدير مجلس الصحة البحرية من محتجر الطور إلى السويس ، لاتخاذ كل الوسائل المانعة من حصول العدوى .وما هو أن بلغ السويس حتى برز الأمر بإرجاع الباخرة إلى(عيون موسى)[٧٦] حيث أنزلوا المصاب وأدخلوه فى مستشفى المحتجر ، فتناولته أيدى الأطباء وأثبتوا أنه مصاب بالطاعون الخرجلى ،ولكن إصابته غير معدية ولا هى مميتة . ومع ذلك فقد حجزوا الباخرة فى(عيون موسى)ثمان وأربعين ساعة تحت المراقبة الطبية ، إتماما لمدة العشرة أيام التى قضتها الباخرة من بمباى إلى السويس ، وهى مدة الحضانه التى قررها مؤتمر البندقية[٧٧] ، وبعد

(٧٦) راجع الخريطة ملحق رقم(١٠)

(٧٧) كانت توجد أوامر خاصة قررتها المعاهدات الصحية الدولية التى كانت مصر تشارك فى الإلتزام بها ـ من ذلك تلك القرارت المتعلقة بالكوليراوالطاعون والحمى الصفراء والتيفوس والجدرى والحجاج والصادرات والواردات من الحيوانات وبعض البضائع . وقد نظم الأمر العالى الصادر فى ٢٧ مايو ١٨٩٩ المعدل بالقانونين رقم ٣ لسنة ١٩١١ ورقم ١٠ لسنة ١٩١٣ ، والقانون رقم ١٠ لسنة ١٩١٧ والقانون رقم ٣١ لسنة ١٩٣٠ الأوامر الخاصة بالطاعون والكوليرا ـ كما أن الإتفاقية الصحية =

إنقضائها جرت فيها عيادة طبية ثم طهروها تطهيرا دقيقا ، وأذن لها بعبور البوغاز ، فوصلت الإسكندرية ، ومنها أقلعت إلى (جنوى) وعليها ثلاثة وثمانين راكبا ، فاطمأنت بذلك القلوب ، وفارق الناس الخوف إلا من جانب الحجاج ومحتجرهم .

وفيما الناس على هذا إذا جاء الخبر إلى ديوان الوزارة وديوان الحرب بظهور دعى جديد إسمه محمد بن عبد الله[٧٨] من أهالى (هرر) يدعى المهدية ، وأنه بث دعاته بين قبائل ذلك الشق من الصومال .فالتف حوله خلق كثير ،وتبعه

= الدولية (سنة ١٩٢٦ بباريس) التى التزمت بها مصر ، قضت بتنظيمات فيما يتعلق بالكوليرا والطاعون والتيفوس والجدرى والحمى الصفراء ــ وكانت الإدارة الصحية التابعة لمصلحة الصحة العمومية (قبل إنشاء وزارة الصحة) تقوم بالإتفاق مع مجلس الصحة البحرية والكورنتينات بصيد الفئران من الموانئ لعمل الأبحاث البكتريولوجية عليها وعلى البراغيث الموجودة بها . ووفقا للوائح الخاصة التى وضعتها الإتفاقية الصحية الدولية فإن الحج كان يعتبر (غير ملوث) اذا لم توجد بين أفراده إصابات بالكوليرا والطاعون أثناء الحج ـ ويكون الحج (ملوثا) إذا اتضح وجود هذه الأمراض بين الحجاج .

وكانت الإجراءات التى تتخذ فيما يختص بالسفن والحجاج عندما يكون الحج (غير ملوث) هى إنزال الحجاج من السفن والحجر عليهم بالمحجر الصحى فى (الطور) بالبحر الأحمر لمدة ثلاثة أيام .

ــ تقويم سنة ١٩٣٣ ــ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٧٢ ، ٤٠٦

(٧٨) محمد بن عبدلله حسن نور (١٨٦٠ غير مؤكدة ــ ١٩٢١) ثائر صومالى ينتمى إلى قبيلة (بهجرى) الأوجادينية لوالده ، ولقبيلة (ورسنجالى) التى تقع فى شمال الصومال لوالدته ــ قام بثورة ضد الوجود البريطانى فى شمال الصومال ، والإيطالى فى جنوبه ، والحبش فى غربه (اوجادين) ــ بدء مقاومته للإستعمار فى الصومال بقيادة فريق من المريدين للهجوم على مدينة (جكجكه) فى شمال (هرر) لاستعادة قسم من الماشية الصومالية التى نهبها الأحباش . فى الفترة ١٩٠٠ ــ ١٩٠٤ نجح فى التصدى لأربع حملات بريطانية ــ حبشية مشتركة ــ واضطرت القوى الإستعمارية البريطانية والإيطالية والحبشية لقبول عقد هدنة معه بمقتضى إتفاق (إيلليج) شرقى الصومال ألذى أشرف على توقيعه باستالوزا Pastalozza القنصل الإيطالى فى (عدن) ــ ويسمى هذا الإتفاق (باتفاق باستالوزا ١٩٠٥) . بمقتضى هذا الإتفاق إصبح (إيلليج) ميناءاً لمنطقة نفوذ هذا الثائر ــ إتسع نفوذ محمد بن عبداله على المناطق الداخلية من الصومال كاملة . فى عام ١٩١٢ حاولت إنجلترا غزو ومناطق هذا الثائر ولكنها فشلت وقتل فى المحاولة الجنرال كورفلت CORVELT . إنسحبت إنجلترا من الصومال ما عدا المناطق الساحلية ومدينتى (بربره) و(هرجيسا) إلى أن إنتهت الحرب الأولى . خلال سنى الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) تحالف محمد عبد الله مع الألمان والأتراك ضد الحلفاء . بعد إنتهاء الحرب شنت بريطانيا هجمات إستخدمت فيها الطائرات الحربية لأول مرة فى شرق أفريقيا ــ أسفرت الهجمات عن تدمير قوته الرئيسية ، أما هو فانسحب إلى داخل أوجادين حيث مات هناك متأثرا بمرض الملاريا ،

ــ السيد على احمد فليفل (مشكلة أوجادين بين الإحتلال الحبشى والإنتماء العربى الإسلامى ١٨٨٧ ــ ١٩١٣) ــ دار النهضة العربية ــ القاهرة ١٩٨٧ ـ مواضع متفرقة .

ناس ممن كانوا مع عبد الله التعايشى ،فكثرت لمومه وزاد عبثهم وطغيانهم . فرسم ناجوسى الحبشة إلى(حاكم هرر)الراس(اغراز متك بنتى)بمطاردته وقطع شأفة لمومه . فركب عليهم بخيله ورجله ،وقاتلهم قتالا شديدا جدا حتى كسرهم شر كسره . فهرب ذلك الدعى بما بقى من لمومه وترفع إلى الجبال وانقطع خبره حينا .فلما كان شهر أبريل من السنة ، وذى الحجة سنة سبع عشرة وثلثمائة(٧٩)عاد الرجل إلى(سوار هرر)(٨٠) ليثأر لقومه وقد أخذ الأهبة لذلك ، فعلم(حاكم هرر) بخبره واستعد للقائه .فما هى إلا أيام حتى إنحدر بلمومه على(هرر) . فخرج الحاكم فى عسكره لقتاله ،وكان المقدم على لموم الدعى رجل من كبار القبائل إسمه (غراد عبدى) .فوقعت بين الجمعان موقعة شديده سالت فيها الدماء أنهارا ،إذ أغار أولئك العرب إغارة شعواء أحبوا معها الموت والفناء أو سحق عدوهم . فتربص لهم الأحباش حتى صاروا منهم على قيد رمية رمح ، لا يظلهم جبل ولا تواريهم أكمة ، فأصلوهم نارا حامية ، يقال تلقوها بصدور عاتية ، وكانوا كلما انحدروا جمعوا شملهم وانقضوا على عدوهم ،حتى سقط منهم فى حومة القتال خلقا كثيرا جدا .قالوا وكان جماعة الحبشان ثابتون فى مكانهم لا يتزحزحون عنها فلم يقتل منهم إلا نفرا ، وانجلت المعركة عن نصرهم . فنكل الأحباش بمشائخ القبايل الذين ثبت عليهم الهرج وشق عصا الطاعة ، ومع ذلك فلم تزل البلاد فى هرج وثورة تتقد نيرانها . فطلب(غراز متك بنتى)المدد ، فأنجده الناجوسى منليك بمثانية آلاف مقاتل ركبوا الجياد

---

(٧٩) وثلثمائه = وثلثمائة وألف قراءة تصحيحية

(٨٠) سوارهرر = أسوار هرر قراءة ترجيحية يؤيدها وضع المدينة (هرر) كعاصمة إسلامية لإمارة إسلامية فى القرن السابع الهجرى ــ ومن المعروف أن(المدن الإسلامية) كانت تحاط بسور أوحائط مجهز للدفاع ــ وحصن ومنارة ومسجد ــ وسوق ــ وعلى ذلك فان(الأسوار) هى الكلمة الصحيحة بدلا من (سوار) .

وهرر Harar هى عاصمة اقليم (هرر) فى مرتفعات الشرق الأثيوبى الأوسط . وهى مدينة قديمة ذات حوائط تقع على ارتفاع ٦٠٠٠ قدم فوق مستوى سطح البحر . أسست حوالى القرن السابع الهجرى وازدهرت بالتبعية كعاصمة لإمارة إسلامية .إدمجت فى أثيوبيا عام ١٨٨٧ .

- Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 10 - p.. 42

والبغال إلى مواقف القتال والشروع بالمسير . فحسب أهل الحل والعقد لهذا الخبر حسابا كبيرا ، وخافوا من اتقاد الثورة فى جميع جهات (الأوغدن)[٨١] وبلاد الصومال فيتطاير شررها شمالا وجنوبا . وقد وقع الرعب فى مكدجه[٨٢] عربان(هرر)وتولاهم القلق . فجعلت الحكومة تراقبهم أشد المراقبة . ويروون أن الحبشان وجدوا بين قتلى المهربين[٨٣]سته ضباط من الإنجليز وهم بازياء الضباط الهنود وجثث بعض فلاحى هرر . وكانوا[٨٤] المهديين مسلحين ببنادق غزاز[٨٥] .قالوا فأغضب منليك خبر ذلك واعتبره عداءا من الإنجليز وتغريرا . فبرز أمره إلى(اغراز متك بنتى)باليقظة ودقة الالتفات . فزادوا فى حراسة البلد ، فأدخلوا طائفة من الجند فى القلعة التى بناها المصريون هناك لعهدهم ، وأكثروا

(٨١) أوجادين ـ إقليم صومالى تحت الحكم الحبشى (تذكر كلمة الإثيوبى بعد الأحداث التى تلى عام ١٩٣٠ عندما استبدل مسمى الحبشة بأثيوبيا) منذ غزاه ملك شوا (منليك) عام ١٨٨٧ قبل أن يصبح إمبراطورا للحبشة بعد مصرع (يوحنا) . تولى حكمه راس ماكونين حاكم هرر(هرر هى حاضرة إقليم اوجادين) وخلفه عليه إبنه راس تفارى عند وفاته (١٩٠٦) ـ ظل رأس تفارى (الإمبراطور هيلاسلاسى إمبراطور اثيوبيا فيما بعد) حاكما لأوجادين ومتسميا باسم (دوق هرر Duke of Harar) حتى عام ١٩١٣ ، تاريخ وفاة (منليك) إمبراطور الحبشة ـ فى عهد حفيده ليج ـ لياسو Lig Lyasu أصبحت (هرر) عاصمة اوجادين قاعدة للجيش الحبشى . منذ الثلاثينيات جرت مقاومة إسلامية ضد الحكم الأثيوبى فى اوجادين ـ إستمرت هذه المقاومة بقيادة جبهة تحرير الصومال الغربى فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ـ تمتع الإقليم بالحكم الذاتى تحت السيادة الأثيوبية .

ـ السيد على أحمد فليفل (مشكلة أوجادين بين الإحتلال الحبشى والإنتماء الإسلامى)ـ مرجع سبق ذكره ـ مواضع متفرقة

(٨٢) فى مكدجه = بين إستبدلت العبارة بهذه الكلمة

(٨٣) المهربين = المهديين قراءة ترجيحية ـ يؤيد ذلك أن الكلمة وردت فى السطر الأخير من الصفحة ،

كما أن ميخائيل شاروبيم كان يعتقد أن بعض أنصار المهدوية الذين كانوا مع الخليفة عبدالله التعايشى قد إنضموا إلى الثائر محمد بن عبد الله بعد سقوط دولة المهديين فى السودان ـ وهو مالم يكن صحيحا .

ـ راجع حاشية ٧٨ من حواشى عام ١٩٠٠ .

(٨٤) وكانوا = وكان قراءة تصحيحية

(٨٥) غزاز = أغراز ـ أى أن أنصار الثائر محمد عبدالله كانوا مسلحين بالبنادق التى إستولوا عليها من جنود حاكم هرر الراس (اغراز متك بنتى) ـ كما يشير النص إلى مساعدة الإنجليز لهذه الحركة الثورية نكاية فى الإحباش وصرفالهم عن مناوئتهم فى السودان

من تطواف الجند نهارا والعسس ليلا .وتكلم أصحاب الصحف المحلية فيما فعله جماعة الإنجليز من تشجيع أولئك العربان على الخروج عن طاعة الناجوسى بإدخال بعض ضباطهم فى صفوف العدو ، قالوا(وكأنهم يريدون بهذا العمل الشائن المعيب إشغال الناجوسى عن شطوط النيل ، وكفه عن مشاغبتهم عند التخوم وهم فى حاجة إلى السكينة وجمع الشمل بعد الخلاص من المهدوية السودانية) .

وتفشى خبر هذا المهدى وما جرى بين العامة ،فعاودتهم أحلامهم وأضغاثها التى كانت تساورهم على عهد مهدى السودان وخليفة [٨٦] عبد الله التعايشى ، فجعلوا يتحدثون بها محشوة بالخلط والمغالاة ،حتى ظن بعضهم أن الرجل ضارب خيامه على(جبل عتاقة)عند مدينة السويس وأنه لا يلبث حتى سينحدر[٨٧]على القاهرة بخيله ورجاله .وعاد بعضهم إلى الهوس القديم والتزى[٨٨] بذى الدراويش ،حتى لقد خرج فى يوم السبت حادى عشرى أبريل من السنة ، حادى عشرى الحجة سنة سبع عشرة بمدينة طنطا رجل قد[٨٩]من العامة لابسا (مرقعة)من (مرقعات) الدراويش أصحاب المهدى ،وعلى رأسه عمامة خضراء كالبرج ،ومتقلدا سيفا يدويا بغير قراب ، ومعلقا فى عنقه بعض النبال القديمة ،وفى يده هراوة ثقيلة . فجعل يطوف فى الشوارع الكبرى وهو يرعد ويزبد ويصيح (الإنتقام الخصام يا أهل الإسلام) ، فتبعه خلق كثير من الغوغاء وأهل البطالة ، . لما رأى هذه الجموع حوله تحبذ قوله وساله[٩٠] المدد والبركات وغير ذلك من عادات التكريم التى قد ألفوها ،أخذته رجفة فانتفخت أوداجه وصاح(يا أهل البيت يا رسول الله المدد المدد)ونزل بهراوته على أم

(٨٦) وخليفة = وخليفته قراءة تصحيحية
(٨٧) سينحدر = ينحدر
(٨٨) والتزى بذى =والتزى بزى قراءة تصحيحية
(٨٩) قد = إستبعدت الكلمة ليستقيم النص
(٩٠) وساله = وتسأله قراءة تصحيحية

رأس يونانى من الخبازين فى حانوته . ثم جعل يرمح والناس خلفه ، حتى بلغ الناحيـة المعـروفـة بالخـان ،فـانثنى على الناس ووضع هراوته فى رؤوسـهم . فترامحوا وهو خلفهم ،وهم فى صياح ومناداة(المدد المدد يادرويش الله) .فمال إليـه بعضـهم ،وأمسك به يريد منعـه عن إيذاء الناس ، فلم يرق ذلك للعامـة واشتد لفظهم[٩١] وعلت ضوضاؤهم ،فحضر الحكام وبعض قناصل الدول إلى ذلك المكان مسرعين ،وقبض أصحاب الشرطة فى ذلك الدرويش وساقوه إلى السجن وحملوا المصابين من ضربات هراوته إلى المستشفى .وجاء خبر ذلك إلى قصر الإمارة وديوان الوزارة ، فسير الرئيس مصطفى فهمى باشا كتبه إلى مدير طنطا بالسهر على الراحة ، ومراقبة عدم حدوث مثل هذا الحادث الغريب . وحدث أن رجلا آخر قد سرت إليه الولاية وهو فى(محلة الحان) ،فقام فى لباس الدراويش وسلاحهم ، وجعل يطوف حول البلد والناس من خلفه وهو يصيح بملء فيه(ألله اكبر ألله أعظم لعن الله الكفار) فقبض عليه عمدة البلد ، وساقه إلى القسم قهرا . فهاج العامة وماجوا ، وأمسك بعضهم بتلابيب رجال الحفظ ،وصاحوا فى وجوههم(ما يحل لكم ياكفار تفعلون بأقطاب الوقت ورجال الله هذه الفعال) .فاشتد بين الفريقين الخصام وعلت الضوضاء ،وما زالوا على هذا حتى سلم العمدة ذلك القطب إلى أصحاب الشرطة ، فألقوه فى السجن ، ثم حكم عليه بما حكم به على (درويش طنطا)

وما هى إلا أيام بعد هذا ،حتى بدت دلائل الهوس على كثير من أصحاب البطالة ،المدعيين بالدفاع عن منصة الدين الإسلامى ،والذود عنه ضد أعوان النصرانية ودعاتها فى سائر المعمور . فبرز من أحدهم كتيبا عنوانه (أيهما المسيح أم محمد) .وطاف باعة الصحف وكثيرمن الصبيان فى الشوارع والطرقات ينادون بها بدأ شأنا[٩٢] معيبا .فأقبل الناس على شرائه ، وتنافسوا فى

---

(٩١) لفظهم = لغطهم قراءة ترجيحية
(٩٢) بدأشأنا = نداءا قراءة إجتهادية

إقتنائه ، وتحدثوا به فى مجالسهم الخصوصية والعمومية ،وكلهم مستحسن لما فيه من فحش القول وبذئ الكلام .وتفشت عبارات تلك[٩٣] الكتيب فى أكثر البلاد ،وظهرت بين أهلها أعراضه ، فكادوا ينقلبون على النزلاء المسحيين بينهم ويقلبون لهم ظهر المجن . فشكى[٩٤] بعض قناصل الدول من هذه الحال وكلم بعضهم لورد كرومر ، يقال وعاب على الإنجليز هذه السياسة الخرقاء ، سياسة التفريق بين سكان البلد الواحد . وجاءت صحفهم الكبيرة ملأ[٩٥] بالتقريع والتعييب وأنباء السوء فى القريب العاجل إن لم يرجع لورد كرومر عن تجسيم هذه المحنة ، وتمكينها من عقول أهل البلاد . وقالوا أن ما يراه أهل السياسة الإنجليزية صالحا عمله فى ديار الهند لا يصح أ ن يكون صالحا عمله فى ديار مصر . قالوا وماذا يفيد التفريق والعنصرين لا يبديان نقضا ولا إبراما فى سياسته فى الداخل والخارج ،وقالوا غير ذلك كثير .فاهتمت الحكومة لذلك وبثت العيون لتعرف صاحب ذلك الكتيب . وبرز الأمر إلى صاحب الشرطة بضبط كل نسخة منه وتسليمها لديوان الوزارة . فطاف أعوانه يصادرون ما يجدونه منها ،وشددوا فى ذلك كثيرا ، فانكمش بعض المتطرفين وتطيروا . وظل الحال على هذا أياما ،ولم يهتدوا على[٩٦] صاحب ذلك الكتيب أو هم عرفوه ،ولكنهم عادوا فكتموا خبره لأسباب كثيرة عندهم .وما كادوا ينتهون من حركة ظهور هذا الكتيب حتى علم رجال الشرطة بوجود كتب وقصائد من طراز ذلك الكتيب تباع وتوزع فى أحياء المدينة وجهات الريف .فعادوا إلى البحث والتفتيش على[٩٧] مروجيها ، وصادروا ما عثروا عليه منها ، وتعقبوا بائعوها[٩٨] فى السر والعلن . وقام أصحاب صحف الأخبار يشددون النكير على أصحاب هذه الفعلة

(٩٣) تلك = ذلك قراءة تصحيحية
(٩٤) فشكى = فشكا قراءة تصحيحية
(٩٥) ملأ = ملأى
(٩٦) على = إلى قراءة تصحيحية
(٩٧) على = عن قراءة تصحيحية
(٩٨) بائعوها = بائعيها قراءة تصحيحية

الشنعاء ،ويحذرون الناس من الإلتفات إلى هذه السفاسف ،وأن يضربوا بها عرض الحائط . وأنحوا على جماعة المديرين والمحافظين باللائمة لاستكانتهم وعدم تدبرهم فى منع وقوع هذا الخطر الداهم ،وتجسيم الفتنة بين أهل البلاد . وبرز الأمر من الرئيس مصطفى باشا إلى سائر الحكام باليقظة وتتبع أولئك المهيجين والضرب على أيديهم إينما وجدوا .

ولما كان تاسع عشر مايو من السنة ، عشرى محرم إفتتاح سنة ثمان عشرة ، إشتد الحر شدة لا تطاق ،وظل يشتد رويدا رويدا والناس فى قلق واضطراب حتى الساعة السادسة من المساء ، هبت عاصفة تسفى الرمال والغبار ، فحطمت زجاج بعض البيوت ،واقتلعت بعض الاشجار القايمة فى بعض الشوارع ،وتعطلت قطارات السكة[٩٩] عن الوصول فى مواعيدها ساعات ، وانقلبت بعض أعمدة التلغراف على خط السكة الحديد . وجاء الخبر بمثل هذا فى الإسكندرية وطنطا والمنصورة ودمنهور وغيرها .وظل الحال على هذا حتى مطلع الفجر ،فسكنت الريح وبرد الهواء قليلا ،وقد كانت الحرارة بلغت إثنين وأربعين أرتفاعا ،فكادت الاجسام تحترق والأشجار تتيبس .وما هو أن أشرقت شمس اليوم الثانى ،حتى خرج أهل مصر والقاهرة من بيوتهم يبحثون على[١٠٠] المكان الذى تخرج منه نار هائلة فى وسط المدينة يتقد لهيبها ويتأجج سعيرها ويتلبد وجه السماء بدخانها ، وقد تغير لون السماء .وكانت هذه النيران الشديدة فى ناحية العتبة الخضراء متقدة فى الحوانيت الخشبية القائمة فى ذلك الميدان ، فاجتمع الناس حولهم[١٠١]وهم فى ضجيج . وجاء الصائح إلى أصحاب المطافئ ، فجاءوا ومعهم أربع مضخات ، وجعلوا يكافحون النار مكافحة شديدة للغاية ، ولكن لسان اللهيب وجد تأكلا[١٠٢]فى الأخشاب والحوانيت

(٩٩) السكة = السكة الحديد أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى
(١٠٠) على = عن قراءة تصحيحية
(١٠١) حولهم = حولها قراءة تصحيحية
(١٠٢) تأكلا = مأكلا قراءة إجتهادية

ومنافذ الدور المجاورة فالتهمها ولم تعمل(١٠٣)فيه أفواه المضخات وما تقذفه من الماء لإطفائها .وكان أصحاب الحوانيت لا يعلمون بخبر الحريق إلا بعد أن مضى عليه خمس ساعات أو يزيد ،وبعد أن رأوا مرسح لعب (الشيخ أبى خليل القبانى)(١٠٤)شعلة متقدة ،ولم يصل إليه أصحاب المطافئ حتى صار الملعب رمادا . وكان هبوب الريح شديدا ،فأمال النار من متقدها شمالا إلى الجنوب ، فدمرت أمكنة أخرى ومخازن للبضائع كثيرة ، فكان المنظر مريعا جدا والخطب شديدا للغاية .وجعل أصحاب تلك المخازن والحوانيت يستخلصون ما يقدرون على إستخلاصه من بضاعتهم ويلقون بأنفسم وسط النيران . فكان إذا

(١٠٣) تعمل = تجدى قراءة ترجيحية

(١٠٤) الشيخ أحمد أبو خليل القبانى (١٨٤١ ــ ١٩٠٢) مؤسس المسرح الغنائى فى مصر ــ رحل إلى مصر من الشام عام ١٨٨٤ ومعه جوقة من الممثلين والمنشدين . إستمد معظم موضوعات مسرحياته من حوادث التاريخ العربى ومن حكايات الف ليلة وليلة ، واقتبس من الأدب الغربى قصصا عن كورنيه (Corneille) وغيره . وقد عرفت مصر الحديثة فن المسرح منذ أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ ــ ١٨٠١) ،لكن(مارون نقاش) (١٨١٧ ــ ١٨٥٥) كان أول مؤلف مسرحى شامى يقدم مسرحيات عن موليير ، ومسرحيات أخرى مقتبسة عن الف ليلة وليلة . وعرفت مصر المسرح السياسى والإجتماعى فى أعمال يعقوب صنوع (١٨٣٩ ــ ١٩١٢) التى قام فيها بتعرية النظام الإجتماعى الفاسد في مصر . وتعتبر فترة السبعينيات من القرن التاسع عشر فترة الحركة المسرحية الحقيقية فى مصر على مدى نصف قرن حتي العشرينيات . كانت هذه الفترة هى ذروة الحركة الشامية الفكرية فى مصر ــ فقد ارتفع معدل الهجرة الشامية إلى مصر مع نهايات عهد إسماعيل وخلال فترة الإحتلال البريطانى ، وكان أغلب الشوام القادمين من المطعمين بدماء التغريب ، وسرعان ما بدا تأثيرهم واضحا على مناخ الرأى العام فى مصر من خلال اشتغالهم بالصحافة والمسرح والتأليف . وفيما يخص المسرح فلا شك أن أبو خليل القبانى ــ ومارون نقاش ــ وعبد الرحمن رشدى ــ وجورج أبيض ــ وكلهم شوام ــ كانوا رواد المسرح المصرى الحديث ،

ــ أحمد إبراهيم الهوارى(نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام) الطبعة الأولى ــ داو المعارف ــ القاهرة ــ ١٩٨١ ــ ص ١١٤ ــ ١١٩

ــ جاك كرابس جونيور(كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ــ دراسة فى التحول الوطنى)ــ ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٢٥١ ــ ٢٥٢

ــ رمسيس عوض(التاريخ السرى للمسرح قبل ثورة ١٩١٩) مطبعة الكيلانى ــ القاهرة ــ ١٩٧٢ - ص ٦٠٥ ،

ــ نجوى إبراهيم فواد عانوس (مسرح يعقوب صنوع) ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٨٤ــ مواضع متفرقة .

- Albert Hourani (The syrians in Egypt in the 18 th and 19 th centuries) - colloque International sur L. Histoire du caire . N. D

استخلص أحدهم شيئا ووضعه ناحيته وعاد لاستخلاص غيره سرقه اللصوص وفروا به ، والناس والعسكر فى شاغل عنهم بمكافحة النيران . وقد تضاربت الأقوال فى أسباب الحريق ولم يهتدوا إلى الصواب فيها .

ولم يصل حديث الناس بخبر هذا الحريق وما أصاب الدور والحوانيت التى ذهبت فريسة ناره ، حتى جاء الخبر إلى قصر الإمارة ووزارة الحرب بنشوب نار هائلة مريعة فى دار الحكومة فى أم درمان ،فالتهمت أوراق وسجلات قلم المخابرات ،وأحرقت جانبا عظيما من غرف المكان . قالوا وكانت شدتها بالغة جدا لولا ما عانوه فى إخمادها .وجاء الخبر من الإسكندرية أيضا بشبوب نار هائلة بمصانع السكك الحديد بالقبارى . فقد تعلقت أولا بشون الخشب وأمتد لهيبها إلى شون الحديد ،فإلى مركبات البضاعة التى كانت عندشون الحديد ،واشتدت وتطاير شررها ، فازع[١٠٥] أهل تلك الخطة ،ففارقوا بيتهم[١٠٦] بما خف حمله وتركوها تنعى من فيها . وجاء أصحاب المطافى بمضخاتهم يكافحون النار بشدة ما بعدها شدة ، قالوا فكان[١٠٧]مياه المضخات تتحول عند سقوطها إلى بخار من شدة النيران فتزيدها إشتعالا ،فكان محافظ المدينة ومن معه من أصحاب الشرطة يحضون أصحاب المطافئ ويستنهضونهم ، وصياح أصحاب الدور من العامة وصغار الصناع يشق حجاب السماء .وقد هرع الناس من كل صوب إلى مكان الحريق وكأن على رؤوسهم الطير من ذلك المنظر المريع . وظل أصحاب المطافئ يشتغلون من الصباح إلى مابعد الظهيرة بساعتين حتى أخمدوا اللهيب وأوقفوا النار عند حدها ،ولم ينكفوا حتى تمكنوا من إطفائها تماما . فسكنت القلوب الواجفة ، وتفرق الناس أشتاتا .وما هو أن مر على ذلك يومين حتى نشبت النار أيضا بأحد مكابس الخرق البالية بميناء

---

(١٠٥) فازع = فأفزع قراءة ترجيحية
(١٠٦) بيتهم = بيوتهم قراءة تصحيحية
(١٠٧)فكان = فكانت قراءة تصحيحية

البصل بالإسكندرية ، وكان هذا المكبس مكتظا برزم الخرق وأشياء كثيرة من أقمشة البالات ، فتعلقت النار بهذا جميعه وامتد لسانها إلى ما جاورها من الأبنية والحوانيت ،وارفتع(١٠٨)لهيبها إرتفاعا مخيفا جدا .فجاء الصائح إلى أصحاب المطافئ ،فترامحوا إلى مكان الحريق ، وركبوا جدران المكان ، وجعلوا يكافحون النار وهى تزداد تأججا .وكانت الريح يومئذ شديدة تطوح باللهيب ذات اليمين وذات الشمال ، وتلحف(١٠٩) وجوه وأجسام أصحاب المطافئ ، وهم على جدهم وهمتهم فى مكافحتها ، وما زالوا بها حتى أخمدوها والناس فى دهش من تعدد هذه الحوادث ووقوعها تباعا . فجعل أصحاب الشرطة يبحثون عن سبب ذلك فلم يهتدوا إليه .وفيما هم على هذا إذا جاء الخبر أيضا من ولاية الشرقية بوقوع الحريق فى بلدة (هرية رزنه)من أعمال الشرقية وهى مسقط رأس أحمد عرابى ، وأن شبوب النار بها كان شديدا جدا والرياح على أشدها ، فكان فعلها فى الدور والمساكن فظيعا جدا ، إذ أحرقت ثمانين دارا ونيفا وكثيرا من الماشية ، وخرج أهل البلد على وجوههم هايمين لا يلوون على شئ . وجاء الصائح إلى مدير الولاية فسير أصحاب المطافى إلى مكان الحريق ، فلم يصلوه إلا والنيران قد بلغت مبلغها من الشدة ،ودمرت كل ماصادفها ولم تبق على شئ . فجعلوا يقاومونها ، ومازالوا بها حتى خمدت . فكان المصاب جسيما والخسارة فادحة .وبرز الأمر إلى مدير الولاية بإعداد الخيام لسكنى أصحاب الدور التى أكلتها النيران ، وأمدوهم بشئ من الخبز . وساعدهم أهل البر بشئ من الطعام ، فظلوا يسكنون تلك الخيام أشهرا حتى تمكنوا من بناء دورهم وعادوا إليها .

وأنبأ المرصد الفلكى(بميدان الجبل الأحمر)بوقوع كسوف شمسى فى يوم الإثنين ثامن عشرى مايو من السنة ، تاسع عشرى المحرم من السنة ايضا ، فنقل الخبر أصحاب الصحف المحلية وتحدث به الناس كثيرا ، فخافه العامة على

(١٠٨) وارفتع = وارتفع قراءة تصحيحية
(١٠٩) وتلحف = وتلفح قراءة تصحيحية

عادتهم فى هذه الأنباء وحسبوا له حسابا كبيرا ، وجعل بعضهم يقضون أوقاتهم على أسطحة المنازل فى الليل والنهار كأن الشمس قد تبدل نهارها ليلا .وكثر تساؤلهم من جماعة المشائخ ومدعى العرافة والتنجيم عن مؤدى هذا الكسوف وما سيكون من ورائه .فلما كان اليوم الموعود إبتدأ إتصال قرصى القمر والشمس فى الساعة الخامسة وتسع وثلاثين دقيقة وسبع وثلاثين ثانية وثلاث أعشار الثانية بعد الظهر من متوسط الوقت فى القاهرة ومصر القديمة . وكانت زاوية الوضع إذ ذاك ثمان وثلاثين ومايتين درجة وإثنين وثلاثين دقيقة . فلما كانت الساعة السادسة وأربع وثلاثين دقيقة وثمان وعشرين ثانية وسبعة أعشار الثانية ظهر معظم الكسوف ،وحجب تسعة وثمانين فى المائة من قرص الشمس ، وجعل يخف شيئا فشيئا إلى أن توارت الشمس بالحجاب عند الساعة السادسة والدقيقة ثلاث وخمسين مساء .

وأما فى الإسكندرية فقد إبتدأ الكسوف فى الساعة الخامسة والدقيقة خمسة وثلاثين وإحدى وخمسين ثانية وثمانية أعشار الثانية بعد الظهر من متوسط الوقت هناك ، وبلغ الكسوف معظمه فى الساعة السادسة والدقيقة ثلاث وثلاثين وتسعة وعشرين ثانية ،فتوارى من قرص الشمس ثمانية وثمانين جزءا من مائة ، وغابت الشمس عن المدينة فى الساعة السادسة والدقيقة خمسة وخمسين . وأما فى أصوان فقد ابتدأ الكسوف فى الساعة الخامسة والدقيقة سبعة وأربعين وإحدى وعشرين ثانية وثمانية أعشار الثانية على حساب متوسط الوقت بذلك البلد . ولم يصل الكسوف إلى نصف قرص الشمس بسبب غيابها فى الساعة السادسة والدقيقة إثنين وخمسين ، بل ولم يصل الكسوف هناك إلى نهايته ، بل ظل ناقصا قليلا . وأما فى أم درمان فقد حسب أهل تلك[١١٠] الحسبان وقت الكسوف على وجه التقريب . فقالوا أنه إبتدأ فى الساعة الخامسة والدقيقة خمسة وخمسين من متوسط الوقت هناك ، وأخفى غياب الشمس

(١١٠) تلك = تلك البلدة أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى

تتمة الكسوف فى الساعة السادسة والدقيقة خمسة وعشرين .وكان الإتصال بين قرص الشمس والقمر كما كان فى مدينة أصوان ، وربما لم يتجاوز الكسوف نصف الشمس حين غيابها .

تم كل هذا والعامة فى شاغل بزيارة الأضرحة ومقابر الأولياء والصالحين ،يرجونهم الشفاعة فى رد هذا الرزء العظيم .فلما انقضى اليوم ولم يشعروا بشئ مما كانوا يتوقدون(١١١)عادوا إلى ضحكهم ومجونهم المفطورين عليهما .

فلما كان يوم السبت ثانى يونية من السنة تحرك ركاب الأمير على يختـه(المحروسة)من ميناء الإسكندرية عند مطلع الفجر يريد الذهاب إلى عاصمة الإنجليز أولا لزيارة ملك(١١٢) الإنجليز ، وتجديد صلات المحبة معه(١١٣) ، بعد أن كدرت صفوها أعمال الحزب الوطنى ،ورسائل زعيمه مصطفى باشا كامل التى كان يبعث بها إلى المتطرفين فى بغض الإنجليز من أصحاب صحف الفرنسيس .قفد كانت المقاطعة بين الأمير وصاحب السياسة الإنجليزية ورجال الإحتلال على أشدها ،والجفاء بين الفريقين مستحكما .والظنون محاطة بالأمير من كل جانب ،والعيون ترقبه من كل صوب ،ولورد كرومر لا ينكف عن الوعد والوعيد ،والإرجاف والتهديد كلما لاحت له بارقه من جانب الامير ،حتى أخذ الخوف من الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعة الوزراء مأخذه ،وكانوا يتوقعون تدهور عرش الإمارة فى كل يوم يمر .وكان بطرس باشا غالى وزير الخارجية شديد الإهتمام كثير العناية بدرء المشكلة وتخفيف وطأتها ،فكان يكثر من الغدو والرواح بين قصر الإمارة ودار عميد الإحتلال فى الليل والنهار ،وأصحاب الحزب الوطنى ومدبرى حركته لاينكفون عن الصياح

(١١١) يتوقدون = يتوقعون قراءة تصحيحية

(١١٢) ملك الإنجليز = المفترض أن تكون (ملكة الإنجليز) ــ فڤكتوريا كانت لا تزال تحكم إنجلترا حتى ذلك الوقت ــ وقد توفيت فى ٢٢ يناير ١٩٠١ ، وكانت بداية حكمها عام ١٨٣٧ .
-Lexicon Universal Encyclopedia - Vol 19 - p.. 574

(١١٣) معه = معها قراءة تصحيحية

والجلبة ،وحشو صحفهم بالسب وهزر الكلام ،والحط من كرامة أصحاب الإحتلال وعميدهم ،فوقع بينهم وبين بعض أصحاب صحف الإنجليز شئ من الأخذ والرد عرف الناس منه مبلغ علم أصحاب الحزب فى أساليب السباب والمهاترة ، وعجزهم عن دفع الحجة بالحجة فى هذه المحنة .وكان الأمير قد أشفق أن تبتلى البلاد بمحنة أخرى أو داهية كبرى من جراء فعال أصحاب هذا الحزب المبارك .فأوعز إلى مكاتب جريدة التيمس الإنجليزية التى هى أكبر جرائدهم أن يكتب إلى جريدته فى معنى تلك الزيارة ،وأن يهون على جماعة الإنجليز أمر أصحاب الحزب الوطنى ،ويخطِّئ عملهم الشائن المعيب ،ويعده خارجا عن حد المعقول .فكتب ذلك المكاتب بعد كلام طويل يقول .(وليس فى هذه الزيارة ـ يعنى زيارة الأمير لملك الإنجليز ـ معنى سياسى ،ولكن هناك مجالا للأمل بأنها تجدد فى السنوات المقبلة ، وتؤدى إلى توثيق عرى الوفاق بين الأمير وبلاط الملك(١١٤) .ولم يشاور الأمير السلطان فى سفرته هذه لأنها لم تمس مصالحه الذاتية ولا الدولية فى شئ) .إلى أن قال ولسنا نحن الإنجليز فقط ،بل كل دول أوروبا وجماعة الفرنسيس أيضا يتخوفون من نمو روح الغضب فى صدور أصحاب بعض الصحف الإسلامية ،وتأثيره على أذهان الأمة وأخلاقها ،لأن هذا الغضب هو حركة إسلامية أوسع مجالا من تسميتها .ومن أخطار هذه الحركة خلط السياسة بالدين أكثر مما يبيحه الدين الإسلامى .وهى تمثل العلائق الكائنة بين الشرق والغرب بمثابة نزاع شديد وصدان(١١٥)عنيف بين المسيحية والإسلامية(١١٦) ،حتى أحدثت هنا تأثيرا ذا خطر كبير) .قال والذى بلغنى من أكبر المصادر وأوثقها أن الأمير محافظ على مبادئ الحرية والتساهل التى إتصفت بها أسرته ،ولا سيما جده (إسماعيل) ،وجد جده

(١١٤) الملك = الملكة قراءة تصحيحية

(١١٥) وصدان = وصدام قراءة تصحيحية .

(١١٦) والإسلامية = والإسلام قراءة تصحيحية .

(محمد على)باشا الكبير .فهو شديد الإستياء ثوران[١١٧]الغضب فى هذه البلاد) . قال(على أن هذه الحركة قد زادها إنتقاد بعض الكتاب الفرنجة قوة ومتانة . فإن الكتاب الذى وضعه المسيو(هانوتو)[١١٨] الفرنسوى عن الإسلام ،قد ترجمه بعض أصحاب الصحف الإسلامية ترجمة بغير معناه الصحيح .فأحدث فى البلاد ضجة عظيمة ،وقلقا فى قصر الإمارة ، وفى المحافل العلمية الإسلامية) أ . هـ قلت . وقد قرأت[١١٩](المسيو هانوتو) ،وقد تولى زعامة السياسة الفرنساوية حينا ، فوجدت كل عباراته تشف عن أساليب الإحتشام والمجاملة ، وتدل بالبرهان القوى على انتقاد معتدل بعيد عن السفسطة والحذلقة الممقوته . ولكن لما كان ذلك الحزب شديد الميل إلى الهرج ، والإندفاع بالعامة والمتهوسين فى الدين إلى مجافاة آل (البيت العلوى) عموما ، وأمير البلاد خصوصا ،وإرهاق الأجانب والنزلاء ، إستفزازا لدولهم إلى معاداة الأمير ومخاشنة أهل الدولة ، جعلوا يهولون فى الأمر ،ويعظمون فى العاقبة ، ويجسمون فى قلق العامة وهرج رجال الدين .والأمر على خلاف ما يزعمون جملة ، لأن مبحث مقالة (هانوتو)إنما هو قاصر على النظر فى أفضل الطرق والأساليب التى يحسن إتباعها مع جماعة المسلمين فى الجهات التى يغلب النفوذ المسيحى فيها على النفوذ الإسلامى ، ولم يتعد كاتبها حد النصح ، ولم يتجاوز نهج الإعتدال فى كل أقواله[١٢٠] .وظل الحال على هذا حينا

---

(١١٧) ثوران = من ثوران أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(١١٨) جابربيل هانوتو Hanotaux. Gabriel ـ دبلوماسى ، ومؤرخ وصحفى فرنسى ـ ولد فى بوريڤوار Beaurevoir (ايزن Aisne) عام ١٨٥٣ ـ عضو الأكاديمية الفرنسية فى عام ١٨٩٧ ، مؤلف (Histoire du Cardinal de Richolieu- Histoire de Lanation Francaise.) وغيرهما .

-Larousse Universel -- Vol . I. P. 1081

(١١٩) قرأت = قرأت كتاب .

(١٢٠) ينسب ميخائيل شاروبيم إلى الحزب الوطنى ومصطفى كامل مسئولية قطع أواصر الصداقة بين عباس حلمى والملكه ڤكتوريا ـ نتيجة لمقالاتهم المليئة بالسب والحط من كرامة أصحاب الإحتلال واللورد كرومر ـ ويتهم شاروبيم جماعة مصطفى كامل بالعجز عن دفع الحجة بالحجة . على إن شاروبيم ينقل هنا عن مكاتب (التايمز) اللندنية قوله(إن نموروح الغضب فى صدور أصحاب بعض الصحف الإسلامية ٠٠٠٠٠ هو حركة إسلامية ٠٠٠٠ ومن أخطار هذه الحركة=

= خلط السياسه بالدين ٠٠٠٠ وهى تمثل العلائق الكائنة بين الشرق والغرب بمثابة نزاع شديد وصدام عنيف بين المسيحية والاسلام) .والواقع أن القضية التى عرض لهاشاروبيم تحمل فى طياتها إتهاما بالتعصب الدينى عند مصطفى كامل وجماعته ــ وهو ماعرضنا له فى موضع سابق .
ولقد تعرض فريتز شتيبات(Fritz Steppat) لهذه المسألة فى عمله :
(Nationalismus Und Islam bei Mustafa Kamil) ــ القومية والإسلام عند مصطفى كامل .
فى هذه المقالة حلل شتيبات فكر مصطفى كامل الدينى والسياسى ، وانتهى إلى أن مصطفى كامل كان يعتقد أن المسيحية والإسلام قد استغلتا من جانب السياسيين عديمى الضمير لأغراض غير دينية . وأن الإسلام نفوذ ثقافى أساسى وهام يؤكد المعارضه الشرقية ــ الغربية مع الإنقسام المسلم ــ المسيحى .
Islam Was For Kamil Essentially An Important Cultural Influence, Re - Enforcing The basic East-West Opposition With a Muslim - Christian Dichotomy. كان أتباع مصطفى كامل يربطون الإسلام دائما بالنضال الوطنى الذى كان عندهم هو الإهتمام الأعظم . ويقرر شتيبات أن مصطفى كامل كان (قوميا مسلما) أكثر منه(مسلم قومى) . ولم يكن معنيا بإقامة حكومة دينية برأسة الخليفة بقدر ما كان يرى فى الخليفة نفوذا معنويا ، يساعد على ربط المسلمين إلى بعضهم فى النضال المشترك ضد الإمبريالية الغربية . كان مسلك(التجمع الإسلامى) المدعى به عند مصطفى كامل هو نوع من (Marriage de Covenance) (زواج لأسباب عملية) ــ فكل من مصر والدولة العثمانية كانتا فى حرب ضد الإنتهاك الأوروبى لسيادتهما ــ ومن ثم فقد كان منطقيا أن تكون دعواهما مشتركة ــ تماما مثل التعاون الأنجلو ــ أمريكى مع الإتحاد السوفيتى ضد المحور فى الحرب الثانية ــ هدف مشترك للمقاومة . من هذا المنظور فإن مصطفى كامل كان يصدر فيما يدعو إليه عن نوع من الجامعة الإسلامية التى لم تكن موجهة ضد المسيحية ــ وإنما كانت موجهة ضد الهجمة الإمبريالية الشرسة التى كان العالم الإسلامى متمثلا فى دولة الخلافة وولاياتها يتعرض لها على مدى القرن التاسع عشر .
وعلى ذلك فإنه إذا كان من المقبول إن يصدر رفض هذا الفكر من كاتب ينتمى إلى أعتى دولة إمبريالية فى ذلك الوقت(إنجلترا) ، فأى عذرهنا لميخائيل شاروبيم فى تأييده ــ ولو من طرف خفى ــ لدعوى مكاتب التايمز وموافقته على وصم كامل وحزبه بشن حرب إسلامية ضد المسيحية .
ثم إن شاروبيم يفترض دون أى سبب معقول أن تكون علاقات الخديو عباس طيبة مع حاكم البلد الذى يحتل بلاده ويسومها إستعمارا عانت منه البلاد كثيرا . وهو مايجافى المنطق الصحيح وطبيعة الأمور ــ فالأمر الطبيعى إن يكون (عباس) رافضا للإحتلال البريطانى ورموزه بدءاً بالجندى والموظف البريطانى فى مصر وأنتهاءاً بالملكة فكتوريا ــ بل إن العكس هو الصحيح ، فإن (عباسا) لو كان أورى نوعا من العلاقات الطيبة مع إنجلترا كدولة محتلة لكان قد إتهم من البداية بالإنحياز للإنجليز ــ ولماذا نذهب بعيدا ــ ألم ينسب إلى عباس تعاونه مع المحتل عندما تغير مساره الوطنى من الإتحاد مع المناضل مصطفي كامل وحزبه إلى ممالئة المعتمد البريطانى؟
فكيف يغيب هذا كله عن مخائيل شاروبيم؟
ولقد كان من أعظم أعمال الأستاذ الإمام محمد عبده الرد على رينان Renan, Ernest وهانوتو Hanataux فى مزاعمهما ضد الإسلام ــ وأحسب أن محمد عبده أقدر من شاروبيم فى رؤية أفكار هذين المفكرين ، خاصة وأن ماكتباه كان يمس أمورا هى من أدق تخصصات الشيخ ــ صحيح أننا لانصادر على حق شاروبيم فى رؤيته وتفسيره لكتابات هانوتو عن الإسلام ــ لكن أهل مكة أدرى بشعابها .

-- Steppat, Fritz (Nationalismus Und Islambei Mustafa Kamil : Ein Beitrag Zur Ideengeschichfe der Agyptischen Nationalbewegung. "Die Welt des Islam 4 (1955)

ــ حاشية ٢٣من حواشى عام ١٩٠٠ .

حتى سافر الأمير فى يخته إلى(تريستة)ومعه أولاده فى ثالث يونية من السنة . فوجد أصحاب الصحف المحلية لهم شاغل عن مقالة(هانوتو) بقيام الأمير إلى ديار الفرنجة فى هذه الآونة المحفوفة بالمصاعب ،وبما جاءت به الأخبار عن ظهور رجل من أقارب عبد الله التعايشى خليفة المهدى يسمى (على عبد الكريم) بدين جديد ونحلة ماأنزل الله بها من سلطان .ذلك أن الرجل طفق ينادى بين قومه وأقاربه وأهل بلده أن(عيسى المسيح)سيأتى قريبا .لأن محمدا قد أتى ، وبعده أتى المهدى عبد الله ،فصار من المحتم مجئ(عيسى المسيح) بعده ، ولا ينتظر إلا هو ،كما دلت على ذلك الكتب المنزلة . ويقول (ولما كان عصر وجود الأنبياء قد انقضى ،فلا حاجة للناس للصلاة والصيام والذكوة ،ولا إلى غير ذلك من الفرض) .وظل على هذا حتى أستهوى الكثير من أهل تلك البلاد ، فخشى رجال الدولة تعاظم الأمر ، فجَمَعَتْ جماعة من المشايخ والعلماء ورجال الدين ،وسألتهم رأيهم فى ما يدعيه الرجل ،وفيما قد ذهب إليه ، فحكموا بتكفيره وتفسيق مذهبه . فوقف رجال الدوله عند هذا الحد ولم يتعرضوا إلى الرجل بسوء وتركوه وشأنه ،والرجل على دعوته وأصحابه على نصرته . وقد تفشى أمره فى البلاد شرقا وغربا وكان[١٢١] أمره يستفحل .فجمع رجال الدولة جماعة المشايخ والعلماء وأهل الدين ثانية وسألتهم ،فأجابوا بأن الرجل مفسد خارج ،فإذا ترك وشأنه كبر إفساده ،وتفاقم شره ،وأفسد على الناس دينهم ، وعلى رجال الدولة عملهم .فبرز الأمر بالقبض عليه ،فأمسكوه وأمسكوا معه نيفا وخمسة وأربعين من أصحابه ومريديه ،وسجنوهم فى سجن (حلفا) ، وأزكوا عليهم العيون ،وأقعدوا لأتباعه المراصد ،فكان كل من عرفوا عنه شيئا من تلك الدعوة قبضوا عليه وزجوه فى غياهب السجن ، حتى تلاشى[١٢٢] دعوته ولاذ إتباعه إلى الإختفاء .وكان ما فعله جماعة الإنجليز أمرا محمود

---

(١٢١) وكان = وكاد قراءة تصحيحية .

(١٢٢) تلاشى = تلاشت قراءة تصحيحية .

العاقبة ،وإلا لكانت تجددت الفتنة القديمة وعادت محنة المهدوية .ذلك أنه إلى هذا العهد لم يكن(على بن دينار)[١٢٣] سلطان الدارفور قد أزعن[١٢٤] لطاعة جماعة الإنجليز بالسودان ،ولا إعترف لهم بسلطة ،لا تمردا عليهم ،ولا نزوعا إلى الإستقلال ،بل أنفة وعظمة وبغضا لهم كما يقولون .وقد طالما كاتبته الحكومة ووعدته إن خضع فخيرا له وهو مصر على الرفض ،فلم تربدا فى هذه الآونة من أن ترسل إليه(سلاطين باشا) ،[١٢٥] ذلك النمسوى المتقلب ليكلمه فى الأمر .فسار سلاطين ومعه جماعة من كبار عسكر الإنجليز في شهر يونية من السنة ، ونزلوا ضيوفا عنده ،وقدموا إليه هدايا نفيسة للغاية .فلما إنقضت أيام الضيافة كلمه فى أمر التسليم والإقلاع عن الإمتناع ،وأنه إن سلم إلى السردار

---

(١٢٣) على دينار (حـوالى ١٨٦٥ ــ ١٨٧٠ ــ ١٩١٦) سلطان دارفـور (١٨٩٨ــ ١٩١٦) ، ولد فى قرية(شاوية) على بعد ٨٠ ميل جنوب غرب (تيالا) بإقليم دارفور ــ من أسرة كانت تحكم الإقليم ــ انتهز فرصة إسترجاع السودان وهزيمة عبدالله التعايشى واستولى على الحكم فى دارفور بعد صراع مع عدد من الزعماء ــ اعترفت به سلطات الخرطوم حاكماً على دارفور بشرط قبوله دفع الجزية رمزاً لسيادتها عليه ــ حافظ مع هذا على استقلاله ، حتى إذا كانت الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) وبدا أنه يستجيب للدعاية التركية قامت القوات المصرية ــ البريطانية بحملة ضده إنتهت بالقضاء عليه فى معركة (وادى زولى) فى ١٩١٦/١١/٦ وضم دارفور للسودان المصرى الإنجليزى .

أما دارفور فهى مقاطعة فى وسط غرب السودان . إزدهرت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كمركز لتجارة الرقيق ، وكانت تحكم بواسطة سلسلة من السلاطين المسلمين . فى أواخر القرن الثامن عشر سيطرت دارفور على مملكتين مجاورتين (وادای Waday) و(كردفان) . ومع هذا فبعد ١٨٣٨ عانى سلاطين دارفور من تقلص متوالى فى سلطاتهم لصالح تجار الرقيق ، وأهل النوبة من منطقة النيل والمسمون (الجلابة) . فى عام ١٨٧٣ ــ ١٨٧٤ فتحت دارفور بمعرفة الزبير باشا رحمت . بعد فترة من الحكم المهدى لدارفور (١٨٨٣ ــ ١٨٩٨) استعادت دارفور استقلالها فى مقابل دفع جزية للحكومة المصرية سنوياً . فى عام ١٩١٦ أعيد فتح دارفور على أثر إمتناع سلطانها (على دينار) عن دفع الجزية وانضمامه إلى تركيا وحلفائها فى الحرب العظمى (١٩١٤ ــ ١٩١٨) .

ــ محمد محمود الرشيدى (دارفور تحت حكم على دينار) ــ رسالة ماجستير غير منشورة ــ معهد البحوث والدراسات الأفريقية ــ جامعة القاهرة ــ ١٩٧٦ ــ ص أ ــ ج ، ١٦ ، ٣٣٤ .

ــ البكباشى حسن قنديل (فتح دارفور سنة ١٩١٦ ونبذة من تاريخ سلطانها على دينار) ــ مطبعة العدل ــ الإسكندرية ــ ١٩٣٧ ــ مواضع متفرقة .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 6 - P.. 37 .

(١٢٤) أزعن = أذعن ــ قراءة تصحيحية .

(١٢٥) عن سلاطين باشا ــ راجع حاشية ١٥٦من حواشى عام ١٨٩٤ ، ٤٢٨ من حواشى عام ١٨٩٥ .

حاكم السودان العام كان ذلك خير له وأبقى ، فلم يعجب الرجل كلامه وقال له (إنى إن سلمت فلا أسلم إلا إلى أمير البلاد ، فهو مولانا وولى أمرنا على كل حال . وأما إلى الإنجليز فلا) . فكف عن مكالمته يوما ،ثم أعاد إليه القول ومناه بالأمانى الكثيرة والعطايا الوفيرة ،فغضب الرجل وخاشن(سلاطين)وقال له (ياهذا ،إنك أوقعت عبد الله التعايشى فى شراكك حتى حل به ما حل . واليوم جئت تريد الإيقاع بى . فوالله ماكان ذلك أبدا ،ولا أسلم إلا لأمير البلاد) فجعل سلاطين يهون عليه ويخفف عنه ويضمن له إمارته بالعهود والمواثيق ،وما زال به حتى سير معه وزيره إلى أم درمان ليكلم السردار فيما هم فيه . فلما إنقضت الضيافة تمثل بحضرة السردار وأبلغه مطالب السلطان ،فوعده السردار خيرا وأحسن وفادته وشيعه بشئ من الهدايا والتحف إلى مولاه .وظل الحال بين أخذ ورد أياما كثيرة ،والقول بالزحف على الدارفور وإخضاع (ابن دينار) فتفشى[١٢٦] ، والناس يحسبون لهذه الحملة حسابا .فلما كان فى أحد الأيام أرسل(إبن دينار) إلى السردار يقول أنه إذا خضع إلى حكومة السودان ـ يعنى جماعة الانجليز ـ فذلك لا يكون إلا بشرط هو بقائه سلطانا مستقلا فى بلاده ، ويتعهد بالجزية طايعا . ثم سير إلى خزينة السودان خمسة وعشرين قنطارامن سن الفيل ، وقدرا عظيما من ريش النعام ، وألفى ريال نقرة . فقبل السردار الهدية وبعث إلى إبن دينار هدية فيها جملة تحف وخيول أصايل . ومع ذلك فقد رسم السردار بوضع قوة شثيلة[١٢٧]من الجند عند تخوم الدارفور لتراقب حركات أهلها . فما هى أن أقامت أياما حتى أرسل قائدها وهو من الضباط السود إلى السردار يقول (مدنى بثلثمائة من السود ومدفعين من المدافع الرشاشة وأنا كفيل بتدويخ بلاد ابن دينار ، والإتيان به إليك حيا أو ميتا) . فتفشى خبر ذلك وترامى إلى (ابن دينار) . فساء ظنه فى السردار ، وجعل من يومه يجمع الجموع ويعد المعدات ، وقيم[١٢٨]

(١٢٦) فتفشى = متفشى ـ قراءة تصحيحية .
(١٢٧) شثيله = ضئيلة ـ قراءة ترجيحية .
(١٢٨) وقيم = ويقيم ـ قراءة تصحيحية .

المعاقل والحصون فى بلاده . وجاءت كتبه إلى شيخ من شيوخ السودان اسمه (عبد المولى) ليبعث إليه بما تصل اليه يده من الخرطوش والكبسول . فخاف (عبد المولى) عاقبة ذلك ، وسلم الكتب إلى رجال الدولة ، فرسم السردار بأن يسلم إلى(عبد المولى) هذا كمية من الخرطوش عظيمة ليرسلها إلى ابن دينار كأنها مرسلة سرا ، وأن يعده بإرسال الكبسول فى القريب العاجل ، فأحس إبن دينار بهذه المكيدة ، واهتم ببناء الحصون والمعاقل والإكثار من معدات القتال . وجاء الخبر بذلك إلى السردار فأكبره . وشاع أن أهل الحل والعقد قد عقدوا النية على تسيير حملة قوية في مقتبل الأيام للقبض على (ابن دينار) ، وكانوا يقدرون ما عنده من المقاتلة بعشرة آلاف . وأن عنده من البنادق سبعة آلاف بندقية من نوع رمنتون(١٢٩) أو يزيد ، ويقولون أن الرجل مع ذلك لن يقوى على القتال ولابد من التجائه إلى الجبال التى حصنها إذا أحس بقيام الحملة لقتاله . واهتم السردار بترتيب إيالات السودان مما أصبح فى حوزة الحكومة كى لا ترتد القبائل ويفتتن مشائخها ، فأنشأ فى (فشودة) دارا لتكون مقرا للحكومة ، وقسم أهلها إلى أربعة اقسام ، وولى على كل قسم منها زعيما ، وأقام على الزعماء الأربعة قايما(١٣٠) هو ابن شيخها الذى قتله الدراويش أيام دولتهم . يقال فلبس هذا القيم القبعة بدلا من العمامة ، والسراويل الضيقة بدلا من القفطان وكان قد تعلم الإنجليزية ، وكأنه قد نسى رطانتهم ، فبدل شرب (الطبطاب)(١٣١)

---

(١٢٩) رمنجتون Remington بندقية تعمر من الخلف وتعتمد فى إطلاق الطلقة على كتلة ترباس Fermeteur ذات حركة دفع خلفيه ـ تتحرك هذه الكتلة على نقطة إرتكاز بزاوية قائمة أسفل غرفة النار بالبندقية .

ـ Larousse Universel - vol. 11 - P.. 763.

ـ راجع أيضاً حاشية ١٧٦من حواشى عام ١٨٩٣ .

(١٣٠) قايماً = قيماً ـ قراءة ترجيحية .

(١٣١) الخمور المحلية فى السودان هى (المريسة) التى تصنع من الذرة ـ و(الدكاى) التى تصنع من البلح ـ وفى دارفور كان هناك شراب يسمى (كوشيب) و(عرديب) ـ أما الطبطاب فيحتمل أن يكون شراب البوظة (المزر) الذى يصنع مثيله فى مصر من الذرة .

ـ زكى البحيرى (التطور الإقتصادى والإجتماعى فى السودان من الأزمة العالمية حتى الإستقلال ـ ١٩٣٠ ـ ١٩٥٦) ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ ص ٢٠٦ .

ـ البكباشى حسن قنديل (فتح دارفور سنة ١٩١٦ ونبذة من تاريخ سلطانها على دينار) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٣٣ .

بتعاطى الأشربة الروحية كالويسكى والروم وغيره . ومنع السردار من ذهاب المرسلين الإنجليز إلى ما وراء أم رمان ، ومن المجاملات والمناظرات الدينية ، وأجاز الأقباط بإنشاء مدرسة لأبنائهم بأم درمان ، وأخرى لجماعة اللاتين .كل ذلك تسكينا للخواطر ، وتطمينا لقلوب الراجفين من أخبار(على بن دينار) ، وإرجاف سلاطين باشا المتتابع . وكان قد برز الأمر بإحالة زهاء مائة من الضباط على الإستيداع ، وسرحوا جميع الجنود الذين قضوا مدة الخدمة وهى خمس سنين ، فبرز الأمر ثانية باسترجاعهم جميعا ، فعادوا إلى أم درمان . وبلغ(١٣٢) أهل الحل والعقد هناك فى إسترضاء الأهالى وإظهار العطف عليهم ، فبرز أمر السردار إلى صاحب الخزينة فى (أم درمان) بتوزيع ما فى الأهراء والمخازن من الدراوى على المحتاجين من الأهالى ، ويأخذ ثمنها منهم أقساطا ، أو أنهم يشتغلون فى الأعمال التى تلزم للحكومة بهذا الثمن . ففرح الناس بذلك وقد تدنت أسعار الحبوب ، فأصبح ثمن أردب الذرة خمسة وستين قرشا بعد أن كان مائة وعشرة قروش أو يزيد ، وكثر الوارد من الحبوب والضأن وشباب البقر ، وأقبلت النساء من الضاحية يحملن السمن والدجاج والبيض وغير ذلك من أصناف المأكول .

وكان الأمير قد وصل إلى (لندن) عاصمة الإنجليز مع حاشيته وبطانته ، ولقى من الملكة وسائر رجال بلاطها وأقيال دولتها كل حفاوة وتكريم ، فظل أياما يطوف هنا وهناك ويتفرج على ما فى تلك المدينة الزاهرة من معاهد وقصور . فلما كان فى أحد الأيام أحس بشئ من الوخز فى حنجرته ، وبات وأصبح وقد ظهرت عليه علامات الحمى فقلقت حاشيته . فلما تأدى خبر ذلك إلى بلاط الملكة أرسلت فى الحال طبيبها الخاص لعيادته . وجاء الخبر بذلك إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا فأبلغه إلى والدة الأمير ووالدة ولى العهد ، وتفشى أيضا بين الناس فأرسل الكثير منهم رسائل الإستعلام عن صحة الأمير

(١٣٢) وبلغ = وبالغ ـ قراءة ترجيحية .

إلى (شفيق بك)[١٣٣] أحد رجال الأمير . فجاءهم الرد بأن صحته صائرة من حسن إلى أحسن . وأقبل رجال الدولة الإنجليزية وأقيالها على مقر الأمير يسألون عن صحته وما وصلت إليه درجة الحمى ، وكان يأتيه كل يوم أحد كبار البلاط الملكي للسؤال عن حالته . واشتد قلق والدته وأم ولى عهده ، فأكثرا من الرسائل البرقية . وقد كان الظن بأنه مصاب بذات الخناق ، حتى جاءت كتب (شفيق بك) مفصلة بأن مرضه إنما هو إلتهاب فى البلعوم عفنى بسيط مسبب عما يسمونه فى عرفهم التشريحى (السربيتوكوك) .[١٣٤] قال جماعة الأطباء (وهو مرض لا يدعو إلى القلق على الإطلاق ، ولكنه يستلزم راحة بضعة أيام ، وأن الأمير يشعر بتحسن فى صحته ، وأن أسباب الراحة والعناية والإهتمام متوفرة لديه ، وأنه منشرح الصدر ، وعلى الخصوص لما أظهرته الملكة والأسرة المالكة من حسن الإنعطاف والرعاية) . ورسم إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا بأن يبث شكر الأمير لرعيته عموما وللذين أرسلوا رسائلهم البرقية يستعلمون عن صحته خصوصا ففعل ، وجاء فى اليوم الثانى خبرا آخر بأن صحته تحسنت تحسينا بينا ، وأن جماعة الاطباء يقولون أن (السترتيبوكوك)[١٣٥] ذلك إنما هو ميكروبات مستديرة الشكل على هيئة السلسلة ، وأن الذى أصاب الأمير منها هو النوع المعرف بأنه يسبب الإلتهاب والتقيح ولاسيما الذبحة الحلقية ، وأن الأسباب زالت تماما ، ولم يبق منها شئ . يقال اجتمع المسلمون فى مدينة

---

(١٣٣) راجع حاشية ١١٩ من حواشى عام ١٨٩٤ .

(١٣٤) المقصود هو الستربتوكوك Streptococcus ، قرحة الحلق ومظهرها إلتهاب الحلق واللوزتين المتسبب من بكتريا من مجموعة .A. B . وهذا المرض هو أكثر أنواع البكتريا المكوره Streptococcal إنتشاراً . يبدأ المرض عادة فجأة مصحوباً بألم واحمرار Redness ، تضخم فى أغشية الزور ، صديد على اللوزتين ، حمى ، صداع ، وتوعك . قد يصاحب هذه الأعراض آلام باطنية ودوار . وتبلغ الإصابة باحتقان الزور ذروتها فى الشتاء . وقد كان الشفاء منه فى ذلك الوقت بالغ الصعوبة حيث لم تكن المضادات الحيوية بما فيها الستربتومايسين Streptomycin والبنسلين Penicillin قد اكتشفت بعد .

- Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 18 - P., 297.
- Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 2 - PP., 57 - 59 .

(١٣٥) السترتيبوكوك = ستربتوكوك Streptococcus ــ قراءة تصحيحية .

(ليفربول) إحدى مدن الإنجليز فى يوم الجمعة عشرى يونية من السنة ، وأقاموا صلاة حافلة دعاء[١٣٦] للأمير ، وبعد تلك الصلاة قام شيخهم المسمى (الشيخ عبد الله كوبليام) الإنجليز[١٣٧] ، وأرسل إلى الأمير رسالة على جناح البرق يقول فيها (بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الإنجليز المسلمين يرحبون بسموكم كل الترحيب حين وصولكم إلى إنجلترا ، وقد أقاموا اليوم الصلاة فى جامع ليفربول ليمن الله عليكم بالشفاء العاجل) . فشكره الأمير على ذلك وأحسن الرد . قلت(وكوبليام) هذا متهوس ابتلى بحب الإسلام[١٣٨] فاعتنقه ، ودعا الناس فى ليفربول إليه ، فاستجاب له جماعة من النساء والرجال ، فجعل أساس تعاليمه السعى وراء عمران العالم وإنماء سكان الأرض بالزواج وكثرة التناسل ، وأن[١٣٩] لا يحل للرجل من أصحابه أن يعيش بغير معينة له على حياته ، ولا للإمرأة أن تعيش لذلك ، فيتحتم على كل مسلم ومسلمة ممن استجابوا له أن يتزاوج بعضهم بعضا . فكانت لهذه البدعة[١٤٠] أحب شئ عند النساء من عامة الإنجليز ، فتبعه منهم جماعة كثيرة . هكذا أخبرنى أحد كتاب الإنجليز وأنا فى ديارهم عام ثمان وتسعين وثمنمائة وألف . وقد رأيت مسجدهم بليفربول ، وهو قاعة فسيحة مفروشة بالحصر ، ومنقوش على محراب المسجد بعض آيات قرآنية ، ورأيت شيخهم ذلك يتأممهم فى الصلاة ، وهو فى زيه

---

(١٣٦) دعاء = بالدعاء ـ قراءة تصحيحية .

(١٣٧) الإنجليز = الإنجليزى ـ قراءة ترجيحية .

(١٣٨) ليس فى حب الإسلام (إبتلاء) كما يذهب ميخائيل شاروبيم وإنما هو هداية ـ ومن يشرح الله صدره بالإسلام فقد اهتدى . وعندما دخل أهل الجزيرة العربية فى دين الإسلام أفواجاً لم يكن هذا إبتلاءاً بل أن الله سبحانه وتعالى شرح صدورهم من خلال رسالة نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) . كذلك فإن إنتشاره فى آسيا ، أفريقيا ، أوروبا ، والولايات المتحدة الأمريكية ـ إلى جانب الشرق الأوسط يؤكد أنه دين عالمى رئيسى Major World Religion .

(١٣٩) وأن = وأنه ـ قراءة تصحيحية .

(١٤٠) لهذه البدعه = هذه البدعة ـ قراءة تصحيحية .

لا أعرف لماذا يسمى ميخائيل شاروبيم (التزاوج) بدعة ـ إن البشر يتزاوجون منذ أن التقى آدم وحواء ـ ولقد شُرِعَ الزواج ضماناً لبقاء النوع البشرى ـ وشاروبيم لم يقل بأن تزاوج أتباع (كوبليام) كان نوعاً من العلاقة الغير شرعية فأى بدعة إذا فى زواج رجل بامرأة؟

الفرنجى حاسر الرأس ، وجماعتهم [١٤١] من الرجال والنساء خلفه صفوفا لا يتجاوزون الأربعين وهم يركعون ويسجدون ويقرأون الفاتحة والتحيات بالإنجليزية ، ورأيت مؤزنهم[١٤٢] يؤذن الظهر من شرفة المكان وهو فى زيه ، وإزائهم مترجم من العربية إلى الإنجليزية وهو[١٤٣](الله أكبر الله أكبر) إلخ . ولم أر عندهم ميضا[١٤٤]ولا مغسل ، ولا سمعت أنهم يغتسلون قبل الصلاة . وأخبرنى بعضهم بأن الصبيان والبنات من العامة يأذونهم ويشوشون عليهم ما استطاعوا ذلك ، بأن ينثروا على أرض مسجدهم وعلى فراشه مسحوق الزجاج وغيره ، فإذا جلسوا للصلاة أو سجدوا انشب فى كفوفهم ذلك الزجاج وآلمهم كثيرا ، أو ألقوا عليهم وهم فى سجودهم القذر[١٤٥] .فشكواهم إلى ولاة الأمور من ذلك كثيرة ، والرجل باق على بدعته إلى يومنا هذا .فسبحان من أوده[١٤٦] فى كل قلب ما أشغله .وجاءت الأخبار من الخرطوم بشدة بارتفاع[١٤٧] النيل وحصول الزيادة فيه بسرعة لم يسبق لها مثيل فى الأعوام الغابرة ، حتى فاض نهر (العطبرة) وارتفع ماؤه إرتفاعا عظيما . قالوا وذلك ناجم من إزالة تلك السدود التى فى أعالى النيل كما تقدم الكلام عليها فى محله . وماتت الملايين من الأسماك لحاجتها إلى الأوكسجين الموجود فى المياه النقية الصافية . قالوا ومن الغريب أنه لم يصب أحد من الناس هناك بالأمراض العفنة بسبب شرب هذا الماء الآسن العفن ، وكأنهم قد تسمموا جميعا فلم يفعل فيهم الماء فعله الردئ . قلت وقد كان الأمر على خلاف ذلك فى مصر والقاهرة وكثير من المدن والبلدان الواقعة على شاطئ النيل . فقد تفشت بهم الحميات

(١٤١) وجماعتهم = وجماعته ـ قراءة تصحيحية .
(١٤٢) ومؤزنهم = مؤذنهم ـ قراءة تصحيحية .
(١٤٣) وهو = وهو يقول ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .
(١٤٤) ميضا = ميضأة ـ قراءة تصحيحية .
(١٤٥) (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد) ـ سورة المسد .
(١٤٦) أوده = أوجد ـ قراءة إجتهادية .
(١٤٧) بارتفاع = إرتفاع ـ قراءة تصحيحية .

لا سيما (الحمى الراجعة) (وألم المعدة) (والكبد) . وظل الحال على هذا أياما حتى إرتفع النيل وانحدرت مياه الزيادة ، فزال ما كان الناس يشكونه وبطلت الظنون .

وفى الثلاثين من يوليو من السنة ، ثالث ربيع الثانى ، عثر رجال الشرطة فى أرض براح فى (السبتية) التابعة لقسم بولاق على سبع قطع من اللحم وقد فسدت وأنتنت . فنقلوها إلى طبيب القسم ، فبحثها ، فاشتبه منها بست ، وقرر أن القطعة السابعة هى من وجه آدمى فى نحو الخمسين من عمره ، وقد مضى على إلقائها فى ذلك البراح زهاء خمسة عشر يوما . فأرسل صاحب الشرطة بقطع اللحم إلى رجال القضاء ، وتفشى خبر ذلك بين الناس ، فقلقت الأفكار واضطربت الخواطر ، وكثرت الأقاويل ، وظن الناس أنها من فعال اللصوص الذين كثر عبثهم في البلاد بلا خوف ولا مبالاة . واهتم أهل الحل والعقد بالأمر اهتماما عظيما ، وأزكوا العيون ، وبثوا الجواسيس فى (بولاق مصر) وما والاها ، وشددوا فى البحث والتفتيش على الجانى . فلما كادوا ييأسون من العثور عليه ، قيض الله تعالى لكشف الخفى من سر تلك الجريمة كلب لأحد النزلاء الأوروبيين ، كان يتبع صاحبه بجهة السبتيه ، فلما مر بالفضاء من الأرض الكائنة بتلك الجهة أشتم الكلب رائحة ذلك اللحم ، فدار فى الفضاء يطلبه ، فالتفت إلى(١٤٨) صاحبه فلم يره خلفه ، فناداه باسمه فجاء الكلب يهرول وفى فيه قطعة من لحم المقتول ، فارتاب صاحب الكلب فى أمر ذلك اللحم ، فسار إلي بيت الشرطة وحدث أصحابه بخبر ذلك ، فسار جماعة من الشرطة من تلك الناحية وجعلوا يفتشون ويدخلون ما فيها من البيوت والخرائب ، فعثروا فى يومهم ذلك على فخذ القتيل فى بئر هناك ، وعلى عظامه فى موضع آخر ، وهى مقطعة أجزاء صغيرة بمنشار . فكبس بيت القتيل فوجد به منشارا ورزمة من المدى ، وطاولة من الخشب وعلى جميعها رشاش من

(١٤٨) إلى = إليه ــ قراءة تصحيحية .

الدم . فقبض فى الحال على زوجة القتيل وجماعة من أقاربها وساقهم جميعا إلى موقف التحقيق . فتبعهم خلق كثير جدا من سكان تلك الخطة وهم فى جلبة وصياح ، وبان الخفاء وظهر أن القتيل رجل عامل فى هنابر[١٤٩] بولاق التابعة للسكك الحديد يأخذ أجرته فى اليوم ستة عشر قرشا وهو فى الخمسين من عمره . قد تزوج بامرأة[١٥٠] تلك وهو فتى فلم يرزق ولدا ، فمال إلى الإقتران بأخرى ليرزق منها ذرية ، فشاور فى ذلك زوجته ، فأظهرت له الرضا . فرهن منزلاله بإثنى عشر جنيها ، وخطب العروس إلى أهلها ، وضرب يوم مقتله موعدا لكتب الكتاب . وأشار على زوجته القديمة بإعداد ما يلزم من مأكل ومشرب . فما هى أن أتت الساعة الموعودة حتى أختفى الرجل ، وجعلت زوجته تسأل الجيران عنه وتبحث فى الشوارع والحارات عليه وهى فى خوف ووجل ما عليه من مزيد ، والناس يحسبون أن وجلها ناجم عن تغيب زوجها ، فى حين أنها قبل ليلة القتل قد كانت ذهبت إلى رجل يشحذ السكاكين ، فشحذ لها الساطور والسكاكين التى جردت بها لحم زوجها وسحقت عظمه . أما كيفية القتل فقد كانت غريبة من نوعها . ذلك أنها فى عصر ذلك اليوم العصيب قد أعدت للزوج طعاما شهيا ، ومزجته بشئ كثير من (الحشيشة) وقدمته له ، وجعلت تحادثه بخبر ما اعدته من العدة لحفلة العرس ، وتباسطه وتشاغله ، وهو يثنى عليها ويمنيها بالراحة وزيادة ، حتى شبع . فما هو أن ترك ما بقى حتى إنقلب وغاب صوابه . فقامت تلك الشقية وهوت بالساطور على رأسه فشطرته شطرين ، وكان معها رجل يقال له (محمد السعدونى) وآخر جزار ، فتقدما وساعداها على تقطيع جسده وسحق عظامه . ثم جعلت تلقى بها قطعا فى ذلك المكان حتى خلصت منه . ولما أتم القضاء مهمته حكموا عليها وعلى (السعدونى) (والجزار) بالأشغال المؤبدة . فتحدث الناس فى أمر تلك المرأة

(١٤٩) هنابر = عنابر ـ قراءة تصحيحية .
(١٥٠) بأمر = بامرأته .

كثيرا . ولم ينكفوا عن حديث عملها إلا بوصول خبر مقتل(رابح)[١٥١]مولى الزبير باشا فى فيافى الدارفور .

وتحرير الخبر أن رابحا هذا كان من الأبطال الشجعان الذين خرجوا عن طاعة الحكومة قبل ظهور الفتنة المهدوية ، ولكنه كان قليل الإيذاء ، كثير الإبتعاد عن مواطن الشر ومكامن الريب . وكان أهل الحل والعقد فى السودان يطاردونه ويقعدون له بالمراصد . وكان (سليمان بن الزبير) يرافقه ويقاتل معه كل مخالف لهما .وظلا على هذا حينا حتى قبض على (سليمان)وقتل . فسار رابح برجاله عام ثمانين وثمنمائة وألف للميلاد إلى (دارفور) فدوخها ونال منها ، ونزل فى سنة أربع وثمانين على (برنو) فأخضعها . وامتلك فى سنة سبع وثمانين(دار زونه) . فلما كانت سنة إثنين وتسعين وثمنمائة وألف لحق به من بقى من العساكر المصرية بعد ظهور الفتنه المهدوية هاربين من وجه التعايشى . فجيش منهم جيشا ضخما ، وسار بهم لقتال (دار فرنيت) فملكها . وكانت الأسلحة ومعدات الحروب تأتى إليه من (طرابلس الغرب) . فكان فى حربه وفتوحاته غازياينتقل من بلد إلى بلد . وظل هذا شأنه حتى أدركه الكبر ، فرأى إذ ذاك أن يؤسس لعقبه ووسلطنه[١٥٢] مترامية الأطراف كثيرة الخصب والعمران ، واشتدت رغبته فى ذلك جدًا ، فنزل بعسكره فى بلاد(الباقرمى)[١٥٣] فأخضعها بعد حروب ، وأخذ العهد على صاحب (بورنو) بالولاء والطاعة ، ثم جعل تحت[١٥٤] سلطنته عند (القصور) على(نهر التشارى)[١٥٥] وراء(بحيرة تشاد) . واستراح من الغزو والجهاد ، وقد ضرب على الناس ضريبة يؤدونها فى كل سنة ريال على كل

---

(١٥١) راجع حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .

(١٥٢) ووسلطنه = سلطنة .   قراءة إجتهادية

(١٥٣) الباقرمى = باجورمى Baguirmi .

ـ راجع حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .

(١٥٤) تحت = تخت .

(١٥٥) انظر الخريطة ملحق رقم (١١) .

ذكر ، شيخا كان أو صبيا . فأثرى وكثر ماله كثرة زائدة . وعلم الإنجليز النازلون فى (سكوتى) ما بين (رباح) وحكاعه[١٥٦] الفرنسيس فى مستعمرتهم من البغضاء والكره الشديد ، وأن أولئك الفرنسيس قاعدون له بالمراصد . فجعلوا يبيعون له السلاح وسائر معدات الحروب ، فخاف الفرنسيس عاقبة ذلك . فسيروا لقتاله حملة بقيادة أحد ضباطهم المدعو(كرميل)[١٥٧] ، فقاتلها وفتك بها .وظل هذا حاله حتى أبرمت العهدة بين الفرنسيس والإنجليز بشأن السودان عام ثمانية تسعين[١٥٨] ، واعتبروا أن(رابحا)فى منطقة نفوذ الفرنسيس . فجردوا عليه حمله أخرى بقيادة (بريطون)[١٥٩] ففتك بها أيضا ، فجردوا عليه ثلاث حملات أخرى ، فأخذت بثأر بريطون وأسقطت ملكه ذلك الطويل العريض ، وزلته[١٦٠] ذلا كبيرا وهو لا ينكف عن الهرج ، وشن الغارات أينما صار . فأعيا الفرنسيس أمره وأتعبهم جدا فجعلوا يفاوضون جماعة الإنجليز والألمان فى مستعمراتهم فى الخلاص من شره وإيقافه عند حده ، فتعهد جماعة الإنجليز بطرد الرجل وأصحابه من الإملاك المصرية ، لأن شق من (بورنو) تابع لأملاك مصر . وأرتأت حكومة الألمان إرسال حملة إلى نهر (الشادى)[١٦١] ،ولكنها عادت فأحجمت عن ذلك ، لأن تلك الحملة لابد لها من المسير فى الأملاك الفرنساوية . وظلت فرنسا وإنجلترا فى أخذ ورد بشأنه أياما كثيرة ،حتى زحف جماعة الفرنسيس عليه فى عددهم وعدتهم ، وداهموه فى مواطنه فقتل

---

(١٥٦) وحكاعة = وجماعة ــ قراءة ترجيحية .

(١٥٧) كرميل = كرامبل Crampel .

ــ راجع حاشية ٥٧من حواشى عام ١٩٠٠ .

(١٥٨) عن هذه التسوية راجع حاشية ٦٣من حواشى عام ١٩٠٠ ــ أما تاريخها فهو ٢١ مارس ١٨٩٩ وليس عام ١٨٩٨ كما يذكر شاروبيم .

(١٥٩) بريطون = بريتونيه Bretonnet .

ــ راجع حاشية ٥٧ ــ من حواشى الفصل التاسع ــ عام ١٩٠٠ .

(١٦٠) وزلته = وأذلته ــ قراءة تصحيحية .

(١٦١) الشادى = شارى Shari .

ــ انظر الخريطة ملحق رقم (١١) .

وقت[١٦٢] معه خلق كثير ، وهرب من بقى من رجاله وتشتتوا فى كل صوب وحدب . وجعل الفرنسيس يطاردونهم أينما صاروا ، حتى أشفق الإنجليز من لجوء الفارين إلى (دارفور) (وكردوفان) فيعملون عمله فى تلك الأنحاء . ومع ذلك فقد[١٦٣] لخبر قتله رنة فرح فى ديار الفرنسيس . وجاء رسول السردار إلى القاهرة يحمل البشرى بموته إلى قصر الإمارة ووزارة الحرب .فكان لخبر موته عندهم من الأهمية كخبر موت أحد كبار الملوك والسلاطين الغزاة . واتفق أن قدم إلى القاهرة فى هذه الاثناء آتيا من الحج وزير (السلطان وراى)[١٦٤] الحاج (حسين خوجلى) ومعه عيلته . فنزل أياما بالقاهرة ، وقد مضى عليه منذ خروجه من بلاده إلى البيت الحرام زهاء عامين مارا بطريق بنى غازى . فتحدس[١٦٥] الناس بأمر مجيئه وأولوه تأويلا كثيرا ، وظنوا أن له علاقة بموت(رابح مولى الزبير) . وزاره بعض العلماء والأعيان من أهل القاهرة ،فرأوا فيه رجلا عاقلا رزينا ، ذا خبرة بأحوال السودان ، ومناحى سياسة الدول الأوروبية فى ذلك الصقع ، وأخبرنى من رآه وحادثه أنه أوسع[١٦٦] الإطلاع ملم بمقاصد الدول واتفاقها ومعاهداتها على قارة أفريقية ، وأنهم لا يأتون هناك عملا إلا وورائه غنما عظيما ، وأن بعضهم إلى بعض عدوا لدودا فلا خلاص للبلاد منهم . قال؟ وقال لى فى عرض حديثه (ويظن بعض الناس أنى آت إلى دياركن[١٦٧] فى مهمة سياسية وغرض سرى ، والله يعلم أنى عابر طريق قد أديت فريضة الحج ولا ألبث عندكم إلا ريثما أعد معدات السفر ثم أغادر بلدكم إلى وطنى)قال مخبرى فسألته أراضون أنتم عن إحتلال الأجانب لدياركم

---

(١٦٢) وقت = وقُتِلَ ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٣) فقد = فقد كان ـ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٦٤) السلطان وراى = سلطان وادای ـ قراءة إجتهادية ـ راجع حاشية ١٧٤من حواشى عام ١٩٠٠ .
(١٦٥) فتحدس = فتحدث ـ قراءة تصحيحية .
(١٦٦) أوسع = واسع ـ قراءة ترجيحية .
(١٦٧) دياركن = دياركم ـ قراءة تصحيحية .

فتبسم وقال(ماذا تتوقعون منا أهل مصر ، وقد قيل ﴿أفضل ما أنت مستعين به على عدوك عند عجزك عن مناصرته أن تصادق أصدقائه ، وتواخى إخوانه ، وأن من يهيب عدوه فقد جهز لنفسه جيشا﴾ . وفى ذلك يكفى) قال مخبرى ، فتحققت أن فى صدر الرجل خبايا لا يقدر على إظهارها . فتركته وأقام أياما بعد ذلك ، ثم قفل راجعا ، وبطل حديث الناس فى أمره . فما هى إلا أيام بعد قفوله حتى جاءت الأخبار عن (وادای) بوصوله سالما ، وأنه لما كان الإنجليز ذوى مطامع وغاية سياسية ناحية (بحيرة تشاد) ، وميلا شديدا إلى بسط حمايتهم على (كانو)[١٦٨] وتقوم[١٦٩] حجر عثرة فى سبيل جماعة الفرنسيس فى ذلك الشق البعيد ، قد كانوا سيروا حملة منهم بقيادة (الأسقف تجويل) لهذا الغرض . فسارت تلك الحملة حتى نزلت على (ملك كانو)فلم يشأ مقابلتهم ، ووقفوا على بابه أياما حتى أجاز مقابلتهم . وقابلهم بوجه عابس ، وخاطبهم بخشونه عظيمة ، ثم أنذرهم بالويل والثبور وعظائم الأمور إن هم لم يغادورا بلاده بعد ثلاثة أيام . فتضرعوا إليه أن يمد لهم المهلة إلى سبعة أيام ففعل . فلما حل اليوم الموعود رحلوا عن بلاده . فلم يبخل عليهم بشئ من الزاد والميدة[١٧٠] ، وساروا إلى (زارية)[١٧١] الواقعة بعد سبعين فرسخا غربى (كانو) . فما هو أن علم أميرها بقدومهم حتى سير إليهم من يقول لهم (تنحوا عن بلادنا وإلا قاتلناكم) ، فتنحوا جنوبا وظلوا فى طريقهم حتى دنوا من أحد المراصد الإنجليزية ، فنزلوا فيها .وأخبروا بأن أهل البلاد كافة ناقمون على الإنجليز وهم لا يشخون[١٧٢]

---

(١٦٨) كانو Kano مدينة فى شمال نيجيريا على بعد حوالى ٨٦٠ كم شمال شرق لاجوس . لقرون كانت (كانو) أكبر وأهم مركز تجارى فى منطقة السافانا Savanna . استولت عليها بريطانيا عام ١٩٠٣ .
ـ انظر الخريطة ملحق رقم (١٢) — Lexicon Universal Encyclopedia - vol.12 - P., 16.

(١٦٩) وتقوم = لتكون ـ قراءة ترجيحية .

(١٧٠) والميده = والميره ـ قراءة ترجيحية .

(١٧١) زاريه Zaria .
ـ انظر الخريطة ملحق رقم (١٢) .

(١٧٢) يشخون = يخشون ـ قراءة تصحيحية .

بأسـهم الآن ، لأنهم يعلمـون أن جـمـيع العـسـاكـر الإنجليـزية أرسلوا إلى (الأشنتى)(١٧٣) فلم يبق منهم وتار لا نفـاخ نار .وظن الناس أن مـا حل بتلك الحملة من الإهانة والإخفاق هومن أعمال (الحاج حسين خوجلى) وزير سلطان (وادى)(١٧٤) . والأمر على خلاف ما كانوا يظنون .

وجاءت الأخبار من الخرطوم وغيرها مبشرة بتعاظم فيضان النيل فى هذا(١٧٥) ، وبلوغه ما فوق المعتاد من الزيادة ، واهتمام أصحاب الرى من جماعة

---

(١٧٣) الأشانتى Ashanti شعب يعيش فى وسط غانا Ghana ويجاور مناطق من توجو Togo وساحل العاج Ivory Coast ، فى غرب أفريقيا . كان الأشانتى مملكة مستقلة فى السابق ، إنقسمت إلى أقاليم ، مناطق ، وقرى ، لكن الشعب بأكمله كان يخضع لزعيم من عشيرة الأويوكو Oyoko فى أواخر القرن السابع عشر . كانت مملكة الأشانتى بعاصمتها كوماسى Kumasi نشطة فى تجارة الرقيق فى القرن الثامن عشر . فى القرن التاسع عشر ثارت المنازعات مع البريطانيين ، وانتهى هذا بضم إقليم الأشانتى إلى بريطانيا فى عام ١٩٠١ .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 2 - P.. 229.

(١٧٤) وادای Ouadai ــ ناحية رحبة من أفريقيا الإستوائية الفرنسية (١٩١٠ ــ ١٩٥٩) فى إقليم تشاد وتقع شرق بحيرتها Lakechad . كانت سلطنة مستقلة من السودان الغربى وأصبحت الآن إقليماً فى شرق تشاد ــ ضمت أفريقيا الإستوائية الفرنسية French Equatorial Africa أربع أقاليم فرنسية فى غرب وسط أفريقيا هى (تشاد) (أوبانجى ــ شارى Obangi - Shari) (الجابون) ، و(وسط الكونغو) . نتيجة للحركة المستمرة بين أقطار شمال أفريقيا المسلمة فقد ظهرت فى منطقة تشاد عدة ممالك إسلامية داخلية بعيداً عن الساحل الأفريقى ــ كان من بينها سلطنات باجيرمى Baguirmi و(واداى) Wadai (تكتب Ouadai فى الفرنسية) ، وتلك المملكة التى أسسها (رابح فضل الله) فى (برنو) والتى جعل عاصمتها فى دكوة Dikwa جنوبى بحيرة تشاد حتى قتل على يد القوات الفرنسية عام ١٩٠٠ ــ بين عامى ١٨٩٧ ــ ١٩٠٨ نجحت فرنسا فى هزيمة هذه السلطنات الإسلامية وأصبحت تشاد جزءاً من أفريقيا الإستوائية الفرنسية عام ١٩١٠ ومستعمرة منفصلة عام ١٩٢٠ باسم Le Territoire militaire du Tchad (إقليم تشاد العسكرى) .

— Larousse Universel - vol. 11 - PP.. 453, 1062.

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 4 - PP., 265 - 266.

ــ رأفت غنيمى الشيخ (أفريقيا فى التاريخ المعاصر) ــ دار الثقافة للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٨٢ ــ ص ١٤٣ ــ ١٤٤ .

ــ محمد عبدالله النقيرة (التأثير الإسلامى فى غربى أفريقيا) ــ الطبعة الأولى ــ مطابع الفرزدق التجارية ــ الرياض ــ ١٩٨٨ ــ مواضع متفرقة .

ــ حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .

ــ الملحق رقم (٨) ورقم (١٢) .

(١٧٥) هذا = هذا العام ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

الإنجليز بالأمر .قالوا لأن فيضان هذا العام سيكون كبيرا لم تر مصر مثله منذ سنه ثمان وسبعين وثمنمائة وألف للميلاد .إذ فى تلك السنة كان الشرق كبيرا جدا ، ثم جاء الفيضان غزيرا بعده ، ولكن فيضان هذا العام سيكون أغزر منه وأكبر كثيرا . وبرز الأمر إلى المديرين والمحافظين بإخراج أهل القرى ومشائخ البلاد إلى خفارة الجسور وحراسة القناطر ، وشدد أصحاب الرى فى الطلب ، وجعلت بواخرهم تمخر فى طول النيل وعرضه ، وكتبهم تأتى تباعا إلى المديرين والمحافظين ، والناس يحسبون لذلك حسابا كبيرا .فلما كان بعد ظهر يوم الأربعاء خامس عشر أغسطس من السنة ،تاسع عشر ربيع الثانى ، وتاسع مسرى سنه ستة عشرة وستمائة وألف ، طاف المبشرون بوفاء النيل بطبولهم وزمورهم يبشرون بليلة الجبر(١٧٦) . وخرجت العقبه(١٧٧) سائرة إلى فم الخليج وهى تطلق المدافع على عادتها فى هذا الإحتفال ، فتبعتها زوارق المحتفلين ومراكب المتفرجين ، ثم أقبل محافظ البلد فى موكبه ، فحيته (العقبة) بإطلاق تسعة عشر مدفعا . ولما أقبل الليل أطلقت الأسهم والألعاب النارية ، وأصبحوا وقد قطع السد وبذروا عليه الدراهم على العادة المألوفة فى هذا الإحتفال . فلما كان اليوم التالى جاءت الاخبار بفتح عيون سائر الترع وجميع القناطر ، وترعة السوهاجية(١٧٨) التى هى أكبر الترع وأعظمها خطورة .فدفقت(١٧٩) مياه النيل إلى كافة الترع الأخرى ، والناس يحسبون لذلك حسابا كبيرا ، وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز يقولون أن جميع الجسور متينة وأن التحوطات متخذة .أقول

---

(١٧٦) المقصود هو جبر الخليج ـ عن جبر الخليج وكسر الخليج ووفاء النيل ـ راجع حاشية ٢٩٠ من حواشى عام ١٨٩٣ .

(١٧٧) عن العقبة ـ راجع حاشية ٢٤٠من حواشى عام ١٨٩٨ .

(١٧٨) جرت الترعة السوهاجية فى الصعيد بموازاة النيل على الضفة الغربية من سوهاج حتى تتصل ببحر يوسف قرب (ديروط) .

ـ هيلين آن ريفلين (الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر) ـ ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٨ ـ ص ٣٤٤ .

(١٧٩) فدفقت = فتدفقت ـ قراءة ترجيحية .

فهذا النيل الذى ألهه أجدادنا الأولين ووضعوه فى مصاف أكبر الألهة ،لا يزال يذكر البلاد بعظمته من عام إلى عام ،ولا يزال المصريون ومصر تبتهج بفيضانه فى كل حول . فتخرج الناس للإحتفاء بقدومه وتعد معدات الأفراح لاستقباله ، ويعدونه إلى الآن روح مصر ودم حياتها ،فإن قصر فى زيادته بكوا وابتهلوا إلى الله تعالى بأن يمده ببركة منه كى ينهمل ، وإن طغى وزاد عن حده بكوا وخافوا وابتهلوا إليه تعالى بأن يخفف عنه(١٨٠)ويقلل من طغيانه رحمة بالبلاد وأهلها ، وإن إعتدل وجاء بين هذا وهذا فرحوا وعدوا سنة(١٨١) مباركة ميمونة ذات خصب ونماء ، فسبحان الله القدير . وكان مما زاد الناس خوفا من إزدياد النيل وتجاوزه الحد المقرر للزيادة ، ما جاء من أنباء السودان من كثرة نزول الأمطار وغزارتها ، وتتابع سقوطها حتى أهلكت الحرث ، وجرفت خطوط السكك الحديد إلى بعد بعيد . وظل الحال على هذا الإرجاف أياما ، وأصحاب الرى من جماعة الإنجليز بين صعود إلى النيل وهبوط ،يتعهدون الجسور والقناطر ، ويراقبون إرتفاع المياه وهبوطها ، حتى زال الخوف بانقضاء أيام الزيادة ، وأنحسر الماء عن ضفتى النيل ، فسكنت القلوب الواجفة ، (ولم(١٨٢) تنصرف الناس عن حديث مخاوف النيل ، حتى عثر جماعة الشرط على ورقة ملصوقة على أسكفة(١٨٣) باب حديقة الأزبكية الغربى مكتوبا فيها(أيها الناس ما لنا نراكم فى جزل وسرور لإقبالكم على عيد جلوس ذلك العاتى الظالم العسوف السلطان . . . فاعلموا هداكم الله أنكم إذا إحتفلتم بعيد جلوسه المنحوس على ما أنتم فاعلوه من الأبهة والعظمة فلا تأمنون شر الثورة ، ولا شئ ورائها إلا إراقة الدماء وخراب الديار .فافقهوا والسلام على من إتبع الهدى) .فلما تفشى خبر ذلك وتناقله الناس ، وكان الإستعداد بالإحتفاء بعيد جلوس السلطان عبد الحميد آخذا مجراه ، على بدعتهم الجديدة

(١٨٠) عنه = عنهم ـ قراءة ترجيحية .
(١٨١) سنة = السنة ـ قراءة ترجيحية .
(١٨٢) (ولم = ولم تكد ـ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(١٨٣) راجع حاشية ١٨ من حواشى عام ١٩٠٠ .

التى لم يسبق لها مثيل منذ الفتح العثمانى إلى هذا العهد ، خافوا وتطيروا ، واهتم أصحاب الشرطة بالأمر إهتماما عظيما ، وأكثروا من البحث والتنقيب والأخذ بالشبهات ، فلم يعثروا على مرتكبى هذه الجريمة . وظل الناس على خوفهم حتى حل يوم العيد ، فلم يكن له من الشأن والعظمة ماكان لغيرها ، وانكمش الناس فلم يخرجوا للفرجة على عادتهم . وطاف أصحاب الشرطة ما بين الحانات ومكامن الريب والفجور على عادتهم فى المواسم والأعياد . واقتضى(١٨٤) الأمر على ذلك بغير زيادة ، فعاد الهدوء إلى نصابه . وزال ما بالناس من التشاؤم .

(١٨٤) واقتضى = وانقضى ـ قراءة ترجيحية .
كان عبد الحميد (٢١ سبتمبر ١٨٤٢ ـ ١٠ فبراير ١٩١٨) آخر سلطان عثمانى كبير (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) قام بتحديث الإمبراطورية العثمانية ودافع عنها ضد الهجمات الأجنبية والثورات المحلية . أدخل دستوراً ليبرالياً (المشروطية) وشتت التدخل الأجنبى فى مؤتمر القسطنطينية (١٨٧٦) ، وتنازل عن بعض سلطته إلى برلمان منتخب . اضطرته هزائم الحرب الروسية ـ التركية (١٨٧٧ ـ ١٨٧٨) وفشل البرلمان فى الحكم بكفاءة إلى أن يحل البرلمان وأن يحكم أتوقراطياً . أزعجت المدة الباقية من عهده الثورات المحلية فى مقدونيا وشرقى الأناضول والإحتلال الأجنبى لقبرص ، تونس ، مصر ، البوسنة والهرسك ، وشرق الروملى .
حقق عبد الحميد التوازن فى الإدارة والمالية العثمانية لكنه دفع أغلب المثقفين إلى المنفى ـ وجلب ضده معارضة قوية فى أجزاء كثيرة من الدولة . ففى مصر كانت جريدتا (الوطن) و(مصر) تكثران من الطعن فى السياسة العثمانية ـ ووقفت الجريدة الأخيرة موقفا عدائياً من الدولة أثناء الحرب العثمانية ـ اليونانية عام ١٨٩٧ . كذلك فإن جريدة (المقطم) المؤيدة للسياسة الإنجليزية دأبت على الطعن فى الدولة العثمانية وسياساتها الخارجية والداخلية وناصرت الفئات الثائرة على الدولة كالأرمن . وفتحت (المقطم) أبوابها لأعضاء (حزب الإتحاد والترقى) الهاربين إلى مصر وأفسحت لهم فرصة الكتابة والطعن فى عبد الحميد على صفحاتها ـ كذلك فعلت صحيفة (الضياء) التى أنشأها (إبراهيم اليازجى) فى القاهرة عام ١٨٩٨ ، وصحيفة (المشير) التى أصدرها (سليم سركيس) فى الإسكندرية عام ١٨٩٤ ، وصحيفة (تحرير سوريا) التى أصدرها (چورج عساف) فى القاهرة عام ١٩٠١ . وكان (عبد الرحمن الكواكبى) يكتب فى(المؤيد) منذ أكتوبر ١٩٠٠ سلسلة من المقالات تهاجم عبد الحميد وسياسته ثم ما لبث أن طبعها فى كتاب أسماه (طبائع الاستبداد) .
ولم يعدم (عبد الحميد) معارضين آخرين من اليهود والأرمن الذين لم يدخروا وسعاً لمناوئة الرجل وتأليب القوى المؤثرة عليه .
ـ محمد حرب عبد الحميد (السلطان عبد الحميد الثانى آخر السلاطين العثمانيين الكبار) دار القلم ـ دمشق ـ ١٩٩٠ ـ الطبعة الأولى ـ ص ٢٣١ ـ ٢٣٨ ـ راجع أيضاً ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ من النص .
ـ Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 1 - P.. 53.

وكانت الهيئة الحاكمة قد أشارت على حاكم السودان بتسيير حملة إلى أعالى النيل من جماعة المهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض ، ليروا فى أمر إنخفاض وارتفاع النيل ، وأسباب إنحسار مياهه سنة وانحداره سنوات ، وكان قد أشار عليها بذلك بعض كبار المهندسين من الإنجليز . وأختاروا لذلك أحد مقدمى العساكر الإنجليزية واسمه(بيك)بيك ، وفرضوا له قدرا من المال للنفقة يبلغ العشرة آلاف ذهبا . فسار الرجل على رأس حملته وغاب أياما كثيرة بين صعود فى مجارى النيلين وهبوط ، وعاد فظهر من أبحاثه العلمية وأبحاث من معه من جماعة المهندسين أن عمق النيل فى أواخر العام الماضى ، يعنى عام تسعة وتسعين ، وراء المكان المنفصل فيه (بحر الجبل) عن (بحر الزراق)[١٨٥] كان من ستة أمتار إلى تسعة ، وعرضه من ستين مترا إلى مائة ، والشاطئان منكشفين لا شئ يغطيهما ، أما وادى النيل فعرضه من خمس عشر كيلو مترا إلى خمسين ، وأوله (رجاف) ، ومنها يمتد إلى(بحر الغزال) فيتسع كلما زاد امتداده . وهذا الوادى عبارة عن(مستنقعات)يحازى أحدها الآخر ، وتجرى إلى جوانبها جداول صغيرة متفرقة تغور تحت الأعشاب ، ثم تظهر بعيدا عن كل غورها وتجتمع بين الطحلب . أما النباتات التى تكسو وجه تلك المستنقعات فهى البردى والقطر ، والبردى ينبت على الشاطئين إلى مسافات بعيدة قد يبلغ عرضها أحيانا بضعة كيلو مترات .أما القطر ، فإنه ينبت فى المكان الذى ينحسر عنه إلا قليل كأن يظل فوض[١٨٦] الأرض من عشرة إلى عشرين سنتى مترا أو مترا على الأكثر .

فإذا جاء الفيضان بقوة تياره حمل البردى ، وما نبت واجتمع على الشاطئين من الأعشاب والحشيش ، وتهب العواصف الشديدة فتقذف ما يحمله التيار إلى مكان واحد ، فتكون منه جزيرة صغيرة قد تكون مساحتها

(١٨٥) الزراق = الزراف ـ قراءة ترجيحية .

(١٨٦) إلا قليل كأن يظل فوض = الماء فيظل فوق ـ عدلت الجملة ليستقيم المعنى ـ قراءة ترجيحية .

أحيانا بضعة فدادين . وربما قذفت بها العاصفة إلي تيار(بحر الجبل) ، فيحملها إلي (النيل الأبيض) إذا كانت صغيرة وقدر على حملها ، وإلا فأنها تتجمع فى مكان واحد وتسد النيل من شاطئه الأيمن إلى الأيسر . ثم يضغط عليها التيار فيشدها فتتمكن ، ثم تتلقى ما يحمله إليها الماء ، فتقوى به وتنقلب ، فيعجز الماء عن جرفها ، فتصبح متينة كظهر الارض يمر فوقها القطيع من الفيلة فلا تهوى به ، ولا تهوى تحت قوائمه وحينئذ تصد تيار الماء عن الإنحدار ، فيجرف الأرض لينفذ من أحد الجانبين ، ويندفق إلى الصحراء ، فتتكون منه تلك المستنقعات الكبيرة ، ولا يمر تحت السد إلا جزءا من مياه النيل فيصب فى (بحر الجبل) . قال وفى هذا العام ـ يعنى عامنا الذى نحن فيه ـ كانت مياه(بحر الجبل)فى إعلاه غريزة ، مع أنها كانت في المكان الذى تنفصل فيه عن(بحر الزارق)[١٨٧] قليلة شحيحة ،وفى المكان الذى يجتمعان فيه جدولا ضئيلا . قال وفى الخامس عشر من أبريل من السنة ، تبدلت الحالة عند مفترق (بحر الجبل)عن(بحر الزراق)[١٨٨] ، فإن التيار تلاشى والمياه انخفضت ، وذلك دليل على القيظ فى جهات(خط الإستواء) . أما فى النهرين فإن الماء ظل غزيرا ، وسبب ذلك أن الحملة المصرية التى سافرت قبل الآن ـ يعنى من ثلاثة شهور ـ قد إشتغلت بقطع السدود التى صادفتها في بحر الجبل ، وقد بطل الآن عملها بسبب الفيضان ، ودنو فصل الشتاء ، ولكنها ستعود إلى العمل فى العام المقبل . على أنها قطعت ستة عشر سدا ، فكان ذلك سببا فى تحويل المياه التى تقدم القول بأنها تصب فى تلك المستنقعات إلى مجرى النيل ، فسربت إليه قليلا فارتفعت مياه (النيل الأبيض)أربعين أو خمسين سنتيمتر . ولقد دنى[١٨٩] وقت الفيضان ، إذ بدأت العواصف تهب منذ خامس عشر أبريل ،

---

(١٨٧) الزراق = الزراف ـ قراءة ترجيحية .
(١٨٨) الزراق = الزراف ـ قراءة ترجيحية .
(١٨٩) دنى = دنا ـ قراءة تصحيحية .

وهطلت الأمطار غزيرة ، وابتدأ فيضان (النيل الازرق) منذ خامس عشرى الشهر ، والآمال فى نيل هذا العام كبيرة[١٩٠] أ . هـ ومن غرايب الحوادث الطبيعية أنه كلما كان فيضان النيل منحطا حدثت المجاعة فى(ديار الهنود) ، وابتلى أهلها بالقحط الشديد . قال ذلك العلامة (إليوت) الإنجليزى صاحب (مرصد الهند) الفلكى ، وأيده بالحجة والبرهان فقال (كان النيل قليلا فى أربعة مواسم من خمسة ، فكان فيها مطر الهند قليلا جدا والقحط بها شديدا) فسبحان من بيده تصريف الأمور .

---

(١٩٠) ينقسم حوض النيل إلى الأقسام الآتية :
١ ـ النيل الأعظم من مصب العطبرة إلى البحر .
٢ ـ العطبرة .
٣ ـ النيل الأزرق وروافده .
٤ ـ النيل الأبيض وينقسم إلى :
أ ـ السوباط ب ـ بحر الجبل ج ـ بحر الغزال د ـ صعيد البحيرات .

ينبع نهر العطبرة من الجزء الشمالى من أثيوبيا ، ورغم أن كميات المياه به تكون كثيرة فى أغسطس وسبتمبر فإن مياهه تنقص من ديسمبر إلى يونيو فيصبح بركاً متناثرة .

وينبع النيل الأزرق من بحيرة تانا ، ويجرى النهر بعد تركه البحيرة فى واد يتزايد فى العمق تدريجياً حتى يصل إلى سهول السودان جنوب الروصيرص . ويتصل بالنيل الأزرق فى جزئه الأسفل (الدندر) و(الرهاد) . عند الخرطوم يتحد النيل الأزرق مع النيل الأبيض الذى يستمد مياهه من السوباط وبحر الزراف وبحر الجبل وبحر الغزال ـ ويتكون السوباط من رافد البارو الذى ينبع من الحبشة ورافد البيبور الذى يستمد مياهه من الحبشة ومن منحدرات صعيد البحيرات ويشمل حوض السوباط مساحات شاسعة تتحول إلى مستنقعات فى فصل الأمطار .

يبدأ بحر الزراف من المستنقعات التى فى شرق بحر الجبل ـ ويجرى النيل الأبيض بين ملتقى السوباط وملتقى بحر الغزال من الغرب إلى الشرق ، ويطلق إسم بحر الجبل على المجرى الأساسى للنيل الأبيض من الجنوب ويجاوره المستنقعات الواسعة على الجانبين فى الجزء الأسفل من مجراه وتعرف بمنطقة السد ـ وتمتد شمالاً من (بور) إلى (بحيرة نو) ـ وتسد الأعشاب الطافية بحر الجبل . وخلال الفترة التى يغطيها المخطوط فإن الملاحة كانت مستحيلة فيه ـ وتمتلئ مستنقعات منطقة السد بأعشاب البردى وأم الصوف والبوص الطويل . ويتوقف مسطح المستنقعات على إرتفاع منسوب النهر وهو يختلف من عام لآخر . ويعتبر بحر الزراف شعبة لبحر الجبل ويستمد مياهه منه ـ ويمد بحر الغزال النيل الأبيض ببعض المياه . وتتكون البحيرات من مجموعتى فكتوريا وألبرت ـ وتضم الأولى بحيرتى فكتوريا وكيوجا ـ وتضم الثانية بحيرتى جورج وإدوارد وبحيرة البرت .

ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ميلادية ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٥٤ ـ ٦٢ .

وكـان منذ عهـد ليس ببـعيـد قـد ظهـر فى أرباض الصومال مـهدى جـديد إسـمـه (محـمـد بن عبـد الله)[١٩١] وجـعل ينادى بمـهدويتـه ، وأنه المـهـدى الحقيقى ، فتبعه خلف[١٩٢] كثير وتفشت دعوته بين القبائل الضاربة حتى بلغت (هرر) وغيرها من البلدان ، وانفسحت كلمته فجعل يشن الغارة على الأملاك الحبشيـة ، ويقطع الطرق على السابلة ، ويزحف بجموعه لحرب المجـاورين ، حتى أتعب الخلق وأقلق الأمراء والكبراء . فبرز أمر الناجوسى بمطاردته وقطع شأفة أتباعه .فزحفوا عليه وقاتلوه حتى هزموه ومزقوا شمل أتباعه ، وكانوا يظنون أنه لا تقوم له بعد ذلك قائمة ، فمـا هى فطرة[١٩٣] حتى خرج الرجل فى لموم وجموع كثيرة ، وزحف لقتال الحبشة ، فكروا عليه وأصلوه نارا حامية ، فاختفى بمت[١٩٤] بقى مـعـه ، ولاذوا إلى الفـرار . وعـادت الجنود الحبـشيـة فى عـدتها إلى(هرر)وعسـكرت فى ضـواحيها تـراقب ظهور المهدى ثانيـة . فما هى إلا أيام حـتى جـاء الصـائح بأنه زحـف مـع جـمـوعـه إلـى(بربر)[١٩٥] وأنه إجـتـاح جموما[١٩٦] فى طريقهم من البلدان ، فسارت العساكر الحبشية لقتالهم ، والتقت بهم فقاتلتهم قتالا شديدا ، وضربتهم ضربة قوية ، ففروا على وجوههم . وكـانوا فى أثناء فـرارهم يردمون الأبار مخـافة أن يستقى منهـا الأحبـاش ويتـمكنوا من افتقاء آثارهم فى عرض الصحراء . وجاء الراس (ماكونين)[١٩٧] فى طائفة من عسكره إلى (هرر) . فاهتم بتسيير المقاتله وتعبئة الجيوش وترتيب معسكراتهم فى (جقجيقة)[١٩٨] وأباطح (الأوغدن) . فسكنت خواطر أهل البلاد واطمأنت

(١٩١) راجع حاشية ٧٨ من حواشى عام ١٩٠٠ .
(١٩٢) خلف = خلق ـ قراءة ترجيحية .
(١٩٣) فطرة = فترة ـ قراءة ترجيحية .
(١٩٤) بمت = بمن ـ قراءة تصحيحية .
(١٩٥) بربر = بربره ـ قراءة تصحيحية ـ راجع الخريطة ملحق (٣) و(٨) .
(١٩٦) تطلق على المال وغيره إذا كثر ـ (جَم) المال ـ فالجم هو الكثير (وتحبون المال حباً جماً) . ـ مختار الصحاح ـ ص ٤٧ .
(١٩٧) حاكم هرر ـ راجع حاشية ٤٦٦ من حواشى عام ١٨٩٥ .
(١٩٨) راجع حاشية ٧٨ من حواشى عام ١٩٠٠ .

قلوبهم على أموالهم وأرواحهم وزرعهم . وبرز أمر (الرأس مكونين) إلى مقدمى الجنود الحبشية بأخذ الأهبة لحمللا[١٩٩] قوية تسير جهة (نهر جوبه) الذى يصب إلى (الأوقيانوس الهندى) ليأخذوا ذلك الدعى من خلف، ويضربونه هو ومن معه ضربة قاضية، ويمنعوا من يفر منهم إلي النجاة . وكان هذا الدعى قد بلغ شره القاصية والحاضرة من (الصومال) حتى الأملاك الإنجليزية . فكان لخبر زحف الجيوش الحبشية لقتاله عند جماعة الإنجليز رنة فرح، وجعلت صحف أخبارهم تشير[٢٠٠] بشجاعة الحبشان، وتطرئ أعمال (الرأس ماكونين) وتستفزه إلى قطع شأفة ذلك الدعى[٢٠١] قبل استفحال أمره وانفساح كلمته، وتبديد شملهم ثانية . فسير بها إلى وزارة الحرب بالقاهرة وإلى ديار الإنجليز . وجاءت الأخبار أيضا بوفاة(الرفاعى) صاحب سلطنة (بنجية) إحدى سلطنات السودان الغربية، فاهتمت لموته المقامات العالية بديار الفرنسيس إهتماما كبيرا . وبرز الأمر إلى حاكم مستعمراتهم فى تلك الأطراف بإقامة ولده (عثمان) خلفا له .فتم لهم ما أرادوا ،ولم تكن دولة الإنجليز تميل إلى[٢٠٢]ذلك الشق بيدها . أما الرجل فمن موالى (الزبير باشا رحمة) مثل (رابح) الذى تقدم الكلام عنه . فلما قبض جماعة الإنجليز على الزبير باشا[٢٠٣] كما تقدم الكلام

---

(١٩٩) لحمللا = لحملة ـ قراءة تصحيحية .

(٢٠٠) تشير = تشيد ـ قراءة ترجيحية .

(٢٠١) لم يكن (محمد بن عبدالله) دعياً كما يزعم ميخائيل شاروبيم ـ بل كان ثائراً وطنياً مسلماً ضد الإحتلال الأجنبى بجنسياته المختلفة ـ فإقليم (أوجادين) إقليم إسلامى خضع للإحتلال الحبشى عام ١٨٨٧ وتعرض لأسوء أنواع الأستغلال من جانب الحبشة ـ وقاوم منذ تسعينيات القرن التاسع عشر هذا الاحتلال بقيادة الثائر (محمد عبدالله) لتحرير أراضيه من هذا الاحتلال ـ ومحمد عبدالله محرر قومى شأنه شأن (كافور) و(جاريبالدى) و(سيمون بوليفار) ـ ولم يقل أحد أبداً بأن أياً من هؤلاء كان (دعياً) ـ بل لقد سجل التاريخ أسمائهم بأحرف من نور ـ وليس من المقبول قبول رأى شاروبيم فى الذين يثورون على القهر والإستعباد أللهم إلا إذا كان الوضع الطبيعى للأمور هو الخضوع لمنطق القوة والقهر الذى كانت تفرضه القوى الإستعمارية (بريطانيا ـ فرنسا ـ إيطاليا ـ بلجيكا ـ ألمانيا ـ الحبشة) فى ذلك الوقت، وهو ما لايقره أى وطنى يأبى الذل والهوان .

(٢٠٢) إلى = إلى بقاء ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى ـ قراءة إجتهادية .

(٢٠٣) عن الزبير رحمت ـ راجع حاشية ٢٨٨ ـ ص ١٠٢ ـ ويلاحظ أن الإنجليز لم يقبضوا على الزبير وإنما ذهب هو إلى مصر للشكوى من سلوك (إسماعيل أيوب باشا) حكمدار السودان معه فاحتجزه (إسماعيل) فى مصر إلخ .

عن ذلك فى محله ، إلتزم (الرفاعى) ذلك الإنكماش ، وحافظ على الحياد ولم يفـعل مـا فـعله (رابح)[٢٠٤] من الغـزو والفـتح وتدويخ البلدان . وظل على هذا حينا ، فلما إشتدت شوكة أصحاب المهدوية وانبسطت كلمتهم ،إنهالوا على الدارفور إنهيال السيل الجارف وأسروا سلاطين[٢٠٥] باشا وفعلوا بولايته ما لا خـير فـيـه . ثم عطفوا على (وادى)[٢٠٦] فـقـاتلهم السلطان (يوسف أبو ريشـة) والسلطان (عبد الرحمن) وأصلوهم نارا حامية حتى صدوهم ، فعمدوا إلى نهب الزرائب ومنازل التجار ، واجـتـاحـوا مـاقـدروا عليـه حـتـى بلغـوا(شنكو) . وجـاء الصـايح إلى(الرفـاعى) ذلك فـرأى أن الحكمـة فى الفـرار من وجـه أصـحـاب المـهـدوية . فرحل عن مـوطنه إلى (أم برمـو) ووطد فـيـهـا مـملكة ، ولاطف أهلها وعـاملهم بالرفق واللين فمـالوا إليـه ، وعـززوا سلطانه .فجاءه جـمـيع السـلاطين المجاورين يوالونه ويؤدون له الأتاوة . وكان الرفاعى ذلك عاقلا رزينا ميالا لإنماء ثروته وإملاء خزانته . وكان يعرف أن فى تلك الأطراف شيئا كثيرا من المعادن ويسمونها عندهم (بحفرة النحاس)[٢٠٧] ،فطمع فى إستغلالها . فسير إلى جماعة البلجيكيين فى مستعمرتهم الكونغو يستدعيهم إلى إحتلال (وادى العده) ، فتباطأوا وأظهروا التثاقل . ومـا هى إلا أيام حتى جـاء الخبر بزحف أصحاب المـهـدوية يريدون حربه ، فـانثنى عن عزمه ذلك ، وأخذ الأهبة لذلك ، وطيـر الخبر إلى من يجاوره من أولئك السلاطين ، فأخذوا أهبتهم أيضا . وكان عدد رجال المقاتلين الف وخمسمائة أو يزيد قليلا كاملى العدة متقنى السلاح . يقال وقد خدم بهذا الجند جماعة الفرنسيس كثيرا ، فسهل عليهم إحتلال

(٢٠٤) عن رابح فضل الله ــ راجع حاشية ٥٧ من حواشى عام ١٩٠٠ .
(٢٠٥) عن سلاطين باشا ــ راجع حاشية ١٥٦من حواشى عام ١٨٩٤ ، ٤٢٨ من حواشى عام ١٨٩٥ .
(٢٠٦) عن وادای Wadai ــ راجع حاشية ١٧٤ من حواشى عام ١٩٠٠ .
(٢٠٧) برية بين بحر الغزال ودارفور .
ــ انظر الخريطة ــ ملحق رقم (٨) .
ــ اللواء إبراهيم باشا فوزى (السودان بين يدى غردون وكتشنر) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٨ .

حملة (مرشال)[٢٠٨] فى بحر الغزال التى سبق الكلام عليها فى محلها ، ومكنها من إنشاء محطة عسكرية فى(انجدة) ، وكان يقدم لهم الزاد والمؤن عند طلبها . وظل على هذا الحال من المجاملة وحسن الولاء لجماعة الفرنسيس حتى انجلوا عن السودان . ولما تعذر على رجال الحملة نقل باخرتهم (فديرب)[٢٠٩] وزوارقهم من الشلالات ، سير إليهم جماعة من قومه ، فحملوا الباخرة وجميع الزوارق وساروا بهم سبعين كيلو مترا من (طمبورة) ، فاعترضت[٢١٠] لهم دولة الفرنسيس بالفضل ، وبسطت عليه حمايتها ، وهادته بالتحف والنفائس ، وعملت على جعل ولده(عثمان) خلفا له كما قلنا . ولما شاع خبر ذلك وتناقلته الصحف لم يرق فى أعين أصحاب سياسة الإنجليز ، وقامت صحفهم تنذر بالثبور وعظائم الأمور إذا ظلت سياسة الفرنسيس على هذا النحو فى تلك الأطراف .

وإلى هذا الحين كانت حالة السلطان(عبد الحميد) قد تبدلت ، وأطواره تغيرت تغييرا عجبا .فكان لا هم له إلا تعقب الناس وبث العيون والجواسيس حول الأمراء والكبراء وأصحاب المناصب وأهل الخطط . فكان الرجل يقضى سواد ليله فى حسبان ما سيكون فى بياض يومه ، وازدحم على بابه الواشين وأهل السعايات وتزاحموا بالمناكب على كشف عورات أصحاب البيوت وسائر الناس ، حتى بلغت محنتهم الوشاية بأفراد البيت المالك ،ولا فرق فى ذلك عندهم بين النساء والرجال ، حتى خشوا العاقبة وأصبحوا وهم لا يأمنون على أرواحهم فى ذلك البلد الطيب .وجعلوا ينزحون عن البلاد . بعضهم فى السر . وبعضهم فى العلن . وعيون السلطان تتبعهم فى[٢١١] صقع وواد . وكان ممن

(٢٠٨) مرشال = مارشان .
(٢٠٩) فيدهرب Faidherbe ــ عن هذه الباخرة ــ راجع حاشية ٤٢٣ من حواشى عام ١٨٩٨ .
(٢١٠) فاعترضت لهم = فاعترفت له ــ قراءة تصحيحية .
(٢١١) فى = فى كل ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

هرب من وجه ذلك الشر المقيم (محمود رماد باشا)[٢١٢] زوج أخت السلطان ، وولديه . سافر إلى ديار الإنجليز أولا ، ثم إلى ديار الفرنسيس ، ثم إلي بلاد السويس[٢١٣] بلاد الحرية وألقى فيها عصاه . فأقبل عليه أصحاب الصحف يستكتبونه ما يعلمه من أحوال سلطانه وأحوال أمته وبلاده ومصيرها إلى أيام السلطان عبد الحميد . فجعل الرجل يملى عليهم ما يمليه عليه وجدانه وضميره ، وكله زجر السلطان ونصح لأمته . فأكبر السلطان أمره ذلك جدا ، وسير رسله إلى الديار تتوعده بالويل والثبور إن لم يرجع إلى دار السلطنة هو وولديه ، وبث حوله طغمة من السفاحين وأهل الشر .فلما ضاقت عليه المذاهب ، أوهم أنه يريد الآستانة ، وركب إحدى البواخر فأقلعت ، وقد أرسل كتبه إلى المابين يعدهم فيها بالإقلاع عن كل ما لا يرضاه السلطان .وقال (وحيث أن الوقت شتاء يتعذر معه الإقامة فى دار السلطنة فهو يريد ديار مصر زائرا فى أيام الشتاء لمرضه المعروف وهو ذات الرئة ، فإذا جاء الصيف عاد إلى وطنه طايعا مختارا) .ووصلت به الباخرة إلى الإسكندرية ، فنزل فى أحدى الفنادق . فما هو أن أستقر به المقام أو كاد حتى إزدحم على بابه أصحاب الصحف ، وجعلوا ينقلون عنه حديث جماعة الأحرار في دار السلطنة ، وما يلاقونه من الظلم والحيف الثقيل ، وتقهقر الدولة وقرب عهد فناءها وزوال ملكها ،بخروج الخوارج

(٢١٢) محمود رماد = داماد محمود ـ محمود جلال الدين باشا (١٨٥٣ ـ ١٩٠٣) ـ زوج (سنيحه سلطانه) أخت السلطان عبد الحميد الثانى ـ والد الأميرين صباح الدين (١٨٧٧ ـ ١٩٤٨) مؤسس حزب اللامركزية التركى (تشبث شخصى وعدم مركزيت جمعيتى Tesebuss-u Sahsi ve Adem-i Merkeziyat Gemiyeti) ـ المعارض لجمعية (الإتحاد والترقى) ، ولطف الله ـ عضو مجلس الدولة ـ وزير العدل (١٨٧٧) ـ هرب إلى أوروبا مع ولديه (١٨٩٩) وأسس حركة الشبان الأتراك Young Turk الخاصة به المعارضة لسياسة السلطان عبد الحميد الثانى ـ أما داماد Damad فهو لقب يعطى لزوج أخت أوزوج إبنة السلطان فى الدولة العثمانية .

— Stanford Shaw (History of the Ottoman Empire and Modern Turkey) vol 11. PP.. 258, 495 .

(٢١٣) يقصد سويسرا Switzer Land ـ وتسمى أيضاً Swiss Confederation ـ والتسمية الأخيرة هى المسمى الرسمى لها .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 18 - P.. 393.

وانتشار الهرج فى الفايته[٢١٤]والحاضرة من إيالاتها . وأكثر من الشكوى وعظم البلوى ،وأصحاب تلك الصحف يهولون ويرجفون إرجافا ، حتى أخذت السلطات رجة الخوف ، وبرز الأمر بمنع تلك الصحف من دخول دار السلطنه ومصادرة ما يدخل منها . وترددت رسل السلطان ورجال مابينه على سفير الإنجليز ،يسألونه السعى فى إرجاع الرجل عن غيه ، واسترجاعه إلى دار السلطنه .وظل سعيهم متواصلا أياما ، حتى جاءت كتب السفير إلى لورد كرومر عميد الإحتلال بتسليم الرجل إلى رسل السلطان بغير قيد ولا شرط ولا مطاولة . وكان لورد كرومر يومئذ بمصيفه ، فكلم نائبه فى ذلك (بطرس غالى باشا) وشدد فى التخلى عن الرجل وعدم الممانعة فى تسليمه . قيل فمانع (بطرس باشا) فى ذلك ، وقال أن الرجل فى ديار ذات إستقلال داخلى ، وتحت سلطة قوانين لا تجيز معاقبته على ما إتهم به من التشهير بمساوئ السلطان ومعائب رجال الدولة ، فلا سبيل إلى تسليمه . وأبلغ الأمير خبر ذلك فرسم له بعقد مجلس الوزراء فانعقد وتناجوا فى الأمر طويلا ، وإرجاف أصحاب الصحف ونقلة الأخبار متواصلة ، ثم برز قرار الوزارء بأنه لا يجوز تسليم الرجل لقومه لأنه إرتكب جرما سياسيا ، وجرمه لا يعاقب عليه القانون المصرى ، ومصر مستقلة فى إدارتها الداخلية ، ولا يعتبر الرجل مجرما فيسلم لحكومة البلاد الفار منها إلا إذا كان قانون البلاد يعاقب على الذنب السياسى . وأذاع أصحاب الصحف ما قرره جماعة الوزراء ، فأقام الرجل بالإسكندرية بعد ذلك ناعم البال . فما هى إلا أياما حتى جاء من دار السلطنه ثلاثة رجال فى ثياب رجال الدولة وأجتمعوا (بالداماد) فى المنزل ساعة ، ثم خرجوا وعادوا إليه ثانية ، وثالثة ، ورابعة ، والناس لا يعلمون مما وقع بينهم شيئا ، لامتناع(الداماد)عن محادثة أصحاب الصحف ونقلة الأخبار . وظلوا على هذا أياما ،ثم سير الأمير فى طلب(الداماد)والأمير يومئذ بقصر مصيفه فى الإسكندرية . فذهب إليه ، يقال

(٢١٤) الفايتة = النائية ــ قراءة إجتهادية .

فحادثه الأمير فى رجوعه إلى دار السلطنة فلم يقبل ، فكفل له الراحة ورغد العيش وسلامته وسلامة عالية[٢١٥] فلم يقبل .وقال (أنا مريض بذات الرئة ولا قدرة لى على البقاء هناك) .وتحدث الناس بأمره كثيرا ، وكانوا يعجبون كيف أن جماعة الوزراء أقدموا على مخالفة نائب عميد الإحتلال ورأى سفير الإنجليز بدار السلطنة ، وقرروا عدم تسليم الرجل إلى قومه ، وهم طرا يعلمون أنهم إنما هم صنائع العميد وغرسه فى مناصب الوزارة ، فعسير عليهم مخالفته والعمل على غير ما يشير به ، لا سيما وأن الأمر بتسليم الرجل إلى رسل السلطان آت من صاحب سياسة الإنجليز .وعندى أن إمتناع جماعة الوزراء من الازعان[٢١٦] إلى تسليمه ، وإخراجه من الديار ، هو ضرب من التغرير بالسلطان ،وشكل من أشكال السياسة الإنجليزية ، فهم إذا شاؤا غرضا من الأغراض سلكوا ضده ، وأظهروا الإبتعاد عنه ،حتى إذا رأوا الفرصة سانحة والأمور دانية ، وثبوا وثبة الأسد فلا تفلت الفريسة من أيديهم . وهذا شأنهم منذ تصريفهم أمور هذه البلاد ، ولابد وأن يكون لسفيرهم فى دار السلطنة غرض من الأغراض السياسية أو الإقتصادية ، فهو يتقرب من السلطان لينالـه بتضحية (الداماد) ومن معه . فسبحان من جعل فى كل قلب ما أشغله[٢١٧] .

(٢١٥) عاليه = عائلته ــ قراءة ترجيحية .

(٢١٦) الإزعان = الإذعان ــ قراءة تصحيحية .

(٢١٧) شهد أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين مظاهر متزايدة من القومية فى الأراضى العثمانية . تركزت معظم الجهود حول إعادة توصيف الجماعات الشخصية إستجابة للضغوط الاقتصادية ، الاجتماعية ، السياسية ، والدولية . وحتى ذلك الوقت لم تكن المطالبات للإستقلال الذاتى من الأقليات تمثل بالضرورة رغبة فى الانفصال أو إقامة أمة منفصلة . أصبحت المؤتمرات الأجنبية مجالات للأقليات الأجنبية للتنفيس عن المظالم التى عبرت عنها المؤسسات التمثيلية فى الإمبراطورية . ويحتمل أن يكون التدخل الأجنبى قد زاد من تفاقم التوتر بدلاً من حله . كانت الجماعتين الساعيتين للإستقلال الذاتى (الأكراد والأرمن) متركزتين فى الأناضول . ورغم أن كثيراً من اليونانيين عاشوا هناك . فإنهم كانوا ينعمون بدولتهم المستقلة بالفعل . أما البلقان فكانت تنفصل عن الامبراطورية تحت دعوى الجامعة السلافية الموجهة من روسيا .

ومع أن العثمانيون اللامركزيون من كل الجماعات العرقية تعاونوا للبحث عن صيغة وطنية جديدة ، فإن أغلب القادة العثمانيين أظهروا رد فعلى دفاعى . وبجانب هذا فإن القوميات الإنفصالية أيقظت=

= قومية تركية . وتبعت مطالب الأقوام التابعة بالقومية مطالب الأتراك أنفسهم بها أيضاً . وجلبت سياسة التتريك Turkification والتركية Turkism تأكيداً ذاتياً Self - assertion كردياً وإسلامياً عربياً أكثر نشاطاً .

ورغم أن عبد الحميد قد نجح فى سياسته الإسلامية الداعية إلى إيقاظ المسلمين خارج الإمبراطورية (الجامعة الإسلامية) فإنه مع هذا خلق معارضة داخلية منذ مستهل حكمه عندما خدع العثمانيون الجدد وحطم آمالهم الدستورية والبرلمانية . وفوق هذا فإن مدارسه الجديدة ، تآكل الامبراطورية ، والتحرش بالأجانب أصحاب السيطرة المالية ، ساهم هذا كله فى البحث عن حلول جديدة لمشاكل الإمبراطورية . واستمر الطلبة ومثلهم المدرسون فى المدارس الجديدة فى قراءة أعمال العثمانيين الجدد ، التى هُرِبَتْ من الخارج حيث كان المنفيون يواصلون طبعها .

بدأت حركة تركيا الفتاة Young Turk بين غير الأتراك من أهالى الإمبراطورية . ويبدو أن الأسم قد اشتق من Lajeune Turquie ، التى تأسست فى فرنسا بواسطة المارونى اللبنانى خليل غانم . فى عام ١٨٨٩ تأسست جمعية سرية فى المدرسة الحربية من أجل خلع عبد الحميد ، لكنها لم تستمر سوى عامين فقط . وكان من بين مؤسسيها أكراد والبان . كذلك فإن الحركة الثورية كسبت أرضاً عندما أثارت المذابح الأرمنية مخاوف التدخل الأوروبى . فى ١٨٩٥ ـ ١٨٩٦ قامت ثورات أرمنية فى زيتون Zayton نتيجة للمذابح التى تعرض لها الأرمن فى ساسون Sassun (بتليس) ، طرابزون ، وقان وتم قمعها بواسطة تنظيمات (الحميدية) من الفرسان . تزايدت محاولات الجماعات السرية لقلب نظام عبد الحميد فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر برغم محاولات عبد الحميد إستمالة المحتجين على سياساته . تأسست جمعية (الإتحاد والترقى) على هدى أفكار الفيلسوف الوصفى (كانت) Comte . تزايد السخط على عبد الحميد بعد ١٨٩٧ بسبب مشاكل الامبراطورية المتنامية . فى ١٩٠٢ عقد مؤتمر فى باريس ظهرت فيه فكرتان رئيسيتان بين الجماعات المنشقة على عبد الحميد ـ تبنى الحزب القومى العثمانى بقيادة البرنس صباح الدين نجل أخت عبد الحميد (سنيحه سلطانه) ، ووالده داماد محمود جلال الدين فكرة دولة غير مركزية فدرالية تحت ملكية دستورية باعتبارها ترضى آمال كل الأقليات بما فيهم الأرمن . وانضوت الجماعة الأخرى تحت أفكار (أحمد رضا) الذى كان قد أسس وصديقه خليل غانم عام ١٨٩٥ جريدة (مشورت) فى كل من تركيا وفرنسا . فضل (رضا) حكومة مركزية وقاوم الأكثرية العثمانية الغير مسلمة فى لقاء ١٩٠٢ . فشل المؤتمر بسبب عدم الإتفاق لكن كل القوى المعارضة لعبد الحميد استمرت فى جهودها .

فى المقابل فإن (عبد الحميد) استخدم أساليب القمع والتهديد والترغيب والتجسس ـ والرقابة وغيرها من الأساليب البوليسية محولاً بلاده إلى معتقل كبير فيما وصف فى المؤلفات التى تعالج الفترة (بالإستبداد الحميدى) . وقد جلب (عبد الحميد) على نفسه بهذه السياسة سخط الكثير من الجماعات والشخصيات المعارضة التى اتخذ البعض منها بلاداً مجاورة مقاراً للمقارمة ضد حكمه البوليسى . وتعددت التنظيمات التى تسعى لإسقاطه حتى تم ذلك فى عام ١٩٠٩ على يد (الاتحاد والترقى) .

أما موقف بريطانيا من مسألة رفض الحكومة المصرية تسليم (الداماد محمود) إلى السلطان عندما لجأ إلى مصر مع ما هو معروف من أنها حكومة دمى يحركها المعتمد البريطانى كيف يشاء فلم يكن يعدو أن يكون نوعاً من الإيقاع بين السلطان ومتبوعه .

— Lois Aroian (The Modern Middle East and North Africa) - Ibid . PP.. 111 - 116 .

ـ راجع حاشية ١٨٤ من حواشى عام ١٩٠٠ .

ولما كان رابع عشرى أكتوبر من السنة ،أى سنة تسعمائة وألف ، جاءت الصحف من ديار الإنجليز مفعمهة بأخبار وصول الحملة التى كانت سيرت بها دولة الإنجليز لإقامة التخوم بين السودان ومملكة الأحباش فى أعالى (صوبات) عند بحيرة رودلف ،وكان المقدم على هذه الحملة إثنين من كبار العسكر الإنجليزى وكانا قد رافقا الكلونيل(مكدولند)(٢١٨) فى سخرته(٢١٩) إلى بلاد الأحباش عامى ثمانية وتسعين ، وتسعة وتسعين وثمنمائة وألف .وكانت هذه الحملة قد سارت من(أم درمان) يخفرها طايفة من الجنود السود ، وهى تتألف من عشرة هجن ، وعشرة بغال ، ومائة وأربعين حمارا ،يقودها عشرين رجلا . فلما كان شهر ديسمبر عام تسعة وتسعين ، ركبت الحملة الباخرة (مطاى)أحد البواخر النيلية تجر(٢٢٠) بعض الزوارق ، وظلت تمخر بهم فى النيل مدة ثلاثة أسابيع ، حتى نزلت فى مكان عند المراصد الأخيرة للجنود المصرية . فأنزلت الحملة هناك وعادت الباخرة بالزوارق ، لأن إنخفاض مياه النيل حال دون مسيرها ، فاضطرت الحملة إلى البقاء فى المرابط أياما كثيرة حتى إستراحت دوابها ، ثم عادت إلى السير . فمشت ثمانية أيام متوالية دون إنقطاع فى مستنقعات خف ماؤها ، وقد نزلت بعض قبائل (الدنكة) (والنوير)على جوانبها . وتلك(٢٢١) اليوم التاسع بلغت الحملة جهة(الناصر) ،وسارت منها شرقا بعض أسابيع بين سهول مترامية الأطراف ومستنقعات جافة من الماء ، تضرب(٢٢٢) فى تلك السهول قبائل(الأنواك)وهم أرقى من(الدنكة) وأذكى وأكثر عددا ، وأهلها يملأون جوانب النيل . قيل فلما رأوا الحملة مقبلة عليهم لم يتحركوا وجعلوا يرقبونها دون أن يتعرضوا لها بشر .

---

(٢١٨) مكدولند = مكدونالد ـ قراءة ترجيحية .

ـ عن اتفاقية الحدود السودانية ـ الحبشية راجع حاشية ٨١ من حواشى عام ١٨٩٩ .

(٢١٩) سخرته = سفرته ـ قراءة تصحيحية .

(٢٢٠) تجر = تجرها ـ قراءة ترجيحية .

(٢٢١) وتلك = وفى ـ قراءة ترجيحية .

(٢٢٢) تضرب = وتضرب ـ قراءة ترجيحية .

وبينما الحملة فى طريقها إذ وجدت فى إحدى الجزر المستجرة[٢٢٣] باخرة (مارشان) صاحب حملة (فشودة) الفرنساوية المسماة (فيد هرب) جانحة فى تلك الجزيرة . وقد هجر الجزيرة أهلها من يوم رست فيها تلك الباخرة لتشاؤمهم منها ، ولم يقتربوا منها خوفا من شرها . ومن تلك الجزيرة سارت الحملة إلى(بارد) ، وحين نزولها فى (الشغاب) أرسل إليها قائد العساكر الحبشية النازلة هناك رسولا يدعو مقدم الحملة إلى زيارته والبقاء عنده أياما . فسار مقدم الحملة ومن معه صاعدا تلك الجبال مع المشقة والعناء الكثير . قالوا ولو لم يساعدهم جماعة الأحباش على صعودها لإستحال الأمر عليه ، وقد سقط من نوقه وحميره فى الأودية كثيرا فهلكوا . وبقيت الحملة فى ضائقة[٢٢٤] قائد الجيوش الحبشية زهاء شهرين ، ثم سارت من هناك جنوبا . وما هى أن تقدمت قليلا حتى فاجأها المطر الهتاف[٢٢٥] ، وقام فى وجهها إمتلاء البرك والمستنقعات ، فعسر عليها المسير وتعذرت الحركة وهلكت الدواب وقلت المحامل . فاضطرت إلى العودة غربا إلى جهات (صوبات) . وما[٢٢٦] بلغتها حتى هلك منها مائة حمار . وكانت الحملة قد رأت عند نزولها على مقربة من تلك الجزيرة التى جنحت فيها باخرة مارشان ، أن جماعة الاحباش يتحينون الفرص لاستخلاص الباخرة (فيدرب)من مغرزها ويسيروا بها إلى عاصمة الأحباش ، وقد برز لهم أمر الناجوسى بنقلها . قالوا وقبل أن تبارح الحملة مفرزها[٢٢٧] ذلك كان الحبشان قد انتشلوا الباخرة شطرين ، وطول كل منهما ثلاثون قدما ، وقد جروها فى الوحول والمستنقعات بكل عناء وشدة . وقد بلغهم أن النجوسى يهتم كثيرا بنقل تلك الباخرة إلى أديس ابابا . قلت . ولم

---

(٢٢٣) المستجرة = المستجدة ـ قراءة إجتهادية .
(٢٢٤) ضائقة = ضيافة ـ قراءة ترجيحية .
(٢٢٥) الهتاف = الغزير ـ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى .
(٢٢٦) وما = وما أن ـ إضيفت الكلمة ليستقيم النص .
(٢٢٧) مفرزها = مغرزها ـ قراءة تصحيحية .

تكن جماعة الوزراء يعلمون من أمر إرسال تلك الحملة إلى بلادالحبشان شيئا ، ولا ما يقصده صاحب السياسة الإنجليزية من تعيين تلك التخوم ، فقد كانت المخابرة بين الناجوسى وحاكم السودان جارية في الخفاء .وكتب صاحب سياسة الإنجليز ثانى(٢٢٨) إلى الحاكم تباعا فى شأن التخوم وغيرا(٢٢٩) . وكان إلي هذا الحين قد قدم الكولونيل (هارنجتون)(٢٣٠) معتمد الإنجليز فى عاصمة الحبشان إلى القاهرة فى مهمة سرية . فأقام بها أياما ضيفا على لورد كرومر ، والناس يتساءلون عن سبب مقدمه بعد وصول أخبار تلك الحملة . فلما كان خامس عشرى أكتوبر من السنة برح القاهرة إلى السويس ، وكان يحمل من بطريرك القبط المتاصلين(٢٣١) خطابا إلى النجوشى لا يعلم أحد سر مافيه .

---

(٢٢٨) ثانى = استبعدت الكلمة .

(٢٢٩) وغيرا = استبعدت الكلمة .

(٢٣٠) هو الكولونيل چون إيان هارنجتون John Ianc Harrington قنصل بريطانيا فى زيلع ـ إعتمدته بريطانيا معتمداً لها فى أديس أبابا وعهدت إليه ببحث مسألة الإدعاءات الحبشية في السودان ، مع رعاية حقوق مصر فى وادى النيل ـ أشار على بلاده أن تحقق إنجاز عسكرياً كبيراً ضد المهديين قبل التفاوض مع منليك بخصوص حدود السودان . تأكدت صحة توقعات هارنجتون عندما قامت جيوش منليك بالتوسع ناحية (المتمة) فى الوقت الذى كان القتال يدور فيه بين القوات المصرية والخليفة عبدالله التعايشى ـ كذلك فإن قوات منليك احتلت (بنى شنقول) قبل سقوط أم درمان فى سبتمبر ١٨٩٨ ـ إستجابت الحكومة البريطانية لنصيحة هارينجتون ولم تشرع فى التفاوض مع منليك حول الحدود السودانية ـ الحبشية قبل أبريل ١٨٩٩ عندما كانت دولة المهديين قد سقطت تماماً .

ـ السيد على أحمد فليفل (القوى الخارجية والإتجاهات الإقليمية فى السودان) ـ مرجع سبق ذكره ـ ص ٨٩ .

(٢٣١) المتاصلين = فى مصر ـ عدلت الكلمة ليستقيم المعنى ـ قراءة إجتهادية .

ومع هذا فإن ما جاء بالنص يفيد أن المعتمد البريطانى فى الحبشة (هارينجتون) كان يحمل مراسلة إلى (منليك) من بطريرك الأقباط فى مصر ـ ولايتصور أن تكون هذه المراسلة متصلة بالكنيسة الحبشية . فقد كان هناك نظام ثابت تتبع بمقتضاه الكنيسة الحبشية الكنيسة القبطية فى مصر ، وبالتالى فلا يقبل أن يكون (هارنجتون) هو رسول البطريرك القبطى إلى منليك ـ وإنما المقبول أن يكون هذا الرسول هو أحد رجال الدين من مصر أو الحبشة ـ يبقى إذن الإحتمال الثانى ـ وهو أن يكون للكنيسة الأرثوذكسية والأنبا كيرلس الخامس دور فى المفاوضات البريطانية ـ الحبشية الخاصة بالحدود بين السودان والحبشة والتى كان هارينجتون يمثل بريطانيا ـ فإن صح ذلك فإن هذا يعنى أن الكنيسة الأرثوذكسية كان لها دور سياسى يتعلق بالعلاقات البريطانية ـ الحبشية ، والعلاقات السودانية ـ الحبشية ـ والعلاقات المصرية ـ الحبشية فى أواخر القرن التاسع عشر .

ومن غريب ما وقع فى هذا اليوم أيضا فى بلدة (نبروه) إحدى بلاد الغربية أن جارة سألت جارتها قليلا من العسل فلم تعطها ما سألت ، فأغضب ذلك تلك الجارة وأقسمت الأيمان المغلظة أن تحرق كبد جارتها التي لم تعطها سؤلها . فلما كان عصر ذلك اليوم خرجت طفلة صغيرة لصاحبة العسل تدرج فى الحارة ، فانقضت عليها طالبة العسل واختطفتها ، وألقت بها فى مرحاض دار خربه ، فلما أمسى الليل طلبت صاحبة العسل إبنتها فلم تجدها ، فدارت تصيح وتولول وأبلغت صاحب الشرطة ، فجعل يبحث وينقب حتى وجد الطفلة فى ذلك المرحاض الذى لم يبعد عن بيت أمها إلا بضع أذرع فانتشلها جثة هامدة . فقبض على تلك الشقية فاعترفت بجرمها وقالت (إنى أقسمت أن أحرق كبد أمها) . ففعلت وراحت الطفلة شهيدة الحقد . وكأننا بتلك القاتلة تعرف قول الشاعر .

(وإنمـــا أولادنـا بيـننـا أكبادنا تمشى على الارض)

وكانت إلى هذا الحين لم تنته الأزمة الواقعة بين (الترنسفال) ودولة الإنجليز . وكانت الوقائع الحربية بين (البوير) والجنود الإنجليزية لم تقف عند حد بعد ، رغما مما فعلته دولة الإنجليز من آيات تعبئه من ايلجيوش(٢٣٢) وحملها من ديارهم إلى تلك الأطراف البعيدة ، وكانت أخبارها تأتى من جانب معسكراتهم ندفا لا تبرد غليلا . وكان كرام الفرنسيس والألمان والنمساويين وغيرهم من أهل المروءة والنجدة يذهبون إلى (الترنسفال) متطوعين لمقاتلة الإنجليز ، لأنهم يعتقدون أن حرب الإنجليز للبوير حرب ظالمة جائرة ، كلها طمع وجشع .فلما كان سابع عشرى أكتوبر دخلت القناة سفينة نمساوية آتية من (لورنزو مركيز)(٢٣٣) وذاهبة إلى (تريستا) . فلما ألقت مرساها أمام بورسعيد ،

(٢٣٢) أيات تعبئة من ايلجيوش = تعبئة الجيوش ــ قراءة ترجيحية .
(٢٣٣) الاسم السابق لمابوتو Maputo عاصمة موزمبيق أكبر وأهم مدينة فيها . تقع فى الجزء الأقصى الجنوبى الشرقى من موزمبيق ، بها ميناء طبيعى كبير على خليج ديلاجوا Delagoa على=

وكـان فى الـمـيناء بارجة إنجليـزية حـربيـة ، جعـل أولئك الـمـتطوعين وعـددهم أربعمائة أو يزيد يهزأون ويسخرون بمن فى تلك البارجة الإنجليزية من الجنود ، حتى أتمت الـباخـرة شحنتـهـا . فلمـا تحـركت للخروج من الميناء رفعت راية ترنسفاليـة كبيـرة ، ثم رفعت أخرى فرنساوية ، وإيطاليـة ، وألـمانيـة ، وهولاندية ، ونمـسـاوية . وتسلق جمـهور منهم صوارى البـاخرة ، وأخذوا يمـوجون فى الهـواء رايات صغيرة ترنسفاليـة ، وفرنساوية ، وأمريكيـة ، وراية خضـراء ، دلت على أن بينهم جماعة من أهل (إيرلاندة) . وظلوا على هذا حتى رفعت الباخرة مرساها ، وسـارت على مـقربة من تلك البـارجة الإنجليـزية . وإذا بهم قـد رفعـوا مـلاءتان كـبيرتان من الكتان الأبيض على أحداهمـا هذه العبـارة بأحرف مكبـرة(مائتين وخمسين ألفا ضد أربعين ألفا)(ماجر سفونيستين) (ووسيبو تكوب) . وعلى الأخرى بأحرف أكبر(إدفنوا موتاكم) .وكـلا العبـارتين بالإنجليـزية . ثم جعـل القوم ينشدون أناشيـدهم الوطنية ، حتى جاوزت سفينتهم البـارجة الإنجليـزية . وقـد إمـتـلأ الفـضـاء بأصـواتهم . فـهـرع الناس إلى الـمـيناء من كل فج عـمـيق ، وتزاحـمـوا على الشـاطئ ، وتسلقـوا الـسـفن والـزوارق ، وضج أكـثـرهـم ضـجـيج الإسـتـحـسـان . وصـاح بعض العـامـة والسـوقـة (ليـحـيـا البـوير ، لتـحـيـا الترنسفـال)[٢٣٤] . ونادى بعض ضـائعى العقـول (نصر الله الإسـلام ، أهلك الله الكفـار) . واشتـد الصيـاح وارتفـعت الأصوات إلى عنان السمـاء ، وباخرة القـوم

= المحيط الهندى ؛ وتعد أحد الموانى الرئيسية فى جنوبى أفريقيا . أسست مابوتو عام ١٥٤٤ بواسطة التاجر البرتغالى لورنزو ماركيز Lourenco Marques ، لكنها ظلت مستعمرة صغيرة حتى حث بناء السكة الحديد فيها السكان إلى التدفق عليها بعد ١٨٩٥ . فى عام ١٩٠٧ حلت المدينة محل موزمبيق كعاصمة لما كان يسمى فى ذلك الوقت أفريقيا الشرقية البرتغالية Portuguese East Africa ـ عندما أصبحت موزمبيق مستقلة عام ١٩٧٥ أصبح إسم لورنزو ماركيز هو مابوتو .

ـ السيد على أحمد فليفل (مستعمرة الرأس البريطانية ١٨٥٣ ـ ١٩١٠) رسالة دكتوراه غير منشورة ـ معهد الدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٨٣ .

— Lexicon Universal Encyclopedia - vol. 13 - PP., 142 - 143 .

ـ انظر الخريطة ملحق (١٣) .

(٢٣٤) عن حرب البوير ـ راجع حاشية ٣٣ من حواشى عام ١٩٠٠ .

سائرة على مهل حتى خرجت من البوغاز . وأحس المتجمهرون بالحركة على ظهر البارجة الإنجليزية ،فأخذتهم رجة الخوف وظنوا أنهم مأخذون[٢٣٥] بمدافعها .فتراجعوا مسرعين ، وتدافعوا بالمناكب ، فسقط بعضهم فى الماء ، ولكنهم انتشلوا . وما هى إلا لحظة حتى لم يبق منهم هناك أحد .وجاء خبر ما جرى إلى عميد الإحتلال ، وقائد العساكر الإنجليزية . قيل فأكبراه ولم يظهرا من عملهما شيئا ، وأطبقا الجفن على هذا القذى[٢٣٦] .

وأتفق أن إبنة من بنات السوقة دخلت صبح يوم سابع نوفمبر من السنة منزلا (بخطة البغاله) لمن يدعى (عبد المقصود)أفندى لشراء حمام ودجاج . فلما صارت خلف باب الدار رأت عاملا مذبوحا ذبح الشاة ، فارتعدت وصاحت بأعلا صوتها واستغاثت . فهب السوقة من حوانيتهم وتزاحموا على باب البيت ، وترامى الخبر إلى مأمور قسم الشرطة فأقبل مسرعا ومعه طبيب القسم ونفر من الشرطة . ودخلوا المكان فوجدوا الغلام ملقى خلف الباب مقتولا بطعنة في عنقه نجلاء ،وهو فى نحو الثانية عشرة ،ولم يسمع فى البيت حركة . فصعدوا إلى الدور الأعلى فوجدوا امرأه صاحب الدار واسمها(نبيهة)وجاريتها السوداء مقتولتين ، وعلى المرأة جميع حليها وجواهرها . يفتش[٢٣٧] الدار فعثر فى

---

(٢٣٥) مأخذون = مأخوذون ـ قراءة تصحيحية .

(٢٣٦) يرى شاروبيم أن إنتصار الشعوب الأوروبية لكفاح (البوير) ضد الإنجليز ـ ومساعدتهم لهم (البوير) فى حربهم العادلة نوع من (القذى) الذى أطبق الإنجليز جفونهم عليه ـ كذلك فإنه يرى أن إبتهاج المصريين الذين يسميهم فى عمله (ضائعى العقول) بمظاهرة ركاب السفينة النمساوية من الأوروبين ضد الإنجليز أيضا (قذى) أطبق (كرومر) وقائد جيش الاحتلال جفونهما عليه .
ولست أدرى لماذا يصور شاروبيم هذا المسلك من جانب المصريين هذه التسمية الكريهة وهو يعلم أن ابتهاج المصريين لأى ضرر يحيق بالإنجليز إنما هو إبتهاج الناقم على محتل يسوم بلاده القهر والعذاب ويحتل أرضه ويشارك بلاده فى إدارة السودان المصرى ، ويجثم على أنفاس الشعب المصرى المقهور فيكتمها ـ لماذا إذن يستكثر شاروبيم على هذا الشعب المقهور تعبيره عن فرحته ـ أو قل شماتته ـ فى عدوه . هل كان المفروض أن يستنكر الشعب المصرى فعال شعوب هذه البلاد الأوروبية وهى تعبر عن امتعاضها لقتال الإنجليز لأهل جنوب أفريقيا؟ .

(٢٣٧) يفتش = ففتش ـ قراءة تصحيحية .

مرحاضها بلطة(٢٣٨) حادة جدا ، قالوا وهى التى إستعملت فى القتل . وشوهدت فى غـرفـة القـتـيلة بركـة من الـديم(٢٣٩)وآثار أيدى وأصـابع ملوثة بالدم على الكراسى والمقاعد التى بالغرفة وخارجها . وتحقق أن الغلام المقتول قد جاهد جهادا عنيفا للغاية قبل أن يتمكن القاتل من قتله . ونظر فى حوش الدار فى زاوية كثيرا من الحمام والفراخ ولطخ الدم فى كل مكان . فطير الخبر مأمور القسم بما عاين إلى محافظ البلد ووزارة الداخلية . وتفشى الحادث بين السوقة والعامة ونقله أصحاب صحف الأخبار ، فكان له وقعا سيئا فى النفوس . وبرز الأمر إلى صاحب الشرطة مشددا بالقبض علي الفاعل ، فأزكوا عليه العيون وقعدوا له بالمراصد ، حتى علموا أن إنسانا يدعى(أحمد وهبى) رآه الناس خارجا من تلك الدار صباح أمس ، فألقوا القبض عليه وثبت أنه كان بينه وبين تلك الأرملة القتيلة نزاع أمام المحاكم على ميراث . فزادت المظنة به وألقوه فى غياهب السجن ، وقبضوا على غيره أيضا .وظل التحقيق أياما حتى إعترف من يدعى (خليل على) أحد المقبوض عليهم ، بأنه ذهب مع (أحمد وهبى)المتهم الأول إلى منزل (أحمد عبد الهادى) النجار ببولاق القاهرة ، حيث بات ليلته تلك ، وبات هو عند (أحمد عبد الجواد) غفير وابور (الخواجة ينى) . واجتمع الثلاثة صباحا ، فأخذ (عبد الهادى) سكينا و(أحمد وهبى) بلطة ، وهى التى وجدها أصحاب الشرطة فى المرحاض ، وساروا إلى ديوان المحافظة ، فلبث (عبد الهادى) خارج الديوان ، ودخل الآخران لحظة ثم خرجا ومعهما رجل إسمه(محمد خير الله) الأومباشى ، وأشاروا عليه بانتظارهم فلم يعودوا . ووصف ملابس (عبد الهادى) المتهم الأول التى كانت عليه يومئذ ، فإذا هى وجدوها مخبأة فى بيته مع سكين ملوثة بالدم . واعترف(أحمد وهبى) أنهما باتا عنده ليلتهم تلك . وظل أصحاب الشرطة يستنطقون الجناة ، حتى ثبتت الجناية

---

(٢٣٨) بلطة = على بلطة ــ أضيفت الكلمة ليستقيم النص .

(٢٣٩) الديم = الدم ــ قراءة تصحيحية .

عليهم ، فحكم عليهم جميعا بالأشغال الشاقة المؤبدة (يلى هذا حادثة مدام ميرس الذى[٢٤٠] معها خادمها) .

وجاء الخبر إلى وزارة الحرب بالقاهرة من حاكم (سواكن) فى ثالث عشرى نوفمبر من السنة بنزول الجراد على(طوكر) وما والاها ، وأكله لكل نبات وزرع على وجه الارض ، وقد أكل ستة عشر ألف فدان أذرة فى ظرف يومين إثنين ، فأبلغت الوزارة خبر ذلك الحادث إلى وزارة الداخلية وقصر الإمارة ، واهتمت له إهتماما عظيما .وبرز الأمر إلى حاكم (سواكن) باتخاذ الحيطة القوية ، ومساعدة أصحاب الزورعات بكل ما فى الطاقة . وسيروا إليه قدرا من الحبوب والغلة لتوزيعه على المصابين بهذه النكبة الشديدة ففعل . وكان الناس يتخوفون من إنتشار هذه الآفة المهلكة في أنحاء السودان الشرقى ،وربما تعدت إلى الجهات الأخرى ،فجعلوا يراقبون أنبائها فى كل ناحية . حتى جاء النبأ بقيام الجراد كله إلى جهة الجبال شرقا ، وقد حجب ضوء الشمس عن تلك الأطراف فى رجوعه أربعة أيام كاملة . قيل وظن الحبشان أن هذه الضربة ناجمة عما إرتكبه (الصوماليون) من الجرايم وسفك الدماء وإهلاك الحرث والنسل ، وأن الله سبحانه وتعالى يلطف[٢٤١] بعباده المساكين إلا إذا عاقبوا الصواملين[٢٤٢] .فبرز أمر (الرأس ماكونين) بعد ذهاب ذلك الجراد بالقبض على (الأوغاش) وهو الزعيم الأكبر لقبائل الصومال ،وستين شيخا من مشايخهم ليحاكموا عما اقترفته قبائلهم من الجرائم والمحرمات . وجاء أمر الناجوسى إلى (الرأس ماكونين) بإلزام الصوماليين بدفع التعويض للأهالى عما لحقهم من الخسائر بسبب الفتنة ، وأن يظل (الأوغاش) والمشايخ معتقلين فى (هرر) حتى يأمن الأحباش جانب الصوماليين وترجع السكينة إلى نصابها ، فإذا عادوا إلى الفتنة وشن الغارة تعاقب الرهاين . فشدد (الرأس ماكونين) على تأديب الرهاين ، وفى

(٢٤٠) الذى = التى ــ قراءة ترجيحية .
ولايفهم لماذا ختم شارويبم حادثة القتل الواردة فى ص ٦٥٨ ــ ٦٥٩ بهذه العبارة ــ كما أنه من غير الواضح ما إذا كان يقصد أن يقول (التى قتل معها خادمها) أم (التى تشاجر معها خادمها) فكلا الجملتين يصلحان ليتسق النص) .

(٢٤١) ينطف = لايلطف ــ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

(٢٤٢) الصواملين = الصوماليين ــ قراءة تصحيحية .

تعقب أصحاب الفتنة ، وأزكى عليهم العيون ، فتفرقوا ولازوا[٢٤٣] إلى الإختفاء .
وجاء الخبر بذلك إلى وزارة الحرب بالقاهرة وإلى وزارة الداخلية وقصر الإمارة .

---

(٢٤٣) ولازوا = ولاذوا ـ قراءة تصحيحية .
إن قضية التوسع الحبشى بمنطقة الصومال الغربى هى قصة إستعمار أمهرى مسيحى لمنطقة من قلب أفريقيا فى وقت كان الإستعمار مقصوراً على القوى الأوروبية . ومسألة إشتراك الحبشة فى (مائدة اللئام) هى مسألة الأسلوب الأوروبى فى تحقيق المصالح الاستعمارية . لقد استعمر الملك منليك حاكم شوا الصومال الغربى عام ١٨٨٧ . وعلى مدى عشر سنوات من ذلك التاريخ ساحت قوات الحبشة فى قرى ومراعى أوجادين جنوب (هرر) تقتل وتسرق وتنهب .
بعد عام واحد من احتلال الحبشة للصومال الغربى ـ وفى عام ١٨٨٨ اتفقت بريطانيا وفرنسا فى المعاهدة الأنجلو ـ فرنسية على عدم إحتلال (هرر) أو وضعها تحت الحماية من جانب أى منهما . لكن هذا الإتفاق إذا كان قد كف أيدى الدولتين عن التوسع فى المنطقة فإنه مهد لمنليك أن يثبت أقدامه فى هرر التى كان قد وصلها فى العام السابق .
فى تفسيره لمعاهدة أوتشيالى (مايو ١٨٨٩) ضمن منليك فى خطابه الدورى عام ١٨٩١ تحديداً لإمبراطوريته شمل بلاداً من شرق السودان ، أريتريا ، الصومال الفرنسى والإيطالى والبريطانى وبلاد الجالا ـ كذلك فإنه أدخل أوجادين وقبائلها المسلمة فى إطار إمبراطوريته التوسعية .
كان رد إيطاليا على هذا الطموح الحبشى هو عقد معاهدة مع زعماء أوجادين اعترفوا فيها بحمايتها لهم ـ كذلك فإنها (إيطاليا) حصلت على إعتراف بريطانى (٢٤ مارس و١٥ إبريل ١٨٩١ ، ٥ مايو ١٨٩٤) بنفوذها فى الحبشة وأريتريا والصومال الإيطالى وهرر وأوجادين ومناطق من النيل الأزرق .
وكان هذا كله يسبب اعتراضاً فرنسياً ، حيث أن فرنسا فسرت هذه الترتيبات فى إطار محاولات بريطانيا إبعادها عن وادى النيل وعلى أنها تشكل خرقاً للإتفاق الأنجلو فرنسى القاضى بعدم الإعتداء على هرر .
إستغلت الحبشة هذه الإختلافات السياسية بين فرنسا وبريطانيا وراحت تشدد من قبضتها على أوجادين فى محاولة للتنافس مع إيطاليا . فاحتلت (بيوكابويا) وسيطرت على قبائل (اسحق) و(جوابوس) و(هبر أول) وضربت التجمعات القبلية فى (هود) و(أوجادين) .
وكانت بريطانيا تلعب فى ذلك الوقت لعبة مزدوجة ـ فهى توافق إيطاليا على نفوذها فى الحبشة وأريتريا والصومال الإيطالى وهرر وأوجادين وفقاً لمعاهدة أوتشيالى ١٨٨٩ ، بأمل الوقوف فى وجه النفوذ الفرنسى فى المنطقة ، وتهديد الأحباش الذين يهددون مستعمرتها فى الصومال ـ كما كانت تأمل فى نجاح المقاومة الصومالية من التصدى للحبشة فى أوجادين حماية لمستعمرتها الصومالية أيضاً ـ والتى كانت (بريطانيا) تدرك نية الحبشة فى التوسع تجاهها .
كانت فرنسا هى الشبح الذى يقض مضاجع بريطانيا فى وادى النيل . ومن هذا المنطلق كانت تصدر فى سياستها . فوفق بروتوكول (٥ مايو ١٨٩٤) الذى حدد حدود الصوماليين البريطانى والإيطالى ، والذى سيطرت فيه إيطاليا على الساحل بين الصومال البريطانى ونهر جوبا ـ إتفقت بريطانيا وإيطاليا على حرية التجارة فى أوجادين ورعاية مصالح سكانها وقبائلها . كان هذا الدعم للنفوذ الإيطالى فى الحبشة وأوجادين والصومال يستهدف حجز فرنسا وإبعادها عن الوصول إلى هذه المناطق وأيجاد نفوذ لها فيها . واستمراراً فى نفس السياسة فإن بريطانيا عقدت مع ليوبولد ملك البلجيك إتفاقية ١٨٩٤ التى قضت بتأجير بحر الغزال فيما بين خطى طول ٣٠ و٢٥ درجة شرقاً ، وخطى عرض ١٠ و٤ درجة شمالاً ، ومنطقة أخرى على بحر الغزال إلى ليوبولد فيما سمى بحاجز لادو Lado Enclave . وكانت هذه الإتفاقية بهدف إغلاق الطريق أمام مشروع فرنسى لاختراق أفريقيا عرضاً بين جيبوتى والسنغال ومنع نفاذها إلى وادى النيل =

قيل فسير الأمير كتبه إلى (الرأس ماكونين) يهنئه بما فعل ، وقيل بل الذى سير تلك الكتب هو السردار (ونجت باشا) . ثم جاء النبأ من (الأبيض) عاصمة كردفان بتفشى الحمة(٢٤٤) بين الجنود المصرية النازلة هناك ، واشتدادها من يوم إلى يوم ، ووصول المؤن والأدواء تباعا ، حتى أشار الأطباء بسرعة إنحدار أولئك الجند إلي القاهرة ، فرارا من ذلك الداء الوبيل . فانحدروا جماعة خلف جماعة . وبلغوا أسوان وقد أنهكهم المرض ، وفعل فيهم فعله الشديد . فما هم أن نزلوا بأسوان حتى داهمهم الموت ، فمات منهم خلقا كثيرا . وبلغ من بقى بالقاهرة(٢٤٥) .فأنزلوهم فى مستشفيات الجبل الأحمر ، وقلعة الجبل ، حتى نقهوا وتعافوا .

=وفى مقابل إيقاف مطامع الحبشة فى الضفة اليمنى للنيل الأزرق ومنعها من التعاون مع فرنسا الذى كان قد بدأ يؤتى ثماره فى نهايات تسعينيات القرن ــ فإن بريطانيا عقدت فى أول سبتمبر ١٨٩٦ معاهدة مع (أحمد مورجان) أحد مشايخ قبيلة أوجادين لحمايته وذلك بهدف الضغط على الحبشة وكوسيلة للمقايضة (أوجادين فى مقابل كف المطامع الحبشية السابق الإشارة إليها) ، ودليل ذلك أن بريطانيا تنازلت عن حمايتها هذه لأوجادين بعد أقل من عام واعترفت رسمياً بوجود الحبشة فيها مقابل إيقاف الحبشة للتعاون مع فرنسا فى وادى النيل .

وهكذا فإن بريطانيا فى سبيل منافسة فرنسا فى وادى النيل وتعطيل تعاون الحبشة معها ، ولتحقيق الهدف الإستراتيجى البريطانى بالسيطرة على مياه النيل ــ تركت القبائل الصومالية فى أوجادين تتعرض لأبشع الهجمات الحبشية دون القيام بأى عمل عسكرى يوقف الحبشة .

وتسابقت الدولتان (بريطانيا وفرنسا) لخطب ود منليك ــ فكانت بعثة (رينيل رود) إلى الحبشة فى ٢٨ أبريل ١٨٩٧ ــ وتزامنت معها بعثة ليون لاجارد (ديسمبر ١٨٩٦) .

فى المفاوضات بين (رود) و(منليك) تم التضحية بمصالح شعب أوجادين ــ فتنازلت بريطانيا عن المثلث الواقع بين (بيوكابويا) و(جلديسا) و(مكانيس) وانتقلت نتيجة لذلك بطون من قبائل (عيسى) إلى الحماية الحبشية . وتركت القبائل الصومالية فى أوجادين للأعداء التقليديين الوراثيين (الحبشة) . واعترفت بريطانيا بالوجود الحبشى فى الأوحادين ــ وفقد أهل الصومال الغربى تماماً أى حماية أمام العسف الحبشى ، وضحى بهم على مائدة المصالح الاستعمارية فى ١٨٩٧ .

هكذا فإن مسألة التنكيل بالصوماليين على يد الرأس (ماكونين) حاكم هرر لم تكن بسبب الجراد الذى هاجم المنطقة كما يذهب شاروبيم ــ بل إنها كانت خطة إستعمارية يسيطر من خلالها الأحباش على أراضى لايستحقونها أعطيت لهم ممن لايملكونها (إنجلترا) .

ــ السيد على أحمد فليفل (القوى الخارجية والإتجاهات الإقليمية فى السودان) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٣٨ ــ ٥٣ .

ــ رأفت غنيمى الشيخ (أفريقيا فى التاريخ المعاصر) ــ مرجع سبق ذكره ــ ص ٥٥ ــ ٥٦ .

(٢٤٤) الحمة = الحمى ــ قراءة تصحيحية .

(٢٤٥) بالقاهره = القاهرة ــ قراءة ترجيحية .

ومن العجب أن قد كثرت الجنايات لهذا العهد ، وتفشى القتل والذبح وقطع الأعناق من رشيد ، فالإسكندرية ، إلى الصعيد الأعلى . فلا يمر يوما حتى يعثروا على جثتين أو ثلاثة ، بعضها فى الضاحية وبعضها فى المزارع . وكبرت قحة الخدامين فى بيوت الأجانب ، وجراءتهم وتعديهم على مخدوميهم بالضرب والطعن بالمدى ،إلى حد يوجب الدهش والإستغراب الكبير . وزالت هيبة أصحاب الشرط وخفراء الحدود والدروب ، فكان القتل والطعن يقع فى رابعة النهار ، وربما كان على مرأى من بعضهم .فكثر خوف الناس وعظم تحزرهم من خدام بيوتهم . فقد قتل أحدهم مخدومته فى رمل الإسكندرية طمعا فى حلاها .وطعن آخر مخدومته بحلوان طعنات جعلتها فى خطر الموت من ساعة إلى أخرى . وعندى أن أهل الحل والعقد قد أهملوا أمر أولئك الخدمة ، وتركوهم ينتشرون فى القاهرة وسائر المدن انتشار الجراد فى الحقول ، والبعض الآخر مستسلم للبطالة والكسل والنوم نهار والإنتشار ليلا فى عرض الشوراع ، يضجون ويصيحون ، ويتراطنون ببعض كلمات إنجليزية أو إفرنسية أو إيطالية فضلا عن رطانتهم البربرية ، ويسكرون ويعربدون . وإذا لجأوا من قرص البرد أو حر الشمس فإلى الأبواب التى يخدم فيها أقاربهم ، وكلهم تنطبق عليهم لائحة المتشردين[٢٤٦] إذا أنصف أصحاب الشرطة . فالخادم الذى

(٢٤٦) فى ٢٦ يونيه عام ١٩٠٠ صدر الأمز العالى بتعديل النظام الخاص بمراقبة البوليس ، وفيه تقرر أن يكون خاضعاً لنظام مراقبة البوليس كل من يعد فى حالة تشرد (من لم تكن له وسيلة مشروعة للتعيش ـ من يسعى فى كسب عيشه بتعاطي أعمال القمار أو التنجيم فى الطرق أو المحال العمومية أو فى أى محل آخر يكون معرضا لنظر الجمهور ـ قوادو النساء العموميات ـ الأشخاص الأصحاء القادرون على العمل الذين يتعاطون الشحاذة فى الطرق العمومية ـ من حكم عليه أكثر من مرتين بسبب تحريض الأطفال على التسول فى الطرق أو المحال العمومية وكان قد مضى على الحكم الأخير أقل من سنة ـ الغجر الذين يجوبون البلاد دون أن يكون لهم موطن ثابت أو أن يثبتوا أنهم يحترفون مهنة أوصناعة مشروعة ـ من يقضى الليل عادة فى الطرق أو الميادين العمومية فى المدن أو البنادر ولايثبت أن له مسكنا) .
وكذلك كل من يعد من المشتبه فيهم من (الأشخاص المحكوم عليهم فى جرائم القتل العمد ـ الذين حكم عليهم أكثر من مرة واحدة لارتكاب أو الشروع فى إرتكاب جرائم التهديد ـ خطف الأشخاص ـ الحريق العمد ـ تعطيل وسائل المواصلات ـ السرقة ـ النصب ـ تزييف النقود ـ إتلاف المزروعات ـ إعدام المواشى ـ إنتهاك حرمة المساكن بقصد إرتكاب جريمة ما ، إلا إذا كان قد مضى خمس سنين على إنقضاء آخر عقوبة أو كانت تلك العقوبة قد سقطت بالتقادم ـ=

لايقتل ولا يضرب ، يسرق ويخطف ، وهيهات أن يثبت عليه الإجرام . وأمر تحقيق ذلك بيد صبية من سمال القضاء أو صغار الشرطة ، ومن إحتاج إلى خادم ، يضطر لاستخدامه من عرض الشارع ، ومصاطب القهاوى ، ولا قانون للخدمة ولا طريق مشروع .

وفى صبيحة ثانى عشرى ديسمبر من السنة وجدوا شخصا أسمه (شاكر أغا) طباخ فى بيت (جلال باشا) ميتا فى (شارع عابدين) ، وهو (شارع قصر الدوبارة) وفى ظهره طعنات بسكين . فنقلوه إلى المستشفى للكشف عليه طبيا ، وما هم أن أدخلوه المستشفى ورجعوا ، حتى جاء الخبر من (قسم الوايلى) أيضا بأن جثة أخرى مطمورة فى سفح جبل العباسية . فهرع جماعة من أصحاب الشرطة ، وكشفوا عن الجثة فإذا هى جثة شاب لا يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ، مقتولا خنقا ، وفى عنقه قطعة نكبة[٢٤٧] سراويله ، وفى رأسه آثار أربعة جروح كبيرة . والعجب كيف قتل وظهر فى الرمال على قيد خطوات من منازل الجند الركبان بالعباسية ، ولايعلم أحد من أمر قتله شيئا . فنقلوه هو أيضا إلى المستسفى . وتفشى خبر ذلك بين الناس فقلقوا قلقا شديدا ونادى أصحاب الصحف المحلية بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ورموا أصحاب

= من تم التحقيق من جانب النيابة معهم فى الجرائم السابقة أو الشروع فيها وحفظت القضية لعدم كفاية الأدلة أو صدر قرار بأن لاوجه لإقامتها أو انحكم فيها بالبراءة أو كانت الدعوى العمومية قد سقطت بالتقادم ـ من صدر عليهم مرة واحدة حكم فى الجرائم السابق الإشارة إليها وكانوا مرة واحدة أيضاً محلاً لتحقيق أو لدعوى فى الجرائم السابقة ـ من يوجدون أكثر من مرة واحدة بين غروب الشمس وشروقها جالسين أو مختبئين فى جوار قرية أو عزبة أو ضاحية أو أى مكان آخر يدعو إلى الشبهة ومن غير أن يكون لوجودهم سبب ما ـ من اشتهر عنهم لأسباب جدية الإعتياد على الإعتداء على النفس أو المال أو الاعتياد على التهديد بالاعتداء على النفس أو المال أو الاعتياد على الإشتغال كوسطاء لإعادة الأشخاص المخطوفين أو الأشياء المسروقة ـ من إعتادوا الإتجار بطريقة غير مشروعة بالمواد السامة أو المواد المخدرة) .

ـ الأمر العالى الصادر فى ٢ ربيع الأول سنة ١٣١٨ (٢٩ يونية سنة ١٩٠٠) بتعديل النظام الخاص بمراقبة البوليس .

ـ قانون نمرة ٢٤ لسنة ١٩٢٣ عن المتشردين والأشخاص المشتبه فيهم .

ـ الوقائع المصرية عدد ١٨ لسنة ١٩٢٣ .

(٢٤٧) نكبة = من تكة ـ قراءة إجتهادية .

الشرطة بالتعامى وترك أمر الخفارة والضبط للأغرار وصغار العقول . وأنحوا على قضاة المحاكم باللائمة ، ورموهم بضعف الرأى ، وتقليد قضاة محاكم الديار الأوروبية فى تحقيق الوقائع ، واستنتاج النتائج ، وتطبيق العقوبات وغير ذلك مما هو متبوع ومشروع فى ديار القوم .فى حين أن أعمال أصحاب شرطتهم ، ويقظة قضاتهم ، وضبط تحقيقاتهم ، وحذقهم فى الإستنتاج ، ومهارتهم فى كشف الحقائق ، فضلا عن إختلاف أصحاب الإجرام عندهم فى الإخلاق وأساليب الإجرام ، وندرة القتل إلا فى أحوال مخصوصة ، ولأسباب بادية ، لا تشبه شيئا من المألوف من قضاتنا وأصحاب شرطتنا ، ولا ماهو من أخلاق وطباع أصحاب الإجرام عندنا . ولذلك كان عمل قضاتنا عملا باطلا معيبا ، دافعا أهل الشقاوة إلى الإفساد والعبث ، ومعينا لهم على إرتكاب أفظع الآثام وأكبر الجرايم . وعندى أنه لا تأمن البلاد شر هذا العيث[٢٤٨] العميم ، إلا إذا عرف القاضى عادات أهل البلاد ، وأميال العامة ، وأخلاق أصحاب الجرائم . وقارن الحاضر بالماضى ، ودقق فى البحث وضبط طريق الإستنتاج ، ولم يكل عمله الذى فيه الحياة والموت ، والفقر والغناء ، والعماروالخراب وغير ذلك إلى صغار الكتاب ، أو إلى نفسه إن كان حدثا لم تعركه الأيام ، ولم تقومه التجارب كما هو الحال الآن .وأن يترك المألوف عندهم أو هو[٢٤٩] ما تلقوه عن أساتذتهم من الحزلقة[٢٥٠] والتعويل على أن(الأصل فى المخلوق البراءة من كل عيب ما لم يقم الدليل على عكس ذلك) وهو لم يظهر فى إقامة الدليل عزمًا ، ولا فى جمع الأدلة غيرة ، وقد تكون الأدلة على الإجرام ساطعة ظاهرة لكل مطلع وسامع ، تحتاج[٢٥١] لتطبيقها على التهمة إلا عمل ساعة أو يزيد قليلا .ومع

(٢٤٨) العيث هو الإفساد ـ يقال (عاث) الذئب فى الغنم .
ـ مختار الصحاح ـ ص ١٩٤ .
(٢٤٩) هو = استبعدت الكلمة .
(٢٥٠) الحزلقة = الحذلقة ـ قراءة تصحيحية .
(٢٥١) تحتاج = ولا تحتاج ـ قراءة ترجيحية ـ أضيفت الكلمة ليستقيم المعنى .

ذلك تراه يتعجل فى الحكم إما للمجرم وإما عليه ، ويطوى كل عمل بعد ذلك كأنه سقطا مرذولا . وهذا من أكبر البواعث على ذهاب الأمن ، وفقدان الطمأنينة ، واشتداد الخوف بالناس وتأتل الإندفاع فى قلوبهم[٢٥٢] ، ولافرق[٢٥٣] ذلك بين أهل الريف وأهل الحضر ، وأهل الغاصة[٢٥٤] وأهل الدانية ، فإنهم فى هذا الشهر متشاوون[٢٥٥] . سأل (المأمون بن هرون الرشيدى) (بخشيوع الطيب) ما السرور . فقال(يا أمير المؤمنين الأمان ، لأنى رأيت الخايف لا عيش له) .أ .هـ وما قيل فى شرف القضاء ونزاهة القضاة ، ووجوب تحليهم بالصفات العالية مع الحنكة والدربة وبعد النظر كثير ،لا محل له هنا . وإنما أطنبنا فى القول دفعا فى صدور المنافقين وذكرى لقوم يتفكرون[٢٥٦] .

وكثر تحدث الناس بعزم لورد كرومر على القيام إلى السودان لمشاهدة ما فيها وما هى عليه بعد الفتح ، واختلفت فى نتائج ذهابه الأقوال . وظل العقلاء يراقبون ذهابه وكأنهم يحسبون له حسابا كبيراً فى محافل السياسات . فلما كان

---

(٢٥٢) وتأثل الإندفاع فى قلوبهم = استبعدت الجملة لعدم تأثيرها على النص .

(٢٥٣) ولا فرق = لا فرق فى ـ عدلت الجملة هكذا ليستقيم المعنى .

(٢٥٤) الغاصة = القاصية ـ قراءة ترجيحية .

(٢٥٥) الشهر متشاوون = الشر متساوون ـ قراءة ترجيحية .

(٢٥٦) يحمل ميخائيل شاروبيم على القضاء المصرى تمسكه بقواعد الإثبات التى نصت عليها قوانين الإجراءات الجنائية والتى تنظم تحقيق الوقائع واستنتاج النتائج وتطبيق العقوبات ـ ويرى أن إتباع هذه القواعد فى أوروبا لا يستتبع تطبيقه فى مصر لاختلاف المجرمين هناك فى الأخلاق وأساليب الإجرام وندرة القتل إلا فى أحوال مخصوصة ولأسباب بادية عن مجرمى مصر ـ ويعيب على القضاة المصريين تمسكهم بما تلقوه عن أساتذتهم من دراسات سماها (حذلقة) ، وتعويلهم على المبدأ القانونى المعروف (أن الأصل فى المخلوق البراءة ما لم يقم الدليل على عكس ذلك) .

ولم يذكر شاروبيم فى معرض حملته على القضاء ، الوسائل البديلة للإثبات والتحقيق والحكم . على أن الحيرة قد تستبد بالمرء عندما يعلم أن شاروبيم الذى يحمل هذه الحملة على القضاء المصرى لتطبيقه للقانون بحذافيره ـ كان يشغل منصب رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية ، وكان قاضياً بهذه المحكمة قبل أن يشغل هذا المنصب ـ وكانت جملة خدمته فى العمل القضائى عشر سنوات ـ فما هى الأساليب التى كان يتبعها فى الحكم عندما كان قاضياً فى الاثبات والتحقيق عندما كان رئيساً للنيابة ـ أهى وسائل غير القانون؟ .

عاشر ديسمبر من السنة برح القاهرة ومعه بعض عقيلات الإنجليز والسير غورست المستشار المالى . فلاقاهم فى حلفا السردار(ونجت باشا) ، ومشى معهم إلى الخرطوم . فبلغوها فى أربع عشرى الشهر ، فما هو أن إستقر به المقام حتى جمع مشائخ السودان كافة ورؤساء القبائل والأعيان وكل وجيه فى حفلة حافلة ، ووقف بينهم خطيبا فقال(إنى أشكركم على العريضة التى قدمتوها لى ، وعلى مقابلتكم إياى بكل ترحاب ، فمنذ سنتين زرتكم وأفهمتكم أنكم فى المستقبل تكونون تحت حكم جلالة الملكة وسمو الخديوى . وقد تلقيت الأوامر الخصوصية من جلالة الملكه التى تحكم فى بلاد أخرى الملايين من أبناء دينكم بأن أعرب لكم عن إهتمام جلالتها برفاه عيشتكم ، وإنى سأقدم قريبا باسم جلالتها لأكبر أعيان المسلمين السودانيين نيشانا إنجليزيا ، وقد وقفت جلالتها على إسم حضرته من مذكرة رفعها إليها الحاكم العام .

وقد تمت منذ زيارتى الأخيرة لهذه البلاد أعمال كثيرة تؤدى إلى النجاح ، واحترمت ديانتكم وعوائدكم كل الاحترام طبقا لما وعدتكم به يومئذ .وها هى المحاكم قد ألفت بين ظهرانيكم ، والضرائب العقارية قد أنقصت إلى أن أصبحت طفيفة ، وأمل بعد أعتقد[٢٥٧] أنها حصلت دون خروج عن حد القانون والنظام . أما السكة الجديدة[٢٥٨] فإنها قد تجاوزت الخرطوم . ولى الثقة أنكم بعد هذا تعتقون[٢٥٩] عملا بإرشاد نفوسكم ، إن حكامكم الحديثين سواء كانوا مصريين أو إنجليز ــ إذ لا أجد فرقا بينهم لأنهم يشتغلون معا بتمام الإتفاق ــ ثم ليسوا فقط أصحاب قوة وسطوة لا مقابلة بينها وبين قوة حكامكم السابقين ، بل مطبوعين على العدل وحب التقدم ، والإنتفاع لجميع الشعب ، الذى كان بحاجة إلى هذه العواطف الشريفة أيام كان خاضعا لظلم الدراويش .

(٢٥٧) وأمل بعد اعتقد = وآمل بل وأعتقد ــ قراءة ترجيحية .
(٢٥٨) الجديدة = الحديد ــ قراءة ترجيحية .
(٢٥٩) تعتقون = تعتقدون ــ قراءة ترجيحية .

وانى عارف بأنه لا يزال أمامنا كثير من الأعمال ، ولكنه لا يجب أن ننتظر الوصول إلى منتهى النجاح والتقدم فى مدة وجيزة ، وذلك لما هى عليه حالة البلاد السودانية . فأول حاجات البلاد إنما هى إتمام طرق التواصل وإتقانها ، وقد أعدت بعض الشركات مشروعا لذلك أى إنشاء سكك حديدية ، فهذا المشروع نقبله إلا بما يخالف منافع الرعايا المصريين والإنجليز معا . ولا يبرح عنا أن الشرط الأساسى للقيام بتحسين الحالة مهما كان هذا التحسين مرموقا ، هو أن لا تزاد أثقال الضرائب على الشعب المصرى حبا بالسودان ، وأن يظل حمل الضرائب على الشعب السودانى بقدر ما تسمح به الحالة . لأن تخفيف الضرائب مسألة يجب أن تراعى قبل كل أمر .

فإذا إنتهى الأمر بأن ألقى على عاتق الحكومة إنشاء السكة الحديدية فى السودان ،وجب أن نوفق بين النفقة على إنشائها وبين دخلها المحدود ، وقبل الأخذ بكل عمل لمد الخطوط الحديدية ، يجب الإعتناء باستثمار الخطوط الموجودة ، وللوصول إلى هذه الغاية يلزم لنا مبلغ كبير من المال كما قال المهندسون العارفون . وإذ أنتقل الآن إلى موضوع أخر ،وهو مابلغنى أن الأهالى يشكون من المراقبين الأوروبيين فى هذه البلاد ، فأجيب على ذلك أننا لا نحب إستخدام مراقبين كثيرين فى هذه البلاد ، والذى نوده هو أن نعتنى كل الإعتناء فى إستخدام من نختارهم لهذه المهمة . أماشكوى الأهالى فقد عرفت أنها لا تخلو من إصابة . وإما الضباط الذين وكلت إليهم الإدارة الملكية ، فأنهم قاموا بعملهم خير قيام يقل المدح فى جنبه ، ولكنهم يطلبون المساعدين ،فلهذا أختير بعض العمال الملكيين من الإنجليز ليكونوا تحت أمر المديرين الحاليين ،ولنا الأمل أن يكونوا رجال الإدارة الملكية فى المستقبل . وسيعين فوق ذلك مهندس خبير بأحوال مجارى النيل وسير المياه . ولا شك أن أعماله ستكون ذات فائدة كبيرة لا للسودان فقط بل لمصر أيضا ،إذ يتمكن وقت الحاجة من إبداء النصائح وإعطاء المشورات وإصلاح حالة الرى فى بعض

الجهات الواقعة ، ولا أحاول الآن أن افيض الشرح عن المسائل الأخرى ،ولكنى أكرر عليكم ما يخالج فؤادى من المسرة عند رؤيتكم هنا ،واعتقادى أنكم تبذلون كل ما وسعكم لمؤازرة سعادة السير(ونجت باشا)فى سعيه وجده . وهو بينكم مثل جلالة الملكة ، وسمو الجناب الخديوى . وكذلك الضباط الذين هم تحت إمرته ، فإنهم جميعا يشتغلون لإسعاد حالة البلاد أدبيا وماديا) إنتهى بنصه . وما هو أن جاءت صحف الإنجليز حاملة هذا المقال ، حتى إرتقى مصطفى كامل رئيس الحزب الوطنى منابر الخطابة على عادته فى مثل هذه الأحوال ، وجعل يصغر أحلام العميد ، ويسفه آرائه ، ويستحلف أهل السودان بكل عزيز أن لا يغتروا بقول العميد ولا يصغوا له السمع . وتبعته فى ذلك صحف الحزب ، ومالت باللائمة على الرئيس مصطفى فهمى باشا وجماعة الوزراء . وقالت لهم كيف يحل لهم ترك العميد يقول قول الأمير فى بلاد وبين شعب لا يمكل[٢٦٠] الإنجليز من أمره شيئا ، مهما طالت الأحوال وتبدلت الأحوال . وظلت على هذا أياما والناس لا يفهمون لهذه الضوضاء معنى ، ولا يرون من ورائها غنم . وقد أضحت السودان شطرا من الأملاك الإنجليزية فى تلك القارة السوداء ، وأمست ديار مصر جزءا متمما له بلا مراء ولا مكابرة . فلا أقوال مصطفى كامل تشفع ولا ضوضاء صحف حزبه تدفع . وقد برز الأمر من وزارة الحرب فى ثامن عشرى ديسمبر من السنة إلى سائر قواد الجيش بالقاهرة والسودان بأن يأخذوا العهد على جميع الضباط مقدمى العساكر بأن لا يكاتبوا أصحاب الصحف المصرية على إختلاف نزعاتهم ، وأن لا يشافهوهم بشئ ما البتة . فأخذت عليهم هذه العهود مكتوبة مبصومة بأختامهم . وعندى أن هذا ، وخطب مصطفى كامل ، وصيحة أصحاب صحف الأحزاب سواء ، فإن الضباط لو شاءوا إبلاغ الصحف خبرا لإستحال عليهم الأمر لأنهم لا يعلمون من أعمال

(٢٦٠) يمكل = يملك ــ قراءة تصحيحية .

كبار الضباط الإنجليز شيئا ولا يدرون سوى ما هم فاعلون . وليست فعالهم فى هذا الشق البعيد يحفظ[٢٦١] أو خبرا يكتم أو ينشر . اللهم إذا كان ما يقاسيه بعضهم من الحيف والذل الثقيل . ومن لطائف بعض الكتاب الإنجليز أن أحدهم ممن أقام فى مصر حينا طويلا رأى فى إحدى صحفهم الآتية من ديارهم ، أن وزارة الحرب المصرية قد عينت الضابط المسمى (ديموت) القادم من الهند فى قلم المستشار المالى بوظيفة سامية . فأخذ منه الدهش والتعجب مأخذه ، وكتب من فوره إلى بعض الصحف المحلية يقول(إنها والله لسنة حكومتنا الإنجليزية عافاها الله ، فليأتوا من الهند عسكرا ، وليكونوا فى ديار مصر الأسيفة ماليين ، وليأتوا أطباء ، وليكونوا مهندسين . وإنى لا أنسى ما هو من محفوظات التاريخ من أن الإنجليز والفرنسيس قد خربوا عام تسعة وخمسين (جده) ، وضربوا عليها غرامة قدرها مائة ألف ذهبا . فلما تم لهم ما أرادوا أقام صاحب سياستنا له قنصلا فى ذلك البلد ، وجعل نصف راتبه من خزينة الهند . وكانت حجته أن الهند تبتدى حدودها عند (جدة) . وقد رأيت منذ أعوام أن الهند بالغت فى الإحسان على مصر بالعمال الكثيرين ، وعسى أن لا يقول صاحب سياستنا أن مملكتنا الهندية تبتدى اليوم من الإسكندرية . وما هذا عليه بعسير)أ . هـ . وعاد لورد كرومر ومن معه بعد أن لبث أياما فى ضيافة الحاكم العام . فبلغ (حلفا) فى ثامن عشرى الشهر ، وغادرها فى مساء اليوم ومن معه إلى (أصوان) . وقام منها إلى أسيوط فالقاهرة . فلاقاه على المحطة كثير من الضباط وأهل المناصب من الإنجليز والمصريين ، وأحد رجال قصر الإمارة وغيرهم من المنافقين الذين لا هم فى العير ولا فى النفير ، ويدعون أنهم صنائع حاشية الأمير أو هم عيونهم .



---

(٢٦١) يحفظ = بأفعال تحفظ ـ قراءة ترجيحية .

الملاحـــق

الملحق (١) خريطة تبين مناطق النفوذ البريطاني في أعالي النيل - ومناطق النفوذ البلجيكي في إقليم اللادو وبحر الغزال .

المصدر (عبد الرحمن الرافعي - مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال) ص ١٤٢ .

الملحق (٢) خريطة تبين التوسع الأوروبي في شمال ووسط افريقيا (١٨٨٠ ـ ١٨٩٦) .

المصدر

Patricia Wright, (Conflict on the Nile) p.,6.

الملحق (٣) خريطة تبين مواقع سواكن وكسلا ومصوع وعصب وزيلع وبربره وهرر .

المصدر : چون مارلو (تاريخ النهب الإستعماري لمصر) تحقيق عبد العظيم رمضان - ص ٣٦٦ .

الملحق (٤) خريطة تبين الإندفاع الإيطالي نحو (عدوه) عام ١٨٩٦ .

المصدر :

Patricia Wright, (Conflict on the Nile) p.,65.

الملحق (٥) خريطة تبين مواقع حلفا وعكاشة .

المصدر : عبد الرحمن الرافعي(مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال) ص ٨٢ .

الملحق (٦) خريطة تبين مواقع فركة - آبار امبيجول - سرص - عكاشة .

المصدر : أورطة البنادق الرابعة المشاة ص ١٨ .

الملحق (٧) خريطة تبين مواقع سيوة وجغبوب بالصحراء الغربية .

المصدر : تقويم سنة ١٩٣٣ - وزارة المالية - ص ٤٨ .

الملحق (٨) خريطة تبين مواقع كورتي - مروى - بربر .

المصدر : تاريخ مصر الحديث لعمر السكندري ص ٢٨٥ .

الملحق (٩) خريطة تبين خط سير حملة مارشان Marchand من لوانجو Loango إلى فاشودة .

المصدر :

Patricia Wright ,(Conflict on the Nile) p.,130, 136, 142.

الملحق (١٠) خريطة تبين موقع (نخل) فى شبه جزيرة سيناء .

المصدر : Egypt No2 (1906) Correspondence Respecting Turco Egyptian Frontier in the Sinai Peninsula.

الملحق (١١) خريطة تبين موقع نهر شارى فى تشاد .

المصدر :

Lexicon Universal Encyclopedia - Vol. 4 - p.,266.

الملحق (١٢) خريطة تبين موقع زارية Zaria وكانو Kano ـ ودكوة عاصمة ملك رابح .

المصدر :

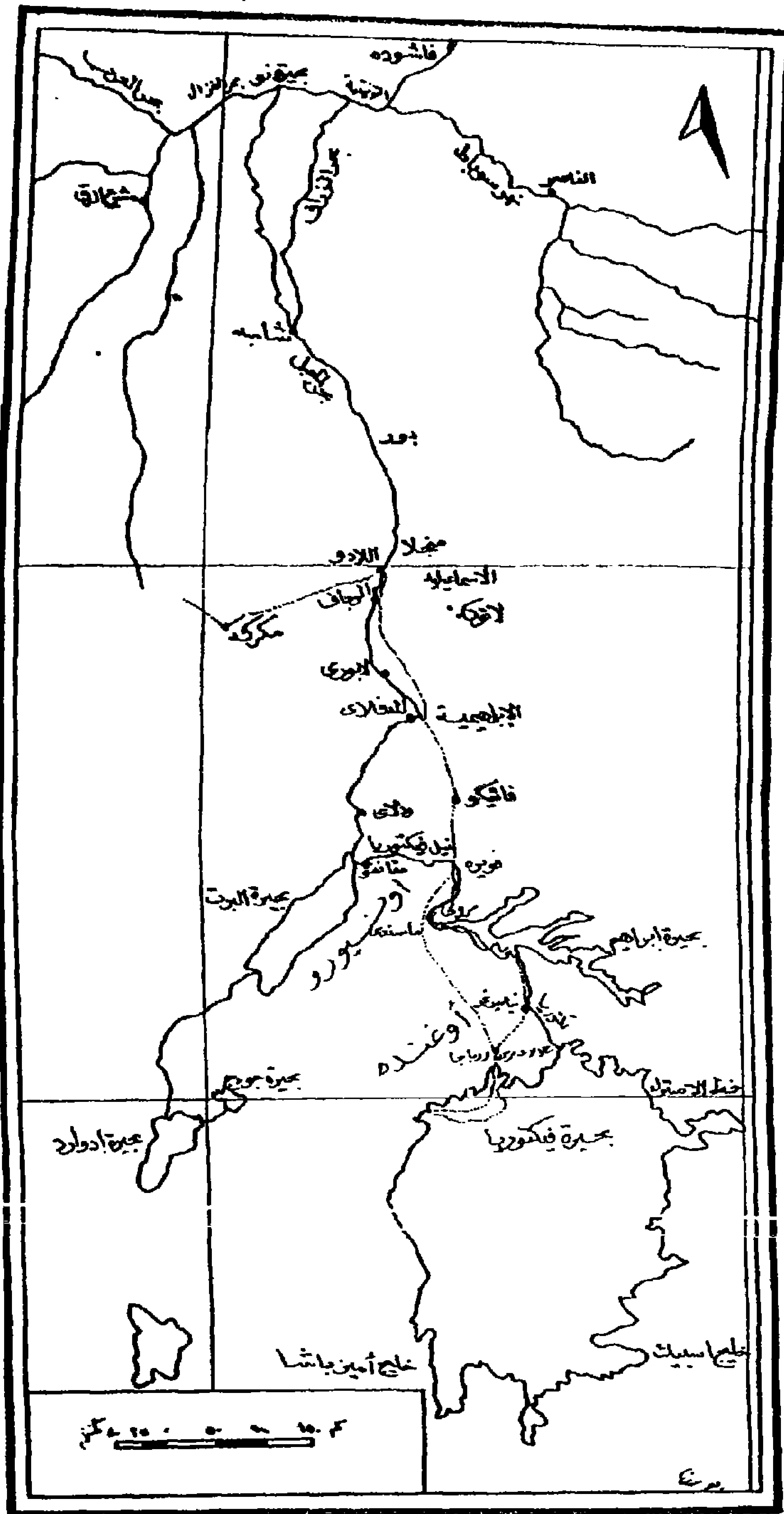
Lexicon Universal Encyclopedia - Vol.14 - p.,190.

الملحق (١٣) خريطة تبين موقع (لورنزو ماركيز) فى موزمبيق ـ

المصدر ـ أرشيف قسم الجغرافيا ــ كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق .

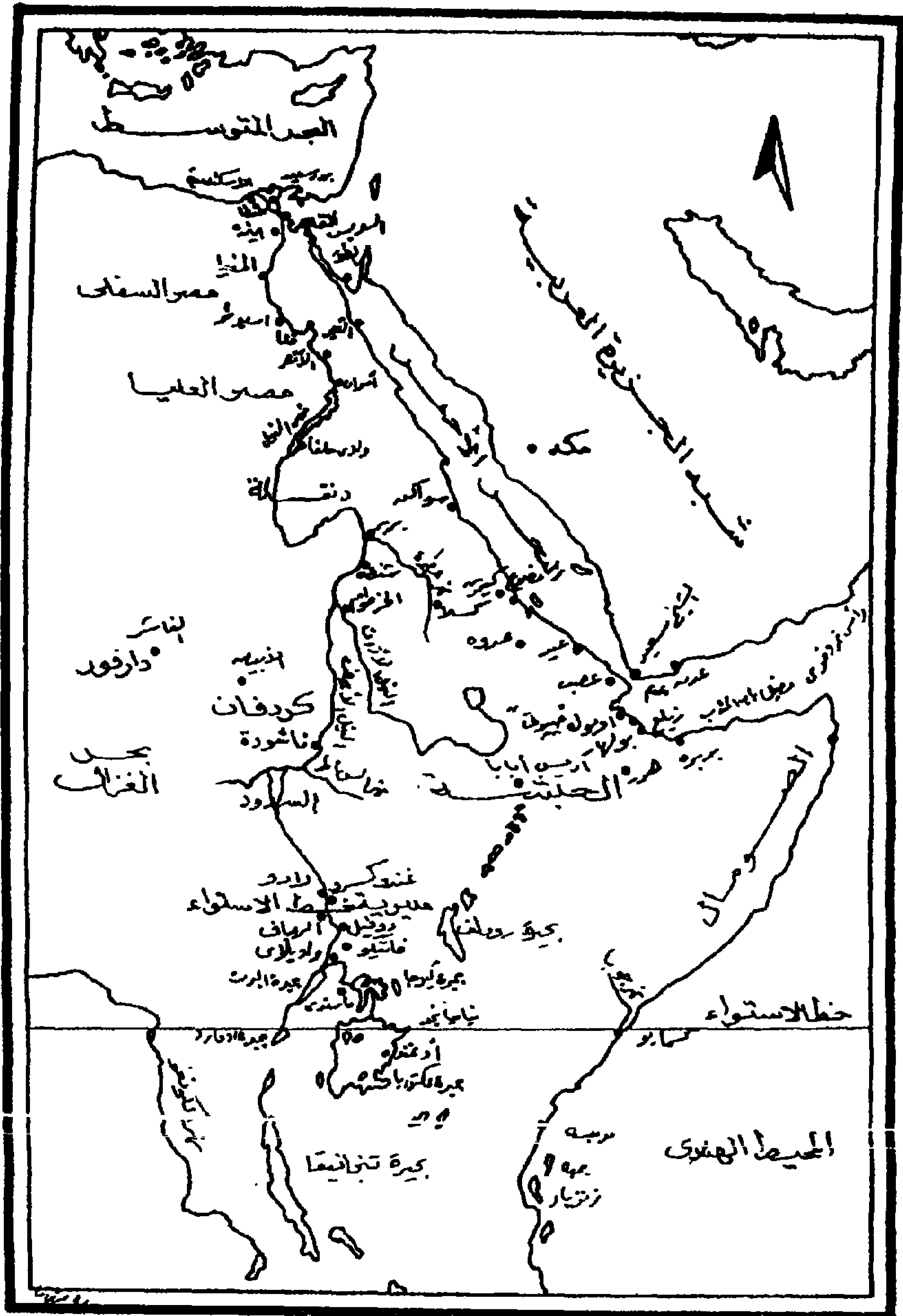
الملحق (١٤) شكل يبين منطقة حديقة الأزبكية عام ١٨٦٨ .

المصدر : محمد حسام الدين إسماعيل (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩) ــ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ جامعة أسيوط ـ كلية الآداب ـ ١٩٩٤ ـ الملاحق ـ شكل ٤٥ .

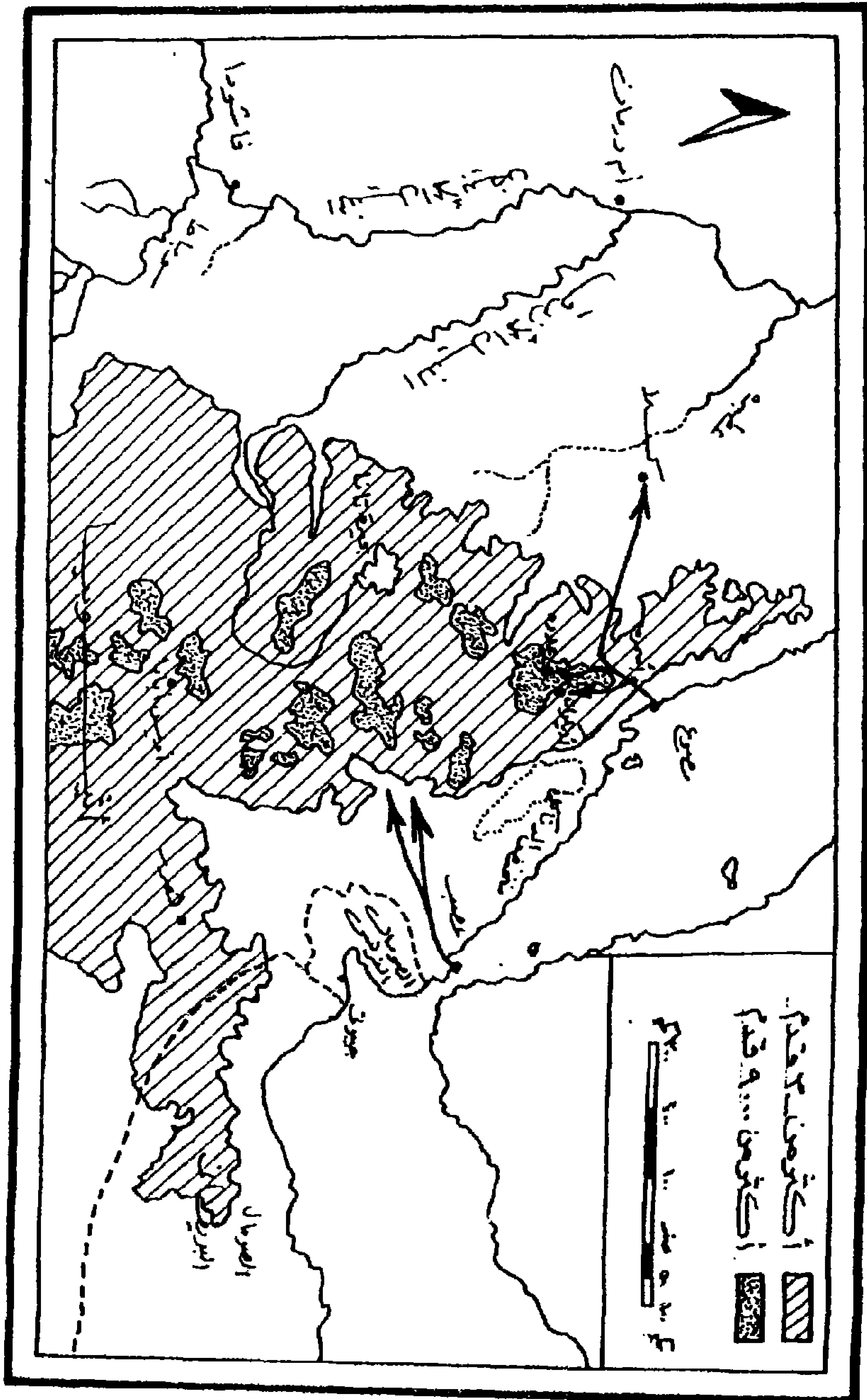


الملحق (١) خريطة تبين مناطق النفوذ البريطانى فى أعالى النيل

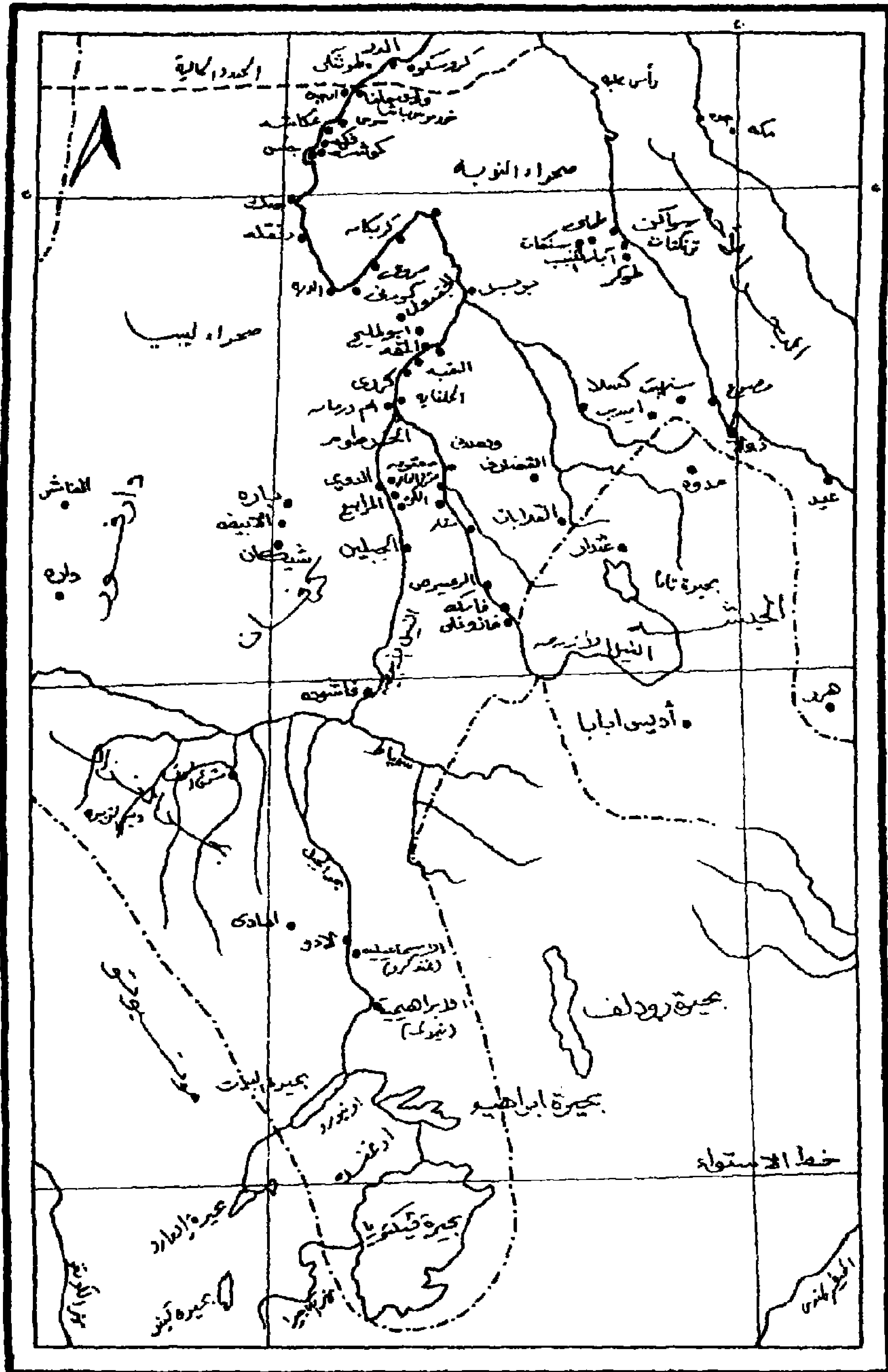
الملحق (٢) خريطة تبين التوسع الأوروبى فى شمال ووسط افريقيا



الملحق (٣) خريطة تبين مواقع سواكن وكسلا ومصوع وعصب وزيلع وبربره وهرر .



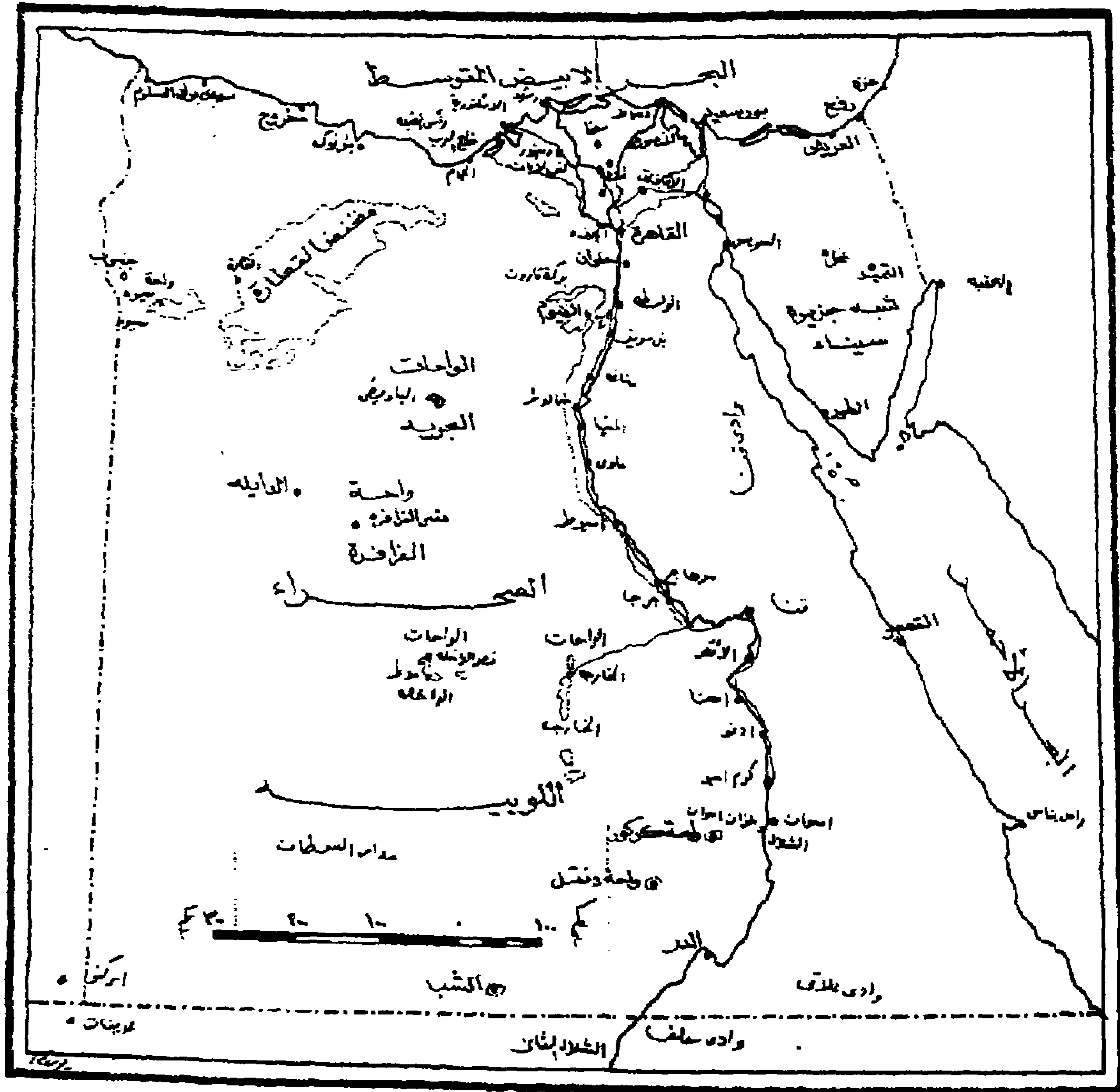
الملحق (٤) خريطة تبين الإندفاع الإيطالى نحو (عدوه) عام ١٨٩٦ .



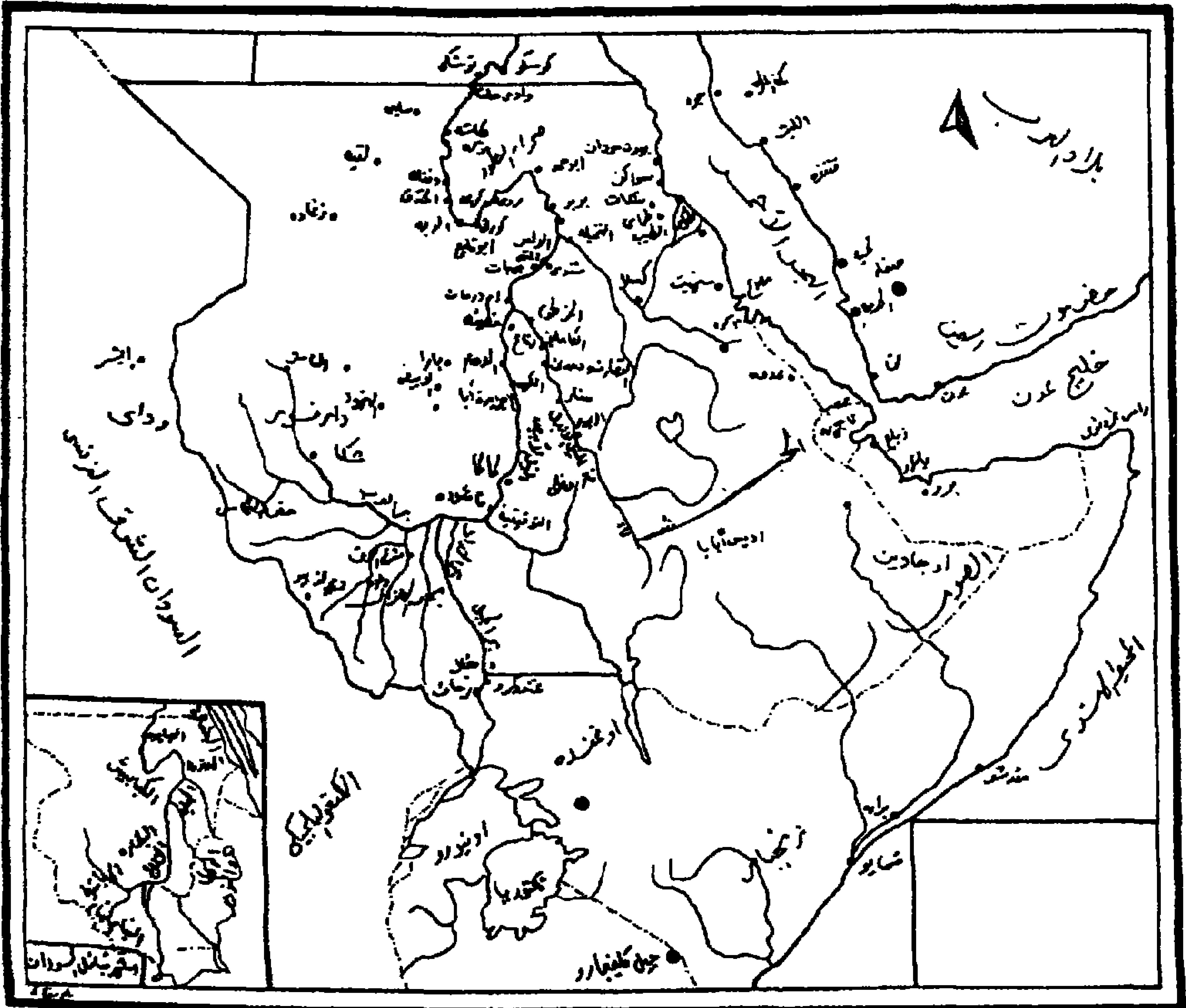
السودان فى عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق

الملحق (٥) خريطة تبين مواقع حلفا وعكاشة

الملحق (٦) خريطة تبين مواقع فركة - آبار امبيجول - سرص - عكاشة



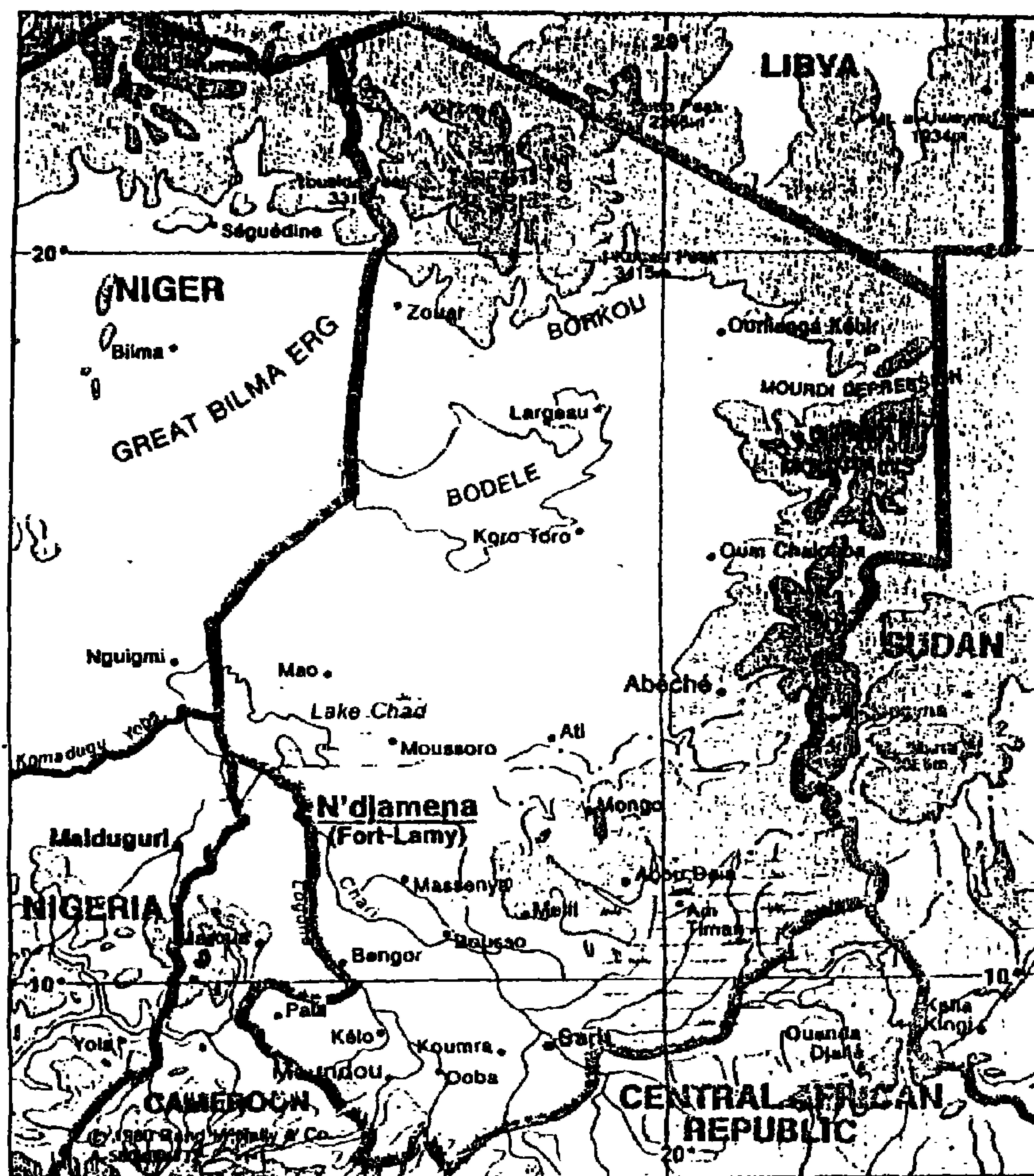
الملحق (٧) خريطة تبين مواقع سيوة وجغبوب بالصحراء الغربية



الملحق (٨) خريطة تبين مواقع كورتى - مروى - بربر

الملحق (٩) خريطة تبين خط سير حملة مارشان Marchand من لوانجو Loango إلى فاشودة

الملحق (١٠) خريطة تبين موقع (نخل) فى شبه جزيرة سيناء



CHAD

—— Railroad

\+ Spot Elevation

National capitals are underlined

City type size indicates relative importance

Scale 1 : 20,000,000

0 100 200 300 400 km

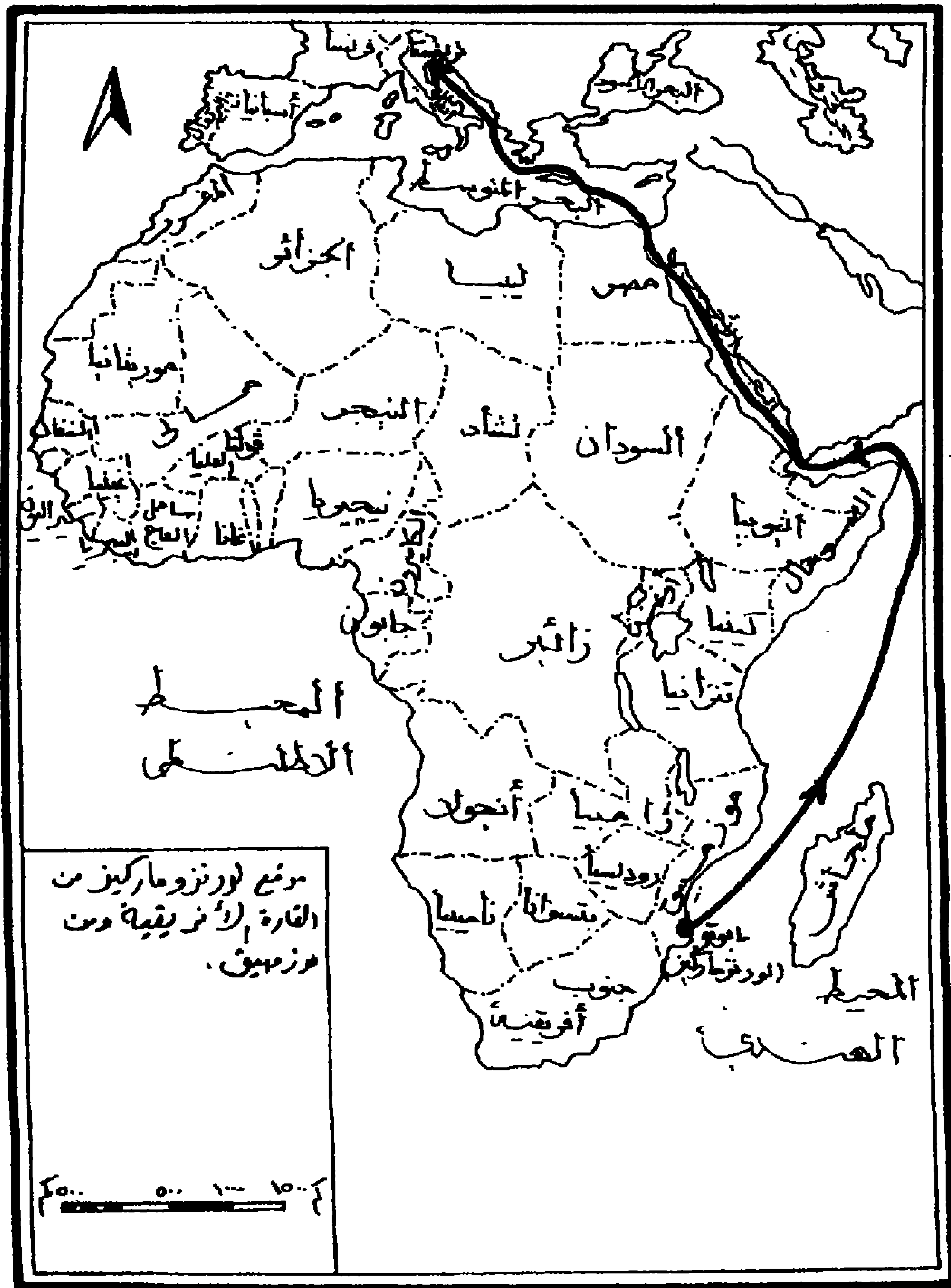
0 100 200 mi

Meters	Feet
4000	13124
2000	6562
1000	3281
500	1640
200	656
0	0

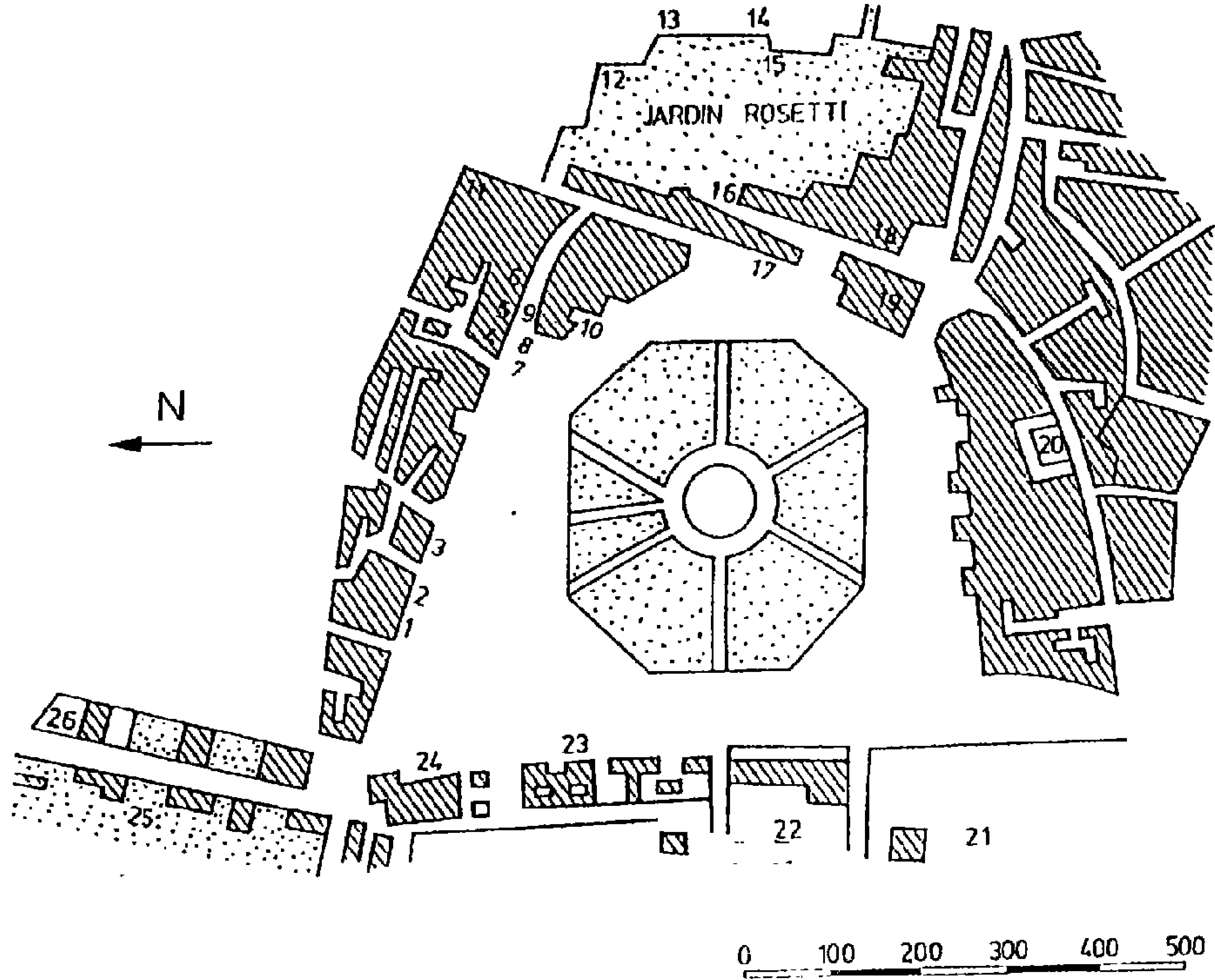
الملحق (١١) خريطة تبين موقع نهر شارى فى تشاد



الملحق (١٢) خريطة تبين موقع زارية Zaria وكانو Kano ـ ودكوة عاصمة ملك رابح



الملحق (١٣) خريطة تبين موقع (لورنزو ماركيز) فى موزمبيق



Azbakiyya in 1868.

1) Russian Consulate
2) Portuguese Consulate
3) Austrian Consulate
4) Cercle Oriental
5) French Consulate
6) Café Eldorado
7) Cercle du Globe
8) Hôtel Royal et des Messageries
9) Hôtel des Ambassadeurs
10) Hôtel d'Orient
11) Hôtel du Commerce
12) Prussian Consulate
13) Observatory
14) Swedish Consulate
15) Italian Consulate
16) Hôtel de France
17) Dutch Consulate
18) Greek Consulate
19) Police & Court
20) Palace of Halim Pasha
21) Palace
22) Hôtel de la Cie Peninsulaire Orientale
23) Hôtel Shepheard
24) British Consulate
25) Residence of the French Consul
26) Hôtel d'Europe

الملحق (١٤) شكل يبين منطقة حديقة الأزبكية عام ١٨٦٨

المصادر والمراجع

أولا : الوثـــــائق

١ ـ دار الوثائق التاريخية القومية بالقاهرة .

ـ محفظة ١٠٥ داخلية افرنكى (تقرير محافظ عموم القنال ببيان الحوادث التى وقعت بين شغالى الكراكات وقومبانية القنال من أول أكتوبر سنة ١٨٩٤ لغاية ١٥ منه) و (تقرير صادر من سعادة محافظ عموم القنال فى ٤ نوفمبر ١٨٩٤ فى مسألة تعصب العملة فى كراكات قومبانية القنال .

٢ ـ دار المحفوظات العامة Public Record Office بكيو جاردنز Kew Gardens بإنجلترا

F. 0407 - 174 - 33861 - No 133.

٣ ـ دار المحفوظات العمومية بالقاهرة .

ـ ملف خدمة ديكران باشا دابرو- ١٨٢٦٦ - محفظة ١٦٢ - عين ٤ - دولاب ٢٩ .

ثانيا : المطبوعـــــات

أ ـ القوانين والقرارات والكتب

ـ الكتاب الذهبى للمحاكم الأهلية - الجزء الأول - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة - ١٩٣٧ .

ـ القضية المصرية ١٨٨٢ - ١٨٥٤ - المطبعة الأميرية ببولاق - القاهرة - ١٩٥٥ .

ـ قانون البوليس المصرى سنة ١٨٩٣ ـ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية ١٨٩٤ .

ـ قانون القرعة العسكرية الصادر فى ٤ نوفمبر ١٩٠٢ والتعليمات الصادرة عن نظارة الحربية ـ المطبعة الأميرية - القاهرة - ١٩٠٢ .

ـ القوانين الإدارية والجنائية ، مجموعة القوانين واللوائح الجارى العمل بها فيما يتعلق بنظارة الداخلية - المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ١٨٩٧ .

ـ قوانين ولوائح البوليس المصرى ـ المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر المحمية - سنة ١٨٩٥ افرنجية .

ـ قانون المعاشات العسكرية الصادر فى ١٨٨٨/٧/٢٦ .

ـ الأمر العالى الصادر فى ٢٩ يونية ١٩٠٠ بتعديل النظام الخاص بمراقبة البوليس .

ـ قانون نمرة ٢٤ لسنة ١٩٢٣ عن المتشردين والأشخاص المشتبه فيهم .

ب ـ الوثائق المنشورة

أولا باللغة العربية :

ـ وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى (أورطة المدافع الماكينة الأولى المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى (أورطة البنادق الرابعة المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى (أورطة البنادق الخامسة المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى (أورطة البنادق السادسة المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ وزارة الحربية والبحرية ـ المتحف الحربى (أورطة البنادق الثامنة المشاة) ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ نظارة الداخلية ـ الأوامر العمومية لسنوات ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ ـ ووزارة الداخلية ـ الأوامر العمومية لعام ١٩١٨ .

ـ نظارة الداخلية ـ البوليس المصرى ـ قسم الضبط والربط ـ أوامر البوليس ـ الأمر نمرة ١٣٥في ١٧ نوفمبر ١٨٩٤ .

ثانيًا : باللغات الأجنبية :

-Egypt No (3) 1883 - Papers Respecting Europeans in the Service of the Egyptian Government. In Continuation of Egypt No 4 and 6 -1882.

-Cairo City police - Annual Report (1891) - Cairo. 1892.

- War office - Intelligence Branch (Report on Egypt) Lndon - HMSO - 1882.

-Egypt No (1) 1894 - Report on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Progress of Reforms.

-Egypt No (1) 1895 - Report on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Progress of Reforms.

-Egypt No (3) 1899 - Report by Her Majesty's Agent and Consul - General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt andthe Soudan in 1898.

-Egypt No (1) 1900 - Report by Her Majesty's Agent and Consul - General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan in 1899.

-Egypt No (1) 1901 - Report by His Majesty's Agent and Consul - General on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan in 1900.

-Egypt No (2) 1906 - Correspondence respecting turco - Egyption Frontier in the Sinai peninsula.

-Egypt No (1) 1920 - Report on the Finances, Administration, and Condition of Egypt and the Soudan For the period (1914 - 1920).

ثالثا : المراجــــع

١ـ العربية :

الكتب

ـــ إبراهيم عبد المسيح (دليل وادى النيل ١٨٩١ ـ ١٨٩٢) بدون تاريخ أو مكان الطبع .

ـــ إبراهيم عبده (تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ ـــ ١٩٨١) الطبعة الرابعة ـــ مؤسسة سجل العرب - القاهرة ١٩٨٢ .

ـــ إبراهيم رضوان الجندى (سياسة الإنتداب البريطانية الإقتصادية فى فلسطين ١٩٢٢ ـــ ١٩٣٩) دار الكرمل ـــ صامد ـــ عمان ـــ الأردن ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨٦ .

ـــ إبراهيم فوزى (باشـــا اللواء) (السودان بين يدى غردون وكتشنر) ـــ الجزء الأول ـ المؤيد ـــ القاهرة ١٣١٩هـ .

ـــ أ . ج . جرانت وهارولد تمبرلى (أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠) ترجمة محمد على أبودره ولويس اسكندر ـــ مؤسسة سجل العرب ـــ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

ـــ أحمد إبراهيم الهوارى (نقد المجتمع فى حديث عيسى بن هشام) ـــ دار المعارف القاهرة ـــ ١٩٨١ .

ـــ أحمد السعيد سليمان (تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٩ .

ـــ أحمد شوقى (أمير الشعراء) (الشوقيات) ـ ٤ أجزاء ـ مكتبة مصر ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

ـــ أحمد عبد الرحيم مصطفى (تاريخ مصر السياسى من الإحتلال إلى المعاهدة) مكتبة سعيد رأفت ـــ القاهرة ـ ١٩٦٧

ـــــــــــــــ (علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى إسماعيل ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

ـــــــــــــــ (مصر والمسألة المصرية) ـــ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ .

ـــ أحمد عزت عبد الكريم (تاريخ التعليم فى مصر ـــ عصر عباس وسعيد) ج١ (١٨٤٨ ـــ ١٨٦٣) ـ مطبعة النصر ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ .

ـــ أحمد محمد الحوفى (ديوان شوقى) ـ جزءان ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر ـ القاهرة ـــ ١٩٧٧ .

ـــ أرجمند كوران (السياسة العثمانية تجاه الإحتلال الفرنسى للجزائر ١٨٢٧ ـ ١٨٤٧) ـ تونس ١٩٧٤ .

ـــ أرداشيس كارداشيان (وثائق تاريخ الأرمن فى مصر) ٣ أجزاء ـــ ڤينسيا ١٩٨٦ .

ـــ السيد على أحمد فليفل (القوى الخارجية والإتجاهات الإقليمية فى السودان) ـ سلسلة الدراسات الافريقية ـ مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر ـ القاهرة ١٩٩٠ .

ـــــــــــــــ مشكلة أوجادين بين الإحتلال الحبشى والإنتماء العربى الإسلامى ١٨٨٧ ـ ١٩١٣) ـــ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٨٧ .

ـــ العسكرية الصهيونية ـــ المجلد الأول ـــ المؤسسة العسكرية الإسرائيلية ـ النشأة والتطور ـ ١٨٨٧ ـ ١٩٧٧ . مركز الدراسات السياسية والإستراتيچية ـــ الأهرام ـ ١٩٧٢ .

ـــ الكسندر شولش (مصر للمصريين ـ أزمة مصر الإجتماعية والسياسية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢) تعريب رؤوف عباس حامد ـ دار الثقافة العربية ـ القاهرة ـ١٩٨٣ .

ـ أندريه ريمون (القاهرة ـ تاريخ حاضرة) ترجمة لطيف فرج ـ دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

ــــــــــــــــ (فصول من التاريخ الإجتماعى للقاهرة العثمانية) ــ ترجمة زهير الشايب ـ كتاب روز اليوسف ـ العدد ١٧ ـ القاهرة ـ يوليو ١٩٧٤ .

ــ أوراق مصطفى كامل (المقالات) ــ تحقيق يواقيم زرق مرقص ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

ــ أوراق مصطفى كامل (المقالات) الكتاب الثانى ــ تحقيق يواقيم رزق مرقص ــ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٩٢ .

ــ بول كازانوفا (تاريخ ووصف قلعة القاهرة) ـ ترجمة أحمد دراج ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

ــ تاريخ وآثار مصر الإسلامية (الهيئة العامة للإستعلامات) ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

ــ توفيق على برو (العرب والترك فى العهد الدستورى العثمانى ١٩٠٨ ـ ١٩١٤) ـ معهد الدراسات العربية العالية ــ القاهرة ـ ١٩٦٠ .

ــ جابرييل باير (دراسات فى التاريخ الإجتماعى لمصر الحديثة) ـ ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد الجمال ــ مكتبة الحرية الحديثة ـ جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .

ــ جاك كرابس جونيور (كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ــ دراسة فى التحول الوطنى) ــ ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ــ الألف كتاب الثانى ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ القاهرة ــ ١٩٩٣ .

ــ جرجى زيدان (كتاب تاريخ مصر الحديث من الفتح الاسلامى الى الآن مع فذلكة فى تاريخ مصر القديم) ـ جزءان ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة الهلال بالفجالة ـ القاهرة ١٩١١ .

ــ جومار (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل) ـ وصف مصر ـ ترجمة أيمن فؤاد سيد ــ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ .

ــ جون مارلو (تاريخ النهب الإستعمارى لمصر ١٧٩٨ ــ ١٨٨٢) ـ ترجمة عبد العظيم رمضان ـ كتاب الساعة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٦ .

ـ حسن قنديل (البكباشى) (فتح دارفور سنة ١٩١٦ ونبذة من تاريخ سلطانها على دينار) مطبعة العدل ـ اسكندرية ـ ١٩٣٧ .

ـ خلف عبد العظيم الميرى (تاريخ البحرية التجارية المصرية ١٨٥٤ ـ ١٨٧٩) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

ـ دانيال كريسيلوس (جذور مصر الحديثة) ترجمة وتعليق عبد الوهاب بكر ـ مكتبة نهضة الشرق ـ القاهرة ـ ١٩٨٥ .

ـ درويش النخيلى (السفن الإسلامية على حروف المعجم) ـ جامعة الاسكندرية ـ ١٩٧٤ .

ـ رأفت غنيمى الشيخ (أفريقيا فى التاريخ المعاصر) ـ دار الثقافة للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

ـ رفيق حبيب و محمد عفيفى (تاريخ الكنيسة المصرية) ـ الدارالعربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٤ .

ـ رمسيس عوض (التاريخ السرى للمسرح قبل ثورة ١٩١٩) ـ مطبعة الكيلانى ـ القاهرة ـ١٩٧٢ .

ـ رياض سوريال (المجتمع القبطى فى مصر فى القرن ١٩) ـ مكتبة المحبة ـ القاهرة ـ ١٩٨١ .

ـ زكى البحيرى (التطور الإقتصادى والإجتماعى فى السودان من الأزمة العالمية حتى الإستقلال ـ ١٩٣٠ ـ ١٩٥٦) مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ .

ـ زكى محمد مجاهد (الأعلام الشرقية فى المائة الرابعة عشرة هجرية) ـ الجزء الرابع ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

ـ سعد الدين الزبير (القائمقام) (الزبير باشا رجل السودان) ـ الطبعة الأولى ـ شركة ستاندارد للطباعة ـ القاهرة ـ ١٩٥٢

ـ سعيد مراد (الإمام محمد عبده) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٨٩ .

ـ سكك حديد مصر فى ١٢٥عاما (١٨٥٢ ـ ١٩٧٧) ـ مطابع السكك الحديدية ـ ١٩٧٧ .

ـ شهاب الدين أبى عبد الله محمد بن ياقوت الحموى (معجم البلدان) ـ دار صادر ـ بيروت ـ بدون تاريخ ـ ج٢ .

ـ صلاح العقاد (المغرب العربى فى التاريخ الحديث والمعاصر) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة السادسة ـ ١٩٩٣ .

ـ عبد الرحمن الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) ٤ أجزاء ـ مطبعة الأنوار المحمدية ـ القاهرة ١٩٨٦ .

ـــــــــــــ (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) تحقيق حسن محمد جوهر ، عمر الدسوقى ، السيد إبراهيم سالم ـ لجنة البيان العربى ـ ٧ أجزاء ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ .

ـ عبد الرحمن الرافعى (الثورة العرابية والإحتلال الإنجليزى) ـ مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثالثة ـ القاهرة ـ ١٩٦٦ .

ـــــــــــــ (عصر إسماعيل) جزءان ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

ـــــــــــــ (مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال ١٨٨٢ ـ ١٨٩٢) الطبعة الثانية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٤٨ .

ـــــــــــــ (مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ١٨٩٢ ـ ١٩٠٨) ـ الطبعة الرابعة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٢ .

ـــــــــــــ (تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ إلى الفتح العربى) ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ .

ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (الدولة السعودية الأولى ـ ١٧٤٥ ـ ١٨١٨) ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

ـ عبد العزيز رفاعى (أحمد شفيق المؤرخ ـ حياته وآثاره) ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر ـ الدار المصرية للتأليف والترجمة ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ .

ـ عبد العزيز صالح (الشرق الأدنى القديم) ـ الجزء الأول ـ مصر والعراق ـ الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ـ ١٩٦٧ .

ـ عبد العزيز محمد الشناوى (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها) ٣ أجزء ـ دار الكتاب الجامعى ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

ـ عبد العظيم محمد رمضان (الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ .

ـ عبد الله عبد الرازق إبراهيم (أضواء على الطرق الصوفية فى القارة الافريقية) ـ مكتبة مدبولى ـ القاهر ـ ١٩٩٠ .

ـ عبد الله محمد عزباوى (عمد ومشايخ القرى ودورهم فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .

ـ عبد المنعم إبراهيم الدسوقى الجميعى (الخديو عباس الثانى والحزب الوطنى ـ ١٨٩٢ـ ١٩١٤) ـ دار الكتاب الجامعى ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٨٢ .

ـــــــــــــ (عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والإجتماعية) ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ـ ١٩٨٠ .

ـ على شلبش (الماسونية فى مصر) ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ سلسة مصر النهضة ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

ـ على مبارك (باشا) (الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة) ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة دار الكتب ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ ـ الجزء الثامن ـ والجزء الرابع عشر .

ـ على محمد بركات (السياسة البريطانية واسترداد السودان ١٨٨٩ ـ ١٨٩٩) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٧ .

ـ على محمد شلبى (المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر) ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب الجامعى ـ القاهرة ـ ١٩٨٨ .

ـ فاروق عثمان أباظة (الحكم العثمانى فى اليمن ١٨٧٢ ـ ١٩١٨) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٦ .

ـ فتحى رضوان (مصطفى كامل) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ديسمبر ١٩٧٤ .

ـ فليب جلاد (قاموس الإدارة والقضاء) ـ المجلد الخامس ـ الاسكندرية ١٨٩٦ .

ـ فيوتو (الموسيقى والغناء) ـ وصف مصر ـ المجلد الثامن ـ ترجمة زهير الشايب ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ .

ـ قلينى فهمى (باشا)(أعمال الملوك) ـ مطبعة كوستاتسوماس ـ القاهرة ـ ١٩٧٤ .

ـ لانكريه واستيف (النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية)ـ وصف مصر ـ المجلد الثامن ـ ترجمة زهير الشايب ـ مكتبة الخانجى ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٧٩ .

ـ لطيفة محمد سالم (القوى الإجتماعية فى الثورة العرابية)ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨١ .

ـــــــــــــــ (النظام القضائى المصرى الحديث ١٨٧٥ ـ ١٩١٤) مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ـ الأهرام ـ القاهرة ـ ١٩٨٤ .

ـ ليلى عبد اللطيف أحمد (الإدارة فى مصر فى العصر العثمانى) ـ مطبعة جامعة عين شمس ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

ـ ماهر حسن فهمى (محمد توفيق البكرى) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ إبريل ١٩٦٧ .

ـ محسن محمد (سرقة واحة مصرية) ـ كتاب اليوم ـ العدد ١٧٧ ـ دار أخبار اليوم ـ انقاهرة ـ ديسمبر ١٩٨٠ .

ـ محمد توفيق البكرى (بيت الصديق) ـ القاهرة ـ ١٣٢٣ هـ .

ـ محمد حرب عبد الحميد (السلطان عبد الحميد الثانى آخر السلاطين العثمانين الكبار) ـ دار القلم ـ دمشق ـ ١٩٩٠ .

ـ محمد رمزى (بك) (القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥) ـ المجلد الثانى ـ الجزء الثالث ـ القاهرة ـ ١٩٥٣ ـ الجزء الرابع ١٩٦٣ .

ـ محمد عبدالله النقيره (التأثير الإسلامى فى غربى افريقية) ـ مطابع الفرزدق التجارية ـ الرياض ـ ١٩٨٨ .

ـ محمد قاسم وحسين حسنى (تاريخ القرن التاسع عشر) ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ ١٩٣٨ .

ـ محمد متولى ومحمود أبو العلا (الجغرافيا السياسية) مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٦٨ .

ـ مكى شبيكه (مختصر تاريخ السودان الحديث) ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الثانية ـ ١٩٦٥ .

ـ ميخائيل شاروبيم (بك) (رقيب على أحداث مصر ـ حوليات مصر السياسية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٢) تحقيق ودراسة يونان لبيب رزق ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٩٢ .

ـ نجوى إبراهيم فؤاد عانوس (مسرح يعقوب صنوع) ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٨٤ .

ـ نيللى حنا(بيوت القاهرة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ـ دراسة إجتماعية معمارية)ـ ترجمة حليم طوسون ـ العربى للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

ـ هربرت أ . ل . فيشر (أصول التاريخ الأوروبى الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية) ترجمة زينب عصمت راشد وأحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الطبعة الثالثة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦١ .

ـــــــــــــــ (تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠) تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع ـ الطبعة السادسة ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٧٢ .

ـ هيلين آن ريڤلين (الإقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر) ـ ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ومصطفى الحسينى ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٦٨ .

ـ والتر هانتس (المكاييل والأوزان الإسلامية) ـ ترجمة كامل العسيلى ـ عمان ـ الاردن ـ ١٩٧٠ .

ـ ويلفريد سكاون بلنت (الأفغانى ومحمد عبده) ترجمة على شلش ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٢١ ـ القاهرة ـ يناير ١٩٨٦ .

ـ يونان لبيب رزق (الحياة الحزبية فى مصر فى عهد الإحتلال البريطانى ـ ١٨٨٢ ـ ١٩١٤)ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ .

ـــــــــــــــ (تاريخ الوزارات المصرية) بإشراف حسن يوسف ـ مركز الدراسات السياسية والإستراتيچية ـ الأهرام ـ الطبعة الأولى ـ القاهرة ـ ١٩٧٥ .

ـ البحوث والمقالات : عبد الوهاب بكر (نظام جهاز الأمن والإدارة فى مصر خلال العصر العثمانى ١٨٠٥ ـ ١٩١٤) المجلة التاريخية المغربية ـ العدد ٥٤ ـ تونس ١٩٩١ .

ـ نبيل عبد الحميد سيد أحمد (النشاط التبشيرى الأمريكى فى البلاد العربية حتى عام ١٩٢٣) . المجلة التاريخية المصرية ـ العدد ٤١ ـ ١٩٨٧ .

ب ـ المراجع الأجنبية :

الكتب :

-Adams. Francis (The New Egypt, a social Sketch) London, 1993.

- Afaf, lutfi al-Sayyid Marsot (Egypt and Cromer, Astudy in Anglo - Egyptian Relations) London - 1968.

- Barry Carmen and John Mcpherson (The Manwholoved Egypt - Bim - bashi Mcpherson) - Ariel Books BBC - London 1985.

- Charles Edward Coles (Recollections and Reflections) - The saint Catherene Press - London - 1918.

- C. J. Lowe (Salisbury and the Mediterranean . 1886 - 1896) - Rout ledge and Kegan paul - London - 1965.

- Cromer (Modern Egypt) 2. Vols. - London - 1908.

- Daniel Crecelius and 'Abd al -Wahab Bakr (Al -Damurdashi's Chronicle of Egypt. 1688 - 1755. Al -Durra Al-musana Fi Akhbar al - Kinana) - E. J.Brill- leiden - 1991.

-Esat Uras (The Armenians in History and the Armenian Question). The Istanbul Research Center - Documentary publications - Istanbul - 1988.

- F. de Jong (Turuq and Turuq Linked Institutions in 19 th Century Egypt) - Leiden - 1978.

- Gabriel Baer (Egyptian Guilds in Modern Times) - Oriental Notes and Studies - The Israel Oriental Society - Jerusalem - 1964.

-Geoffry Brun (A Survey of European Civilization) Part II- 4 th edition -Houghton Mifflin conmpany - Boston - 1964.

- Lane. Edward William (Manners and Customs of the Modern Egyptians) - London, 1860.

- Louis A. Aroian and Richard Mitchell (The Modern Middle East and North Africa)' Macmillan Publishing Company. USA - 1984.

- Meindarus, D. F. A. (Christian Egypt, Faith & Life)-Heineman: London, 1970

- Patricia Wright (Conflict on the Nile - The Fashoda Incident of 1898) - Heineman : London, 1972.

- Peter Mansfield (the British in Egypt) - Weidenfeld and Nicolson - London 1978.

- P. M Holt (Egypt and the Fertile Crescent, 1516 -1922) Cornell Universty - Ithaca and London, 1980.

- Peter Mellini (Sir Eldon Gorst - The Over Shadowed Proconsul) Stanford University. Stanford, California, 1981.

- Robert L. Tignor (Modernization and British Colonial Rule in Egypt, 1882 - 1914) Princeton University Press - Princeton Studies on the Middle East - USA 1966.

-Stanford J. Show and Ezel Kural Shaw (History of the Ottoman Empire and Modern Turkey - Vol. II. 1808 - 1975) - Cambridge University Press, Cambridge - 1977.

- Taylor, A. J. P., (The Struggle For Mastery in Europe. 1848 - 1918) London, 1971.

- T.W. Russell (Pasha) (Egyptian Service, 1902 -1946) - John Murray - London- 1949.

- William Willcocks (Sir) (Sixty years in the East) - William Blakwood and Sons Ltd - Edinburgh and London - 1935.

المقالات والبحوث

- Albert Hourani (The Syrians in Egypt in the Eigteenth and Nineteenth centuries) Colloque International Sur L'Histoire du Caire - 1973.

- Robert L. Tignor (The Indianization of Egyptian Administration Under British Rule) Middle East Journal, X V I (Spring 1962)

-Roger Owen (The influence of lord Cromer's Indian Experience on British Policy in Egypt, 1883 - 1907) St. Antony's papers - No. 17 - Middle Eastern Affairs - No. 4 - 1965.

- Steppat, Fritz (Nationalismus und Islam bei Mustaffa Kamil : Ein Beitrag zur Ideengeschichte der ägyptischen National bewegung) - Die welt des Islam - 4 - (1955).

رابعا ـ المذاكـــــرات

ـ أوراق محمد فريد (مذكراتى بعد الهجرة ـ ١٩٠٤ ـ ١٩١٩) ـ المجلد الأول ـ تحقيق عاصم الدسوقى ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٧٨ .

ـ مذكرات سعد زغلول ـ جزءان ـ تحقيق عبد العظيم رمضان ـ مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ .

ـ مذكرات عباس حلمى الثانى)عهدى ١٨٩٢ - ١٩١٤) ـ ترجمة جلال يحيى ـ مراجعة إسحق عبيد ـ تقديم أحمد عبد الرحيم مصطفى ـ الطبعة الأولى ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ ١٩٩٣ .

ـ مذكرات محمد فريد ـ القسم الأول ـ تاريخ مصر من ابتداء سنة ١٨٩١ مسيحية ـ حققه وقدم له رؤوف عباس حامد ـ عالم الكتب ـ القاهرة ١٩٧٥ .

خامسًا : الدوريـــــات

الأهرام العدد ٣٩٢٧٣ فى ١٩٩٤/٦/١٦
٣٩٣٠١ فى ١٩٩٤/٧/١٤
٣٩٣٣٠ فى ١٩٩٤/٨/١٢
٣٩٣٩٢ فى١٩٩٤/١٠/١٣

ـ المصور ـ ٢٩ يوليو ١٩٣٧
ـ ١٧ نوفمبر ١٩٤٤

الوقائع المصرية ـ ١٨٨٥/٣/٢٧ ـ ١٨٩٢/٤/١١ ـ ١٨٩٤/١١/٧ ـ ١٨٩٨/٩/٣
ـ ١٨٨٦/٦/١٠ ـ ١٨٩٢/٤/٢٣ ـ ١٨٩٤/١١/١٧ ـ ١٨٩٨/١٠/٢٢
ـ ١٨٨٧/٣/١٤ ـ ١٨٩٢/٥/٢٨ ـ ١٨٩٥/٢/٢٥ ـ ١٩٠٥/١/١٩
ـ ١٨٨٧/٩/١٠ ـ ١٨٩٤/١٠/١١ ـ ١٨٩٧/٤/١٧ ـ ١٩٠٥/١/٢١
ـ ١٨٩١/٧/٢٠ ـ ١٨٩٤/١١/٣ ـ ١٨٩٧/١٠/٤ ـ ٦٨ لسنة ١٩٢٣ ـ عدد غير اعتيادى .

- The Times. tuesday, April 17, 1906.

سادسًا ـ الرسائل الجامعية

ـ السيد على أحمد فليفل (مستعمرة الرأس البريطانية ـ ١٨٥٣ ـ ١٩١٠) رسالة دكتوراه غير منشورة ـ معهد الدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٨٣ .

ـ أمل محمد فهمى (العلاقات المصرية العثمانية على عهد الإحتلال البريطانى ١٨٨٢ ـ ١٩١٤) رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية البنات ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٩٢ .

ـ رأفت غنيمى الشيخ (سياسة إنجلترا إزاء إجلاء مصر عن السودان ١٨٨٢ ـ ١٨٨٥) رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٦٧ .

ـ عبد الرحيم عبد الهادى على (دور الخديو عباس حلمى فى السياسة المصرية ـ ١٨٧٤ ـ ١٩٤٤) ـ رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ـ ١٩٨٧ .

ـ عبد العليم إبراهيم خلاف (جهود مصر الكشفية فى أفريقيا فى عهد الخديو إسماعيل ١٨٦٣ـ ١٨٧٩) رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ١٩٨١ .

ـ عبد الله محمد عزباوى (الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر) ـ رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٦ .

ـ عبد الوهاب بكر (البوليس المصرى ١٨٠٥ ـ ١٩٢٢) ـ رسالة ماچستير غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس ـ ١٩٧٧ .

ـ محمد حسام الدين إسماعيل (وجه مدينة القاهرة من ولاية محمد على حتى نهاية حكم إسماعيل ـ ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩) ـ رسالة دكتوراه غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة أسيوط ـ ١٩٩٤ .

ـ محمد عفت سليمان (السكك الحديدية المصرية وأثرها فى المجتمع المصرى ١٨٨٢ ـ ١٩١٩) ـ رسالة ماچسيتر غير منشورة ـ كلية الآداب ـ جامعة الزقازيق ـ ١٩٩٣ .

ـ محمد محمود الرشيدى (دار فور تحت حكم على دينار) ـ رسالة ماچستير غير منشورة ـ معهد الدراسات الأفريقية ـ جامعة القاهرة ـ ١٩٧٦ .

سابعا : معاجم وموسوعات ومراجع عامة

أ ـ باللغة العربية :

ـ محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى (مختار الصحاح) ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ١٩٨٧ .

ـ منير البعلبكى (المورد) ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٨٢ .

ـ وزارة المالية ـ تقويم سنة ١٩٣٣ ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٢ .

ـ وزارة المالية ـ تقويم سنة ١٩٣٥ ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ القاهرة ـ ١٩٣٥ .

ب ـ بلغات أجنبية :

- "A Near East Studies Handbook - 570 - 1974" - University of washington press, 1964.

- "Dictionary of foreign words and phrases" - Philosophical library - Newyork, 1986.

- Larousse Universel - Tom Second - Librairie Larousse - Paris, 1922.

- Lexicon Universal Encylopedia - Lexicon publications Inc. Newyork - 1983.

- The Columbia History of the world - 8 th edition - Dorest press - USA - 1987.

- The Concise Columbia Encylopedia - Columbia University Press - New york - 1986.

- The Concise Oxford Turkish Dictionary ` Oxford - At the Clarendon Press - 1959

- Webster New Universal Dictionary - 2 nd edition - Dorset and Baber - USA - 1984.

ـ جيمس رد حاوص الإنكليزى «توركچه ـ انكليزچه لغت كتابى» يكى طبعى ـ استانبول ـ ١٩٧٨ .

ـ سليمان حييم «فرهنك كوچك فارسى ـ انكليزى» ـ فرهنك معاصر ـ طهران ـ ١٩٨٤ .

شكر

لمطبعة دار الكتب المصرية

يسعدني أن أقدم خالص الشكر للأساتذة

علي أحمد خليفة — مدير إدارة التنفيذ والطبع

أسرة المطبعة

عصام أحمد خليفة — محمد علي الشريف

محمود يونس سيد — سامي عبد الحميد

أشرف محمد عبد المجيد — أحمد حسني السروجي

رامي عاطف يونان — خالد حسين صالح

محمد فريد بدوي — علي شوقي علي

لما بذلوه من جهد في إخراج هذا العمل

دكتور عبد الوهاب بكر

EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY

Center of Documents & Contemporary
History of Egypt

AL-KĀFI

FI TĀRIKH MIṢR AL-QADĪM WAL-ḤADITH

BY

MIKHA'IL BIK SHARUBIM

Vol. V

Tom 1 - Part II

Edited by

D[r] 'ABD AL-WAHHĀB BAKR



NATIONAL LIBRARY PRESS

CAIRO

1998

AL-KĀFI

FI TĀRIKH MIṢR AL-QADIM WAL-ḤADITH

BY

MIKHĀ'IL BIK SHĀRŪBIM

EGYPTIAN NATIONAL LIBRARY

Center of Documents & Contemporary History of Egypt

AL-KAFI

FI TĀRIKH MISR AL-QADIM WAL-HADITH

BY

MIKHA'IL BIK SHARUBIM

Edited by

Dr 'ABD AL-WAHHĀB BAKR



NATIONAL LIBRARY PRESS

CAIRO

1998

